

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

تجارة مصر الفرعونية

(من أواخر الألف الرابعة إلى الألف الأولى ق.م)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم

تحت إشراف:
د / بلقاسم رحمانى

إعداد الطالبة:
الزهرة الزعبي

السنة الجامعية : 2006 - 2007

كلمة شكر

(أَشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

الحمد والشكر لله عزّ وجلّ الذي رزقنا العقل وحسن التوكل عليه سبحانه وتعالى، والذي بعونه تمكنت من إنجاز هذا العمل المتواضع.

أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الفاضل " بلقاسم رحماني " الذي أشرف وتابع هذا العمل بصبر كبير والذي قوى فيّ روح البحث بتشجيعاته لي. وأتقدم بالشكر إلى والدتي الحنون التي وقفت إلى جانبي بدعواتها ودعمها لي ، أتمنى لها الشفاء وطول العمر.

وأخيرا أشكر كل من مدّ لي يد المساعدة حتى بكلمة تشجيع.

اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع

ونفس لا تشبع

وقلب لا يخشع

ودعوة لا يستجاب لها

مقدمة:

تعدّ الحضارة المصرية (العصر الفرعوني) من أبرز حضارات العالم القديم، حيث جلبت العديد من الباحثين من مختلف أنحاء العالم، وبرز مؤرخون تخصصوا في دراستها لما تميّزت به من تنظيم في مختلف جوانبها وخلود شواهدا للآلاف السنين.

ورغم كثرة الدراسات التي قام بها هؤلاء والتي شملت كل جوانب هاته الحضارة لدرجة أصبح فيها من الصعب على باحث مبتدئ أن يجد منفذا يدخل منه و يغوص في أسرارها، إلا أنه لفت إنتباهي عدم تغطية هذه الدراسات لكل الجوانب بنفس الإهتمام، فبينما هناك إفاضة في مجالات معينة تبقى ميادين أخرى لم تحض بالنصيب الكافي من البحث. وعلى سبيل المثال فإن الحياة الدينية ألف فيها الكثير من الكتب على نقيض الجانب الإقتصادي الذي لم يلق هذا القدر من الإهتمام من قبل المختصين وتحديدًا الشقّ التجاري منه، كون مجالي الصناعة والزراعة قد درسا بشكل أوفر، حيث لم أجد دراسة موسّعة ومهمّة تناولت التجارة المصرية ماعدا ما جاء في بعض الدراسات، والذي لم يكتسي طابع التخصص بل أتى في إطار مواضيع أشمل، أو من خلال إشارات تلامس موضوع التجارة في نقاط محددة، بل إنني لم أجد دراسة تتكلم عن المصريين كبخّارة أو تجار على غرار ما وجدته في الدراسات التي تناولت الفينيقيين والعرب والإغريق وكذا شعوب بلاد ما بين النهرين وغيرهم من شعوب العالم القديم. وأبعد من ذلك يذكر أصحاب هذه الدراسات بأن كل شعوب العالم مارست التجارة بإستثناء المصريين حيث نفوا عنهم هاته الصفة. وإنطلاقا من هذا قررت أن تكون هاته المسألة موضوع بحثي والذي أدرجته تحت عنوان: «**تجارة مصر الفرعونية (من أواخر الألف الرابعة إلى الألف الأولى قبل الميلاد)**».

في حقيقة الأمر، معالجة إشكاليات هذا الموضوع تدفعني إلى طرح جملة من التساؤلات منها : ما الذي أدّى إلى الإعتقاد بأن المصريين لم يكونوا تجارا ؟، هل لأن التجار لم يشكلوا طبقة إجتماعية مميزة داخل المجتمع على غرار المجتمعات الأخرى المعاصرة لهم ؟، هل فعلا لم توجد هذه الطبقة في المجتمع المصري القديم ؟، هل السبب يكمن في عدم وجود قوانين خاصة بالتجارة كتلك التي وجدت في بلاد ما بين النهرين ؟، هل لأنّ مصر كانت تعرف إكتفاء ذاتيا، على حدّ قول بعضهم، ولم تكن بحاجة لسلع الغير ؟، أم لكون العزلة والإنطواء على الذات التي وصف بها البعض مصر جعلها هذه الأخيرة تعزف عن التعاطي التجاري ؟، وهل حقا كانت مصر منعزلة ومنطوية داخل ذلك الشريط الضيّق لوادي النيل ؟، هل السبب هو كون مصر كانت تتجنب البحار ولم تكوّن لنفسها أسطولا تجاريا كما فعل الإغريق والفينيقيون والعرب ؟.

إن كان ذلك صحيحا فبماذا نفسّر المخلفات الأثرية على مختلف أنواعها والتي تعطينا فكرة عن مدى إهتمام المصريين بالملاحة وتفوّقهم في بناء السفن ؟، أو لأن سلع المبادلات بين مصر ومحيط الجوار الجغرافي، التي يعتبرها المختصّون سلع ترف، لا يجوز إدراجها ضمن النشاطات التجارية ؟، وهل هي بالفعل كذلك ؟، أم لأن هناك وسطاء أوحوا بعدم وجود تجارة مصرية ؟، ألهذا الحد نفى هؤلاء دور مصر التجاري ؟، أم أن الحقيقة ليست كذلك ؟، فمن هم أصلا هؤلاء الوسطاء ؟، و ما حقيقة الدور الذي لعبوه ؟. و هل فعلا لم تعرف مصر – على حد تعبير بعضهم – طرقا تجارية و لم يفعل الفراعنة شيئا من أجل تأمينها و بالتالي لم

يهتموا بالتجارة ككل ، التي إزدهرت و أعتني بطرقها إلا في العصر الإغريقي؟، هل لأن السبب يعود لكون
تجارة مصر لم تلعب دورا في نقل تأثيرات حضارية مثلما فعلت تجارة الشعوب الأخرى؟، و
هل...؟ و هل ...؟ . تلكم إشكاليات وتساؤلات طرحتها و ناقشتها ضمن خطة البحث التي قسّمتها إلى مدخل و
ثمانية فصول.

عرضت في المدخل المصادر التي تمدّنا بالمعلومات عن موضوع الدراسة وأعطيته عنوان: " مصادر
الدراسة " ، وتشمل الآثار بنوعها المادية والكتابية المصرية منها والأجنبية عبر مختلف الأماكن التي وجدت
بها سواء داخل مصر أو خارجها، إضافة إلى المصادر الكلاسيكية الإغريقية والرومانية دون أن أنسى الكتب
المقدسة: القرآن الكريم والتوراة ، و هي في عمومها مصادر تتناول تاريخ مصر القديم ككل، إلا أنني ركزت
بالطبع على تلك التي لها علاقة بموضوع البحث، حيث رأيت في التطرق إليها ضرورة حتمية للتعرف على
قيمة ما قدمته من وثائق تفيد في إيضاح بعض الأمور، وكذلك عن مدى مساهمتها في تكوين صورة حقيقية عما
كانت عليه أحوال التجارة المصرية خلال عصر مصر الفرعونية، وحقيقة ما إذا كانت هذه المصادر قد أوّحت
فعلا للمختصّين بإصدار أحكامهم على هذه التجارة، أم أنهم إستقوا ذلك من مقارنات أجروها على شعوب
أخرى ويكونون بالتالي قد إنتقصوا من قيمة ما تحتويه المصادر ولاسيما الأثرية منها، أو أنهم كذلك لم
يدرسوها بالقدر الكافي. و على كل فإن ما لهذه المصادر وما عليها تضمنه هذا المدخل الذي شمل عدة نقاط
ختمتها بملاحظات حول هذه المصادر.

و جاء الفصل الأول تحت عنوان: " عوامل قيام الصلات التجارية بين مصر و محيطها الخارجي " ،
حيث إعتبرت هذه الصلات قاعدة لإنطلاق التجارة و حدوث التبادلات التجارية، فالعنصر الأول يتضمن
الإشارة إلى موقع مصر ومميزاته وكذا دوره في تسهيل المبادلات، تطرقت بعدها إلى الشرط الثاني وهو
الإكتفاء الذاتي وتحدثت فيه عن وفرة الإنتاج الزراعي وعن الدور الذي لعبه في مصر لدرجة أن الحضارة
المصرية وصفت بالزراعية، ولم تكن غايتي في هذا دراسة الزراعة في حد ذاتها لأنها وحدها تكوّن موضوعا
يتطلب دراسة خاصة، ولكن كان الغرض من ذلك الدلالة على الإكتفاء الذاتي الذي حقّقته مصر في هذا
المجال، وتوفر بذلك الشرط الثالث متمثلا في حاجة الآخرين إلى مزروعات مصر، وكانت هذه الأخيرة تزود
الشعوب المجاورة بمختلف المنتجات الزراعية وبخاصة القمح وكان يتم ذلك من فائض الإنتاج. هذا ولم
ينحصر الإكتفاء الذاتي في الزراعة فقط بل تعدّاها إلى الصناعة التي خصّصت لها العنصر الثالث الذي ألقيت
من خلاله الضوء على بعض الصناعات التي كان لها دور هام في المبادلات التجارية ، خصوصا ونحن نعلم
مدى الإرتباط الوثيق بين الصناعة والتجارة حتى في عصرنا الحالي، حيث نجد أن معظم السلع المتبادلة هي
عبارة عن مواد مصنعة. وهناك عنصر أخير في هذا الفصل أردت من خلاله التحدث عن حاجيات مصر إلى
المنتجات الأجنبية لم توفرها لها الطبيعة وكانت متوفرة في مناطق الجوار الجغرافي وشكلت عاملا مهما في
تحريك التجارة.

أما الفصل الثاني من الدراسة فقد حمل عنوان: " الحركة التجارية داخل مصر " ، العنصر الأول من هذا
الفصل يعطي لمحة عن المبادلات التجارية قبل العصر الفرعوني، أي الفترة الأخيرة من مرحلة ما قبل التاريخ

(عصر ما قبل الأسرات) وذلك لإدراك البعد الزمني للحركة التجارية التي كانت تعرفها مصر ثم إنتقلت إلى الكلام عن الحركة التجارية داخل الأسواق، وهذا العنصر قسّمته إلى عناصر فرعية بدأتها بالتعريف بالأسواق، فأعطاه صورة عن حال هذه الحركة التجارية، ثم الحديث عن المراكز التجارية التي تحولت إلى مدن لأختمها بالتطرق إلى أماكن تخزين السلع. تناولت فيما بعد طبيعة المبادلات التجارية في عنصر مستقل والذي بدّأته بالكلام عن المقايضة التي كانت أساس المبادلات التجارية الداخلية منها والخارجية لأعرج بعد ذلك على ذكر النقود ودورها في هذه المبادلات وكذا وحدات قياسها والإصلاحات التي مستّها مع التطور الذي حدث عليها. وهذا الموضوع يقودني إلى الحديث عن جانب مهمّ في التجارة ألا وهو الجانب القانوني والذي عالجته في عنصر خاص تحت عنوان: " التنظيم التجاري " تمت تجزئته إلى : القوانين التجارية ، و مراقبة الحركة التجارية داخل الأسواق و في الموانئ و عند الحدود ، يلي ذلك عنصر الإحتكار التجاري في مصر وهو ضمن الإشكاليات التي طرحتها فيما سبق أي مكانة التاجر الإجتماعية، والميزة الهامة في التجارة المصرية وهي إحتكار الملك للتجارة ومن خلاله أبرزت دور الملك المالك لكل شيء.

بعد هذا العرض إنتقلت إلى موضوع ميّز التجارة المصرية ومسّ علاقته مع محيط الجوار الجغرافي، وهو إرسال البعثات إلى تلك المناطق وكانت تتم بصفة منظمة مع التخطيط المسبق لها. وخصّصت لهذا الموضوع فصلا عنوانته بـ: " البعثات التجارية "، وقسّمته إلى ثلاثة عناصر، شمل العنصر الأول الكلام عن البعثات التجارية في البحر المتوسط والتي جرّأتها إلى ثلاثة مجموعات: المجموعة الأولى تنتمي إلى الدولة القديمة والثانية تلك التي جرت إبان الدولة الوسطى، أما الأخيرة فهي تعود إلى الدولة الحديثة ، أما العنصر الثاني ضمّ البعثات التجارية التي أرسلت عبر البحر الأحمر وقسّمته على نفس المنوال، وتناولت في العنصر الثالث البعثات التجارية البرية - النهرية نحو عمق القارة الإفريقية، ولم أقتصر دراستي على إحصاء هذه البعثات بل أعطيت تعريفا للمناطق التي كانت توجه إليها وكذا السلع المتبادلة بين الطرفين.

ومن خلال الفصل الرابع الذي يحمل عنوان : " تنظيم البعثات التجارية " تحدثت عن ثمره تلك البعثات وهي البعثة المشهورة المعروفة بالطواف حول القارة الإفريقية بحرا، والتي دار حولها جدال كبير بين من نفاها ومن أيّدها. و رغم كل ما ذكرته عن هذه البعثات، رأيت أن الأمر يظل ينقصه الكثير ما لم أحاول معاشة هذه البعثات عن قرب وأتبع خطوات سيرها بدء من التحضير لها والإشراف عليها وكذا الطقوس الدينية المرافقة لها ذهابا وإيابا وكيفية إجراء المبادلات ودور الدبلوماسية في تسهيل العمليات التجارية وغيرها من التفاصيل.

و خصّصت الفصل الخامس لـ : " دور الوسطاء في التجارة المصرية " حيث أردت من خلاله طرح إشكالية مساهمة الطرف الآخر في هذا النشاط ومعرفة دور الشعوب المجاورة فيه، وقد قسّمت هذا الفصل إلى عدد من العناصر بدء بالحديث عن دور الوسطاء الجنوبيين في تجارة مصر ثم إبراز دور شعوب غرب النيل كوسطاء، وكذا الدور الذي لعبته شعوب جنوب فلسطين، بعدها تعرضت لدور الفينيقيين الذين كان لهم طابعا مميّزا في التجارة المصرية دون أن أنسى الكلام عن دور شعوب بحر إيجا ثم العرب الذين ذاع صيتهم كتجار كبار بين شعوب العالم القديم. بعد كل هذا بدر إلى ذهني هذا التساؤل: هل يمكن كذلك إعتبار المصريين وسطاء تجاريين ؟ والإجابة تضمنها آخر عناصر هذا الفصل.

و مثلما يُلاحظ لم أتطرق إلى الطرق التي تعدّ عاملاً من عوامل قيام الصلات التجارية في الفصل الأول مع بقية الشروط، ولأهمية هذه المسألة وتشعبها فضلت أن أفرد لها فصلاً خاصاً وهو الفصل السادس الذي يحمل عنوان: " الطرق التجارية " و قد شمل خمسة عناصر. بدأتها بالكلام عن الطرق النهرية والمتمثلة في نهر النيل كطريق إتصال و كذا فروعها. أما العنصر الثاني فقد خصصته للقنوات المتصلة بالنيل في الشمال والجنوب، و من خلال العنصر الثالث تكلمت عن الطرق البحرية والتي أعني بها الطرق التي تردّد عليها المصريون عبر البحرين المتوسط والأحمر، وتضمن العنصر الرابع الموانئ بمختلف أنواعها النهرية منها و البحرية ، أما العنصر الخامس تناولت فيه الطرق البرية وهي عديدة ، منها: دروب في الشمال الشرقي عبر شبه جزيرة سيناء، دروب الصحراء الشرقية، دروب عبر واحات الصحراء الغربية وأخيراً الدروب الجنوبية. و تناولت في الفصل السابع موضوع " نظام حماية الطرق التجارية " ، و هي مسألة جد هامة رأيت أن أتطرق إليها أمر أساسي لتوضيح أمور عديدة لها صلة وثيقة بالطرق التجارية، إلا أنني فضلت أن أفرد لها فصلاً خاصاً لضرورة منهجية. و قد قسمت هذا الفصل إلى ثلاثة عناصر تناولت في الأول منها وسائل النقل التي اعتمدت في مصر خلال العصر الفرعوني ، و هي على نوعين وسائل برية و أخرى مائية. و في العنصر الثاني تكلمت عن نظام حماية الطرق البرية ، الذي يشتمل على وسائل متنوعة و المتمثلة في الحملات العسكرية التي كان يرسلها الملوك قصد تأمين الطرق، و لم يكتفوا بذلك بل دَعَمُوا هذا العمل بإنشاء ما يعرف بالحصون والأسوار في النقاط الحساسة من حدودهم وعلى مستوى أهم الطرق التجارية وقد عزّزوها بنقاط حراسة ثابتة ومتحركة، لأن تلك التحصينات لم تكن كافية لوحدها لتأمين الطرق دون تدعيمها بفرق للحراسة منتشرة في مواضع عدة على الطرق، وشمل حديثي في هذا السياق حراسة القوافل التجارية لأختتمه بالكلام عن الإجراءات الأخرى التي اتخذت لتأمين الطرق التجارية وأعني بها حفر الآبار وتهيتها للبعثات . و جاء العنصر الثالث ليلقي الضوء على أخطار الملاحة التجارية و كيفية تفاديها ، و تتمثل هذه الأخطار في شينين : الطبيعة و القرصنة. كما عالجت في هذا العنصر نظام حماية الملاحة التجارية و طرقها، و الذي شمل بدوره عدد من المسائل.

و أعطيت الفصل الثامن والأخير عنوان: " دور التجارة في إيصال التأثيرات الحضارية " ، بداية قمت بتوضيح العلاقة الثنائية الوطيدة والمتلازمة بين التجارة والتأثيرات الحضارية في ذلك العصر، و كنموذج لها التجارة المصرية، بعدها تكلمت عن دور التجارة في ثراء الحضارة المصرية من خلال جملة من الجوانب لأننقل إلى الحديث عن التأثيرات الحضارية التي مسّت مصر إنطلاقاً من الخارج، بعد ذلك أعطيت نماذج عن تأثير الحضارة المصرية على مناطق الجوار الحضاري، بما فيها بالطبع فضل التجارة في إنتشار الكتابة ، و هذه المسألة أفردت لها عنصراً خاصاً كان خاتمة لهذا الفصل.

وبهذا أكون قد أنهيت دراسة جوانب موضوع البحث والتي حللت من خلالها الإشكاليات التي كنت قد طرحتها لأتوصل إلى إستنتاجات و خلاصات تضمنتها خاتمة البحث التي شملت عدة نقاط.

بعد هذا العرض لعناصر خطة البحث أصل الآن إلى الحديث عن أهم المراجع المعتمدة، وتفادياً للتكرار فسأتجنب ذكر المصادر حيث كنت قد ذكرتها ضمن المدخل من خلال عرض ما جاء فيها و أهميتها في

موضوع الدراسة . وكما سبق وأن ذكرت فإنني لم أعثر على دراسة شاملة ومعقدة لكل جوانب الموضوع و كل ما عثرت عليه أبحاث مقتضبة هنا وهناك، و بالتالي فإن كل المراجع التي إعتدتها لم تتناول سوى الجزء البسيط من الموضوع وبصورة غير مفصلة، وأحيانا كثيرة ضمن إطار الكلام عن علاقة مصر بجيرانها، وحتى الذين كتبوا عن الجوانب الحضارية من تاريخ مصر الفرعونية لا أرى أنهم أعطوا التجارة وزنها الحقيقي كما كان عليه الحال بالنسبة لجوانب أخرى، وأجد أحيانا أخرى بعض من كتبوا عن هذا العنصر يدرسونه على نحو يبرز جليا تركيزهم على الجوانب السياسية والعسكرية ويخوضون في مجالات أخرى دون إعطاء أدنى إهتمام للجانب التجاري حيث يتجاهلونه في العديد من الأحيان. رغم ذلك تمكنت من إستقاء بعض المعلومات ولو كانت شحيحة، وفي المقابل عثرت على بعض المراجع التي كانت قريبة جدا من الموضوع وكانت إستفادتي منها أكبر، أذكر منها كتاب ألفه " ديكمانس (G.Dykman) بعنوان: " Histoire économique et sociale de l'ancienne Egypte " جاء في ثلاثة أجزاء، تناول الأول الحقبة من البدء إلى العصر الثني "Des origines aux thinites" ، الجزء الثاني يحمل عنوان: "الحياة الإقتصادية خلال الدولة القديمة " La vie économique sous l'ancien Empire " ، أما الثالث فقد عالج الحياة الإجتماعية: " التنظيم الإجتماعي خلال الدولة القديمة " L'organisation sociale sous l'ancien Empire " ، إعتدت في الدراسة على الأجزاء الثلاثة لكن الجزء الثاني نال القسط الأوفر من الإهتمام.

ورغم فائدة هذا الكتاب إلا أن المعلومات التي أتى بها إقتصرت على فترة محددة وهي الدولة القديمة كما يمكن إعتباره قديما نوعا ما من حيث التأليف بالنظر إلى الإكتشافات الحديثة التي حدثت ومازالت تحدث.

كما إعتدت على كتابات " بيرين (J.Pirenne) منها ثلاث مقالات نشرت في دورية : " Recueils de société Jean Bodin " ، الأولى تناولت قانون الأجانب في مصر القديمة " Le statut de l'étranger dans l'ancienne Egypte " و الثانية درست المدن في مصر القديمة " Les villes dans l'ancienne Egypte " ، إلا أنهما بدورهما تعدان رغم أهميتهما قديمتان في ظلّ التطورات التي حصلت في مجال الأبحاث، ولقد وجدت فيهما بعض المعلومات التي لم تكن في المراجع الأخرى لكن الشيء الذي قلص من حجم الإستفادة منهما هو كونهما جاءتا مختصرتين. أما الوثيقة الثالثة تحمل عنوان : " Yeut-il des foires dans l'ancienne Egypte? " ، تناول فيها صاحبها التجارة بشكل عام في مختلف مراحل العصر الفرعوني ، و هي تعد الدراسة الوحيدة التي عثرت عليها بخصوص التجارة المصرية ، إلا أنها كانت جد مختصرة ، و عبارة عن عموميات ، و مع ذلك فقد أفادتني في نقاط محددة. و أثناء إطلاعي على هذه الوثيقة إستوقفتني في الصفحة 17 العبارة التالية : بأن ملك قبرص كان خلال الدولة الحديثة يزود ملك مصر بالمعادن و الأخشاب مقابل حصوله على الفضة و الزيت من مصر ، و هو ما جاء في قوله : " Le Roi d'Alasia livre au Roi d'Egypte des métaux et du bois contre de l'argent et de l'huile " . بالفعل كانت قبرص تزود مصر بالمعادن و يحتمل أيضا بالأخشاب ، لكن من خلال ما إطلعت عليه من وثائق لم يحدث أن كانت مصر تصدر الفضة و الزيت ، و هو ما سيتضح من خلال دراستي لموضوع البحث، لأن الفضة و الزيوت كانت من حاجيات مصر ، فكيف تكون مصدرا لها ، و هو أمر يؤاخذ عليه، فإن كان يقصد بأن مصر خلال تلك المرحلة كانت لها نفوذا إقتصاديا على المناطق

الساحلية الشرقية للبحر المتوسط في قارة آسيا و أن ما تجلبه من هناك يمكن أن تعيد تصديره إلى مناطق أخرى مثلما تفعل مع سلع الجنوب ، فإنه كان عليه أن يوضح ذلك بصورة أدق حتى لا يفهم من عباراته ما هو مخالف للواقع. أو أنه كان مجرد ناقل لمعلومات من مرجع إعتد عليه ، وهو ما يتضح من هامش الصفحة التي تذكر أنه أخذ عن كتاب : " Die El – Amarna Tafeln , I " للمؤرخ الألماني " Knudtzon " ، و في هذه الحالة كان عليه أن يقوم بنقد هذا الخطأ الفادح ، لأن الأدلة التاريخية والأثرية تثبت أن كل تلك المواد كانت تدخل مصر و لا تصدر منها.

و هناك مرجع آخر لنفس المؤلف حول الحضارة المصرية يحمل عنوان: " Histoire de la civilisation de l'Egypte ancienne " الذي نشره سنة 1929، وهو كتاب ضخّم تناول فيه صاحبه بالتفصيل كل مراحل العصر الفرعوني من مختلف الجوانب الحضارية، وجاء فيه الكلام عن الجانب الإقتصادي خلال كل الفترات لكن ما تعلق بالتجارة كان مختصرا.

هناك أيضا مرجع لـ: " هنري " (D.M.J. Henry) بعنوان " l'Egypte pharaonique ou histoire des institutions des égyptiens sous leurs Rois nationaux "، إعتمدت على الجزء الثاني منه و الذي خُصّص قسما كبيرا منه للجانب الإقتصادي، ولو أنه ألف قديما (نشر سنة 1846) إلا أنني عرفت كيف أستفيد منه سيما فيما يتعلق بالطرق والتفاصيل التي تخص التجارة والمقايضة وما إلى ذلك. إلا أنه يطرح أفكار و نظريات تقزم من قيمة التجارة المصرية خلال العصر الفرعوني ، و يجعل إرتباط رواجها و إزدهارها بمجئ الإغريق.

وأذكر من المراجع كذلك كتابات "جيمس هنري برستيد" إحداها بعنوان: " Histoire de l'Egypte depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête persane " الجزء الأول منه، وكذا الكتابين المترجمين إلى اللغة العربية وهما " إنتصار الحضارة، تاريخ الشرق القديم " و الذي ترجمه "أحمد فخري" والثاني "العصور القديمة" ترجمه "داود قربان"، وعلى الرغم من قدم مؤلفاته التي تعود إلى الثلث الأول من القرن الماضي إلا أنها حوت بعض التفاصيل حول العمليات التجارية داخل الأسواق وكذلك حول بعض الصناعات، الشيء الذي لم يوجد في كثير من المؤلفات، ومع ذلك فإن فائدتها محدودة بالنسبة لموضوع الدراسة.

ومن المؤرخين الذين كتبوا كثيرا عن الحضارة المصرية وخصّصوا فصولا مهمة للجانب الإقتصادي ، أذكر منهم على سبيل المثال "جون ولسون" (John A. Wilson)، حيث إعتمدت على مؤلفه: " L'Egypte vie et mort d'une civilisation " قدم له "جورج بوزنر" ، وقد نشر سنة 1961، وكذلك "دوماس" (François Daumas)، الذي إعتمدت على كتابه: "La civilisation de l'Egypte pharaonique" الذي نشر سنة 1965. وأذكر أيضا "هرمان ورائكه" (A. Herman et H. Ranke) و كتابهما: " La civilisation égyptienne " نشر سنة 1963، و " فوثييه" (Henri Gauthier) الذي كتب عن مصر الفرعونية " l'Egypte pharaonique " ضمن العمل الكبير الذي يحمل عنوان: " Précis de l'histoire d'Egypte " ، ومع أن هذا المؤلف يعدّ مختصا في العصر الفرعوني إلا أنني لم أجد في كتابه هذا ما يتعلق مباشرة بموضوع دراستي. ولا أنسى أيضا "موريه" (A. Moret) الذي له عدة كتابات عن مصر منها: "Le Nil et la civilisation égyptienne".

هناك كتابات أحدث ألفت بدورها من قبل مختصين في تاريخ مصر القديم، منهم: "Arne Eggebrecht" الذي ألف عملا يحمل عنوان: " l'Egypte ancienne, 3000 ans d'histoire et de civilisation au royaume des Pharaons " (سنة 1997)، والمؤرخ "هورنونغ" (Erik Hornung): "Lecture de l'histoire égyptienne" الذي ترجم من اللغة الألمانية من قبل: "Denis Trierveilles" ونشر سنة 2000، وكذلك إعتمدت على كتاب "فريمال" (Nicolas Grimal) بعنوان "Histoire de l'Egypte ancienne" نشر سنة 1988. والملاحظ أن هذه المؤلفات رغم وضعها لفصول خاصة بالجانب الإقتصادي إلا أنها لم تحمل الجديد فيما يتعلق بموضوع الدراسة وكان الأبحاث لم تأت بالجديد في هذا المجال.

ثمة مجموعة من المراجع درست فترات محددة من العصر الفرعوني ومنها مؤلف "بيار مونتية" (Pierre Montet) الذي يحمل عنوان: " La vie quotidienne en Egypte au temps des Ramsès 1300-1100 " وكذلك مؤلف: "The Navy of the eighteenth Egyptian dynasty" لصاحبه: "Torgny Saive-Soderbergh" ورغم قدمهما كونهما نشرتا سنة 1946 ، إلا أنه تمت الاستفادة منهما في حدود الفترة التي تناولها وخاصة المؤلف الأخير منهما.

و لكي أذكر دراسات أحدث من ذلك أتكلم عن مراجع "لالوات" (Claire Lalouette) وهي كلها متخصصة في العصر الفرعوني منها: "La littérature Egyptienne" (1981) و "L'Empire des Ramsès" (1985) و "Thèbes ou la naissance d'un Empire" (1986) وكلها كانت لها فائدة بالنسبة للموضوع في نقاط محددة.

هناك قسم آخر من المراجع تناول مواضيع أخرى وعن مناطق غير مصرية ومع ذلك إعتمدت عليها بقسط كبير وذلك بالنظر إلى أهمية مضمونها، حيث وجدت فيها ما لم أجده في المؤلفات الخاصة بالعصر الفرعوني، و أذكر منها كتاب "بيرار" (Victor Bérard): "Les Phéniciens et l'Odyssée" في جزئه الثاني الذي يحمل عنوان: "البحر الأحمر والبحر المتوسط" و رغم قدمه حيث نشر سنة 1927 إلا أنه تضمن تفاصيل هامة لها صلة بالكثير من العناصر التي تطرقت إليها. ونفس الشيء مع المؤلفات التالية: "De la marine antique à la marine moderne" (1935) لصاحبه: "C^T. Lefebvre des Noëttes" و كتاب "Les Empires de la mer" (1962) لصاحبه: "Attilio Gaudio" وكذلك كتاب: "Les marins de l'antiquité (Explorateurs et combattants sur la méditerranée-d'autrefois)" (1961) للمؤلف: "Lionel Casson" و كتاب: "Les premiers marchands des mers" للمؤلف: "Maithand A. Edey" و الذي ترجم من الإنجليزية من قبل " Simon Noireaud" ونشر بين سنتي 1974 و 1976 وإستفادتي من هذه المعلومات لم تكن كلها مباشرة بل كانت أيضا من خلال وجهات النظر المعاكسة أي طرح الرأي والرأي المعاكس، لكن المرجع الأخير منها يذكر بصراحة بأن المصريين كانوا أول التجار والملاحين وهو أمر لم أكن أتوقع أن يتضمنه مثل هذا الكتاب لأنني كنت أعتقد في بداية قراءتي له أنه كان يركز على الفينيقيين والإغريق.

و قد إعتمدت أيضا على مؤلف "فودمييه" (Jean Gaudemet) الذي يحمل عنوان: "Institution de l'Antiquité" و قد نشر سنة 1982 ، و رغم أنني أعتبره من المنصفين للتجارة المصرية لأنه أقرّ بأن مصر عرفت إقتصادا مفتوحا بصورة موسعة و نشاط حرفي متنوع و تجارة طويلة المسافات ، و أن تجارتها

مورست منذ العصور القديمة جدا ، و قد تكلم في الصفحة 58 عن التجارة التي تعود إلى الدولة القديمة ، إلا أنه لفت إنتباهي في نفس الصفحة وجود تناقض في كلامه حين يُصرح بأن النشاط التجاري كان محدودا خلال هذه الدولة في منطقة الجنوب . يبدو أنه وقع في خلط و نسي أن مصر في تلك المرحلة عرفت الوحدة و لم تعد مقسمة إلى مصر السفلى و مصر العليا.

بالإضافة إلى كل ذلك إعتمدت على العديد من الدراسات التي نشرت في المجلة الشهرية "Archéologia" كونها دراسات حديثة مقارنة بالمؤلفات التي كتبت في النصف الأول من القرن الماضي من جهة ، و أيضا لأنها جاءت عبارة عن أبحاث ميدانية ومركزة من جهة أخرى. ومع أنها في مجملها دراسات تتعلق بالملاحة إلا أنها تمس الموضوع ولو في جزء منه، ولا يتسع المجال هنا لذكرها كلها ، لذلك سأشير إلى واحدة منها لأن فائدتها كبيرة رغم إختلافها عن المجموعة من حيث الموضوع وهي الدراسة التي تحمل عنوان: " Les pistes de l'or égyptien " للمؤرخ " فركوته (Jean Vercoutter) و التي نشرت سنة 1997 العدد 337.

وعن المراجع العربية فإنها تمس الموضوع من بعيد وتحتوي على إشارات مقتضبة، ومع ذلك فقد إعتمدت على جملة من الكتب ألفها "محمد بيومي مهران" المختص في العصر الفرعوني، ولم تبلغ إستفادتي منها مقدار ما تصورته عنها قبل تصفحي لها حيث كان تركيزها ينصب أكثر على الجانب السياسي وبعض المجالات الأخرى دون الإقتصاد و بالأخص التجارة التي كان حظها ضعيفا، إضافة لكونها تميزت بالإسهاب والتكرار، و رغم ذلك وجدت الإعتماد عليها أمرا ضروريا.

كما إعتمدت على بعض من دراسات " أحمد فخري " الذي يعتبر من عمداء علم المصريات ، منها كتاب " مصر الفرعونية " و كتاب حول " واحات مصر " و كذلك دراسة تناولت " الصحراوات المصرية " و قد وجدت فيها ما يفيد الموضوع لكن ليس بالصورة المرجوة منها ، فمثلا كتابه عن مصر الفرعونية كانت طريقة دراسته لهذا العصر لا تختلف عن الطريقة التي تناول بها مثلا " دوماس " أو " ولسن " أو إرمان و رانكيه " الحضارة المصرية ، لذلك لم يعط الجانب التجاري الإهتمام الكافي.

على كل هناك مراجع أفادت الموضوع ولو بصورة ضئيلة منها كتاب: " مصر والعالم القديم " لـ "عبد الفتاح محمد وهيبه " و كذلك " مصر أصل الحضارة " لـ : " سلامة موسى " و "مصر أيام الفراعنة " لـ : " محمد الخطيب " والذي نشر حديثا سنة 2001.

وأهم الدراسات العربية الحديثة هي بالطبع التي أنجزها "عبد المنعم عبد الحليم سيّد" والتي شملها كتابه "البحر الأحمر وظهيره في العصور القديمة" ونشر سنة 1993. هذه الدراسات تركز أساسا على منطقة البحر الأحمر إلا أنني عثرت في جانب منها على ما يفيد في موضوع دراستي، سيما و أن صاحبها قاد بعثة أثرية إلى هذا البحر وأسفرت عن إكتشافات قيّمة مسّت البعثات التجارية في البحر الأحمر والعثور هناك على ميناء يعود إلى العصر الفرعوني، وفي هذا الصدد أذكر أيضا كتاب "الدور المصري في جنوب شبه الجزيرة العربية" لـ: " بلقاسم رحمانى " و " حروفش مدني " ، و هو بدوره يعتبر دراسة حديثة إستفدت منها في بعض المسائل.

وقد عثرت على مؤلف يحمل عنوان "تاريخ توت عنخ آمون"، و الملفت للإنتباه هو أن صاحبه رمز لإسمه بـ: "ن.ي"، فهذا الكتاب يعد كما ذكر في مقدمته بحثاً أثريا في عادات وأخلاق وصناعة وتجارة قدماء المصريين في عصر "توت عنخ آمون"، و بالفعل وجدته كذلك مما ساعدني على تصور بعض مظاهر التجارة في ذلك العصر على نحو أكثر واقعية، و مثل هذا الأمر لم يتسنى لي من خلال الكثير من المراجع الأخرى.

ولا يتسع المجال لذكر جميع المراجع لكن أود التعرض قبل الختام إلى بعض المقالات التي نشرت في الدوريات وكانت جدّ هامة، منها: "الصلات التجارية بين مصر وسورية منذ عصر ما قبل الأسرات حتى نهاية الدولة القديمة (2280-4000 ق.م)" لـ "محمود عبد الحميد أحمد" في مجلة: "دراسات تاريخية" سنة 1985 العددان 19 و 20، و كذلك مقال لـ: "أحمد حامدة" بعنوان: "التجارة الكنعانية (الفينيقية) في البحر المتوسط" والذي نشر في نفس الدورية سنة 2001 العددان 73-74. وهناك دراسة تعود إلى مؤلفها "بشير زهدي" بعنوان: "لمحة عن الأحجار الكريمة والجواهر القديمة" في مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد الرابع عشر سنة 1961، والذي يبدو للوهلة الأولى بعيدا عن موضوع الدراسة لكن في حقيقة الأمر العكس صحيح، بما أنه يبرز أهمية ودور هذه البضاعة في التجارة وكذا دور المبادلات التجارية في نقلها إلى أبعد الأماكن وتهافت الطلب عليها خاصة من قبل الفراعنة. هذا وقد قمت بإستخلاص بعض المعلومات من مجموعة من المراجع العامة التي لها علاقة بالموضوع وكذلك من بعض الموسوعات والقواميس و الأطالس.

وإثراء لموضوع الدراسة فإنني إعتمدت على وسائل إيضاحية، رأيت أن تضيفها أمر حتمي خصوصا وأن طبيعة الموضوع تتطلب ذلك، بل أن كل جانب من جوانبه يحتاج على الأقل لوسيلة من تلك الوسائل، وحتى أتجنب إثقال الدراسة، خصوصا وأنها طويلة نوعا ما، فإنني فضلت الإعتماد على وسيلتين إيضاحيتين هما: الخرائط والجداول، فقد قمت بإنجاز ثلاثة جداول حوصلت فيها ما درسته في كل عنصر من العناصر الثلاثة في الفصل الثالث، ومجموعة من الخرائط توزعت بين الفصول: الأول، الرابع والسادس، وهذا الأخير أدرجت فيه العدد الأكبر منها تماشيا مع ما تناولته من معلومات كان لا بد من توضيحها عمليا، وهذه الخرائط جاءت في أغلبها بتصرف مني لأنني أضفت إليها أشياء وحذفت أخرى، لأحصل في النهاية على خريطة تتماشى وتتطابق مع تحليل المعلومات وليكون توظيفها يخدم الموضوع المراد توضيحه. كما أنني قمت بوضع فهرسا للأعلام و ثان للأماكن وآخر للديانة، لأنني رأيت أن هذا الأمر ضروري لما يزخر به موضوع البحث من عديد الأسماء والمواقع.

وبطبيعة الحال لا يخلو أي بحث من صعوبات، أولها عامل الزمن الذي لا يكفي لإنجاز بحث بهذا المستوى العلمي خصوصا وأنّ الموضوع يتناول مسائل متشابكة وكل نقطة فيه تدور حولها تناقضات. ومن الصعوبات أيضا كون هذا الموضوع في حدّ ذاته يتطلب معاينة جوانب منه عن قرب أي الإطلاع على الأبحاث الحديثة مكان تواجدها وكذا معاينة المصادر الأثرية ومثل هذا الشيء يولد الشعور بالمعايشة الفعلية للوقائع التاريخية، و بالتالي يصبح لدى الباحث القدرة على تحليل الأحداث وربطها ببعضها والتوصّل إلى

إعطاء آراء وإستنتاجات ضمن المنطق والتحليل العلمي وإستخلاص الأدلة بشكل أفضل، وكل ذلك ينعدم في ظل غياب الإمكانيات المادية.

ومن الصعوبات الكبيرة التي أعاقت سير بحثي هذا غياب بعض المراجع الأساسية من المكتبات ، و حتى التي ساعفني الحظ وعثرت عليها في البداية لم أجد جزء منها عند رجوعي إليها والسبب وراء ذلك إما ضياعها أو عدم وضعها في أماكنها الخاصة، أما الكتب التي لم أعثر عليها إطلاقا فتكون إما قد سرقت أو أتلفت وهو أمر جد مؤسف وخسارة لا تعوض.

وفي الأخير أتمنى أن أكون قد وفقت في إنجاز هذه الدراسة ولو بقدر يسير، لأنني أعتقد أنها ستكون في مستوى أرقى في ظل ظروف أفضل.

مدخل: مصادر الدراسة

يقول "فرانسوا دوماس" (François Daumas): «إن الحياة الاقتصادية لمصر الفرعونية لم تجلب كثيرا الأخصائيين، وأن الدراسات حول هذا الموضوع في مجملها، قام بها علماء الاقتصاد الذين لم يقرؤوا الوثائق من خلال نصوصها الأصلية، بل كانوا يلجأون إلى المترجمين»⁽¹⁾. وهو ما يبرهن عليه الواقع في عدم العثور - كما ذكرت في المقدمة - على دراسة جدية تتناول تجارة العصر الفرعوني، وهذا يدخل في السياق العام للتاريخ الاقتصادي للعصر القديم في الشرق الأدنى الذي لا يزال محل كتابة على حد تعبير "فركوتيه" (Vercoutter)⁽²⁾. لكن الأمر يبدو قد تغير قليلا في السنوات الأخيرة، حيث أصبحت المظاهر الاقتصادية للحضارة المصرية موضوع دراسة خاصة و قائمة بذاتها نتيجة إهتمام المؤرخين بمعالم هذه الحضارة و ما حوته من مدلولات مكنت من إعطاء صورة حقيقية لمصر القديمة بما في ذلك الجانب التجاري⁽³⁾.

و لذلك وددت إلقاء نظرة عما يمكن أن تقدمه المصادر بالنسبة لموضوع الدراسة، و مدى قيمتها في إثراء الموضوع، و فيما إذا كان ذلك النقص يعود لكون هذه المصادر لا تمد الباحثين بالكثير، أو لأن هؤلاء لم يعطوها حقها من الدراسة و البحث. على العموم فإن هذه المصادر يمكن حصرها في أربع و هي:

المبحث الأول: الآثار المصرية

إن دراسة التاريخ القديم بشكل عام و كل ما يتعلق بتفاصيله هي مبنية على دراسة الآثار و ما تقدمه للباحث من معلومات ثمينة، فهي مصدر أساسي لا غنى عنه، بل الأول على الإطلاق. أي أنها مصدر من الدرجة الأولى، كما أنها تتميز بالتنوع، فالآثار المصرية تشتمل على كل ما خلفه الإنسان المصري القديم من آثار مادية و أدبية، منها ما دَوّن على المعابد و المقابر و الأهرامات، ومنها ما كتب على أوراق البردي وتوابيت الملوك، دون أن أنسى المخلفات الفنية و غيرها كثير. و في هذا الصدد يقول "محمد الخطيب": «الآثار، و ما تحمله من كتابات و نقوش و صور و التي تتفق الآراء الآن على إعتبارها المصدر الرئيسي الأول لمعلوماتنا عن تاريخ مصر و حضارتها»⁽⁴⁾. و بالتالي فإن الآثار المصرية تمد الباحث بالمعلومات الوفيرة عن العصر الفرعوني بمختلف جوانبه، و هي تنقسم إلى قسمين: الآثار المادية، والنصوص الأدبية.

المطلب الأول: الآثار المادية

هي جد متنوعة ، و تورد جميعها إشارات إلى موضوع التجارة، و ما يتعلق به من عناصر مختلفة ، و قد حصرتها في النقاط الآتية :

أ - محتويات المقابر :

إن الجزء الأكبر من تاريخ مصر تمدنا به المقابر عبر مختلف عصور الحضارة المصرية والتي ظلت شامخة طوال آلاف السنين ، وقد وجدت بها أشياء وبقايا تعطينا صورة حيّة عن موضوع الدراسة أهمها : مكتشفات تتمثل في قطع أخشاب الصنوبريات وجدت في قبور عصر ما قبل الأسرات، وهذه المكتشفات تدل على أن الإستيراد كان موجودا آنذاك⁽⁵⁾، وهو ما تؤكد أيضا المواد الأجنبية الأخرى مثل حجارة "اللازورد" (Lapis-Lazulu) و "الزجاج البركاني" (L'Obsidienne) والعاج وزيت الزيتون، وكلها تثبت بأن المبادلات كانت تتم منذ ما قبل التاريخ مع بلاد بعيدة مثل بلاد فارس، ولو أن ذلك لا يعني أن القوافل المصرية كانت تجتاز المسافات الطويلة جدا وتذهب مباشرة إلى هناك، كما لا يعني أيضا أن تجار تلك البلاد البعيدة كانوا يترددون على مصر في ذلك الزمن، لكن الأمر يتعلق ببساطة بمبادلات غير مباشرة من خلال وجود تجارة منظمة في البحر المتوسط لعدة قرون في عصر ما قبل التاريخ⁽⁶⁾.

(1) - François Daumas , la civilisation de l'Egypte pharaonique , (Paris : B. Arthaud, 1965) , p . 215 .

(2) - Jean Vercoutter , essai sur les relations entre Egyptiens et Préhellènes , (Paris , 1954) , p . 17 .

(3) - Jac.J.Jansen , «Ganger sa vie» , in : Egypte, terre de civilisation , Traduction de Claude Grozier-Brelot, sous La direction de Jaromir Malek , (Paris : Bordas , 1993) , p . 59 .

(4) - محمد الخطيب ، مصر أيام الفراعنة ، (ط 1 ؛ دمشق : منشورات دار علاء الدين ، 2001) ، ص . 31 .

(1) - فيليب حثي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، مراجعة وتحرير جبرائيل جبور، (بيروت : دار الثقافة ، 1958) ، ج 1 ، ص . 147.

(2) - John A.Wilson, L'Egypte, vie et mort d'une civilisation, Préface de Georges Posener , (Paris : Arthaud , 1961) ,

كما وجدت في مقابر عصر ما قبل الأسرات أشياء مصنوعة من العاج، والمعروف أن الفيل لم يكن موجودا آنذاك في مصر بعد إنقراضه منها نتيجة للظروف الطبيعية، حيث كان يتواجد في ذلك الوقت في مناطق البحيرات الكبرى، وهو إثبات على أن البعثات المصرية كانت تصل إلى تلك المناطق أو أن هذه المادة كانت تجلب إلى مصر من طرف قبائل النوبة (7).

إن العاج المكتشف في مقابر عصر ما قبل الأسرات يثبت التبادل التجاري آنذاك ليس فقط مع الجيران في الجنوب، بل كشفت هذه المقابر أيضا عن صناعات مختلفة مماثلة لما وجد في جنوب غرب آسيا من خلال هذا العاج، مما يدل على أن هذه الأشياء كانت نتيجة لتبادلات مع هذه المنطقة.

وأخلص من كل ذلك - كما قال "أتين دريوتون" و "جاك فاندبييه" - إلى أنه من المؤكد أن المبادلات التجارية بين مصر والمحيط الخارجي تعود إلى العصر النيوليتي، فمنتوج اللازورد الذي لا يعد من منتوجات مصر بل هو آسيوي، يدل على أن مصر أقامت مع قارة آسيا علاقات تجارية، وكانت تستورده من هناك (8).

وإلى جانب "اللازورد" والزجاج البركاني أجد أيضا "الزمرد"، ومن المؤكد أن مصدره آسيا، فقد عثر عليه في جزر بحر "إيجا"، خاصة ساموس (Samos)، وميلوس (Mélus)، حيث كان يستعمل في هذه المنطقة من قبل الملاحين الكريتيين الأوائل، واكتشاف هذه المادة يثبت بأن دخولها إلى مصر كان عن طريق المبادلات المباشرة أو غير المباشرة مع البحارة الإيجيين، والملاحظ أن اللازورد وجد في مراحل لاحقة خلال العصر الفرعوني (9).

إن الجواهر والأحجار الكريمة التي أتيت على ذكر نماذج منها، والتي تعد آثارا فنية، تعتبر وثائق تاريخية، وهي من الأهمية بمكان في موضوع الدراسة، حيث تكمن هذه الأهمية في مساعدتنا على التعرف على المبادلات التجارية وتطورها عبر العصور ودورها في توسيع ورقي التجارة الدولية بين الشرق والغرب (10). ويقول "سيريل ألدريد" عن هذه الأهمية: « بالنظر إلى أن المصريين القدماء كانوا يستخدمون هذه الأحجار شبه الكريمة منذ أقدم العصور بل ومنذ عصر ما قبل الأسرات، فإننا نستنتج مدى النشاط والمبادلات التي كانت تتم عبر الطرق التجارية الخارجية في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الحضارات الإنسانية» (11).

أما المكتشفات التي تعود إلى العصر الفرعوني، فهي عديدة ومتنوعة، فقد وجدت بداخل قبور فراغة الأسرات الأولى جرار وأوعية ماء، وهي تشبه في شكلها ثمرة اليقطين، وجرار أخرى ذات عروة وفوهتها تشبه منقار، وهي مخصصة لحفظ الماء، وكل هذه الأنواع من الأواني تحمل بصمات صناعة تتميز بها منطقتي فلسطين وسوريا (12).

والمكتشفات التي ميزت مقابر ملوك العصر "الثنى" (عصر الأسرتين الأولى والثانية) تتمثل في الكتل الضخمة من الأخشاب والألواح ذات المصدر الخارجي، وخاصة مدافن "أبيدوس" و "سقارة"، حيث أستعملت الأخشاب من نوع الصنوبر الذي ينمو في لبنان في تشييد سقوف هذه المقابر، ليس ذلك فحسب بل احتوت أيضا على أواني تمثلت خاصة في أباريق ذات نمط كان شائعا في الصناعات الفلسطينية والسورية، والتي يفترض أنها كانت تملأ بالزيت الذي كان يجلب من هناك (13). وكل هذه المكتشفات تثبت قيام علاقات تجارية بين مصر وتلك المناطق.

وقد كشف "بيترى" (Flinders Petrie) في مقابر ذلك العصر عن فخاريات، أسلوبها يعود إلى الحضارة الإيجية بـ "كنوسوس"، مما يدل على علاقات كانت قائمة بين مصر وكريت (14). منها كسور أواني موجودة خاصة في المقابر الملكية للأسرة الأولى بأبيدوس، لكن الأشياء الإيجية تختفي خلال الدولة القديمة، وقد فسّر ذلك بغياب روابط تجارية مباشرة بين الحضارة الإيجية والمصرية خلال زمن تلك الدولة، في حين أن الإشارات

(3) - G.Dykman, *Histoire économique et sociale de L'ancienne Egypte*, (Paris, 1936 - 1937), t. 1, p. 218.

(4) - محمد أبو المحاسن عصفور، *معالم حضارات الشرق الأدنى القديم*، (ط2؛ بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1979)، ص. 108.

(1) - G.Dykman, Op-Cit, t.1, p. 252.

(2) - بشير زهدي، «لمحة عن الأحجار الكريمة والمجوهرات القديمة»، *الحواليات الأثرية السورية* 14 (1964) ص. 97.

(3) - سيريل ألدريد، *مجوهرات الفراعنة*، ترجمة وتحقيق مختار السويدي ومراجعة وتقديم أحمد قنري، (ط1؛ القاهرة: الدار الشرقية، 1990).

ص. 74.

(4) - Lionel Casson, *les marins de l'Antiquité (explorateurs et combattants sur la Méditerranée d'autrefois)*, Traduc-

tion de Lilly Galhi Kahil, (Paris: Hachette, 1961) p. 15

(5) - G.Dykman, Op-Cit, p. 231.

(6) - Ibid, t. 2, p.270.

تؤكد أن سوريا كانت قد أنشأت الصلات الأولى مع مصر وهو ما تؤكد الوثائق المصرية⁽¹⁵⁾. ومنها مقابر الدولة القديمة التي تمدنا بعدد المخلفات التي تعد شاهداً على قيام وإزدهار التجارة الفرعونية، فهرم "سنفرو" شاهد على إستيراد الخشب آنذاك، وهو دليل آخر على أن هذا الملك كان يستورد الخشب من الساحل السوري حيث وجدت قطع منه أستعملت في تثبيت الحجارة في هرمه القبلي في دهشور والذي لازال إلى اليوم يحتفظ بخاصيته وممسكا لبنائه رغم مرور آلاف السنين⁽¹⁶⁾.

إن مخلفات المقابر غزيرة ومتنوعة لدرجة أنه لا يمكن ذكرها كلها، كما أنه كلما إنتقلنا من عصر إلى آخر تتنوع كما وكيفا، فخلال عصر المملكة الوسطى وتحديدا أثناء الأسرة الثانية عشر أكتشف خزف منيوي كان مصنوعاً في شكل أواني مؤرخة بنهاية هذه الأسرة⁽¹⁷⁾. أما مقبرة "أمنمحات الثاني" التي تعود إلى حوالي 2000 ق.م، فقد أكتشفت فيها أشياء تعود إلى الحضارة المينيوية كان الفرعون قد إختارها ضمن الكنوز التي دفنت معه، وهي عبارة على مجموعة من الأواني المصنوعة من الفضة ذات نموذج يعود لجزيرة "كريت"⁽¹⁸⁾.

وهكذا فإن الأشياء الإيجية عادت للظهور من جديد في مصر خلال الدولة الوسطى، حيث وجد بعض منها بالقرب من إقامات ملكية بالفيوم، وهي تتمثل أساساً في أواني فخارية والتي نراها تنتشر بكثرة خاصة خلال الدولة الحديثة، ووصلت حتى النوبة⁽¹⁹⁾، وهو ما يؤكد توسيع العلاقات التجارية بين الطرفين وتطورها المتزايد وتوضح بذلك العلاقات المباشرة بينهما.

ومن جهة أخرى نجد الأسرة الثانية عشر تجاوزت إتصالاتها مناطق الجوار القريبة منها إلى مناطق أبعد حيث عقدت صلات مع بلاد ما بين النهرين، وهي أرض لم تكن مجهولة للمصريين بل كانوا على صلة بها منذ أزمنة بعيدة، كما كان الحال مع شمال البحر المتوسط وتحديداً مع جزره، والدليل على ذلك البقايا الأثرية التي عثر عليها تحت معبد بجنوبي الأقصر وتتمثل في أربعة صناديق إحتوت تماثلاً من حجارة "اللازورد"، وأختام أسطوانية تنتمي إلى عصر أسرة "أور الثالثة" السومرية كما وجدت معها تماثيل بابلية، ومخلفات أخرى من أصل إيجي⁽²⁰⁾. وهذه الأشياء معروفة بكنز "تود" (Thod)، وقد نقش عليه إسم الملك "أمنمحات الثاني"، وأغلب كنوزه هي من معدن الفضة في شكل مصنوعات أو في شكل سبائك⁽²¹⁾.

وبمدينة "طيبة" وجد ببعض مقابرها ومعابدها مكتشفات كريتية مؤرخة بزمان الدولة الحديثة، حيث إكتشف "بيتري" مصنوعات فخارية تعود إلى الأسرة الثامنة عشرة، هذا وقد أمدنا علم النبات بتقارب جد عجيب عند إكتشاف أزهار ونباتات مجففة في مقابر الدير البحري، والتي تعود إلى حشائش البحر ذات الخواص الطبية وهي لم تنمو في مصر ولا يتسنى لها ذلك بسبب الحرارة هناك، وفي مقابل ذلك نجدها في "كريت" وفي جزر الأريخبيل، وعليه فإن هذه النباتات تكون قد أحضرت إلى مصر من تلك المناطق، وإلى غاية اليوم فهي تباع في أسواق كل من القاهرة وكريت، حيث تصل إلى القاهرة مثلما كان عليه الحال في زمن الأسرة الثامنة عشرة⁽²²⁾.

ب - رسوم على بعض الأدوات والأواني :

إن موضوع الرسوم لا يقل أهمية عن موضوع المخلفات الأثرية في إثبات تعاظم مصر للتجارة وحدثت حركة تجارية دؤوبة بداخل مصر وخارجها، وأبدأ هذا الموضوع بالقول بأن أقدم ماعرف عن السفن المصرية كانت تلك المناظر التي زينت الأواني الفخارية التي وضعت ضمن أشياء أخرى في المقابر التي عثر عليها في الصحراء لأول مرة سنة 1794، وهي من نوع المراكب النيلية وجد على جانبيها مجاديف، وتلك المقابر تعود إلى ما قبل عصر الإتحاد لأنها كانت تحمل راية مدينة معينة أي شعار المدينة، كما عثر في جبانات عصر الإتحاد الأول على رسوم لمراكب تحمل هي الأخرى رايات، وبلغ عددها ثلاثمائة، وقد رسمت وهي تسير فوق الماء في إتجاه الجنوب⁽²³⁾.

(1) - J. Vercoutter , *essai sur les relations ...*, Op-Cit , pp. 62-63.

(2) - محمد بيومي مهران، مصر منذ قيام الملكية حتى قيام الدولة الحديثة، (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية، 1995)، ص. 227.

(3) - Erik Hornung , *Lecture de l'Histoire Egyptienne* , Traduction de Denis Trierweiler, (Paris : Edition du Rocher, - (2000), p. 75.

(4) - L. Casson, Op-Cit, p. 35.

(5) - J. Vercoutter , Op-Cit, p. 145.

(6) - عبد العزيز صالح، حضارات الشرق الأدنى القديم : مصر والعراق ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، 1973)، ص. 179.

(7) - سيريل ألريد، المرجع السابق، ص. 71.

(1) - Victor Bérard, *les Phéniciens et l'Odysée*, (Paris : Librairie Armand Colin , 1927), t 2 , p. 200.

(2) - جيمس هنري بريستيد ، إنتصار الحضارة، تاريخ الشرق القديم، ترجمة أحمد فخري ، (القاهرة ، دون تاريخ) ، ص. 82 .

ويصف "سينسر" هيئة القوارب المرسومة على الفخار، قائلاً : « تظهر القوارب على الفخار بمجاذيف كثيرة، وعليها شكل ما من أشكال المقصورة، ومعها في الغالب أحد أنواع الرموز التي تمثل الرايات للمقطعات المختلفة، وصورت في بعض الحالات أجسام بشرية فوق مقصورة القوارب»⁽²⁴⁾.

وقد أستخلص من تصوير المراكب على الأواني الفخارية أن هذه المراكب أصبحت بالنسبة لأهل ذلك العصر ضرورة ملحة في حياتهم، وذلك لتوسع مجالات إستخدامها، فهي تستعمل كوسيلة سفر عبر النيل وترعه، وكذا لنقل البضائع والأفراد، وحتى الموتى من ضفة إلى أخرى، وذهب بعض العلماء إلى القول بأن هذه القوارب تجاوزت إستخدامها الضيق في النيل إلى البحر⁽²⁵⁾، لأنها مثلت في حركة سير في النيل وفي قنواته وفي أماكن أخرى⁽²⁶⁾.

والملاحظ أن هذه المراكب المرسومة على الأواني الفخارية والتي تعود إلى الألف الرابعة ق.م، هي تشبه مثيلاتها في القرنين الثلاثين والعشرين ق.م.⁽²⁷⁾ ومن جهته يرى "أتيليو قوديو" (Attilio Gaudio) أن أقدم دليل على العبقرية البحرية للإنسانية موجود على جرة تعود إلى الألف الرابعة ق.م، وهو أقدم من الهيروغليفية ومن الأهرامات، وقد عثر على هذه الجرة في مصر العليا، وهي محفوظة حالياً في متحف بريطانيا، وتحمل على جانبيها تمثيلاً لزورق بشراع مربع الشكل⁽²⁸⁾. وهذا الشراع يقول عنه "كاسون" (L.Casson) بأنه يمثل أقدم صور لشراع في مصر لأنه يعود إلى بداية تلك الألفية⁽²⁹⁾.

ولم تكن تلك الصور تمثل قوارب صغيرة فحسب بل تجاوزت ذلك لتكشف عن سفن كبيرة، وبالتالي فهي تعد مصدراً مهماً في تجارة مصر القديمة. والبعض يرجع أقدم تمثيل لمركب نهري إلى سنة 3400 ق.م ويتمثل في "رمت" (Radeau)، مجهز على كل حافة بعدد من المجاذيف⁽³⁰⁾. إن صور كل هذه المراكب تعد شهادة حية على ممارسات تجارية تعود إلى عصور جد قديمة.

ولم تكن صور المراكب حكراً على الأواني الفخارية، بل نجدها أيضاً على الأدوات وواجهات الصخور، وهي لا تقل أهمية عن الأولى في إعطاء صورة عن الحياة التجارية للعصر الذي تمثله، منها على سبيل المثال صور منقوشة على صخور وديان الصحراء الشرقية في مصر العليا، وهي تشهد على حدوث علاقات تجارية مع المناطق الجنوبية⁽³¹⁾.

بالإضافة إلى ذلك هناك ما يثبت بأن التجارة كانت تمارس في مملكة الجنوب، وهو العثور على نقش على صخور الشلال الأول يمثل مركباً يبلغ طوله عشرة أقدام، وبالتالي فهو ليس زورقاً صغيراً، وقد رسم وهو يجرب بالحبال من قبل ثلاثة وثلاثون رجلاً، وهم في حالة وكأنهم يتجنبون الشلال، وبالنظر إلى المكان الذي وجد فيه النقش يمكن أن نستنتج بأن حكام مملكة الصعيد كانوا قد وصلوا بتجارهم إلى أبعد من حدود مملكتهم⁽³²⁾. ولا يعد هذا الرسم الوحيد في جنوب مصر، لأن الأثريين كانوا قد عثروا على المئات من رسوم السفن التي تعود إلى ما بعد 2900 ق.م، وكانت قد رسمت على نتوءات الصخور⁽³³⁾. ورغم وجود رسوم جد قديمة في جنوب مصر في عصر ما قبل التاريخ، إلا أن هناك من يرى بأن الدلتا كانت أسبق في مزاوله التجارة، والدليل على ذلك

(3) - جيفري سينسر ، مصر في فجر التاريخ، مشرق الحضارة في وادي النيل، ترجمة عكاشة الدالي، مراجعة تحفة هندوسة، إشراف جاب الله على

جاب الله ، (القاهرة ، 1999) ، ص. 46 .

(4) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 50 .

(5) - Henri Gauthier ، «l'Egypte pharaonique» ، in : Précis de l'histoire d'Egypte ، préface Mohamed Zaky El-Ibrachy

Pacha, (le Caire : I.I.F.A.O.C , 1932), p. 125

(1) - Hendrik Van Loon ، La conquête des mers, histoire de la navigation, Préface et traduction de René Joan, -

(Paris : Payot , 1947) , p 32.

(2) - Attilio Gaudio, les empires de la mer, préface de Fernando de Fussin, (Paris, 1962), p. 149.

(3) - L. Casson , Op – Cit , p. 12.

(4) - A.Edey, Maithand, Les premiers marchands des mers, traduit par Simon Noireaud (U.S.A : Noireaud , édition

Time – Life International , 1974 – 1976) , p.37.

(5) - Bill Manley, Atlas historique de l'Egypte ancienne de Thébès à Alexandrie: la tumultueuse épopée des Pharaons -

Traduction de Philippe Martinez, (Paris : Edition Autrement , 1998) , p.16.

(6) - جيمس هنري برستيد، إنتصار الحضارة ...، المرجع السابق ، ص. 83.

(1) - L. Casson , Op -Cit , p . 12 .

الرسومات التي عثر عليها لقوارب تحمل رايات في غرب الدلتا بلغ عددها مائتين وإثنين وعشرين رسماً. ورغم كثرة صور المراكب التي تعود إلى ما قبل التاريخ والتي أتيت على ذكر نماذج منها، ومع أن بعضها كان يمثل سفناً بحرية، إلا أن المؤرخين أجمعوا على أن أقدم رسم لسفينة بحرية يعود إلى القرن السادس والعشرين ق.م، وهو ما يمثل أحد مناظر معبد هرم الملك "ساحورع"، وركاب هذه السفينة رسموا رافعين أيديهم وهم في حالة إنحناء يحيون الملك الذي يقف أمامهم على الشاطئ، وهذه السفينة تمثل واحدة من الأسطول الذي أرسل إلى الساحل السوري والذي كان يضم ثمانية سفن⁽³⁴⁾.

ومن الرسوم التي لها علاقة بصور السفن، والتي تعطينا بدورها إثباتات تاريخية على قيام حركة وتبادلات تجارية، هو رسم لحركة ميناء يعود إلى الملك "أمنحوتب الثالث"، والذي قام به "كينامو" (Kenamon)، وهذا الأخير كان موظفاً مكلفاً بالتجارة مع شرق البحر المتوسط أثناء حكم هذا الملك، حيث قام برسم صورة صادقة على جانب قبره لحياة ميناء مصري ظهرت فيه حتى التفاصيل الدقيقة، وهو يؤرخ بالقرن الرابع عشر ق.م⁽³⁵⁾.

ج - رسوم على جدران المعابد والمقابر :

لم تقتصر الرسوم على بعض الأدوات والأواني بل إن المصريين القدماء خلدوا صوراً عن حياتهم اليومية على جدران العديد من المعابد والمقابر، وهي مشاهد تمثل صورة لحياة مالك القبر وعائلته وممتلكاته. وفي مثل هذه المشاهد اليومية وجد رسم على أحد جدران مقبرة في "أهناسيا" بالألوان، وهو يعد الأقدم على مثل هذا المعلم الأثري، ويتمثل في ست سفن مصنوعة من الخشب بحجم كبير راسية عند مرفئ، وهذا الإنتاج جاء من كونها مشدودة بالحبال، وكانت كل واحدة منها مجهزة بقمرتين⁽³⁶⁾. كما وجدت صور السفن الكبيرة على جدران مقبرة في مدينة "هيراكونبوليس"، والتي تعود إلى عصر ما قبل الأسرات⁽³⁷⁾، وهي مشابهة لصور القوارب التي نفذت على الأواني الفخارية، وقد رسمت بدون المجاديف⁽³⁸⁾. وتصبح الشواهد عديدة عن الفن الملاحي خلال الألفية الثانية ق.م، حيث تكون أكثر دقة، ففي مقبرة أحد النبلاء المدعو "مكتيرع" (Mektirê) وجدت أربع صور لمراكب باللون الأصفر واحد منها يبلغ طوله بين 12 و 13 م⁽³⁹⁾.

أما فيما يخص مشاهد صناعة السفن، فإنها تكاد تكون سمة عامة في كل الأضرحة الملكية، منها التي تعود إلى الملكين : "Aba" و "Djaou" بالدير الجبراوي، وفي بناءات "Serefenka" المتواجدة بمنطقة "شيخ سعيد"، وعلى ضريح الملك "تي" بسقارة، وكذلك في مصطبة "Kaemremet"، كلها تبين صناعة أنواع من الخشب وخاصة مشاهد ورشات صناعة مراكب النزهة أو مراكب الشحن (البضائع) ... إلخ⁽⁴⁰⁾. وهناك صور على جدران مقصورة الملك "رع حوتب" تعود إلى زمن الدولة القديمة، تروي الحياة اليومية لذلك العصر، ومنها ما يمثل صناعة السفن، حيث عدها المختصون من أروع ما خلفته تلك الدولة من صور عن الحياة اليومية⁽⁴¹⁾.

وقد وجدت صور مراكب منقوشة على جدران معبد الملك "أوناس" آخر ملوك الأسرة الخامسة، وتتميز بحجمها الكبير الذي يفوق حجم المراكب النيلية، مما يدل على أنها مراكب لأعالي البحار، ويبدو أنها في حالة عودة من الساحل السوري، لأنها كانت تحمل آسيوبيين، وتدل على بعثة كانت قد سيرت إلى هناك زمن هذه الأسرة⁽⁴²⁾.

أما مقبرة "أوني" (Ouni) فهي تعرفنا بالمراكب زمن الأسرة السادسة والتي كانت تقوم بالملاحة في البحر المتوسط في عهد الملك "بببي الأول" (Pepi I)⁽⁴³⁾، وكان "أوني" من قادة البعثات المصرية إلى "جبيل"، وقد

(2) - جيمس هنري برستيد، إنتصار الحضارة...، المرجع السابق، ص ص 82، 112.

(3) - L. Casson , Op - Cit , p. 31.

(4) - محمد الخطيب، المرجع السابق، ص 141.

(5) - محمد أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص 118.

(6) - جيفري سبنسر، المرجع السابق، ص 47.

(7) - Enzo Angelucci et autres, *Encyclopédie des navires*, (Paris / Bruxelles , 1979) , pp . 19 – 20.

(1) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2 , p. 198.

(2) - نعيم فرح ، موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم ، السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي ، (دمشق : دار الفكر ، 1972) ، ص 105.

(3) - محمد عزّة دروزة، تاريخ موجات الجنس العربي ودولها ومآثرها في بلاد الشام (سورية ولبنان والأردن وفلسطين) قبل العروبة الصريحة،

(بيروت : المكتبة العصرية ، دون تاريخ) ، ص ص 57-58.

(4) - V. Bérard , Op - Cit , p. 106.

سجلت لنا جدران مقبرته بسقارة وصف لأحداث بعثته التي كانت قد جلبت كميات كبيرة من الأخشاب⁽⁴⁴⁾. وكانت الرسوم التي تتناول بناء المراكب من الأخشاب تعود إلى حوالي 2800 ق.م، بمعنى بداية الدولة القديمة⁽⁴⁵⁾.

إن تمثيلات الرحلات البحرية التي توضحها رسوم مراكب أعالي البحار والتي ذكرت نماذج لها نجدها منتشرة خلال الدولة القديمة لكن أثناء الدولة الوسطى تختفي، لتعود للظهور من جديد مع مناظر "الدير البحري" التي تبين مراكب تبحر في البحر.

ويقول "بيار مونتية" (Pierre Montet): «إننا نملك نموذجين من مراكب أعالي البحار، وهما يعتبران الأقدم، أحدهما يعود إلى الملك "ساحورع" والثاني إلى الملكة "حتشبسوت"»⁽⁴⁶⁾. وأرى أنه من الضروري تصفح هذين المشهدين، لأنني أعتبرهما بحق نموذجين للنشاط التجاري المصري وتوسعه في العصر الفرعوني، فالأول هو المعبد الجنائزي لـ: "ساحورع" من الأسرة الخامسة والذي حفظ لنا مناظر تدل على توسع النشاط التجاري أكثر من أي زمن سابق، وبالتالي فهو يدل على إنفتاح مصر على العالم الخارجي، ومن أهم تلك المناظر ما يمثل أسطولاً بحرياً مكوناً من ثمانية سفن، وهو مرسوم في حالة العودة من عملية تجارية من بلاد أسبوية، إن مراكب هذا الأسطول كبيرة الحجم مما يدل على إتساع الصلات التجارية المصرية خلال الأسرة الخامسة مع كل من فلسطين براً وفينيقياً بحراً. كما يمدنا عصر هذا الملك بوثيقة أخرى لا تقل أهمية عن المشهد السابق الذكر بل يمكن أن تفوقه من حيث الأهمية، وهي رسومات لرحلة بحرية بمعبده بـ "أبو صير" والتي تعد أول تمثيلات لبعثة ملاحية في البحر الأحمر، هذه التمثيلات تجسد أشخاصاً من بلاد "بونت" في هيئة خضوع لذلك الملك، ولو أن الفنانين المصريين قد بالغوا في تصويرهم لأن هؤلاء الأشخاص لم يخضعوا للفرعون بل كانوا تجاراً يتعاملون معه⁽⁴⁷⁾. أما النموذج الثاني المتمثل في معبد "حتشبسوت" الكائن بـ: "طيبة" الغربية فيضم وصفاً مفصلاً وحياً للبعثة البحرية وإستقبالها من قبل حكام "بونت"⁽⁴⁸⁾.

وطيلة العصر الفرعوني فإن المعالم المصرية تبين نماذج من الأجناس الأجنبية وهم: الليبيون، الساميون، الزنوج، وكذلك شعوب بحر إيجا، فهؤلاء يعطون دلالات على العلاقات المتبادلة بين شعوب العالم القديم. وأحسن تعبير عن ذلك ما قاله "أحمد فخري": «إن المصريين، في جميع العصور، أبوا إلا أن يسجلوا مظاهر حياتهم على جدران قبورهم، فأينما ذهب الإنسان في مصر سواء على مقربة من العاصمة "منف"، أي في سقارة والجيزة وما جاورهما، أو ذهب إلى بلاد مصر الوسطى أو في الصعيد وبخاصة في "طيبة" عاصمة مصر في عهد الإمبراطورية، وجد مقابر عني المصريون بتغطية جدرانها بمناظر الحياة اليومية حيناً والحياة الأخرى حيناً آخر ولم يقتصر الأمر على مصر وحدها بل كثيراً ما نرى في تلك المقابر أو على جدران المعابد مناظر أو نصوصاً تتعلق بشعوب البلاد الأجنبية الذين إتصلت بهم مصر فترى وفي أيديهم أو على مقربة منهم مصنوعات بلادهم المختلفة»⁽⁴⁹⁾.

ومن أشهر مقابر الدولة الوسطى التي كانت جدرانها مساحات لمشاهد التجار الأجانب نجد قبر "سنوسرت الثاني" المتواجد عند مدخل الفيوم، والذي يبين لنا أيضاً بأن سكان بحر إيجا بما فيهم الكريتيون كانوا يأتون إلى مصر من المحتمل عبر ليبيا، وكانوا يجلبون معهم أوانيهم الفخارية المتعددة الألوان⁽⁵⁰⁾. ومن المقابر التي تعود إلى عصر هذا الملك والتي صورت الأجانب نجد مقبرة "خنوم حنب" بـ: "بني حسن"، والتي تمثل 37 شخصاً من الآسيويين يترأسهم زعيمهم⁽⁵¹⁾، وقد جاؤوا لمبادلة منتوجاتهم في مصر، وخاصة مسحوق الكحل، الذي هو مطلوب بكثرة من قبل المصريين كزينة للعيون⁽⁵²⁾. ولم تكن هذه المقبرة الفريدة في إبراز هؤلاء التجار

(5) - محمد السيد غلاب، الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، (ط 1؛ بيروت: دار العلم للملايين، 1969)، ص. 237.

(6) - E. Angelucci et autres, Op - Cit, p. 18.

(7) - Pierre Montet, La vie quotidienne en Egypte au temps des Ramsès 1300 – 1100, (Paris: Hachette, 1946), p. 181.

(1) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص. 127.

(2) - B. Manley, Op - Cit, p. 74.

(3) - أحمد فخري، مصر الفرعونية، موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام 332 ق.م، (ط 2؛ القاهرة: مكتبة الإنجلو المصرية،

1960)، ص. 71.

(4) - H. Gauthier, Op - Cit, p. 100.

(1) - محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1995)، ج 2، ص. 95.

(2) - H. Gauthier, Op - Cit, p. 10.

الآسيويين خلال زمن هذه الدولة، بل هناك مثل هذه الرسوم الجدارية تصور كنعانيو الشاطئ اللبناني يلبسون تلك الملابس الأرجوانية التي يجلبون عدد منها كبضاعة تجارية إلى مصر، وقد إمتازت كل من "صيدا" و "صور" بالأنواع الأفضل من هذه البضاعة المتمثلة في الأثواب الأرجوانية(53).

وينتشر تمثيل التجار الأجانب بصورة أوسع خلال زمن الدولة الحديثة، وهم محملين بسلعهم، التي تذكرها الكتابات المصرية بأنها جزية. ومن المقابر التي نجد بها مناظر جزية الواحات مقبرة "بويمرع"، هذه المقبرة تعود إلى الكاهن الثاني لـ "أمون" في عهد الملك "تحوتمس الثالث"، والموجودة في جبانة "طيبة" تحت رقم 39، حيث صور فيها منظر يمثل كاتباً يحمل في يده لفافة بردي وهو واقف، وقد سجلت أمامه نقوش مما جاء فيها : « تسجيل جزية الواحات »، وفي نفس المقبرة نرى منظر آخر يمثل رجلين، وهما في حالة سجود ربما يكونان حاكمين، وقد سجلت من فوق هذا المشهد كتابة تقول : « زعماء الواحات الجنوبية والشمالية » والذين ذكروا في الصف الثالث من الرسومات. وقد تعدت مناظر هذه المقبرة ذلك، وذكرت جزيات شعوب أخرى، حيث سجلت على نفس الجداريات : سوريين وبدو وادي طوميلات أي سكان الشمال الشرقي(54).

وفي نفس عهد هذا الملك نجد مقبرة أخرى وهي مقبرة الوزير "رخميرع" (Rekhmiré) الذي كان يعيش في النصف الثاني من حكم ذلك الملك أي حوالي 1470 ق.م، وهي متواجدة على الشاطئ الأيسر لـ : "طيبة"، مثل في جزء منها إستقبال جزية الإمبراطورية المصرية الآتية من جهات خارجية عدة(55). وهي مناظر تعطي فائدة كبيرة لموضوع الدراسة، لأنها تقدم معلومات عن مناطق الجوار الجغرافي التي كانت تعقد معها مصر علاقات تجارية، وكذلك عن بعض السلع المتداولة.

وجاء أيضا في هاته المقبرة تمثيل مناظر لمجموعة من الأشخاص وهم يحملون حصرا ملونة، وكذلك جلود حيوانات منها على وجه الخصوص جلود ثعالب، والملفت للانتباه تلك الجرار المحتوية على النبيذ، وكان شكلها كبيرا جدا لدرجة أنها كانت تحمل في شبكة لها قائمة ليتمكن الأشخاص من حملها على ظهورهم. وهي على ما يبدو نبيذ الواحات، وهناك منظر آخر لجزية الواحات في مقبرة "أنيني" (رقم 81) هذه المقبرة بدورها تعود إلى زمن الدولة الحديثة وتحديدًا إلى زمن الملك "تحوتمس الثالث"(56).

أما الرسومات التي تمثل إستقبال جزية "البونتيين" فقد صورت زعماء "بونت" وهم يحملون سلعهم المميزة، كل هذه المنتجات فسرّها العديد من المؤرخين على أنها بعثة أتت من بلاد "بونت" في عهد الملك "تحوتمس الثالث" وهي الصور الممثلة في مقبرة "رخميرع"، والصور الأخرى تعود إلى زمن حكم "أمينوفيس الثاني" (Amenophis II) وهي المقبرة رقم 143، التي نجد في مشهد معتاد مأمورا يستقبل جزية بلاد "بونت" أمام الملك، ففي المشهد العلوي نرى وصول المأمور المصري إلى شاطئ البحر الأحمر لإستقبال منتجات "بونت"، وفي المشهد السفلي ذهاب وعودة المأمور المصري وجماعته عبر الصحراء، وهي صور ترافقه فيها عربته، أما أفراد جماعته فهم يمشون على الأقدام، ويقودون الحمير المحملة بالسلع التي كانوا قد إستقبلوها على الشاطئ، وتظهر بين المشاهد شجرة بخور محمولة على نير من قبل رجلين، وهناك طفل صغير من "بونت" يتبع القافلة(57).

(3) - William Culican , *le Levant et la mer, histoire et commerce*, traduit par Antoinette Zundel – Bernard, (Paris / Bruxelles , 1967) , p. 41.

(4) - أحمد فخري ، *الصحراوات المصرية* ، ترجمة جاب الله على جاب الله، مراجعة شوقي عبد القوي عثمان، (القاهرة : مطابع المجلس الأعلى للآثار ، 1999) ، ج 2 ، ص . 77.

(5) - Claire Lalouette , *La littérature égyptienne*, (1^{er}éd ; Paris : Press Universitaire de France , 1981) , pp. 24 – 25.

(1) - أحمد فخري، *الصحراوات المصرية...* ، المرجع السابق ، ص . 78 .

(2) - Torigny Save – Soderbergh , *the Navy of the eighteenth égyptian dynasty*, (Leipzig, 1946) , pp. 21 – 23.

هناك مناظر مقبرة "أمنحوتب" والذي يلقب بـ: "حوى"، هذا الشخص كان حاكما للواحة الشمالية، لأن النصوص تذكر بأنه من "البحرية"، وهي تقع في "قارة حلوة" اليوم، ورغم أن هذه المقبرة لم يعط تاريخا مدققا لها، إلا أن البعض حدده بين نهاية الأسرة الثامنة عشرة والنصف الأول من الأسرة التاسعة عشرة، وتتشابه مناظرها ونصوصها مع باقي المقابر بـ: "طيبة"، لكن الملفت للانتباه فيها أن تمثيل مكيال القمح والجرار التي تملأ بنبذ الواحة كثيرة مما يوحي بأهمية منتوجات الواحة بالنسبة لمصر⁽⁵⁸⁾، وهو ما يدل على الدور البارز الذي لعبته منتوجات هذه المناطق في تجارة مصر وإزدهار هذا النوع من التجارة طيلة العصر الفرعوني.

وهناك أيضا مقبرة "مريرا الثاني" الموجودة في "تل العمرة" مثل فيها مندوبون يحضرون سلعهم إلى مصر، والتي كدست في شكل مخروطات صغيرة وأعمدة وهو الشكل الإعتيادي في تكديس الممر الذي يظهر في كل رسوم المقابر المصرية، وفي مقدمة ذلك نجد مجموعة من الرجال وهم يكسبون أكوام الممر، هذا النموذج في التمثيل نجده في بعثة "حتشبسوت" بـ: "الدير البحري". وإلى اليمين من ذلك المشهد توجد كومة في شكل مخروطي من السلع وسلتان مملوءتان من المعدن الثمين الذهب وصورة لعجلين يوزنين، ورغم أنه لا يوجد أي نص يذكر بلاد "بونت"، لكن ذلك المشهد يدل بالطبع على أنهم بونتيين⁽⁵⁹⁾.

إن مشاهد مقابر "طيبة" خلال الدولة الحديثة تحمل صورا عديدة عن تجارة الأجانب في مصر، منها مشهد يمثل أسطولا من المراكب الآسيوية أتى لتوّه للرسو في الميناء، وقد وضعت سلالم المراكب ونزل الركاب بواسطتها، ونشاهد بعض التجار وهم رجالان وإمرأة كانوا في إنتظار الأجانب لإجراء عمليات الشراء، وهناك تاجر سوري مرتد ثياب فخم، يرافقه ثلاثة من العبيد (خدم) مكلفين بالبضائع، ومشغولين تحديدا ببيع محتوى جرة كبيرة، وهناك تاجر مصري تقدم من حافة المركب وهو يمسك ميزان، وكان يدقق في وزن السلع، هذا الفعل يظهر منذ الدولة الحديثة كشيء مهم في حين كانت مشاهد الأزمنة السابقة تفتقر لذلك التمثيل، فقد خلت خلال هاته الأسرة وحدة القياس كثمن لكل السلع⁽⁶⁰⁾. وهذه المناظر تعد التمثيل الوحيد الذي يتعلق بتجارة الخواص الفينيقيين الذين يأتون بمراكبهم إلى ميناء "طيبة"، كما تظهر هذه المشاهد دكاكين أنشئت على الأرصفة، والتي كان يقصدها التجار الذين ينزلون من مراكبهم، وكان الفينيقيون يبيعون فيها كل أنواع المنتوجات المعبأة خاصة في الجرار الكبيرة. إن التجار المصريين الذين كانوا يشترون تلك المنتوجات يبدو أنهم كانوا يبادلونها بالأقمشة وأشياء من جلد ومعدن... إلخ، ويحتمل – على حسب تفسير "بيرين" (J.Pirenne) – أن صاحب القبر الذي وجدت به مثل هذه الرسوم (صور الفينيقيين التجار) كان مكلفا بعقد عمليات الشراء مع تجار أجنبية على الأقل ليس لحسابه الشخصي، لأنه في نفس الرسم هناك مشهد يمثل الفينيقيين وهم يبيعون منتجاتهم في مصر إلى كتاب والذين هم أعوان الدولة⁽⁶¹⁾، وهي الإشارة الأولى الصريحة عن ملاحه الفينيقيين إلى مصر والتي كانت تجلب البضائع إلى الدلتا، ويبدو من خلال بضاعة تلك الرحلة البحرية أن أخشاب الأرز لم تكن

(3) - أحمد فخري ، المرجع السابق ، ص. 79.

(4) - T. Save – Soderbergh , Op –Cit , p 27.

(1) - A.Erman et H.Ranke, la civilisation égyptienne, traduction de Charles Mathien , préface de B.Van de Walle , – (Paris : Payot , 1963) , p. 664.

(2) - Jacques Pirenne, histoire de la civilisation de l’Egypte ancienne de la fin de l’Ancien Empire à la fin du Nouvel Empire (2200 – 1085 av.J.C.), (Suisse / Paris, 1962), p.247.

البضاعة الرئيسية لتجارتهم بل كانت تتمثل أساسا في جرار الخمر، الأقمشة وقارورات الزيت والمواشي⁽⁶²⁾. وبمقارنتها بالرسوم التي تمثل الكنعانيين خلال الدولة الوسطى أجد أن السلع التجارية كانت نفسها.

كما أن مقابر الأسرة الثامنة عشرة بها رسوم تمثل سكان جزر البحر المتوسط، الذين تطلق عليهم النصوص المصرية إسم "كفتيو" (Keftiou)، وقد رسموا في مقبرة "سنموت" (Senmout) الذي كان وزيرا للملكة "حتشبسوت"، وهم يحملون سلعا. ونفس الشيء تقريبا نجده في مقبرة "رخميرع" الذي كان وزيرا أثناء حكم الملك "تحوتمس الثالث"، وفي مقابر كثير من الموظفين الكبار خلال الأسرة الثامنة عشرة التي وجدت بها صور تذكارية عن سكان الجزر وصناعاتهم التي هي مواد تجارية⁽⁶³⁾، حيث كانوا يجلبون إلى الملك أواني ذات أشكال متعددة ومتنوعة منها التي هي في شكل رأس ثور أو رأس أسد، وأقداح مزينة بأشكال كريتية، وخناجر، وأباريق من ذهب وفضة مثل التي رسمت في مقبرة "سنموت" التي بنيت حوالي 1480، وكان أصحاب كل هذه المقابر مكلفين بواسطة وظائفهم باستقبال السفراء الأجانب ومنتجاتهم⁽⁶⁴⁾.

إن رسوم التجار الأجانب لم يقتصر فقط على النماذج التي ذكرتها، بل إن مقبرة "توت عنخ آمون" بـ "طيبة" أظهرت بدورها عديد الرسوم على جدرانها، والتي تبرز أجانب وهم يقدمون منتجاتهم، منها مشهد يظهر فيه الملك جالسا على عرشه وأمامه رؤساء قبائل "أشورة" و "الرتنو" واقفون، ويبدون بمظهر الرخاء والرفعة من خلال ما كانوا يرتدونه من ملابس فاخرة، وقد رسموا وهم يقدمون "الجزية" للملك وتتمثل هذه الأخيرة في : « آنية الذهب والفضة متقنة الصنع، وعدد كبير جدا من الخيول والسباع وجلود النمر وغير ذلك مما كان يصنع والموجود في الجزيرة بين الدجلة والفرات ». وبنفس المقبرة نجد مشهدا يمثل جمعا من الإثيوبيين وهم يجلبون الجزية، حيث أنهم أتوا في سفنهم عبر الطريق النهري (النيل) وقد رافق هذا المشهد نقوشا تقول : « وردت من بلاد إثيوبيا الجزية العظيمة المتمثلة في نفائس السودان، ووصلت إلى "طيبة"، تحت إشراف أمير إثيوبيا "هوبو" »⁽⁶⁵⁾. ومع ذلك لا يمكن إعطاء تفسير الجزية لهذا المشهد بل هي دلالة على علاقات دبلوماسية كتهنئة بالعرش مثلا، والأرجح هي علاقات تجارية.

أما الصور التي تمثل الأسواق، يوجد منها ما يعود إلى الدولة القديمة وكانت تعقد في المدن والقرى على حد سواء. وتزودنا بها أكثر من مقبرة لهذا العصر، حيث أنها كانت تقام في الهواء الطلق، وإلى غاية اليوم تعد المشاهد المصورة الوحيدة التي تروي المبادلات الداخلية. فالأسواق العامة الممثلة في المدافن الكبرى خلال الأسرتين الخامسة والسادسة تعطينا نظرة عن التبادلات التي كانت تحدث من خلال الصفقات التجارية البسيطة منها وجود قرويين وفلاحين كانوا يتجمعون دوريا لمبادلة محاصيلهم بأشياء مصنعة صغيرة⁽⁶⁶⁾، فالمبادلات في الأسواق كانت مفعمة بالحياة والحركة⁽⁶⁷⁾، وهذه التمثيلات تبين لنا ليس فقط استعمال المقايضة لكن أيضا النقود من خلال صورة مشتر يسلم بانعا حلقة، وكتبت إلى جانبه كلمة "شات" (Shatt) والتي تمثل وحدة نقدية في ذلك العصر⁽⁶⁸⁾.

(3) - W. Culican , Op -Cit , p. 41.

(4) - Erman et Ranke, Op-Cit , p. 695.

(5) - Gustave Glotz, la civilisation égéenne , (Paris :la renaissance du livre, 1923) , pp. 239 – 240.

(1) - ن. ي ، تاريخ توت عنخ آمون ، (ط 1 ؛ مصر : مكتبة ريدان العمومية، دون تاريخ) ، ص . 31.

(2) - G. Dykmans , Op -Cit , t. 2 , pp. 246 , 293.

(3) - جيمس هنري برستيد ، العصور القديمة ، ترجمة داود قربان ، (بيروت : 1926) ، ص . 46.

(4) - Jacques Pirenne, « Y'eut-il des foires dans l'Egypte ancienne », Recueils de la société Jean Bodin , t.5, (1953), -

ومع أن تمثيلات الأسواق هي عبارة عن كتاب مفتوح نقرأ من خلاله جوانب عديدة من الحياة اليومية بما فيها الجانب التجاري، إلا أن الكثير من المؤرخين والأثريين يلاحظون بأن صورها كانت غائبة خلال الدولة الوسطى. وأثناء الدولة الحديثة تعود من جديد المشاهد التي تدل على هذه التجارة داخل الأسواق وفي هذه المرة فإننا نراها تحدث خاصة في الموانئ، بالقرب من المراكب الكبيرة التي كان الأجني يأتى فيها بالبضائع إلى مصر، وهناك مثال عن حركة الأسواق بالقرب من الموانئ، وجد في معبد "Kha'emhet" أثناء حكم الملك "أمنمحات الثالث"، وقد كان صاحب ذلك المعبد يمارس مهام مدير مخازن الحبوب، ونشاهد المراكب الكبيرة المشحونة بالمؤونات من القمح المخصصة للدولة، كانت ترسو عند ميناء "طيبة" وأثناء إنشغال التجار بتفريغ الشحنة نشاهد البعض قد إصطف أمام الدكاكين الصغيرة عند الشاطئ وهم يحملون جرارهم وقففهم، التي تحوي بدون شك محاصيل غذائية كانوا يعرضونها للبيع⁽⁶⁹⁾.

د - لقي أثرية :

إن الشواهد الأثرية الأولى على قيام علاقات بين مصر وجنوب سوريا هي ممثلة في الأواني ذات مقابض مموجة، والتي لا تنتمي إلا إلى مصر وفلسطين، فهذه الصناعة، أي صناعة الفخار بمقابض مموجة ظهرت حوالي سنة 4300 ق.م، وهي تقنية مستوحاة من أشكال مستوردة من فلسطين وسوريا، وتبرهن على وجود إتصالات تجارية بين المنطقتين⁽⁷⁰⁾. وكان يجلب في هذه الأواني الزيت والخمور، كما أن أخشاب الإرز والصنوبر ثبت إستخدامها في صناعة السفن من خلال ماعثر عليه من سفن بأحجامها الطبيعية، والتي تعد مصادر عن إتصالات مصر بغرب آسيا⁽⁷¹⁾.

إضافة إلى ذلك توجد مصادر عن العلاقات بين مصر وبلاد النوبة منذ نهاية الألف الثالثة ق.م، وتتمثل بالدرجة الأولى في المصادر المصرية، لكن هناك مصدر مهم وهو العثور على بعض الأدوات النوبية في مصر⁽⁷²⁾.

وتثبت لنا الأدلة الأثرية أنه محتمل جدا أن تكون هناك صلات تجارية بين مصر وجزر البحر المتوسط، وعلى وجه الخصوص جزيرة "كريت" بدء من عصر ما قبل الأسرات. ففي حضارة "البدارى" ما يؤكد هذا الإحتمال، حيث عثر على أواني من نموذج بحر إيجا، والتي تمتاز بأن لها رقبة ضيقة ولها أربع مقابض تمسك منها وهي في شكل عمودي عند وسط الإناء. كما أن عددا مهما منها تم العثور عليه في مقابر عصر الأسرتين في "أبيدوس" والتي ترجع للملكين : "جر" و "سمخت" وإثنين آخرين في مقبرة سقارة التي تعود للملك "جت"⁽⁷³⁾. وتتضح هذه العلاقات التجارية أكثر خلال الأسرة الثانية عشر من خلال الأواني الكريتية التي وجدت بأعداد كبيرة بمنطقة "الفيوم"، وهي تعكس الإزدهار التجاري زمن هذه الأسرة، وتثبت أن هناك مناطق ذات أهمية لا تقل عما يجري من أحداث بين مصر وبلاد سوريا، لدرجة أن البعض رأى في كثرة تلك الأواني ما يدل على وجود مستعمرة إيجية⁽⁷⁴⁾.

إن المخلفات الإيجية ثبت وجودها في فترات متعددة ومتواصلة، إذ وجد العديد من الأواني الفخارية الكريتية في "تل العمارنة"، الشيء الذي أدى إلى الإعتقاد بوجود مستعمرة من العمال الإغريق⁽⁷⁵⁾، أو بالأحرى حي تجاري. إن وفرة الأشياء الإيجية في مصر تؤكد وجود روابط تجارية بين وادي النيل و"كريت" نتيجة لتوسع النشاط التجاري بين مصر وبحر إيجا.

(5) - Erman et Ranke, Op- Cit, pp. 663 – 664.

(1) - B. Manley , Op -Cit , p. 21.

(2) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 88.

(3) - محمد بيومي مهران ، تاريخ السودان القديم ، (ط 1 ؛ الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، 1994) ، ص . 194.

(4) - أحمد أمين سليم ، في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، (ط 2 ؛ القاهرة ، 1980) ، ج 1 ، ص . 77.

(5) - Eugène Cavaignac, *Histoire générale de l'Antiquité*, (Paris : les belles lettres, 1946) , p . 23.

(6) - L. Casson, Op-Cit , p . 39.

واللقى الأثرية كثيرة لا يمكن حصرها كلها، لكن أود أن أضيف شيئا جديدا، وهو العثور ولأول مرة على مرساة مصرية على ساحل البحر الأحمر، هذا الأمر أفاد كثيرا تاريخ علم الآثار المصرية، حيث مكن من التعرف وبصورة حية على المرساة المصرية التي كانت معروفة فقط من خلال صورها على الآثار رفقة صور السفن، كما أعطى دليلا ماديا على أن المراسي المكتشفة في "جبيل" كانت ذات نموذج مصري⁽⁷⁶⁾، وهو دليل مادي آخر مكمل للدلالات الأخرى على النشاط التجاري المصري في البحرين المتوسط والأحمر.

هـ - الخرائط :

لقد إكتشف المصريون "علم الخرائط" (Cartographie)، ووصلوا به إلى درجة جد متقدمة، وكان الهدف تيسير مهمتهم في اجتياز صحاري مصر، السودان، سيناء وليبيا. كما أن هذا العلم يسهل الملاحة على طول شواطئ البحر المتوسط والبحر الأحمر، ويساعد في إكتشاف المناجم والمواقع في الجبال، فهذه الخرائط حوت كل الخواص الرئيسية للجغرافيا الطبيعية من جبال ووديان وقمم، لكن ما يميزها هو أنها تضع الجنوب في الأعلى⁽⁷⁷⁾.

فمن بين المنجزات التي تمت في عهد الرعامسة خلال الأسرة التاسعة عشر إستغلال مناجم الصحراء الشرقية، الذي أعطاه "رئيس الأول" إهتماما بالغا وبالأخص مناجم الذهب، حيث أنجز مهندس خلال عهد "سيتي" خريطة رسمها على ورقة بردي، تمثل مواقع مناجم "وادي حمامات"، فكانت محددة المواقع بدقة ورسمت عليها الطرق التي تربط بينها وكذا الطرق التي تصل إليها من مواقع مختلفة على النيل، ونجد أيضا طرق أخرى تنطلق من تلك المناجم لتصل إلى البحر الأحمر، وقد حددت عليها الأسماء ورسم عليها حتى المعبد، بالإضافة إلى الجبال مثل جبل "نخن"، جبل "الشيسيت"، وأطلق على البحر إسم "يم"، إن أهمية هذه الخريطة تكمن في كونها أول خريطة تمثل مواقع العالم القديم⁽⁷⁸⁾، ولو أن ما وصلنا منها هو مقتطفات إلا أن الإستفادة منها كبيرة لأنها توضح الطريق الذي ينطلق من مصر عبر "وادي حمامات" ثم إلى مناجم الذهب وبالتالي إلى البحر الأحمر⁽⁷⁹⁾، والذي يعد من أهم الطرق التجارية، سأطرق إلى ذلك في الفصل السادس.

وفي عهد "سيتي" وجدت خريطة أخرى منقوشة في معبد الكرنك، حيث مثلت المحطات والحصون على الحدود الشرقية الشمالية، أي مع فلسطين، وبلغت من الدقة إلى حد ذكر أسماء الأماكن مع صحة تموضعها إلى درجة كبيرة، ولقد عدت أقدم خريطة حربية، وهي تدل على مهارة جد عالية تميز بها مهندسها، فدقة تفاصيلها تماثل ما جاء في خريطة المناجم بـ "وادي حمامات"⁽⁸⁰⁾، وهاتان الخريطتان تعطيناننا فكرة عن الطرق التجارية التي كان يتردد عليها المصريون والأجانب أيضا.

المطلب الثاني : النصوص الأدبية

إن النصوص الأدبية المصرية لا تقل تنوعا عن الآثار المادية، وهي تتمثل في نقوش وجدت في عديد الأماكن، وفي رسائل "تل العمارنة"، وبعض قصص الأدب المصري وغيرها.

أ- النقوش على جدران المعابد والقبور:

إن المصريين خلفوا نقوشا لا تحصى، نالت نصيبا لا بأس به من الدراسة، وتتمثل هذه النقوش على وجه الخصوص في السير الذاتية التي تمد المؤرخين بتفاصيل وافرة عن البعثات التجارية إلى الخارج، إضافة إلى مجالات أخرى. وكانت تكتب على التماثيل الموضوعة في المعابد وعلى نصب وجدران المعابد الجنائزية حيث كان الرجال السامون يكتبون غالبا رواية عن حياتهم في شكل خطاب موجه من قبلهم إلى الأجيال الآتية حيث كانوا ينتظرون منهم الصلوات والتقدمات⁽⁸¹⁾.

كما تمدنا الكتابات الهيروغليفية على جدران المعابد بأقدم إشارة مدونة عن بخور البحر الأحمر، والتي تعود تحديدا إلى 2650 ق.م، زمن الملك "ساحورع"، حيث تذكر هذه المدونة بأن الملك كان قد حصل على مقدار

(1) - عبد المنعم عبد الحليم سيد، البحر الأحمر وظهيره في العصور القديمة، (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية، 1993)، ص. 138.

(2) - Maurizio Damiano-Appia, l'Egypte, dictionnaire encyclopédique de l'ancienne Egypte et des civilisations nubiennes, (Paris : Gründ, 1999), p. 119.

(3) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص. 222.

(4) - Erman et Ranke, Op-Cit, pp. 226 - 227.

(5) - عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص. 138.

(1) - Georges Posener et autres, dictionnaire de la civilisation égyptienne, (Paris, 1959), p. 36.

(2) - عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص. 573.

80,000 مكيال من بخور البحر الأحمر⁽⁸²⁾. هذا وقد تحدثت الكتابات التي تعود إلى زمن هذا الملك، والتي دونت على معبده عن بعثة أرسلها هذا الأخير لجلب الأخشاب الثمينة⁽⁸³⁾.

كما أن مشاهد الأسواق كانت ترافقها كتابات هيروغليفية ولو أنها كانت في الغالب مبتورة، وهي تروي حوارات تدور بين الباعة والمشتريين⁽⁸⁴⁾. والملفت للانتباه أن قادة البعثات على العموم، كانوا يسجلون تفاصيلاً لبعثاتهم التجارية على جدران مقابرهم، وخاصة تلك التي وجدت في الجنوب، فنقوش أعوان الملك تعد مصدراً مهماً عن الرحلات التجارية، حين كان هؤلاء الأعوان يقومون بالرحلات التجارية إلى الجنوب، وكانوا يسجلون أحداث رحلاتهم بما فيها من مغامرات ومشاق ومخاطر على قبورهم المتواجدة قرب الجندل الأول⁽⁸⁵⁾. وهذا النوع من النقوش يعد كذلك مصدراً مهماً بالنسبة لدراسة بلاد النوبة ذلك أن نقوش أمراء أسوان على جدران مقابرهم المحفورة في التلال الحجرية، هي جد مهمة في مدنا بالكثير عن هذه البلاد، فلولاها ما عرف إلا القليل عنها وعن طبيعة العلاقة المصرية النوبية التجارية على وجه الخصوص⁽⁸⁶⁾. إن هذا المصدر يعد الوثيقة المهمة عن البعثات التجارية لتلك الفترة.

وقد روى "حركوف" (Irkouf) على جدران معبده الجنائزي، والذي لا يبعد كثيراً عن "إلفنتين" (Eléphantine)، رحلاته التجارية إلى النوبة السفلى، وتعد هاته الرواية المصدر الأكثر تفصيلاً بخصوص العلاقات بين مصر وبلاد النوبة خلال الدولة القديمة⁽⁸⁷⁾، فهي مصدر هام عن الأسرة السادسة، حيث ترشدنا إلى أن إهتمام المصريين توسع للحصول على سلع أبعد، بتأمين التجارة مع مناطق أبعد، وعرفت السلع المطلوبة من هناك من خلال وجود قوائم لها وضعت من طرف "حركوف"، وهي عديدة⁽⁸⁸⁾، فحركوف كان محافظ أسوان و كان يترأس بعثات الأسرة السادسة إلى الجنوب والتي تمثلت في أربع رحلات، رواها من خلال الكتابة التي نقشت على قبره في أسوان والتي تعود إلى عهد الملك "مرنرع"، حيث قام بثلاث رحلات بإسم هذا الأخير، أما الرابعة فكانت زمن الملك "بيبي الثاني"⁽⁸⁹⁾.

كما تمدنا مقابر أمراء أسوان التي تعود إلى كل من الرحالين: "ميخو" و "سابني" بسيرتهما الذاتية التي نستخلص منها الشيء الكثير: التجارة مع النوبة وكذلك الأخطار الجمة المحدقة بالبعثات التجارية إلى هناك والتي لا تقل عن مخاطر البعثات التي ترسل عبر البحر الأحمر، حيث كان "ميخو" قد قتل هناك أثناء قيادة إحدى البعثات، وقام ابنه الذي أخذ مكانه كحاكم لأسوان وكقائد للبعثات بإحضار جثته⁽⁹⁰⁾. لم تعط قبور حكام أسوان صورة واضحة عن الرحلات المنتظمة التي كانت تقوم بها الأسرة السادسة إلى بلاد "بونت" وبلاد النوبة فحسب بل أيضاً عن الرحلات عبر البحر المتوسط إلى مدينة "جبيل"⁽⁹¹⁾.

وقد ورد ذكر للرحلات إلى بلاد "بونت" من خلال نقوش تعود إلى أشخاص كتبوا سيرهم الذاتية، أحدهم ذكر أنه جلب من تلك البلاد قزماً، وتعود القصة إلى فترة حكم الملك "جد كارع إسييس"، كما ذكرت هذه البلاد خلال الأسرة السادسة من قبل نقش يروي قصة أحدهم الذي كان صحبة سيده وهو حاكم "إلفنتين" في رحلة إلى هناك⁽⁹²⁾.

(3) - E. Angelucci et autres , Op – Cit , p. 18 .

(4) - Guy Rachet, dictionnaire de la civilisation égyptienne , (Paris : Larousse , 1998) , p . 65 .

(5) - جيمس هنري برستيد ، العصور القديمة ، المرجع السابق ، ص . 41 .

(6) - محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية ... ، المرجع السابق ، ص . 242 .

(1) - B. Manley , Op - Cit , p . 26 .

(2) - ب. ج. تريجر وآخرون ، مصر القديمة، التاريخ الاجتماعي ، ترجمة لويس بقطر و مراجعة مختار السويفي وتصدير جاب الله على جاب الله ،

(القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، 1999) ، ص . 145 .

(3) - محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية... ، المرجع السابق، ص . 243 .

(4) - أحمد فخري، مصر الفرعونية ... ، المرجع السابق، ص . 157 .

(5) - Jean Leclant, « à la quête de Pount » , Archéologia, 96 , (Juillet 1976) , p . 41 .

(6) - تريجر وآخرون ، المرجع السابق ، ص. 161 .

(7) - L. Casson , Op – Cit , p. 20 .

إن النصوص عن بلاد "بونت" عديدة منها نقش "حينو" (Henou) الذي يعطي فكرة على إنطلاقة الرحلة من النيل، وكيف كانت مسيرتها⁽⁹³⁾، هذا ونجد أن أفضل مصدر لدراسة بلاد "بونت" هو ما خلد عنها في الرواق المشهور للدير البحري على الشاطئ الأيسر لـ: "طيبة"، إنه الإله آمون الذي يقول لـ: "حتشبسوت": «لقد أعطيتك بونت كلها، أرض الإله، لم تكن قد وطئت من قبل»، إن هذا النقش يعطي أفضل معلومات لدراسة هذه البلاد مع كثير من التفاصيل الواقعية⁽⁹⁴⁾. إضافة إلى ذلك فإن الكتابات المرافقة لمشاهد رحلة "حتشبسوت" جاءت فيها حتى التفاصيل الصغيرة، والتي سوف أتعرض لها في حينه.

وقد تواصل ذكر بلاد "بونت" في النصوص المصرية، حيث إستمرت الإشارات إلى هذه البلاد في عهد "رمسيس الثالث" أثناء الأسرة العشرين حوالي 1180 ق.م.⁽⁹⁵⁾.

ب - النقوش على النصب التذكارية وواجهات الصخور :

هي عديدة ومتواجدة على كل جهات الحدود المصرية سواء كانت شمالية أو جنوبية أو شرقية، وأبدأ بذكر الجهة الشرقية القريبة من البحر الأحمر، حيث نجد واجهات الصخور بـ "وادي حمامات" مغطاة بكتابات خاصة في جزئها الأوسط، أقدمها يعود إلى العصر العتيق الذي يتمثل في الأسرتين : الأولى والثانية أي من 3185 إلى 2715 ق.م، وهناك نقوش تعد أجمل وأدق منها، والتي تعود إلى الدولة الوسطى من 2064 إلى 1797 ق.م، وأما النقوش الأكثر شهرة والملفتة للإنتباه هي التي تؤرخ بعصر الدولة الحديثة (1078-1543 ق.م)، وهي تحوي أيضا تمثيلات لرجال وآلهة⁽⁹⁶⁾.

وهناك نقش يعود إلى الملك "واجي" وجد قرب البحر الأحمر يعد مصدرا هاما من مصادرنا عن تجارة مصر في عهد بداية الأسرات، والذي نقش في صخور واد كان يربط البحر الأحمر بمدينة "إدفو" (Edfou)، ويدل ذلك على أن المصريين كانوا يستغلون المحاجر والمعادن التي إشتهر بها هذا الوادي، كما إتخذها المصريون طريقا تجاريا يربط النيل بالبحر الأحمر⁽⁹⁷⁾.

وكنموذج عن نقوش "وادي حمامات" خلال الدولة الوسطى أذكر نقش للوزير "أمنمحات" الذي خلف كتابة طويلة تروي الرحلة المهمة التي قام بها أثناء حكم "منتوحتب الثالث (حوالي 2060 – 2010 ق.م) وصراعه ضد البدو، وتزويد الطريق بنقاط ماء، فهي تخبرنا عن تركيب البعثات وأهدافها وأعمالها المنجزة والرجال الذين أؤكلت لهم مهمة تلك البعثات التجارية⁽⁹⁸⁾.

وعن أهم وأشهر الكتابات المكتشفة بالصحراء الشرقية بالقرب من البحر الأحمر، ما عثرت عليه البعثة التي وفدت إلى هاته المنطقة من آثار فرعونية على الشاطئ والتي تثبت بصورة مؤكدة ممارسة الفراعنة للتجارة في عرض هذا البحر، وإتصالهم من خلاله مع العالم الخارجي وخاصة بلاد "بونت" فقد أعتبر هذا الإكتشاف نقلة نوعية في علم المصريات، حيث لم يكشف قط من قبل عن مثل هذه الآثار، وبالتالي فهو الرد على من يشكك في عدم ممارسة المصريين لنشاط تجاري في البحر الأحمر قبل زمن الدولة الحديثة. كما أن الإكتشافات على ساحل البحر أثبتت بصورة قطعية موقع بلاد "بونت" الذي درات حوله العديد من التناقضات⁽⁹⁹⁾.

يعود الفضل في هذه المكتشفات إلى بعثة مصرية عملت سنة 1976 على سواحل البحر الأحمر، ومن بين إكتشافاتها أيضا نصب "سنوسرت الأول" (Sesostri I) بالقرب من "بير سفاجا" (Bir Safaga) الذي يعود إلى حوالي 1950 ق.م، ومن بين ما كتب على هذه الآثار بأنه قطع الأشجار وبنى مراكب على شاطئ البحر

(1) - J. Leclant , Op -Cit , p . 41.

(2) - Ibid , p . 41.

(3) - M. Damiano – Appia , Op –Cit , p. 272.

(4) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص 87.

(5) - C. Lalouette, la littérature ..., Op -Cit , p. 54.

(1) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص . 129.

(2) - J. Leclant , Op -Cit , p . 41.

(3) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص ص. 91 – 92 ، 95 ، 118.

(4) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص 78.

الأحمر⁽¹⁰⁰⁾، ومن المكتشفات أيضا ميناء "جواسيس"، والذي أفاد البحرية المصرية خصوصا خلال الدولة الوسطى، وبالإبتعاد قليلا عن هذا الميناء، تتبع الطريق الداخلي الذي سلكه المصريون للوصول إلى الميناء، فكشفت البعثة هناك عن مقصورة بنيت من الحجر الجيري سجلت عليها كتابات محيت أغلبها بفعل الزمن. وتتكون هاته المقصورة من ثلاث لوحات، ولذلك أطلق عليها اسم "لوحة تذكارية على شكل مقصورة"، ونقوش هذه المقصورة تروي أخبار بعثة بحرية إلى "بونت"، إضافة إلى ما تمدنا به عن العصر الذي تنتمي إليه وكذا عن صاحبها، أفادتنا بالمزيد من المعلومات المهمة حيث تروي أخبار بعثة بحرية إلى منطقة "بونت"⁽¹⁰¹⁾، أما عن مضمون هذه اللوحة سأطرق إليه في الموضع المناسب.

ومن بين اللوحات التذكارية التي أكتشفت بالقرب من البحر الأحمر في وادي "جواسيس" من قبل البعثة الأثرية المصرية لوحة "خنت - خاتي - ور"، التي تعود إلى عصر الأسرة الثانية عشر، وأخذت من قبل العلماء دليلا لتحديد موقع الميناء في البحر الأحمر والذي كانت تنطلق منه البعثات التجارية، وقد عثر على هاته اللوحة على بعد حوالي 7 كيلومترات من البحر باتجاه الداخل الشيء الذي إستدل به العلماء في إعتبار ميناء "ساو" القريب من مكان إكتشافها هو ميناء بعثات الفراعنة في البحر الأحمر⁽¹⁰²⁾، وهي منسوبة إلى أمين الخزينة أثناء حكم الملك "أمنمحات الثاني" الذي سجل في تلك اللوحة معلومات عن نجاح بعثة إلى بلاد "بونت" والتي حدثت في السنة الثامنة والعشرين من حكم ذلك الملك⁽¹⁰³⁾.

ومن بين ما كشفت عنه البعثة المصرية لوحة "خنوم حتب"، وهي تعود إلى السنة الأولى من فترة حكم الفرعون "سنوسرت الثاني" (رابع ملوك الأسرة الثانية عشر) أي حوالي 1895 ق.م، ونجد في الأعلى الملك وأمامه إله "سيد أرض الكحل" و "رب الشرق"، ولا نلمس في هذه اللوحة أي إشارة إلى نشاط بحري أو إلى ميناء على عكس ما هو عليه الحال بالنسبة للوحة "خنت - خاتي - ور"، التي لها فائدة كبيرة من حيث المضمون باعتبارها الدليل الأثري الوحيد من بين الآثار المصرية التي تذكر إسم الميناء "ساو" ووجودها بعيدا عن الميناء ب: 7 كيلومترات بسبب نقلها من مكانها على الشاطئ عند موقع الميناء، وقد واصلت البعثة عملها للبحث عن بقية الطرق فعثرت على بعد حوالي 200 م غرب المقصورة على لوحة من الحجر الجيري تدعى لوحة "أنتيفوكر" على الطريق البري الذي سلكته بعثة "سنوسرت الأول" إلى بلاد "بونت"، ولقد نقشت عليها كتابة بلغ عدد سطورها عشرة. إن أهمية هذه اللوحة تكمن في المعلومات التاريخية التي حوتها والمتمثلة في أمر صادر من قبل هذا الفرعون لوزيره "أنتيفوكر" يأمره فيه ببناء سفن لإرسالها إلى منطقة "بيا- بونت"⁽¹⁰⁴⁾.

ولقد تعرفنا عما كان يجلب من الواحات الغربية من خلال صلاية الملك "عحا"، حيث أن ملوك عصر بداية الأسرات إتبعوا سياسة تأديب البدو في الصحارى الشرقية والغربية من أجل حماية القوافل التجارية وإستغلال مناجم المعادن والمحاجر هناك، فهي تعد مصدرنا عن ذلك، فقد جسدت صورا لما كان يجلب من الواحات الغربية⁽¹⁰⁵⁾. ومن جهة أخرى تعطينا لوحة "نارمر" إسم أقدم ميناء على ساحل البحر المتوسط، حيث ذكر بإسم «A-Ur»، والذي كانت تعقد عبره العلاقات مع العالم الخارجي⁽¹⁰⁶⁾.

ومن بين مصادرها عن الإتصالات الجنوبية نقش بإسم الملك "جر" ثاني ملوك الأسرة الأولى على جبل "الشيخ سليمان" قرب "وادي حلفا"، وفسر بأنه يدل على وجود تبادلات تجارية بين مصر والنوبة السفلى وكذا بلاد السودان⁽¹⁰⁷⁾، كما إعتقد البعض من خلال ذلك النقش أن المصريين كانوا قد أقاموا هناك منذ ذلك الزمن القديم مدنا في تلك البلاد من أجل إيواء عمال المناجم ولتكون كمراكز تجارية⁽¹⁰⁸⁾.

وهناك مجموعة من نصب مشيدة في بلاد النوبة تخلد الإنتصار المصري مع وجود تمثال الملك "سنوسرت الثالث" ومما سجل عليها عبارة: يمنع على الأهالي تجاوز ما بعد حد "سمنة" (Semnah) دون رضى أو موافقة

(5) - T. Save – Soderbergh , Op – Cit , p. 12.

(1) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص ص . 80 – 81 ، 105 - 106.

(2) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص . 87.

(3) - G. Dykmans , Op –Cit , t. 1, p. 254.

(4) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص . 87 .

(5) - محمد إبراهيم بكر ، صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديم ، (مصر : مطبعة هيئة الآثار المصرية، 1992) ، ص . 161.

الملك⁽¹⁰⁹⁾، وهو دليل واضح على أن التجارة كانت جد منظمة على الحدود ومحمية من غزو البضائع الخارجية، حيث كانت الشرطة الملكية تراقب بشدة الواردات بأمر من ذلك الملك، وهو ما تنص عليه نقوش ذلك النصب المشهور بـ: "سمنة" عند الجندل الثاني⁽¹¹⁰⁾.

كما كان الشمال الشرقي غنيا بالنقوش، والتي عثر على بعض منها في الأنفاق الموجودة تحت الطرق التجارية، وهي تثبت بأن الطريق إلى فلسطين وجد منذ زمن "نارمر"، حيث عثر مؤخرا على أنقاض من طين تحمل إسم هذا الملك⁽¹¹¹⁾. وهناك نقش بسيناء يعود إلى زمن الدولة الحديثة، أشار إلى مجيء منتوجات "بونت" في السنة السادسة والثلاثين من حكم الملك "أمينوفيس الثالث"، والذي يقول فيه أحد موظفي الملك الذي أرسله إلى هناك (شاطئ البحر) ليستقبل تلك المنتوجات: «جئت إلى شاطئ البحر لأستقبل عجائب "بونت" من الصمغ العطري الذي أحضر من قبل رؤساء تلك البلاد ...». لكن النقوش في هذه المنطقة لا تدل فقط على مجيء تجار أجانب محملين بسلعهم، بل هناك نقوش تثبت قيام بعض فراعنة مصر برحلات تجارية إلى "بونت"، منها نقش يذكر أن الملك "رمسيس الثاني" أرسل بعثة إلى هناك⁽¹¹²⁾.

وهكذا فإن النقوش التي تتعلق بموضوع التجارة في عمومها، سواء منها التي اكتشفت على جدران المعابد والقبور، أو التي اكتشفت في الهواء الطلق على طرق القوافل، تشير إلى مجيء أجانب وخاصة من الآسيويين إلى مصر⁽¹¹³⁾. وفي نفس الوقت تشير إلى البعثات التي كان يقوم بها المصريون، وهي بذلك تعد مصدر هام للتعرف على مدى الإرتباط التجاري الوثيق بين مصر ومحيطها الجوّاري.

وهناك نقش اعتبره جد هام لأنه يتناول العلاقة بين المملكة الفرعونية والتجار الإغريق، ويتمثل في نصب نقراتيس نسبة إلى المكان الذي وجد فيه، والذي تم العثور عليه سنة 1899 م، وهو يؤرخ بالسنة الأولى من حكم الفرعون "نكتنبو الأول"، وأهم ماجاء فيه، وهو يتعلق بموضوع الدراسة، ماكتب في نهاية السطر الثامن والأسطر الموالية من التاسع إلى الثاني عشر، والتي تتحدث عن الشروط المفروضة على التجار الإغريق آنذاك من إتاوات⁽¹¹⁴⁾. ولو أن هذا النقش لم يعط تفاصيل كثيرة عن تجارة الأجانب الإغريق، إلا أنه أثبت بما لا يدعو مجالا للشك حقيقة الوسطاء الأجانب في التجارة المصرية، وإعطاء فكرة عن القانون التجاري المطبق على هؤلاء، فرغم أهمية وسطاتهم إلا أنها لم تكن مطلقة بل كانت محدودة بقوانين.

ج - حوليات الملوك :

هي عبارة عن قوائم بأسماء الملوك مع ذكر ماجرى خلال سنوات حكمهم بالترتيب، ويمكن تلخيصها في :
" حجر بالرمو " و " قائمة الكرنك ".

وأبدأ بأشهرها وأهمها والمتمثل في "حجر بالرمو"، وهي كتلة من الديوريت (Diorite) موجودة في متحف بالرمو (Palerme)، بينما توجد أربع قطع أخرى بمتحف القاهرة، وقطعة أخيرة كانت قد اكتشفت من قبل عالم المصريات البريطاني "بيترى" (Flinders Petrie)، وهذه الحوليات تتصف بأنها ناقصة⁽¹¹⁵⁾.

يبلغ طولها 2 م، ونقشت عليها حوليات ملكية للمؤسسين الأسطوريين إلى غاية مؤسسي الأسرة الخامسة⁽¹¹⁶⁾، حيث توقفت عند ثالث ملوك هذه الأسرة، وهو الفرعون : "نفرير كارع"، وميزتها أنها أول ما

(6) - B. Manley , Op -Cit , p . 50 .

(1) - F. Daumas , Op -Cit , p . 222 .

(2) - E. Hornung , Op -Cit , p . 15 .

(3) - T. Save – Soderbergh , Op -Cit , pp . 25, 28 .

(4) - محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية ...، المرجع السابق ، ص . 88 .

(5) Dominique Maillet, «les rapports des Grecs avec l’Egypte (de la conquête de Cambyse, 525; à celle d’Alexandre, - 331) », in : Mémoires de l’Institut français d’Archéologie orientale du Caire, (le Caire, 1922) , t . 48, pp. 144- 145,150.

(1) - G. Rachet , Op-Cit , p . 20 .

(2) - B. Manley , Op-Cit , p . 24 .

عرف عن مثل هذا التسلسل للملوك في العصر القديم وواضعها تميز بتنظيم ما دونه، حيث راع في ذلك تسلسل الأحداث من سنة إلى أخرى، أي من الأقدم إلى الأحدث، ثم إنه فصل بين سنة وأخرى بخط. لدرجة أنه يمكن التمييز بين ملك وآخر بسهولة لأنه فصل بينهما أيضا بخط(117).

ويعد حجر "بالرمو" وثيقة تاريخية، تم إعدادها في زمن الأسرة الخامسة، ورغم أن الجزء الأكبر منها لا يزال مفقودا إلا أن ذلك لم ينقص من أهميتها(118). أما عن أهميتها بالنسبة لموضوع الدراسة فهي تتمثل في ذكرها لتفاصيل عن حملة الملك "سنفرو" في بلاد النوبة، والتي قام بها هو بنفسه. هذا وقد أعطتنا حوليات هذا الملك معلومات قيمة عن النشاط التجاري لهذا الأخير حيث ذكرت المبادلات التجارية في عهده مع الساحل السوري، وذكرت بأنه خلال عام واحد فقط وصلت إلى مصر من تلك البلاد أربعون سفينة محملة بأخشاب الصنوبر(119). فهذا الحجر إذن فيه ما يشير إلى وجود تجارة مع لبنان، وإلى الأخشاب التي كانت تجلب من هناك، والتي كان يستعملها الملك في بناء هرمه القبلي بمنطقة دهشور، وذلك باستخدامها كدعامات للأحجار والتي ظلت على حالها إلى يومنا هذا.

ويمكن أن نستخلص أيضا من خلال قراءة هذا الحجر وحسبما جاء في حوليات الملك "ساحورع" وهو أمر مهم، ذكر بعثتين إحداهما إلى سيناء والأخرى إلى بلاد "بونت"، وبخصوص هذه الأخيرة فهي المرة الأولى التي يتم التطرق فيها إلى الرحلات باتجاه بلاد "بونت" عبر البحر الأحمر. ودائما حسب هذه الحوليات كان يجلب من بونت المرّ (Myrrhe) و "الإلكتروم" (Electrum)(120)، وعلى وجه الخصوص البخور الذي ورد ذكره منذ "ساحورع" وفق ما جاء في هذا الحجر(121). فهذه الإشارات يمكن اعتبارها دليلا ماديا صريحا وقطعيا على أن المراكب المصرية كانت ومنذ الأسرة الخامسة تذهب إلى بلاد "بونت".

وثمة قوائم أخرى تطرقت إلى حوليات الملوك وهي بدورها تعد من المصادر المكتوبة، ولها فضل كبير في تعريفنا بكثير من المعلومات التاريخية لأنها تعد سجلات كتبت من قبل المصريين، وهذه القوائم كانت قد وضعت زمن الدولة الحديثة، وقد نقشت على مواد مختلفة، فبعضها نقش على جدران المعابد والمقابر وبعضها سجل على أوراق البردي.

إن أقدم هذه القوائم هي التي نقشت أثناء حكم الملك "تحوتمس الثالث" في معبد "آمون" بالكرنك (طيبة)، ولم تكن بالتأكيد الأولى في التاريخ، لأننا نعلم بوجود قوائم مماثلة، وحتى حوليات تعود إلى عصور سابقة، هذه الحوليات محررة على نصب من حجارة التي كانت تشيد في بعض المعالم العمومية، وخاصة في المعابد، حفظت لنا قطع من هذه النصب في حجر "بالرمو"(122).

وأهم ما يفيدنا من هذه القائمة هي حوليات الملك "تحوتمس الثالث" التي تشير إلى إنتظام العلاقات التجارية خلال عصره، إذ عرفت الفترة من السنة الخامسة والعشرين إلى السنة التاسعة والثلاثين من حكمه وصول قوافل من الجنوب محملة بالمنتجات الإفريقية عبر النوبة، والتي أطلقت عليها هذه الحوليات تسمية "جزية"(123)، في الحقيقة هي ليست جزية، بل هي سلع تجارية، لأن نفس التسمية كانت قد أطلقت على سلع بلاد "بونت" التي جلبها رسل أتوا عبر البحر تتكون أساسا من المرّ، كما تخبرنا نفس الحوليات عن مجيء هؤلاء مرة أخرى في السنة الخامسة والثلاثين وكذلك في السنة الثامنة والثلاثين من حكم نفس الملك(124).

أما بردية "هاريس" التي تتجاوز 40 مترا طولا، فإن محتواها يتكلم عن الطقوس، وبها أناشيد، تعليمات، وروايات... إلخ(125)، وقد يبدو هذا المحتوى بعيدا عن موضوع الدراسة إلا أنه في حقيقة الأمر ذكرت أشياء

(3) - أحمد أمين سليم وسوزان عباس، دراسات في تاريخ مصر الفرعونية : منذ أقدم العصور حتى بداية الدولة الحديثة، (الإسكندرية : دار المعرفة

الجامعية، دون تاريخ) ، ص ص . 10 - 11.

(4) - جيفري سينسر ، المرجع السابق ، ص . 19 .

(5) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص . 101 .

(6) - G. Dykmans , Op -Cit , t. 2 , p. 275 .

(7) - Michel Mollat du Jourdin et Jehan Desanges , les routes millénaires , (Paris : Nathan, 1988) , p. 97 .

(1) - H. Gauthier, Op-Cit , p . 69 .

(2) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، الدور المصري في جنوب شبه الجزيرة العربية والشرق الإفريقي ، مراجعة سيد أحمد على الناصري ،

(القاهرة ، 1997) ، ص . 35 .

(3) - T. Save – Soderbergh , Op -Cit , p. 21 .

(4) - F. Daumas, Op -Cit , p . 628 .

هامية تعد في صميم هذه الدراسة لأنها تعد من مصادرنا عن معرفة منتجات شعوب غرب النيل، التي كانت تتاجر فيها مصر والتي كان معظمها يدخل ضمن الطقوس الدينية، وخاصة منها الزيت والنبذ، وبالتالي تبين إهتمام المصريين بالواحاح الغربية.

د- الأدب القصصي :

إن الكتاب المصريين كانوا الأوائل الذين قاموا بكتابة الروايات الشعبية والتي كانوا لا يقصدون منها سوى التسلية والإطلاع لا غير (126)، وقد ظهرت الأعمال الأدبية المصرية الأولى في نهاية الأسرة الثانية عشر، وقد أستمدت هذه الأعمال من النصوص الجنائزية للنبلاء، وهي عبارة عن "شبه سير ذاتية" (127)، فالمصريون القدامى لم يكونوا يجهلون النوع الأدبي الذي نسميه اليوم : "الرواية" بل برعوا فيه، فالأدب المصرية كانت تحوي العديد من الروايات (128). وحسب "نعيم فرح" فبينما هذا النوع من الأدب لم يصلنا منه شيء يعود إلى زمن الدولة القديمة، فإن عصر الدولة الوسطى يعد قمة ازدهار هذا الأدب حيث خلف لنا قصصا قيّمة، كما لا تخلو الدولة الحديثة منه حتى في فترات الضعف والإحتلال الأجنبي، ومن بين هذه القصص ما روي لنا من رحلات قدماء المصريين أثناء الدولة الوسطى التي تميزت بعلاقاتها الخارجية المتميزة وخاصة التجارية منها (129).

فهذا الأدب القصصي يعد المصدر الأساسي والمهم عن قيام البعثات التجارية المصرية في اتجاهات مختلفة، بالإضافة إلى صور بعض الرحلات التي أتيت على ذكرها.

*** قصة "أوزيريس" :**

هي عبارة عن أسطورة تدل على أن البحارة المصريين كانوا معتادين على الساحل السوري منذ حكم الآلهة، حيث تروي أن نعش "أوزيريس" (Osiris) رمي من قبل "ست" (Seth) في النيل، وكان قد نزل في الفرع "تانيتيك" (Tanitique)، وقد دفعه البحر إلى غاية "جبيل" أين إبتلعه هناك شجرة، وقد ذهبت "إزيس" إلى ذلك المكان، وإستقرت بالقرب من مجرى ماء، وكانت تصفف شعر خادمت الملكة عندما كنّ يأتين لملا جرارهن من ذلك المكان، ولما سمعت ملكة "جبيل" بقصتها وما جرى لزوجها "أوزيريس" أعطت لها الشجرة التي تحوي نعش زوجها (130)، هذه الأسطورة تصور لنا بأن الطريق البحري إلى الساحل السوري كان معروفا منذ فترة حكم الآلهة على الأرض، وأن العلاقات السلمية بين الطرفين كانت سائدة آنذاك، والتي تجلت من خلال الصفقات التجارية.

*** قصة " الفلاح الفصيح " :**

سجلت أحداثها على أوراق البردي، وهي تروي قصة أحد القرويين، والذي يدعى "خو إن أنوب" من "وادي النطرون"، كان يتعاطى تجارة هاته المنطقة مع العاصمة "أهناسيا" ذهابا وإيابا، وهو محملا بمحاصيل تلك الواحة وبالمقابل كان يعود ورفقته منتجات وادي النيل الزراعية (131)، وهي بذلك تعطي إشارات عن التجارة الداخلية، وفي نفس الوقت تعطي أيضا صورة عن بعض السلع المتداولة بين مصر الفرعونية وشعوب غرب النيل.

*** قصة " الملاح الناجي " :**

سجلت هي الأخرى على بردية، وهي الآن محفوظة بمتحف "الأرميتاج" في "لينيغراد" تحت رقم 1115، وتتخلص في كون هذا الملاح الذي هو من الطبقة الوسطى (نحيس)، كان ضحية عاصفة بحرية هوجاء أثناء ذهابه في رحلة إلى مناجم الملك، فنقوده الأقدار إلى جزيرة سميت في القصة بـ: "الروح السرية" حيث جاء فيها وصف الطبيعة الخلابة لهذه الجزيرة، كما تعرضت القصة لشخصيات خيالية متمثلة في أمير الجزيرة والذي وصف بأنه كان في هيئة حية وكان قد أكرم الملاح وزوده بخيرات "بوننت" من العطور والعاج (132)،

(5) - G. Posener et autres , Op -Cit , p . 66.

(6) - B. Manley , Op-Cit , p . 56.

(1) - Zvi Herman, peuples, mers, navires, traduit par Josef Milbauer, (Paris : Edition Art et métiers graphiques , 1964),

p. 185.

(2) - نعيم فرح، المرجع السابق ، ص . 98.

(3) - P. Montet , Op -Cit , p. 175.

(4) - أحمد فخري ، مصر الفرعونية...، المرجع السابق، ص ص 176- 177.

(132) - نعيم فرح ، المرجع السابق ، ص. 98.

وهذه القصة من أشهر قصص الأدب المصري، تؤرخ ببداية الأسرة الثانية عشر ويحتفظ بنصها كاملاً. وهي توضح الصورة التي رسمها المصريون عن "بونت" بلاد البخور (133). فمن خلالها نكتشف مغامرة أحد الملاحين المصريين حين تعرضت السفينة التي كان على متنها لعاصفة بحرية قذفت به إلى جزيرة تبعد مسافة سير تقدر بشهرين من تلك الجزيرة إلى مدينة طيبة، وتزعم القصة أن الجزيرة المقصودة هي بلاد "بونت" التي تميزت بوجود التوابل والحيوانات الإفريقية (134)، وعلى ما يبدو فإن هذا الملاح الذي يدعى "Khemhotep" كان قد اجتاز مضيق باب المندب، ويحتمل أن الجزيرة التي إرتطم عليها مركبه تدعى جزيرة "الروح" (Esprit) وهي تسمى Saint John Island الحالية أين إستقبل فيها بترحاب من قبل ثعبان ضخم مغطى بحلقات من ذهب وله لحية طويلة، وظل الملاح هناك إلى غاية مجيء مركب مصري حيث عاد معه رفقة الهدايا: العاج، صمغ البطم، القروء، عطور و ذبول الزرافات لكن ما إن أخذت السفينة طريق العودة نحو الشمال حتى إختفت الجزيرة العجيبة في الأمواج لأن الآلهة لم تشأ أن يصل إليها ملاحون آخرون (135).

إنها رواية تحوي أقدم أسطورة وصلت إلينا عن البحارة، فقد كانت تروي العلاقة المباشرة بين غرق السفينة وشاهد عاش الحدث (136)، وتمدنا قصة "الملاح الناجي" بعدة معلومات حول السلع والطريق التجاري إلى بلاد "بونت" عبر البحر الأحمر ومخاطر الإبحار فيه، وسوف أتطرق إلى هذه الأمور في حينه.

* قصة "سنوحي":

هناك قصة أخرى لا تقل أهمية عن القصة السالفة الذكر وهي قصة "سنوحي" التي هي عبارة عن سيرة ذاتية لأحد جلساء الملك "أمنمحات الأول" الذي هرب من مصر عند موت الملك خوفاً من التورط في الإضطرابات السياسية التي حسب رأيه ولدت مشكلة وراثية الحكم (137). ماذا نعني بقصة "سنوحي"؟

هي نص أدبي من الأسرة الثانية عشر، أصبحت من أشهر روايات الأدب المصري، وهي محفوظة في عدة نماذج، ويوجد منها حالياً خمس برديات إثنان منها أساسيتان وهما في متحف برلين، ويحوي متحف "أكسفورد" النسخة الأكثر كمالاً للرواية، إن هذه القصة تدشن نوعاً أدبياً من الرواية التاريخية والسيرة الذاتية، وكانت بداية هذا العمل مع بداية الأسرة الثانية عشر (حوالي 2000 ق.م) (138).

تعود هذه القصة إذن إلى أحد الأمراء الذي غادر مصر فاراً من أن يعاقب بتهمة التآمر على الملك، فتوجه إلى سوريا، التي روى فيها مصاعب معيشته هناك والمصاعب التي صادفته أثناء توجهه إليها (139)، وهو بذلك يعد أول مصري زار فلسطين وترك لنا أثراً عن أخبار رحلته في الفترة ما بين 2000 و 1970 ق.م، وهو يشير إلى نفسه بلقب "ملك بين البدو" (140)، ولخوفه الشديد من أن يكون طرفاً في المؤامرة المحاكاة ضد الملك، قام ليلاً بإجتياز الجدار الملكي، حيث يقول: «لقد أخذت الطريق عند الليل، وفي الغد كنت قد وصلت "بيتين" (Peten) وكنت قد إسترحت في جزيرة "Komouer"، وهناك إشتد بي العطش وخارت قواي، فقلت إنه الموت، ثم تشجعت وجمعت أطرافي بعد أن كنت قد سمعت صوتاً بعيداً، وهو صوت مجموعة من الآسيويين (Settiou)، وكان من بينهم واحد من شيوخهم عرفني لأنه كان قد أقام في مصر، فأعطاني الماء والحليب، وأخذني معه إلى قبيلته، وساعدني على التنقل من منطقة إلى أخرى. وقد سافرت إلى جيبيل (Keben) و وصلت إلى غاية الشرق "Kedem"، حيث أقمت هناك عاماً ونصف، وكان قد إستدعاني حاكم "لاتانو" (Latanou) العليا والذي يدعى "أنشي" (Enshi) ابن "عامو" (Amou) وقال لي: ستجد نفسك مرتاحاً عندي، ستسمع عندي أخباراً عن مصر، لقد قال لي هذا الكلام لأنه يعلم من أكون من خلال ما كان يسمعه عن شخصي ومكانتي، ولأن المصريين الذين كانوا معي في هذه البلاد أكدوا له شهادتهم عني». وهكذا أصبح "سنوحي" شخصية مرموقة لدى قبيلة كنعانية بسوريا، حيث تزوج و إستقر هناك وجاء في قصته: «زوجني شيخ لاتانو (Latanou) إبنته البكر ومنحني

(133) - محمد الخطيب، المرجع السابق، ص. 144.

(134) - جورج فضلو حوراني، العرب والملاح في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة يعقوب بكر ومراجعة وتقديم يحيى الخشاب، (القاهرة - نيويورك: مكتبة الأنجلو- المصرية، 1958)، ص. 31.

(135) - A. Gaudio, Op- Cit, pp. 153-154.

(136) - عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص. 103.

(137) - G. Posener et autres, Op-Cit, p. 270.

(1) - M. Damiano – Appia, Op- Cit, p. 238.

(139) - نعيم فرح، المرجع السابق، ص. 98.

(140) - فيليب حتي وآخرون، تاريخ العرب مطول، (ط 2؛ بيروت: دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، 1952)، ج 1، ص. 41.

أرضاً من بين أحسن ما يملكه على حدود بلد مجاور، إنها أرض ممتازة وإسمها Aïa يوجد فيها التين، العنب، الخمر، وكذا كميات كبيرة من الماء والعسل بوفرة، وكذلك الزيت وكل أنواع الفاكهة وأيضاً الشعير والحنطة وكل أنواع الحيوانات، ومنحت لي إمتيازات كبيرة حيث عشت زعيماً في هذه المنطقة» (141). لكن عندما بلغ الشيخوخة حنّ إلى رؤية وطنه، وقد عفا عنه الملك "سنوسرت الأول" وسمح له بالعودة (142)، وكان برفقة شيوخ من بلاد "Kedem" وبلاد "الفينيقيين" (Fenkhieu)، وقد كتبت أحداث مغامرة "سنوحي" أثناء حكم الملك "سنوسرت الأول" (143).

و يعتقد بأن "سنوحي" كان وسيطاً تجارياً بين مصر وتلك البلاد والدليل على ذلك قوله: «وهكذا قضيت أعواماً طويلاً حتى صار أبنائي أشداء ... وكان الرسول الغادي و الرائج إلى القصر يقف عند بابي» (144)، المقصود من ذلك الرسول هو التعبير عن التجار الذين كانوا يذهبون إلى مصر من بلاد الشمال أو الذين يأتون من مصر للتجارة مع فلسطين ومناطق الشمال الأخرى.

تكشف هذه القصة عن تعاظم بدو صحارى شمال شرق مصر التجارة مع هذه الأخيرة، وكانوا يأتون في جماعات إلى مدن مصرية هامة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تدل نفس القصة عن وجود رسل وتجار مصريين كانوا يذهبون إلى لبنان بصورة دائمة وكانوا متواجدين بها بأعداد ملفتة للنظر بل يتجاوزونها أحياناً إلى مناطق أبعد (145)، إن قصة "سنوحي" تعتبر مصدراً بالنسبة للعلاقات التجارية بين بلاد الشام ومصر، لأنها تكشف عن جوانب كثيرة للتجارة المصرية خلال زمن الدولة الوسطى مثل الطريق البري ومدى رواج تجارة القوافل في الإتجاهين.

*** قصة " أونامو " :**

ومن القصص التي تشير إلى العلاقات التجارية قصة " أونامو " (Ounamon) التي تعود إلى القرن الحادي عشر ق.م، حيث تشير إلى توتر العلاقات التجارية بين "جبيل" و "تانيس" (Tanis) في الدلتا (146)، وقد سجلت هذه القصة على بردية "بتروغراد" (Petrograd)، وتروي صعوبة التوصل إلى إتفاق تجاري بين الملك "زكر بعل" (Zaker-Ba'al) ملك "جبيل" والمبعوث المصري من قبل الملك Smendès (147)، وهي قصة أحد كهنة معبد "طيبة" جرت وقائعها زمن ضعف مصر حيث لم تعد تسيطر تجارياً على آسيا الغربية، وفي هذه الأثناء كان هذا الكاهن الذي يدعى "أون آمون" في رحلة إلى سوريا من أجل إحضار الأخشاب لكن بدلاً من ذلك سجن وذاق الأمرين، وتروي هذه القصة الأحداث الواقعية (148).

هناك من يرى بأن " أونامو " هذا عاش في زمن الملك "رمسيس الثاني عشر"، وكان يحتل مكانة هامة في معبد "أمون". كان إنساناً مثقفاً ورجل خبرة، وهو بالتأكيد كان يملك أهلية كبيرة في المجال التجاري، لأن الفرعون كلفه بمهمة تجارية كبيرة، حيث أمره بالتوجه إلى لبنان لشراء خشب الأرز، وذلك لأجل بناء مركب جديد مخصص للإله "أمون" أكبر الآلهة، بيد أن هذا الأخير كان لا بد أن يجدد مركبه على الأقل كل سنة، ومنح الكاهن الأكبر "حيريحور" (Herihor) لـ : "ون- آمون" (المبعوث) مبلغاً ضعيفاً لدفع ثمن الخشب اللازم شراؤه. هذه القصة تعطينا فكرة عن عصرها أين تلاشت فيه القوة المصرية، في حين – كما يقول "هرمان" - أخذت المدن الفينيقية تتنامى، وهو عصر تزامنت فيه القرصنة مع التجارة، فالمراكب كانت تحاصر المدن البحرية وتقطع طرق الإتصال كما كانت تهاجم التجمعات الواقعة على ساحل البحر (149)، كما تعطي أيضاً فكرة

(4) - V. Bérard, Op-Cit , pp. 162-163.

(142) - Z. Herman, Op-Cit, p. 185.

(143) - V. Bérard, Op-Cit , p. 164.

(1) - روايات وقصص مصرية من العصر الفرعوني، ترجمتها إلى الفرنسية جوستاف لوفيفر وترجمها إلى العربية علي حافظ وراجها أنور عبد

العزیز، إشراف الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم، (مصر: دار مصر للطباعة، دون تاريخ)، ص.49.

(2) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص. 177.

(3) - (31p, (Avril 1991), *Archéologia*, 267, « la Barque royale de Khéops », **Henri Stierlin**

(4) - V. Bérard , Op -Cit , 127.

(5) - نعيم فرح، المرجع السابق، ص.98-99.

(1) - Z. Herman, Op- Cit, pp. 197, 209.

(2) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص.139.

(3) - **محمد بيومي مهران، الحضارة المصرية القديمة،** (ط 4؛ الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1989)، ج. 2، ص.218.

عن تنظيم البعثات التجارية وإرسالها إلى الساحل الفينيقي، والطريق الذي سلكته وكذلك العقبات الطبيعية والبشرية التي كانت تتعرض لها الملاحة التجارية. لذلك تعد مصدرا ثميناً، فبالإضافة إلى كونها تعطي صورة عن صعوبة التجارة والحالة السيئة التي آلت إليها، فإنها ذات قيمة هامة لأنها تعدد المنتوجات المصدرة من قبل المصريين.

* قصص أخرى :

ومن مصادرنا عن التجارة المصرية ما يرويه بعض الملاحين ومنهم "خنوم حوتب"، هذا الملاح المصري الذي ترك وثيقة سجل فيها بأنه كان يرافق رئيسه "ثني وخورى" في رحلاته التجارية في البحر المتوسط قاصدين ميناء "جبيل"، كما كانت له رحلات عبر البحر الأحمر إلى بلاد "بونت"، حيث روى ما كان يشاهده هناك مستمتعاً بأسفاره تلك، والتي قدرها بإحدى عشرة رحلة وهي تكشف عن تواصل وإستمرار الإتصالات التجارية بين مصر وبلاد "بونت"، وقد حدثت هذه الرحلات زمن الأسرة السادسة (150).

وهناك قصة أخرى تعود إلى زمن هذه الأسرة يرويها "بيبي نخت" أو ما يدعى بكنية: "حقا-إيب"، هذا الشخص ربما كان قائداً للجيش والذي ذهب بأمر من الملك إلى بلاد الآسيويين، والتي من المحتمل أنها تقع على شاطئ البحر الأحمر، وذلك لإحضار "رئيس البحارة وقائد القوافل" الذي قتل من قبل البدو الساكنين هناك على إثر مجزرة تعرض لها هو ورفاقه حيث ذبحوا فيها جميعاً، وحدثت هذه الواقعة بينما كانوا يقومون ببناء سفينة على ذلك الشاطئ إستعداداً لإحدى الرحلات إلى بلاد "بونت" (151).

يُستخلص من هاته الرواية نقطة إنطلاق الطريق إلى "بونت" زمن الدولة القديمة، كما توضح مدى الأخطار التي كانت تتعرض لها البعثات التجارية في البحر الأحمر، وتعطينا كذلك فكرة عن نظام حماية مثل هذه الرحلات البحرية (152).

هذه النماذج تدل على أن القصص المصرية سواء منها الأسطورية أو الواقعية هي وثيقة هامة في مجال دراسة التجارة الفرعونية بصورة عامة والبعثات التجارية بصورة خاصة، لأنها تعد مصدراً غنياً بتفاصيل لم توجد في مصادر أخرى كتابية أو أثرية.

هـ - كتابات على أوراق البردي :

منها بردية "Admonition" التي ترسم لوحة لحالة من الإضطرابات التي سادت مصر خلال مرحلة "Héracléopolitaine" (أي الفترة التي كانت فيها العاصمة هيراقليوبوليس)، وهي تبين تجارة الأخشاب والزيتون التي كان المصريون يجلبونها من الموانئ السورية، وهي تجارة تمتد إلى سكان جزر وبلدان أخرى منها "كيفتيو" (Les Keftious) الذين كانوا يدعون "Les Cilciens" أو الكريتيين (153).

أما بردية "برو- نوفة" والموجودة بالمتحف البريطاني، فهي تذكر كيفية صناعة السفن أثناء حكم الملك "تحوتمس الثالث"، وقد ذكرت حتى أنواع الأخشاب التي أعطيت للمكلف ببنائها وهو رئيس البنائين، وذلك خلال ثمانية أشهر، وتطرق لأنواع السفن والقوارب التي تصنع في ذلك الميناء (154)، وهي بالطبع تصنع من مواد أساسية مستوردة. كما حفظت لنا بردية "هاريس" أحداث بعثة "رمسيس الثالث" إلى بلاد "بونت" (155). رغم قلة هذه البرديات إلا أن ما إحتوت عليه كان له فائدة كبيرة لموضوع الدراسة من جوانب عدة، وبذلك تعد وثائق مكملة لما قدمته المصادر الأخرى، ولو أكتشف المزيد منها لأعطت معلومات أوفر.

و- رسائل "تل العمارنة" :

في سنة 1887 أي بعد مرور ثلاثة آلاف سنة عن الزمن الذي تعود إليه رسائل "تل العمارنة"، وأثناء بحث أحد القرويين عن تربة لتخصيب حديقته، إصطدم صدفة بأشياء صلبة والتي تمثل جزء من الأرشيف الرسمي لـ:

(4) - G. Dykmans , Op -Cit , t. 2, p. 276.

(1) - V. Bérard, Op – Cit , p 160.

(2) - محمد بيومي مهران، الحضارة المصرية...، المرجع السابق، ص.224.

(3) - عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص.12.

"أمينوفيس الرابع" (إخناتون) وقد سمي هذا الأرشيف بإسم المكان الذي يوجد فيه وهو " تل العمارنة "(156)، التي تقع على بعد 320 كلم إلى الشمال من " طيبة "، والتي كانت عاصمة لهذا الملك (157).

و يرجع البعض تاريخ إكتشافه إلى سنة 1888 م، و هو مكون من آلاف الألواح الطينية منقوشة بكتابات بابلية(158)، والبعض الآخر يذكر بأن ذلك الإكتشاف حدث سنة 1893، وكان " بيري " هو الذي إكتشفه في المدينة التي كانت تدعى " أخيت أتون " أي " تل العمارنة "(159).

إن أرشيف العمارنة هو فريد من نوعه بحيث لم يوجد أي مصدر معروف قبل المرحلة المتأخرة غني بالتفاصيل المتعلقة بالسياسة المصرية مثلما وجد في هذا الأرشيف، كما يعد وثيقة من الدرجة الأولى عن الحياة السياسية لذلك العصر. وهذه الوثيقة هي مجموعة كاملة لأرشيف قصر " إخناتون "، لذلك تعد مصدرا فريدا لدراسة الدبلوماسية في الشرق الأدنى القديم أي إعطاء رؤية جد مفصلة للحياة السياسية للشرق الأدنى خلال القرن الرابع عشر ق.م(160).

يتضمن هذا الأرشيف لوحات طينية يفوق عددها الثلاث آلاف من بينها رسائل الفرعون إخناتون أو سابقه " أمينوفيس الثالث "، ومختلف أمراء الشرق الأدنى، وعدد من هذه الرسائل كان قد كتب من قبل حكام نفس المدن الساحلية، التي كان الملك " تحوتمس الثالث " قد حولها إلى قواعد بحرية تحت سلطته، فهذه الرسائل تبين كيف أن هذه المدن التي كانت في السابق تدار من قبل الفرعون، أصبحت تسقط الواحدة بعد الأخرى في أيدي الأعداء فهي تشير إلى أن مصر أصبحت ضحية أمام قراصنة البحر(161).

وقد بلغ عدد هذه الرسائل أكثر من 350 رسالة متبادلة بين ملك مصر ومؤيديه خلال حكم كل من "أمينوفيس الثالث" و "أخناتون" و "توت عنخ آمون"، وهي في الإجمال تغطي ربع قرن، وتنقسم هذه الرسائل إلى مجموعتين: مجموعة تعود إلى الملوك المصريين، وأخرى للأمراء الذين كانوا يعتبرون تابعين لهم. وكانت الرسائل التي تأتي من بابل وأشور و"ميتاني" وبلاد الحثيين، وArzawa وقبرص، مفعمة بالتحيات وتصف العلاقات الأخوية، كما كانت تتكلم عن السياسة والهباء الثمينة التي تعد بمثابة تبادلات تجارية وتبادلات زواج. فالموضوع الأساسي لهذه المراسلات الدولية هو تبادل الهدايا والبنات للزواج، وبالتالي فإن تبادلات الممتلكات لم يكن ممكنا إلا برضى ملكي أي مراسلات رسمية، فهذه الروابط كانت الموجه الرئيسي للتجارة العالمية آنذاك(162).

دارت حول هذا الأرشيف آراء مختلفة، فالبعض يرى أن هذه الرسائل تدل على مرحلة الانحطاط لأن زمنها تتميز بصعوبات داخلية أجبرت الملك المصري على إهمال مسؤولياته نحو الخارج، لكن هناك مصادر أخرى تذكر وجود معسكرات معاصرة لهذا الأرشيف في بلاد "النوبة"، وهو دليل يناقض هذا الرأي. أما عن أهمية هذا الأرشيف فهي تكمن في كونه عبارة عن وثائق فريدة في تاريخ العصر القديم، إذ نجد بين أيدينا ولمرة واحدة وثائق ليست محررة من قبل ملك مهتم بمجده، ولا هي عمل مؤرخ يكتب بعد الحادثة بسنوات أو قرون، بل أصولا يمكن مقارنتها بوثائق مؤتمراتنا المعاصرة(163)، فهي تعطينا صورة صادقة عن علاقات مصر التجارية، منها خاصة الروابط التجارية مع سواحل البحر المتوسط وشعوبه.

كما أن هذه الوثائق توضح لنا بأن بلاد ما بين النهرين كانت خلال زمن نصوص العمارنة، أي القرن الرابع عشر . تحصل عما تحتاجه من بعض المواد التي فقدتها بعد إنقطاع تجارتها مع بلاد الهند (ملوخوا) من مصر مثل: العاج والخشب الأسود التي كانت تجلبها مصر من تجارتها الإفريقية لأن هذه المواد ليست مصرية في الأساس، وكانت تصدر إلى بابل وأشور وميتاني(164).

(4) - L. Casson, Op - Cit , p . 45.

(5) - C. Lalouette , la littérature..., Op – Cit , p. 45.

(6) - **Jawad Boulos, les peuples et les civilisations du Proche-Orient, essais d'une histoire comparée, des origines à nos jours,** (Paris, 1962), t. 2 , pp. 57-58.

(7) - محمد الخطيب ، المرجع السابق، ص. 31.

(1) - B. Manley, Op – Cit , p . 80.

(2) - L. Casson, Op – Cit , pp . 45 – 46.

(3) - B. Manley, Op – Cit , pp. 64, 80.

(4) - L. Casson, Op - Cit , p . 45.

(1) - محمد حرب فرزات، « العلاقات الحضارية بين بلاد الخليج العربي وشبه القارة الهندية حتى الألف الأولى ق.م. »، دراسات تاريخية، 37 و38،

(1990)، ص.81.

إن أرشيف تل العمارنة يشكل معلومات ثمينة تمس علاقات مصر مع الممالك الآسيوية، كما أن هذه الرسائل تكشف عن العلاقات التجارية المباشرة بين مصر وجزر البحر المتوسط وخاصة جزيرة قبرص، وأهمية هذه التجارة البحرية في تزويد مصر خاصة بمعادن النحاس.

كما جاءت هذه الرسائل لتعطي صورة مكملية عن الحياة التجارية بتل العمارنة، والتي كانت جد نشطة، إذ عثر على أحياء تجار أنشأت على طول النيل مهياً لتفريغ شحنات المراكب، والذي يؤكد ذلك تمثيلات منقوشة تبين مراكب جاهزة للتفريغ على طول أرصفة النيل كما تكشف عن منازل ومستودعات للتجار الميسينيين⁽¹⁶⁵⁾.

المبحث الثاني: المكتشفات خارج مصر

وهي بدورها تنقسم إلى مخلفات مادية وأخرى أدبية.

المطلب الأول: المخلفات المادية

هي عبارة عن أشياء مصرية وجدت في مناطق الجوار المصري في كل من الساحل الفينيقي وفلسطين وبلاد النوبة وجزر بحر إيجة، وحتى مناطق أبعد ويمكن تقسيمها إلى المحاور الآتية:

أ- مكتشفات مصرية في الساحل الفينيقي وفلسطين:

إن إكتشاف كنز مقبرة ملك "جبيل" "أبي شيمو" (Abi Shemou) الذي يعود إلى القرن التاسع عشر ق.م، والمتمثل في مجوهرات المصريين التي كانت ترسل إلى أمير "جبيل" هذا، تبين أن المبادلات كانت توجد في زمن الملك المصري "أمنمحات الثالث"، أي تدل على علاقات تجارية نشطة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط⁽¹⁶⁶⁾.

والوثائق الأقدم التي وجدت في "جبيل" تؤرخ بالأسرة الثانية، علماً بأن المكتشفات المادية التي كانت قد وجدت في "جبيل"، تعود إلى كل فترات العصر الفرعوني وخاصة إلى الدولتين الوسطى والحديثة⁽¹⁶⁷⁾.

فالإستنتاجات بخصوص وجود علاقات تجارية بين مصر والساحل السوري التي كان قد توصل إليها المؤرخون من خلال ترجمة بعض النصوص القديمة وكذا وجود أدوات مادية، تأكدت بحفريات "مونتييه" (Montet) وذلك من خلال بقايا معبد بـ: "جبيل" وجدت بأساساته فؤوس من حجارة مشذبة، سكاكين من صوان، وألواح، وكذا تمثيلات متنوعة، وباختصار عدد كبير من الأشياء التي نجد مثيلاتها في المتحف المصري لما قبل الأسرات⁽¹⁶⁸⁾، وهي أيضاً مطابقة للأدوات التي عثر عليها في مقابر الأسرتين الأولتين، منها قطعة من إناء من حجارة بإسم الملك "سخموي" (الأسرة الثانية)، وقطع من المرمر وهي بدورها تعود إلى نفس الأسرة، وكلها دلالة على أن الإتصالات بين مصر وجبيل تعود إلى بداية التاريخ المصري⁽¹⁶⁹⁾، لدرجة أن البعض عدها أول دليل مؤكد على قيام علاقات تجارية بين مصر وهذه المدينة الساحلية. ولو أخذنا بهذا الرأي فيماذا نفسر وجود مخلفات أثرية مصرية ترجع في تاريخها إلى عصور ما قبل الأسرات أكتشفت في نفس المكان؟.

إن الحفريات التي قام بها "مونتييه" في موقع "جبيل" كانت قد حدثت إبتداء من عام 1921، وكانت الآثار المكتشفة عند بقايا ذلك المعبد تتمثل أيضاً في تقدمات مصرية وإسطوانات لختم الألواح تعود إلى مرحلة العصر "الثاني" (الأسرتين الأولى والثانية) وتحمل أشكال إلهة جبيل. وهناك أيضاً أواني تحمل أسماء كل من الملك "منقرع"، "أوناس" (Ounas)، و"بيبي الثاني" (Pepi II)⁽¹⁷⁰⁾. وهي عبارة عن قطع مختلفة مؤرخة بأسماء ملكية من الأسرة الرابعة، منها جرة من الديوريت وكسور تحمل خراطيش بإسم الملك "خوفو"، وكذا أكواب مكسورة مصنوعة من صخر نصف شفاف ومنقوشة بعناية بخطوط تحمل إسم "منقرع"، وهناك أيضاً قطع من أنية من المرمر مسجلة عليها الملكة "Merit-ates" زوجة "سنفرو"، وكذلك أنية أخرى من المرمر سجلت عليها العبارات التالية: « ملك مصر العليا والسفلى "أونا" يعيش للأبد ». وبخصوص الأسرة الفرعونية السادسة، فإن الأشياء المكتشفة بـ: "جبيل" تنقسم بين فترات حكم الملوك "تيتي"، "بيبي الأول" و"بيبي الثاني"، وتتمثل في أواني وتمائيل صغيرة تحمل خراطيش بها أسماء هؤلاء الملوك⁽¹⁷¹⁾. على كل فإن الإتصالات التجارية بين مصر و "جبيل" هي مؤكدة منذ عصر ما قبل الأسرات، حيث كان لمصر السفلى في هذا العصر علاقات مع

(2) - J. Pirenne, Y'eut-il des foires...?, Op - Cit , p .19.

(3) - H. Stierlin, la Barque royale..., Op - Cit , p .31.

(4) - M. Damiano-Appia, Op- Cit , p . 74.

(1) - G. Dykmans, Op - Cit , t. 2 , p . 263.

(2) - W. Culican, Op - Cit , p . 18.

(3) - Claire Lalouette, Thébès ou la naissance d'un Empire, (Paris : Fayard, 1986), p. 72.

(4) - G. Dykmans , Op - Cit , pp. 263 , 265.

"جبيل" من خلال جلب خشب الأرز كما ذكرت. وهذه التبادلات التجارية تؤكد أنها أيضا مكتشفات متنوعة أخرى تعود إلى هذه الفترة لا مجال لذكرها.

إن معظم الآثار المصرية التي عثر عليها في بلاد سوريا والتي تثبت عقد صلات تجارية بين الطرفين وجدت في مدينة "جبيل"، منها "خرزة" مصنوعة من الذهب، ومجسم لطائر صنع من العاج وتمثيل في شكل قروود (172). إضافة إلى ذلك نجد أعمالاً فنية مصرية تعود إلى الدولة الوسطى أكتشفت في "جبيل"، "أوغاريت" وفي آسيا الصغرى وبـ "كريت"، منها أضرحة ملكية في صخور "جبيل" تحوي كنوزاً لا تزال على حالها، وقد حفظت في متاحف باريس وبيروت، وهي تعود إلى الملكين: "أمنمحات الثالث" و "أمنمحات الرابع"، وهي أواني وصناديق فخمة (173).

فالعلاقة كانت وطيدة بين الطرفين مثلما يؤكد المعبد المصري المكتشف بمدينة "جبيل" (174). والذي فيه أكتشفت جواهر مماثلة لأخرى أكتشفت بأبيدوس، منها جواهر صغيرة من الذهب رصع بها أحد الأساور، وكذلك مجوهرات من الأحجار الكريمة والمرمر والبلور والعقيق (175).

ومن الأشياء المكتشفة خارج مصر نجد جعارين (خنافس Scarabées)، أختام وأشياء أخرى أكتشفت في كل من فلسطين وسوريا وتركيا تبين أهمية العلاقات التجارية بين هذه المناطق ومصر، كما عثر على أشياء مصرية أخرى معاصرة للدولة الوسطى، منها تماثيل "أبي الهول" ونصب تذكارية، وقد وجدت على طول المنطقة من "بيروت" إلى "أوغاريت" (176). ومن المكتشفات المصرية التي وجدت في هذه المدينة الأخيرة (أوغاريت) يذكر "محمد عزة دروزة": « تماثيل لرهبان مصريين وجعرانات عليها بالهيوغلفية اسم "تب - مع - را"، الذي نظن بأنه لقب أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة، وشواهد قبور عليها كتابات بالهيوغلفية أيضا » ومن خلال هذه المكتشفات أعطي تفسير بأن تلك المدينة كانت لها روابط تجارية وثيقة مع مصر مثلما هو الحال مع باقي مدن الساحل السوري (177). ومن الأشياء الأثرية التي أكتشفت بهذه المدينة أواني من الألباتر المصرية، وهي بأعداد كبيرة، تعود في بعضها إلى الملك "تحوتمس الثالث"، وأخرى إلى "أمينوفيس الثالث" و "إخناتون" وغيرهم، وذلك ما تبينه بعض رموز هؤلاء على تلك الأواني (178)، وكلها تثبت مدى أهمية العلاقات التجارية بين الطرفين.

ب- مكتشفات مصرية في بلاد النوبة:

أجرى "إمري" (Emery) سنة 1957 حفريات في مدينة "بوهن" (Bouhen) أسفرت عن عديد الأشياء الأثرية المصرية، وهي تدل بما لا يدعو مجالا للشك على وجود مصري، وكذا منشآت مصرية بتلك المنطقة خلال الأسرات الأولى، ففي شمال المدينة أكتشفت أوراق بردي وأختام وجرار تحمل أسماء الأسرتين الرابعة والخامسة، أما الحصن الذي أكتشف بالمدينة فهو يعود إلى الملك "سنوسرت الأول"، وهو ضمن سلسلة من التحصينات التي أنشئت أثناء الأسرة الثانية عشر، والتي توجد في مكان إستراتيجي عند منحدرات الجندل الثاني، وهي بذلك تشكل مكاناً إستراتيجياً ذو أهمية خاصة (179).

ويقول "تريجر" إن كانت علاقة مصر بالشمال الشرقي لا يعرف عنها الكثير خلال عهد ما قبل الأسرات فإن العكس صحيح بالنسبة لعلاقتها مع بلاد النوبة، فهذه الأخيرة كانت علاقتها بمصر مرتبطة بحاجة الأسر الملكية الحاكمة لما تزرع به المناطق الشبه صحراوية جنوباً وخاصة العاج والأبنوس اللذان تهافتت هذه الطبقة على الحصول عليهما، هذا وكان دافع حماية حدود مصر الجنوبية عند الجندل الأول هو تنظيم تلك العلاقة، وتواصل المبادلات التجارية بين المنطقتين خلال بداية الأسرة الأولى تدل عليه الأواني الفخارية المصرية التي عثر عليها ومنها جرار نبيذ وأدوات نحاسية وحلي وقلادات...إلخ، وهي دلالة على تواصل التجارة منذ ما قبل الأسرات، كما أن إثبات التبادلات التجارية جاء من خلال ما وجد في إحدى مقابر رؤساء النوبيين قرب "سيالة"

(5) - محمود عبد الحميد أحمد، « الصلات التجارية بين مصر وسورية منذ عصر ما قبل الأسرات حتى نهاية الدولة القديمة (4000-2280 ق.م) »،

دراسات تاريخية، 19 و 20 (1985)، ص. 196.

(1) - W. Culican , Op -Cit , pp. 20 , 22.

(2) - أتيين دريوتون وجاك فاندنييه ، مصر ، ترجمة عباس بيومي ، (القاهرة ، 1950) ، ص. 232.

(3) - G. Dykmans , Op - Cit , t. 1 , p . 226.

(4) - B. Manley , Op – Cit , p.48.

(5) - محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص. 107.

(6) - كلود شيفر، « حفريات رأس شمرا - أوغاريت » ، الحوليات الأثرية السورية، 3 ، (1953)، ج. 1 و 2 ، ص. 135.

(7) - C. Lalouette , Thébès..., Op – Cit , p. 67.

تؤرخ بزمان الأسرة الأولى، وهي تعد إكتشافا جد هاما متمثلا في منتجات مصرية إستوردها النوبيون، وهي عبارة على فؤوس نحاسية وصفائح من ذهب وفضة وأزاميل (180).

كما عثر على أواني فخارية ميزت الألف الرابعة ق.م، وهي مقابض مموجة لم تكن سائدة من قبل ذلك التاريخ، حيث إنتقلت من مصر إلى بلاد النوبة، ووجد البعض منها في مقابر عند الجندل الثاني في "حمى" الواقعة جنوب "وادي حلفا" (181).

الملاحظ أن المكتشفات المادية في هاته المنطقة تعود إلى فترات معظمها ينتمي إلى عصر ما قبل الأسرات، وكأن العلاقات التجارية لم تتواصل خلال العصر الفرعوني، والحقيقة أن الحفريات في المنطقة كانت أقل شأنًا مما كانت عليه في المناطق الأخرى التي عقدت معها مصر علاقات، خاصة وأن المراجع التي إعتمدتها لا تذكر الشيء الكثير عن هذا الموضوع مثلما تناولت المكتشفات في مناطق أخرى، وبالتالي فإن موضوع العلاقات التجارية بين مصر وبلاد النوبة وجنوب هذه الأخيرة تفيدنا به الوثائق المصرية بالدرجة الأولى سواء منها المادية أو الكتابية.

ج- مكتشفات مصرية في جزر بحر إيجا:

كشفت الأبحاث في "كريت" عن أوعية مصنوعة من الحجارة ضمن آثار هذه الجزيرة والتي تتشابه وتتطابق مع النماذج المصنوعة في مصر، وتعود إلى زمن يمتد ابتداء من 2700 ق.م (182).

كما وجدت في طبقة أعمق في موقع نيوليتي بـ: "فايستوس" (Phaestos) (الساحل الجنوبي لكريت) قطعة لناب فيل أرجع الباحثون مصدرها إلى مصر، ودليلهم في ذلك هو أن فنانون مصر الأوائل كانوا يحزون على قطع من العاج أشكالاً متنوعة وجدت خاصة في عصر ما قبل الأسرات كان يرسم عليها رجال ذوي سمات خاصة كالجماجم المستديرة والخدود المدببة، والوجه الممدد، وهي تعود إلى حضارة نقادة، وهذه الصناعة تشبه إلى حد كبير عينات من العاج المنسوب إلى "بلاتانوس" (Platanos) في سهل "ميسارا" (Messara) (183). كما وجدت بهذه المنطقة أنية تشبه في صناعتها نموذج يمتاز به وادي النيل خلال عصر ما قبل الأسرات أو أثناء عصر الأسرتين الأولى والثانية أي بين 4000 و 3200 ق.م (184).

على كل فإن حفريات سهل "ميسارا" و "كنوسوس" كشفت عن أواني من حجارة تقارن بمنتجات مصرية، وكنوسوس عثر "آرثر إيفنس" (Arthur Evans) على قطع مهمة جدا بعضها أجزاء لأنية من الديوريت أعطت تشابها مدهشا مع النماذج المنفية زمن الملك "سنفرو"، والبعض الآخر منها لا نقاش في مصدره، حيث يعود بالتأكيد إلى العصر المنفي المصري من خلال المادة التي صنع منها، وكذا الشكل الأصلي الذي يحمل ختم هذا العصر، لكن هناك جزء آخر من الأواني كان إيجيا، ومن الواضح أن العامل الكريتي كان يقلد في صناعته النماذج المستوردة (185). وعثر كذلك على قطع لأواني حجرية من صنع مصري في بقايا المنازل قرب قصر كنوسوس في "كريت"، وهي تعود إلى العصر الحجري الحديث الأخير (186).

فقصر "كنوسوس" وجد به 10 أواني من الحجارة الصلبة تعود إلى الدولة القديمة أو حتى إلى عهد ما قبل الأسرات، وأواني أخرى لها قاعدة يرجع تاريخها إلى زمن الدولة القديمة تم العثور عليها في أماكن أخرى من بحر إيجا. أما عن الأشياء المصرية التي تم العثور عليها بـ "كريت" والتي تؤرخ بزمان الدولة الوسطى فهي تتمثل أساسا في جعارين وعددها عشرة، وكانت تستعمل كأختام أي لها نفس الغرض من إستخدامها في كلتا المنطقتين (187). يمكن أن أستخلص من ذلك إحتمال وجود تجار مصريين هناك أستخدمت من قبلهم تلك الجعارين من أجل عقد صفقات تجارية.

ولم تقتصر المكتشفات في هذا العصر على مثل تلك المخلفات بل تجاوزتها من خلال العثور على تماثيل مصرية بكنوسوس مصنوعة من الديوريت (188). أما الدلائل القطعية فهي أمدتنا بها حفريات "الجمعية

(1) - تريجر و آخرون ، المرجع السابق ، ص .76.

(2) - محمد بيومي مهران ، تاريخ السودان...، المرجع السابق ، ص . 192.

(3) - L . Casson , Op – Cit , p . 35.

(4) - G. Dykmans , Op – Cit , t . 1 , p . 250.

(1) - V. Bérard , Op – Cit , p . 167.

(2) - G. Dykmans , Op- Cit , t . 2 , pp . 270 - 271.

(3) - أحمد أمين سليم ، المرجع السابق ، ص .78.

(4) - J. Vercoutter , essai sur les relations..., Op- Cit , pp . 48,50,74.

(5) - Ibid , p.75.

الأثرية لأثينا" (La société archéologique d'Athènes)، حيث وجدت بمقابر "مسينا" (Mycènes) جعارين تحمل إسم الملكة "تيتي" (Titi) زوجة "أمينوفيس الثالث" رفقة قطعتان من لوحة طينية بها خرطوشة تحمل إسم هذا الملك (189). وقطع من الفخار تحمل إسم الملك المصري "أمنحوتب الثالث" (190). إن وجود أشياء مصرية في أماكن كريتية وفي المقابل أشياء كريتية في مقابر مصرية يدل على وجود علاقات بين مصر و "كريت"، وهي إتصالات مباشرة بين مصر وبحر إيجا قبل أن يظهر الإغريق على مسرح الأحداث التاريخية (191)، بل إن كل الوثائق المصرية المكتشفة خارج مصر سواء كانت في النوبة أو في سوريا وفلسطين، أو ليبيا، أو "كريت"، هي عامل مهم في توضيح العلاقات السياسية والإقتصادية بين مصر وهذه البلدان. والأكثر من ذلك أن الشواهد الأثرية والتاريخية لا زالت تمدنا بعدد المصنوعات والمجوهرات المصرية المتنوعة، والتي لا زالت تكتشف في مناطق جد بعيدة مثل: غربي آسيا، وآسيا الوسطى، وجزر بحر إيجا وبلاد ما بين النهرين (192).

المطلب الثاني: مخلفات أدبية

تتمثل في أرشيف "أوغاريت" وبعض الرسائل والنقوش هنا وهناك، فأرشيف "أوغاريت" يعطي صورة عن العلاقات بين سوريا ومصر، إذ أن هناك إضاءة أخرى عن الأحداث التي دارت في سوريا خلال حكم كل من "أمنحوتب الثاني" وإبنه، والتي تأتي من أرشيفات المدينة الساحلية "أوغاريت" التي تقع في شمال سوريا، والتي لا تزال تحتفظ بالأرشيف (193).

أما عن الرسائل فلدينا منها نماذج عديدة، منها مثلا خلال فترة توسع تجارة مصر نجد ملك قبرص الذي كان يمول الفرعون بالنحاس والخشب كتب يطلب خيولا وعربات وسريرا من الخشب النادر مغطى كله بالذهب وكذا ملابس نساء وجرار من الزيت المصفى (194)، كما كان الآشوريون يرون بأن مصر كانت تتوفر بها كميات وفيرة من الذهب، وكانوا يناشدون الفرعون بأن يمددهم بهذا المعدن الثمين (195). وعثر في مدينة صيدا على نص مكتوب بالهيريوغليفية وردت فيه إشارة إلى أن الملك "نخاو الثاني" كانت له سيطرة على الساحل الفينيقي، إذ كان الأمر سهلا بالنسبة إليه بالنظر إلى أسطوله في البحر الأبيض المتوسط، فكانت مدن هذا الساحل تحت تبعية المصريين كما حدث في عهد "تحوتمس الثالث" وبالأخص مدن "عسقلون" و "أشدود" و "غزة" التي وقعت تحت سيطرة "نخاو" (196).

و هناك رسالة ملك صور إلى ملك "أوغاريت"، وهي وثيقة جاءت تحت رقم KTU.2.38، تظهر عمق العلاقات بين "أوغاريت" و "جبيل"، كما تشير إلى وجود علاقات تجارية نشطة بين ملك "أوغاريت" من جهة وكل من مصر و "جبيل" و "عكا" من جهة أخرى (197).

ومن النقوش المكتشفة أيضا نذكر نقش "أبي بعل"، الذي يقول عنه أحمد حامدة: «يعود إلى القرن العاشر ق.م أكتشف في مدينة "جبيل"، يوضح لنا وجود علاقة تجارية قديمة بين مصر ومدينة جبيل» (198). إن النماذج المختصرة من الرسائل التي وجدت منفردة أو ضمن الأرشيفات والتي أتيت على ذكرها سواء منها التي أرسلتها مصر إلى البلدان المجاورة أو التي إستقبلتها من محيطها الجوّاري، أو حتى التي كانت تتبادل بين مناطق غير مصرية، رغم أن أغلب المؤرخين يرون فيها وثائق سياسية – دبلوماسية – ولا يعدونها وثائق تجارية إلا أنني وجدت مصدرًا جد ثريا بالمعلومات عن التجارة الدولية خلال الفترات التاريخية التي ترجع إليها، بل أكثر من ذلك أرى فيها أنها مصدرًا من الدرجة الأولى بالنسبة لتجارة مصر الفرعونية.

(6) – V. Bérard, Op- Cit, p. 200.

(7) – James Henry Breasted, *Histoire de l'Egypte, depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête persane*, traduction et préface de Jean Capart, (Bruxelles, 1926), t 1, p. 349.

(1) – S. Davis Methuen, *Race-relations in Ancient Egypt-Greek, Egyptian, Hebrew, Roman*, (2^e éd; London: COLT, 1953), p. 18.

(2) – سيريل ألريد ، المرجع السابق ، ص. 17.

(3) – E. Hornung , Op – Cit , p. 115.

(4) – L. Casson , Op – Cit , p. 30.

(5) – E. Cavaignac , Op – Cit , p. 104.

(6) – محمد بيومي مهران ، الحضارة المصرية ...، المرجع السابق ، ص. 227.

(7) – أحمد حامدة ، « التجارة الكنعانية (الفينيقية) في البحر المتوسط » ، دراسات تاريخية، 73- 74 ، (2001) ، ص 74.

(1) – أحمد حامدة، المرجع السابق، ص. 70.

المبحث الثالث: كتابات الإغريق والرومان

هي مصادر لا غنى عنها، وتعد آثاراً أدبية فيها كثير من الحقائق التاريخية، فلقد كانت مصر تستقطب المؤرخين الإغريق، حيث زارها العديد منهم وكتبوا عنها كتباً كاملة أو أجزاء منها، ومن أشهر هؤلاء نذكر على وجه الخصوص "هيكاتة الميلي"، "هيرودوت"، "هيكاتة الأبدري"، "ديودور الصقلي"، "سترابون" و "بلوتارك الخيروني"، ويمكن إضافة "هوميروس"، "أفلاطون"، "أرسطو"، "بلين"، و "بطليموس" وغيرهم كثير. لكنني سأذكر بعضاً منهم والذين أرى فيهم أنهم ذكروا بعض المعلومات التي تمس موضوع الدراسة ولو بطريقة غير مباشر.

المطلب الأول: هوميروس

لم يحدد تاريخ ميلاده بدقة ولا مدة حياته، والسبب في ذلك يعود إلى عدم وجود تواريخ تدل على مولده ومماته في الأعمال التي خلفها، وخلو حتى الأعمال التي ألّفت في زمنه من الإشارة إلى ذلك (199)، وكل ما عرف عنه أنه عاش في النصف الثاني من القرن التاسع ق.م، وإقترن إسمه بعملين مشهورين ومهمين: "الإلياذة" و "الأوديسا"، وهذه الأخيرة تتألف من إثني عشرة ألف بيت وقصتها تدور حول بطل يدعى "أوديسيوس"، الذي إشتراك في حرب طروادة، وعند عودته حاصرته الأمواج في مركبه، و "أوديسيوس" هو قرصان كريتي، كانت رحلته إلى مصر بعد عودته من "Iliom"، ودامت هذه الرحلة خمسة أيام وصل بعدها إلى نهر النيل (200).

إن عمله "الأوديسا" يهتم موضوع الدراسة لأن فيه ما يشير في مواضيع متفرقة إلى مصر، ومن ذلك كون بطل القصة "أوديسيوس" كان قد أسر في مصر وتمكن من ربط علاقة مع تاجر فينيقي أوصله إلى "ليبيا". ونقرأ من خلال ذلك أموراً كثيرة منها أن الفينيقيين كان لهم شأن في مصر حيث كانوا يعتبرون جالية مهمة، وكانوا يتوسطون في التجارة بين مصر وليبيا من جهة وبين مصر والفينيقيين من جهة أخرى، وكان لهم باعاً في هذه المنطقة لزمّن طويل قبل أن يقوم الإغريق بذلك الدور فيما بعد (201).

ويمكن أن أضيف شيئاً آخر، وهو أن الإشارات التي كانت قد وردت في "الأوديسا" عن مصر تؤكد حدوث روابط تجارية مع سكان بحر إيجة بما فيهم الإغريق وهو ما سأسير إليه في حينه. ومن جهة أخرى فإنني أجد فيها دلائل واضحة عن الطريق التجاري المباشر بين بحر إيجة ومصر، وعن بعض الأخطار التي كانت تواجه الملاحة في البحر المتوسط، كما تصور تفاقم خطر القراصنة في ذلك العصر، وغيرها من الأمور التي لها صلة بموضوع الدراسة ولو من بعيد، كما تؤكد ثراء الأجانب الذين يتعاطون التجارة في مصر والذين كانوا يعودون إلى بلادهم بثروات منهم بطل الأوديسا.

المطلب الثاني: هيرودوت

إن الأهمية المعطاة لمصر القديمة لا تؤرخ بالقرن التاسع عشر الميلادي، لأن الإهتمام بها كان وليد القرن الخامس ق.م، فخلال هذا القرن نجد "هيرودوت" الذي جاء إلى مصر، كتب روايات فيها كثير من الإنبهار بالعجائب القديمة، وقد إقتدى به مؤرخون وجغرافيون وعملوا على تقليده مثل سترابون وديودور وآخرون (202). كان مولده قبل إندلاع الحرب الفارسية، وعاصر الحرب "البوليونيزية"، وإبتداء من سنة 468 ق.م أصبح معروفاً ولامعاً كمؤرخ، وإمتازت كتاباته بدقة الملاحظة، حيث كان حسن الإستماع، وكان يدون كل ما يروى له من الشعوب التي زارها، وعييه أنه كان ميالاً للأشياء الخارقة للعادة أو التي تبدو من وجهة نظره غريبة، حيث كان مصدقاً لها دون التحقق منها (203).

وإن كان مكان ولادته لا تضارب فيه وحدد في "هاليكارناسوس" وهي مدينة تقع في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى، فإن تاريخ ميلاده فيه بعض الإختلاف فمنهم من يرى بأنه كان سنة 489 ق.م وآخرون يرون بأنه في سنة 494 ق.م (204)، وقد زار مصر وهي تحت الحكم الفارسي، ودون كل ما شاهده فيها وكل ما سمعه خاصة من الكهنة، فجمع حولها مادة مكنته من أن يخصص لها كتابه الثاني (205).

(2) – هوميروس ، الأوديسا ، ترجمة أمين سلامة ، (دون مكان طبع ، دار الفكر العربي ، 1977-1978) ، ص. 22.

(3) – V. Bérard , Op - Cit , p . 169.

(1) – بلقاسم رحماني ، علاقة جنوب شبه الجزيرة العربية بشرق إفريقيا منذ قيام الدويلات العربية الجنوبية حتى الفتح الإسلامي ، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، جامعة الجزائر ، 1993 ، ص. 112.

(2) – G. Posener et autres , Op – Cit , p . 98.

(3) – محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص. 10.

(4) – هيرودوت ، هيرودوت يتحدث عن مصر ، ترجمة محمد صفر خفاجة وتقديم وشرح أحمد بدوي ، (مصر: دار القلم ، 1966) ، ص. 12.

(5) – أحمد أمين سليم وسوزان عباس ، المرجع السابق ، ص. 16.

وقد كان على إطلاع بكتابات من سبقوه ومنهم هوميروس، وقد قضى أيامه الأخيرة في بلاد "بركليس" بآسيا، ولكن كتاباته تميزت باهتمامها أكثر بالحوادث التي أعطاها صبغة أسطورية خاصة حكاياته التي يتناول فيها بلاد الهند وبلاد العرب (206).

زار هيرودوت مصر سنة 450 ق.م، وكتابه المخصص لها يبقى بالنسبة لعلماء المصريات مصدرا لا ينضب من المعلومات الثمينة، ويبدو أنه وصل في زيارته إلى غاية "إلفنتين" (Eléphantine)، حيث وصف مناظر مختلفة للبلد بمصطلحات تنم عن معرفة شخصية للأماكن، فأورد التكوين الجيولوجي لمصر التي تشكلت من رواسب النيل، وكذلك ذكر الخاصيات الجغرافية لمصر، والنيل ومصادره، فيضانه، المسافات، نماذج للمناظر الطبيعية، والميزة الخاصة للدلتا وحياة المستنقعات وبالنسبة للحيوانات فإنه خصص فصلا مطولا لها، كما إهتم بالمعتقدات الدينية ووصف عادات المصريين بإختصار مع إهتمامه الكبير بالمسائل الدينية (207).

فكتابه الخاص بمصر هو الجزء الثاني، قسمه إلى قسمين الأول خصصه للحديث عن الطبيعة والشعب، أما الثاني فقد تكلم فيه عن بعض الفراعنة وبعض أعمالهم، وقد إستقى معلوماته من خلال الكهنة الذين حسب رأيه هم أهل ثقة، فصدق كل ما ذكره له، كما تكلم عن القناة التي ربطت النيل بالبحر الأحمر (208).

فجاء كتابه عن مصر شاملا تقريبا لكل نواحي تاريخ مصر بدء بجغرافيتها ومدنها والحوادث التاريخية ومختلف الحياة اليومية، لكن يؤخذ عليه أنه سجلها دون التحقق من الكثير من مضامينها، لذلك إنقسم المؤرخون بين مؤيد ومعارض له، ومع ذلك فهو يبقى مؤرخا لا غنى عنه، لأنه سهل المهمة التاريخية للباحثين الحاليين (209).

وإن كان قد جمع معلوماته عن مصر مما رواه له كهنتها فإنه إستقى معلوماته فيما وراء أسوان بالإعتماد على الروايات المتداولة لأنه أقصى ما وصل إليه في زيارته لمصر هو أسوان، والتي دامت أربعة أشهر دون كل ملاحظاته التي حالفها جانب كبير من الصواب بخصوص الحياة المصرية (210). حيث جاء بمعلومات هامة بخصوص الملاحة المصرية ووسيلة النقل وكذلك عن تواجد الأجانب في مصر وخاصة الإغريق ودورهم التجاري. وفي كتابه الرابع تطرق إلى البعثة التجارية التي حدثت زمن الفرعون "نخاو الثاني" والمشهورة بالطواف حول القارة الإفريقية، وإلى طريق الواحات الذي يربط مصر بالمحيط الأطلسي وهو يعتبر من أهم الطرق التجارية في الصحراء، وكل هذه المسائل سنتعرف عليها في حينه.

المطلب الثالث: ديودور الصقلي

المعروف أنه ألف مؤلفا بعنوان "المكتبة التاريخية"، وهو كتاب في التاريخ العام، وقد حالفه الحظ في زيارة مصر سنة 59 ق.م (211)، وقد ألف هذا الكتاب ما بين 59 و 57 ق.م (212)، وهو يشمل تاريخ العالم منذ فجر التاريخ حتى حملة يوليوس قيصر على بلاد الغال، ما يهمنا منه هو جزؤه الأول المخصص للحديث عن تاريخ مصر، وقد جاء عمله حوصلة لأعمال من سبقوه وخاصة هيرودوت، إلا أنه يتميز عنه في كونه كان أكثر منه موضوعية وواقعية، حيث بدأ تاريخ مصر بأول ملوكها وليس بالآلهة، كما تطرق إلى مختلف جوانب الحضارة المصرية السياسية والاجتماعية والدينية، ومع أنه وقع في بعض الأخطاء كجعله مدينة "طيبة" سابقة لتأسيس مدينة "منف"، إلا أن كتابه يعد جدي هاما خاصة ابتداء من القرن الخامس ق.م، كما تميز أسلوبه في الكتابة بإتباع التحري عن الحقائق ولو أنها بمفهوم ذلك العصر (213).

عاش في الفترة بين 80 و 30 ق.م، يأتي بعد هيرودوت من ناحية الأهمية، وجاء مؤلفه المكتبة التاريخية في 40 جزء سجل مشاهداته عن زيارته لمصر في الكتاب الأول (214). وبذلك كانت معلوماته لها صلة غير مباشرة مع نقاط عدة من موضوع الدراسة، منها ما تعلق بقناة ربط النيل بالبحر الأحمر وفروع النيل التي تعد بمثابة طرق تجارية، وكذلك ذكره لأعمال بعض ملوك مصر في الميدان التجاري.

(6) – أنور الرفاعي وشاكر مصطفى، معالم الحضارات في الشرق والغرب، (ط1؛ دمشق، 1947)، ص ص 68 - 69.

(1) – G. Posener et autres, Op – Cit, pp. 128 – 129.

(2) – هيرودوت، المرجع السابق، ص. 24.

(3) – أحمد أمين سليم وسوزان عباس، المرجع السابق، ص. 17.

(4) – محمد إبراهيم بكر، المرجع السابق، ص. 15.

(5) – أحمد أمين سليم وسوزان عباس، المرجع السابق، ص. 17.

(6) – عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص. 199.

(1) – أحمد أمين سليم وسوزان عباس، المرجع السابق، ص. 18.

(2) – محمد إبراهيم بكر، المرجع السابق، ص. 17.

المطلب الرابع: سترابون

ولد إما سنة 64 أو 63 ق.م في "أماسيا" في "بونتوس"، إشتهر بمؤلفه "الجغرافيا"، والذي أعتبر تأليفا في الجغرافيا التاريخية. كانت له زيارة إلى مصر حوالي 25 ق.م وأقام بالإسكندرية خمس سنوات (215)، وقد عاش في القرن الأول ق.م والقرن الأول بعد الميلاد، لأن آخر المعلومات التي تضمّن مؤلفه تعود إلى سنة 18م، وقد جاء عمله كنتيجة لأعمال من سبقوه من الرحالة والجغرافيين الإغريق، وبالطبع زاد عليها ما حصل عليه من معلومات، وقد ذكر مصادره من خلال مؤلفه الذي يقسم إلى 17 كتابا (216)، وهو يعد إغريقيا آسيويا مثل هيرودوت، وكانت له أسفار قادت له لكل من آسيا الصغرى ومصر، ويمتاز كتابه بثراء المعلومات التي تفيد الباحث بخصوص المناطق التي تكلم عنها، والفترة الزمنية التي غطاها (217)، وقد كانت لأوروبا حصة الأسد من مؤلفه والتي قدرت بثمانية أجزاء، أما آسيا والتي كانت إلى غاية ذلك التاريخ غنية بتنوع حضارتها، فقد خصص لها ستة أجزاء وكتابا وحيدا خصصه لإفريقيا، في حين أن الكتب الثلاثة الباقية كانت تتناول موضوعات مختلفة، مثل المقدمة والمصادر، وما يلفت الانتباه أن مؤلفه "الجغرافيا" ظل مجهولا لفترة طويلة من الزمن قدرت بعدة قرون، إلى غاية إكتشافه في عهد الدولة البيزنطية (218).

فمن خلال كتابه الوحيد عن إفريقيا (الجزء 17) نجد معلومات قيمة عن تاريخ مصر وعاداتها الدينية وأشياء أخرى كثيرة (219)، كما يفيدنا الجزء السادس عشر من مؤلفه "الجغرافيا"، والذي خصصه للمناطق الواقعة على جانبي البحر الأحمر بمعلومات كثيرة عنها وعن تجارتها، علما بأنه أول الكتاب الكلاسيكيين الذين ذكروا مناطق إنتاج الكندر (البخور) واصفا إياه وصفا مفيدا (220).

يقال بأن سترابون كان قد ولد في "Pont" حوالي 60 ق.م، وتوفي في سنة 25 م، كتب بالإغريقية مؤلفه "الجغرافية"، وخصص الجزء السابع عشر والأخير في وصف مصر، إن هذا الكتاب يتميز بدقة كبيرة وجد ثمين لمن يدرس تاريخ وجغرافية مصر القديمة (221). حيث يفيدنا في موضوع فروع النيل وقنواته التي كانت تعد طرقا تجارية، كما يتطرق إلى بعثات بعض ملوك مصر التجارية خاصة الملك "سنوسرت" الثالث، وأمور أخرى كثيرة تناولتها في مواضيعها المناسبة.

المطلب الخامس: بلين

هو عالم طبيعى روماني عاش في القرن الأول ميلادي له موسوعة ضمت وصف النباتات والحيوانات والسلع التي كانت سائدة في ذلك العصر، وقد تطرق إلى نباتات البحر الأحمر في عدة نقاط متفرقة (222). ولد إما في سنة 23 أو 24 ببلدة Côme من عائلة تنتمي إلى النبلاء الأثرياء وتحديدا إلى صف الخيالة (Equestre)، شغل وظائف مهمة في روما وكان مقربا من الإمبراطور (223).

ضاع كل إنتاجه ولم يبق لنا إلا عمله الذي يحمل عنوان: "التاريخ الطبيعي" (Naturalis historia)، وقد إنتهى من تأليفه سنة 77 (224). والأولى أن يطلق عليه "تاريخ الطبيعة"، وهو عبارة عن موسوعة شملت الإنسان والحيوان والنبات والجماد وهو ينقسم إلى 37 كتاب، منها أربعة كتب تناولت موضوع الجغرافيا وهي الكتب من 3 إلى 6، كما أنه يضم معلومات عن أنواع النباتات والسلع التجارية (225). وإضافة إلى ذلك فقد ذكر كل أنواع المراكب المصنوعة من الأخشاب، الجلد، الخيزران، والبردي (226)، وهي تدل على مدى أهمية الملاحة المصرية

(3) – أحمد أمين سليم وسوزان عباس، المرجع السابق، ص. 18.

(4) – نقولا زيادة، « دليل البحر الإثري وتجارة الجزيرة العربية البحرية »، في: دراسات تاريخ الجزيرة العربية، إشراف عبد الرحمن الطيب

الأنصاري، (ط1؛ الرياض: مطابع جامعة الملك سعود، 1984)، ج1، ص. 261.

(5) – محمد السيد غلاب، المرجع السابق، ص. 10.

(6) – نقولا زيادة، المرجع السابق، ص. 262.

(1) – أحمد أمين سليم وسوزان عباس، المرجع السابق، ص. 19.

(2) – عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص. 568.

(3) – F. Daumas, Op – Cit, p. 640.

(4) – عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص. 569.

(5) – Pline L'Ancien, Histoire Naturelle, traduit par Hubert Zehnacker, (Paris : Gallimar, 1999), pp. 8-9.

(6) – Ibid, p. 11.

(7) – نقولا زيادة، المرجع السابق، ص. 262.

(8) – D.M.J. Henry, l'Egypte pharaonique ou histoire des institutions des égyptiens sous leurs Rois nationaux,

(Paris, 1846), t. 2, p. 495.

بين ملاحه الشعوب الأخرى، بالإضافة إلى ذكره قناة النيل- البحر الأحمر وأهميتها في التجارة المصرية. توفي عام 79 م أثناء ثورة بركان "فيزوف" نتيجة فضوله لمشاهدة تلك الظاهرة الطبيعية⁽²²⁷⁾.

المطلب السادس: كتاب الطواف حول البحر الإريتري

إن مؤلف هذا الكتاب مجهول، وكل ما عرف عنه أنه كان تاجرا يونانيا يعيش في مصر، وربما كان يعيش في الإسكندرية، وهناك من يرى بأن هذا المؤلف أنجز خلال القرن الأول بين 50 و 80 م وآخرون يرون بأنه ألف خلال القرن الثاني، لكن أغلب من ترجم هذا العمل يرجحون القرن الأول ميلادي، وهو بذلك يكون قد عاصر "بليينوس" (Pliny) ⁽²²⁸⁾.

وبما أنه بحارا فقد وفق في وصف سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي وموانئهما في كتابه الذي يحمل عنوان: "Periplus Maris Erythraei" وهو تعبير يوناني يعني: "الطواف حول البحر الإريتري"⁽²²⁹⁾. وقد كتب في عهد الملك "كلاوديوس" أو الملك "نيرون" وكان هدفه من وضع هذا المؤلف هو إستفادة التجار والملاحين منه في ذلك الوقت⁽²³⁰⁾.

يتشكل هذا الكتاب من 66 فصل، إحتوى خلاصة خبرة تجارية طويلة، ومع ذلك فإن معلوماته المركزة والجد مفيدة تتعلق بوصف شواطئ البحر الأحمر إلى غاية باب المندب، ثم تكلم عن شواطئ الجزيرة العربية الجنوبية وشواطئ الهند بل إنه ذكر كل الموانئ وحتى التي لم تكن ذات شهرة، أي أنه ذكر كل مكان يصلح لرسو السفن، وأعطى معلومات هامة عن الأسواق ومخازن السلع، وكيف كانت السفن ترسو وتتبادل البضائع التجارية، بل إنه بلغ من الدقة بأن ميز بين البضائع التي تستورد والتي تصدر، ولا يكتفي بالحديث عما يجري عند السواحل من عمليات تجارية بل إنه يصف الأماكن الأبعد والتي تكون مورد السلع، فجاء ذكر ثمانية وعشرين ميناء لها صيت في عالم التجارة، منها إثنان على الساحل المصري، وتسعة على سواحل إفريقيا إلى الجنوب من مصر، وستة موانئ على ساحل البحر الأحمر لبلاد العرب وميناءين في الخليج العربي. وذكر ميناء على ساحل مكران، أما بخصوص الهند فقد ذكر سبعة موانئ، وعلى الساحل الصيني ميناء واحد، وقد أثبتت فيما بعد صحة هذه المعلومات، كما أعطى معلومات جد صحيحة عن الطرق⁽²³¹⁾.

فهذا المصدر يمدنا بالكثير عن الملاحة والموانئ والسلع المتداولة على سواحل البحر الأحمر، وفي الصومال وغربي الهند، حيث وضع في ذلك الكتاب تجربته الشخصية ومعاينته للأماكن عن قرب، ومعلوماته عن مناطق خارج البحر الأحمر إستقفاها من تجار ربطته بهم صلات، إذن فما جاء به يعد أهم بكثير من الأساطير التي أتت من بعض المؤرخين، فهو يعد أهم وثيقة عن البحر الأحمر⁽²³²⁾، خصوصا من حيث النقاط التي أتيت على ذكرها، وغيرها كثير مثل تحديد المسافات بين الأماكن و الأخطار التي تميز كل مكان منها، كما يحتوي على بضائع متنوعة مع ذكر سعرها.

وعليه فإن هذا المؤلف من حيث صدق محتواه يعتبر أفضل بكثير من كتب القدامى، فمثلا إذا قورن بما كتبه "بليينوس" عن الطريق البحري للهند، نجد هذا الأخير لم يستوح سوى من رحلة قام بها صاحبها إلى هناك، وعلى العكس من ذلك نجد كتاب الطواف، الذي عايش صاحبه الطريق البحري بكل تفاصيله، جاء بمعلومات يمكن الوثوق بها. وقد تناول الدليل الجزيرة العربية في الفصول من 19 إلى 36، أما الفصول من 1 إلى 18 فهي تتعلق بالشاطئ المصري والإغريقي عموما للبحر الأحمر، والفصول من 37 إلى 66 تخص غرب الهند. وبخصوص محتوى الكتاب عن الجانب الإفريقي فهو: « يقدم لنا وصفا جغرافيا لشواطئ البحر الأحمر وإفريقيا فيما وراء باب المندب...ويعنى بالموانئ، والميناء في نظره ما وجد فيه مكان لرسو السفن ومخازن للسلع الكثيرة، ويعرض للأماكن التي تصلح لتوقف السفن فيها...، ويفصل المتاجر المختلفة المستوردة والمصدرة، ويقدم لنا إشارات هامة إلى المراكز الداخلية التي قد تغذي الموانئ بالسلع أو تبتاع سلعا من الموانئ»⁽²³³⁾. وأهمية هذا المصدر في تجارة مصر دفعتني لبذل قصارى جهدي في البحث عن الجزء الذي يتناول الساحل

(9) - Pliny, Op - Cit, p. 7.

(1) - نقولا زيادة، المرجع السابق، ص. 263.

(2) - عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص. 569.

(3) - جورج فضلو حوراني، المرجع السابق، ص. 54.

(4) - نقولا زيادة، المرجع السابق، ص. 264.

(5) - جورج فضلو حوراني، المرجع السابق، ص. 54 - 55.

(1) - نقولا زيادة، المرجع السابق، ص. 263-264.

الإفريقي لكن دون التمكن من الحصول عليه، لذلك إعتدت فقط على الجزء الذي يتطرق إلى سواحل البحر الأحمر الآسيوية في نقاط محددة من الدراسة.

المطلب السابع: يومبونيوس ميلا

لا يعرف الكثير عن هذا الرحالة، وكل ما نعرفه أنه عاش خلال القرن الأول الميلادي، وقد دون حوالي 43 م عملا جد مختصرا جمع فيه ما توصل إليه سابقه، لكن الملفت للإنتباه، أن عمله هذا إهتم بالأشياء الغريبة، وبالتالي فإن فائدته محدودة (234). ومع ذلك فإنه ذكر بعض الإشارات إلى مصر منها خاصة إعطاء وصف لفروع النيل التي كانت جزءا ضمن شبكة الطرق التجارية.

المبحث الرابع: الكتب المقدسة

أقصد بها القرآن الكريم، والتوراة، ولا يمكن الإستغناء عنها عندما تكون الدراسة تتناول مواضيع الفترة التي تتبع الدولة الوسطى من تاريخ مصر الفرعونية، فهذا المصدر تناول عديد القصص الدينية، والتي تمس تاريخ مصر وفراعتها بطريقة أو بأخرى، وفي أثناء ذلك كانت تتحدث عن جوانب عدة من حياة تلك الفترة.

المطلب الأول: القرآن الكريم

ذكر العديد من الأخبار عن فترة الجاهلية، وهي أخبار تثبتتها وتؤكدتها الأبحاث التاريخية والأثرية، كما أنه من خلال قصص الأنبياء خاصة: النبي يوسف - عليه السلام - يعطي لنا فكرة عن الحياة التي سادت مصر أيام الفراعنة وكل ما يتعلق بالجوانب السياسية والإقتصادية والإجتماعية (235). فتلك القصة تفيد كثيرا موضوع العلاقات التجارية بين مصر وشعوب جنوب فلسطين، وكذلك فيما يخص السلع التجارية كتجارة العبيد وتجارة القمح، وأهمية هاته المادة بالنسبة لتلك الشعوب، وأيضا تمد موضوع الدراسة بفكرة عن الطرق المستعملة في تلك التجارة وعن وسيلة النقل وغيرها من الأمور.

المطلب الثاني: التوراة

يطلق عليها الكتاب المقدس، واللفظ الصحيح هو إطلاق عبارة العهد القديم الذي يقال إنه نسخ إبتداء من القرن العاشر والتاسع ق.م في مكان يدعى "هضبة يهوذا"، لكن هناك من يرجع بداية كتابته إلى القرن الثالث عشر أو الحادي عشر ق.م، وقد كتب عبر عدة قرون إلى غاية القرن الرابع ق.م حين كتب آخر أسفاره المسمى "نحميا". إن أهمية هذه الأسفار تكمن في كونها وثيقة تاريخية، لأن بني إسرائيل كانوا يقطنون فلسطين التي إرتبطت بعلاقات مباشرة مع عديد شعوب شرق البحر المتوسط، وبالتالي فهي تحوي معلومات كثيرة عن هذه المناطق بما فيها تلك المتعلقة بالشعب المصري، فسلجوا أحداث عصرهم، وما يهمنها منها على وجه الخصوص الأسواق التجارية في كل من سوريا وفلسطين، والتي كانت تعج بالحركة التجارية (236).

فالتوراة هي: « كتاب اليهود المقدس، وهي عبارة عن مجموعة كتب في التاريخ والشعر المنثور، ومجموعة قوانين وأغان دينية »، والتوراة لها أجزاء أو الأصح أقسام وهي: الشريعة، وقسم يتحدث عن الأنبياء، وقسم يختص بالكتابات المقدسة و ببعض الأنبياء مثل: سليمان ومزامير داود، وقد دونت التوراة في البداية باللغة الآرامية، وترجمت إلى اللغة الإغريقية في القرن الثالث ق.م، وفي القرن الرابع الميلادي تم ترجمتها إلى اللغة اللاتينية، ولم تكن التوراة مقدسة لدى اليهود فقط بل كانت لها نفس القداسة لدى المسيحيين على إعتبار أنها تتناول العهد الذي سبق المسيح - عليه السلام - . وعن أهميتها التاريخية فهي تعد من ضمن المصادر التاريخية التي لا غنى عنها في دراسة تاريخ الشرق الأدنى القديم عامة في ظل نقص مصادر تاريخية متعددة عن هذه المنطقة، كما أنها تعتبر المصدر الأول في دراسة تاريخ العبرانيين وعلاقتهم بالشعوب المجاورة (237).

وقد وجدت العديد من الأسفار التي تناولت الشعب المصري وفراعاته والعلاقة التي تربطهم بشعب إسرائيل وخاصة أنبيائهم (238)، ولذلك تعتبر مصدرا ثمينيا في بعض نقاط موضوع الدراسة لكونها تناولت مصر في عديد المواضيع، فهي « تحدثنا عن يوسف الصديق وكيف أتى إخوته من فلسطين إلى مصر ليبينوا قحما لأنه في الوقت الذي كانت فيه فلسطين تعاني المجاعة كانت مصر غنية بعلتها » (239). فالتوراة ذكرت القدماء المصريين في العديد من المواضع، لكن ما يهمنها منها قصة يوسف - عليه السلام - والتي تكشف عن جوانب من العلاقات

(2) - نفس المرجع ، ص. 262.

(3) - أحمد أمين سليم وسوزان عباس ، المرجع السابق ، ص. 21.

(1) - محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص. 9.

(2) - أنور الرفاعي وشاكر مصطفى ، المرجع السابق ، ص. 60.

(3) - أحمد أمين سليم وسوزان عباس ، المرجع السابق ، ص. 20.

(4) - ن.ي ، المرجع السابق ، ص. 148 - 150.

التجارية بين مصر والإسماعيليين في جنوب فلسطين، كما أنها ذكرت النبي سليمان – عليه السلام – وتجارتها في البحر الأحمر وعلاقته بالمصريين، ليس ذلك فحسب بل عرفتنا على بعض السلع التجارية. وكذلك عن العلاقة التجارية التي كانت تربط مصر بالساحل الفينيقي وخاصة مدينة "صور"، وعرفنا ذلك من خلال مرثية "حزقيال" لهذه المدينة.

المبحث الخامس: ملاحظات حول مصادر الدراسة

هكذا تكون مصادر الدراسة متنوعة وتتطرق بدرجات متفاوتة إلى تجارة مصر خلال العصر الفرعوني، ولو أنني لم أستطع حصرها كلها فإنني حاولت أن أعطي نماذج لكل نوع منها، وكان بودي أن أختتم هذا الفصل بنقد لهذه المصادر لكن لم يكن بإستطاعتي فعل ذلك، لأن النقد يتطلب أولاً جرداً لكل المصادر ودراستها دراسة معمقة والإطلاع على كل الدراسات التي كتبت عنها، وهو أمر يتطلب بحث معمق ووقت زمني كاف، وبما أنه لم يتسنى لي القيام بكل هذا نظراً لعوامل عدة، فإنني إكتفيت بذكر بعض الملاحظات والنقائص التي لفتت إنتباهي أثناء جمع معلومات موضوع البحث وقد لخصتها في النقاط التالية:

*- إن المصريين القدامى تركوا لنا صوراً عن حياتهم اليومية على جدران العديد من المعابد والمقابر، إلا أن هناك بعض النشاطات التي لم يشر إليها إلا نادراً، منها البعثات إلى ما وراء نهر النيل، وهناك بعض الأماكن قل ما تظهر أو لم تظهر إطلاقاً مثل الموانئ، القصور الملكية، الطرق... إلخ⁽²⁴⁰⁾. وهي أشياء تقيدنا في إعطاء صورة أوضح عن موضوع التجارة وما يتصل بها من تفاصيل.

*- رغم أن مشاهد معبد الملكة "حتشبسوت" بالدير البحري، تعد الوثيقة التي تحمل معلومات مفصلة عن بلاد "بونت"، إلا أنه لا نجد فيها إشارة محددة عن موقع هذه البلاد⁽²⁴¹⁾.

*- ما يميز الآثار المصرية أيضاً أن أغلبها حفظ في مصر العليا، لأن الصحراء كانت المكان الملائم لدفن الأموات وبناء المعابد، لهذا السبب فإننا نملك كثيراً من الوثائق عن الطقوس الجنائزية والديانة، لكننا نفتقر إلى الشهادات المتعلقة بالنشاطات المهنية، والحكومية والحياة الإقتصادية والتنظيم الإجتماعي، والسبب أن الموت والأخرة كانا يأخذان مكانة مهيمنة في تفكير السكان، لذلك ظلت تلك المعالم الدينية باقية إلى الآن نتيجة لحفظ الصحراء لها، بينما بقايا الحياة اليومية نجدها على العكس قد إختفت خلال قرون. وهكذا فإن المنطقة التي لها إتصالات مع آسيا والبحر المتوسط هي الأقل معرفة بالنسبة لنا، وعند إعادة تشكيل تاريخها كان يلجأ إلى الوثائق التي تصل من الجنوب⁽²⁴²⁾. هذا الكلام حسب رأيي ينطبق على الفترات التي كانت تبرز فيها مصر السفلى كقوة إقتصادية، وهي فترات محددة من تاريخ مصر القديمة والتي يمكن حصرها في فترة ما قبل الأسرات، فترة الإقطاع الأولى وفترة الإقطاع الثانية.

*- يرى البعض عدم أهمية التجارة الداخلية والسبب أن النصوص المصرية القديمة لا تذكر شيئاً عنها⁽²⁴³⁾، أي أن الآثار المصرية تتميز بندرتها فيما يخص التجارة الداخلية والسبب كما يراه البعض الآخر يعود إلى أنه لم تكن هناك تجارة داخلية نشطة، وهذا راجع إلى تشابه الظروف البيئية في مختلف الأقاليم والتي تقع كلها على نهر النيل وبالتالي فالمنتجات بدورها متشابهة⁽²⁴⁴⁾.

*- كما أنه رغم ما جاء في النصوص المصرية من ذكر للبعثات التجارية إلا أنه لم يكن للتاجر إهتمام خاص أو بروز واضح وإنما تحدثت عنه كصاحب مهنة فقط⁽²⁴⁵⁾. فالتاجر لم يرد ذكره في النصوص المصرية القديمة إلى غاية نهاية الألف الثانية ق.م⁽²⁴⁶⁾.

*- بالنسبة للطريقة التي كانت تسير بها الرحلات التجارية، فإنه ليس لدينا أية وثيقة تعود إلى العصر الفرعوني تتكلم عن ذلك، ماعدا بعض الإشارات هنا وهناك تضمنتها بعض النقوش وبعض الكتابات على أوراق البردي.

*- على حد تعبير البعض بما أن أغلب الشواهد المتعلقة بالحياة في مصر القديمة تأتي من مقابر الصحراء فإنه ليس بالمكان الذي يتوقع أن يوجد فيه وثائق تتعلق بالإقتصاد، لأن مثل هذه الوثائق كانت محفوظة في المدن

(1) - V. Bérard , Op - Cit , p. 128.

(2) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 39.

(3) - J.A. Wilson , Op - Cit , pp. 19 - 20.

(4) - محمد بيومي مهران ، الحضارة المصرية...، المرجع السابق ، ص. 105.

(1) - فوزي مكاي ، الناس في مصر القديمة ، (القاهرة: المجلس الأعلى للآثار، 1995) ، ص. 103.

(2) - محمد أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص. 122.

(3) - عبد الفتاح محمد وهيب ، مصر والعالم القديم، جغرافية تاريخية ، (دون مكان طبع ، دار النهضة العربية ، 1972) ، ص. 307.

(4) - J. Janssen , Op - Cit , p. 59.

والأحياء أو أملاك النبلاء أو بالقرب منها، ونظرا لكونها كانت تغرق كل سنة بفيضان النيل فإن البرديات كانت تتحلل بسرعة في حين نجد أن لوحة من طين تكون أكثر مقاومة، لذلك وجدت في بلاد ما بين النهرين عديد الوثائق من هذه الألواح وهي عبارة عن أرشيف كامل (247).

*- إن المعلومات التاريخية عن الدلتا هي قليلة جدا لأن التنقيب عن آثارها يعد جد صعبا، والكثير الذي عرف عنها في الوثائق القديمة لا يمكن معرفته على أرض الواقع منها مثلا المدن التي يعد تحديدها على أرض الواقع أمرا مستحيلا (248). بينما إختلاف المناخ في مصر العليا لعب دورا مهما حيث حفظ لنا لإنعدام الرطوبة بها حتى الأشياء سريعة الفناء، منها قطعة من قماش الكتان تعود إلى أكثر من خمسة آلاف سنة، بينما مناخ الدلتا الرطب حطم تقريبا كل آثار الحضارة القديمة هناك (249).

*- إن معظم ما دون جاء بأمر من الفرعون أو إرضاء له، وأن الآثار التي تمثل الحياة اليومية قليلة مقارنة تلك التي تعالج الناحية الدينية (250).

*- إن التمثيلات عن الحياة اليومية على جدران المقابر لا تشكل مصدرا للمعلومات حول الإقتصاد، لأن الإقتصاد هو على العموم مسألة أرقام غير مرئية، فعند مشاهدة مثلا مجموعة من الحمير تنقل محصول الحقول إلى جرن الدراسة (الدق) لا يعطينا ذلك أي دلالة على إتساع المحصول (251). وينطبق ذلك على الميدان التجاري الذي لا يعطينا تمثيلاته أية أرقام بخصوص مثلا حجم السلع المتبادلة.

*- ضف إلى ذلك أن الكثير من النقوش كانت محطمة، والتهديم الكبير الذي عرفته آثار مصر الفرعونية حدث إبان العصر الروماني من قبل أتباع المسيحية الذين كانوا يرون فيها أنها ديانة وثنية، ولابد من القضاء عليها ونشر الديانة الجديدة، وأكثر من ذلك تعرضها للسرقة والنهب بصفة دائمة وعن طريق عصابات منظمة.

*- عدم قيام مسح أثري لمنطقة "بونت"، وبالتالي لم يكشف عن آثار تقيد في إعطاء تفصيلات أكثر عن علاقة مصر ببلاد "بونت" وما كانت تقوم به البعثات هناك (252).

*- إن الوثائق التي تتناول الصلات السلمية، أي التجارية بين قدامى المصريين وجيرانهم نجد فيها سوى مقتطفات قصيرة، وبالتالي لا تعطي تفاصيل عن الحوادث، بل تذكر من حين لآخر إشارات منفردة، وهي عبارة عن ومضات في ظل أحداث تاريخية متصلة (253).

*- أما كتابات المؤرخين الإغريق والرومان فإنها تنقسم ببعض النقائص منها سوء فهم وتفسير ما شاهدوه إنطلاقا من خلفياتهم، كما أن الكثير من أفكارهم عن مصر تولدت لديهم بتأثير ذلك العصر الذي كانت فيه مصر تمر بمرحلة ضعف لأنهم لو زاروها أثناء قوتها لكان الأمر مختلفا، إضافة إلى ذلك فإنهم وقعوا في أخطاء عندما تعرضوا إلى بعض مظاهر الحضارة المصرية خاصة ما يتعلق بإقليم الجنوب لأن معظمهم كان قد زار مصر السفلى، إلى جانب ذلك فإنهم أخطأوا في تفسيراتهم لكثير من النصوص القديمة، وهذا راجع لإعتمادهم على الكهنة الصغار والمترجمين، أي أنهم أعطوا إهتماما للروايات الشفوية، والتي في أحيان كثيرة تكون مليئة بالمغالطات، هذا ونجدهم قد كتبوا عن مصر والشرق عموما بدافع التعصب والتعالي وبدافع إضطراب مصالح مصر و بلاد اليونان (254).

*- إن كتاب هيرودوت عن مصر القسم الأول منه والذي يغطي الفترة إلى غاية العصر الصاوي، لا يمدنا بمعلومات تاريخية قيمة، وبدء من هذا العصر كانت المعلومات جد هامة لأنه إستقاها من الإغريق، الذين كانوا مقربين من الملك "بسماتيك" الذي أعطاه أهمية كبيرة في عهده، وكانوا في هذا العصر يتمتعون بمكانة خاصة لدى الفراعنة (255).

(5) - إليزابيث رايشتال، طبية في عهد أمنحوتب الثالث، ترجمة إبراهيم رزق، (بيروت- نيويورك: مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، 1967)، ص. 30.

(6) - Erman et Ranke , Op - Cit , p. 30.

(7) - أحمد أمين سليم وسوزان عباس ، المرجع السابق ، ص. 9-10.

(1) - J. Janssen , Op - Cit , p. 60.

(2) - تريجر وآخرون ، المرجع السابق ، ص. 305.

(3) - أتيين دريوتون وجاك فاندييه ، المرجع السابق ، ص. 233.

(4) - أحمد أمين سليم وسوزان عباس ، المرجع السابق، ص. 75.

(5) - هيرودوت ، المرجع السابق ، ص. 37.

*- إن الكتابات الكلاسيكية رغم ما لها من قيمة تاريخية وموضوعات متنوعة، حيث تناولت تقريبا كل مناطق العالم القديم، ورغم اعتبارها الكتابات التاريخية الأولى إلا أنها لم تنطرق إلى التجارة المصرية بصفة مباشرة وخاصة البعثات المشهورة.

*- أما عن نقائص العهد القديم، فإنها تكمن في الخلط بين الواقع والأسطورة في سرد الأحداث التاريخية، كما تنسم كتابات العهد القديم بالخيال والمبالغة ومن هنا فلا بد من الإعتماد عليها بحذر ولا يلجأ إليها إلا لتغطية الفجوات التاريخية ومحاولة مقابلتها بما توصلت له الدراسات الأثرية (256).

*- طال التوراة التحريف، والقرآن الكريم يؤكد ذلك في قوله تعالى: ﴿ من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ﴾ (257). وقد قام بتحريف التوراة مجموعة إختصت بذلك العمل من أجل المحافظة على مكانتها وسيطرتها، وهم بالطبع رجال الدين، كما طمسوا بعض الأسفار ولم يظهروها (258). وتأكيدا لهذا جاء في الآية التالية: ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ﴾ (259).

*- لم تخلو السير الذاتية المصرية بدورها من النقائص، لأن محرريها لم يكتب بموضوعية، فالسيرة الذاتية هي بمثابة عقد إعتراف نحو الملك الخير، خاصة وأن الجزء الأكبر من النصوص يشكل صيغا جنائزية إلهية وطقوسية لديانة الآلهة وللأموات، كما أن الروايات على الجدران تنسم بصفة الأسطورية (260).

*- و نظرا لكل هذه النقائص يقول " نجيب ميخائيل إبراهيم " بأن الآثار الباقية لا تحوي معلومات كافية عن علاقة مصر التجارية بالساحل السوري (261)، وأضيف إلى ملاحظته أن ذلك لم يكن مقتصرًا على الساحل السوري بل أن المشكلة تطرح مع باقي جيران مصر، مما جعل الكثيرين يتخذون ذلك كتأكيد للمقولة التي ترى بأن الوثائق التي تتناول الجوانب الإقتصادية لمصر القديمة هي نادرة.

ورغم كل تلك النقائص إلا أن هذه المصادر قد أفادت موضوع الدراسة بالكثير، فيكفي أنها تعطينا صورة حية سواء الكتابية منها أو الأثرية عن تواصل البعثات التجارية من مصر إلى مناطق الجوار الجغرافي طيلة قوة العصر الفرعوني، بالإضافة إلى ذلك فقد أمدتنا بأول دليل كتابي عن التجارة الدولية والمتمثل في وصول أربعين سفينة محملة بأخشاب الإرز زمن الملك "سنفرو" بعد أن كانت الأدلة على حدوث التجارة الدولية تستمد من الآثار المادية، كما تعطينا صورة عن تواصل التجارة المصرية من خلال الإشارات التي شملت مختلف فترات العصر الفرعوني. كما أن كثرة صور السفن على مختلف أنواعها خاصة التجارية منها، تعد لوحدها دليلا كافيا على إهتمام مصر بالتجارة، فلا تكاد تخلو آثارها من إشارة إليها منذ عصر ما قبل التاريخ إلى أواخر العصر الفرعوني، فهذه المخلفات لو درست بعمق لكشفت عن أسرار جمة تفيد موضوع التجارة من نواحي عدة. وقد تكاملت المصادر المصرية مع الأجنبية في إثبات حقائق وتأكيد أخرى، ولو أن المخلفات الأجنبية كانت أقل من حيث الكمية عن المخلفات المصرية.

وأختم هذه الملاحظات بالقول بأن هذا الزخم من المصادر وتنوعها لم يلق العناية الكافية من قبل الدراسات الحديثة، في حين أعطت لتجارة شعوب أخرى إهتمام أكبر من البحث، وهي التي لم تخلف ما خلفته مصر ومحيطها الخارجي من مصادر تفيد موضوع التجارة. ورغم ما أتيت على ذكره من مخلفات أثرية سواء في مصر أو في محيطها الخارجي ورغم كل ما قدمته من وثائق بالغة الأهمية إلا أن ذلك يظل قليلا مقارنة بعظمة حضارة مصر وإمتدادها الطويل.

(1) - محمد السيد غلاب ، المرجع السابق، ص. 9.

(2) - سورة النساء: آية 46.

(3) - محمد بيومي مهران ، دراسات تاريخية...، المرجع السابق ، ص. 110.

(4) - سورة الأنعام: آية 91.

(5) - A. Moret, *le Nil et la civilisation égyptienne* , (Paris , 1937) , p. 18.

(6) - نجيب ميخائيل إبراهيم ، *مصر والشرق الأدنى القديم* ، (ط 2 ؛ دون مكان طبع ، دار المعارف ، 1964) ، ج 3، ص. 68.

الفصل الأول: عوامل قيام الصلات التجارية بين مصر و محيطها الخارجي

إن كل المخلفات الأثرية و التاريخية التي أتيت على ذكرها في المدخل تؤكد بما لا يدعو مجالا للشك حدوث تجارة في مصر خلال العصر الفرعوني ، و في هذا الفصل سنتعرف عن عوامل قيام هذه التجارة. يقال إن العمل التجاري يترجم من خلال صلات تجارية، بمعنى تبادل لسلع ومواد بين طرفين قد يكونان من بلاد واحدة أو بين تجمعات سكانية، ويمكن أن يتوسع ليشمل البلدان والشعوب. ولحدوث هذا النوع من الصلات هناك شروط أو عوامل لا بد من توفرها، منها: الموقع، أي قرب المناطق من بعضها من أجل تسهيل عملية الإتصال، والعامل الثاني هو الطرق، وتوفرها شرط أساسي، لأنها الوسيلة التي يتم من خلالها الإتصال، والشرط الثالث إختلاف المنتجات بين منطقة وأخرى وأن تحقق كل واحدة فيها إكتفاء ذاتيا ليصبح لديها فائض يطرح للتبادل، وكل ذلك لا يكفي، فلا بد من توفر عامل آخر وهو ضرورة إحتياج كل طرف لمنتجات الطرف الآخر (262)، فهل توفر ذلك لمصر خلال العصر الفرعوني؟.

المبحث الأول: موقع مصر ودوره في تسهيل الصلات التجارية

إن وضعية مصر الجغرافية وضعية مميزة لأنها تقع عند التقاء ثلاث قارات، فحدودها الشمالية تقابل أوروبا من جهة البحر المتوسط، أما حدودها الغربية والجنوبية فهي تقابل إفريقيا، وحدودها الشرقية هي في مقابلة قارة آسيا الغربية (الشرق الأدنى القديم) والفصل بينهما هو البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء (263). فمصر إذن تقع في الشمال الشرقي من القارة الإفريقية، وهي تضم وادي النيل وهضابه الممتدة على جانبيه والمتمثلة في الهضاب الشرقية والتي تصل إلى البحر الأحمر، والهضاب الغربية (264). وعليه فإن جغرافية مصر تشترك مع بلاد النوبة في البساطة، فهي عبارة عن فضاء صحراوي ضخم يجتازه النيل، وهذا الفضاء يمتد من "أوغندا" (النيل الأبيض)، ومن إثيوبيا (النيل الأزرق) إلى غاية البحر المتوسط، وإذا أردنا أن نعطي وصفا جغرافيا لمصر وبلاد النوبة فإننا نجد هذه الجغرافية تنقسم إلى ثلاثة أجزاء متميزة: مجرى النيل، الصحاري الغربية والشرقية (265).

و قد وصف هيرودوت طبيعة مصر قائلا : « فقد شاهدت أن مصر تمتد في البحر دون غيرها من الأراضي المتاخمة، أصداف البحر ترى فوق الجبال، هناك طبقة ملحية تتآكل بفعلها الأهرام، والرمال لا توجد في مصر إلا على سلسلة الجبال التي تقع فوق "ممفيس". وقد لاحظت، علاوة على ذلك، أن مصر في تربتها لا تشبه بلاد العرب التي تقع على حدودها ، ولا ليبيا و لا سورية ، بل إن تربتها بها شقوق ، لأنها مكونة من رواسب الطمي التي جلبها النهر من "إثيوبيا" ولكننا نعرف أن تربة ليبيا رملية ضاربة إلى الحمرة وأن تربة بلاد العرب وسورية صخرية وصلبة بعض الشيء » (266). من هذا الوصف أستخلص بأن مصر كانت عبارة عن شريط ضيق من الأرض محصورا بين سلسلة جبال عارية من الغابات و محاذية للبحر الأحمر والكثبان الرملية للصحراء الغربية.

إن الكتاب القدماء بما فيهم بالطبع هيرودوت يرون بأن مصر أثناء العصر الفرعوني لم تكن تتجاوز هذا الشريط الضيق من الأرض. وفي رأي كل هؤلاء وحتى كثير من المعاصرين لم تعرف مصر تغيرا في رقعتها الجغرافية إلا أثناء العصر الإغريقي حيث عرفت إمتدادا باتجاه الشرق والغرب وضمت أيضا منطقة سيناء، وكانت الحدود دقيقة لأنها حددت على مستوى منطقة السلوم من الجهة الغربية، ودخلت واحة "سيوة" و "البحرية" و "الفرافرة" و "الداخلية" و "الخارجية" في نطاق الأراضي المصرية بل إن الحدود الغربية كانت قد إمتدت لتصل إلى برقة، أما في الشمال فإنها كانت تضم جزيرة قبرص (267).

لا أتفق مع هذا الرأي لأن حدود مصر كان لها هذا الإمتداد قبل العصر الإغريقي، ما عدا بالطبع الوصول إلى قبرص، فإذا نظرنا إلى الخريطة رقم 1 ، ص 62 ، يتضح بأن مصر كان لها تواجد في شبه جزيرة سيناء

(262) - محمود عبد الحميد أحمد ، الصلات التجارية بين مصر و سورية...، المرجع السابق ، ص. 193.

(263) - Ian Shaw , " le pays noir, le pays rouge", in: Egypte, terre de civilisation, sous la direction de Jaromir Malek, traduction de Claude Grozier-Brelot, (Paris: Bordas, 1993), p. 13.

(264) - نعيم فرح ، موجز تاريخ الشرق الأدنى...، المرجع السابق ، ص. 59.

(265) - M. Damiano- Appia, l'Egypte..., Op-Cit , p. 118.

(266) - هيرودوت ، هيرودوت يتحدث عن مصر ، فقرة 12.

(267) - بلقاسم رحمانى ، علاقة جنوب شبه الجزيرة العربية بشرق إفريقيا ...، المرجع السابق ، ص. 108 .

(3) - أنور الرفاعي وشاكر مصطفى ، معالم الحضارات...، المرجع السابق ، ص. 19-20.

وكذلك في الصحراء الشرقية وحتى حدود الواحات الغربية، لكن أريد فقط أن ألفت الانتباه إلى أن هذا الإمتداد ربما لم يكن متواصلاً طيلة العصر الفرعوني، حيث من المحتمل جداً أنه عرف تراجعاً أثناء فترات ضعف مصر. لا أريد أن أدخل في تفاصيل ذلك حتى أتجنب الإطالة في الشرح لكن الأمور سوف تتضح أكثر من خلال بعض جوانب الدراسة.

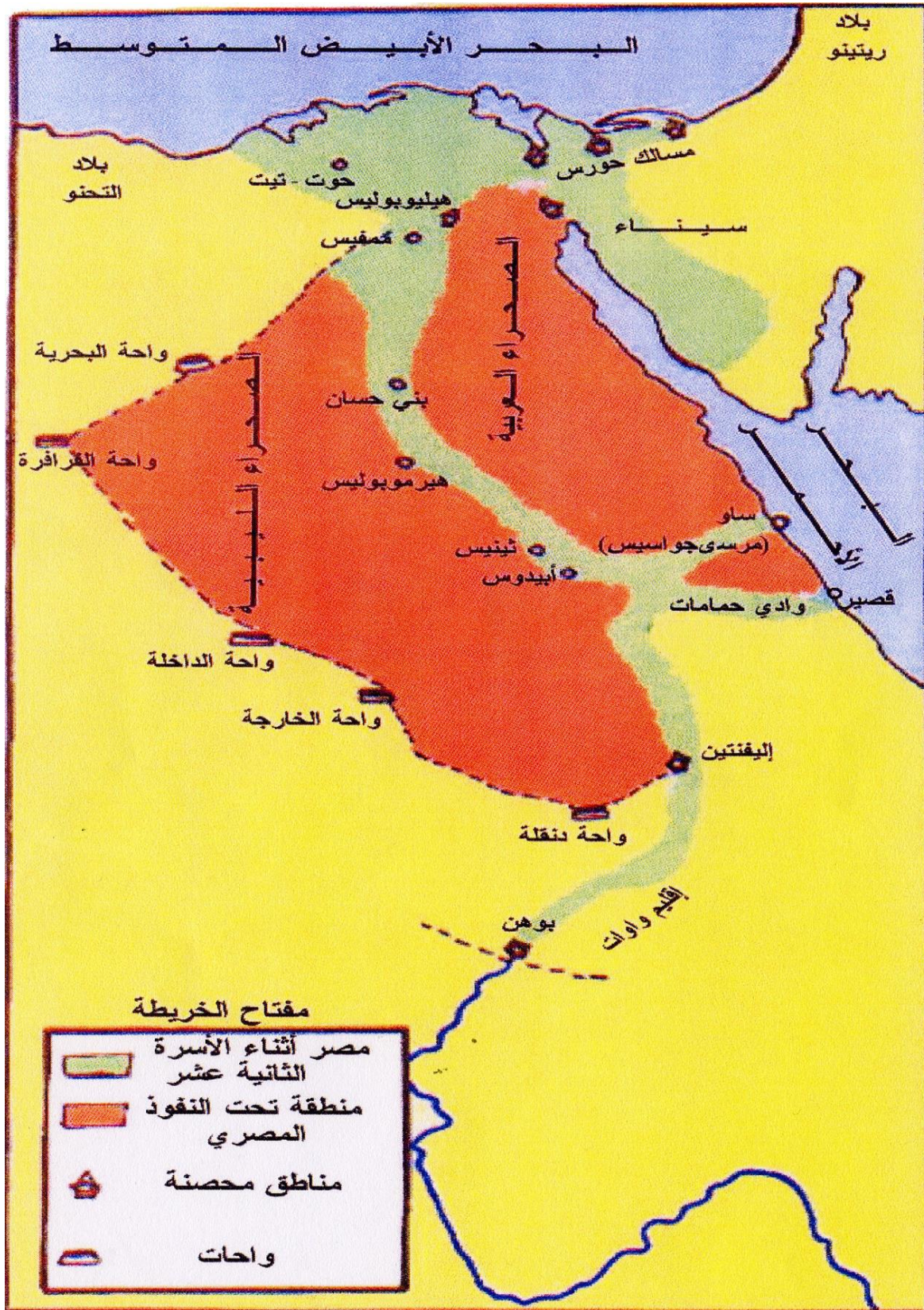
المطلب الأول: أقسام مصر الجغرافية

و إجمالاً فإن جغرافية مصر هي جد بسيطة، تتمثل في وادي النيل والصحراوين المحاطتين به، ولمعرفة صورة أوضح عنها أتناولها بالدراسة في النقطتين التاليتين:

أ – وادي النيل:

يقال، بدون وجود النيل ليس لمصر والنوبة أن تكونا إلا صحراء قاحلة. ففضل النيل على وجود الحياة في مصر لا يوصف، ويقال أيضاً: «لولا النيل وما يجلبه من ماء وغرين وما يوفره من بيئة طبيعية، ولولا هذه الواحة الطويلة التي يقطعها من الصحراء، والدلتا التي يغتصبها من البحر لبقى هذا الركن من شمال إفريقيا صحراء هامة تتم الصحراء الإفريقية ...»⁽²⁶⁸⁾. وبذلك فإن مصر تمتاز عن باقي جيرانها في العالم القديم بنهر النيل الذي عدل من طبيعتها الصحراوية إذ أنها تقع في النطاق الصحراوي الكبير الذي يمتد من

خريطة رقم 01 : إمتداد مصر الفرعونية خلال الدولة الوسطى



المرجع (بتصرف): B.Manley, Atlas historique..., Op-Cit, p. 45.

الخليج إلى المحيط الأطلسي وبالتالي قد أدى ذلك إلى التخفيف من وطأة جفاف هذه الطبيعة الصحراوية. فما معنى كلمة النيل ؟. وردت في النقوش المصرية القديمة كلمتان تدلان على النيل وهما "ننو" و"نينو"، وهما اللفظان المتداولان بكثرة في النصوص المصرية. وبما أن النون الأخيرة قلبت في اللغة العربية إلى حرف "لام" فإنه أصبح "نيل"، كما أن له إسم مقدس وهو "حعب" و"حعبي"، فكلمة "حعب" نجد لها مثيلا في اللغة العربية "عب" والتي تعني البحر (269). كما أطلق المصريون عليه إسم "حابي" ومعناه "المختفي" (270)، أما في العبرية فقد أطلق عليه إسم "شبحور" حيث تقول التوراة: «وغلثها زرع حيشور حصاد النيل» (271). ولما جاء الإغريق إلى مصر فإنهم غيروا تسميته إلى "نيلوس" والتي تعني النهر ذو اللون الطيني (272).

من أين ينبع هذا النهر ؟. إن النيل الكبير ينبع من إتحاد النيل الأبيض والنيل الأزرق: وهو يجري في هدوء في الصحراء على طول حوالي 3000 كلم (273). وكان المصريون القدماء يعتقدون، بأنه كان ينبع من الجنوب وأن مصدره السماء، ويجري في أرض مصر إلى أن يصل إلى البحر المتوسط والذي عرفوه بإسم "الأخضر الفاقع" (274). لكن في العصر الحديث أكتشف مصدره من خلال البعثات العلمية التي كانت ترسل إلى داخل إفريقيا متتبعين مسار هذا النهر وبعد محاولات متكررة توصلت لتحديد مصدره وهي بحيرة فكتوريا في أواسط إفريقيا.

و يمتاز النيل بأنه يمتد من الجنوب إلى الشمال في شكل مستقيم تقريبا وبأنه نهر قليل الروافد أي لا يوجد به فروع إلا في مواقع قليلة. فهذا النهر أعطى لمصر وحدة جغرافية تمثلت في شريط من الأراضي الفلاحية يمتد على طول 1000 كلم بين خطي عرض 24° و 31° شمالا والذي يشكل المجرى الأسفل للنيل من أسوان إلى البحر المتوسط (275)، يبلغ عرض مصر العليا بين 6 و 30 كلم وتقع على أطراف النيل، أما مصر السفلى فهي مفتوحة على البحر المتوسط في مواجهة آسيا وأوروبا (276)، وأبعادها تقاس من البحر المتوسط إلى القاهرة بحوالي 180 كلم وعرضها يصل أقصاه حوالي 280 كلم (277).

و عن التقسيمات الإدارية لمصر، فمنذ زمن بعيد كانت مصر مقسمة إلى قسمين كبيرين: أرض الشمال وتدعى أيضا الوجه البحري وأرض الجنوب وهي الوجه القبلي، فالأولى تبدأ من مدينة منف (البدرشين وميت رهينة حاليا) إلى غاية البحر المتوسط وقد أطلق على هذا القسم من جغرافية مصر إسم "الدلتا" من قبل اليونان، لأنه كان يشبه في شكله حرف الذال في كتاباتهم، والقسم الثاني الجنوبي يبدأ من جنوب هذه المدينة إلى غاية جزيرة "إلفنتين" عند أسوان ويطلق على هذا القسم في أيامنا إسم الصعيد، وكان كل قسم يقسم بدوره إلى مناطق تدعى مقاطعات، وقد دار إختلاف حول عددها، ففي المصادر المصرية القديمة (قوائم الملوك) ورد بأن مجموعها كان أربعة و أربعون. ويرجح صاحب كتاب "تاريخ توت عنخ آمون" أن عددها كان إثنان و أربعون، عشرون منها في القسم الأول و إثنان و عشرون في القسم الثاني، وتوجد في كل مقاطعة عاصمة بها مقر الحاكم والمعبد (278).

و يؤيده في هذا الترجيح "إرمان" و"رانكيه"، حيث يقولان بأن البلاد كانت مقسمة منذ العصور القديمة إلى إثنتين و أربعين مقاطعة منها إثنتين و عشرون تنتمي إلى مصر العليا و العشرون الأخرى متواجدة في الدلتا (279). ونفهم من ذلك أن هذه المقاطعات كانت ثابتة العدد طيلة العصر الفرعوني. أما عن توزيع هذه المقاطعات فإنها كانت تتوزع على طول النيل هذا بخصوص القسم الجنوبي، أما أقاليم الشمال أسفل "ممفيس" فكانت تنتشر في كل الدلتا.

(269) - ن. ي ، تاريخ توت عنخ آمون ، المرجع السابق ، ص ص. 248- 249.

(270) - عبد الفتاح محمد وهبية ، مصر و العالم القديم... ، المرجع السابق ، ص. 223 .

(271) - التوراة ، (بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، 1968) ، إشيعا 23 : 2.

(272) - عبد الفتاح محمد وهبية ، المرجع السابق ، ص. 224.

(273) - M.Damiano- Appia, Op-Cit , p. 201.

(274) - عبد الفتاح محمد وهبية ، المرجع السابق ، ص. 223.

(275) - Nicolas Grimal, Histoire de l'Egypte ancienne, (Paris: Librairie Arthème , 1988) , p. 25.

(276) - J.A. Wilson, l'Egypte..., Op-Cit , p. 19.

(277) - M.Damiano- Appia, Op-Cit , p. 101.

(278) - ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 282 .

(279) - Erman et Ranke , la civilisation égyptienne , Op-Cit , p. 32.

وعن الدور الإقتصادي لهذا التقسيم الجغرافي، فإن القسم الجنوبي المتمثل في ذلك الشريط الضيق حول النيل كان إنجذابه نحو قلب إفريقيا والصحراء، أما القسم الشمالي فهو يشكل أرضا سخية في الدلتا وإنجذابه كان باتجاه البحر المتوسط والبحر الأحمر (280). وهكذا فإن الطبيعة قد خلقت مصر متوسطة ومصر إفريقية، ومع ذلك فإن المنطقتين لا تستطيعان الإزدهار كل واحدة على حدى، فالدلتا تنقصها موارد البلاد الخلفية، والقسم الجنوبي بدون شاطئ يصبح ممرا لا يوجد له منافذ على أوروبا وآسيا (281).

فثراء مصر السفلى الزراعي تضاعف بنشاط تجاري مكثف، إنها عبارة عن مفترق طرق للمبادلات، وعلى العكس من ذلك فإن مصر العليا وبما أنها محصورة بين صحراويين لديهما ميل طبيعي إفريقي، فإنها لا تستطيع أن تقوم بالتجارة إلا مع مصر السفلى أو مع إفريقيا (282).

ورغم أن هناك عديد الحضارات التي تطورت حول وديان وسهول الفيضان، إلا أن تأثير مجرى النيل على المجتمع والإقتصاد في مصر ظل من مرحلة العصر الحجري القديم إلى أيامنا هذه أساسيا ومميزا (283).

ب- الصحارى المصرية:

يقال بأن المناطق الصحراوية خلال عصر الأسرات لم تكن تعتبر أجزاء من مصر، وكان ينظر لها على أنها بلدان هامشية تشكل لها تهديدا، حيث كانت تحدث بها حملات عسكرية كلما كان الأمر ضروريا. فإلى أي حد يعتبر ذلك صحيحا؟.

لقد شكلت الصحارى خطورة وفي نفس الوقت أهمية كبيرة بالنسبة لمصر، لأنها من ناحية كانت مأوى لقبائل بدوية تعيش أساسا على الرعي، والتي كانت من حين إلى آخر تغير على التجمعات السكانية القاطنة على ضفاف النيل، وكانت تشكل خطرا أيضا على الطرق التجارية التي كانت تعبر تلك الصحارى، وقد كانت هذه القبائل تشكل الشغل الشاغل للمصريين آنذاك من أجل درء خطرهما، ومن ناحية أخرى، ورغم أن تلك الصحارى تميزت بفقرها الطبيعي، حيث كان يسودها الجفاف، إلا أنه كانت لها إيجابيات تمثلت في كونها عبارة عن حصون طبيعية ضد الغزوات الخارجية، لذلك وفرت للحضارة المصرية على ضفاف النيل الحماية من المخاطر الخارجية، وليس ذلك فحسب بل احتوت على ثروات كانت عبارة عن دعائم لا غنى عنها في الحضارة المصرية، تمثلت أساسا في وجود معادن وأحجار أنجزت بها عمائرهما التي ظلت شاهدا عليها آلاف السنين، كما أن رمال هذه الصحارى كانت مكانا ملائما للمحافظة على الشواهد الحضارية خاصة منها المقابر الملكية، بما فيها من أشياء (284). وهذه دلائل على أن المصريين كان لهم نفوذ على هذه الصحراء و تواجد فعلي بها وذلك من خلال هذه الأهمية التي كانت تمثلها لهم.

و تمتاز الصحراء الشرقية بوجود سلسلة جبلية تمتد من الشمال إلى الجنوب في شكل متواز تقريبا مع البحر الأحمر والذي تفصله عن نهر النيل. أما المعدل السنوي لسقوط الأمطار فهو ضعيف، ونلاحظ تزايد التساقط كلما إتجهنا جنوبا. ورغم أن هذه المنطقة تتميز بأنها صحراء إلا أنه وجدت بها تجمعات سكنية أطلق عليها التجمعات البدوية والرعية شبه البدوية، وهذا بفضل ذلك التساقط الذي كان مصدر مجاري الأنهار بتلك المنطقة، وبالتالي وجدت حولها مواقع إنتشرت بها الزراعة، ويطلق على الجماعات التي تسكنها إسم "البليجا" (285)، أما شبه جزيرة سيناء فكانت تابعة لمصر مباشرة (286)، لأن كلا من الصحراء الشرقية وسيناء تشكلان مصدر الأحجار والمعادن لمصر، وبالتالي فدورها هام في إقتصادها، فكان ضروريا أن تلحقهما مصر إليها، حيث كانتا تستغلان بصفة متواصلة وذلك من خلال عديد النقوش التي وجدت بهما وكذلك وجود قرى للعمال تتوفر فيها كل ضروريات الحياة (287). كما كانوا في نفس الوقت يستغلون الصحراء الشرقية في كل وقت رغم شدة الحرارة الغير محتملة (288).

(280) - D.Mailliet , les rapports des Grecs avec l'Egypte..., Op-Cit , p. 42.

(281) - A. Moret , le Nil..., Op-Cit , p. 31.

(282) - J.A. Wilson , Op-Cit , p. 19.

(283) - I. Shaw , Op-Cit , p. 17.

(284) - عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ، المرجع السابق ، ص. 3.

(285) - تريجر و آخرون ، مصر القديمة...، المرجع السابق ، ص. 143.

(286) - C.Lalouette , Thébès ... , Op-Cit , p. 70.

(287) - Claire Lalouette , L'Empire des Ramsès , (Paris : Fayard , 1985) , p. 32.

(288) - K.A. Kitchen , «Grandeur et décadence des empires» in Egypte terre des civilisations, sous la direction de -

Jaromir Malek , traduction de Claude Grozier-Brelot , (Paris : Bordas , 1993) , p. 86.

و إذا أردنا أن نجري مقارنة بين البيئة الطبيعية بمصر والعراق، فإننا نجد أن تأثير الأنهار كان تقريبا واحدا بين البلدين، فهذه الأنهار جعلت تلك المناطق مهدا للإستقرار لما وفرتة من خصوبة الأرض الزراعية، كما كانت عبارة عن نقاط إتصال بين السكان، ومناخا ملائما لتطور صناعة السفن منذ أواخر فجر التاريخ في الألف الرابعة ق.م في العراق، لكن الفرق بين المنطقتين، أن نهرا دجلة والفرات لم يكونا أمنين مثلما هو الحال بالنسبة للنيل، لأنهما كانا يتميزان بالإنحدارات الشديدة وسرعة جريانها في بعض المناطق، حيث كان اجتيازهما لا يخلو من مخاطر محتملة. ومن جهة أخرى فإن فيضان النهرين لم يكن في مواعيد محددة مثلما هو الحال في فيضانات نهر النيل، وقد أحاطت ببلاد الرافدين من الغرب والجنوب صحارى كانت لها مخاطرهما أيضا من حيث كونها كانت ملجأ للبدو، لكن منافعها تمثلت في كونها قد حوت أسواقا تجارية هامة كانت بوابة الهجرات السامية إلى العراق، ومن عيوبها أنها فقيرة من المعادن والأحجار، على عكس الصحارى المصرية، كما شكلت عبء على العراق من حيث وجوب توفير قوات على أهبة الإستعداد لدرء خطر البدو، كما أن العراق بلد مفتوح على كل الشعوب المجاورة له، وبالتالي كان عرضة للغزو، فإنعكس ذلك على عدم إستقراره السياسي، فكانت بيئته تجلب له الكثير من المتاعب. وعن مميزات البيئة المصرية إجمالا مقارنة مع بيئات العالم القديم الأخرى نجد أن المصريين كانوا أكثر حظا من غيرهم لأن متاعبهم تجاه بيئتهم كانت أقل بكثير من متاعب غيرهم من الشعوب، فهي بيئة يسيرة، هادئة، مأمونة العواقب، هينة الحدة، قليلة التعب وليست صاحبة كما في بقاع أخرى، الشيء الذي إنعكس على الإنسان المصري فكانت نزعة في روح الخير لينجز حضارة تحمل صفات الإستقرار والإستمرار، كما ساعدت هذه البيئة المصريين في الوصول إلى الإكتفاء الذاتي في كل مناحي الحياة تقريبا، وإنعكاسها على مناحي أخرى دنيوية ودينية⁽²⁸⁹⁾، بما فيها بالتأكيد الجانب التجاري، حيث كانت تجارتها بدورها متميزة عن باقي شعوب العالم القديم، وقد كان المحرك الأساسي فيها هو الفائض في مواد زراعية بعد الإكتفاء الذاتي وحاجاتها الأساسية التي لم توفرها لها بيئتها.

المطلب الثاني : مصر بين العزلة والانفتاح

لقد إنقسم المؤرخون بخصوص هذا الموضوع إلى فريقين: الأول يرى أن مصر كانت تعيش في عزلة خلال العصر الفرعوني، وأن موقعها لم يكن له دور هام في التجارة ولم يسهل لها مهمة الإتصال بعالمها الخارجي، في حين أن الفريق الآخر الذي يتبنى الرأي المناقض، يرى بأن مصر لم تعرف عزلة وأن موقعها وفر لها منافذ تطل منها على محيطها الجغرافي، ولهم تفسيراتهم وحججهم في ذلك، فما مدى صحة الرأيين؟. الرأي الأول هو منقسم ضمينا بين من يرى أن هذه العزلة هي كلية وبين من يراها نسبية فقط. ويستند أصحاب هذا الرأي في ذلك إلى الموقع الجغرافي لمصر، حيث وجود الصحاري على الحدود الشرقية والشمالية الشرقية وكذا الغربية، و من الشمال البحر المتوسط و وجود الشلالات عند جنوب أسوان، بل إن الطبيعة الصخرية للمنطقة تتغير هناك كليا لتأخذ الأرض طابعا مغايرا عند اجتياز مسافة 42 كلم جنوب أسوان، فالحجر الجيري الذي تتشكل منه كل الكتل المصرية يترك مكانه للحجارة الرملية. كما أن الشلال هناك به تيارات نهريّة تصعب الملاحة فيه لوجود كتل الغرانيت الحمراء والسوداء، وبالتالي أصبحت تلك العوائق حدودا منيعة لمصر، حيث كانت جد فعالة في صد الهجمات الأجنبية⁽²⁹⁰⁾.

و إن لم يكن الشلال الأول في نظر البعض عائقا حقيقيا لأن اجتيازه كان ممكنا إما بالمركب، أو بالإستدارة حوله، فإنهم يرون حواجز أخرى أصعب من ذلك، فالمنطقة لم تكن آهلة بالسكان من جهة، ومن جهة أخرى تمتاز بصخور وعرة، كما أن الأراضي الصالحة للزراعة هناك تتمثل في شريط ضيق على طول ضفاف النهر، وبالتالي لا يمكن الحصول على زراعات منتشرة ومثمرة في المنطقة التي تقع بين الشلال الأول والثالث، إذن فالشلال الثالث والثاني وصحارى النوبة كانوا يمنعون كل سير في محور شمال-جنوب. وهكذا كانت مصر القديمة محمية وفي منأى عن الغارات فكانت بإجراءات أمنية بسيطة من قبل الدولة المصرية يتم التحكم في الخطر هناك⁽²⁹¹⁾. وهكذا فإنه رغم أن بلاد النوبة كانت إمتدادا طبيعيا لجنوب مصر لكن وجدت بعض العوائق في اجتياز نهر النيل للوصول إليها والمتمثلة في الجنادل.

و يرى "موريه" (A. Moret) بأنه لا يوجد بلد في الشرق حدوده محددة طبيعيا بوضوح مثل حدود مصر، ففي الشمال نجد البحر المتوسط وفي الشرق والغرب، الصحارى العربية والليبية وفي الجنوب شلالات النيل، حدودها عبارة عن حواجز صعب اجتيازها⁽²⁹²⁾، و كأنه يفسر كلام "ديودور" حين قال: « إن مصر محصنة

(289) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 3 - 6 .

(290) - محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية...، المرجع السابق ، ص. 83.

(291) - J.A. Wilson , Op-Cit , p. 17.

(292) - A. Moret , Op-Cit , p. 29.

بالطبيعة من كل الجوانب» (293). فاليزابت رايفشتال بدورها تقول: «سكان مصر في عهد السلالات الملكية الأولى قنعوا ببلادهم الآمنة وما تمتعت به من حدود طبيعية منيعة فلم يعيروا بالاً إلى ما يقع وراء "القطرين" فمصر بالنسبة إليهم هي الدنيا بأسرها ولا شيء وراء حدودها جدير بأن يحسب له حساب» (294). فأصحاب هذا الرأي من المؤرخين يرون بأن مصر بأنفرادها بعاداتها ودينها، وفنّها وكتابتها وتطورها هي منغلقة عن نفسها في هذا الوادي ومنفصلة عن باقي الإنسانية بالبحار و الصحاري والشلالات. هذه الحميات الطبيعية ساعدت في تطور مصر وفي صون أرضها من الغزوات، والطرق والمنافذ التي هي من كل الجهات محدودة وضيقّة، لا تقدم تشجيعاً لهجرات الشعوب والجيوش، فقبل الوصول إلى الوادي، يجد الغزاة أنفسهم وسط فضاءات قاسية بدون ماء ولا زاد (295).

فإن كانت وجهات النظر هاته تركز كلها على إنغلاق مصر في إطارها الجغرافي الذي وفر لها الحماية وبالتالي إنعكس إيجابياً على نهضتها الحضارية، إلا أنها في نفس الوقت لا تنكر تماماً وجود منافذ إلى الخارج ولو أنها تنفي فائدتها بالنسبة لمصر، مع أن هناك من يذهب إلى أبعد من ذلك حين يرى بأن موقع مصر كان عائقاً أمام التجارة، ومنهم من عقد مقارنة بين مصر وبلاد ما بين النهرين من أجل إثبات ذلك.

و على حد قولهم أن بلاد ما بين النهرين إنطلقت منها الحضارة وهي تتميز بأنها زراعية بالدرجة الأولى، لكن أثناء تطورها أضيفت لها سمات حضارية أخرى، وتحولت إلى الصفة التجارية، وقد لعب موقعها في ذلك الدور الأساسي، لكن التجارة المصرية على العكس من ذلك جاء موقعها عائقاً في وجه التجارة و لم يمنح لها التوسع لأن أهميته وفائدته في هذا المجال كانتا محدودتين (296). وهناك من يرى بأن «أهمية مصر التجارية خلال العصر الفرعوني كانت محدودة ولا يمكن مقارنتها بأهمية موضعها الذي كان منبعاً للقوة، فمنذ بداية عصر البطالمة وموقع مصر يزداد أهمية حتى ظهر دوره العالمي» (297). ولو أن هذا الرأي يقلل من قيمة التجارة المصرية خلال العصر الفرعوني إلا أنني أستخلص من مضمونه أن موقع مصر لم يكن عائقاً أمام التجارة، والدليل واضح.

و من يذهب منحى هذا الرأي هم كثير، وحسب إعتقادهم فإن مصر لم تعرف إنفتاحاً عن التجارة، حيث كانت تعيش في عزلة، إلى غاية زمن "الإسكندر"، حيث كانت تكنز معادنها الثمينة في معابدها ومدافنها كما أن محاصيلها كانت تخصصها للآلهة و الملك الإله، في الوقت الذي كان بإمكانها مضاعفة منتوجاتها لو طورت تقنياتها في ذلك بأخذ ما توصلت إليه الشعوب الأخرى من أساليب، و بالتالي كان بمقدورها تأمين الغذاء خاصة للإيجيين و إنعاش حركة التجارة بها، وفي المقابل تحصل على المواد الخام للصناعة، في حين نجدها قد أهملت كل ذلك وفضلت أن تستقل في إقتصادها وتكتفي بما عندها، ولم تبحث في محيطها الخارجي إلا على الأشياء النادرة والأبهة (298). إن هذا الرأي مبالغ فيه ومتحامل جداً على تجارة مصر فلم يكتف بالقول بأن موقع مصر وعزلتها أعاقَت تجارتها بل أيضاً عزى ذلك إلى أمور أخرى، لا يسع المجال إلى التطرق إليها، إلا أنني أود القول بأنه لا توجد موضوعية في هذا الحكم، لأن كثير من الأحداث والوقائع التاريخية التي سأتناولها في هذا البحث تثبت عكس ذلك.

و هناك رأي يقول بعزلة مصر لكن يقر بوجود ممرات إلى المحيط الخارجي إلا أنها صعبة، بمعنى أن هذا الرأي هو وسط بين الرأيين المتناقضين أحدهما المقر بعزلة مصر والآخر النافي لها. فمثلاً يرى "جون ولسون" بأنه على الرغم من أن صحراء سيناء كانت تعيق العلاقات مع آسيا، إلا أن الإتصالات كانت تفرض على القوافل مسيرة شاقة لمدة خمسة إلى ثمانية أيام للوصول عبرها إلى فلسطين، ونهر النيل لم يكن سوى ممراً ضيقاً مغلقاً أمام الإتصالات الخارجية من الشرق ومن الغرب حيث توجد الصحارى ولا تعطى إلا منافذ صغيرة

(293) Diodore de Cecile, *Bibliothèque historique*, traduction de Ferdinand Holfer, (3^{ed}; Paris: Hachette, - S.d),

I, 30, 31.

(294) - إيزابت رايفشتال، طيبة...، المرجع السابق، ص. 31 - 32.

- A. Moret et G. Davy, *des clans aux empires, l'organisation sociale chez les primitifs et dans l'Orient - Ancien*, - (295)

(Paris, 1922), p. 185.

(296) - أنور الرفاعي و شاكراً مصطفى، المرجع السابق، ص. 37.

(297) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني، الدور المصري....، المرجع السابق، ص. 17.

(298) - موسوعة تاريخ الحضارات، ص. 71 - 72.

لقوافل التجار لإجتيازها، في حين أنها كانت تشكل عائقا أمام الجيوش، بينما نجد الساحل الليبي يسمح بمبادلات سهلة مع الرعاة والشعوب المسالمة هناك⁽²⁹⁹⁾.

و يساند "عبد الفتاح محمد وهيبة" "جون ولسون" في رأيه ، إذ يرى بأن بلاد النوبة كانت إمتدادا لجنوب مصر لكن هناك بعض العوائق التي صعبت الوصول إليها عن طريق اجتياز نهر النيل والتمثلة في الجنادل، ومع ذلك أعتبرت بلاد النوبة أسهل منطقة ضمن محيط الجوار التي يمكن الإتصال بها، فمنذ بداية العصر الفرعوني ظهرت في جنوب مصر أسواق في مدينتي " أبو " و " أسوان" ⁽³⁰⁰⁾.

و في سياق الحديث عن أصحاب الرأي المخالف، أذكر "ديكمانس" ، الذي يرى في الوضعية الجغرافية الخاصة بمصر أنها تعطي منافذ نحو الخارج⁽³⁰¹⁾، ويعبر "بوزنر" (G.Posener) عن ذلك بأن مصر عبارة عن مفترق طرق مفتوح وواحة مغلقة منذ القدم⁽³⁰²⁾.

فموقع مصر هو عامل من عوامل الإتصال بين مصر وسوريا كما يرى "محمود عبد الحميد أحمد"، لأن كل منهما تحاذي الأخرى، وبالتالي فالإتصال بينهما عبر البر لا تعيقه حواجز طبيعية، إلى جانب ذلك فإن هناك إمكانية الإتصال عبر البحر حيث أن كلاهما تطل على بحر يجمعهما وهو البحر المتوسط⁽³⁰³⁾.

فالدلتا كانت أهلة بالسكان منذ ما قبل التاريخ، وقد كانت من خلال جزئها الشرقي نقطة إتصال مع آسيا، وهي أيضا نقطة التأثيرات بين الثقافات المصرية والحوض الشرقي للبحر المتوسط، وهي منطقة دخول الأجانب، وقد أستخدمت كذلك كمنطقة تسرب بالنسبة للشرقيين ثم قاعدة للفتوحات بآسيا⁽³⁰⁴⁾. فأهمية الدلتا في محيط الجوار الجغرافي تتمثل في كونها مركز جذب لعب دورا كبيرا في الإتصالات ما بين الحضارات، ففي الدلتا وجدت شعوب بني إسرائيل، وفيها تأسست المستعمرات الإغريقية الأولى، وهناك عقدت العلاقات مع العبرانيين، الفينيقيين، الإيجيين، الإيونييين وشعوب أخرى⁽³⁰⁵⁾. حيث شكل برزخ السويس جسرا بين الدلتا وسورية منذ العصور القديمة جدا.

فإذا ألقينا نظرة عن خريطة مصر رقم 01 ص 62 ، فإن المنافذ تسمح بتحركات هجرة أو تبادل بين سهول النيل والبلدان الخارجية، ففي الشمال لا تعطي الدلتا سوى ممرين طبيعيين للعلاقات الخارجية، من جهة مع الشمال الإفريقي ومن جهة أخرى مع فلسطين، ومن هنا مع المناطق الآسيوية للهلال الخصيب، وفي الجنوب فإن النيل يعتبر ممرا إلى بلاد النوبة التي تعتبر إمتدادا لمصر، أما العرق والحمادة على جانبي النهر فهي تقصلان مصر عن الواحات والشواطئ الموحشة للبحر الإرتري.

و أخيرا أصل إلى القول بأن إعتبار مصر القديمة معزولة عن العالم الخارجي هو قول نصف صحيح، لأنه منذ الأزمنة الأولى ومصر لها صلات بكل الجهات، حيث أن هذه الواحة الكبيرة كانت تشكل مركز مرور إلى محطات الحضارة في العالم القديم في قلب إفريقيا السوداء، وفي نفس الوقت تربط ساحل إفريقيا الشمالية بالبلاد العربية وآسيا الصغرى. و هو ما سنعرفه في الفصول اللاحقة.

و في ختام هذا العنصر أقول ما قاله "لالوات" (C.Lalouette) بأن مصر « لم تكن منعزلة، إنها كانت تنفتح بصورة واسعة عن العالم المحيط بها، عبر البحار وعبر الصحارى عبر المسالك القنوات والمحيطات. إنها كانت الممر القديم الكبير بين الأراضي العليا لإفريقيا والبحر المتوسط، وبين البراري الليبية والعالم الآسيوي... و من السودان إلى الأناضول، من ليبيا إلى بلاد ما بين النهرين، كانت مصر تشكل مفترق طرق تجاري كبير، سياسي وروحي لمدة تقارب الأربعة آلاف سنة في فترة قبل الميلاد ». و في موضع آخر يؤكد هذا الطرح بكون الفراعنة الأوائل قادوا سياسة إكتشاف العالم المحيط بهم ومصادره ليس بهدف الغزو وليس بهدف توسيع مملكتهم، لكن لضرورة اقتصادية للبحث عن المنتجات الضرورية للحياة اليومية والثقافية⁽³⁰⁶⁾.

المبحث الثاني: وفرة الإنتاج الزراعي و دوره التجاري

(299) - J.A. Wilson , Op-Cit , p. 16.

(300) - عبد الفتاح محمد وهيبة ، المرجع السابق ، ص. 310.

(301) - G. Dykmans , histoire économique..., Op-Cit , t. 1 , p. 214 .

(302) - G. Posener et autres , dictionnaire de la civilisation..., Op-Cit , p. 98.

(303) - محمود عبد الحميد أحمد ، المرجع السابق ، ص. 193.

(304) - M. Damiano – Appia , Op-Cit , p. 94.

(305) - J.A. Wilson , Op-Cit , p. 20.

(306) - C. Lalouette , L'empire des Ramsès , Op-Cit , p. 35.

إن توفير الطعام كان في الأزمنة القديمة يشكل شبحا مخيفا قد يصل إلى حد تدمير حضارات، فهذه الغاية الهامة كان المصري القديم يسعى لتحقيقها، حيث أله الملك على أساس أنه هو المتسبب في وفرة الغذاء الذي يأتي من الزراعة⁽³⁰⁷⁾. وتوضح أهمية هذه الأخيرة من خلال التعرف على خصوبة أرض مصر وما فعله المصريون لإستغلالها لصالح الزراعة، و لإكتفاء الذاتي الذي عرفوه في منتجاتها ، و حاجة الغير إلى بعضها، وسنعرف فيما إذا كانوا هم بدورهم بحاجة إلى منتجات غيرهم من الشعوب.

المطلب الأول: خصوبة أرض مصر

إن الحضارة في النيل هي أقدم زمنا من الوحدة ، حيث أن النيل و هبها المناخ المناسب لقيامها فكان بما يقدمه من طمي كل عام عاملا كافيا لتخصيب أرضها⁽³⁰⁸⁾. والأرض الخصبة في مصر تتمثل في ذلك الشريط الضيق المليء بالنباتات الغزيرة، والذي تملؤه فيضانات النيل كل عام⁽³⁰⁹⁾. ومن أهم إنعكاسات النيل على الجماعات التي إستقرت على ضفتيه هو الإتحاد فيما بينها، لأن خشيتهم من فيضانات الوادي جعلتهم يتكاتفون من أجل درء ذلك الخطر وتحويله إلى صالحهم، وذلك بالإستفادة من تلك المياه، وبالتالي تحول الأمر إلى إنشاء مجتمع يسوده التآزر⁽³¹⁰⁾.

و في العصر الفرعوني، لعب النيل والذي كان المصريون يطلقون عليه إسم "حابي" دورا مهما في الزراعة المصرية، من جهة كمصدر دائم للماء والطين الخصب (طمي)، الذي سمح بتطور الزراعة ووجود دولتي مصر والنوبة، ومن جهة أخرى كمنظم للحياة⁽³¹¹⁾.

فبفضل هذا النهر تحول الإقتصاد المصري من الصيد إلى الزراعة والإستقرار، حيث أنه منذ العصور القديمة عرفت مصر شعوبا عاشت تنتقل من مكان إلى آخر تعتمد في عيشها على الصيد، فكانت من حين إلى آخر تنزل إلى الوادي. ومع تغير المناخ وإنقراض الحيوانات التي كانوا يعيشون على صيدها، مارسوا في الوادي الزراعة وتربية الحيوانات وتوصلوا إلى إستغلال مياه النهر في إرواء الأراضي عندما قلت مياه الأمطار مع مرور الزمن⁽³¹²⁾. وقد كان المناخ عاملا مساعدا لظهور الزراعة، فحوالي سنة 7000 ق.م حدث تغير مناخي جعل الصحاري المصرية أكثر قساوة وجفافا، ووادي النيل أقل مستنقعات، كل ذلك شجع على ظهور الزراعة⁽³¹³⁾.

إن الحياة في مصر والنوبة تعتمد على فيضان النيل الذي حول الصحاري إلى أراضي صالحة للزراعة تمتد على شواطئ النهر، حيث كان متوسط عرض الأراضي التي يغمرها الفيضان يتراوح بين 100م (في النوبة) و 1000 م (في مصر) وذلك قبل بناء السدود، زيادة على ذلك توجد مناطق يتسع فيها النيل ليخلق مستودعات واسعة جدا (أحواض كرمة وطيبة). أما في المناطق الغرائبية فإن الشريط الخصب يضيق إلى غاية الإختفاء التام⁽³¹⁴⁾.

وعلى عكس وديان أخرى في العالم القديم، فإن مياه النيل تصعد كل سنة بين شهري جويلية وسبتمبر، وتفيض جاعلة ترسبات من طبقات جديدة من الطمي الخصب. إن هذه الظاهرة العجيبة كانت العامل الأكثر فاعلية والمحرك للإقتصاد المصري إلى غاية العصر الحالي، لأن نجاح المحصول السنوي كان متعلقا مباشرة بغزارة الفيضان⁽³¹⁵⁾. وقد إختار المصريون بداية الفيضان الذي كان يحدث في 19 جويلية، كيوم لبداية عام جديد، لأن إنطلاق الحياة في كل البلاد كان مرتبطا بنتيجة الفيضان، فإذا كان الماء لم يصعد كثيرا ولم تمتلئ القنوات التي كانت تقوده إلى الحقول التي تقع على مستوى أكثر إرتفاعا، فإن ذلك يترتب عنه محصول سيء ومجاعة. وإذا صعد الماء بكثرة إلى الأعلى، فإنه يسبب أضرارا خطيرة، كتخطيط القنوات والمباني وإغراق الحقول⁽³¹⁶⁾. وهذه الأضرار التي يتسبب فيها نهر النيل لم تتعرض إليها الوثائق المصرية التي كانت تبرز فقط الوجه الإيجابي

(307) - سلامة موسى ، مصر أصل الحضارة ، (مصر : المطبعة العصرية ، دون تاريخ) ، ص. 77.

(308) - عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية...، المرجع السابق ، ص.ص. 25 - 26.

(309) - E. Hornung , lecture de l'histoire égyptienne , Op-Cit , p. 11.

(310) - محمد أبو المحاسن عصفور ، معالم حضارات الشرق الأدنى...، المرجع السابق ، ص. 12.

(311) - M. Damiano- Appia , Op-Cit , p. 201.

(312) - نعيم فرح ، المرجع السابق ، ص.ص. 59 - 60.

(313) - B. Manley , Atlas historique... , Op-Cit , p. 2.

(314) - M. Damiano – Appia , Op-Cit , p. 201.

(315) - I. Shaw , Op-Cit , p. 17.

(316) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 25.

للفيضان، وما عرف من هذه الجوانب السلبية ما جاءت بها مصادر غير مصرية، فمثلا نجد " بلين " يقول عن ظاهرة الفيضان: « إذا لم يتجاوز [فيضان النيل] 12 ذراعا، فإن حدوث المجاعة أمر أكيد » (317). وقد أنبأنا القرآن الكريم في صورة يوسف - عليه السلام - بخطورة عدم حدوث الفيضان حيث كان يترتب على ذلك حدوث مجاعات: ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون، ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغال الناس وفيه يعصرون ﴾ (318).

و تعطينا المصادر سواء منها المصرية أو الأجنبية صورة عن الرخاء الذي يعم مصر عندما يفيض النيل ويخصب الأرض التي تستغل للزراعة، لأن القسم الجنوبي من مصر لا تسقط به الأمطار والإعتماد الكلي فيه على النيل. وإذا كان هذا القسم يعرف من حين إلى آخر قحطا وجفافا فإن منطقة الدلتا على العكس من ذلك تعاني من مياه فيضان النيل التي كانت تجعل منها بحيرات عائمة، وبالتالي فإنها لم تعرف الجفاف خاصة وأنها تعرف تساقط للأمطار، و عليه فإن هذه المنطقة تميزت بأنها أخصب مناطق مصر (319)، حيث كانت عبارة عن « سهل فسيح يزرع بعضه، والبعض الآخر تغطيه نباتات المستنقعات، وهذا السهل يضيق بالتدريج باتجاه الجنوب » (320).

و بالرغم من أن النيل كان السبب الأساسي في وجود الزراعة والإستقرار حوله إلا أن ذلك لم يحصل دون أخطار ومتاعب كانت تواجه السكان عند فيضان النهر، لكنهم عرفوا كيف يستغلون هذه الظاهرة الطبيعية، فكانوا يتكاتفون لتحويل فائض المياه إلى الأراضي الداخلية والبعيدة، وذلك من أجل توسيع المساحات المزروعة، وكان من الضروري أن يكون هذا الجهد المشترك تحت إشراف حكم مركزي يسهر على تنظيم مثل هذه الأعمال. ففي البداية كان الأمر يقتصر على إيصال المياه إلى المناطق التي تلي ضفاف النهر ليشمل فيما بعد الأراضي الغابية والبعيدة (321). و أصل الآن إلى إعطاء فكرة عن مساحة الأرض المزروعة لأنها صورة صادقة عن خصوبة الأرض ومدى أهمية الزراعة في وادي النيل، فعند نهاية عصر ما قبل الأسرات أي حوالي 4000 سنة ق.م كانت مساحة الأرض المزروعة تقدر بحوالي 16000 كلم²، لكن عند نهاية الألف الثانية ق م و بعد تطور مختلف تقنيات الري وخاصة إدخال طريقة رفع الماء بالشادوف (Chadouf)، فإن مساحة الأرض القابلة للزراعة كانت قد وصلت إلى 22500 كلم² (322).

المطلب الثاني: منتوجات زراعية متنوعة

إن التجمعات السكانية الأولى في وادي النيل كانت تمارس زراعة الشعير والحبوب عموما و التي أصبحت أساس الزراعة طوال العصر الفرعوني.

و عليه فإن أهم محاصيل المرحلة الفرعونية والرئيسية كانت تتمثل في المنتوجات الأساسية التي تشكل من: القمح، الشعير والكتان (323). حيث اعتبرت مصر خزانة للقمح (324)، لأن القمح والحبوب الأخرى كانت تزرع في كامل مصر وحقولها تنتشر في كل الدلتا وصولا إلى الجنوب عند الشلال الأول، فشكلت بذلك الزراعات الأساسية لمصر (325). لكن من ناحية الجودة فإن قمح الجنوب هو الأفضل وهذا على حد قول "بلين": « إن قمح الإقليم الجنوبي (Thébaïde) [أي مصر العليا] هو الأفضل لأن مصر السفلى كانت أرضها مستنقعية » (326). إضافة إلى ذلك نجد القنب (تيل Chanvre)، إلا أن الملفت للنظر حسب رأي " شاو " (I.Shaw) أن الخصوبة

(317) - Pline , Histoire Naturelle , XVIII, 168.

(318) - سورة يوسف : آية 47 - 49.

(319) - إليزابيث رايفشتال ، المرجع السابق ، ص. 29 - 30.

(320) - ن.ي ، المرجع السابق ، ص. 151.

(321) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 3.

(322) - I. Shaw , Op-Cit , p. 24.

(323) - Jean-Claude Margueron, et Luc Pfirsich , le Proche – Orient et l'Egypte antique , (Paris : Hachette , 1996),

p. 184.

(324) - Moret et Davy , Op-Cit , p. 186.

(325) - محمد الخطيب ، مصر أيام الفراعنة ، المرجع السابق ، ص. 128.

(326) - Pline , XVIII , 170.

المميزة للأرض المصرية لم تشجع على الابتكار في مجال المحاصيل الزراعية على عكس ما حصل خلال المرحلة الإغريقو- رومانية حيث دخلت بعض الأنواع الجديدة من الحبوب والخضر (327). و يبدو أن هذه النظرية عارية من الصحة، لأن الإثباتات التاريخية تؤكد بأن الزراعات المصرية لم تنحصر في الحبوب بل كانت عديدة ومتنوعة، وأذكر منها: الكتان، العنب، الخضر، أشجار الفواكه وخاصة النخيل، فهذا الثراء كان يكفي للاستهلاك المعيشي وتزويد مختلف الصناعات أما الفائض فيخصص للتصدير. من جهة أخرى لا يمكن أن نهمل في هذا الصدد ذكر أهمية وتنوع زراعة المستنقعات والحدائق الدائمة التي كانت مستغلة بعناية بالقرب من القرى وعلى أعالي الحواجز، وبعض الزراعات الموسمية كانت تزرع على أكوام الرمل (328)، وذكرت إليزابيث رايفشتال نقلا عن "ديودور الصقلي" بأن قرى الدلتا كانت تبدو أثناء حدوث الفيضان: « كأنها جزر وسط بحر مترامي الأطراف » (329). وقد إهتم الفراعنة بغرس حقول العنب، فهذا "رئيس الثاني" أحاط مدينة "بررعمسو" التي بناها في شرق الدلتا بحقول الكروم، إضافة إلى أشجار أخرى. لقد كان إهتمام الملوك قديما بالكروم لمدى أهميتها في صناعة النبيذ والأمثلة على ذلك كثيرة في الوثائق المصرية (330).

أما عن الخضر والفواكه الأخرى ، أذكر منها : الفول ، العدس ، الحمص ، الترمس ، اللوبياء ، الجلبان ،

التين والرمان وغيرها (331)، إضافة إلى الزيتون إلا أنه كان قليلا (332).

المطلب الثالث: حاجة الشعوب المجاورة لمنتجات مصر الزراعية

إن تجارة المصريين، مثل تجارة كل شعوب العصر القديم، تركز أساسا على المبادلات، ويأتي القمح على رأس المنتجات التي كانت مصر تزود بها الشعوب الأجنبية، حيث كانت له أهمية كبيرة في المقايضة التجارية، فكانت أرض مصر تطرحه بكميات وفيرة، وبالتالي تستطيع أن تزود الشعوب المجاورة التي كانت تعاني نقصا منه. ليس فقط المجاورة بل الأبعد مثل: الحيثيين و الآثينيين. و إذا قارنا ذلك الوضع بالعصر الحالي فإننا نجد القمح قد لعب نفس الدور الذي جعل أمريكا تصفها بالسلاح الأخضر. من خلال هذه المقارنة يمكن أن نتصور مدى أهمية هذه المادة و الدور الهام الذي لعبه في تجارة مصر و إتخاذة كأداة سياسية من قبلها في تسطير العلاقات بين شعوب ذلك العالم.

فقد كان الفلاحون المصريون يحصدون كل عام كميات كبيرة من الحبوب، وكان الفائض منها يُجمع في مخازن الدولة ليعاد توزيعه على موظفي الإدارة والحرفيين والكهنة، وكان يستخدم أيضا لتزويد التجارة الخارجية ويخصص جزء منه كاحتياط غذائي في حالة القحط، أي عندما لا يحدث الفيضان السنوي (333). و كانت المجاعة التي تحدث لدى الشعوب المجاورة تؤدي بأفرادها إلى الرحيل إلى مصر، وتذكر التوراة أن بني يعقوب إستقر بهم المطاف في أرض "جوشن" بشرق الدلتا بالقرب من " وادي طوميلات" (334). فقد كانت مصر بالنسبة لمتلهم ملاذ آمن يتوفر فيه الغذاء ، و العكس صحيح، فإن حدثت أمور سلبية في مصر كانت تؤثر مباشرة في الشعوب المحيطة بها، لدرجة أن البعض يرى بأن السنة التي يكون فيها المحصول في مصر سيئا يتبعه عادة مجاعة في جزء من آسيا الصغرى و إفريقيا (335).

إن تجارة القمح تجارة جد قديمة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط خاصة بين مصر وفلسطين وسوريا لأن الإقليم السوري كان عرضة لتذبذبات مناخية تجعل محصول القمح هناك غير مستقر و رديء مما يتسبب أحيانا في مجاعات، فكان لابد من جلبه من مصر، وهذه الأخيرة رأت فيه مادة مناسبة للمقايضة بالأخشاب

(327) - I. Shaw , Op-Cit , p. 17.

(328) - G. Posener et autres , Op-Cit , p. 4.

(329) - إليزابيث رايفشتال ، المرجع السابق ، ص. 30.

(330) - محمد إبراهيم بكر ، صفحات مشرقة... ، المرجع السابق ، ص. 147.

(331) - محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص ص. 128- 129 .

(332) - رجبنا، إنجليخ ، منخل إلى علم الآثار المصرية مع الإشارة إلى المتحف المصري بنوع خاص ، ترجمة أحمد محمود موسى، مراجعة أحمد

عبد الحميد يوسف، إشراف وإعداد وإصدار ضياء أبو غازي، (ط 3؛ القاهرة، 1988)، ص. 387.

- John Haywood , les civilisations antiques du Proche - Orient et de la Méditerranée, traduction de Dedier Pernerle -

(Paris : Larousse , 2000) , p. 48. (333)

(334) - محمد بيومي مهران ، دراسات تاريخية... ، المرجع السابق ، ص. 84.

(335) - D.M.J. Henry , l'Egypte pharaonique..., Op-Cit , p. 454.

خاصة الإرز اللبناني⁽³³⁶⁾. وتجارة القمح خلال الدولة القديمة كانت تنطلق من مدن الدلتا، فبعد أن كان القمح يأتي إلى أسواق المدن الكبيرة في الشمال يصدر إنطلاقاً من هذه الأخيرة وعبر البحر باتجاه الشاطئ الآسيوي⁽³³⁷⁾. هذا وإذا علمنا بأن شعوب جزر هذا البحر وبحر إيجا كانت تعاني نقصاً في هذه المادة، وكانت تهاجر من أجل أن تحصل على الغذاء، فإنه يمكننا أن نتصور كم كانت تجارة الحبوب عموماً والقمح خصوصاً رائجة في هذا البحر، وكانت مصر باكتفائها الذاتي منه تعيل العديد من شعوب ذلك العالم.

المبحث الثالث: دور المنتوجات الصناعية في المبادلات التجارية

لقد تميز العصر الفرعوني بازدهار صناعي لا مثيل له في العالم القديم، وتعددت صناعاته، وبلغت من الدقة والمهارة درجة لم ينافسهم فيها أحد، وقد كتب الكثير من المؤرخين عن هذا الموضوع لدرجة إعتبروا فيها المصريين أثناء هذا العصر مهتمين بالصناعة أكثر من التجارة. وإن كان إهتمام المصريين بالصناعة راجع لإحتياجاتهم المتزايدة، فإنني أرى أن هذا الإهتمام مرده أيضاً إلى متطلبات التجارة نتيجة للارتباط الوثيق بين المجالين (التجارة والصناعة) على حد سواء، خصوصاً وأن مصر تتوفر على مواد خام متنوعة ساهمت بدورها في التطور الصناعي والإزدهار التجاري، ويمكن أن أذكر منها بعض المحاصيل الزراعية كالبردي، والمعادن والأحجار الكريمة ومواد أخرى. ومع ذلك فإن مصر كانت تنقصها بعض المواد الخام، فما كان عليها إلا أن تلجأ إلى إستيرادها. إذن فالمواد الخام سواء كانت التي تجود بها طبيعة مصر أو التي تأتي من الخارج، كانت عبارة عن أرضية للتبادلات التجارية، وكل هذا سنعرفه من خلال نقاط هذا العنصر.

المطلب الأول: الصناعات النباتية

من أهم المحاصيل الزراعية التي لعبت دوراً مهماً في الصناعة و بالتالي أعطت دفعة قوية للمبادلات التجارية هي : البردي والكتان.

أ- صناعة البردي:

البردي هو النبتة التي تنبت في كل مستنقعات مصر، وهي أكثر النباتات فائدة عرفها العالم القديم، وتعد بالنسبة للصناعة المصرية عاملاً ذو أهمية رئيسية⁽³³⁸⁾، ويعرف "محمد الخطيب" هذا النبات قائلاً: « كان ينمو بكثرة في مستنقعات الدلتا في العصور القديمة، يبلغ إرتفاعه بين مترين وربع وثلاثة أمتار ونصف، أما قطر ساق النبات فلا يزيد عن أربعة سنتيمترات وكان رمزا للدلتا، أو مملكة الشمال »⁽³³⁹⁾. أما "بلين" فيقول عن وسط نمو البردي: « ينمو البردي في مستنقعات مصر أو في المياه الراكدة للنيل، وتكون جذوره مائلة، وشكل الساق يكون في هيئة مثلث، ولا يتجاوز طوله 10 أذرع »⁽³⁴⁰⁾.

و يخبرنا هيرودوت عن البردي قائلاً: «...أما البردي الذي ينبت سنوياً، فعندما يقتلعونه من المستنقعات، يقطعون الجزء الأعلى منه ويفيدون منه في أمور عدة أو يبيعونه، والجزء الأسفل الذي يتبقى وطوله ذراع تقريباً يأكلونه أو يبيعونه. أما المولعون جداً به فيأكلونه بعد طبخه في فرن محمى »⁽³⁴¹⁾.

و عن مجالات إستخدام البردي فهي عديدة، ولو أن هيرودوت لم يذكرها، إلا أن مترجم كتابه أورد شرحاً لذلك من خلال تعليقه على هيرودوت الذي جاء فيه: « كان للبردي في حياة المصريين وحضارتهم أثر خطير، فهم قد بنوا من سوقه أول مساكنهم، ثم حاكوا مظاهر عمارتها في مبانيهم عندما عرفوا البناء بالحجر، كما إتخذوا منه أول فراشهم، ثم طعاماً يستخلصونه من جذوره و يطبخونه، كما إتخذوا منه أكفانهم الأولى ثم بنوا من أعواده مراكبهم الخفيفة، وبخاصة زوارق الصيد، يلتمسون فيها السلامة من عدوان التماسيح زاعمين أن "إيزيس" قد حملت أشلاء زوجها الشهيد على زورق من البردي، ثم كانوا يصنعون منه النعال، ويجدلون منه

(336) - محمد السيد غلاب ، الساحل الفينيقي...، المرجع السابق ، ص. 433.

- Jacques Pirenne , "les villes dans l'Ancienne Egypte,institutions économiques et sociales" , Recueils de la société - 337)

Jean Bodin , t. 7, (1955) , pp. 31- 32.

(338) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 602.

(339) - محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص. 131.

(340) - Plin , XIII, 71.

(341) - هيرودوت ، فقرة 92.

الحبال، كما كان في مقدمة صادراتهم الوفيرة.»⁽³⁴²⁾، كما كان يدخل في صناعة الأقمشة، فنوعياته تجعله مناسباً لاستعمالات متنوعة⁽³⁴³⁾.

و يخبرنا "بلين" عن بعض مجالات استخدام البردي فيقول: «إن السكان كانوا يستعملون جذور البردي عوضاً عن الخشب، ليس فقط لإشعال النار لكن أيضاً كأواني منزلية، وبالبردي تظفر كذلك المراكب، وبالقشرة كانوا يصنعون الأشرعة، الضفائر، الملابس، الأغذية والحبال، وكانوا يمضغون البردي الني أو المطبوخ وينبسطون بشرب عصيره»⁽³⁴⁴⁾.

أما أهم دور لعبه البردي في الصناعة، هو بدون شك استخدامه كمادة للكتابة، وبسبب استخدام البردي كأساس في صناعة الورق فإن اسمه الإغريقي "بابيروس" (Papyrus) إنتقل لكل اللغات الغربية وأطلق على الورق⁽³⁴⁵⁾، و معلوم أن استخدام هذه المادة للكتابة دام منذ الأسرة الأولى حتى سنة 640 م⁽³⁴⁶⁾، و رأيت أنه من المفيد أن أ طرح التساؤل الآتي: كيف كانت تصنع أوراق البردي المخصصة للكتابة؟.

توجد عديد المشاهد المصورة على المقابر تمثل صناعة البردي بدء من جمعه من المستنقعات إلى غاية صناعته كورق . فبعد جمعه تختار الجذوع الغليظة، ثم تقطع إلى قطع يتراوح طولها بين ستة إلى ثمانية عشر بوصة وتنزع القشرة الخارجية عنها، ويستعمل اللب بعد ذلك⁽³⁴⁷⁾. ويقول "بلين" عن ذلك: «يحضر الورق بتقسيم البردي بواسطة إبرة إلى شرائح رقيقة جداً للحصول على أكبر قدر ممكن من الصفائح العريضة، والشريحة الأفضل هي شريحة وسط الساق»⁽³⁴⁸⁾.

هذه هي الخطوة الأولى في صناعة البردي كأوراق للكتابة، ولا بد أن تكون الشرائح متساوية في السمك، ويكون تقطيع سيقان البردي في اتجاه الطول⁽³⁴⁹⁾، علماً بأن هذه العملية تتم والنبات لا يزال طرياً (أخضراً)، ويستغنى عن القشرة الخارجية التي تلف النبات، واللّب هو الذي يقسم إلى سلخات⁽³⁵⁰⁾. ومواصلة لهذه العملية الأولية فإن "بلين" يذكر في موضع آخر، المراحل الأخرى التي تلي ذلك: «تنشر أولاً الشرائح عمودياً وتلصق كل واحدة بطرف الأخرى، ثم توضع شرائح أخرى في شكل متشابك (treillage). بعد ذلك توضع تحت الضغط، وتجفف تحت الشمس لتلتصق ببعضها... و لفافة البردي لا تتعدى 20 ورقة»⁽³⁵¹⁾.

علماً بأن هذه الشرائح لا تلصق بمادة لاصقة، بل تلتصق ببعضها عن طريق دقها لأن هذه الشرائح بها مادة لاصقة وذلك قبل تجفيفها، بعد ذلك، «تترك لفترة طويلة تحت ضغط قوي وبعدها تصقل الورقة الجافة بعناية وتهذب أطرافها، وتتكون لفافة البردي من مجموعة من تلك الأوراق الملصقة ببعضها البعض بعناية فائقة وقد تصل إلى عشرات القطع»⁽³⁵²⁾. وقبل أن تدق تلك الشرائح تغطى بقماش، وذلك من أجل إمتصاص الرطوبة منها وتتواصل عملية الدق بمدقات خاصة مصنوعة من الخشب، و الأجسام الضاغطة التي توضع فوقها تتمثل في مكابس أو أحجار ذات وزن ثقيل⁽³⁵³⁾. بعد ذلك تلف، وحتى لا يلحقها الضرر فإن هذه اللفائف كانت تدعم بشريط على طول ظهر الصفحة. وقد تميزت هذه الصناعة بإتقان كبير وهو ما تشهد عليه أوراق بردي عثر عليها تعود إلى الدولة القديمة. و يعد البردي من أهم صادرات مصر طيلة العصر الفرعوني، بل أنه ظل المادة التي تحتكرها مصر إلى غاية القرن السابع الميلادي، وكانت تصدره إلى مختلف مناطق العالم. والأدلة على ذلك كثيرة منها تقرير "أونامو" الذي يخبرنا بأن لفائف البردي خلال القرن الحادي عشرة ق.م كانت تصدر خاصة إلى سوريا أثناء حكم "رمسيس العاشر"⁽³⁵⁴⁾، حيث كانت تجارته رائجة، و كانت اللفافات الجميلة منه تصل إلى

(342) - نفس المرجع ، ص. 205.

(343) - J.H. Breasted , histoire de l'Egypte..., Op-Cit , p. 98.

(344) - Pline , XIII , 72.

(345) - محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص. 132.

(346) - ر. انجليخ ، المرجع السابق ، ص. 349.

(347) - ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 223.

(348) - Pline , XIII , 74.

(349) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 603.

(350) - محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص. 132.

(351) - Pline , XIII , 77.

(352) - محمد إبراهيم بكر ، المرجع السابق ، ص. 127.

(353) - محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص. 132.

(354) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 603.

فلسطين واليونان وغيرهما، ويقول " جيمس هنري برستيد " : « كانت السفن الماخرة في البحر الأبيض المتوسط باتجاه أوروبا تشحن بأعداد كبيرة من هذا الورق »(355).

و قد أطلق هيرودوت على البردي إسم "Byblos"، وهي تسمية إنتشرت لدى الغرب وخصوصا في بلاد اليونان، لأن هذه الأخيرة كانت تحصل على البردي من ميناء " جبيل " (بيبلوس)، و إنتقلت التسمية لتطلق على الكتاب المقدس (Bibel) وخزانة الكتب مشتقة من نفس الكلمة أي (Bibliothèque). كما أنه أطلق عليه من قبل الأوروبيين في العصور القديمة إسم "Papyrus، Cyprus" وذلك يرجع إلى إسم المنطقة التي كانوا يحصلون عليه منها أول الأمر وهي قبرص، و منها يدخل إلى بلاد اليونان. فبعد أن كانت " جبيل " تتاجر وحدها في هذه المادة إنتقلت في عصور متأخرة إلى كل من قبرص وفلسطين(356).

ب- الصناعات النسيجية :

من المحاصيل الزراعية الأخرى التي كان لها دور بارز في الصناعة نجد الكتان والذي عرفت زراعته منذ العصر الحجري الحديث، فالدلائل تثبت وجود نسيج "التيثل" في مخلفات حضارات عصور ما قبل الأسرات بمنطقة الفيوم(357)، فأراضي مصر كانت تعطي كمية كبيرة من الكتان(Lin)، وأهميته تتجلى من خلال المرتبة الرفيعة التي يحتلها الموظف المكلف بمراقبة المحصول(358)، فصناعة هذا المنتج كانت إذن من أولى الصناعات التي عرفت مصر، كما كانت هناك منسوجات من مواد أخرى مثل الصوف والحرير والقطن لكنها جاءت متأخرة عن صناعة الكتان(359). و يبدو أن الكتان في البداية، أي في العصور القديمة جدا (حضارة البداري)، لم يكن قد أستخدم كلباس يومي، بل كان على ما يبدو يُرتدى في المناسبات من طرف النخبة، لأن الملابس العادية في تلك الأونة كانت تتمثل في الجلود التي تخاط كملابس(360).

و كان نسيج الكتان مثل البردي من أهم صادرات مصر. فحتى بعد العصر الفرعوني فإن الكتان المصري كان مرغوبا فيه، و هذا من خلال دلائل كثيرة تعود إلى العصر الروماني.و لقد كانت صناعة النسيج منتشرة بصورة واسعة طيلة فترات العصر الفرعوني وهو ما نعرفه من خلال عديد المشاهد التي رسمت على جدران القبور، فمن خلالها يظهر الذي كان يقوم بهذا العمل هن النساء وخاصة ما يتعلق بصناعة الكتان. و قد وصل المصريون في هذه الصناعة إلى درجة عالية من الدقة أبهرت المؤرخين خاصة عندما عثروا على قطع نسيج الكتان كانت تلف بها موميאות، فهذا المؤرخ " برستيد " يصور ذلك الإندهاش من خلال العبارات التالية: «...رفيعة جدا يصعب تمييزها بالعين المجردة عن الحرير. و أرفع مما تخرجه الأنوال الحديثة من المنتجات العصرية، يعد غليظا بالنسبة إلى ما كانت تنسجه الأنوال اليدوية التي كانت في حيازة المصريين القدماء»(361).

المطلب الثاني: أهم الصناعات المعدنية التي لعبت دورا تجاريا

لقد كان التعدين من بين مصادر الثروة لمصر إضافة إلى الزراعة والتجارة، حيث عمل الفراعنة منذ بدايات أسراتهم على محاولة إستغلال مناجم سيناء(362). على العموم فإن الصحراء كانت تزود مصر بعديد المواد الأولية وخاصة منها المعدنية مثل النحاس والذهب(363).

إن توصل الإنسان إلى معرفة المعادن وما تبعه من تطور في الصناعات المختلفة كان العامل الأساسي الذي دفع إلى زيادة حاجة الشعوب القديمة إلى المبادلات التجارية لجلب ما تحتاجه من غيرها(364)، أي أن إكتشاف المعادن وتطور صناعاتها أهم سبب في المبادلات التجارية. فما هي أهم هذه الصناعات التي لعبت دورا في تجارة مصر؟.

(355) - جيمس هنري برستيد ، العصور القديمة ، المرجع السابق ، ص. 45.

(356) - هيرودوت ، المرجع السابق ، ص.ص. 204 - 205.

(357) - ر. إنجلياخ ، المرجع السابق ، ص. 405.

(358) - J.H. Breasted , Op-Cit , p. 97.

(359) - محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص. 137.

(360) - ر. إنجلياخ ، المرجع السابق ، ص. 30.

(361) - جيمس هنري برستيد ، العصور القديمة ، المرجع السابق ، ص.ص 44 - 45.

(362) - محمد بيومي مهران ، الثورة الإجتماعية الأولى في مصر الفرعونية ، (الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، 1994) ، ص. 213.

(363) - J. Haywood , Op-Cit , p. 49.

(364) - عبد الفتاح محمد وهيب ، المرجع السابق ، ص. 307.

إن مجالات استخدام معدن النحاس هي متعددة لكن في بدايتها كانت بسيطة ومحدودة نتيجة لبساطة إحتياج إنسان ذلك العصر عند إكتشافه لهذا المعدن⁽³⁶⁵⁾، و يعتقد أن بداية صناعة النحاس في مصر كانت حوالي 4500 ق.م، في حين كانت بقية الإنسانية تستخدم أدوات من حجارة⁽³⁶⁶⁾. قد يكون هذا الرأي محققا في تحديد تاريخ بداية إستعمال النحاس في مصر لكن الحكم على أن بقية الإنسانية لم تعرف النحاس فهذا أمر يجب أن يؤخذ بتحفظ لأن هذا الرأي قديم يعود إلى عشرينيات القرن الماضي، إضافة إلى أن هناك إثباتات تفيد بأن النحاس دخل مصر من غربي آسيا.

على كل لا مجال لمناقشة مثل هذه المواضيع، والمؤكد أن النحاس كان « أول معدن وُفق المصريون في العثور عليه وإستخراجه من مناجم سيناء، والذي حفظ لنا منه العدد الوافر من الأواني والأسلحة والأدوات منذ فجر التاريخ وحتى الدولة الوسطى »، هذا ما ذكره "محمد الخطيب"⁽³⁶⁷⁾. فمنذ إكتشافه أخذ إستعماله يتطور ويدخل في مجالات متعددة، ففي البداية أستعمل كأدوات للزينة حيث شكل منه الخرز الصغير، وإبر لثقب الخرز المصنوع من الحجر، ثم شكل من النحاس دبائيس إستخدمها الإنسان في لصق ملابسه الجلدية، وتجاوز إستخدامه هذه الصناعات البسيطة مع مرور الوقت لتصنع منه الأسلحة، كما أصبح هذا المعدن الشغل الشاغل للإنسان في ذلك العصر، حيث كان يبحث عنه في طبقات الأرض ولم يعد يستغنى عنه في حضارته⁽³⁶⁸⁾. إن الأسلحة التي كان المحاربون يستخدمونها إبان الدولتين القديمة والوسطى مصنوعة من النحاس. كما دخل هذا الأخير في الصناعات الفنية حيث كان فنانون الدولة الحديثة يشكلون منه التماثيل الصغيرة للأشخاص والآلهة⁽³⁶⁹⁾. وهناك أمثلة على صناعة النحاس أمدتنا بها جدران المقابر منها مقابر الدولة القديمة عن طريقة الصهر والصناعة، حيث كانت تصنع منه الأباريق والأواني، كما كان هذا المعدن يغطي أحيانا بالذهب، خاصة حينما يتعلق الأمر بخرزات⁽³⁷⁰⁾.

و إلى جانب النحاس فإننا نجد الذهب قد دخل في عدة صناعات والشواهد على ذلك عديدة، ومن أقدمها مقابر "بني حسن" التي تعود إلى العائلة الحاكمة الثانية رسمت على جدرانها عدة صور لمشاهد من صناعة الذهب⁽³⁷¹⁾، أي أنها صناعة قديمة جدا ربما أقدم من صناعة النحاس، وكان المصريون يستخدمونه بإفراط في الأشياء والمعالم على حد سواء⁽³⁷²⁾. وقد شكلوا منه العقود والأساور، وأصابع القفازات وتعاويذ، كما كانت تغطي به معبوداتهم، و إن لم يكن ممكنا تغطيتها كليا فإنها كانت تغطي بقشور منه⁽³⁷³⁾، إن مجالات إستخدامه لا تحصى ولا تعد.

وقد أبدع المصريون في صناعة المعادن وتحديدًا صناعة الذهب من خلال عصري الدولة الوسطى والدولة الحديثة، لدرجة أنه قبل لا أحد من الشعوب سواء القديمة منها أو الحديثة (ما عدا صائغي حلي عصر النهضة الإيطالية) تمكن من منافسة مهارة الصناعة المصرية⁽³⁷⁴⁾.

وقد دخل إستعمال الذهب في مجالات أخرى كصنع الأختام و التي تحمل إسم الملك، وكان يستخدمها الموظفون الكبار في الدولة. وقد كانت ورشات صناعة الذهب تحت الإشراف المباشر للملك، على إعتبار أن إمتلاكه يعني القوة، كما أن هذه الثروة إرتبطت مباشرة بالآلهة و كان الصاغة يُختارون بعناية و تكون لهم علاقة مباشرة مع كبار الموظفين، و تلحق الورشات التي يعملون فيها مباشرة بالمراكز الملكية والمعابد. ومن أهم مراكز صناعة هذه المادة المنطقة الصناعية بمنف، والتي كانت تستقطب إليها عمالا من خارج البلاد حيث كانوا يقصدونها نظرا للحركة النشطة لهذه الصناعة و إزدهار التجارة في هذه المادة و رواجها وكثرة الطلب عليها داخليا وخارجيا. والأهمية البالغة لهذه الصناعة نستخلصها من كون ورشات الذهب كانت تحت إشراف الكهنة خاصة منها الملحقة بالمعابد، وقد صورت على جدران المقابر التي تنسب إلى هؤلاء الكهنة وهم في جولاتهم

(365) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 27.

(366) - Moret et Davy , Op-Cit , p. 193.

(367) - محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص. 139.

(368) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 27.

(369) - G. Posener et autres , Op-Cit , p. 75.

(370) - أنور الرفاعي، تاريخ الحضارات و الأساطير في العالم العربي القديم، (ط 5؛ دمشق: مطبعة جامعة دمشق، 1997-1998)، ج. 1، ص. 131.

(371) - شكري صادق ، تاريخ الفنون الجميلة عند قدماء المصريين ، (ط 2 ؛ القاهرة ، 2000) ، ص. 189.

(372) - Jean Vercoutter , « Les Pistes de l'or égyptien » , Archéologia , 337 , (1997) , p. 25.

(373) - G. Posener et autres , Op-Cit , pp. 198-199.

(374) - أنور الرفاعي ، المرجع السابق ، ص. 131.

التفقدية لأعمال الذهب يراقبون وزنه و كذا المعادن الأخرى. وقد لعب هذا المعدن دورا بارزا في التجارة المصرية سواء كان في شكله الخام كسبائك أو كمشغولات متنوعة من الحلي، فقد كانت دول العالم القديم ترغب – من خلال حكامها والطبقات الثرية به - في الحصول عليه من مصر، لأن ذهب مصر كان على درجة عالية من التقدير والإعجاب وكانوا كلهم يرغبون في التحلي به، وذلك راجع لمهارة الصناعة المصرية، وكان يقع على الصاغة المصريين عبء ثقيل حيث يتوجب عليهم توفير الحاجيات المحلية بالإضافة إلى كميات من المصوغات لتوجيهها للتصدير إلى مختلف الدول التي تتعامل معها مصر دون إستثناء، وبذلك كانت معظم شعوب العالم القديم تحصل على هذه المصوغات عن طريق التجارة، وكانت تتفاخر بها، كما كانت ترغب فيه كخام أيضا، فكانت تستورد منه كميات في شكل سبائك لصناعة مجوهرات على طرازها المحلي⁽³⁷⁵⁾. ولدينا أمثلة على تمويل مصر لشعوب العالم القديم بالذهب، منها أن "أمينوفيس الثالث" كان يرسل إلى ملوك ميتاني وبابل ونيوى إلى غاية 1200 كلغ من الذهب، و لو أنه رقم مبالغ فيه⁽³⁷⁶⁾.

كما لعب الذهب دورا في المبادلات المحلية في الأسواق والتي يتعاطاها العامة من الشعب، فسوق الذهب ومصنوعاته كالحلي كانت رائجة آنذاك، حيث كان الطلب عليه لأغراض التزين أو لأغراض أخرى⁽³⁷⁷⁾. ويبدو أنه حتى البسطاء كانوا يرغبون في إقتناء المجوهرات، حيث كانت ترافق الميت ولا تدل بالضرورة على طبقته الرفيعة لأنه عثر في عديد من مقابر الفقراء إلى جانب أمتعة متواضعة، على حلي من الذهب والأحجار الكريمة⁽³⁷⁸⁾، وهو دليل على أنها كانت ليس فقط للزينة بل لأغراض ما بعد الموت.

المطلب الثالث: صناعات أخرى

إضافة إلى التجارة في المحاصيل الزراعية والمعادن التي أتيت على ذكرها، هناك أيضا تجارة الجواهر والأحجار الكريمة التي لم تشذ مصر عن تعاطيها، فهذه التجارة تعطينا صورة عن كثرة الطلب على هذا النوع من الصناعة، فكان إنسان ذلك العصر يتحمل كل الصعاب من أجل أن يصل إليها.

أ- الأحجار الكريمة:

إن الجواهر والأحجار الكريمة لم تقل مكانة عند المصريين عن الذهب، والذين وصفوا بأنهم عبدة هذا المعدن، يقول "بشير زهدي" في هذا الصدد: « لو إستعرضنا المراحل التاريخية لإستنتاجنا بأنها كانت دائما موضوع تفاخر وتظاهر، وعامل غير وشهرة، وباعث إعجاب ودهشة، وعنصر زينة ومنظر غنى»⁽³⁷⁹⁾. وكان المصريون القدامى يختارون أنواعا محددة من الحجارة الكريمة وذلك على أساس ألوانها، فنجدهم يركزون في إختيارهم أساسا على ثلاثة أحجار تمثل الألوان الكلاسيكية لتركيبية الألوان وهي: الأحمر والأخضر والأزرق، والتي تمثلها على التوالي الحجارة الآتية: العقيق الأحمر والفيروز الأخضر واللازورد ذو اللون الأزرق⁽³⁸⁰⁾. لكن لم يكن ذلك كل ما عرفه المصريون من أحجار كريمة، بل هناك العديد من الأنواع مثل: اليشب، الكريستال والكوارتز... إلخ⁽³⁸¹⁾.

عرف إستخدام الكريستال منذ عصر ما قبل الأسرات، وأهم مصادره كانت أسوان والصحراء الشرقية، أما عن مجال صناعته فكان يشكل منه الخرز والأواني الصغيرة وقرنيات الأعين التي كانت تلتصق في التماثيل. أما حجر "اليشب" والذي يدعى كذلك "اليشم" أو "اليصب" (Jasper)، فهو يأتي بألوان متعددة منه الأحمر والأصفر والأخضر والبني والأسمر. كما أن المصريين على مدى فترات العصر الفرعوني إستخدموا أنواعا كثيرة من الأحجار شبه الكريمة، وعن أماكن هذه الثروة الثمينة فإننا نجد « في الطبيعة على شكل بلورات صغيرة ذات إثني عشر سطحا، ولذلك فهي لا تحتاج إلى كثير من العمل لتشيدها أو لتشكيلها كخرزات، فلا يتطلب الأمر أكثر من ثقبها لتصبح خرزات يسهل لضمها في الأساور أو العقود »⁽³⁸²⁾. ومن الأحجار الكريمة التي تميزت بها مصر ولعبت دورا هاما في تجارتها نجد أيضا "الزمرد"، وقد وجدت مناجمه بالقرب من شواطئ البحر

(375) - سيريل ألدريد ، مجوهرات الفراعنة ، المرجع السابق ، ص ص. 16 ، 59-60 ، 92 ، 95.

(376) - J.Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 237.

(377) - سيريل ألدريد ، المرجع السابق ، ص. 66.

(378) - جيفري سبنسر، مصر في فجر التاريخ...، المرجع السابق ، ص ص. 55-56.

(379) - بشير زهدي ، لمحة عن الأحجار الكريمة...، المرجع السابق ، ص. 96.

(380) - سيريل ألدريد ، المرجع السابق ، ص. 73.

(381) - بشير زهدي ، المرجع السابق ، ص. 99.

(382) - سيريل ألدريد ، المرجع السابق ، ص ص. 75 - 77.

الأحمر، إلى الجنوب من القصير⁽³⁸³⁾، و الذي كانت تجارته رائجة جدا في العالم القديم. و زيادة على ذلك فإن شبه جزيرة سيناء كانت تمتد المصريين بمادة أخرى جد ثمينة، وهي: "الفيروز" المتوفر بالخصوص بوادي مغارة في جنوب هذه الجزيرة بالقرب من البلدة المعروفة اليوم بـ: "الطور"⁽³⁸⁴⁾. فحجر الفيروز مطلوب بكثرة ومستعمل من قبل الجواهريين المصريين ويطلق عليه في الكتابات المصرية "Mefekat" أو "Fekat"، وكانت له علاقة بالإلهة حتحور⁰³⁸⁵. والجواهر والأحجار الكريمة هي عديدة، لا يمكن التطرق إليها كلها كما أن مجال إستخدامها الأكبر هو ترصيع الحلي، منها العقيق الأحمر الذي كان يتواجد في الصحراء الشرقية في شكل حبيبات يسهل الحصول عليها وهو بدوره أستخدم منذ عصر ما قبل الأسرات في الحلي مثل الخرز وكتنائم و زينت به التوابيت ودخل في صناعة الخواتم، وكان هناك لون آخر من العقيق وهو الأبيض و وجد في وديان الصحراء الشرقية، و في الصحراء الغربية بجوار الواحات هناك، وفي أماكن أخرى مثل سيناء ومنطقة الفيوم، و بدأ إستخدامه في نفس العصر، وبصورة خاصة في صناعة الحلي و يظهر ذلك من خلال الخرز و الدلايات وصنعت منه أيضا الجعارين⁽³⁸⁶⁾.

إن أهمية سيناء تكمن في كونها المصدر الهام في تزويد مصر بالفيروز، وقد أطلق عليها المصريون "مدرجات الفيروز"، إضافة إلى أهميتها كمصدر لمواد خام أخرى وإعتبارها طريقا تجاريا يربط بين مصر وفلسطين⁽³⁸⁷⁾.

إن العالم القديم عرف تقليد الجواهر والأحجار الكريمة خاصة من قبل المصريين، والسبب أن هذه الثروة قليلة وكانت تجارتها مكلفة، وفي المقابل كان الطلب عليها كبيرا، فكان تقليدها أحيانا ضرورة، وكان المصريون قد بلغوا درجة عالية في تقليدها والتفنن في محاكاتها، حيث كانوا يقومون بالترجيح باللون الأزرق عوضا عن إستعمال حجر الفيروز، واللون الأخضر محاكاة للون اللازورد. وقد ذكر "بلين" الطريقة التي يمكن أن تكتشف بها الجواهر والأحجار الكريمة الحقيقية من المقلدة، ولكن في نفس الوقت قال بأن الأمر جد صعب لأن المصريين كانوا يتقنون إستخدام العجائن الزجاجية التي كانت لدرجة إتقانها تتشابه كثيرا مع الحقيقية. و على كل فإن "طيبة" على "عهد تحوتمس الثالث" (1490 – 1436 ق.م) أصبحت أكبر عواصم العالم القديم و بلغت شهرة صائغوها صيتا كبيرا نتيجة لما إمتازوا به من ذوق رفيع ومهارة فنية عالية مع الدقة والإتقان⁽³⁸⁸⁾.

ب- صناعة الزجاج :

الزجاج مادة خام أخرى عرفت مصر وإشتهرت بصناعتها وتميزت بها بين شعوب العالم القديم رغم الجدل الذي دار حولها. لأن البعض يرى بأن مصر لم تكن هي مكتشفة هذه المادة، أو أن إستعمال الزجاج كمادة خام لم يحدث في مصر بل كل ما جرى هو عبارة عن عمليات تزجيج، وحتى وإن حدثت ووجدت مصنوعات زجاجية فهي تعود إلى فترات متأخرة، والبعض الآخر يرى أن مصر لم تعرف الزجاج بأتم معنى الكلمة إلا خلال العصر الروماني فما مدى صحة هاته الأقوال؟، وهل تنطبق بالفعل على مصر؟، وبماذا نفسر الإزدهار الكبير الذي عرفته هاته الصناعة وأهميتها في تجارة مصر؟، وهل هناك آراء مناقضة لتلك الأحكام؟.

إن الحجة التي يقدمها أصحاب الرأي القائل بأن مصر هي مخترعة الزجاج، هو أن أول ما عرف عن صناعة الزجاج في التاريخ يعود إلى حضارة "البداري"، حيث وجدت أواني من الخزف المصنوع من رمل الكوارتز المغطى بالزجاج، أي أنه لم يسبق أن أكتشف ما يشير إلى وجود الزجاج في العالم القديم قبل زمن هاته الحضارة⁽³⁸⁹⁾. والدليل الآخر على أن إستنباط الطلاءات الزجاجية التي أتيت على ذكرها يرجع إلى مصر كثرة ما وجد من أدوات الزينة المصنوعة منها خلال العصور الأولى⁽³⁹⁰⁾، و تمدنا الوثائق المصرية بالعديد من الصور عن صناعة الزجاج وعن تطورها، فبعد أن كانت عبارة عن طلاء تزين به المعابد والقصور والمنازل إنتقل ليصبح مادة خاما تصنع منه الأواني الجميلة بألوانها الزاهية⁽³⁹¹⁾.

(383) - D.M.J. Henry , Op-Cit , p. 456.

(384) - فيليب حتي و آخرون ، تاريخ العرب ...، المرجع السابق ، ص. 41.

(385) - M . Damiano- Appia , Op-Cit , p. 266.

(386) - سيريل ألدريد ، المرجع السابق ، ص. 73، 77.

(387) - أحمد أمين سليم ، في تاريخ الشرق الأدنى...، المرجع السابق ، ص. 238.

(388) - بشير زهدي ، المرجع السابق ، ص. 98 ، 100.

(389) - نعيم فرح ، المرجع السابق ، ص. 61.

(390) - محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص. 134 .

(391) - جيمس هنري برستيد ، العصور القديمة ، المرجع السابق ، ص. 44.

فإن كانت الدلائل التاريخية تشير إلى أن مصر كانت أقدم دول العالم التي توصلت إلى صناعة الزجاج بفضل المخلفات التي تعود إلى أواخر عصر ما قبل الأسرات و المتمثلة خاصة في خرزة أفاد تحليلها الكيميائي بأنها صنعت من مادة الزجاج الصرف، فإن هذه الصناعة تواصلت من جيل إلى آخر، فخلال الدولة الوسطى عثر على قضيب يبلغ طوله 4 سم يعود إلى الملك "أمنمحات الثالث"، أما خلال الدولة الحديثة فالتطور بلغ درجة عالية، حيث أبدع المصريون ونوعوا في الألوان، كما أن هذه الأهمية نلمسها من خلال العثور على مصانع خاصة بهذه الصناعة، منها مصنع بـ: "تل العمارنة" حدد تاريخه بـ: 1370 ق.م، و قد وجدت به عديد المحتويات المحفوظة الآن بالمتحف البريطاني⁽³⁹²⁾. ولم يكن المصنع الوحيد في هذه المدينة بل وجدت بها تقريبا أربعة مصانع، وأقدمها هو الذي وجد في مدينة "طيبة" ويعود إلى نفس الأسرة، كما وجدت مصانع في مدن أخرى مثل: "الليش" و "منشية" تعود إلى الأسرة العشرين، أما المصانع التي لم يحدد تاريخها فهي كثيرة وجدت خاصة في "وادي النطرون"، و في جنوب "بحيرة مريوط" وفي مدينة "غراب"⁽³⁹³⁾. وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على أن هذه الصناعة كانت منتشرة بكثرة حتى في المدن الصغيرة.

كما أن المصريين توصلوا إلى صناعة الزجاج الشفاف وهو ما توضحه لنا كنوز مقبرة "توت عنخ آمون" و التي احتوت على بعض الحلي وكذا الأشياء الجنائزية الأخرى. والملفت للانتباه أن هذا النوع من الزجاج ومن خلال العينات التي عثر عليها لا يزال يُحافظ على نظارته كما هي وكأنه صنع لتوه. و بالتالي فإن صناعة الزجاج أصبحت تستعمل على نطاق واسع من مرحلة إلى أخرى من العصر الفرعوني ابتداء من الدولة القديمة، ومع بداية الدولة الحديثة عرفت توسعا كبيرا، وأقدم ما عثر عليه خلال هذه الفترة مصنوعات تعود إلى زمن الملك "تحوتمس الثالث". وكانت مراكز هذه الصناعة تابعة للملك لأنها وجدت بجوار المباني الملكية في العاصمة "طيبة" وكذلك في مدينة "تل العمارنة" ومناطق أخرى. وقد ساهم في هذا الانتشار الواسع لهذه الصناعة خلال الدولة الحديثة إكتشاف ما يعرف بـ: "الكور"، وهو القرن الذي يعطي قوة للنفخ لأجل إشعال النار وزيادة الحرارة⁽³⁹⁴⁾.

و قد لعبت الألوان الزجاجية دورا هاما كسلع تجارية، حيث تمكن الصانع المصري من صناعة زجاجات وأواني مختلفة الألوان، كانت ترسل كسلع لمبادلتها مع منتجات الشعوب الأخرى⁽³⁹⁵⁾، حيث كانت هذه الأخيرة ترغب في إقتنائها نتيجة لدقة صناعتها وألوانها الجذابة والصبغة الفنية التي تميزت بها الأشكال⁽³⁹⁶⁾، وقد ساهمت بدرجة كبيرة في المبادلات التجارية.

و من المواد الخام الهامة في مصر نجد الأسماك المجففة وقد ذكر "هيرودوت" موقع الملاحات و التي لا تبعد عن مدينة "بيلوزيوم" (تل الفرما) وهي تقع بين "تل أبي صيفة" و "تل الفراعين"، وهذه المنطقة كلها إشتهرت في ذلك العصر بأسمائها المجففة والتي كانت تصدر إلى المناطق المجاورة و بالأخص سورية⁽³⁹⁷⁾. و كختم لهذا الموضوع، فإنه مع بداية العصر التاريخي كانت مصر تشهد إنتاجا متزايدا في مختلف الصناعات منها صناعة الكتان والحلي والأسلحة وغيرها، وكان الإنتاج يزيد عن حاجياتها ويقال أيضا بأنها لم تكن بحاجة إلا لبعض الكماليات التي لجأت إلى إستيرادها، منها المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والبخور وأنواع الطيب⁽³⁹⁸⁾. فهل كانت بالفعل محتاجة إلى هاته المواد فقط؟

المبحث الرابع: حاجة مصر إلى المنتجات الأجنبية

مثلا كانت الشعوب المجاورة بحاجة إلى سلع مصرية عديدة، سواء في شكلها الخام أو مصنعة، فإن مصر بدورها كانت بحاجة إلى سلع تلك الشعوب، التي لم تتوفر لديها، وكانت هي أيضا سلعا متنوعة، تطرقت إليها من خلال النقاط التالية:

المطلب الأول: الأخشاب

يقال إن مصر لا تملك الغابات لتحصل منها على خشب لبناء المنازل وتزويد مواقع الفخارين. فالغابات لم تكن معروفة في مصر، وبالتالي لم يكن هناك أشجار صالحة لبناء المراكب، ولا حتى خشب ملائم لصناعة

(392) - محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص. 136.

(393) - سيريل ألدريد ، المرجع السابق ، ص. 80.

(394) - نفس المرجع ، ص. 80-82.

(395) - جيمس هنري برستيد ، إنتصار الحضارة ... ، المرجع السابق ، ص. 100.

(396) - جيمس هنري برستيد ، العصور القديمة ، المرجع السابق ، ص. 44.

(397) - هيرودوت ، المرجع السابق ، ص. 89.

(398) - عبد الفتاح محمد وهيبة ، المرجع السابق ، ص. 309.

الأثاث، وهكذا فإن المصريين كانوا يلجأون إلى الخارج لتلبية احتياجاتهم⁽³⁹⁹⁾، فسيناء والشواطئ المجاورة لم تكن بإمكانها أن تزودها إلا بأخشاب للتدفئة ولوقود مناجمها⁽⁴⁰⁰⁾.

في الحقيقة كانت هناك أماكن تتواجد فيها الأشجار لكن الكثير منها تراجع نحو أعلى النهر خاصة في مناطق " عطبرة"، ولو أن مصر لم تعرف وجود غابات إلا أنه كانت هناك أشجار محلية منتشرة حول القرى وعلى حواف الطرقات⁽⁴⁰¹⁾.

وقد ذكر "هيرودوت" الأشجار التي تنبت في مصر: «...شجر السنط وشكله كثير الشبه بالبشنيين الكورنيائي ويسيل منه الصمغ. يقطعون من خشبه ألواح طول كل منها ذراعان تقريبا ويصفونها كما يصفف اللبن، ثم يصنعون منه السفن»⁽⁴⁰²⁾.

فهذا القول يؤكد بأن مصر رغم فقرها الشديد في الأخشاب إلا أنها كانت تستغل ما جادت به الطبيعة إلى أقصى حد، فمثلا السنط الذي ذكره "هيرودوت" يعود تواجد به إلى أزمنة جد قديمة، ولا زال ينمو فيها إلى الآن، وعن مميزاته أن خشبه له قدرة على الإحتمال، حيث صنع المصريون منه سفنهم، والدليل على قوته أن السودانيين في عصرنا لازالوا يستخدمونه في صناعة مراكبهم⁽⁴⁰³⁾. ومع ذلك كان اللجوء إلى إستيراد الأخشاب ذات الجودة العالية لسد حاجيات الصناعات الخشبية أمرا ضروريا.

وقبل ذلك أود أن أشير إلى أن خشب السنط هذا والذي كان ثروة محلية و إستعملته مصر في أغراض عدة، فإنها كانت تستورده أيضا من الجنوب و خاصة في شكل مراكب جاهزة، و يبدو أن منتوجها المحلي لم يف بحاجتها أو أنها كانت تحافظ على تلك الثروة حتى لا تنضب، لأنه ظل موجودا في مصر حتى عصر هيرودوت الذي ذكر بأن مصر كانت تصنع منه المراكب.

هذا و كانت مصر تستورد خاصة "الأرز" المتواجد في المنطقة التي تدعى " فينيقيا " على منحدرات جبال لبنان. فالمصريون كانوا يجلبون الأخشاب التي يحتاجونها من مناطق بعيدة عنهم لأنهم كانوا مجبرين على ذلك، ومن هنا جاءت شهرة مدينة "جبيل" الفينيقية لدى مصر والعالم القديم ككل⁽⁴⁰⁴⁾، والتي كانت تستحوذ على أهم سوق للأخشاب المشهورة بـ: "Cedrus Libani" (Cèdre du Liban)، الضروري للمصريين لصناعة السفن والهندسة المعمارية⁽⁴⁰⁵⁾، وهو أمر طبيعي كون مصر تستورد ما تحتاجه من هناك نظرا لإختلاف موقع كل من مصر وسوريا بالنسبة لخطوط العرض، والذي إنعكس على المناخ الذي بدوره يعد مختلفا مما أدى إلى أن تكون منتوجات أرض كل منهما مختلفة.

و معلوم أن إرتفاع شجرة "الأرز" في أماكن نموه بين 30 و 40 م، ويمتاز هذا النوع بجذوعه المستقيمة والتي جعلته أهلا لعدد الصناعات، فقد إستخدم كسوارى تحمل راية تزين مقدمة المعابد و أماكن الراحة في المراكب، حيث توضع فيها تماثيل الآلهة المعروضة خلال الإحتفالات الكبرى⁽⁴⁰⁶⁾. وظل يستعمل بدون إنقطاع إلى غاية العصر الروماني لأنه ثبت وجوده في قبور كل العصور التاريخية، من خلال ما عثر عليه من توابيت مصنوعة منه⁽⁴⁰⁷⁾، فعادات الدفن كانت تتطلب بدورها كميات كبيرة منه حيث أن التوابيت لا بد أن تصنع من أخشاب صلبة جدا لتقاوم عوامل الزمن. كما دخل "الأرز" في صناعة الأثاث الفاخر وسقوف القصور وأبوابها، لكن الإستعمال المهم بالطبع هو بناء سفن أعالي البحار⁽⁴⁰⁸⁾. فهذا الخشب الممتاز ذو النوعية الرفيعة كانت مصر تستورده بكميات ضخمة، فقد بنى مهندسو "رمسيس الثالث" زمن حكمه أسطولا بلغ طول مراكبه أحيانا 70 م، وعدّ في ذلك الوقت أسطولا تجاريا قويا⁽⁴⁰⁹⁾.

(399) - Z. Herman , peuples..., Op-Cit , p.61.

(400) - V. Bérard , les Phéniciens..., Op-Cit , p. 107.

(401) - G. Dykmans , Op-Cit , t.1, pp. 189,229.

(402) - هيرودوت ، فقرة 96.

(403) - نفس المرجع ، ص. 208.

(404) - Ernst Samhaber , Histoire du commerce , traduction de Claude Miquel , (Paris : Arthaud , 1963) , p. 20.

(405) - M. Damiano- Appia , Op-Cit , p. 74.

(406) - B. Manley , Atlas historique..., Op-Cit , p. 74.

(407) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p. 193.

(408) - V. Bérard , Op-Cit , p. 126.

(409) - Z. Herman , Op-Cit , p. 64.

إن الأخشاب المستوردة لم تكن تنحصر فقط في "الأرز" بل كان هناك العرعر ، وهي شجرة "السندوس" (Juniper ou genevrier)، التي يمكن أن تصل إلى 20 م وأخشابها الحمراء والزكية الرائحة كانت تعد ثمينة في الأثاث الجنائزي، وبالنسبة للأحياء كان يصنع منها صناديق لحفظ الثياب وأدوات الرفاهية. أما خشب "شوح" (Sapin) والذي كان يعرف بـ: "Abrès Cilicica"، فكان يستخدم كأواني، وهو مثل "الأرز"، يستخدم في بناء المراكب، ويعطي أصماغا (راتنج) تستعمل في الطقوس، أما "الصنوبر" (Pinus Halepensis، le Pin) فقد أستغل في الصناعة منذ عصر ما قبل الأسرات، كإعداد التوابيت ويستخرج منه أيضا راتنج بكميات كبيرة وأخشابه أفضل من خشب "شوخ"، لأنه ملائم كذلك لبناء المراكب(410).

لم تكن الغابات السورية هي المزود الوحيد للمصريين بالأخشاب بل هناك مناطق أبعد سعى الفراعنة للتزود بأخشابها، فما هي هذه الأخشاب؟، من أية مناطق كانت تجلب؟، وما مميزات التي جعلتهم يتحملون المشقات في سبيل الحصول عليها؟.

من هذه الأخشاب الأخرى نجد "طقسوس" (L'If)، وقد وجدت بقاياها متمثلة في قطع من توابيت بإحدى المقابر، وهذه العينات تعود إلى المرحلة من الأسرة السادسة إلى الأسرة الثانية عشرة، وكان يستورد من المناطق الآسيوية ، وهذه الشجرة تنمو الآن في جبال طوروس (Taurus)، وربما تمكن ملاحو الدلتا من الوصول إلى آسيا الصغرى (Cilicie) لجلبه من هناك. إن هذا الخشب هو واحد من أجمل وأثمن الأخشاب التي تنمو في تلك المناطق ، ونستطيع أن نصنفه في الصف الأول ضمن الأخشاب الصناعية بسبب صلابته وكثافته وتجانسه ونعومته، هذه الخواص تجعله مجال بحث من قبل النجارين والنحاتين، و كل ذلك يدفع البحارة للمغامرة أحيانا إلى غاية سواحل آسيا الصغرى (411).

و بما أن شواطئ المتوسط لكل من سوريا و فلسطين و الأناضول و كريت كانت كثيفة بالغابات ، أدى ذلك بالبعض إلى القول بأن مصر و في سبيل رغبتها في الحصول على الكتل الضخمة من الأخشاب التي كانت ضرورية لها في مجالات عدة، لم تدخر جهدا في الحصول عليها من كريت أيضا(412).

هناك نوع آخر من الأخشاب يعد بدوره من الأخشاب النبيلة، لكن هذه المرة مصدره ليس السواحل السورية أو بلاد آسيا الصغرى بل يأتي من داخل إفريقيا ، و هو الخشب الأسود الذي يدعى "الأبنوس"، و تسميته بالمصرية "Hébeny" وهي بدون شك لفظة منحدره من أصل اللهجات المتعملة في بلاد النوبة(413).

و أول ذكر لكلمة "أبنوس" (Hében) في النصوص المصرية يؤرخ بالأسرة السادسة، لكن في الحقيقة وجد نقش يذكره يعود إلى بداية عصر الدولة القديمة، كما أن الدلائل التاريخية تشير إلى إستيراده أثناء عصر الأسرتين الأولى و الثانية ، لأنه وجدت ألواح من الأبنوس في الأضرحة الملكية تعود إلى هذا العصر، ومن المحتمل أن إستيراده كان يرجع إلى فترات أقدم من ذلك (414). ومعنى لفظة "أبنوس" هو لبّ هذا الخشب ذو لون أسود(415).

يتميز هذا النوع من الأخشاب بصلابته وثقله وكانت شجرته تنمو في أعالي النيل ، و نتيجة لأهمية هاته السلعة التجارية في ذلك العصر و رواج تجارته و خاصة دوره في التجارة المصرية، ورد ذكره من قبل كل الكتاب الكلاسيكيين تقريبا و أذكر منهم "بلين"، "ديودور الصقلي"، "سترابون" و بالطبع "هيرودوت".

وكان يجلب من بلاد النوبة في شكل مبادلات تجارية لأنه كان يذكر في عديد البعثات الإفريقية، حيث كانت مصر بحاجة إلى المواد الأولية التي تزخر بها بلاد النوبة، منها الأخشاب والتي كان وجودها بمصر قليلا نتيجة لإزاحة الغطاء الغابي إثر تغير المناخ من جهة وإستغلال الإنسان له بعد إستقراره على حواف النيل وتحويل مناطقه إلى أراضي زراعية(416). وكانت مجالات إستخدام "الأبنوس" هي صناعة الأثاث الثمين(417)، و كذلك التوابيت، المذابح، الآلات الموسيقية مثل القيثارة، تماثيل صغيرة وصناديق(418).

(410) - G. Dykmans , Op-Cit , t.2, pp. 194 -195.

(411) - Ibid , pp. 195 -196.

(412) - J. Vercoutter , essai sur les relations..., Op-Cit , pp. 19 -20.

(413) - B. Manley , Op-Cit , p. 74.

(414) - G. Dykmans , Op-Cit , p. 197.

(415) - ر. إنجليخ ، المرجع السابق ، ص. 403.

(416) - محمد بيومي مهران ، تاريخ السودان ... ، المرجع السابق ، ص. 195 -196.

(417) - G. Rachet , dictionnaire de la civilisation..., Op-Cit , p. 23.

(418) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p. 197.

المطلب الثاني: البخور والطيوب

إن البخور والطيوب كانت ضرورية للحضارة المصرية سواء في تأدية الطقوس الدينية أو كضرورة لحياة ما بعد الموت، فلا يتحقق العيش هناك والسعادة الأبدية بدون الطيوب، وبما أن التحنيط وحده يستطيع أن يضمن بقاء الأجساد و الذي يعتمد أساسا على الطيوب، إذن فإن المحرك المركزي للحياة المصرية كان الإهتمام والتحضير للحياة المستقبلية، وأستطيع أن أقول كما قال "بيرار" بأن الحضارة الفرعونية كانت حضارة الطيوب أكثر منها حضارة "مافكات" (الفيروز) أو النحاس⁽⁴¹⁹⁾. وفي التصور المصري فإن العطر كان واحدا من المظاهر الرئيسية للألوهية الغير مرئية ودخانه هو نوع للمرور بين العالمين⁽⁴²⁰⁾.

و أعود وأتكلم في هذا المجال عن الأخشاب، فعصارة وراتنج الأخشاب الأجنبية وتحديدًا أخشاب لبنان لعبا دورا هاما في علاجات الجسم وفي الطقوس الدينية والتقدمات الجنائزية. إن عقيدة المصريين أدت بهم إلى الاتصال بالعديد من مناطق العالم القديم بما فيها المناطق النائية من أجل تلبية الإحتياجات المتزايدة لهذه العقيدة من الطيوب التي كانت أساس عمليات التحنيط، كما لبّوا حاجياتهم من الأخشاب المقدسة. ولقد كانت سوريا تزود مصر بالأصماغ الغابية، وكذا الراتنجات والتي كانت ترشح المراكب ومنها راتنج الأرز و"شوح" و"العرعر" (Génévrier) وغيرها من الأشجار التي أتيت على ذكرها، وهذه المواد وجدت في مقابر تعود إلى حضارة البداري وكانت تستخدم في الطقوس الجنائزية قبل أن تنتشر عقيدة التحنيط⁽⁴²¹⁾، إذن فتجارة مصر كانت تزود مصر ليس فقط بالأخشاب بل بالمواد العطرية المستخلصة منها و منذ أزمنة موهلة في القدم و تواصلت طيلة العصر الفرعوني.

و هكذا كان المصريون بحاجة ماسة لعطور لبنان، و التي كانت تستخدم أيضا كمراهم و مساحيق تجميل و أصباغ لطلاء العيون و الخدود، و قد أدّى التبادل التجاري بين مصر ولبنان إلى تطور سريع لتجارة واسعة لمنتجات التجميل، لأن مصر كانت أيضا بحاجة إلى حجر الكحل، الذي تجلبه من لبنان بعد أن كان يجلب من قبل باعة سوريين من بلاد آسيا الصغرى، وهذه المادة كانت تضاف من قبل المصريين إلى أصباغ حمراء لأجل تجميل العيون⁽⁴²²⁾.

إن الساحل السوري كان يملك مواد عطرية كثيرة كان المصريون في حاجة إليها منها زيت الأرز وهو مادة أساسية في عملية التحنيط. كما كانت حاجتهم أيضا إلى مادة القطران والتي هي ضرورية لنفس الغرض، فكانوا يقصدون فلسطين وسوريا والسودان قصد الحصول على ما تتطلبه عقيدة الخلود⁽⁴²³⁾. وكانت كل هذه الطيوب على مختلف أنواعها تدخل في طقوس الديانة المصرية منذ الألف الرابعة ق.م وتأتي إما عن طريق البحر أو البر.

لكن من أشهر الراتنجات التي إستخدماها المصريون البخور، والذي يدعى في الكتابة الهيروغليفية "عنثي" أو "عنثيو" أو "عنثيو واج"، وهو نوع فاخر من أنواع البخور⁽⁴²⁴⁾. أما في اللغات الأخرى فتسمى شجرته بالإغريقية "Libanos" و "Libanotos"، وفي العبرية أطلق على البخور "Lebona" وجمعها: "Lebanot"، وهذه الكلمة مشتقة من الجذر "L.B.N" والذي يعني في كل اللغات السامية: "البياض" وهو في الكتابة الجبل المغطى بالثلج، أي الجبل الأبيض⁽⁴²⁵⁾.

و يعرف "عبد المنعم عبد الحليم سيد" الكندر قائلا: « الكندر راتنج صمغي زكي الرائحة يوجد على شكل حبات متصلبة تستخرج من أشجاره بشق جذورها شقا طويلا فتخرج العصارة التي تتصلب وتجمع في سلال»⁽⁴²⁶⁾، لأنه عندما تشق الشجرة تخرج منها عصارة سائلة وتجف وتتحول إلى مادة راتنجية عندها ينزعها الجامعون بطريقة الكشط ويكون شكلها عبارة عن كويرات جاهزة لإستخدامها كبخور.

(419) - V. Bérard , Op-Cit , p. 103.

(420) - M. Damiano- Appia , Op-Cit , p. 89.

(421) - G. Dykmans , Op-Cit , pp. 204, 267.

(422) - E. Samhaber , Op-Cit , p. 25.

(2) - سلامة موسى ، المرجع السابق ، ص. 67.

(3) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 39.

(4) - V. Bérard , Op-Cit , p. 144.

(5) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 31.

و قد كان الزبائن الأساسيون لتجارة البخور هم كبار ذلك العالم: الفراعنة، الأمراء، والكهنة الذين كانوا في حاجة إلى البخور لإحتفالاتهم الدينية⁽⁴²⁷⁾. حيث كان التبخير ضروريا في الديانة المصرية لأداء الطقوس الدينية والجنائزية. و في هذا المضمار يقول " عبد المنعم عبد الحليم سيد" : « كان البخور عنصرا أساسيا في طقوس الديانة المصرية، سواء في المعابد أو المقابر، إذ لم يكن أي من هذه الطقوس يكتسب فاعلية إلا باستخدام البخور. ولما كانت الديانة هي المحور الرئيسي للحياة المصرية القديمة، فقد كان من الطبيعي أن يعطي المصريون للبخور ولمصدره ولمناطق الحصول عليه أهمية قصوى »⁽⁴²⁸⁾.

إلى جانب البخور كان المصريون بحاجة إلى "المر" (Myrhe) الذي كان مطلوبا جدا كعطر، ويستخدم أيضا في التحنيط. إن المناطق التي كان المصريون يحصلون منها على هذه المادة هي نفس المناطق التي كانوا يجلبون منها البخور، وهي المناطق الوحيدة المتمثلة في بلاد العرب الجنوبية والساحل الإفريقي، وهي منطقة كان يسميها الفراعنة "بونت" وتعرف اليوم بإسم منطقة "حضر موت" ومنطقة الصومال. وهكذا كانت مصر بحاجة إلى مواد تحصل عليها من بلدان أخرى غير "فينيقيا"⁽⁴²⁹⁾.

إن الحياة الدينية تتطلب كمية كبيرة من البخور والذي تقتقر إليه مصر كليا، فكان لزاما الذهاب لإحضار هذا الراتنج من المناطق البعيدة أين تزدهر فيها أشجاره. وكمثال عن هذه الأهمية المعطاة للبخور أن معبد "أمون"، كان قد إستهلك في سنة واحدة خلال بداية القرن الثاني عشر ق.م ما يقدر بملء 2159 جرة⁽⁴³⁰⁾.

المطلب الثالث: المعادن

رغم أن أرض مصر كان يتواجد بها الذهب إلا أنها كانت بحاجة أكبر إليه، وكانت تأتينا كميات من الخارج وخاصة من إفريقيا. وهناك من يرى بأن مصر لا تملك أي معدن لا النحاس ولا الحديد ولا الذهب ولا الفضة ولا القصدير، فحسب هذا الرأي فإن المصريين كانوا يستخرجون الذهب من وديان وجبال النوبة وإثيوبيا، وبالنسبة للنحاس فإنه يوجد في سيناء لكن بكميات قليلة، وفي حالة يصعب إستغلالها، فلا بد من جلبه من قبرص، ومن الأناضول كان يستورد الحديد، ويجلب القصدير والفضة من قبل وسطاء⁽⁴³¹⁾.

إن هذا الرأي صحيح في جزء منه لكن في جزئه الآخر خاطئ، لأنه كما أشرت فيما سبق كان لمصر معادن تحت تصرفها، وخاصة معدني النحاس والذهب، أما جانب الصواب في هذا الرأي فهو أن هناك بالفعل معادن كانت مصر في حاجة إليها و حتى التي كانت تملكها من قبل.

فبالنسبة لمعدن الذهب يقول "سيريل ألدريد" : « لا يمكن لأحد أن يتصور قدر كميات الذهب الهائلة التي تم تداولها في حقبة وعصور تاريخ مصر القديم، سواء بداخل حدودها أم خارجها، فبالإضافة إلى الكميات الضخمة التي كانت تحصل عليها مصر من مناجمها، كانت تستورد سواء عن طريق الجزية أو من المبادلات التجارية كميات هائلة أخرى من الذهب من بلاد النوبة، و النوبة العليا (السودان حاليا) و بلاد بونت »⁽⁴³²⁾، حيث كانت بونت مثل واوات (النوبة السفلى) و "كوش" (النوبة العليا) تنتج الذهب وكذلك مادة الإلكترولوم (Electrum)⁽⁴³³⁾. وهكذا فإنه خلال الدولة الحديثة كانت تجارة المعادن الثمينة تعرف أنواعا مختلفة من الذهب، فوجد من بينها ذهب صحراء "قفط"، ذهب "النوبة"، ذهب آسيا، الذهب الأبيض، الذهب الجيد، وكذلك ذهب من نوعية ثانية وآخر من الدرجة الثالثة.

إن حوليات " تحوتمس الثالث " تعطينا فكرة عن كمية الذهب التي كانت تجلب من الجنوب خلال السنة الـ 38 من حكمه، حيث زودت مناجم " واوات " بـ " وادي علاقي " و " قبقابة " (Gabgaba) مصر بمقدار 2844 "دبن" أي حوالي 260 كغ من هذا المعدن لكن في السنة الـ 40 أي حوالي 1450 ق.م فإن بلاد "كوش" وفرت لمصر كمية 195 "دبن" و 2 "كيديت" أي ما يعادل تقريبا 18 كغ⁽⁴³⁴⁾.

(427) - E. Samhaber , Op-Cit , p. 25.

(428) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 73.

(429) - L. Casson , les marins de l'Antiquité..., Op-Cit , p. 19.

(430) - منذر عبد الكريم البكر ، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، تاريخ الدول الجنوبية في اليمن ، (دون مكان طبع ، مطبعة جامعة البصرة،

مديرية دار المكتبات، 1980) ، ص. 382 .

(431) - Moret et Davy , Op-Cit , p. 188.

(432) - سيرسل ألدريد ، المرجع السابق ، ص. 15-16.

(433) - J. Vercoutter , les pistes de l'or..., Op-Cit , p. 24.

(434) - Ibid , p. 22.

و يعتقد أن مصر كانت تبحث عن إحتكار كوني للذهب، فالفرعون بما أنه بواب إفريقيا، كان يضيف إلى مداخيل المناجم الشرقية الذهب المستورد من بلاد "بونت" عن طريق التجارة، وكذلك الذهب الذي كان يجلب سنويا من قبل النوبيين الخاضعين لقوته، إضافة إلى ما كان يأتي من ذهب سوريا والتي يقال عنها أنها جزيرة⁽⁴³⁵⁾، ولكن في حقيقة الأمر أن معظمها واردات تجارية.

أما الفضة، فكانت تشكل عجزا حقيقيا في مصر، لكن مصر الفرعونية عرفت مع ذلك إستعمال الفضة الخالصة، والتي كانت تسمى "المعدن الأبيض"، حيث كانوا يعتبرونها نوعا من الذهب، وكانت النصوص المصرية تشير إلى ندرة هذا المعدن⁽⁴³⁶⁾. وفي عيون المصريين القدماء فإن الفضة كانت من بين المعادن الثمينة التي كانت لها قيمة كبيرة، كما أن الكتابات القديمة كانت تذكر الفضة قبل الذهب، وبالتأكيد فإن الحلي الفضية التي وجدت في المقابر كانت أيضا أقل من حلي الذهب، وهذا راجع إلى كون مصر لم تكن تملك مناجم فضة، ولا يعرف بالتأكيد من أين كان مصريو العصر القديم يستخرجون المعدن الأبيض⁽⁴³⁷⁾.

و يرى "سيريل ألريد" أن المصريين كانوا صادقين إلى حد ما في إطلاقهم "الذهب الأبيض" على الفضة، لأنه بتحليل عيّنات منها تعود إلى الدولة القديمة والوسطى أثبتت بأنها تحتوي على معدن الذهب لكن بنسب متفاوتة، ويعطي تفسيراً آخر يحتمل أن يكون السبب في إطلاق ذلك الاسم على الفضة، و هو أن مكان تواجدها هو نفس مكان تواجد معدن الذهب، وبالتالي فهي أدنى منه بلونها الأبيض اللامع⁽⁴³⁸⁾. لكن الإحتمال الأخير هذا يعتبر ضعيفا، لأنه كما قلت لم يعثر على مناجم تؤكد وجود معدن الفضة في مصر بل كانت تعتمد على تجارتها الخارجية في الحصول عليه. وبالتالي فإن مصر كانت تستورد الفضة ليس فقط زمن الدولة الحديثة بل أيضا خلال الدولة القديمة، وذلك إنطلاقا من آسيا الصغرى، حيث كانت سوريا مشهورة بمناجم الفضة المتواجدة بالشمال في "طوروس"، و بالتالي جرى الإعتقاد بأن هذه المنطقة كانت تزود مصر بحاجتها من هذا المعدن⁽⁴³⁹⁾. كما يعتقد البعض مثل المؤرخ "فركوتيه" بأن العالم الإيجي كان بإمكانه تزويد مصر بالفضة، سواء كان ذلك من خلال مناجم الفضة المشهورة في "هيلاد" (Héllade)، أو بالفضة التي كانوا يجلبونها من مناطق أبعد من أوروبا و آسيا الصغرى ، وفي هذا يورد إحتمالين في كيفية حصول المصريين على ذلك المعدن من الشعوب الإيجية ، الأول أن الإيجيين هم الذين كانوا يحضرونه إلى مصر و الثاني أن المصريين كانوا يذهبون إلى هناك في إطار بحثهم المتلف عن المعادن و هذا الأمر كان يقودهم إلى أبعد الأماكن⁽⁴⁴⁰⁾. و المصدر الأساسي الذي كانت تمّول منه مصر خلال الدولة الحديثة تؤكد بصورة قطعية عديد الوثائق المصرية منها بالدرجة الأولى مناجم قبرص والتي تدعى "آلآسيا" ويعني إسمها جزيرة النحاس، وهذا بالطبع من خلال رسائل "تل العمارنة"⁽⁴⁴¹⁾ ، الواضح أن مصدر معدن الفضة لم يكن منطقة محددة بل كانت مصر تتزود به من مناطق عديدة.

و رغم قيمتها الثمينة لم يكن المصريون يستعملون الفضة في صناعة الحلي إلا نادرا، وكان إستعمالها بكثرة في صناعة الأواني من صحنون وأقداح، وكذلك أستخدمت في تزيين أرضيات القصور والمعابد، وصنعت منها أيضا صناديق لحفظ الطيوب⁽⁴⁴²⁾.

أما معدن النحاس، فرغم توفره بالأراضي المصرية إلا أنه كان يتم إستيراده من الخارج مثلما كان عليه الحال بالنسبة للذهب. وكانت مصر تتصرف في إحتياطات مهمة من هذه المادة، وإحتفظت من خلال ذلك على السيادة في البحر المتوسط إلى غاية القرن الرابع عشر أو الثالث عشر ق.م. فالإ غاية الدولة الوسطى فإن النحاس كان المعدن الأساسي، والبرونز لم يلعب هذا الدور إلا في زمن متأخر⁽⁴⁴³⁾. لكن الوضع تغير إبتداء من الأسرة الثامنة عشر، حيث أصبح النحاس لا يكفي، وبالتالي لجأت مصر إلى إستيراده من سوريا وقبرص.

(435) - G. Posener et autres , Op-Cit , p. 200.

(436) - Ibid , p. 21.

(437) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 621.

(438) - سيريل ألريد ، المرجع السابق ، ص.ص. 70 - 71.

(439) - W. Culican , le levant et la mer..., Op-Cit , p. 30.

(440) - J. Vercoutter , essai sur les relations..., Op-Cit , p.19.

(441) - W. Culican , Op-Cit , p. 61.

(442) - أنور الرفاعي ، المرجع السابق ، ص. 132.

(443) - J. A. Wilson , Op-Cit , p 78.

و بالنسبة لمعدن البرونز، فهناك من يرى بأنه عرف في مصر في زمن الدولة القديمة(444)، وهناك أيضا من يقول بأن هذا المعدن لم يظهر في مصر إلا خلال الأسرة السادسة والعشرين، حيث تم العثور على أماكن صهره في الدلتا(445). أي أن هناك إختلاف و تضارب كبير بخصوص هذا الموضوع لا أريد الدخول فيه لأن المقام لا يتسع لذلك .

و قد حل البرونز محل النحاس في كل الإستعمالات الصناعية، وكان المصريون يطلقون على معدن البرونز: "نحاس آسيا"، وهو ما نعرفه من خلال نقوشهم زمن بدء الأسرات، وظلت هذه التسمية إلى غاية نهاية الأسرة السادسة في حدود سنة 2400 ق.م، وهو تاريخ بدء معرفة المصريين للبرونز كمعدن مستقل(446)، وقد حل محل النحاس في مختلف الصناعات خلال الدولة الحديثة(447). إن معدن القصدير، والذي بفضلله وجد نوع جديد من المعادن، وهو البرونز، كانت أهم مناطق إنتاجه "كورنول"، والتي يعتقد بأنها ممول شعوب شرق المتوسط من هذه المادة منذ أزمنة جد قديمة(448).

و تقتقر مصر إلى معدن جد هام أحدث ثورة في مجال التعدين، إنه بكل بساطة: الحديد، ويقال بأن مصر عرفته ابتداء من الدولة الحديثة ، لكن هناك من يرى بأنه دخل في الصناعات خلال الفترة بين 1000 و 600 ق.م(449)، و عليه فإن التعدين كان قد حقق تطورا جد هاما في آسيا أكثر منه في إفريقيا(450).

على كل فإن هذا المعدن دار حوله جدال كبير بخصوص إستعماله في مصر لأنه رغم أن الأثرية تقول بأنه عرف مؤخرا في مصر، إلا أن الشواهد الأثرية تدل على أنه عرف قبل ذلك بكثير حيث تم العثور على خرزات في مقبرة تعود إلى عصر ما قبل الأسرات في منطقة " جزرة "، لكن بعد تحليلها ثبت أنها حديد يعود لمخلفات النيازك، ومع ذلك وجدت بقايا أخرى للحديد منها قطعة وجدت في أحجار الهرم الأكبر وشواهد أخرى تعود إلى الدولة القديمة، أما خلال الدولة الوسطى فقد تم العثور على تميمة مصنوعة من حديد تعود إلى الأسرة الحادية عشر، وعثر بين الأثاث الجنائزي لـ: "توت عنخ آمون" على خنجر حديدي وأسلحة أخرى من نفس المعدن، ومع ذلك فإن الإعتقاد السائد هو أن الحديد الخام في مصر عرف إستعماله في حدود الأسرة الخامسة والعشرين (712 – 663 ق.م)(451).

و هكذا فإن الحضارة المصرية كانت تنقصها بعض المواد التي هي أساسية لأية حضارة في ذلك العصر ومنها الحديد الذي لم يوجد في مصر إلا نادرا من خلال مخلفات النيازك، وبالتالي كان غيابه ملحوظا في الصناعات المصرية، حيث كانت متخلفة في هذا المجال ولم يعمم إستعماله إلا عند بداية الألف الأولى بفضل الإستيراد(452). ومن المعادن التي وجدت في مصر وإستوردتها في نفس الوقت الإلكترولوم (السام) وهو مزيج من الذهب والفضة، وكانت الصحراء الشرقية مصدره، وتثبت الأدلة أن المصريين قد توصلوا خلال الدولة الحديثة إلى مزجه بأنفسهم أي الحصول عليه بطريقة صناعية، ومع ذلك فإنهم كانوا يلجأون إلى إستيراده من بلاد "بونت"(453).

و هناك معدن آخر ثبت إستعماله في مصر ويدعى "الصفيح"، و لم يوجد هذا المعدن فقط في مصر بل في كل محيطها و يحتمل أن مصدره الهند (454). و الإحتمال الوحيد أن دخوله مصر كان عن طريق تجارتها مع جنوب الجزيرة العربية سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، على إعتبار أن العرب هم الذين كانوا يحتكرون منتوجات الهند آنذاك.

المطلب الرابع: الأحجار الكريمة

(444) – عبد الفتاح محمد وهيبة ، المرجع السابق ، ص. 205.

(445) - F. Daumas , la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 601.

(446) - محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص. 236.

(447) - سيريل ألدريد ، المرجع السابق ، ص. 81.

(448) - محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص. 40.

(449) - G. Posener et autres , Op-Cit , p. 171.

(450) - J.A. Wilson , Op-Cit , p. 40.

(451) - ر. إنجليخ ، المرجع السابق ، ص. 398.

(452) - موسوعة تاريخ الحضارات ، ص. 68.

(453) - سيريل ألدريد ، المرجع السابق ، ص. 397.

(454) - شكري صادق ، المرجع السابق ، ص. 189.

رغم أن الطبيعة في مصر جادت على سكانها بأنواع كثيرة من الأحجار الكريمة، إلا أن ولع المصريين بهذه المادة الخام جعلهم لا يكتفون بما لديهم بل سعوا في الحصول على الأنواع الأخرى التي لم تكن متوفرة في بلادهم و مهما كانت كلفتها. وأهم هذه الأنواع هي حجارة اللازورد ويقول عنها "سيريل ألدريد": «حجر شبه كريم لونه أزرق داكن أو بنفسجي أو أزرق مائل للإخضرار... ولا يوجد اللازورد في مصر، وكانت أهم مصادره في العالم القديم مقاطعة باداخشان في شمال شرقي أفغانستان، و يوجد أيضا بالقرب من بحيرة بيكال في سيبيريا» (455). وهناك من يرى بأن هذا الحجر عرف له موطن أصلي واحد في العالم القديم وهو "باكتريان" (Bactriane)، الذي كان يزود كل شعوب ذلك العصر، ومنذ القديم والمصريون يستعملون هذه الحجارة الزرقاء (456)، حيث وجدت عيّنات منها في مقابر مصرية تعود إلى عصر ما قبل الأسرات، فقد كانت تأتي من آسيا عبر سوريا ضمن واردات مصر من هناك، كما ظهرت هذه المادة ضمن السلع الآتية من آسيا خلال الدولة الحديثة (457). إن هذه الحجارة كانت تصل الشرق الأدنى عبر طريقين رئيسيين: أحدهما شمالي عبر "باكتريان"، "تركستان" (Turkestan)، و الشاطئ الجنوبي لبحر "قزوين"، والآخر جنوبي عبر "سيستان" (Le Séistan) أين يوجد موقع "Shahr-i-Sokhta"، المختص في تشذيب الأحجار قبل إرسالها مباشرة إلى الخليج العربي (458). ويعود إستيراد المصريين لهذه الحجارة إلى زمن قديم جدا أي في عصر ما قبل التاريخ حيث تزامن إستخدامها مع فترة توصلهم لإستخدام المعادن من نحاس وذهب، وكانت تجارتها رائجة منذ ذلك العصر (459). إن حجر اللازورد لا يستخرج إلا من المناطق المعروفة باسم "أفغانستان"، ومن هناك كان يذهب في إتجاهات مختلفة للعالم القديم، حيث كانت هناك على نهر الفرات مراكز تجارية تعمل على جلب هذه المادة من مصادرها وهو منطقة "باداخشان"، التي إستمد منها هذا الحجر إسمه في الكتابات الهيروغليفية "خَشَبْد" أي تحريف لإسم ذلك الموقع، وهو دليل على أنهم كانوا يعرفون مصدر هذا الحجر (460).

و هناك حجر آخر أستعمل بكثرة في مصر وهو "السيج" (Obsidian) وهو نوع من الزجاج البركاني يكون لونه أسود، وله مواقع كثيرة وجد بها خارج مصر منها: أرمينيا، جزيرة ميلوس وبلاد الحبشة (461)، وكذلك بلاد العرب و"بونت"، وقد إستورده المصريون منذ عصر ما قبل التاريخ، كما يوجد أيضا في ألوان أخرى منها الرمادي الداكن والأخضر الغامق، لكن عند تقطيعه لتشكيله أشياء صغيرة يصبح شفافا (462).

المطلب الخامس: أشياء أخرى

إن حاجيات مصر لم تقتصر فقط على ما أتيت على ذكره من أخشاب وبخور و عطور وأحجار كريمة ومعادن، ولو أن هذه المواد هي التي ركزت عليها الكتابات بصفة أكبر، إلا أنني أجد هناك أشياء أخرى لا تقل أهمية لدى المصريين وبالأخص ملوكهم.

فمصر قد عرفت شجرة الزيتون خلال الدولة القديمة، وقد ذكر كتاب عديدون مناطق نموها منهم عالم النبات "ثيوفراست" (Théophraste) الذي قال بأنها تنمو في إقليم الجنوب، وذكرها "سترابون" بأنها كانت تنمو في مقاطعة Arsinoite (الفيوم) في زمن البطالمة، كما أن بردية "هاريس" تذكر بأن "رمسيس الثاني" قام بغرس أشجار الزيتون بـ "هليوبوليس"، من أجل إستخراج الزيت لإضاءة المعبد. و هناك من يرى بأنها وجدت منذ العصر "الثاني" وكانت تنمو في غرب الدلتا. ومن الأدلة على وجودها خلال الدولة القديمة، ذكر إسم شجرة الزيتون في نصب من "ميدوم" (الأسرة الثالثة)، وصورة لمعصرة للزيتون. إلا أن الزيتون المحلي لم يوفر الحاجيات، وبالتالي فإن مصر كانت بدون شك تعوض النقص بالإلتجاء إلى إستيراده من المناطق المجاورة كفلسطين وخاصة لبيبا لأنهما المنطقتين المشهورتين بهذه المادة دون أن ننسى كذلك سوريا، حيث كانت مصر تجلب هذا الزيت من "جبيل". وقد كانت مصر القديمة تعد مستهلكا كبيرا للزيوت بنفس الدرجة التي كانت تستهلك بها العطور، وكانت تطلبه من البلدان المجاورة سواء خاما أو في شكل خلطات، وعن مجالات إستخدامه فهي عديدة: كالتغذية اليومية، الإنارة عن طريق حرقه، وكذلك دهن الأجساد، وكان يؤخذ كعلاج، ويستخدم أيضا

(455) - سيريل ألدريد ، المرجع السابق ، ص. 73.

(456) - P. Montet , la vie quotidienne en Egypte..., Op-Cit , p. 186 .

(457) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p. 268 .

(458) - J-C. Margueron , Op-Cit , p. 93 .

(459) - ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 17-18.

(460) - سيريل ألدريد ، المرجع السابق ، ص. 73-74.

(461) - ر. إنجليخ ، المرجع السابق ، ص. 395.

(462) - سيريل ألدريد ، المرجع السابق ، ص. 77.

في الطقوس والتبخير، وهذه المجالات تتطلب إستهلاكاً متواصلاً وفي كل الأوقات، كما أن المحنّط لا يستطيع إطلاقاً الإستغناء عنه، وقد كان زيت المسح "الليبي" يشكل جزءاً من الطقوس الدينية و الجنائزية (463)، وبالتالي فهذا الزيت تجاوز الإستخدام الغذائي ليلعب دوراً هاماً كمادة عطرية وطبية.

و هناك مادة أخرى أعطاهها المصريون أهمية وإستهلكوها بكثرة وهي العسل، حيث نكتشف من خلال النصوص والنقوش بأن المصريين كانوا منذ الدولة القديمة مستعملين كباراً للعسل وأنهم كانوا يربّون النحل ويحبّون منتوجه كما كانوا يجلبون العسل البري من الصحارى. وقد لعب دوراً كبيراً في التغذية، كما كان يدخل في تحضير الوصفات الصيدلانية، وفي تركيب المراهم التي كانت تحضّر داخل المعابد، إلا أنه لم يستخدم في التحنيط (464). وقد لعبت كل من فلسطين وسوريا في هذا المجال الدور الأكبر في تزويد مصر بالعسل إضافة إلى مواد أخرى مثل القار (465).

و تعدّت إحتياجات مصر من المواد الإستهلاكية لتشمل الحيوانات والتمثلة في القرود، والتي لعبت دوراً كبيراً في ديانتها، حيث أخذ منها إلهاء، وقد طرح سؤال فيما إذا كان إتخاذ هذا الإله هو عقيدة زرعت من قبل شعب جاء من الجنوب أم كان ذلك ناتجاً عن خوف تبجيلي على إثر معاشية المصري لقرود مجلوب من مجاري المياه السرية؟. ولقد عرفت مصر نوعين من القرود وذلك من خلال رسومهما وهما: Cercopithecus Aethiops، وهو ما يعرف بـ: Guenon، والذي كان يصور غالباً في الدولة الحديثة، أما النوع الثاني وهو Babouin، ويطلق عليه Papio Bamadryas، كان متواجداً في كل أزمنة مصر رغم أن هذه الأخيرة لا تملك غابات ملائمة لهذه القرود. وكان الإله الذي يتخذ شكل قرود هو سيد العلماء والأدباء، وكان يوضع تمثال Babouin في المكاتب، فالقرود كان يوضع على كتف الكتاب وكان يحرس أيديهم (466). وكانت القرود تستخدم لجمع الثمار الناضجة، وببني حسن بمدرية المنيا هناك لوحة تمثل هذه الحيوانات وهي تساعد العبيد في أعمالهم، وتوجد لوحة أخرى تمثل القرود وهي تقطف العنب وتضعه في سلال وتحمله إلى المعاصر ليصير خمرًا (467).

و من ناحية أخرى تميز المصريون بحاجتهم للأقزام وكانوا شغوفين بالحصول عليها، وكانت "أرض الإله" تزود المراكب المصرية بالأقزام الذين كانوا يحضون بتقدير كبير في البلاد: ففي القصور الفاخرة "بممفيس" و "طيبة" كانوا يظهرون في الرقصات الإفريقية عندما يحتفل بمناسبة دينية. ومن خلال الرحلة الرابعة للرحالة "حركوف" جلب للملك "بيبي الثاني" قزماً كان بالنسبة له أثمن من كل البضائع التي أحضرت من الجنوب، وكان الأقزام يأتون من منطقة أعيد إكتشافها في العصر الحديث من قبل الرحالة "ستانلي" الذي وصل إلى أواسط غابات إفريقيا فوجد هناك قبيلة من الأقزام يعيشون وحدهم ويخلطون من الأجانب، فلا بد أن تكون هذه القبيلة من خلفاء أولئك الأقزام الذين عاشوا في القارة المظلمة منذ آلاف السنين (468). ولم يقتصر إستعمال الأقزام في المجالات التي ذكرتها بل أن كثيراً من النقوش تبين بأنهم كانوا يستخدمون في صناعة المجوهرات، كما أنهم من المحتمل أن يكونوا قد إستخدموا كخدم خصوصيين للأسرة الحاكمة ولأعيان البلاد، وذلك في إعتنائهم بثياب هؤلاء وبأدوات زينتهم وغيرها من هذه الأمور (469).

يكاد يجمع أغلب الباحثين على أن مصر كانت تعرف إكتفاءً بما حققه لها وادي النيل من وفرة في القمح، الذرة، خضر و كروم و نباتات زيتية و أيضاً الثروة السمكية و غيرها، و لم ينقصها سوى الأخشاب و الفضة التي كانت تبحث عنها بإستمرار (470). بالفعل كانت مصر بحاجة لهاتين المادتين طيلة العصر الفرعوني، وقد لعبت تجارتهما دوراً أساسياً في تجارة مصر ككل، و كانتا عاملين في إزدهارها، لكن من خلال العرض السريع لحاجيات مصر من الشعوب المجاورة تتكشف حقيقة أن هاتين المادتين لم تكونا الوحيدتين بل كانت مصر تعرف نقصاً في عديد المواد التي لا تقل أهمية عنهما، والتي كانت تجارتها رائجة، وهذه المواد لا يمكن الإنتقاص من أهميتها وضرورتها في الحياة المصرية. وهناك مادة أخرى جد ثمينة لا يمكن الكلام عن حاجيات مصر دون التعرض إليها ألا و هي مادة العاج، والتي كانت مادة أساسية في تجارة مصر خاصة مع مناطق الجوار

(463) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2 , pp. 199 - 200.

(464) - G. Posener et autres , Op-Cit , pp.171, 173.

(465) - W. Culican , Op-Cit , p.14.

(466) - G. Posener et autres , Op-Cit , pp.268 - 269.

(467) - A. Gaudio , Op-Cit , p. 154.

(468) - ن. ي. ، المرجع السابق ، ص.ص. 172 ، 243 ، 2.

(469) - سيريل ألريد ، المرجع السابق ، ص. 97.

(470) - J. Vercoutter , essai sur les relations..., Op-Cit , pp.20 -21.

الجنوبية، لما لها من ضرورة ملحة في مختلف مجالات الصناعة المصرية ، و التي ظلت سلعة أولية ضمن واردات مصر .

و في ختام هذا الفصل أصل إلى القول بأن هناك عدة عوامل لقيام الحضارة وقد توفرت لمصر، بدء بموقعها وجريان نهر النيل الذي أوجد أراضي خصبة من حوله، وتوفر كثافة سكانية متجانسة من حيث اللغة والتقارب العرقي، وسهولة الإتصال بين الوحدات السكانية، ووصولهم إلى إقامة نظام حكم موحد، وهناك عامل آخر مهم وهو غنى أرضهم بما وفرته لهم من ثروات أولية هامة، وتوفر الأمن الخارجي إلى حد كبير على الأقل في عصور بداية الحضارة⁽⁴⁷¹⁾. إن هذه العوامل التي أدت إلى قيام الحضارة المصرية هي نفسها التي أدت إلى قيام صلات تجارية مع محيطها الخارجي، هذا طبعا إذا أضفت لها عاملا آخر وهو الحاجيات الضرورية لمسيرة الحضارة المصرية والتي تواجدت في نفس الوقت في المناطق المحيطة بها، وبالمناسبة يقول "محمد السيد غلاب": «أوجد البحر المتوسط نوعا من الإنسجام الحضاري بين أقاليمه المختلفة في المنتجات الزراعية والمعدنية لضرورة إتصال بعضها ببعض الآخر وضرورة التبادل التجاري والثقافي بينها». فبينما كانت مصر تفتقر إلى الأخشاب وتعاني نقصا في زيت الزيتون الذي تزخر به سوريا، فإن هذه الأخيرة كانت بحاجة ماسة إلى قمح مصر⁽⁴⁷²⁾. ويمكن أن أقيس على ذلك حاجة مصر من المناطق الأخرى، وحاجة هذه الأخيرة لمنتجات مصر المختلفة.

(471) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 30.

(472) - محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص. 41 ، 434 ، 435 .

الفصل الثاني: الحركة التجارية داخل مصر

بعد أن عرفنا من خلال الفصل الأول عوامل قيام الحركة التجارية، أبدأ هذا الفصل بطرح السؤال التالي: إلى أي عصر تعود التجارة؟.

تعود التجارة إلى العصر النيوليتي أي إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة ق.م، وهذا راجع لتواجد المراكز الصناعية الكثيرة والتي كانت تمارس إستخراج المعادن المتنوعة وصناعتها⁽⁴⁷³⁾. فهذا الرأي يربط وجود التجارة بالصناعات المعدنية، لكن هناك من يذهب إلى أن التجارة قديمة قدم الإنسان، الذي عرف منذ عصوره الأولى مبادلات بسيطة وكانت عبارة عن عمليات تجارية في صورتها الأولى⁽⁴⁷⁴⁾. إذن فالبدايات الأولى للتجارة هي موجودة منذ بداية عصر الحجارة. ففي بعض الأماكن كان الناس يصنعون من حجر سيلكس أدوات عديدة لم يكن بإستطاعة أناس الأماكن المجاورة لهم صناعتها، كما وجدت أدوات مثل سكاكين وهرات في أماكن بعيدة عن الأماكن التي صنعت فيها⁽⁴⁷⁵⁾.

و في هذا المضمار فإن "وليام كوليكان" (W.Culican) يرجع الآثار الأولى للمبادلات التجارية التي تم الكشف عنها إلى المجتمعات الإنسانية المستقرة التي تعود إلى "العصر الحجري الوسيط" (Mésolithique) في الشرق الأدنى، ومنهم "الناطوفيين" في فلسطين، الذين كانوا ينتجون جواهر من الأصداغ على شاطئ المتوسط، وكانت تصل إلى تجمعات بشرية بعيدة عن هذا الشاطئ. وأن السيج (الأوبسديان) و أحجار أخرى و التي كانت تدخل إلى الأناضول نتيجة لإزدياد الطلب عليها في الصناعة، كانت تحرك المبادلات التجارية وقد إزدادت و قويت خلال العصر الحجري الحديث، ثم تنامت بعد ذلك أكثر، إلا أن بروز مجتمعات تجارية منظمة لم يخلق إلا أثناء عصر البرونز الحديث⁽⁴⁷⁶⁾. أفهم من كلامه أن تحديد زمن المبادلات و الممارسات التجارية يعود إلى العصر الحجري الوسيط، و هو بذلك ينافي ما ذكرته قبل قليل من آراء، بعضها ينسب هذه المبادلات إلى بداية ظهور الإنسان نفسه، و البعض الآخر يحددها بالعصر الحجري الحديث الذي تميز بإستقرار الإنسان على إثر إكتشافه للزراعة، كما أستخلص من كلامه أن التجارة المنظمة يرجعها إلى عصر البرونز الحديث أي عصر بروز القوة التجارية الفينيقية و الإيجية، و بالتالي فهو بنفي تعاطي الشعوب قبل تلك الفترة للتجارة المنظمة ومنها بالطبع المصريين، فإلى أي حد يعتبر رأيه صحيحاً؟، وهل بالفعل أن المبادلات التي عرفتتها مصر تعتبر كلها بسيطة لا تدخل في نطاق التجارة المنظمة؟.

لا يسمح المجال هنا إلى العودة إلى عصور موعلة في القدم و أكتفي بالقول بأن التجارة النيوليتية في مصر لم تكن تجارة منظمة، أي ذات مسافات طويلة على حد تعبير البعض والدلائل هي عديدة منها غياب مخازن للمواد الأولية و للمنتجات لدى التجمعات البشرية، و كذلك غياب أدوات معدنية أجنبية في مصر آنذاك، وعليه فإن المبادلات كانت تتم في نطاق ضيق⁽⁴⁷⁷⁾. فإن كان هذا حال التجارة في العصر النيوليتي، فهل يمكن الإقرار بوجود تجارة بمعنى الكلمة في عصر ما قبل الأسرات؟.

المبحث الأول: تجارة مصر في عصر ما قبل الأسرات

يرى البعض بأنه إلى حد الآن لم يتضح بعد فيما إذا كانت فترة عصر ما قبل الأسرات قد تطورت بشكل وصلت فيه إلى أن تعرف تجارة منظمة تجوب البلاد عبر مختلف مناطقها أو فيما إذا كانت هناك علاقات واضحة مع مناطق الجوار، وبالأخص جنوبي غربي آسيا، ما عدا، بعض الإثباتات التي تعود إلى حضارة "الجزرة"⁽⁴⁷⁸⁾.

(473) – Pierre Rousseau , *Histoire des transports* , (Paris: Fayard, 1961) , pp. 9 -10 .

(474) – عبد الفتاح محمد وهيبه، مصر و العالم القديم...، المرجع السابق، ص. 307.

(475) – E. Samhaber , *histoire du commerce* , Op-Cit , pp.9 -10 .

(476) – W.Culican , *le levant et la mer...* , Op-Cit , p.9 .

(477) – Arne Eggebrecht, *l'Egypte ancienne, 3000 ans d'histoire et de civilisation au royaume de Pharaons*, préface

de Jacques Lacarrière , (2° éd , Paris : Bordas civilisations , 1997) , p.38.

(478) – تريجر و آخرون، مصر القديمة...، المرجع السابق، ص. 63.

وفي المقابل هناك رأي يرى بأن التجارة النهرية تمتد إلى كل مجرى النيل من البحر المتوسط إلى الشلال الأول قبل أن تصبح مصر موحدة ، حيث وجد إثبات من خلال مراكب ما قبل التاريخ والتي كانت مجهزة بغرف وتحمل شعارات من المحتمل أنها تدل على الميناء الذي كانت ترسو فيه حتى يمكن التعرف عليها، فهي علامات تشهد على هذه التجارة(479).

كما أن إنفتاح سكان النيل على الخارج خلال عصر ما قبل الأسرات كان ضرورة ملحة، لأنهم لم يكونوا يملكون إلا القليل من المواد الأولية على طول النهر، فالمعادن مثل النحاس تقع في "النوبة" إلى الشمال من " وادي علاقي"، وأساسا بالقرب من البحر الأحمر: في سيناء والسلسلة الجبلية العربية أين نجد الرصاص والقصدير والذهب، والذي يوجد أيضا بالقرب من الشلال الأول(480). كما أن المستوطنات الحضارية مثل "المعادي" و"العمره" و"نقادة" كانت بينها صلات تجارية، وهو ما تثبته مخلفات أثرية، بل كانت لها علاقات حتى مع مناطق جوار أخرى منها سوريا وفلسطين، وبالتالي فذلك دليل على وجود تجارة متطورة ومستمرة(481). كما أن حضارة "البداري" كانت لها علاقات تجارية خاصة مع الجنوب من خلال بعض الحلي المتمثلة في أساور من عاج قد حصلوا على مادتها الخام بدون شك من مبادلات تجارية(482). كما أن التجمعات الحضارية في " المعادي" عرفت بأنها مراكز لتجميع السلع وتوزيعها في نفس الوقت بين كل من فلسطين ومصر العليا أي أن تلك المبادلات سمحت بتنامي مدن على تلك المراكز. ونفس الظاهرة يشهدها القسم الجنوبي الذي يقترب فيه النيل من البحر الأحمر، والذي تفصله عنه الصحراء الشرقية الغنية بالمعادن خاصة الذهب الأمر الذي جعل هذا الجزء من البلد يشهد نمو مدن تجارية مثل " نقادة" و "هيرا قليوبوليس"، كما أن تزايد المبادلات التجارية مع جنوب غرب آسيا جعل الحكام يتمسكون بإحتكار هذه التجارة المربحة والسيطرة على المنطقة(483).

وكانت الإتصالات بالعالم الخارجي ممكنة منذ "نقادة الأولى" حيث كانت لهذه الحضارة إتصالات بحضارة الوجه البحري سواء برا أو عبر مياه النيل بواسطة المراكب التي تجوبه من قبل الطرفين. أما الإتصالات مع العالم الخارجي فكانت بدورها ممكنة، فكان " وادي حمامات" والبحر الأحمر يسهلان إتصال سكان الجنوب وحضاراته بحضارات غربي آسيا، أما سكان الشمال فكان إتصالهم بتلك الحضارات يتم عن طريق برزخ السويس(484).

وتثبتت المخلفات الأثرية منها: أختام عراقية وجرار طينية فلسطينية، وجود علاقات تجارية بين مصر وفلسطين وبلاد ما بين النهرين في عصر ما قبل الأسرات ، وبالتالي فالمؤثرات العراقية دخلت عن طريق الفلسطينيين الذين كانوا وسطاء بين الطرفين(485).

من جهة أخرى يرى "ديكمانس" أن المدن في منطقة "الدلتا" وتحديدًا التي كانت لها موانئ على ساحل البحر الأبيض المتوسط عرفت ازدهارا أثناء هذا العصر، وكانت أساطيلها الصغيرة تعقد علاقات تجارية مع الشواطئ السورية، وحدث ذلك في زمن بعيد قبل أن يكون للفينيقيين أهمية كشعب بحري(486)، بالإضافة إلى ذلك كشفت الحفريات على وجود جذوع الأرز أنشأت منها جسور بالدلتا وحدد زمنها إلى ما قبل الأسرة الأولى، وهو ما يسمى بعصر البداري و بالتالي فإستيراده يعود إلى ذلك العصر القديم، وهو دليل عن جذور العلاقات التجارية بين الطرفين إبان ذلك العصر وبالأخص مع مدينة "جبيل"، وتأكدت هذه المبادلات أيضا في نفس المدينة بوجود لوحات حجرية مصرية من نوع المرمر، وتمائم حيوانية صغيرة تعود إلى نفس الفترة(487)، وما يثبت بأن المبادلات التجارية بين مصر والمحيط الخارجي تعود إلى العصر النيوليتي، وجود مخلفات أثرية في مقابر تعود إلى هذا العصر كـ: "اللازورد" الذي لا يعد من منتجات مصر بل هو منتج

J.A. Wilson , l'Egypte..., Op-Cit , p. 3. – (479)

N.Grimal , histoire de l'Egypte..., Op-Cit , p.36. – (480)

(5) – جيفري سبنسر، مصر في فجر التاريخ...، المرجع السابق ، ص. 58.

(6) – ر. إنجلباخ ، مدخل إلى علم الآثار المصرية...، المرجع السابق ، ص. 30.

(1) – جيفري سبنسر ، المرجع السابق ، ص. 64.

(484) – عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم ...، المرجع السابق ، ص. 48.

(485) – تريجر و آخرون ، المرجع السابق ، ص. 53.

(486) – G. Dykmans , histoire économique..., Op-Cit , t. 2, p. 245.

(487) – محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية...، المرجع السابق ، ص. 88.

آسيوي وهو ما يدل على أن مصر أقامت مع تلك البلاد علاقات تجارية، وكانت تستورده من هناك⁽⁴⁸⁸⁾. وكانت المبادلات تتم بين المجموعتين عبر سيناء والشرط الساحلي، ومن الأدلة أيضا وجود أواني فخارية ذات مقابض متموجة، وهو صنف ينتمي إلى صناعة خارجية تم العثور عليه في مصر وهو يعود إلى عصر ما قبل الأسرات⁽⁴⁸⁹⁾.

إن التجمعات القديمة لوادي النيل أفرزت ثقافات مادية مختلفة ومتمايزة وهي تشهد على وجود شبكات تجارية واسعة، حيث أن التجمعات في الشمال قد مارست بصورة تقليدية التجارة مع فلسطين والبلدان المتوسطية الساحلية، بينما الشعوب الجنوبية تاجرت مع بلاد النوبة والمناطق القريبة من البحر الأحمر. فقد كانت هناك علاقات تجارية بين مصر وبلاد "النوبة" في عصر ما قبل الأسرات، ومن أهم ما كانت تستورده بلاد "النوبة" من مصر خلال هذا العصر جرار من الفخار والتي كانت تحفظ فيها مواد غذائية تجلب من مصر مثل العسل، الجبن والزيت وغيرها، وكذلك العديد من السلع الأخرى التي اعتبرت سلعا كمالية لرفاهية الطبقة الثرية منها الأدوات النحاسية واللوحات "الإردوازية" والأقمشة المصنوعة من الكتان، وكان حصول بلاد النوبة على تلك المنتجات سهلا لأنه من المعروف عن حضارة "الجزرة" أنها تميزت بالرخاء وبكثرة المنتجات منها العاج وخشب الأبنوس وغيرها، والتي كانت تحصل على موادها الخام من بلاد النوبة، ولو أن مصر هي التي كانت تصدر الفائض للشعوب الأخرى ومنها النوبيين، إلا أن هناك اتجاه يرى بأن النوبيين أنفسهم هم الذين تاجروا في تلك السلع، حيث ساد اعتقاد بأنه وجدت على نهر النيل مراكز مقايضة هذه السلع بماشية من كان يعيش في الصحراء الشرقية خاصة مركز مدينة "خور داود" قرب مدخل "وادي العلاقي"، لكن هناك رأي مخالف يعتبر وجود سلع مصرية ببلاد النوبة في هذه الفترة بالذات هدايا من قبل تجار مصريين مقابل السماح لهم بالوصول إلى جنوب النوبة أو أنها ثمن يقدم للنوبيين الذين يعملون في الخدمة العسكرية في مصر⁽⁴⁹⁰⁾، فقد كانت مقاطعة مصر العليا أرض تبادل بين المصريين والنوبيين وتلاق بين الشعبين المصري والنوبي اللذان كانا متصلين من الناحية الإثنية والثقافية (مرحلة نقادة)⁽⁴⁹¹⁾.

فسكان مرحلة نقادة الثانية تميزوا بإنفتاحهم على مناطق الجوار الجغرافي أكثر من الذين سبقوهم حيث نراهم يعقدون صلات مع القسم الشمالي وأيضا بالجنوب حتى وصلوا بلاد "النوبة"، بل تعدت إتصالاتهم لتزداد وتتكرر مع الشرق القديم، حيث جرى تبادل متواصل، والدليل على ذلك المخلفات الأثرية منها أجزاء من "السيج" (الأوبسديان) ذو اللون الأسود الذي يعتبر من الأشياء الثمينة، والذي كان يجلب من الجنوب⁽⁴⁹²⁾، وما يثبت ممارسة مملكة الجنوب للتجارة مع بلاد النوبة هو العثور على نقشين على صخور الشلال الأول يمثل مركبا بلغ طوله عشرة أقدام وبالتالي هو ليس زورقا صغيرا، وقد رسم وهو يجزّ بالحبال من قبل ثلاثة و ثلاثين رجلا وهم في وضعية وكأنهم يتجنبون الشلال. إن المكان الذي وجد فيه النقش يدل على أن مملكة الصعيد كان حكامها قد وصلوا في تجارتهم إلى أبعد من حدود مملكتهم⁽⁴⁹³⁾. إلى جانب هذه الإتصالات التجارية جرت روابط تجارية خلال هذا العصر مع الغرب وتحديدًا مع الواحات و ذلك عن طريق القوافل⁽⁴⁹⁴⁾.

هكذا كانت المبادلات التجارية خلال عصر ما قبل التاريخ وتحديدًا خلال عصر ما قبل الأسرات تحدث بين مصر و محيطها الجوارى، وكانت السلع تتوافد من كل الأماكن، فالذهب والنحاس كانا يأتيان من الجبال الشرقية، زيت الزيتون من ليبيا وفلسطين، العاج والمرمر من الجنوب، خشب الأرز من الساحل السوري، و"اللازورد" و"الأوبسديان" من الشرق البعيد.

(488) - أتئين دريوتون و جاك فاندبييه ، مصر ، المرجع السابق ، ص. 232.

(489) - ر. إنجلباخ ، المرجع السابق ، ص. 323.

(490) - تريجر و آخرون ، المرجع السابق ، ص. 58-59.

(2) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p. 282 .

(3) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 49.

(4) - جيمس هنري برستيد ، إنتصار الحضارة...، المرجع السابق ، ص. 83.

(494) - N. Grimal , histoire de l'Egypte ancienne , Op-Cit , p 38.

(2) - أحمد فخري ، مصر الفرعونية...، المرجع السابق ، ص. 44.

(3) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p. 248.

والأخص ماذكرته بأن مصر كانت لها تجارة منظمة في اتجاهات مختلفة، لأن عصر ما قبل الأسرات بكل بساطة كان على حد تعبير " أحمد فخري " : « فترة إتصالات تجارية واسعة » (495). وهكذا ومنذ فجر التاريخ فإن العلاقات التي كانت مصر قد ربطتها مع كل محيطها الجغرافي قد قويت وإزدهرت في العصر الفرعوني، وهو ماستوضحه مختلف جوانب الدراسة.

المبحث الثاني: الأسواق والحركة التجارية

إن تلك المبادلات التجارية التي كانت تحدث منذ عصر ما قبل الأسرات لا بد أن لها أماكن مخصصة لكن لم يتم التعرف عليها بصورة واضحة، في حين أن هذه الأماكن والتي تعرف بالأسواق نجدها خلال العصر الفرعوني واضحة المعالم من خلال ما تمدنا به بعض الوثائق وبالتالي فإن الحركة التجارية أصبح يعرف عنها الكثير خلال هذا العصر.

المطلب الأول: الأسواق

إن المعلومات عن أماكن الأسواق لا تمدنا بالكثير بخصوص هذا الموضوع على غرار ما نجده مثلا في بعض الحضارات الأخرى كالحضارة الإغريقية أو الرومانية، ومع ذلك فقد وجدت إشارات خاصة في الصور المنقوشة على المعالم المصرية تعطينا فكرة ولو بسيطة عن هذا الموضوع، حيث يمكن أن أستخلص منها أشياء تفيد في إلقاء نظرة على الأسواق المصرية.

فالسوق العمومية على حد قول "ديكمانس" (G. Dykmans) كانت بالنسبة لأشخاص الطبقة البسيطة المكان الملائم لإقتناء بعض المحصول أو بعض المصنوعات مقابل أشياء تزيد عن حاجتهم، فساكن المدينة كانوا يتزودون بالخضر لكامل الأسبوع والفلاح يرتاح من قفته المملوءة ويرجع إلى منزله وهو يحمل عطر أو حذاء لأيام العيد(496).

وقد كانت الأسواق على نوعين: أسواق أسبوعية تعقد في القرى وأخرى يومية في المدن، حيث كانت فيها المبادلات تعتمد على الأشياء البسيطة كالمواد الغذائية و الحيوانات و مصنوعات متنوعة ، و كانت تعرف نوعا من الإزدهار في حالة فيضان النيل وتعرف الركود إذا حدث وإن انخفض منسوب المياه ، وقلّة المزروعات، أي أنها ترتبط مباشرة بمياه الفيضان(497).

وبالتالي فالأسواق لم تكن حكرا على منطقة دون أخرى بل كانت توجد في كل مدينة وفي كل ضاحية، حيث كانت تعقد في مكان كبير يتيح للمواطنين والقرويين الإلتقاء دوريا لتبادل البضائع المتنوعة، وهناك أكثر من مقبرة تعود إلى زمن الدولة القديمة تعطينا مشاهد للسوق في الهواء الطلق دون أبنية مخصصة لذلك الغرض، وإلى غاية اليوم فهذه المشاهد هي الشهادات الوحيدة المصورة للمبادلات الداخلية، كما أشرت إلى ذلك في المدخل. إلا أن وثائق الدولة القديمة التي تمدنا بأسواق محلية هي كلها عبارة عن صور لأسواق قروية ولا تعطينا فكرة عن الأسواق الحضرية والتي من المحتمل جدا أنها كانت جد متطورة (498).

و مع ذلك كانت هناك أنواع أخرى من الأسواق وهي التي كانت تجرى فيها مبادلات خارجية، وهي الأسواق التي تقع على الحدود وتسمى مدن الأسواق، منها أسوان التي يعني إسمها السوق (سبين) (499). وبما أن صور الأسواق مُغَيَّبة خلال الدولة الوسطى فلا نستطيع أن نتصورها إلا أنه لا يمكن أن تكون قد اختلفت كثيرا عما كان يجري خلال الدولة القديمة، لكن مثل هذه المشاهد عادت للظهور من جديد خلال عصر الدولة الحديثة بأكثر وضوح، لكن لم تصور الأسواق العادية بل كانت تصور الأسواق على مستوى الموانئ المهمة والكبيرة وبجانبها كانت ترسم السفن.

فالموانئ- السوق كانت تعرف حركة صاخبة، فمثلا في مدينة "طيبة" عند وصول سفينة ما كان الميناء يعيش حركة غير عادية حيث نشاهد الكل يقوم بعمليات تجارية إما يشتري أو يبيع، وكانت المبادلات تجري في صورة جدال، أي أنها لم تكن تتم بهدوء وأخذ ورد بين المشتري والبائع، وهكذا يكون الجو مشحونا بالصخب والأصوات العالية(500)، كما إتضحت صورة أخرى خلال هذا العصر وهي وجود ما يشبه الدكاكين والمتمثلة في الأكشاك و هي مصنوعة من سعف النخيل و كانت توضع مثلما هو الحال اليوم في الأسواق

(497) – عبد الفتاح محمد وهيبة ، المرجع السابق ، ص. 308.

(498) – J.Pirenne , Y'eut-il des foires...?, Op-Cit , p.11.

(499) – فوزي مكاي ، الناس في مصر القديمة ، المرجع السابق ، ص. 103.

(500) – ن. ي ، تاريخ توت عنخ آمون ، المرجع السابق ، ص. 155.

الشعبية التي نجد فيها طاولات للبضاعة و يكون لها سقف، و يعتقد بأنها كانت تنشأ في أيام محددة، وهي تجاور أسوار الهياكل الدينية والمباني الملكية كالقصور مثلاً(501).

ولا يوجد تأكيد فيما إذا كانت أسواقاً موسمية (عبارة عن تظاهرات إقتصادية) أو أنها أسواقاً دائمة موجودة في مكان مخصص لها وسط المدينة بالقرب من المؤسسات المهمة. إلا أن "بيرين" في دراسته التي طرح فيها تساؤلاً فيما إذا كانت تتواجد مثل هذه الأسواق في مصر الفرعونية، توصل بأن الوثائق المتوفرة لا تسمح بإعطاء إجابة عن ذلك بصفة قطعية، و بالتالي لجأ إلى دراسة تنظيم التجارة في مختلف مراحل عصور مصر الفرعونية ليصل إلى النتيجة التي مفادها أن ذلك النوع لم يكن له وجود(502)، بمعنى غياب الأسواق الكبرى التي كانت تتجمع فيها البضائع التجارية من كل نوع و من مختلف الإتجاهات مثل سوق عكاظ، بل أن هذا المؤرخ نفى وجودها حتى في العصور اللاحقة مثل العصر الروماني من خلال دراسة خاصة بذلك العصر. و يرجع السبب في ذلك حسب اعتقاده إلى أن التجارة في مصر كانت دائمة، و أن أمنها كان مضموناً، و التجار بها تمتعوا بتسهيلات كبيرة في مجال النقل، و السوق ثابتة و جد واسعة و لأن تسهيلات مالية كافية وفرت من أجل أن تكون التجارة متواصلة دون حاجة لتجميع السلع في بعض الأماكن و عقد سوق لها في تاريخ محدد لتصبح تظاهرة إحتفالية مميزة(503). و يؤكد أن مصر عرفت كغيرها من شعوب العالم القديم الأسواق ولو أنها كانت بسيطة، لأن ذلك أمر حتمي لإجراء المبادلات. فكيف كانت الحركة داخل الأسواق؟.

المطلب الثاني: الحركة التجارية داخل الأسواق

من خلال الأسواق العامة الممثلة في المدافن الكبرى للأسرتين الخامسة والسادسة، التي تعطينا نظرة عن المبادلات يمكن أن نلاحظ بأن المبادلات كانت تحدث في الصفقات التجارية الدقيقة، هناك قرويين و فلاحين كانوا يتجمعون دورياً لمبادلة المحاصيل بأشياء مصنعة صغيرة(504). فكيف كان يمثل الباعة و المشترون في الأسواق؟.

الباعة كانوا يمثلون و هم جالسين أمام بضاعتهم المعروضة منها: خضر في قفف، حلويات، مساحيق التجميل و عطور، أسماك، و التي كان البائع يفرغها بعناية، وكذلك أساور و جواهر. أما المشترون فكانوا رجالاً و نساء، يحملون على أكتافهم أكياساً أو صناديق صغيرة تحتوي على منتجات يبادلونها ببضاعة معروضة(505).

و على ذكر إرتياد النساء الأسواق فقد ذكر "هيرودوت" بهذا الخصوص ما يلي: «...إختلف المصريون كل الإختلاف عن سائر الشعوب في عاداتهم و سننهم، فالنساء عندهم يرتدين الأسواق، ويمارسن التجارة أما الرجال فيبقون في البيوت و ينسجون»(506).

من خلال ذلك يبدو أن "هيرودوت" كان مستغرباً ومندهشاً من تواجد المرأة في ميدان المبادلات التجارية التي كانت في ذلك العصر لدى باقي الشعوب صفة مقتصرة على الرجال، أي من المهن التي مارسها الرجال، و يبدو أيضاً أن قوله فيه شيء من المبالغة، لأن الآثار المصرية تؤكد تعاطي التجارة في الأسواق من قبل الرجال و النساء.

على العموم فإن المبادلات في الأسواق المصرية وبالتحديد أسواق عصر الدولة القديمة لا تختلف عن العمليات لدى الشعوب المعاصرة التي كانت تعيش قبل إنتشار النقود، وهناك أمثلة حية عن العمليات التي تدور في الأسواق العمومية زمن الأهرامات، أي أن المبادلات كانت تحدث بالتراضي و رغبة البائعين، ومع ذلك فإنه بالنسبة لبعض المنتجات كانت هناك قيمة محددة(507).

إن صور الأسواق تعطينا فكرة عن المبادلات التجارية داخلها إبان العصر الفرعوني والتي حفظت لنا من خلال جدران المعابد، حيث كانت تبدو بها حركة مفعمة بالحياة، لأننا نجد مختلف البضائع معروضة للمبادلات، فهناك الإسكافي يبادل حذاء برغيف خبز مع خباز، وإمرأة هذا الأخير رسمت وهي تمنح أحد باعة السمك صندوقاً صنع من خشب مقابل سمكة، كما وجدت صورة في نفس السوق لإمرأة تبدو أنها إمرأة خراف

(501) – إليزابيث رايفشتال، طيبة... المرجع السابق، ص. 96.

(502) – J. Pirenne, Y'eut-il des foires...?, Op-Cit, p. 11.

(503) – Ibid, p. 23.

(504) – G. Dykmans, Op-Cit, t. 2, p. 293.

(505) – G. Rachet, dictionnaire de la civilisation..., Op-Cit, p. 65.

(506) – هيرودوت، فقرة 35.

(507) – G. Dykmans, Op-Cit, t. 2, p. 293.

و قد أعطت لطبيب كأسين في حين قدّم لها قارورة دواء⁽⁵⁰⁸⁾. و هناك نصوص هيروغليفية ترافق مشاهد الأسواق لكن للأسف فبعضها الذي كان مكتوبا فوق الأشخاص المرسومين جاء مبتورا، وهي على العموم تتناول في الغالب أحاديث تتعلق بمقايضة بضاعة بأخرى وكيفية عرضها من قبل البائع أو المشتري وكذا الأخذ والرد والإقناع⁽⁵⁰⁹⁾. وكان دخول البضائع إلى الأسواق يبدأ منذ الصباح الباكر حيث كان الأشخاص يأتون سواء مشيا على الأقدام أو على ظهور الدواب أو على سطح قوارب البردي وهم يحملون منتوجاتهم الصناعية: الريفي مع قفّته المملوءة بالخضار، والصياد مع سلال السمك، الحرفي الصغير محمل بنعال أو جرار من الطين المشوي أو أشياء مصنوعة من الخشب، زيوت ودهانات معطرة وحلي قليلة القيمة... إلخ⁽⁵¹⁰⁾. كما أن المبادلات البسيطة داخل الأسواق كانت تشمل بعض المنتوجات الأجنبية، وهذه الأشياء لدينا معلومات عنها خلال الدولة الحديثة من خلال ما أتى به كتاب "تاريخ توت عنخ آمون" حيث جسّدها في صورة حيّة، وكانت مثل هذه الأشياء تحدث بعد أن تأتي الجيوش من بعض غزواتها وهي تحمل غنائم، « فيعود القوم إلى تجارتهم وأسواقهم، فنرى هناك سيدة تبتاع حجرا أخضرا ورد من بابل ويشتري عجوز عبدا أتوا به من جزيرة كريت»⁽⁵¹¹⁾.

(508) – جيمس هنري برستيد ، العصور القديمة ، المرجع السابق ، ص. 46.

(509) – G. Rachet , Op-Cit , p.65.

(510) – G. Dykmans , Op-Cit, p. 247.

(511) – ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 51.

المطلب الثالث: تحول مراكز تجارية إلى مدن

ذكرت قبل قليل وجود نوع من الأسواق عند الحدود تجري فيه مبادلات السلع الأجنبية، و في حقيقة الأمر أن هذه المراكز تعود إلى زمن أقدم، فمن خلال الكلام عن التجارة في عصر ما قبل الأسرات كانت المبادلات التجارية تجري إنطلاقاً من نقاط معينة منها مثلاً التي تواجدت في جنوب مصر. وقد تحولت هذه المراكز التجارية مع مرور الزمن إلى مدن مهمة خلال العصر الفرعوني. مثل سوق مدينة "سيين"، كانت تجري فيها العمليات التجارية بين المصريين والنوبيين⁽⁵¹²⁾. فأسوان (SWNW) والتي تعني السهم لدى المصريين، ثم أصبحت "Syène" ثم "أسوان" والتي تقع بمصر العليا، كانت في العصر القديم عبارة عن ضاحية صغيرة، وكانت مقر سوق لعاصمة "إلفنتين"⁽⁵¹³⁾، إذ كانت نقطة إنطلاق ووصول قوافل التجارة السودانية، والتي كانت تقف على أبوابها لتزود المصريين بكل هذه المنتجات النادرة والثمينة⁽⁵¹⁴⁾. و إسم "إلفنتين" المصري هو Jeb yeb (الذي يعني فيل (عاج))، وهي مدينة تجارية قديمة، يأتي إليها النوبيون لتبادل سلعهم خاصة مادة العاج، التي يحصلون عليها من صيدهم ويبادلونها بالمنتجات المصرية⁽⁵¹⁵⁾. إن بلاد أسوان لها خاصيتها التجارية، فمن خلال أصل الكلمات التي أعطيت لها يتضح النشاط التجاري التقليدي للإقليم النوبي، فإذا كانت "إلفنتين" تعني العاج فإن أسوان وإسمها بالمصرية Souenet (Syène) تعني "تجارة". وهذه الأخيرة كانت بمثابة منطقة عبور ومبادلات تجارية نحو الصحاري التي تحوي الذهب في الشرق و باتجاه المناطق الوفيرة لأعالي النيل التي كانت مصدر فائدة للنوبة السفلى، و قبائلها كانت تعيش على تربية المواشي والمبادلات التجارية⁽⁵¹⁶⁾. فالمنطقتان "إلفنتين" و "أسوان" كانتا سوقين تلتقي فيهما تجارة مصر مع سلع النوبة.

ومن بين القواعد التجارية التي تحولت إلى مدن نجد "بوهن" وقد حولها الملك "سنوسرت الأول" إلى مستعمرة تجارية وراء الجندل الثاني مثل قاعدة "شات" (Shaat) في مملكة كوش⁽⁵¹⁷⁾. لا أغادر الجنوب دون أن أذكر أن هذا الملك قد وصل إلى الشلال الثالث وأسس هناك مدينة "كرما"، وكانت تحميها قلعة تعقد فيها سوق كبيرة تحت الرقابة المصرية، وقد جعل منها ذلك مدينة تجارية مهمة في تجارة الجنوب⁽⁵¹⁸⁾. وخلال الدولة الوسطى دائماً، نجد "هيراقليوبوليس" التي كانت تعد عاصمة وموقعها أفضل من موقع "طيبة"، نظراً لوجودها بين آسيا وحوض البحر المتوسط⁽⁵¹⁹⁾، فتحولها إلى مدينة راجع لأهميتها التجارية.

و هناك مدن أخرى لعب مركزها التجاري دور في أن تصبح مدناً مهمة في مصر، أذكر منها مدينة "أبيدوس" والتي كانت واحدة من المدن الأكثر أهمية في مصر ويرجع ذلك كما يقول "هنري" إلى الطريق التجاري الذي كان يمتد على يسار النيل إنطلاقاً من "مروى" لينتهي عند "أبيدوس" في مصر العليا والتي أصبحت فيما بعد المركز الرئيسي لتجارة العبيد الذين يجلبون من إفريقيا⁽⁵²⁰⁾.

إن إتواء النيل إلى الشرق عند المكان المسمى "الثنية" جعله منطقة قيام مدن تجارية نتيجة لأهمية الموقع، وبالإضافة إلى "قفط" هناك "طيبة" و "قوص" و "قنا"، وكل منها تقع بالقرب من البحر الأحمر من جهة، ومن جهة أخرى فهي تعد ملتقى لطرق وديان جافة تؤدي إلى غاية ذلك البحر، وأيضاً فإن طرق القوافل التي كانت تعبر تلك الوديان كانت إنطلاقاً من تلك المدن، والتي كانت تعبر وديان الصحراء الشرقية وعلى وجه الخصوص "وادي حمامات"⁽⁵²¹⁾. ويمكن أيضاً إضافة مدن أخرى مثل "إدفو" و "إسنا"، وكلها تقع عند

(512) – عبد الفتاح محمد وهيبه، المرجع السابق، ص. 310.

(513) – M. Damiano - Appia, l'Egypte..., Op-Cit, p.250.

(514) – G. Dykmans, Op-Cit, t. 2, p.282.

(515) – Erman et Ranke, la civilisation égyptienne, Op-Cit, p. 33.

(516) – G. Dykmans, Op-Cit, pp 282-283.

(517) – M. Damiano - Appia, Op-Cit, p. 228.

(518) – J. Pirenne, histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit, p. 82.

(519) – J.A.Wilson, Op-Cit, p. 119.

(520) – D.M.J. Henry, l'Egypte pharaonique..., Op-Cit, p. 500.

(521) – عبد الفتاح محمد وهيبه، المرجع السابق، ص. 299.

بدايات الطرق التجارية التي تعبر الصحراء الشرقية وهي نفسها الطرق المؤدية إلى المناجم هناك⁽⁵²²⁾. لكن الأهمية الأكبر والإزدهار التجاري المميز إرتبطا خاصة بـ "طيبة" و"قط" اللتان كانتا تشكلان سوقين كبيرين وكان إزدهارهما يتنامى مع العصور، فالأولى كانت عاصمة والثانية نقطة إنطلاق لأشهر الطرق التجارية في تلك المنطقة وهو طريق "وادي حمامات"، وبالتالي كان النشاط التجاري مكثفا فيهما. ولم تقتصر ظاهرة تحول مراكز تجارية (الأسواق) إلى مدن على المناطق الجنوبية والوسطى بل مست هذه الظاهرة المناطق الساحلية حيث نجد بالدلتا منذ عصر ما قبل الأسرات مدنا مهمة جدا على فروع النيل وعند مصباته في المتوسط، إن إزدهار مدن ساحلية مثل "ميليتيس" (Melétis)، "سايس" (Sais)، "بزيريس" (Busiris) وأخرى هو راجع للملاحة وللمبادلات التجارية مع السواحل السورية من جهة، ومن جهة أخرى مع أقاليم الصعيد⁽⁵²³⁾. ففي مدن الدلتا كانت تتقاطع وتتلاقى الشعوب المختلفة الآتية من أماكن بعيدة لبيع سلعهم للأثرياء المصريين. إن المبادلات بين الشرق والغرب كانت تشكل هنا سوقا دائمة تباع فيها القواقع للحصول على كهرمان الشمال، جلود الفهود الإفريقية أو مصنوعات من البرونز الآتية من "ترسيس" (Tarsis) ومن "قادس" (Gadès)، لدرجة أنه قيل بأن مصر في ذلك العصر كانت قد أصبحت ملتقى للتجارة الدولية⁽⁵²⁴⁾. ومن المدن الهامة في الدلتا نجد مدينة "سايس" (Sais) التي أصبحت المدينة الأهم مع بداية القرن الثامن ق.م، وازدهارها متأني من علاقاتها التجارية مع المدن الفينيقية، كما أنها تحولت لتصبح عاصمة زمن الملك "بوكوريس" (Bochoris)⁽⁵²⁵⁾. كما إشتهرت في هذه المنطقة مدينة أخرى وهي "بيتوم" (Pitom) ولكن بنيت لهدف إستراتيجي حيث إستغلت كمخازن للجلال التي تأتيها من جهات مختلفة، وكانت تخزن فيها المحاصيل وتتكدس فيها السلع الأجنبية منها الكهرمان وثروات أخرى، كما أنها كانت قلعة حقيقية وقاعدة عسكرية تحمي الطرق البحرية التجارية ضد الغارات⁽⁵²⁶⁾. وإن كانت المدن الشمالية القريبة من البحر تستمد أهميتها وشهرتها من التجارة الدولية فإن المدن البعيدة عن البحر والمتواجدة في مصر الوسطى كانت تعتبر أسواقا محلية⁽⁵²⁷⁾. بقي أن أشير إلى أن مراكز الحدود كانت عبارة عن أسواق تجارية فمثلا الحصون الموجودة في الجنوب قد أصبحت أسواقا مفتوحة ومنها "ناباتا"، التي تحولت إلى مدينة نتيجة للحركة التجارية النشطة وزيادة عدد سكانها⁽⁵²⁸⁾، كما أن "إخن" التي كانت عبارة عن حصن بني خصيصا لحماية المستودع الذي أنشأ لتعاطي التجارة مع الأفارقة كانت هي كذلك سوقا حدودية، ولو أن البعض نفى عنها تلك الصفة و إكتفى بوصفها حصنا فقط⁽⁵²⁹⁾. أما في الشمال فنجد ما يعرف بأسوار الملك قد لعبت أيضا دور المنطقة التجارية⁽⁵³⁰⁾.

المطلب الرابع: أماكن تخزين السلع

إن مخازن البضائع لم تكن من إبتكار العصر الفرعوني، بل إنها تقليد يعود إلى عصر أقدم، حيث نجد موقع "المعادي" كان بمثابة مركز تجميع للسلع التجارية والتي تتمثل في سلع وادي النيل وما يأتي من شبه جزيرة سيناء وفلسطين، وفي نفس الوقت كانت مركز توزيع بإتجاه التجمعات السكانية بوادي النيل وبإتجاه فلسطين. وتدل بعض الأواني الفخارية على أنها كانت مركزا تجاريا، فتلك الأواني كانت تستورد من فلسطين، كما كان للمعادي دور كبير في التجارة الداخلية بين جنوب وشمال البلاد⁽⁵³¹⁾. فالمعادي عرفت مستودعات

(522) – سيريل ألدريد، مجوهرات الفراعنة، المرجع السابق، ص ص. 65-66.

(523) – G. Dykmans, Op-Cit, t. 2, p. 262.

(524) – Z. Herman, peuples..., Op-Cit, p. 81.

(525) – J. Pirenne, les villes ..., Op-Cit, p. 43.

(526) – Z. Herman, Op-Cit, p. 81.

(527) – J. Pirenne, les villes..., Op-Cit, p. 42.

(528) – محمد إبراهيم بكر، صفحات مشرقية...، المرجع السابق، ص. 165.

(529) – J. Pirenne, Y'eut-il des foires..., Op-Cit, p.16.

(530) – B. Manley, Atlas historique..., Op-Cit, p. 48.

(531) – تريجر وآخرون، المرجع السابق، ص ص. 41-42.

كبيرة من المواد الأولية لأنه مع بداية صناعة المعادن، كان العمل يستدعي جريانا ثابتا ومهما للمواد الأولية خلال العصر "الكالكوليتي" (532).

أما في العصر الفرعوني فإن الأمور عرفت تنظيما أكبر نتيجة للوحدة والتقسيمات الإدارية وبالتالي عرفت مصر "بيت مال" ومخازن على درجة عالية من التنظيم، فبيت المال كان يتولى أمور الضرائب التي تجمع من أنحاء البلاد وتوضع إما في المخازن الرئيسية في العاصمة وإما في المخازن الفرعية بالأقاليم (533). وكانت الخزنة الملكية يشرف عليها موظف يحمل وظيفة أمين الخزينة ويعمل تحت إمرته مجموعة من الموظفين يدعون بالكتاب مهمتهم جمع الإيرادات من مختلف أنحاء البلاد، حيث كانوا يرسلون في اتجاهات معينة من أجل ذلك الغرض، ويقوم أمين الخزينة بعد ذلك بإدخالها إلى الخزائن، كما يشرف في نفس الوقت على توزيعها في المجالات التالية: « يجري توزيعها في سبيل إحتياجات الجيش، وموظفي الحكومة، وأسرة الملك الكبيرة، و في سبيل الصفقات التجارية الملكية » (534). و من خلال قصة النبي يوسف - عليه السلام - تتضح لنا مدى أهمية هذه الوظيفة حيث جاء في قوله تعالى: ﴿ إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ (535)، حيث أن هذه الوظيفة كانت تتطلب صدقا وشجاعة وحسن تدبير، خاصة أنها كانت تعمل على تخصيص جزء مهم من أجل مبادلاته بما تحتاجه مصر من جيرانها. كما أن أهميتها متأية من كونها كانت تتجمع فيها سلع مختلف مناطق العالم القديم .

ومن الوظائف الأخرى التي كانت لها علاقة ببيت المال نجد حاملي أختام الملك في الموانئ البحرية والنهرية، وقد عرفوا من خلال وثيقة ذكر فيها تسلسل الوظائف أيام "الرعامسة" (536)، وربما هم أنفسهم الذين يطلق عليهم صاحب كتاب " تاريخ توت عنخ آمون": موظفو دار العوائد، وحسب ما يذكر فإن مهمتهم كانت تتمثل في تحصيل الضرائب المفروضة على السفن الأجنبية، فعند رسوها كانوا يقتربون منها ويفحصون ما بها من بضائع ويقدرّون ما يجب دفعه، وكانت تظهر على رئيس هذه الفرقة الأبهة وهي دليل على قيمة وظيفته الإجتماعية، ويظهر ذلك من خلال لباسه الفخم والمميز عن مساعديه ويتحلى بالذهب ويحمل عصا (537). ويبدو أن هؤلاء كانوا يحصلون الرسوم على عمليات الإستيراد و التصدير التي كانت تحدث أثناء الدولة الحديثة وكذا على السلع التي كانت تعبر النيل في الإتجاهين، ويطلق على هذه العملية "المكس" أو "الدخولية" (538).

إن الإدارة المركزية للخزينة كانت تسمى دائما "البيت الأبيض" بأقسامها المختلفة: "مخازن الحبوب"، "البيت المزدوج للذهب"، " البيت المزدوج للفضة" ... إلخ، وكانت المستودعات والمخازن العامة تجمع فيها المداخل السنوية للفرعون، و كان نقل هذه المنتوجات من كل الأنواع بكميات ضخمة، يتطلب أساطيل حقيقية والتي كانت تصعد وتنزل بصفة مستمرة عبر النهر (539). وهناك مشاهد لدافعي الجزية وهم يحملون خاصة الذهب إلى العاصمة، وهو ما يبدو واضحا من خلال تصويره في شكل سبائك أو حلقات و أحيانا في شكل مسحوق (تبر) معبأ في أكياس جلدية (540). وكانت عمليات جمع الضرائب وحسابها عملية شاقة وصعبة لأسباب عدة منها كونها تدفع عينا فمن خلال هذه العملية يتم جمع كميات من الحبوب ومنتوجات زراعية أخرى، وكذلك رؤوس مواشي متنوعة وصناعات مختلفة، وبعد عملية الجمع ترسل بواسطة المراكب ليتم تقديمها إلى المخازن الملكية. وكانت الضريبة تأخذ على منتوج الأسماك والطيور والحيوانات بما يعرف العشر، بينما الذي يملك الأراضي الزراعية فإنه يدفع الضريبة على المنتوج الفلاحي وعن اللذين يعملون لديه في الأرض من عبيد و غيرهم ، و الأمر يعني كذلك جميع الصناعات وهي قليلة لأن ورشات الصناعات المهمة تابعة لأملاك الملك والمعابد (541).

(532) – A. Eggebrecht , Op-Cit , p.39.

(533) – محمد الخطيب ، مصر أيام الفراعنة ، المرجع السابق ، ص. 58.

(534) – إليزابيث رايفشتال ، المرجع السابق ، ص.ص. 161- 162.

(535) – سورة يوسف : آية 55 .

(536) – محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص. 57.

(537) – ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 153.

(538) – إليزابيث رايفشتال ، المرجع السابق ، ص. 164.

(539) – J.H. Breasted , histoire de l'Egypte..., Op-Cit , p.166.

(540) – سيريل ألدريد ، المرجع السابق ، ص. 66.

(541) – إليزابيث رايفشتال ، المرجع السابق ، ص.ص. 161 ، 163.

وهناك منظر لببيت المال وهو مبنى مهم كانت تجرى فيه عمليات وزن الأشياء المتحصل عليها من جمع الضرائب السابقة، وتتم هاته العملية بمراقبة مدير الخزينة (أمين الخزينة)، بينما يظهر من خلال المنظر المرسوم كاتبه في الخارج يحرق تقريراً عن العمليات المنفذة، ويظهر أيضاً في المشهد المحصول الذي يأتي وينقل إلى مستودع الجنوب، كل كيس يملؤه حاملوه يكون تحت أعين المراقبين ويتم تسجيله⁽⁵⁴²⁾. وكانت أكبر الكميات من معدن الذهب ما يدخل الخزينة من بلاد "واوات"، وهو ما تخبرنا به حوليات "تحتوتمس الثالث" المنقوشة على جدران المعبد الأكبر لأمون بالكرنك⁽⁵⁴³⁾، إن هذه الحوليات تذكر لنا أيضاً الجزيات الآتية من آسيا، بلاد سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى والمتمثلة خاصة في الأشياء المصنعة، أما الذهب الخام فكان قليلاً، وكانت الجزية الأكبر هي الآسيوية وتتمثل في العبيد (رجال، نساء وأطفال) ومواشي ومواد أولية: عاج، بخور، أخشاب متنوعة، خمور، زيوت، قمح، شعير، عسل... إلخ⁽⁵⁴⁴⁾.

وهكذا كانت الخزنة الملكية تغتني إضافة إلى ثروات البلاد الداخلية وما كان يجلب من بلاد النوبة، مما يأتي من آسيا. إلا أنه لا بد من الإشارة إلى أن هذه الأشياء لم تكن كلها جزيات بل كانت تأتي عن طريق مبادلات تجارية، فالجزيات كانت في حالات نادرة عندما تحدث حملات عسكرية مثلاً، لأن مصر كانت تدفع من خزينتها مقابل تلك المنتجات: الجلود المدبوغة، المنسوجات، البردي، الحبوب وصناعات مختلفة وكذلك الذهب، وقد كان المدخول العام للخزنة الملكية من هذا المعدن الثمين في السنوات الجيدة في الإجمال حوالي 5000 كغ⁽⁵⁴⁵⁾.

وقد كان لكل إقليم خزينته، لأن الأقاليم هي صورة مصغرة للدولة، وإدارتها أيضاً هي صورة مصغرة لإدارة الدولة، وبالتالي كانت لها خزائنها (بيت المال)، ومديرها كان شخصية مهمة، يُمارس المراقبة على كل الحرفيين: نجارين، فخّارين، حدّادين والذين يعملون لصالح حاكم الإقليم⁽⁵⁴⁶⁾، كما كانت الجزيات تخصص ليس فقط للخزائن الملكية الرئيسية والتي توجد بالأقاليم بل أنها كانت تدفع أيضاً إلى خزينة "أمون - رع" بـ "طيبة"، فعلى سبيل المثال إن مجموع قيمة الذهب المعطاة إلى معبد "أمون" من قبل الملك "تحتوتمس الثالث"، تقارب 14 طن⁽⁵⁴⁷⁾. كما قدرت مداخيل معابد "أمون" بـ "طيبة" بـ: 139 رطل من الذهب، 2675 رطل من الفضة و6422 رطل من النحاس، وكانت تملك أكثر من 421 ألف رأس من الماشية بمختلف أنواعها، أما مدخولها من المحاصيل الزراعية فقد قدر بمائة ألف مكيال حيث كانت تلك العوائد تحصل عليها من جراء ما تنتجه 169 مدينة وقرية، إضافة إلى ما كان يجلب من خارج البلاد عن طريق التجارة، هذا طبعا في عهد "رمسيس الثالث"⁽⁵⁴⁸⁾.

كما كانت هناك مخازن تتجمع فيها سلع التجارة الأجنبية ليعاد توزيعها في البلاد، ومن أهم هذه المخازن نجد "طيبة" التي كانت تضم خاصة السلع التي كان يجلبها التجار العرب من كل إفريقيا، فقد كانت بحق مركزاً تجارياً مهماً⁽⁵⁴⁹⁾. فرغم أن "تحتوتمس الثالث" إهتم بالتوسعات العسكرية في الشمال (بلاد سوريا) وكانت نتيجتها إثراء الخزينة بالجزيات من هناك، إلا أن هذا الإهتمام ظل منصبا على الاستفادة من خيرات تلك البلاد، حيث كانت مصر أثناء عصر الإقطاع ترسل كل سنة سفنها التجارية في رحلات منتظمة إلى الساحل الفينيقي لتحمل من تلك البلاد: الغنم، الماعز، الخشب، الخمر، الزيت وغيرها وهي سلع سورية، وأخرى كانت تأتي من بلدان أبعد⁽⁵⁵⁰⁾.

من جهة أخرى فإن الغنائم التي كانت تجلب من الحملات ضد الليبيين والنوبة كانت تمثل تكملات مهمة لبيت المال، هذا الأخير كانت تدخله الضرائب العينية أيضاً من مختلف أنحاء البلاد، ورغم كل هذه المداخيل الضخمة فإن المصاريف كانت بدورها مرتفعة وتنقل كاهل الخزينة، وكانت تتفق على المنشآت الضخمة

(542) - Erman et Ranke , la civilisation égyptienne , Op-Cit , p.127.

(543) - J. Vercoutter , les pistes de l'or..., Op-Cit , pp. 21- 22.

(544) - إيلزليث رايفشتال ، المرجع السابق ، ص.ص. 166 - 167.

(545) - J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 237.

(546) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 126.

(547) - J. Vercoutter , Op-Cit , p. 21.

(548) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص.241.

(549) - D.M.J. Henry , Op-Cit , p. 452.

(550) - جيمس هنري برستيد ، العصور القديمة ، المرجع السابق ، ص. 62.

وعلى العدد المرتفع للبعثات إلى المحاجر والمناجم⁽⁵⁵¹⁾. ومن ضمن مداخل الخزينة الملكية نجد الضرائب على السلع، فهذا "سنوسرت الثالث" بعد عودته من رحلة عسكرية حفر القناة لإعادة الاتصال بين النيل والبحر الأحمر، وذلك من أجل تسهيل دخول المنتجات الأجنبية الآتية عبر البحر، لغرض تسهيل أخذ حصة من تلك المنتجات. إذن فإن الخزينة الملكية لم تثر فقط من الحقوق المحصلة على البضائع المخصصة لمصر، ولكن أيضا من حقوق النقل (عبور) المفروضة على تلك البضائع والتي كانت تجلب بواسطة المراكب في موانئ البحر الأحمر وتجتاز جزء من الأرض المصرية لتنتقل إلى داخل إفريقيا⁽⁵⁵²⁾. لقد كانت المخازن المصرية بحق مخازن لمنتجات كل الأرض وليس فقط للمنتجات المصرية، والتي كانت توزع داخل مصر وفي كل أنحاء العالم القديم بفضل الحركة التجارية المستمرة.

المبحث الثالث: طبيعة المبادلات التجارية

كانت تلك نظرة مختصرة عن الأسواق والحركة التجارية بداخلها، وكتتمة للموضوع لابد من الإشارة إلى طبيعة المبادلات التجارية التي كانت تسود تلك الحركة، وقد تناولتها من جوانب ثلاثة: المقايضة، النقود، والأوزان والمقاييس.

المطلب الأول: المقايضة

إن المبادلات التجارية تولدت من الوفرة في الإنتاج الذي كانت تزخر به المخازن التي سبقت الإشارة إليها، وقد اتخذت في البداية صفة تبادل هدايا أي لم تكن ذات صفة تجارية بآتم معنى الكلمة، لكن مع مرور الوقت ظهرت مراكز تجارية ثم أسواق دائمة وأحيانا أخرى تكون موسمية يجتمع فيها الناس لمبادلة ما يحتاجونه بما يفيض لديهم من منتج. وعليه فإن المقايضة كانت أسلوب التعامل الوحيد قبل ظهور النقود سواء في مصر أو من قبل شعوب العالم القديم ككل.

وأغلب المؤرخين يرون بأن المبادلات التجارية عبر كل العصور الفرعونية كانت تتم عن طريق المقايضة، لكن هناك من يرى بأنها كانت الوسيلة الأساسية للتبادل في العمليات التجارية خلال هذا العصر، ولكن لم يجزم بأنها الوحيدة. إن المنتجات كانت تقتنى بطريقة بسيطة فالمزروعة منها كانت تجد مقتنين لدى الحرفيين، وهؤلاء كانوا يصرفون بضائعهم لدى الصيادين والفلاحين، أي أن هذه المبادلات كانت تكفل التكامل بين البائع والمشتري، وكانت تتم في الأسواق على نحو مبادلة إناء كبير بسمكة، حزمة بصل بمروحة، صندوق خشب بإناء من المرهم وهكذا⁽⁵⁵³⁾.

وهناك عديد الأمثلة الحية عن العمليات التي كانت تدور في الأسواق العمومية زمن الأهرامات وذلك من خلال رسومات جدرانها، والتي تعطينا فكرة عن وجود قيمة محددة بالنسبة لبعض المنتجات، فمثلا حصيرة تبادل بقطعة من نحاس، وبيضة كانت تساوي ملعقة من اللآلئ الزرقاء، والنبيذ يباع بالتجزئة ويستهلك في عين المكان، حيث يدفع ثمننا للقدح منه ملعقة من الملح. وأتساءل هنا ماذا يحصل عندما يتعلق الأمر بالعمليات المهمة؟، وهي الإشكالية التي طرحها "ديكمانس" حين قال: «كل شيء يسير بصورة حسنة في الأسواق عندما تكون العمليات متعلقة بأشياء متداولة وذات قيمة صغيرة، لكن ماذا كان يحصل عندما يتعلق الأمر بعمليات أكثر أهمية مثل بيع ثور أو إقتناء منزل أو قطعة أرض؟، لا يمكن أن نتصور كيف أن مالك ثور كان يتخلى عنه للحصول مثلا على كمية من القمح، أدوات زراعية محددة وأشياء أخرى، بما أنه وجد مقايض يملك هذه الممتلكات لأجل شراء ثور، ماذا نقول أيضا عن بائع عقار حتى في حالة حضور مشتري مبادر، إن كان هذا الأخير لم يقدم دفعة واحدة ما يرضي الطرف الآخر من ناحية كمية الأشياء ونوعيتها؟، في مثل هذه الحالات فإن التجارة بمعنى الكلمة تصبح مسألة معقدة»⁽⁵⁵⁴⁾.

ولو أن هذا الموضوع مهم ووجب طرحه إلا أن المسألة لم تكن بهذا التعقيد لأن المصريين في ذلك يبدو أنهم وجدوا الحل والذي يمكن أن نستخلصه من بعض المسائل، فإن كانت المبادلات الصغيرة تجري بنظام المقايضة، فإنه بالنسبة للعمليات التجارية المهمة مثل شراء الأراضي والمواشي فإنها تجري بقطعة من ذهب دون تحويله إلى نقود⁽⁵⁵⁵⁾.

(551) - E. Hornung , lecture de l'histoire égyptienne , Op-Cit , p. 32.

(552) - D.M.J.Henry , Op-Cit , p. 448.

(553) - J.H. Breasted , Op-Cit , p.99.

(554) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2 , pp. 249-250.

(555) - D. Maillet , les rapports des Grecs avec l'Egypte..., Op-Cit , p. 43.

وإن كانت المبادلات التجارية داخل الأسواق تتم بالمقايضة كما توضح ذلك الصور التي تمثل الأسواق، فعلى العكس من ذلك كان القصر الملكي يستعمل في المبادلات التجارية الذهب الذي يشكل إلى حلقات، ويكون وزنها محددًا، والتي عُدت بداية للنقود⁽⁵⁵⁶⁾، فهذه الوحدة التي عمل المصريون على وضعها، كانوا يقيّمون على أساسها سلعة مقابل أخرى وهي الوحدة التي يطلق عليها "دبن"، فمثلاً إذا كان وزن ثور يقدر بـ: 120 دبن، وحمار بـ: 40 دبن، فإن العملية تكون بمقايضة الثور بثلاثة حمير⁽⁵⁵⁷⁾. وإقتناء الأشياء الغالية كانت بالطبع عملية معقدة نوعاً ما، لأن الأمر كان يلزم إختيار أشياء مختلفة فمثلاً ثور يساوي 120 دبن من النحاس فإنه يدفع ثمنه: إناءين من الشحم يساوي الواحد منهما 60 دبن، 5 قفف من القماش الشفاف تساوي 25 دبن، ثوب من الكتان الجنوبي يساوي 20 دبن، و1 جلد يساوي 15 دبن⁽⁵⁵⁸⁾.

من جهة أخرى فإن المصريين إستغلوا الفائض في بعض منتوجاتهم لإستخدامه كأساس للمبادلات ومنها القمح كقيمة مثلى للمبادلات، وأيضاً إستخدموا الثور لنفس الغرض⁽⁵⁵⁹⁾، فكانت السلع تقدر بمقادير في شكل مكاييل من الحبوب رغم أن هناك سلع كانت تقدر بمعايير معدنية.

هذا عن المبادلات الداخلية، فماذا كان يدفع المصريون ثمن ما يحتاجون إليه من الخارج؟ إن المقايضة لم تستخدم فقط أثناء المبادلات في العمليات التجارية الداخلية بل أنها تعدت ذلك إلى أن تكون أساس المبادلات التجارية بين مصر والشعوب الأخرى، فمن خلال مشهد بالدير البحري يتبين كيفية مقايضة منتوجات "يوننت" بمنتوجات مصرية⁽⁵⁶⁰⁾، حيث كان المصريون يدفعون على العموم ثمن السلع الأجنبية ذهباً، وأشياء حرفية وحبوباً، والتي كانوا يملكونها بوفرة⁽⁵⁶¹⁾.

أما عن محاسن ومساوئ المقايضة، فمن جهة أنها كانت تقدم للتجارة البحرية فائدة وهي ضمان شحن المراكب بالبضائع وكذلك للقوافل عند العودة، إلا أنها كانت تمنع حركة تجارية سليمة ومستمرة كما أن في أغلب الأحيان لم تكن البضاعة المتحصل عليها بالتبادل قابلة للإستعمال من قبل المعني⁽⁵⁶²⁾.

المطلب الثاني: النقود

فإن كانت المقايضة أمر متعارف عليه و مسلم به في المبادلات التجارية الداخلية منها و الخارجية خلال العصر الفرعوني، فإن النقود على العكس من ذلك نجدها قد طرحت إشكالية في هذا العصر.

فهذا "بيرين" يرى بأن «النقود مسألة جد هامة، لأنه لا توجد تجارة حقيقية بدون نقود»⁽⁵⁶³⁾. إن أهمية النقود في الأعمال التجارية لا جدال فيها، إلا أن ذلك لا يعني نفي وجود تجارة باتم معنى الكلمة عند غيابها، كما أن النقود في ذلك العصر لا تعني بالضرورة المسكوكات المعدنية، ولذلك أجد أن الكثيرين يرون بأن مصر لم تعرف في عملياتها التجارية إستخدام مثل هذه النقود، أي أن مصر الفرعونية لم تعرف أبداً النقود المعدنية المسكوكة.

وهناك من يقول بأن مصر لم تعرف النقد في معاملاتها التجارية إلا في عهدها المتأخرة، لأن الإسكندر والبطالمة هم الذين نشروا إستخدامه في مصر، وأن سبائك الذهب والفضة والنحاس لم تعرف الظهور إلا في نهاية الألف الثانية ق.م⁽⁵⁶⁴⁾. وتبعاً لأصحاب هذا الرأي فإنه حتى النقود الإغريقية التي أستعملت من قبل الإغريق في كل مصر لم يُقتدى بها من قبل المصريين الذين ظلوا متمسكين بالمقايضة التي ظلت ميزة العصر الفرعوني، ولم تستعمل النقود في المبادلات إلا أثناء العصر اليوناني⁽⁵⁶⁵⁾، والدليل الذي أعطي على عدم وجود ضرب للنقود أثناء العصر الفرعوني هو أن الاقتصاد يعتمد على المبادلات، والتي تثبتتها النصوص

(556) – جيمس هنري برستيد، العصور القديمة، المرجع السابق، ص. 46.

(557) – محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى...، المرجع السابق، ص. 123.

(558) – G. Posener et autres, dictionnaire de la civilisation..., Op-Cit, p. 66.

(559) – ر. إنجلباخ، المرجع السابق، ص. 308.

(560) – C. Lalouette, Thébès..., Op-Cit, p. 252.

(561) – A. Eggebrecht, Op-Cit, p.223.

(562) – A. Gaudio, les empires de la mer, Op-Cit, p. 27.

(563) – J. Pirenne, Y'eut-il des foires...?, Op-Cit, p.12.

(564) – موسوعة تاريخ الحضارات، ص. 69.

(565) – ر. إنجلباخ، المرجع السابق، ص. 309.

المصرية التي تحتوي على عدد من شكاوى المزارعين بخصوص الضرائب المرتفعة المفروضة من قبل الحكام، في بلد كانت فيه المدفوعات تدفع عينا.

على كل فإن هذه الآراء رغم ما فيها من جوانب الصواب إلا أنها آراء مبالغ فيها، لأن الدلائل التاريخية تثبت بأن مصر قد عرفت النقود خلال فترة الحكم الفارسي، وقد أعتبر "داريوس" أول من أدخلها إلى مصر وهي نقود في شكل قطع من ذهب معروفة باسم "داريك" (Darique)، وذلك من أجل تنشيط المبادلات التجارية. ومع أن هذا الرأي يقرّ بوجود نقود خلال هذه المرحلة إلا أنه يرى بأن المصريين كانوا حذرين من كل ما يأتي من الخارج لذلك فهم لم يتقبلوها إلا مؤخرا أثناء حكم البطالمة⁽⁵⁶⁶⁾، وأكثر من ذلك يرى بأن العملة الإغريقية التي إنتشرت في مناطق البحر المتوسط خلال القرن السابع ق.م، لم يتقبلها المصريون ولم يتبنوها وكانوا ينظرون إليها فقط من ناحية قيمة المعدن الذي صنعت منه وليس كعملة للمبادلات، حيث كانوا يتعاملون معها كما يتعاملون مع المعادن الخام فكانت توزن وتقطع، وقد وجدت منها نماذج وهي محفوظة في بعض المتاحف، وقد جرت عليها تعديلات من أجل أن توافق أغراضهم كملائمة أوزانهم مثلا، وكانت تقطع وتضاف إليها كتابات هيروغليفية تحدد مقدار المعدن المكون لها وعلامات تشير إلى ألتهتهم⁽⁵⁶⁷⁾. أنا لا أرى أن هذا دليل على عدم تقبل المصريين للنقود الإغريقية، بل على العكس من ذلك هي إشارات واضحة إلى تقبلها خاصة وأنها وجدت أعداد كبيرة منها تعود إلى مدن مصرية عديدة.

ونفس هذا الرأي يؤكد من جهة أخرى بأن المصريين كانوا قد سکوا نقودا إغريقية بأنفسهم، وذلك في الفترة الأخيرة من عصرهم، والتي جاءت كضرورة لتغير السياسة الخارجية منها والداخلية، ولو أنها لم تكن من أجل تبنيها في المبادلات التجارية بين المصريين أنفسهم، بل كانت بهدف تسديد مستحقات الجنود الإغريق المرتزقة الذين إعتد عليهم "نكتابو الأول" وخلفاؤه أثناء الثورة التي حدثت ضد الفرس خلال الأسرة الثلاثين حيث لم يرض هؤلاء الجنود إلا بدفع أجورهم نقدا، الأمر الذي أدى بالملك "تاخوس" (تيوس بالإغريقية) في سنة 361 ق.م إلى أن يقوم بسك عملة أثينية من معدني الذهب والفضة تحمل اسمه، وكانت عبارة على سبائك، وهذا بعد تعديلات أجراها على أوزانها حتى تتلاءم مع التطورات الجديدة التي أجبرتهم على الدخول في علاقات مباشرة مع التجار الإغريق، وكانت العملة تدعى "نوب نفر"، والتي تعني "الذهب الجيد"، رسم الحصان على وجه وعلى الوجه الآخر علامة معناها جيد، وقد أصدرها صيرفي إغريقي، وبذلك تكون مصر قد دخلت مجال التداول بالنقود⁽⁵⁶⁸⁾.

وقد وجدت منها عشرات القطع الذهبية، وكانت بنفس وزن "داريك" وبذلك يكون المصريون قد سکوا نقودا قبل الإسكندر. وهناك من يرى بأن النقود قد ظهرت في مصر خلال العصر الصاوي ولكن إستعمالها لم يعمم بل كان محدودا، إضافة إلى ذلك ثبت تاريخيا التعامل بالنقود في مصر من خلال دور الصيارفة الفينيقيين خاصة، الذين كانوا متواجدين في الدلتا، وكانوا يعملون على إعارة النقود⁽⁵⁶⁹⁾.

وعلى ذكر الفينيقيين، فإن هؤلاء رغم إشتهارهم بالتجارة وكثرة تعاملهم التجاري مع مختلف شعوب العالم فإن طبيعة مبادلاتهم التجارية كانت عينية أي بالمقايضة، وأول عملة ضربوها كانت في "صور" حوالي منتصف القرن الخامس ق.م، ثم عممت في باقي المدن الفينيقية وبالتالي فلم يكن لهم إهتماما مبكرا بالتعامل بالنقود والتي كانت قد وصلتهم في وقت مبكر من قبل الإغريق، وبالتالي لم تكن مصر إستثناء في عدم تقبلها للنقود عند بداية ظهورها بل الأمر يبدو أنه قاعدة عامة عند شعوب العالم القديم المشهورة بالتجارة.

ورغم كل ما قيل فإن ذلك لا يمنع من أن مصر قد عرفت النقود في حالتها البدائية، لأنه وجدت قطع من المعدن الثمين غير مشغول والتي كانت تستعمل في الوزن، لذلك إعتبر البعض أن الحلقات من الفضة والنحاس التي كانت ممثلة في الرسوم الجنائزية دلائلا على قطع النقود⁽⁵⁷⁰⁾. وبالتالي فإن مصر عرفت النقود زما طويلا قبل بلدان العالم الشرقي الأخرى، وقد حدث ذلك على الأقل منذ الألف الثانية ق.م، حيث كان الوزن "شات" (Le shat) المصنوع من معدن الذهب كمادة قابلة للتعامل رفقة معادن أخرى أي كنقود تبادل،

(566) - H. Gauthier , l'Egypte pharaonique, Op-Cit , p. 215.

(567) - ر. إنجليباخ ، المرجع السابق ، ص ص. 310-311.

(568) - ر. إنجليباخ ، المرجع السابق ، ص ص. 211-212.

(569) - J. Pirenne , les villes..., Op-Cit , p. 45.

(570) - A. Eggebrecht , Op-Cit , p. 210.

وبذلك يعتبر نقدا حقيقيا وليس فقط قيمة حساب مستعملة نظريا لتقدير البضائع، فـ " ديكمانس " يرى بأن هذا الوزن يعود إلى العصر المنفي، ويعدّ بذلك أول نظام نقود ظهر في التاريخ⁽⁵⁷¹⁾. كما رأى البعض أن الحبوب كان لها دور النقود، حيث كانت تستعمل لشراء البضائع، فالنصوص المصرية تعطينا فكرة عن الأثمان فمثلا: نجار كان يقدر سريرا بـ: 5 أكياس من الحبوب، التابوت كان يساوي - حسب النوعية والنموذج - بين 5 و20 دينا من النحاس والدين يعادل بالتقريب نصف كيس من الحبوب. إذن فإن ثمن السلع كان يعبر عنه بالحبوب أو المعدن الثمين، وفي أغلب الأحيان بالنحاس لكن بالنسبة للأشياء الباهضة كان الثمن يقدر بمعدن الفضة أو الذهب⁽⁵⁷²⁾، وقد قال البعض بأن الجعارين (Les scarabées) المصرية كانت تستخدم كنوع من النقود لأنها كانت تختتم بإسم الملك⁽⁵⁷³⁾. لأجل كل ذلك وجب التعرف على مسألة هامة، وهي الأوزان والمقاييس التي تبناها المصريون لحل بعض الإشكاليات و لتسهيل المعاملات التجارية.

المطلب الثالث: الأوزان والمقاييس

إذا كان العصر الفرعوني لم يتميز باستعمال النقود المسكوكة إلا في أواخره ، فإن المصريين إستخدموا في شرائهم معادن نيابية إتفاقية لكل السلع، هذه المعادن كانت عبارة عن سبائك من ذهب وفضة والتي كانت تشكل في شكل حلقات وتوزن في موازين، هذه الحلقات كان لها وزن وبالتالي قيمة محددة (ثابتة)، حيث كان يعطى للذهب والفضة المخصصة للتجارة طيلة ذلك العصر شكل حلقات، ومن خلال تمثيلاتها على المعالم المصرية فإنها كانت ذات سمك متنوع جدا لكن بقطر محدد بحوالي 12 سنتم⁽⁵⁷⁴⁾، ولم تشكل هذه المعادن كحلقات فقط بل كانت أيضا بشكل أختام وسبائك وكانت أحجامها وأوزانها متنوعة إلا أن مجال إستخدامها كان محدودا لأن الوسيلة الشائعة كانت المقايضة⁽⁵⁷⁵⁾.

وقد كانت المكايل المصرية تحمل عددا من المصطلحات منها: "دبن" (Deben)، و"شات" (Shat) و"كيديت" ، وهي مثل التالنت عند الإغريق وكان وزنها يراقب عند إجراء العمليات التجارية لأنه سادت ظاهرة في العالم القديم وهي أن كل من يدخل الأسواق كان يحمل معه ميزانا⁽⁵⁷⁶⁾، وقد كانت وحدة قياس الأوزان المشهورة هي "الدبن" الذي كان يزن في المتوسط 91 غ وهو بذلك يقترب من الوزن البابلي⁽⁵⁷⁷⁾، وقد وجدت في بلاد العراق القديم دائرة خاصة تشرف على ضبط الأوزان و المكايل تعمل على مراقبتها وتنقش عليها الوزن المحدد لها⁽⁵⁷⁸⁾، وهو بدون شك نفس النظام الذي أتبع في مصر. وهذا يترجم أمرين أولا: إنتشار ظاهرة الغش في التجارة، و الأمر الثاني هو تواجد الدولة و مراقبتها الشديدة و حرصها على القضاء على تلك الظاهرة.

وكان المعيار النقدي في الدولة القديمة يستند على- ما يبدو- خاصة إلى الذهب، حيث كان " شات " (Le Shat) يزن 7,5 غ من الذهب، وضعفه هو "دبن" الذي كان يقدر بـ: 12 " شات"، أي حوالي 90 غ ، هذا التشابه كما ذكرت مع بابل أدى بالتساؤل فيما إذا كان ذلك تأثيرا آسيويا⁽⁵⁷⁹⁾.

كما وجدت وحدة قياس أخرى وهي "دبن" من النحاس والتي كانت تزن 91 غ⁽⁵⁸⁰⁾، وفي الأسواق المهمة في الدولة القديمة أي التي كانت مخصصة للمنتوجات ذات القيمة الكبيرة، فإن مثل هذه الحلقات سواء كانت من نحاس أو من ذهب كانت تستخدم كنقود، وبالتالي فهي تعتبر كحلقة أولى من النظام النقدي، فالدولة القديمة

(571) - G.Dykman, Op-Cit , t. 2, pp. 293-294.

(572) - A. Eggebrecht , Op-Cit , pp. 209 -210.

(573) - D.M.J. Henry , Op-Cit , p. 465.

(574) - Erman et Ranke , Op-Cit , pp. 623 - 624.

(575) - إليزابيث رايفشتال ، المرجع السابق ، ص. 78.

(576) - ر. إنجلباخ ، المرجع السابق ، ص. 309.

(577) - A. Moret , le Nil..., Op-Cit , p. 520.

(578) - محمد أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق ، ص. 239.

(579) - F. Daumas , la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 299.

(580) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 661.

كما ذكرت تميزت بوحدة قياس هما: " شات " و " الدين" (581). فهذه الأوزان هي نقود حقيقية لأن إستعمالها جار في الأسواق و لم تكن فقط نقودا تقديرية. كما أن مثل هذه النقود كانت متنوعة ، حيث وجد نظام وزن وقياس آخر خلال الأسرة الرابعة وهو " سيكل" (Sicle) والذي يساوي 7,32 غ وضعفه وزن 14,64 غ، و وحدة القياس هاته كانت قد إنتشرت في البلدان المجاورة ومنها " كريت" (582)، إذن ومنذ الدولة القديمة وجد إستخدام عيار للتقييم وكان من المعدن والذي كان يستخدم في شكل حلقات، حيث كانت الأشياء ذات قيمة تقدر بعدد من الحلقات سواء كانت من معدن الذهب أو النحاس.

و منذ عهد الدولة الوسطى و بعد أن كانت الحبوب تستخدم في تحديد الثمن أصبح الذهب يؤدي هذا الدور، و بعد أن كان الدين في الدولة القديمة من معدن النحاس فإن هذه الفترة شهدت إنتشار معدن الفضة والذي كان يعرف بندرته في العهود السابقة لأنه خلال الدولة الوسطى تم إستيراده بكثرة من آسيا، لدرجة أن الفضة أصبحت أرخص من الذهب في آخر زمن هذه الدولة (583)، حيث أصبح هذا الأخير يساوي مرتين أكثر من الفضة (584). ومن خلال إحدى البرديات التي تعود إلى نهاية الدولة الوسطى تكوّن لدينا صورة عن الأوزان في مصر وأنواعها والمعادن التي استخدمت فيها، فنجد أن دبنا واحدا من الذهب يزن 7,5 غ ويساوي 12 "شات"، والدين من الفضة يقدر بـ: 6 شات، ودين من الرصاص يقدر بـ: 3 شات والرصاص يساوي أقل من الفضة بمرتين وهذه الأخيرة تساوي بدورها مرتين أقل من الذهب (585). كما أنه منذ القرن 20 ق.م أستخدم عيار من الذهب يزن 13 غ، وهناك من يقدر وزنه بين 12,30 غ و 13,98 غ وفي المتوسط 13,14 غ وكان في شكل زيتونات، وهو يعد وحدة رابعة كانت محل إستعمال دائم في مصر ابتداء من الأسرة الثانية عشر، وقد إنتشر هذا الوزن في فلسطين و وصل إلى غاية بلاد اليونان (586). والملاحظ أن هذه الأسرة كانت قد تخلت عن عيار "شات" من الذهب الذي كان إستعماله جاري خلال الدولة القديمة، وتبنت وحدة أخرى من ذهب تزن 13 غ (587).

إن مقاييس التقديرات خلال الدولة الحديثة كانت بدورها من مواد مختلفة، فكان هناك قياس يسمى "دين" من النحاس يقدر بحوالي 90 غرام، وهناك وحدة قياس من الحبوب تسمى " كار " (Khar) أي كيس "Sac" وهي تقدر بحوالي 76 لتر (588)، وكان هناك "دين" من الفضة يقدر بـ: 22 "شات" (589). وقد إختلف خلال هذا العصر أيضا "شات" من الذهب (الذي ميز الدولة القديمة)، كما أن مصر خلال هذه الفترة (الأسرة 18)، تبنت نقودا كانت تستعمل من قبل مدن الدلتا، وهي نقود قائمة هذه المرة على عيار من فضة والممثلة في "كيديت" (kedet) يزن 9 غ وضعفه العشري هو "دين" (590). إن تبني الفضة كقياس نقدي يعد حالة إقتصادية بارزة، فمصر لم تنتج الفضة بل كانت تستوردها، كما أن نظام الأوزان هذا يعطي فكرة على أن مصر كانت تنوّع في قياساتها إذ إستعملتها حتى من معادن كانت تقتقر إليها ، مما يدل على أهمية هذه الأوزان في المجال التجاري لأنها تستخدم في تحديد أثمان السلع. و لم تنتظر مصر إختراع المسكوكات، بل وجدت حلا لما تطرحه المسائل التجارية من إشكالات من خلال التنوع في الأوزان لتقدير السلع. وربما لم تتفوق عليها الشعوب الأخرى التي تعد شعوبا تجارية في مثل هذا التنوع.

وعلى عكس الدولة القديمة، فإن الدولة الحديثة كانت تتخذ وحدة القياس من معدن الفضة وكان "دين" من الفضة يساوي 10 " كيديت " و هذا الأخير كان يزن 9 غ من الفضة، وقد عوض هذا الأخير وحدة القياس "

(581) – F. Daumas , Op-Cit , p. 197.

(582) – G. Glotz , la civilisation égyptienne , Op-Cit , p. 223.

(583) – نعيم فرح ، موجز تاريخ الشرق الأدنى...، المرجع السابق ، ص. 71.

(584) – F. Daumas , Op-Cit , p. 229.

(585) – G. Dykmans , Op-Cit , t. 2 , p. 253.

(586) – G. Glotz , Op-Cit , p. 224.

(587) – J. Pirenne , Y'eut-il des foires...?, Op-Cit , p.16.

(588) – J. Janssen , gagner sa vie , Op-Cit , p. 66.

(589) – F. Daumas , Op-Cit , p. 230.

(590) – J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 228.

الشاط " (591)، وأصبح " كيديت " يحدد أحيانا بـ 8,812 غ إلى 10,108 غ، و في المتوسط 9,46 غ وله ضعف عشري وهو الدبن (592)، وإبتداء من الدولة الحديثة فإن الذهب أصبح مستعملا كوسيلة تقدير أو دفع في المبادلات الكبيرة بينما في المعاملات البسيطة كانت تستخدم كتل من النحاس أو الفضة وأيضا أكياس من قمح أو شعير (593)، وقد ظهر " كيديت " الذي يقدر بـ 10/1 "دبن" من الفضة خلال الأسرة التاسعة عشر، وبما أنه ثبت تاريخيا أن المعابد كانت تطبع سبائك القرن السادس ق.م (594)، فإنني أعتقد أن هذا الأمر كان ينطبق على الأوزان التي ذكرتها ، أي أن المعابد كانت المكان الذي تشكل فيه مختلف الأوزان و مقاييس مراحل العصر الفرعوني.

وهكذا فإن ملوك الأسرة الثامنة عشرة كانوا قد قاموا بسياسة إقتصادية واسعة، منها إصلاحاتهم النقدية، حيث إنتقلت مصر من وحدة الذهب إلى وحدة الفضة وهي "كيديت"، و بما أن مصر لا تنتج الفضة فإنه كان لزاما عليها إستيرادها لأسباب تجارية (595). و هكذا فإن إستيراد هاته المادة لم يكن فقط من أجل مصالح الملك و ثرائه و تنوع كنوزه و حليه ، و لكن كانت أيضا لضرورات إقتصادية عملية.

من خلال هذا النظام للأوزان والمقاييس وتطورها فإننا نجد تشابها بينها وبين ما وجد في بلاد ما بين النهرين في إستعمال المعادن الثمينة في شكل حلقات أو سبائك من ذهب وفضة واللذان كانا يساويان بالنسب التالية: 1: 8 خلال القرن 28 ق.م ، و 1: 10 في بداية القرن 26 ق.م ، و 1: 7 سنوات فيما بعد، لتصبح 1: 6 خلال حكم حمورابي، كما أستعمل الشعير كوسيلة تبادل – مثلما إستعملت مصر القمح – و قد تميزت بلاد النهرين عن مصر بإستخدام التمور في المبادلات (596).

المبحث الرابع: التنظيم التجاري

ليس ببعيد عن إشكالية النقود في مصر هناك إشكالية أخرى مرتبطة إرتباطا وثيقا بها ألا وهي إشكالية التنظيم التجاري وبصورة أشمل موضوع القوانين بما فيها بالطبع الجانب التجاري، رأيت التطرق إليه أمرا أكثر من ضروري، لأننا نستطيع من خلال القوانين أن نكون صورة عن الحياة الإقتصادية والتجارية بصورة خاصة ومدى تطورهما، وسأتناولها بشكل مختصر وبما له علاقة مباشرة بالموضوع، من خلال طرح إشكالية القوانين التجارية في مصر، وما يمكن أن تمدنا به.

المطلب الأول: القوانين التجارية

يقال أن المصري القديم لم يكن على الإطلاق تاجرا ولا مشرع قوانين، فإلى غاية زمن "الرعامسة" فإن قانون الواجبات كان بدائيا (597). وبخصوص المجال التجاري فهناك من يرى غياب القوانين التجارية على أساس أنه لحد الآن لم يتم العثور على قوانين تتضمن تنظيم التجارة، ولا توجد وثيقة إقتصادية منجزة قانونيا تذكر قيمة نقدية تسمح بمقايضة عادلة (598)، فغياب إشارات إلى التجارة في القوانين المصرية ظل موضع دهشة من قبل الكثيرين، لأنه من المؤكد أن مصر عرفت قوانين وهذا أمر طبيعي في بلد عرف تنظيما في مختلف جوانب حياته خصوصا وأن الدلائل على ذلك موجودة من خلال وجود محاكمات أشارت لها بعض الوثائق وكان الملك شخصا يفصل في بعضها، إلا أن مصر لم ينسب إليها قانون على غرار ما عرف في بلاد ما بين النهرين و التي تعدّ بإعتراف الكل مصدر التشريع في العالم القديم ، لأن بلاد ما بين النهرين إشتهرت بوضع قوانين خاصة بالتجارة مكنت الباحثين من معرفة الكثير عن هذا الجانب، فجاءت تلك القوانين منظمة لها ولأنواع المعاملات، فقانون حمورابي يختص بجميع مظاهر الحياة الإقتصادية، فمن خلاله نجد أن الدولة لا توجه النشاطات الإقتصادية إلا عندما يتعلق الأمر بمصالحها الخاصة، فهذا القانون يحتوي على إجراءات

(591) – F. Daumas , Op-Cit , p.223.

(592) – G. Glotz , Op-Cit , p. 223.

(593) – Henri Stierlin , l'or des Pharaons , (Paris , 1993) , p.80.

(594) – F. Daumas , Op-Cit , pp. 228 - 229.

(595) – J. Pirenne , Y'eut-il des foires...?, Op-Cit , pp. 17-18.

(596) – D. Maillat , Op-Cit , p. 47.

(597) – E. Cavaignac , histoire générale de l'Antiquité , Op-Cit , p. 104.

(598) – F. Daumas , Op-Cit , p. 229.

تخص تقريبا كل مظاهر الحياة الاقتصادية، بما فيها النظام التجاري (599)، وأهمية هذا القانون تكمن في كونه يحتوي على 120 مادة تتعلق بالتجارة من ضمن مجموع 282 مادة، وقد عالج الكثير من النقاط كالأسعار والأجور وكثير من الأمور المتعلقة سواء بالتجارة الداخلية أو الخارجية على حد سواء بل شمل أيضا حق المرأة في التجارة (600)، لقد حوت قوانين "حمورابي" على نصوص كثيرة حددت العلاقات بين التجار ووكلائهم وتنظيمها وسيرها، وكل ما يتعلق بهذا الموضوع من تفاصيل، وإضافة إلى قانون حمورابي تم العثور على عديد الوثائق المتمثلة في دفاتر حسابات تتحدث عن وكلاء تجاريين في بلدان عديدة وما كان يجري بينهم وبين التجار في بلادهم عن طريق مراسلات وقروض وصفقات (601).

فلم يكن قانون "حمورابي" وحده الذي يعتبر الوثيقة التجارية القانونية في بلاد ما بين النهرين بل هناك عديد الوثائق، في حين أنه لم يصلنا أي نص قانوني مصري مماثل لقوانين بلاد ما بين النهرين، إلا أن ذلك لا يمنع من وجود قانون منظم، يسيّر شؤون الحياة بما فيها الناحية الاقتصادية ولو أن مصر تنفرد بكون الملك يعتبر هو القانون.

فالتنظيم التجاري في الدولة القديمة كان جد متطورا، حيث كانت توجد دفاتر الحسابات، دفاتر للطلبات (Commandes) ودفاتر للإيصالات (Reçus) محررة في شكل جيد، إضافة إلى الهبات والوصايا هناك عقود مكتوبة تنظم الأعمال (602)، ومن خلال الوثائق (المستندات القانونية) التي تم العثور عليها يمكننا التعرف على إجراءات بعض العمليات كالبيع والشراء فمثلا من يبيع منزلا فإنه يقبض قطعتين من قماش ذو نوعية مختلفة، وسرير واحد، وراع بقر يبيع بقرتين مقابل عمل عبد (603).

إن المصريين أنجزوا صيغا محددة كانت تطبق في كل العمليات التجارية، وهي تبدأ بالتاريخ: «السنة / الشهر / يوم حكم الملك»، وبعد ذلك يأتي التسجيل: «(أ) يبيع إلى (ب) شيء (ج)، (ب) دفع عينا شيء (د) يقدر بـ: (و) دين من النحاس، وشيء (ي) يقدر بـ: (هـ) دين من النحاس، والكل يقدر بـ: (و+هـ) دين من النحاس»، هذا النموذج من المخالصة كان يسمح بمعرفة ثلاثة أثمان: ثمن شيء (د) و(ي) وفضل المجموع ثمن شيء (ج) (604).

إن مثل هذه النصوص وغيرها كثير، تكشف بأن مصر عرفت تنظيما قانونيا على درجة عالية من الدقة - بما فيها المسائل التجارية- لكن المشكل الذي يعتريه هو عدم العثور على وثائق تحوي نصوصا قانونية صريحة كما حدث مع بلاد ما بين النهرين مما أدى بالاعتقاد بأن هذه الأخيرة عرفت أقدم القوانين في التاريخ، بل أدى بالكثير إلى نفي وجود قوانين في مصر بصفة عامة والتجارية منها بصورة خاصة، كما نسبوا للفينيقيين كونهم أول من صاغ قوانين المعاملات التجارية البحرية، والتي عرفت بإسم Rhodian Law، وهو إسم يعود إلى جزيرة رودس، ويتضمن: «أن أية خسارة يتكبدها قبطان بحري نتيجة محاولاته إنقاذ سفينة إذا تعرضت للخطر (غرق مثلا)، لا بد أن يتقاسمها جميع أصحاب البضائع الذين لهم بضائع في هذه السفينة بنسب معينة...»، و لازال هذا القانون ساري المفعول في الوقت الحاضر ويطلق عليه Gross "Average" (605)، هذا بالطبع بعض ما جاء في هذا القانون وليس كل ما نص عليه.

وفي هذا المجال فإن مصر لا تقل أهمية في أسبقيتها في إصدار القوانين لأن القانون الدولي الخاص (Le droit international privé) بزغ في مصر وكان ميلاده في الإتفاقية بين مصر وقبرص، نتيجة للمحاولات التي يقوم بها الحكام لوقاية ممتلكات أتباعهم الذين يموتون في أرض أجنبية، وكانت القاعدة قبل ذلك أن الملكية تعود إلى البلاد التي كان يتواجد بها المالك، لكن الإتفاقية بين مصر وقبرص كانت في هذه الحالة تحمي ممتلكات التجار القبارصة، فالرسالة التي أرسلها ملك قبرص (Alasia) يطلب بكل بساطة من ملك مصر أن يطبق الإتفاقية (606)، وتلك الرسالة كان قد أرسلها إلى الفرعون "أمينوفيس الرابع"، و كان ذلك العقد يعطي

(599) - D. Mailliet , Op-Cit , p. 48.

(600) - محمد ابو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص ص. 235-236.

(601) - أنور الرفاعي وشاكر مصطفى، معالم الحضارات...، المرجع السابق، ص. 37.

(602) - J.H. Breasted , Op-Cit , p. 99.

(603) - F. Daumas , Op-Cit , p. 228.

(604) - A. Eggebrecht , Op-Cit , pp. 210 - 211.

(605) - أحمد حامدة، التجارة الكنعانية...، المرجع السابق، ص ص. 74-75.

(606) - F. Daumas , Op-Cit , p. 207.

للتجار و القبارصة الذين يسافرون إلى مصر حق حماية الفرعون لشخصهم وممتلكاتهم، فهذه الوثيقة تبين لنا ماذا كان يحدث لممتلكات تاجر قبرصي يموت أثناء سفره إلى مصر، رفقة مركب محمل بالسلع، ومما جاء فيها: « إن مواطن من آسيا (قبرص) توفي في مصر وممتلكاته توجد في بلادكم بينما ابنه وزوجته يتواجدان في الأشياء، ألتمس من أخي أن يجمع ممتلكات هذا المواطن ويضعها بين أيدي مبعوثي»⁽⁶⁰⁷⁾.

ولو أننا لا نعرف التاريخ الذي عقدت فيه هذه الإتفاقية والتي كانت الأساس واللينة لهذا القانون، إلا أنه يمكن تحديدها على أقل تقدير بزمن الملك " أمينوفيس الرابع " وربما قبله بكثير، هذا إذا ربطنا بينها وبين وجود الأجانب بمصر والذي هو بالطبع سابق لهذا الزمن بكثير.

وهكذا فإن الوثائق التي من خلالها يمكن أن نستخلص معلومات حول قانون الأجانب، نجدها أكثر عددا خلال الدولة الحديثة التي تبدأ مع الأسرة الثامنة عشر (القرن السادس عشر ق.م)، ويمكن الإستنتاج بأن ما كان يجري بمصر كان يجري أيضا في مناطق أخرى كانت في وقت ما تابعة شكليا لمصر وهو دليل على أن القانون الدولي الشخصي يعود إلى ما قبل زمن الملك " أمينوفيس الرابع " .

إن هذا القانون كان أساسه إتفاقيات دولية منها الإتفاق الذي يحمي القبارصة عند تصدير سلعهم إلى مصر، فإذا توفي أحدهم أثناء رحلته إلى مصر فإن ممتلكاته تحصى من قبل مصلحة الأجانب وتعاد إلى قبرص، ومن المحتمل جدا أن مثل هذا الإتفاق وهذا القانون كان يطبق أيضا على الكريتيين والبابليين الذين يدخلون في علاقات تجارية متكررة مع مصر، و لم تكن هذه الإتفاقيات تتعلق فقط بموضوع وفاة أحد التجار الأجانب، بل كانت تتجاوزها إلى حمايتهم أثناء تواجدهم بمصر، و نستخلص من بعض الوثائق بأن الأجانب كان لهم في مصر قانونا منظما فقد كان بإمكانهم الإقامة في مصر، وتعاطي التجارة وما يتصل بها مثل الصيرفة ومنهم السوريون على وجه الخصوص الذين إشتهروا بهذا النشاط المهم في مصر والذي ساهم في إعطائهم وضعية إجتماعية معتبرة⁽⁶⁰⁸⁾.

وفي هذا المجال نجد بعض الإجراءات المتخذة من قبل الملك "بوكوريس" ، و هو إجراء مخصص لتيسير التجارة بحماية المدين من الدائن ، وبما أن التجارة هي بحاجة للقرض فإن "بوكوريس" حدد نسبة الفائدة بـ: 30 % بالنسبة للقرض خاصة الذي يتعرض للمخاطر الضخمة من أجل تسهيل التوسع التجاري، وهذا التشريع يفرض على المعابد التخلي عن قيمة الفائدة التي كانت تتراوح بين 100 و 120 %⁽⁶⁰⁹⁾.

إن الوثيقة بين ملك قبرص والملك " أمينوفيس الرابع " كانت من أهم الوثائق التي عثر عليها حول قانون الأجانب وتسمح لنا بإستخلاص بعض النقاط، إذ نرى من خلالها بأن التجار القبارصة لم يعتبروا أعداء و كانوا يتمتعون بحماية خاصة من قبل الملوك المصرية، حيث كان بإمكانهم إمتلاك ممتلكات والتصرف فيها، وفي حالة وفاتهم كان يعترف لورثتهم الذين يقطنون خارج مصر بتبني هذه الممتلكات. كما أن هناك العديد من الرسائل التي تم العثور عليها في " تل العمارنة " تكشف عن مسؤولية الملك تجاه ملك بابل، وهي تعود إلى عصر الملك " أمينوفيس الرابع " (إخناتون) دائما، حيث كان هذا الأخير مسؤولا عن كل ضرر يحدث للأجانب الآشوريين في الأراضي المصرية وحتى في البلدان التابعة له، ومما جاء في الرسالة التي وجهها "Bournabourish" ملك بابل إلى إخناتون قوله: « فيما يخص رسولي "Salmon" والذي أرسلته لك في بعثة فقد تعرضت قافلته للنهب مرتين في بلد تابع لكم، أتمنى من أخي أن ينظر في هذا النزاع، وعندما يحضر أمامك سفيرتي، إستدعي "Salmon" من أجل تعويض خسارته »، ومع ذلك فإن التجار القبارصة ظلوا يتمتعون بإمتياز خاص لأنه في حالة وفاة آشوري مثلا فإن ممتلكاته تؤول إلى الملك المصري⁽⁶¹⁰⁾.

إذن فإن ملك مصر من خلال الإتفاقيات الدولية كان مسؤولا عن أمن الرسل الرسميين الأجانب، ليس فقط في بلده ، لكن في المناطق الخاضعة له ، فالسفراء يكونون مزودين من قبل حكاهم بجوازات مرور (Sauf-conduits) التي تضمن لهم الحماية في البلدان التي يمرون بها⁽⁶¹¹⁾، كما تثبت الوثائق بأنه كانت توجد مصلحة متعلقة بالأجانب في مصر، ونحن نعرف بأنه أثناء الأسرة الثامنة عشرة إستقر العديد من الأجانب

(607) Jacques Pirenne , « le statut de l'étranger dans l'Ancienne Egypte », *Recueils de la société Jean Bodin*, t. 9, -

(1958), p. 95.

Ibid , pp. 100 -102. - (608)

J. Pirenne , les villes..., Op-Cit , p. 45. - (609)

J. Pirenne , le statut de l'étranger..., Op-Cit , p. 96. - (610)

F. Daumas , Op-Cit , p. 207. - (611)

وخاصة السوريين منهم تجار أو صيارفة في المدن المصرية، وقد لعبوا فيها دورا كبيرا في التجارة وفتحوا مصارف ومستودعات (612).

وكانت الإمتيازات التي تعطى لهم تحدث أحيانا مشاكل مع الأهالي وتخبّرنا الوثائق بأن الفرعون "أمازيس" (Amasis) عندما إعتلى العرش عمل على إيجاد حل لمشكل الإغريق والكاريين (Cariens) حيث مركز هؤلاء الأجانب في مدينة "نقراطيس" (Naucratis) إلى الجنوب من مدينة الإسكندرية، و الأبحاث الحديثة للموقع تؤكد هذا التمرکز، أين إستوطنها معمرّون منذ حكم الملك "بسماتيك الأول"، وقد قدّم "أمازيس" إمتيازات إقتصادية وتجارية مهمة لهم (613)، ويقول عن ذلك "هيرودوت": « وكان أمازيس محبا لليونانيين، وعبر لهم عن عاطفته تلك بأنه وهب للذين جاءوا منهم إلى مصر مدينة "نوقراطيس" » (614).

المطلب الثاني: مراقبة الحركة التجارية

إن مراقبة العمليات التجارية هي مسألة جد هامة لأنها تعطينا فكرة أوضح عن التنظيم التجاري في ظل معارفنا القليلة عن القوانين التجارية.

يرى "ولسون" بأن المبادلات التجارية بين القرى المجاورة تمارس دون إذن ملكي، إلا أن التجارة المهمة وخاصة التي تتم عبر الطريق النهري كانت مراقبة من قبل الملك الذي كان يرسل موظفين خاصين لأداء تلك المهمة (615)، كما يرى بعضهم بأن الدولة كانت تقوم بمراقبة كل العمليات التجارية من أجل الحصول على أرباح هذه العمليات (616)، كما أن الشرطة المكلفة بإستتباب النظام العام كان لها أيضا دور إقتصادي، يتمثل في مهمة مراقبة العمليات التجارية والأوزان والقياسات في الأسواق وردع الغش، وقد وجدت بعض المشاهد تمثل وكلاء القصر الملكي يفتشون في أحد الأسواق عن خشب إرز لبنان ويكتبون بذلك مذكرة عن ثمنه (617)، كما أن حلقات المعدن كانت تراقب أيضا، ففي كل مكان من الأسواق تواجدت فيه إلا ووجد الوزّانون والكتاب وهم منشغلون يراجعون الوزن وتدوينه في السجلات (618).

إن المراقبة تعدت الأسواق العادية إلى المبادلات التي تحدث في الموانئ مثل ميناء "طيبة" عند قدوم السفن إليه، وكمثال على ذلك نذكر أنه عندما يتعلق الأمر بمبادلة بضاعة بحلقات من معدن سواء كانت نحاسا أو فضة أو ذهباً وبعد إتفاق البائع والمشتري بعد جدال ومساومة فإنه تجرى عملية وزن تلك الحلقات المعدنية وهذا تفاديا للغش من خلال ميزان يكون مخصصا لهذا الغرض، ففي إحدى الجهتين توضع "الحلقات" وفي الكفة الأخرى موازين في هيئة رؤوس الثيران (619)، لكن لم يشر ضمن هذه المعلومات إلى من كان يقوم بعملية المراقبة، إلا أن الأمر كما يبدو لي كان يحدث من قبل فرقة من موظفين توكل لهم تلك المهمة ويرافقهم أفراد من الشرطة، وهو ما يشبه بالتقريب عمليات المراقبة في أسواق العصر الحالي.

و بالنسبة للتجارة الخارجية فإنها كانت مراقبة بشدة من قبل السلطة عند مراكز الحدود مع بلاد سوريا (فلسطين) والنوبة (620).

فالمملك كان يحمي إحتكاره التجاري بإنشاء جمارك عند الحدود، والتي كانت منظمة جيدا في "الفنتين"، حيث كان يوجد مأمور عند باب البلدان الجنوبية الأجنبية، و في شرق الدلتا كان يقيم آخر عند باب البلدان الأجنبية الشمالية، وبدون شك هناك ثالث في الغرب عند باب البلدان الأجنبية من جهة البحر، إنهم المدراء العامون للأقسام الجمركية الثلاثة الكبرى. إن هذا النظام المهيكل و الشديّد الدقة بدأت بوادر بزوغه منذ الدولة

J. Pirenne , Op-Cit , p. 94. – (612)

N. Grimal , Op-Cit , p. 468. – (613)

– هيرودوت ، فقرة 178. (614)

J.A. Wilson , Op-Cit , p. 78. – (615)

F. Daumas , Op-Cit , p. 222. – (616)

– ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 51. (617)

Erman et Ranke , Op-Cit , p. 624. – (618)

– ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 155. (619)

E. Cavaignac , Op-Cit , p. 104. – (620)

الوسطى، و وصل إلى كماله في العصر الصاوي⁽⁶²¹⁾، فحدود مصر كانت عبارة عن حزام جمركي، وهذا أمر طبيعي في مملكة ذات إقتصاد الدولة.

و هناك معلومات تعود إلى زمن الدولة الحديثة تفيد بوجود مصلحة عند الحدود ، مكافئة بتسجيل كل الأشخاص الذين كانوا يدخلون البلاد و الذين يخرجون منها ، و يشرف عليها ضابط ، فمثلا على الحدود الفلسطينية يسجل إسم وهوية ومهنة الأشخاص الذين يعبرون الحدود نحو سوريا. إن المعلومات عن وجود هذه المصلحة عرفت من خلال بردية "أناستازي" والتي درسها " برستيد" في كتابه (Ancients Records)⁽⁶²²⁾.

أما المركز الجمركي في الجنوب فإنه نقل أيام الدولة الوسطى من "أسوان" إلى "إخن" عند وادي حلفا، وبذلك تحولت لتصبح المركز التجاري الأهم في الجنوب، وبالتالي نقطة جمارك هناك⁽⁶²³⁾، وعند الحدود كان يسجل كل من يدخل في الدفتر حتى الأجانب الذين كانوا يباعون كعبيد إلى الخواص⁽⁶²⁴⁾.

ويبدو أن التجارة خلال الدولة الحديثة كانت بحاجة أكثر إلى حماية و إلى وضع قوانين ، فنجد "أمنحوتب" (Amenhotep) كان قد أحدث جمارك عند مصبات نهر النيل في البحر المتوسط والتي كانت لها مصلحة في عين المكان يقوم بالإشراف عليها موظفون. وبإستثناء السلع المخصصة للملك فإن كل البضائع كان يلزم عليها دفع الضرائب و التي كانت تدخل الخزينة ، و كانت تعد مصادر هامة من المداخل لكن لا يوجد توضيح عن مقدار تلك الضرائب على السلع التجارية⁽⁶²⁵⁾.

إن إنشاء المكاتب الجمركية عند كل مصبات النهر يدل على أن إمتداد المراقبة كان واسعا، وكان يتطلب وجودا متواصلا لجيش حقيقي يعمل على حماية هذه المكاتب المخصصة لمراقبة التجار الأجانب والتي كانت مشكلة من موظفين مصريين مختارين بدون شك من طبقة المترجمين. هذه الطبقة كانت تراقب بعناية كل الواردات و ليس فقط الأشخاص، إلا أنه من خلال أحداث العصر المتأخر ونتيجة لكثرة توافد الإغريق فإنه خصصت مدينة تتم فيها الجمركة البحرية، حيث فرض عليهم المرور عبر الفرع الكانوبي للوصول إلى "نقراطيس" ، و بالتالي فالمدينة الجمركية كانت "كانوب" أو في نقطة بالقرب منها تقع على ذلك الفرع⁽⁶²⁶⁾.

لكن هناك من يحدد هذه المدينة الجمركية بـ: "هونيت" (Hounit)، حيث كانت كل المنتجات الإغريقية التي تدخل مصر كسلع تجارية بما فيها الأواني الفخارية و التي كانت بأنقتها تعتبر كموضة لدى الطبقات الميسورة، تفرض عليها الضريبة⁽⁶²⁷⁾، و تقدر بعشر (10/1) من الذهب و الفضة و الأخشاب و كل المنتجات المصنعة و كل الأشياء التي كانت تأتي من قبل الإغريق عبر البحر المتوسط و تدفع لخزينة تلك المدينة. وهي على نوعين أولها المكوس و التي كانت عبارة عن حقوق المرور بالمراكب عند دخولها النهر، و الثانية هي حقوق الإستيراد المطبقة على المواد الأولية و على مختلف السلع التي توجه إلى البيع داخل البلاد، وتحصيلها يبدو أنه كان سهلا نتيجة لمنع البحارة الإغريق من العبور عبر أي طريق آخر إلا الفرع الكانوبي، ولو أن نصب نقراطيس قد أفادنا عن حالة التنظيم التجاري والتنظيم الجمركي، إلا أن هذا النصب لا يعطينا فكرة عن الضرائب كيف كانت في وقت سابق، وهل أنها إرتفعت أو إنخفضت، و لو أن المرجح أنها بقيت ثابتة عند نفس النسبة⁽⁶²⁸⁾.

إن كل ذلك كان قد قام به الفرعون "أمازيس" من أجل مراقبة تجارة الإغريق ببسر ، وعندما تطورت التجارة الإغريقية منع على الهلنيين دخول مصر إلا عبر الفرع الكانوبي، ولإسترجاع تقليد سابق فإن الملك "نكتنبو" أمر بدوره بدفع عشر من الذهب و الفضة و الخشب ومن كل ما كان يأتي عبر البحر، وكل ما كان

(621) - F. Daumas , Op-Cit , pp. 223 -224.

(622) - J. Pirenne , le statut de l'étranger..., Op-Cit , p. 93.

(623) - محمد إبراهيم بكر ، المرجع السابق ، ص. 163.

(624) - J. Pirenne , Op-Cit , p. 99.

(625) - J.H. Breasted , Op-Cit , pp. 349 - 350.

(626) - D. Maillet , Op-Cit , p. 146.

(627) - W. Culican , Op-Cit , p. 147.

(628) - D. Maillet , Op-Cit , pp. 145 - 146 , 149.

يجمع يذهب إلى بيت المال في المدينة المسماة " تانيس " (Thanis) و التي كانت عاصمة آنذاك، والعشر هو ضريبة قديمة كانت تفرض كذلك على الواردات الآتية من الجنوب في "الفتنين" (629).

إن مهمة تحصيل الضرائب كانت تقوم بها الشرطة وهي مفروضة على السلع التجارية الآتية من المناطق المجاورة عند دخولها مصر وعلى الحدود عند مداخل فروع النيل وحدود الدلتا الشرقية (ربما عند ثارو) وتجمع الضرائب من طرف الشرطة (630). وهذه الضرائب كانت تذهب - كما سبق و أن ذكرت - إلى بيت المال وكذلك إلى الآلهة في المعابد.

ومن بين الأشياء التي كانت تشكل مادة ضريبية إجبارية على النوبيين خلال الدولة الحديثة القرون من نوع النسانيس وGuenons والتي كانت تصطاد من غابات السودان (631).

على كل فإن مصر إتبعَت أسلوب الإعفاء الجمركي على التجار القبارصة وذلك من خلال عقد تجاري حدث زمن الملك "أمينوفيس الرابع" وملك "ألسيا" و الذي من خلاله يوافق للباعة ولمرآكب سكان الجزيرة الإعفاء من الحقوق الجمركية بمصر، وقد كانت الواردات السنوية من البحر المتوسط تتجاوز 500 تالنت من الأخشاب و30,000 كلغ من النحاس (632).

ويبدو أن ملك قبرص كان يتدخل بنفسه لتوفير كمية النحاس والأخشاب الواردة إلى مصر حتى يحصل على إعفاء للتجار والمرآكب القبرصية من الجمركة (633)، نفهم من ذلك أن الملك المصري كان يشترط مقابل حصولهم على الإعفاء بأن تتوفر له الكميات التي يطلبها، خاصة من مادتي الأخشاب و النحاس.

في ختام الكلام عن مراقبة العمليات التجارية، ألاحظ بأنها كانت مشددة طيلة العصر الفرعوني، وكانت تحدث في عديد الأماكن سواء في الأسواق أو في الموانئ أو الحدود البحرية والنهرية والبرية، كما تتجلى حقيقة تنفي ما ذهب إليه البعض من أن النظام الجمركي لمراقبة التجارة عرف خلال الدولة الوسطى وإزداد خلال الفترات اللاحقة، وبرز بصورة أكثر خلال العصر الصاوي، حيث أن الفرق الجمركية التي كانت في أسوان تحولت لتصبح خلال الدولة الوسطى في مناطق أبعد في بلاد النوبة ومنها "إخن"، وكانت تتبع إمتداد أقصى نقطة في حدود مصر الجنوبية، وعليه فإن ذلك يثبت بصورة قطعية أن نظام مراقبة التجارة عند الحدود عرف منذ الدولة القديمة، هذا إن لم تكن بدايته في زمن سابق. وبما أنه مورس منذ بداية العصر الفرعوني في الجنوب فإنه بدون شك كان ساري المفعول أيضا في كل المناطق الحدودية في نفس الفترات الزمنية.

المبحث الخامس: الإحتكار التجاري

في هذا المجال تختلف مصر عن باقي شعوب العالم القديم، التي كانت فيها طبقة التجار واضحة من خلال عديد النصوص والقوانين، بينما نفى جل المؤرخين وجود مثل هذه الفئة في مجتمع مصر الفرعونية، والبعض الذي أنصفها رأى بأن الملك كان هو المحتكر للتجارة. فماذا عن هذا الإشكال؟، وهل فعلا لم يوجد تجار بمصر ولو في فترة معينة؟، هل يمكن إعتبار مصر ذات خصوصية في هذا المجال وبالتالي ففئة التجار تحدد بناء على هذه الخصوصية؟.

المطلب الأول: مكانة التاجر الاجتماعية

إن تسمية تاجر في اللغة الأكادية يعبر عنها بكلمة "Tamkàrum"، وهي إستقاق للفعل "Makàru" والذي يدل على عمليات التبادل التجاري. ونجد كل اللغات السامية تستخدم هذا اللفظ وتعني به نفس معناه في اللغة الأكادية، حيث نجده في اللغتين "الأوجاريتية" و "العبرية" بمعنى (يبيع)، وبمعنى (يشتري) في اللغة الأرامية، أما في اللغة العربية فهو (يحتكر) (634). وفي النصوص المصرية فإنه لم يوجد شخص يسمى بأتعا أو تاجرا إلا ابتداء من الدولة الحديثة، ويبدو أنه دائما كان في خدمة مؤسسة وهي على العموم معبد (635).

(629) - G. Posener et autres , Op-Cit , p.119.

(630) - محمد بيومي مهران ، الحضارة المصرية...، المرجع السابق ، ص. 126.

(631) - G. Posener et autres , Op-Cit , p. 268.

(632) - J. Pirenne , le statut de l'étranger..., Op-Cit , pp. 94 - 95.

(633) - J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 238.

(634) - عيد مرعي ، « التاجر و نشاطاته في العهد البابلي القديم » ، دراسات تاريخية ، 23 و 24 ، (1986)، ص. 138.

(635) - J. Janssen , Op-Cit , p. 62.

إن غياب ذكر التاجر في النصوص المصرية القديمة وعدم وجود قوانين تتعلق بالتجارة الداخلية يعني أن التاجر لم تكن له مكانة إجتماعية متميزة، وقد فسّر ذلك بأنه لم يكن له دور يذكر في الإقتصاد، ولم يرد ذكر للتاجر في النصوص المصرية القديمة إلى غاية نهاية الألف الثانية ق.م⁽⁶³⁶⁾، فرغم وجود ذكر في النصوص المصرية حول البعثات التجارية إلا أن التاجر لم يكن له إهتمام خاص وبروز واضح ولا يتحدث عنه كصاحب مهنة بذاتها⁽⁶³⁷⁾، فالعمل الخاص في مصر غير موجود، لأن قطاع الأعمال الخاصة والمؤسسات التي تسيّر من قبل شخص واحد أو مجموعة من الأفراد كان غائبا تماما ولم يعرف ولو مثال واحد عن ذلك في مجالات مثل: النقل، التجارة، الصناعة أو إستغلال المناجم، فالورشات الكبيرة تنتمي إما إلى الدولة أو إلى المعابد⁽⁶³⁸⁾.

و مع ذلك فالقليلون أقروا بوجود أشخاص يعتبرون تجارا على الرغم من ذلك الغياب الواضح والصريح للتاجر كفئة إجتماعية من خلال المخلفات المصرية، ولذلك فسر البعض عدم تمثيلهم في مصر الفرعونية بأن هؤلاء لم يكن بإستطاعتهم إنشاء مدافن فخمة على منوال النبلاء، ومع ذلك يعتقد هذا الرأي بوجودهم في المدن الكبرى أين كانت تتمركز فيها التجارة، وأنهم كانوا موجودين منذ عصر الأهرامات حيث تبين ذلك من خلال وجود عقد بيع عقار ثمين. بالإضافة إلى كل ذلك يقول هذا الرأي بما أنه وجدت في مصر تجارة داخلية ولو أنها لم تكن تمارس إلا في مساحات محددة، فبدون شك هناك حرفيون أحرار لهم دكاكين من خشب في حي العاصمة، ويعيشون من كل ما يمكن أن يجلبه لهم الزبون اليومي، أو العامة الزائرون للأسواق، لكنهم لم يبسطوا أعمالهم بصورة جيدة ولم يدفعوا صناعتهم من أجل تكديس الإنتاج. زيادة على ذلك فإن الفلاح كان يمارس الإقتصاد البيتي و يجلب إلى السوق الفائض من الخضر ومن جهة أخرى هناك الحرفي الذي يبادل في حانوته الخشبي أو في السوق منتجات صناعية مقابل مواد غذائية أو صناعات أخرى⁽⁶³⁹⁾، وكإستثناء كان يوجد تجار مثل "بيب"، وهو من طبقة متواضعة والذي إغتنى نتيجة لتعاطيه التجارة، حيث كان ينقل بضاعته على ظهور الحمير أو في المركب، وأنشأ مستودعات وقد وصل أخيرا إلى أن يصبح وزيرا لأحد الملوك خلال الدولة الوسطى⁽⁶⁴⁰⁾، وكان يتعاطى تجارته على طول النيل والتي جنى منها أرباحا كبيرة، مما لفت إليه أنظار الملك الذي قرّبه منه ليساهم معه في إعادة بناء المملكة، وقد حدث ذلك زمن الأسرة الحادية عشرة⁽⁶⁴¹⁾، فهذا المثل يدل على وجود تجار خواص في مصر. كما يعتقد بأن الرحلات التجارية التي حدثت خلال الدولة القديمة بإتجاه النوبة، رغم أن قادتها لم يقوموا بعملهم ذاك لحسابهم الخاص بل كان لفائدة الملك، إلا أنهم مع ذلك يعتبرون تجارا⁽⁶⁴²⁾.

إن وجود التجار في مصر يعود إلى فترة أبعد من ذلك وتحديدا إلى عصر ما قبل التاريخ، فقد عدّ أناس تلك الفترة بأنهم كانوا يتمتعون بثروات وافرة ويعيشون في رخاء ويسر، وبالتالي كان أن وجد منهم تجار ملوكا أساطيل نقلوا فيها السلع عبر طول النيل من تجمع إلى آخر، حتى وصلوا إلى مناطق أبعد شمالا وجنوبا. أنظر التجارة في عصر ما قبل الأسرات - . وهناك من يرى بأن تطور تجارة الخواص، إلى جانب تجارة الدولة كان متوسطا خلال الدولة القديمة⁽⁶⁴³⁾، لكن مع بداية الدولة الوسطى وأثناء الأسرة الحادية عشرة فإن الملك كان يستدعي تجارا لجعلهم أمناء للخزينة وكوزراء له مثل "بيب" الذي ذكرته قبل قليل، كما وجدت خلال هذه الدولة طبقة بين الطبقة الإقطاعية للنبلاء والكهنة وبين طبقة القرويين والحرفيين، وهي نوع من البرجوازية مشكلة من سكان المدن: تجار وموظفين ومزارعين و ريفيين كبار⁽⁶⁴⁴⁾، وهذه الطبقة تتضح جليا خلال عهد " سنوسرت الثالث " الذي يدعى " خع- كاورع " والذي عدّ عصره أزهى عصور الدولة الوسطى، وهي طبقة وسطى تضم الحرفيين والتجار وصغار المزارعين والذين كسبوا ثروة وأهمية، وهو ما

(636) - عبد الفتاح محمد وهيبة، المرجع السابق، ص.307.

(637) - محمد أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص.122.

(638) - J. Janssen , Op-Cit , p. 62.

(639) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2 , pp. 250 - 251, 293.

(640) - G. Rachet , Op-Cit , p. 65.

(641) - J. Pirenne , les villes..., Op-Cit , p. 39.

(642) - محمد أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص.122.

(643) - E. Hornung , Op-Cit , p. 44.

(644) - H. Gauthier , Op-Cit , p. 121.

تؤكد التماثيل المتعلقة بهم و الألواح النذرية التي كانت تحمل أسماءهم، والذين كانوا يتقربون بها إلى الآلهة في معبد أوزيريس في "أبيدوس" (645). وهناك من يقر بوجود التجار ويعتبرهم وسطاء، فبعضهم على ما يبدو كان عبارة عن موظفين وكان يشار إليهم في بعض النصوص (646).

من جهة أخرى فإن بعض المؤرخين يرى أن الخواص كانوا يعقدون علاقات تجارية مع الخارج، منهم "بيرين" (J.Pirenne) الذي يؤكد بأن الوثائق الأثرية بآسيا الصغرى تدل على أن الدولة المصرية كانت تعقد بعض العلاقات المباشرة مع "جبيل" خاصة العلاقات بين مدن الدلتا والمدن السورية والتي كانت على العموم تجارة خاصة، حتى أن بعض الموظفين المصريين كانوا يوزعون الأعمال التجارية في سوريا على أساس أنهم خواص، وبفضل هذه المدن فإن الملك يستطيع عقد علاقات مع الشرق والبحر الإيجي، وتجار الشمال كانوا يشكلون حاشيته ومراكزهم كانت تصل عن طريق البحر الأحمر إلى "بونت" ممون مصر بالتوابل والمواد الثمينة، وخلال الأسرة الثانية عشر فإن العلاقات التجارية كانت تتم بين البرجوازيين في "جبيل" وبرجوازيي المدن بالدلتا (647)، وكانت التجارة تكسب ثروات مهمة في المدن المصرية كالذهب والفضة التي ظلت وسائل التبادل الأساسية على الأقل لدفع الفارق بين المبيعات والمشتريات التي يقوم بها رجال الأعمال، والدليل على وجود تجارة الخواص في عصر الدولة الحديثة أن "أونامو" الذي يعده "بيرين" من التجار الكبار كان يدفع ثمن خشب السنت بالذهب والفضة ولم يأخذ معه غيرها (648). إن نفس المؤرخ يرى بأن تجارة الخواص ليست ممكنة مع الجنوب، فلا يمكن حدوثها بسبب تأخر الحضارة لأهالي النوبة، وكذا إنعدام الحماية العسكرية الكبيرة التي لا بد أن ترافق البعثات إلى هناك وهو ما لا يمكن أن يتوفر لدى الخواص خصوصاً وأن التجارة هناك مرتبطة بالبحث عن الذهب والعاج والأبنوس وهي تجارة خطيرة (649).

إن تحليل "بيرين" جاء نتيجة لدراسات معمقة حول جوانب عدة لها صلة مباشرة بالتجارة خلال العصر الفرعوني، وقد توصل إلى إبراز وجود فئة التجار في مصر، و يبدو لي أنه الوحيد حسب إطلاعي الذي أكد ذلك، في حين يتفق جميع المؤرخين على عدم وجود فئة التجار الخواص خلال مراحل العصر الفرعوني، إلا أنه أخفق حين ذكر بأن "أونامو" الذي يعتبره كمثال عن تواجد التجار الخواص خلال الدولة الحديثة، والذي كان يتاجر لحساب معبد "أمون" مثلما يحدث ذلك في بلاد ما بين النهرين، لم يكن يحمل معه إلا الذهب والفضة لدفعها ثمناً لأخشاب "جبيل"، والحقيقة أنه كان قد حمل معه إضافة إلى هذين المعدنين منتجات عديدة سأطرق إليها في الفصل الآتي عند الكلام عن واردات وصادرات مصر مع تلك البلاد. والخطأ الآخر حين ذكر بأن الخشب الذي يجلب من السواحل الفينيقيّة هو السنت في حين أنه في الأصل كان أنواعاً أخرى وعلى رأسها الأرز (أنظر الفصل الأول). ولم يركز هذا المؤرخ على تواجد فئة التجار خلال الفترات الإنتقالية التي يسميها بالفترات الإقطاعية فقط، بل يذهب إلى أبعد من ذلك بإثباته بأن التجارة بين مصر وسواحل البحر المتوسط كان يقوم بها تجار خواص لصالح الملك طيلة العصر الفرعوني والذين كانوا يستعملون فيها أساطيل مدنها.

أما إذا قارنا هذا الوضع ببلاد ما بين النهرين نجد أن الوثائق هناك تذكر بأن الأفراد يلعبون دوراً في التجارة الخارجية منهم مثلاً "لو إليل" الذي يعقد الصفقات التجارية مع "ماجان" (ماغان) بإسم المعبد، حيث نجد أن دور الدولة ينكمش تاركاً مكانه للمعابد وهناك أحد التجار الكبار يدعى "إيا ناصر" يتعاطى تجارة النحاس الذي كان يستورده من "ديلمون" ثم يعيد تصديره، أي أن هناك تجاراً كانوا يتاجرون لحساب القصر والممولين مثل التاجر الأول، وهناك آخرون يتعاطون هذه التجارة لحسابهم الخاص مثل "إيا ناصر" (650). وهذا الوضع أجده مشابهاً لوضع مصر من خلال قصة "أونامو" التي تبرز دور المعابد في التجارة، ويبدو أن هذا الدور برز في مصر خلال فترات تراجع قوة مصر السياسية والاقتصادية ابتداءً من القرن الثاني عشر ق.م، أو في فترات سابقة تفهّرت فيها مصر. لكن الاختلاف هو أن ممارسة الأفراد بإسم المعابد كانت ظاهرة متواجدة بصفة متواصلة في بلاد ما بين النهرين.

(645) - أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص. 148.

(646) - G. Posener et autres, Op-Cit, p. 66.

(647) - J. Pirenne, histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit, pp. 56,80.

(648) - J. Pirenne, les villes..., Op-Cit, pp. 41- 42.

(649) - J. Pirenne, histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit, p. 80.

(650) - محمد حرب فرزات، العلاقات الحضارية...، المرجع السابق، ص. 78.

وعلى العكس من ذلك فإن التجار الذين يزاولون التجارة المحلية داخل الأسواق، يعتبرون ضمن الطبقة الدنيا في المجتمع، حيث كانت هذه الأسواق ذات أهمية متواضعة وليست نشطة، وكانت تحدث بها بعض المعاملات ذات النطاق المحدود، هذا الحكم مستمد مما جاء على لسان أحد الحكماء ناصحا ابنه بأن لا يزاول مهنة التجارة و يعيش متجولا بين مناطق الوادي يصادف في تنقلاته الأخطار⁽⁶⁵¹⁾.

إن كان كل ما أتيت على ذكره يعد شهادة أكيدة على وجود التجار الخواص، إلا أن الوثائق المصرية لم تشر إليهم لأنها كانت تهتم فقط بالملك و ما يدور حوله، دون التطرق إلى الأفراد البسطاء. وما جاء في نصيحة ذلك الحكيم تؤكد ما يذهب إليه "بيرين" عندما يرى بأن طبقة التجار الخواص كانت تنشط خلال فترات ضعف مصر، وهي التي يسميها بالمرحلة الإقطاعية، والتي تطرق إليها بصورة مدققة خلال العديد من الدراسات منها ما اعتمدت عليه في موضوع البحث. و من بعض ما جاء فيها أن المدن خلال فترة الانتقال الأولى، كانت عبارة عن مراكز إقتصادية ازدهرت بازدهار الحركة التجارية فيها، وتجاوزت مدن الدلتا في تجارتها إلى عقد روابط خارجية، لدرجة أنه اعتبرها مراكز للتجارة الدولية، وقد تزعمت تلك الحركة طبقة من الأثرياء الجدد التي ظهرت عقب الثورة الاجتماعية على إثر نهاية الدولة القديمة⁽⁶⁵²⁾، ويمكن أن أشبه هذه المدن بالمدن الفينيقية التي كانت تسير بدورها من قبل برجوازية تجارية، بمعنى أوضح من قبل طبقة من التجار الخواص التي كانت لها مكانة سياسية رفيعة.

و يبدو أن "بيرين" كان قد أخذ من نص الملك "خيتي" (Kheti) الذي يعود إلى الأسرة التاسعة دليلا على وجود التجار الخواص في مصر، فهذا الملك كان يصف لابنه المدن التي كانت تضم مواطنين أحرارا و لا يدفعون الضرائب، و أن تلك المدن كانت تعيش تحت إشراف قضاة منتخبين، و تملك فرقا عسكرية، وكانت تنتج القمح بكل حرية، و تنص الوثيقة أيضا على أن أهم تلك المدن هي "أثريبس" (Athribis)، و تذكر بأن المواطنين الأحرار بها و الذين يشكلون تلك الطبقة بلغ تعدادهم عشرة آلاف مواطن، و الدليل الآخر الذي اعتمده هذا المؤرخ، أن أحد أمناء خزينة الدولة الوسطى كان تاجرا و كان يدعى "بيب" ⁽⁶⁵³⁾، الذي أشرت إليه فيما سبق. و يبدو أن الأدلة لم تتوقف عند ذلك الحد بل هناك إشارة إلى وجود التجار الخواص في مصر الفرعونية و تحديدا خلال الألف الأولى ق.م، عندما فقد الفراعنة قوتهم وتركوا البرجوازيين في الدلتا بوجه خاص أحرارا في ممارسة التجارة بل إنهم عملوا على تشجيعهم⁽⁶⁵⁴⁾.

وإذا عدنا إلى الأشخاص الذين يظهرون في الصور المصرية نجدهم ثلاثة فئات: فئة الأحرار و هم يمارسون صناعات مختلفة و يقومون بالأعمال التجارية أي أنهم تجار، فئة الرقيق، الذين يستغلون في خدمة الأراضي، والأثرياء و الملك و حاشيته و موظفو الدولة و هم الصنف الثالث من أصناف المجتمع⁽⁶⁵⁵⁾. و بمقارنة الوضع المصري ببعض الشعوب المجاورة نجد تجار بلاد ما بين النهرين لهم أهمية كبيرة في المجتمع، وذلك من خلال عيشهم في أحياء خاصة بهم والتي من المحتمل أن تكون ملاحقا للسوق⁽⁶⁵⁶⁾، فتجار بلاد ما بين النهرين وملاحقها كانوا يشكلون طبقة مميزة في المجتمع، في حين أن التجار الخواص في المجتمع المصري لم يشكلوا مثل هذه الطبقة.

لكن إذا ألقينا نظرة عن تجار "أوغاريت" فإننا نجد شبها في بعض الأمور بينهم و بين ما يجري في مصر. فالتجار في تلك المدينة: « كانوا وسطاء وسماسرة و محصلي ضرائب »، إلا أن الاختلاف يكمن في كون هؤلاء كانوا يعرفون في تنظيم يدعى "مكارم" و هو يدل على عدد كبير من التجار⁽⁶⁵⁷⁾. أما التاجر العربي فنجد له مميزات خاصة، فهو يقوم بكل شيء، من تنظيم مالي، دبلوماسي، و عسكري للقوافل و يعتني بالحيوانات، و يسدد أتعاب المرشدين، و يدفع أجره الخفر، و كان هؤلاء التجار يتمتعون بمكانة لدى شيوخ و ملوك المناطق التي يتوجهون إليها بتجاريتهم⁽⁶⁵⁸⁾.

(651) - محمد بيومي مهران، الحضارة المصرية...، المرجع السابق، ص. 105.

(652) - J. Pirenne, Y'eut - il des foires...?, Op-Cit, pp. 14 -15.

(653) - Ibid, pp. 15 - 16.

(654) - Jean Duché, Les grandes routes du commerce, (Paris : Flammarion, 1969), p. 22.

(655) - جيمس هنري برستيد، العصور القديمة، المرجع السابق، ص 46.

(656) - عيد مرعي، المرجع السابق، ص 138.

(657) - أحمد حامدة، المرجع السابق، ص ص. 77 - 78.

(658) - Josephe Chelhod, « le traditionnel et l' acquis dans l'activité mercantile Yemenite », Cahiers du Gremano, (1991), p. 78.

من خلال هذه المقارنات البسيطة أجد أن التجار الخواص في مصر لم يكن لهم مثل ذلك البروز الذي نجده لدى بقية تجار الشعوب الأخرى ، لكن لا يعني ذلك عدم وجودهم على الإطلاق، كما إرتبط برونهم أكثر من خلال المراحل الوسطى، وأثناء قوة مصر فإن الطبقة الحاكمة كانت وحدها التي تقوم بالأسفار التجارية الطويلة، و التي تغطي على دور الخواص الذين يكونون في خدمة هذه الطبقة، و بالتالي فإن دورهم يبرز في بعض المعاملات المحلية البسيطة.

المطلب الثاني : إحتكار الملك للتجارة

إن الملك خلال العصر الفرعوني كان يصور من خلال الرسوم التي كانت تزخرف بها المعابد وهو على متن مراكبه قاصدا بها أماكن العبادة والإحتفالات الدينية أو في حالة خروجه إلى معارك، وكان يصور برفقة حاشيته المكونة من رجال الدين و حكام الأقاليم وحرسه الخاص والضباط والجيش⁽⁶⁵⁹⁾، وكان يطلق على الملك إسم "فرعون" التي وردت في الكتابات المصرية "بر-عا" أو "بر-عو" والمقصود به "البيت العالي" أو "البيت العظيم" أي إشارة إلى القصر الملكي. لكن بعد ذلك تحولت هذه العبارة لتطلق على الملك نفسه منذ الأسرة الثامنة عشرة، و بالتحديد زمن الفرعون "تحوتمس الثالث" (1490-1436 ق.م)، بعد ذلك أطلقت هذه الكلمة على "إخناتون" ثم شاع إستعمالها بصفة متواصلة منذ الأسرة التاسعة عشرة والتي أصبح معناها "جلالته"⁽⁶⁶⁰⁾. ثم إنتقل هذا الإسم إلى اللغة العبرية وتحول إلى كلمة فرعون الحالية⁽⁶⁶¹⁾، لكن هناك من يرى بأن هذه الكلمة أطلقها العبرانيون الذين تواجدوا في مصر زمن النبي يوسف – عليه السلام – ، والذين كانوا يعنون بها "البيت العظيم" ثم تحولت لتعني ملوك مصر، لكن لم يثبت ذلك تاريخيا⁽⁶⁶²⁾.

ومن الإعجاز القرآني الذي أثبتته الأبحاث أن لفظ "فرعون" لم يورد في القرآن الكريم قبل زمن النبي موسى -عليه السلام- ونحن نعرف أن زمن موسى يتطابق مع الأسرة التاسعة عشرة، والأبحاث تؤكد أن هذا اللقب شاع إستعماله منذ هذا الزمن، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ... ﴾ ، وفي موضع آخر: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ... ﴾ ، وفي سورة القصص قوله تعالى : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾⁽⁶⁶⁴⁾.

إن عقيدة الدولة في مصر تؤله الملك وتجعله إبن الإله، وبالتالي فإنه يملك كل شيء في الدولة و كل التنظيمات في البلاد تحت سلطته، ومنها الشؤون الإقتصادية وتنظيماتها سواء كانت زراعية أو تجارية، فهو الوحيد الذي يحق له التصرف فيها، وهو المستفيد منها ومما تجود به الأرض من موارد وما يزرع به باطنها⁽⁶⁶⁵⁾.

فالملك كان يشرف على كل مناحي الحياة، حيث كان المتصرف في كل موارد البلاد، فالأرض الزراعية كانت ملكا له كما كان يملك كل المناجم، وللملك مقربون له من أقاربه عمل على إعطائهم إمتيازات وشكلوا معه طبقة عليا في المجتمع. وكان يدير البلاد بالنيابة عنه جهاز إداري على رأسه الوزير الذي كان المشرف على كل الشؤون الإدارية وكذلك المعابد والجيش وكان يلعب دور القاضي⁽⁶⁶⁶⁾. إذن هناك نخبة تصل إلى ألفي رجل حسب إحصائيات تعود إلى الدولة القديمة يتمركز في أيديها الحكم الأرض والثروة، وهي تحكم شعبا يقدر تقريبا بمليون ونصف ساكن خلال الدولة القديمة⁽⁶⁶⁷⁾. وعلى العكس من ذلك نجد الأرض في بلاد ما بين النهرين ليست ملكا للملك، وإستغلالها يعتمد على الملكية الخاصة إلى جانب ملكيات الدولة والملك⁽⁶⁶⁸⁾.

ورغم دور خدم الملك الذين كما عرفنا كان يعتمد عليهم في إدارة البلاد، إلا أن التمثيلات لم تبرز دورهم، ولم تعطيه أهمية بل كان التركيز على تمثيل الملك، وكانوا يظهرون فقط في تمثيلات الإحتفالات والمعارك مثل : الكهنة، الموظفون والجنود.

(659) – أنور الرفاعي وشاكر مصطفى ، المرجع السابق ، ص. 24.

(660) – محمد بيومي مهران ، دراسات تاريخية... ، المرجع السابق ، ص. 121 - 122.

(661) – J.H. Breasted , Op-Cit , p. 74.

(662) – أنور الرفاعي ، تاريخ الحضارات...، المرجع السابق ، ص. 17.

(663) – سورة يوسف : آية 43 ، 50.

(664) – سورة القصص : آية 3.

(665) – محمد بيومي مهران ، الثورة الإجتماعية...، المرجع السابق ، ص. 204.

(666) – نعيم فرح ، المرجع السابق ، ص. 66.

(667) – B. Manley , Op-Cit , p. 24.

(668) – D. Maillat , Op-Cit , p. 48.

و هكذا فإن النشاطات المختلفة كانت مراقبة من قبل الدولة فهي تملك أولا عددا كبيرا من المؤسسات تشغل مباشرة لحساب الملك، وتستعمل كيد عاملة: العبيد، الرجال الأحرار الذين يوظفون بعقد، وأحيانا بواسطة الأوامر أو إستعمال الجنود، هذه الفئة كانت تستعمل في المناجم والمحاجر التي هي ملك للملك كما أنها كانت تقوم بأعمال أخرى⁽⁶⁶⁹⁾. إضافة إلى ذلك فإن مراقبة حركة المحصولات التجارية كانت إحتكارا ملكيا⁽⁶⁷⁰⁾، فالتجارة في مجملها كانت بيد الملك والمعابد، حيث كان كل منهما يحتكر القوافل التجارية والأساطيل، وكانا يتركان المعاملات البسيطة للعامة.

إن المبادلات التجارية كانت حكرا على الحكم المركزي الذي تشكل عند نهاية الألف الرابعة ق.م، وكانت فرق من الإدارة تراقب وتسير المواد الأولية، منذ إستغلالها وإستيرادها إلى غاية مرحلة تحويلها، وبالتالي لا يوجد في هذا المجال نشاط تجاري خاص بمعنى الكلمة. إن المسؤولين والمستخدمين في بعثات إستغلال المحاجر والمناجم أو البعثات التجارية هم عمال الدولة وقد بقوا كذلك طيلة العصر الفرعوني، وعليه فإن تجارة الجملة في مصر كانت حكرا بيد الملك، وبذلك تكون التجارة الخارجية بالطبع محتكرة من طرف هذا الأخير و مع ذلك فقد نجحت في أن توفر للناس السلع الضرورية سواء المنتجة في بلادهم أو ما يجلب من الخارج وبكميات تزيد عن الحاجة. إن توزيع منتجات الترف والهيبة التي كانت تستورد هي إمتياز للملك، وكان ذلك بدون شك يساهم في تدعيم قوته السياسية في الداخل⁽⁶⁷¹⁾.

لقد إعتبر الكثير من المؤرخين أن الفرعون بما أنه كان يملك كل منتجات البلاد، ولم توجد تجارة إلا حسب إحتياجات الفرعون نفسه، الذي كان يقرر وحده تحديد الفائض في المنتجات من أجل التصدير ومقايضتها بالمواد التي يفتقر إليها⁽⁶⁷²⁾. حيث أنه وحده الذي يحدد فائض الإنتاج الزراعي والصناعي أو الحرفي الذي يمكن تصديره، وهو وحده الذي يضع متطلبات البلاد من مختلف المواد، فهي إذن تجارة تلبي حاجيات البلاط والمعابد، لأن مصر حسب رأيهم كانت مكتفية ذاتيا من الضروريات، فتجارتها الخارجية هي إذن تجارة كماليات⁽⁶⁷³⁾. أنا أتحفظ من إعتبار تجارة مصر الخارجية تجارة كماليات وسأطرق لمناقشة هذه النقطة خلال الفصل الموالي.

الأمر المؤكد أن إرسال القوافل نحو النوبة والسودان، وإنطلاق المراكب نحو سواحل البحر المتوسط من أجل إستيراد الإرز كانت بعثات ملكية ولا توجد بها إشارة إلى بعثات خاصة خارج الحدود، لأن الملك هو وحده الذي كان يستطيع تجهيز القوافل للذهاب إلى الخارج لمبادلة المنتجات المصرية بالبضائع الخارجية، فالوسائل المادية التي تتطلبها التجارة الخارجية لا يستطيع أحد أن يمتلكها ما عدا الملك، وهي المراكب الكبيرة التي تعمل على نقل السلع، ومن جهة أخرى الحراسة المتمثلة في الفرق العسكرية التي ترافقها في دروب الصحراء خاصة. كما أن العلاقات التجارية مع الخارج كانت تتم في شكل مشاريع تشرف عليها الدولة وتنظمها وتسير لها مراكب ضخمة، هذه هي صبغة التجارة الخارجية في العصر الفرعوني⁽⁶⁷⁴⁾، وعليه فإن المجهود الفردي لم يكن بالقادر على أن يقطع كل تلك المسافات لعقد صفقات تجارية⁽⁶⁷⁵⁾، وإمتلاك مراكب تستطيع المغامرة في البحار، والتي كانت تصل إلى 50 م طولا و 17 م عرضا، وأحيانا تفوق ذلك، وكانت نموذجا يحتذى به والذي لم يتلق تحسينات في التفاصيل إلى غاية العصور الوسطى⁽⁶⁷⁶⁾.

هذا و نجد أن المعابد أيضا كان لها دور في التجارة، فخلال عهد "رمسيس الثالث" مثلا قدر عدد السفن التي كانت تملكها معابد الإله آمون بـ: 88 سفينة، و 50 ترسانة لصناعة السفن وإصلاحها⁽⁶⁷⁷⁾، لأن من خاصيات الدولة الحديثة ظهور طبقة الكهنوت بسبب العدد المعتبر المتزايد للمعابد، وأصبحت الكهانة مهنة بدلا من وظيفة كما كانت في السابق. و قد تحصل هؤلاء الكهنة على سلطة سياسية معتبرة وشكلوا تجمعا على

(669) - Ibid , p. 43.

(670) - B. Manley , Op-Cit , p. 17.

(671) - A. Eggebrecht , Op-Cit , p. 222.

(672) - J. Duché , Op-Cit , p. 13.

(673) - موسوعة تاريخ الحضارات ، ص. 70.

(674) - نفس المرجع ، ص. 70.

(675) - عبد الفتاح محمد وهيبه ، المرجع السابق ، ص. 307.

(676) - J. Duché , Op-Cit , pp.13-14.

(677) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 241.

رأسه نجد الكاهن الأعظم للإله " آمون " بـ " طيبة " (678)، وكانت هذه المعابد تحتوي على ورشات من نماذج مختلفة وخاصة ورشات النسيج، وكان إنتاجها ينقل بواسطة السفن ويبادل بمحاصيل كانت البلاد بحاجة إليها (679). ونفس الشيء تقريبا نجده في أرض الرافدين، حيث تمدنا النصوص البابلية بما مفاده أن التجارة لم تتعاطاها فئة من التجار فقط بل أن كاهنات الإله " شمس " كن يمارسن المبادلات التجارية، حيث كن ينشطن الحياة الاقتصادية في مدينة " سيبار "، بل تجاوزن ذلك العمل ليمارسن عملية القروض، كما كن يقدمن على إستغلال ثرائهن في شراء وبيع البيوت والأراضي (680).

نتيجة لكل ذلك يرى البعض أن معوقات التجارة المصرية هي كونها كانت: « في يد الحكومة وتحت إشرافها المباشر في حين أن تجارة ما بين النهرين ظلت في أيدي الأفراد ولحسابهم الخاص وهذا ما يفسر تقدمهم العظيم في هذه البلاد » (681).

والبعض الآخر يرى بأن التجارة الداخلية المصرية تميزت بالضعف، لأنها لم تعرف حركة تبادل تجاري نشيط، وقد أرجع بعض الأثريون ذلك إلى أن المواصلات لم تكن بالأمر السهل بين التجمعات السكانية، والمقصود المواصلات البرية، إلا أن " محمد أبو المحاسن عصفور " يرى بأن السبب الحقيقي يعود لكون أرض مصر كانت تنتج منتجات متشابهة في مختلف تجمعاتها وهو راجع للبيئة الواحدة المتمثلة في وادي النيل (682)، ومنهم من يرى أيضا أن التجارة الداخلية في مصر القديمة كانت ضعيفة ولم يكن لها دور كبير في إقتصاد البلاد الداخلي أي كان دورا ثانويا، وكانت تجري في أسواق تتم فيها المبادلات عن طريق المقايضة.

و منهم من له رأي مخالف إذ يرى سبب ركود التجارة الداخلية يرجع إلى عدم تشجيع النظام للمقايضة الخاصة، رغم أنه كان من الممكن أن تزدهر وتعرف نشاطا أكبر بالنظر إلى توفر مقومات هذا النشاط، فالمنتجات كانت متوفرة بكثرة وكانت تنسم بالتميز في منطقة الدلتا عن مناطق الجنوب وبالتالي فالتكامل بين المناطق كان ممكنا عن طريق المبادلات التجارية (683)، وفريق آخر يرجع السبب إلى أن الشعب لم يكن يملك ما يمكن أن يتاجر به، حيث كان الفرعون هو المحتكر لكل شيء، المحاجر ومناجم المعادن وحتى الحركة العمرانية (684)، و يعتقد آخرون بأن الإقتصاد المصري يتميز بعدم وجود النقود ولا حتى مصانع، ولا يوجد وسائل نقل أخرى عدا المراكب أو الحمير (685).

وفي مقابل كل هذه الآراء هناك من يقول عكس ذلك، و يرى أن التجارة الداخلية تمتاز بتشعبها وإنتشارها أي أن مصادر المواد الأساسية توجد متناثرة في أماكن مختلفة شرقا وغربا وجنوبا (686).

إن إحتكار الملك للتجارة أمر مؤكد ، فالتجارة الداخلية كانت بيد الملك وكان يحتكرها إلى حد ما، والتجارة الخارجية تعد هي الأخرى إلى حد بعيد إحتكارا ملكيا. وبالتالي فإن التجارة كانت مرتبطة بالملك، أي أنها كانت تتأثر بمدى قوة وضعف الحكم ففي الكثير من الفترات التي تشهد فيها مصر ضعفا في الحكم أو إنهيارا لأسرة ما، يتبع ذلك تقهقر في التجارة قد يصل حد الإنهيار (687).

و لم يكن ملك مصر هو وحده الملك الذي يتحكم في التجارة بل هناك مثلا الملك في المدن الفينيقية كان تاجرا مثلما كان كاهنا وقائدا للجيش وقد كان « على رأس التجارة ولعب دورا ملحوظا فيها فكان أكبر مالك للسفن، كما وجد تحت تصرفه عدد من العملاء التجاريين الذين يحققون عمليات تجارية لحسابه وبتكاليف منه

(678) - H. Gauthier , Op-Cit , p. 135.

(679) - J. Janssen , Op-Cit , p. 62.

(680) - عيد مرعي ، المرجع السابق ، ص.ص. 145 - 146.

(681) - أنور الرفاعي وشاكر مصطفى ، المرجع السابق ، ص. 37.

(682) - محمد أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق ، ص. 122.

(683) - موسوعة تاريخ الحضارات ، ص. 69.

(684) - عبد الفتاح محمد وهيبة ، المرجع السابق ، ص. 208.

(685) - J. Janssen , Op-Cit , p. 59.

(686) - والتراب إمري ، مصر في العصر العتيق (الأسرتان الأولى والثانية) ، ترجمة راشد محمد توير و محمد علي كمال الدين، مراجعة عبد

المنعم أبو بكر، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة و النشر، 1917)، ص. 191.

(687) - عبد الفتاح محمد وهيبة ، المرجع السابق ، ص. 308.

في البر والبحر، وإليه يعود تحديد وإقرار الملاحة البحرية والتجارة، ولهذا كان ينظر إليه على أنه التاجر الأول في المملكة» (688).

ورغم كل هذه التناقضات والجدالات أصل إلى القول بأن مصر عرفت فئة تجار لكن الوثائق لم تفدنا بالكثير عنها هذا من جهة، ومن جهة أخرى فوجودها مؤكد على الأقل في فترات معينة حين كانت تضعف فيها السلطة المركزية، كما لا يمكن إنكار وجود التجار الخواص خاصة في الألف الأولى قبل الميلاد، فهذا هيرودوت يؤكد ذلك في القول الذي جاء فيه: «توجد سبع طبقات من المصريين تسمى: طبقة الكهنة، وطبقة المحاربين، ورعاة البقر، ورعاة الخنازير، والتجار، والمترجمين، والملاحين...» (689)، إضافة إلى ذلك فإن مصر كانت لها خصوصيتها التي ميزتها عن باقي شعوب عصرها وهي ارتباط التجارة بالملك، وكل ذلك يؤكد بأن مصر عرفت التجارة ومارستها كما مارستها بقية الشعوب، ولا تقل في ذلك أهمية، ولم ينتقص ارتباط التجارة بالملك من مكانة تجارة مصر الفرعونية في العالم القديم، خصوصا وأنها- كما ذكرت قبل قليل- أن شعوبا أخرى إرتبطت تجارتها بالملك ولو أنها بشكل مختلف نوعا ما.

(688) - أحمد حامدة، المرجع السابق، ص. 73.

(689) - هيرودوت، فقرة 164.

الفصل الثالث: البعثات التجارية

كما مر بنا في الفصل السابق فإن التجارة في مصر تعد مصدرا من مصادر الثروة، فإذا كانت التجارة الداخلية لم تلعب دورا إقتصاديا بارزا كونها كانت عبارة عن مبادلات تجرى في نطاق ضيق، فإننا نجد على العكس من ذلك التجارة الخارجية كانت تتم في نطاق أوسع وأهم، فهي تجري بين مصر ودول الجوار سواء كانوا من الآسيويين أو النوبيين أو مع جنوب البحر الأحمر وهو ما يطلق عليه ببلاد "بونت". فإذا لم يكن للتجارة الداخلية هذا الإزدهار، فإن التجارة مع الخارج عرفت عصورا ذات إزدهار كبير نتيجة للعلاقات السلمية مع البلدان المجاورة.

لكن هناك من يقول عن هذه التجارة أي الخارجية بأنها تجارة واهنة، من خلال العبارات التالية: « ظلت التجارة الخارجية في حالة من الوهن والخور لاسيما إذا ما قورنت بوفرة المحاصيل المصرية وجودتها»⁽⁶⁹⁰⁾.

بل هناك من ذهب إلى أبعد من ذلك للتساؤل فيما إذا كانت البضائع الواردة والصادرة كانت تحمل في سفن مصرية، أم أن التجار الأجانب هم الذين يؤمنون ذلك بسفنهم ذهاب وإيابا عبر البحر، حيث طرحت تساؤلات مفادها: كيف وصلت الأواني السورية التي عثر عليها "بتري" (Petrie) في مقابر الأسرة الأولى، وكذا الأخشاب الفينيقية التي أستعملت في هرم "زوسر" المدرج بسقارة، وهرم "سنفرو" القبلي بدهشور، وكذلك أخشاب مركب "خوفو"، فضلا عن الأدوات التي جاءت بها بعثة "ساحورع"، أي هل كانت لمصر في ذلك الوقت سفنا قادرة على نقل كل ذلك أم أن الأشياء كانت تنقل برا؟، ومثل هذه الآراء نجدها لدى سترابون الذي نفى تماما أن يكون المصريون بحاجة إلى واردات في قوله: «إن ملوك مصر القدامى كانوا راضين بما كانوا يملكون، وكانوا يعتقدون بأنه لا حاجة لواردات التجارة»⁽⁶⁹¹⁾، ومعنى قوله أنهم لم يتعاطوا التجارة.

و كرد على هذه الآراء فإن "التراب إمري" يؤكد بأنه بيد أن السفن المصرية أستخدمت في نقل بضائع التجارة الداخلية، والتي كانت تجوب النيل صعودا وهبوطا، فإنه من الطبيعي أن يكون للمصريين القدرة على إمتلاك سفن تكون قادرة على إجتياز البحار⁽⁶⁹²⁾، أي أن البحر المتوسط كان يعرف حركة تجارية نشطة وكان المصريون يشكلون جزء منها، وكما قال نجيب ميخائيل إبراهيم: «إن سبب وحدة شعوب البحر المتوسط الشؤون التجارية ومطالبها»⁽⁶⁹³⁾. ولا نكون مغالين إذا قلنا بأن المصريين هم أول هذه الشعوب التي نشطت التجارة عبر البحار والدليل على ذلك مثلما ذكرت في الفصل السابق، أنه خلال الألفين: الخامسة والرابعة كانوا يستعملون أشياء أجنبية مثل الزجاج البركاني الآتي من بحر إيجا، والجواهر المستوردة من الخليج الفارسي، وغيرها.

إن شبكة التبادلات هاته تمتد من شواطئ البحر المتوسط إلى مناطق النوبة، ومن الواحات الليبية إلى السواحل الإيريتريية. ولو أن البعثات التجارية يحصرها البعض في منطقتين محدّتين هما: البحر المتوسط باتجاه ساحل آسيا الغربية وعلى وجه الخصوص "جبيل"، والبحر الأحمر باتجاه "بونت"، إلا أنني أختلف مع هذا الرأي وأقول أن البعثات التجارية المصرية لم تقتصر على هذين البحرين بل كانت هناك بعثات برية والتي لا يمكن أن نقل من شأنها في تجارة مصر وسأتناولها بالدراسة في هذا الفصل.

المبحث الأول: البعثات التجارية في البحر المتوسط

من الضروري كما يقول "سايف سوديربيرغ" (T.Saive-Soderbergh)، تقدير الإتصال عبر البحر المتوسط لأن الإتصال برا عبر فلسطين يعد أمرا جد صعبا لأنه يتطلب مراقبة نشطة وكبيرة على طول الشاطئ الكنعاني إلى غاية "جبيل"، وبالتالي فالإتصالات مع هذه البلاد كانت تتم عبر البحر⁽⁶⁹⁴⁾. ومن خلال دراسة الملاحة الشراعية المصرية ثبت بأن المصريين كانت لهم بعثات إلى سواحل البحر المتوسط، ولو أنه لم يثبت صراحة قيامهم ببعثات مباشرة إلى "كريت" إلا أن نفس الدراسة تقول بأن الجبال الغابية بتلك الجزيرة يمكنها

(690) - موسوعة تاريخ الحضارات، ص. 70.

(691) - (Strabon , Géographie , traduit par Amedée tardieu , (Paris : librairie Hachette , 1880) , XVII ,Chap I , 6.

(692) - والتراب إمري، مصر في العصر العتيق...، المرجع السابق، ص. 193.

(693) - نجيب ميخائيل إبراهيم، مصر و الشرق الأدنى...، المرجع السابق، ص. 55.

(694) - T.Save – Soderbergh , the Navy ..., Op-Cit, p. 33.

منح الفراعنة الأوائل ما يحتاجونه⁽⁶⁹⁵⁾. لكنني سأقتصر الكلام في هذا العنصر على تجارة مصر مع الساحل اللبناني حيث أنها جرت طيلة الألف الثالثة والثانية ق.م خاصة مع "جبيل" وكان الدافع الرئيسي- كما هو معروف - جلب الأخشاب لصناعة السفن. لكن قبل التطرق إلى البعثات التجارية لابد من التعريف بالمنطقة التي ربطت معها مصر علاقات تجارية مميزة وسيّرت إليها البعثات التجارية.

المطلب الأول: التعريف بمدرجات الأخشاب

السائد هو إطلاق اسم الساحل السوري، الساحل اللبناني، الساحل الفينيقي، أو أرض كنعان، لكنني اخترت "مدرجات الأخشاب"، لأنها المنطقة التي كان المصريون يجلبون منها الأخشاب، والتجارة التي سادت بينهما هي تجارة الأخشاب، وقد وردت في النقوش والكتابات المصرية القديمة عديد التسميات التي أطلقت على هذه المنطقة.

هناك تسمية أطلقها المصريون القدامى، وهي: "كبنا" (Kupna) والتي تعد تسمية جد قديمة، ومن المؤكد أن هذا الاسم لم يكن سامياً على أساس أن هؤلاء لم يصلوا بعد إلى ساحل البحر المتوسط في الوقت الذي بدأت فيه العلاقات والبعثات بين مصر وهذه المنطقة، وهو الاسم الذي حملته إحدى مدنها وتحول من قبل شعبها السامي إلى لفظة "جبلا" وظلت المنطقة إلى اليوم تحمل اسم "جبيل"⁽⁶⁹⁶⁾، وإضافة إلى ذكر اسم هذه المدينة في النصوص المصرية نجد هناك ذكر لمدن أخرى ظلت محتفظة لحد الآن بأسمائها القديمة، والتي ذكرت في لوح منقوش يؤرخ بزمان الأسرة الثانية عشرة وهو يتعلق بقصة "سنوحي" والذي ذكر في رحلته أسماء مدن زارها: "جبيل"، "باروت"، "صيدون"، "صريفيت"، "صور"، "عمريت"، "طرطوس"، "قرنا"، "عرفة" و"كسبا"، وهي مدن ساحلية⁽⁶⁹⁷⁾.

ويظهر في نصوص الدولتين الوسطى والحديثة اسم "Négaou" والذي يقصد به مناطق الغابات والتي منها كانت تجلب مصر الأخشاب⁽⁶⁹⁸⁾.

كما كان المصريون يطلقون على أهل كل من سيناء و فلسطين و فينيقيا اسم الآسيويين و كذلك اسم "الرتنو" و "المتنو" و "زاهي" (Djahi)⁽⁶⁹⁹⁾، وذلك من خلال نص حوليات الملك "تحوتمس الثالث" وهي تتطابق مع الأرض التي سميت فينيقيا⁽⁷⁰⁰⁾، وبالتالي فإن المقصود من تلك التسميات ذلك الشريط الساحلي الذي يدعى فينيقيا عندما أعلن ساكنيه ولاءهم لذلك الملك، ولم يحدث ذلك عن طريق القوة بل حدث بالتراضي لأنهم رأوا فيه حاميه من الإعتداءات الخارجية⁽⁷⁰¹⁾.

وقد ورد أيضاً في النصوص المصرية إسمين هما: "الفينيكو" و "الحونبو" وهما يعبران عن مجموعات من المرتزقة كانوا يشكلون جزء من الأسطول المصري خلال القرنين الخامس عشر والثالث عشر ق.م، وهو إسم قريب من إسم الفينيقيين ولو أنهم لم يبرزوا بعد خلال هذا العصر. على العموم فهما إسمان يعبران عن شعوب شرق البحر المتوسط التي كانت لها خبرة طويلة في مجال البحرية ثم تطورت ليصبح لها شأن إبتداء من القرن الثاني عشر ق.م⁽⁷⁰²⁾.

إن هذا الذكر الواضح و الصريح لتسمية هذه المنطقة من خلال النصوص المصرية ، يدل على أنها كانت تسميات متعددة و لم تقتصر على منطقة جغرافية ضيقة بل ذكرت عدة مناطق ، إذ يمكن أن أستخلص من ذلك مدى إرتباط مصر الوثيق بهذه المنطقة، و مدى أهميتها بالنسبة للمصريين في تجارتهم، و كثافة العلاقات وإستمراريتها، فلو لم تكن هذه المنطقة قد لعبت مثل هذا الدور ومثل هذه الأهمية لما ذكرت بذلك الوضوح وبذلك التدقيق ، لدرجة أن الكثير من أسمائها القديمة ظلت متداولة كما هي إلى غاية العصر الحالي، و عليه فإنني رأيت عدم التطرق للتسميات الأخرى التي أطلقت عليها من قبل الشعوب الأخرى ، لأن ما ذكرته هو أهم للدراسة. من جهة أخرى تعد منطقة مدرجات الأخشاب منطقة غامضة بالنسبة للمصريين مثل بلاد "بونت"

(695) - V. Bérard , les Phéniciens ..., Op-Cit , p. 168.

(696) - محمد السيد غلاب ، الساحل الفينيقي ...، المرجع السابق ، ص. 236.

(697) - محمد عزة دروزة ، تاريخ موجات الجنس العربي ...، المرجع السابق ، ص 48.

(698) - V. Bérard , Op-Cit , p. 127.

(699) - محمد عزة دروزة ، المرجع السابق ، ص. 58.

(700) - C. Lalouette , Thébés..., Op-Cit , p. 73.

(701) - نجيب ميخائيل إبراهيم ، المرجع السابق ، ص. 88.

(702) - محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص. 233.

فهما قد عرفتا بأنهما "بلاد الإله" بسبب مواردهما الثمينة⁽⁷⁰³⁾. والمعروف أن ساحل مدرجات الأخشاب نتيجة لضيق مساحته لا يعطي مساحات كثيرة للزراعة، حيث كان ظهيره يزوده بالأخشاب الضرورية للصناعة الملاحية وكان عبارة عن مفترق طرق شمال- جنوب و شرق - غرب أي نقطة إتصال بين الأرض والبحر، وبين آسيا وإفريقيا، تصب عنده كل الطرق التجارية البرية والبحرية⁽⁷⁰⁴⁾.

و من أهم الأخشاب بهاته المنطقة الأرز الذي ينمو على منحدرات جبل لبنان، والذي - كما سبق وأن ذكرت في الفصل الأول - له أهمية كبيرة بالنسبة لمصر. ومعروف أن الفينيقيين كانوا قد أنتجوا مواد أساسية لا توجد في أماكن أخرى مجاورة لهم وتتمثل في: الأخشاب والقمح والزيت والخمور، وتعدت منتجاتهم لتشمل كل من القار (الزفت) والصمغ (الراتنج)، وهي مادة مهمة تستخدم في سد فجوات ألواح السفن⁽⁷⁰⁵⁾. كما كانت "جبيل" تحديدا غنية بالثروة المعدنية خاصة النحاس والقصدير كما كان يوجد بها البرونز الطبيعي⁽⁷⁰⁶⁾، ويمكن أن نتخيل كم كانت أهمية هذه المنطقة بالنسبة لمصر خاصة أخشابها والدور الذي لعبته في الإقتصاد المصري. و أستخلص من كل ذلك أن هذه المنطقة لم تقتصر أهميتها بالنسبة للمصريين على الأخشاب فقط و إن كانت هذه الأخيرة هي التي ميزت التجارة بين المنطقتين، بل فاقت أهميتها ذلك لتشمل أشياء أخرى كانت أساسية في جوانب عدة من الحضارة المصرية.

المطلب الثاني: البعثات التجارية خلال الدولة القديمة

و رغم هذه الأهمية فإنني ألاحظ أن جل الباحثين يكاد يتفقون على أن مصر لم تعرف علاقات وثيقة ومنظمة مع جيرانها خلال الفترة السابقة واللاحقة للوحدة، وكل ما هناك هو وجود علاقات تجارية ليست مستمرة، وكذلك بعض الحملات العسكرية التي كانت تهدف إلى حماية حدودها وتأمين مسالك التجارة التي تجتازها البضائع التي كانت تفتقر إليها⁽⁷⁰⁷⁾. ما مدى صحة هاته المقولة؟

على العموم فإن العلاقات في زمن الأسرتين الأولى والثانية كانت تتسم بالسلم، أي هناك تبادلات تجارية، وهذا من خلال ما كشفت عنه الأدلة الأثرية التي تدل على أن هذه العلاقات كانت مع كل الجيران المحيطين بمصر سواء في الشمال أو في الغرب أو في الجنوب والشرق، ومن هذه الأدلة ما أتيت على ذكره في المدخل. والأكد أن الإتصال المصري بساحل المتوسط كان نشطا في هذا العصر مع ميناء "جبيل" لأن هناك إشارات أثرية تدل على ذلك، وبالتأكيد أن هذه الإتصالات كانت تتم عبر المراكب أي في شكل بعثات منظمة.

هناك من يرى بأن أول بعثة تعود إلى الملك "سنفرو"، حيث أرسل أسطولا إلى شواطئ مدرجات الأخشاب من أجل إحضار خشب الأرز، وتحديدًا إلى ميناء "جبيل" المشهور كميناء لتصدير مثل تلك الأخشاب، وقد نسب لهذا الملك الرحلات المصرية المبكرة في البحر المتوسط⁽⁷⁰⁸⁾، حيث بنى أسطولا مكونا من أربعين سفينة و أرسله إلى هناك⁽⁷⁰⁹⁾. ولقد نشطت التجارة المصرية في عهده خاصة في البحر المتوسط، ويقال أن ذلك الأسطول قد أتم إنجاز مهمته في ظرف سنة واحدة⁽⁷¹⁰⁾، ويرجح البعض أن هذا الملك لم يرسل بعثة واحدة بل عدة بعثات على مراحل طويلة سنة، فنتيجة إلى الحركة الإقتصادية الكبيرة التي ميزت عهده، منها المنشآت العمرانية الكبيرة وكذا إعداد السفن، جاء إرسال عدد كبير من البعثات التجارية⁽⁷¹¹⁾. لكنني أرى أنها بعثات حدثت على مدى سنين حكمه، لأن مصر تعرف عجزا في مادة الأخشاب وفي المقابل هناك نهضة مستمرة على مدى سنوات من بناء المراكب، القصور، القلاع، المساكن، والمعابد.

و نتيجة لذلك حددت بداية البعثات التجارية مع الساحل السوري بزمان هذا الملك، لأن الإشارات الأولى عن إرسال البعثات إلى "جبيل" أول ما ذكرت في حجر "بالرمو"⁽⁷¹²⁾، ولو أن البعض الآخر يرى بأنها ليست

(703) - B. Manley , Atlas historique .., Op-Cit , p. 74.

(704) - D. Maillet , les rapports des Grecs avec l'Egypte..., Op-Cit , p. 50.

(705) - أحمد حامدة ، التجارة الكنعانية...، المرجع السابق ، ص ص. 63- 64.

(706) - محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص. 236.

(707) - أحمد أمين سليم ، في تاريخ الشرق الأدنى...، المرجع السابق ، ص. 74.

(708) - Walter Woodburn Hyde , Ancient Greek Mariners , (New – York : Oxford University Press, 1947) , p. 31.

(709) - ن. ي. ، تاريخ توت عنخ آمون، المرجع السابق ، ص. 97.

(710) - عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم...، المرجع السابق ، ص. 101.

(711) - Michel Tariel , chronique des civilisations anciennes , (Paris : les éditions du Panthéon , 1997) , t. 1, p. 41.

(712) - C. Lalouette, l'empire des Ramsès, Op-Cit , pp. 33- 34.

الأولى بل هي أول ما حفظ لنا من خلال الوثائق المكتوبة عن البعثات البحرية إلى موانئ السواحل السورية (713). وبالتالي أرى أن ما ذكره حجر بالرمو كان مجموع السفن التي سَيرت في بعثات كثيرة عبر سنوات حكم ذلك الملك.

و لأهمية بعثات "سنفرو" وقيمة المعلومات التي وصلتنا عنها من خلال الوثائق المصرية إعتبر المختصون عمله ذاك بداية للتجارة الدولية من قبل مصر و فاتحة لها (714)، بل أن أهميتها تتعدى ذلك، لأن الأسطول الضخم كان منشأ أساسا للقيام بعدد البعثات و ليس بعثة واحدة، و التي أدت في مجملها إلى توسيع التجارة في عهده و ليس بدايتها، و هو ما يكشف أيضا عن تطور حصل من خلال تجارب سابقة لعدد البعثات، لذلك نرى أن من جاء بعده سلك نفس منهجه، إذ توسعت التجارة مع الشمال خلال عصر الأهرامات وذلك من أجل الوصول إلى جمع أكبر قدر من الثروة، فقد أثبتت النقوش أن المصريين كانوا يبعثون بسفنهم إلى سواحل مدرجات الأخشاب خلال ذلك العصر، وقد ازدادت العلاقة قوة و ترابطا بعد مرور قرون عدة (715). فمثلا "خوفو" تميز عهده بالازدهار التجاري مع تلك السواحل، فهذا الملك كان له أسطولاً موضوعاً تحت أوامر الأمير الملكي "Merib" (716). و الدليل الذي إتخذته البعض على أنه كان يسيّر هذا الأسطول إلى مدرجات الأخشاب و إستيراد هذه المادة من هناك هو ذلك الإكتشاف العظيم الذي تم في سنة 1954 بجانب الهرم الأكبر بالجيزة، و المتمثل في مركبه الجنائزي المصنوع من أخشاب الأرز (717).

و قد تميزت الأسرة الخامسة بنشاطها التجاري مثلما كان عليه الحال بالنسبة للأسرة الرابعة، بعد أن كانت البعثات قد شهدت إنقطاعاً لتعود من جديد مع الملك " ساحورع"، وربما لم يكن ذلك إنقطاعاً بآتم معنى الكلمة، لأنه لم تسجل في تلك الفترة بعثات بنفس أهمية وضخامة بعثة "ساحورع". وربما السبب الحقيقي يعود إلى خلو الوثائق المصرية من ذكرها ، أو أن التي تناولتها كانت قد أُلغيت أو لم تكشف الأبحاث عنها بعد.

المهم أن بعثته صورت على معبده الجنائزي الذي يعتبر الدليل المادي على قيام نشاط تجاري ضخم جعل مصر تنفتح على جيرانها بشكل أكبر من العصور السابقة، حيث سجلت على جدران ذلك المعبد العديد من صور السفن أثناء عودتها وهي محملة بمنتجات تجارية (718)، وهي واحدة من الرحلات التجارية التي أرسلها عبر البحر المتوسط، فهذا الملك والذي يعد من أشهر وأهم ملوك الأسرة الخامسة ، كان له أسطولان تجاريان أحدهما خصصه لبعثاته التجارية عبر البحر المتوسط والتي جاءت في رسوم تعد الأقدم عن البحرية المصرية، و التي تعطينا فكرة عن سكان ساحل البحر المتوسط الذين يتعاطى المصريون معهم التجارة وهي بدورها أقدم صور عن هؤلاء الآسيويين (719). فمعبده هذا يصوره البعض على أنه حفظ لنا مناظر تدل على توسع النشاط التجاري أكثر من أي زمن سابق وبالتالي إنفتاح مصر على العالم الخارجي فكها للعزلة التي فرضتها على نفسها من قبل (720). لا أتفق مع هذا الرأي القائل بعزلة مصر لأن الإقرار بذلك يؤدي بنا إلى طرح السؤال التالي : ماذا نسمي العلاقات التجارية التي حدثت قبل زمن "ساحورع" و التي أتيت على ذكرها؟. على كل فإن تلك البعثة لم تكن الوحيدة لهذا الملك بل إن هيكل الدفن الموجود بـ " أبو صير" وجدت به رسومات عن بعثة تصور منتجات منها زيت الزيتون ولو أن البعض يفسرها على أنها غنائم حرب. وهو أمر غير صحيح لأن مصر في ذلك العصر لم تعرف حروباً مع جيرانها في الشمال.

و قد ظلت هذه الأسرة تحافظ على علاقاتها التجارية مع "جبيل" إلى آخر عهدها، إذ تواصلت البعثات التجارية ومنها بعثة تعود إلى الملك "أونيس" (Unis) وهو آخر ملوكها (721).

و مع الأسرة السادسة كانت البعثات التجارية على نفس المنوال في كل عهود الملوك الآتية أسمائهم: "تيتي" ، "بببي الأول" و "بببي الثاني"، فأبان حكم الملك "تيتي" ونتيجة لتمييز عهده بالسلم كانت هناك علاقات تجارية

(713) - H. Gauthier , l'Egypte pharaonique , Op-Cit , p. 77.

(714) - L.Casson , les marins de l'Antiquité..., Op-Cit , p. 15.

(715) - جيمس هنري برستيد ، العصور القديمة ، المرجع السابق ، ص. 40.

(716) - G. Rachet , dictionnaire de la civilisation..., Op-Cit , pp. 38 , 157.

(717) - W. Culican , le levant et la mer..., Op-Cit , p.18.

(718) - T.Save – Soderbergh , Op-Cit , p. 32 .

(719) - محمد عزة دروزة ، المرجع السابق ، ص. 57.

(720) - محمد بيومي مهران ، الثورة الإجتماعية ...، المرجع السابق ، ص. 211.

(721) - فيليب حتي وآخرون ، تاريخ العرب...، المرجع السابق ، ص. 137.

مع "جبيل"، وفي إتجاهات أخرى أيضا⁽⁷²²⁾. كما إرتبط إسم الملك "بيبي الأول" برحلات تجارية إلى مدرجات الأخشاب وكان قائدها المدعو "أوني"، و للتوضيح أكثر يمكن الرجوع إلى المدخل ، صفحة رقم 18. أما "بيبي الثاني" فإن إسمه إرتبط بعديد البعثات، وكان قائدها يدعى "ثتي وخوي"⁽⁷²³⁾. وأخلص إلى القول بما قاله "ديكمانس" (G.Dykman) « طوال حكم الدولة القديمة وحتى أثناء حكم السلالات الأولى فإن البعثات المصرية إلى جبيل كانت تتعاقب بدون توقف، فهذا التردد المستمر على البحر المتوسط يدل على مدى فائدة البعثات لكلا الطرفين، فمنذ إنطلاق العلاقات ظلت على نفس الوتيرة إلى غاية نهاية زمن هذه الدولة »⁽⁷²⁴⁾.

و يتضح من كل هذه البعثات خلال الدولة القديمة، أن الملاحة بإتجاه مدرجات الأخشاب كانت أساسية في إزدهار إقتصاد مصر بشكل عام و مدن الدلتا بشكل خاص ، و قد إستتبط المؤرخ "بيرين" (J.Pirenne) هذه الأهمية الإقتصادية من وثيقة تاريخية حملت عنوان : " تحذيرات حكيم مسن"، و التي وصفت تدهور الملاحة و توقفها بإتجاه تلك المناطق⁽⁷²⁵⁾، مما أدى إلى حالة من الإستياء لما آلت إليه أوضاع مصر التجارية ، و إنعكاسها السلبي المتجلي في تدهورها الإقتصادي.

هناك ملاحظة رأيت من الأهمية بمكان الإشارة إليها، وهي أن البعثات إلى الشمال لم تختزل في البعثات البحرية ، بل يبدو أن هناك بعثات كانت تتم عبر البر، لأن البعض يرى أن القوافل المصرية كانت تذهب رفقة فرق عسكرية إلى فلسطين لإحضار النحاس الذي كان يجلبه تجار بلاد ما بين النهرين من القوقاز قبل أن تكتشف مصادر له بقبرص⁽⁷²⁶⁾. لا أدري إلى ماذا إستند هؤلاء المؤرخون في الإشارة إلى وجود بعثات برية ، لكن الوثائق المصرية في عمومها و حتى غير المصرية لا تكشف عن بعثات بإتجاه المناطق الفلسطينية أو السورية مثلما ذكرت الرحلات البحرية، إلا أنني أعتقد أنهم إستمدوا ذلك إنطلاقا من بعض الحملات العسكرية التي ظنوا بأنها كانت حتما من أجل تأمين الطرق و حماية القوافل التجارية. ويمكن أن أضيف أن قصة " سنوحي " ذكرت أن المصريين كانوا يترددون على مناطق الشمال عبر البر.

المطلب الثالث: البعثات التجارية خلال الدولة الوسطى

يرى "لالوالت" (L.Lalouette) أنه على إثر نهاية الفوضى والإضطرابات التي سادت نهاية الأسرة السادسة، أعاد الملوك الجدد سيادتهم على سواحل مدرجات الأخشاب، هذه الحماية أعطت لمصر مكانة متفوقة في تجارة البحر الأبيض المتوسط وضمنت بذلك وضع يدها على الطرق التجارية لآسيا. ومن المحتمل أن ملوك الأسرة الثانية عشرة كانوا يراقبون الساحل المتوسطي إلى غاية " أوغاريت " و ذلك بوضع حاميات في مدن ذلك الساحل و بمساعدة حكام مدنه، تعمل على تدعيم الوجود المصري في تلك المراكز الكبيرة للتجارة العالمية⁽⁷²⁷⁾. لا أعتقد أنها كانت حاميات عسكرية، لأنه لم يثبت في تلك الأثناء أن كان لمصر قوة عسكرية تستطيع أن تنشر حاميات دائمة في عديد المناطق الأجنبية، بل أن السيطرة كانت تجارية، والوجود المصري كان ممثلا في وفود تسهل العمليات التجارية ويمكن أن تصل إلى درجة إحتكارها كما كانت تفعل الجاليات الأجنبية في مصر في أوقات متأخرة، سآتي على ذكر ذلك في الفصل الخامس.

إن الإتصالات بين مصر ومدن ذلك الساحل خلال زمن الدولة الوسطى كانت قد توطدت وأصبحت بصورة منتظمة، وهذا منذ أوائل الألف الثانية ق.م والأدلة على ذلك عديدة، وقد أصبحت مدينة "جبيل" من جديد ضمن الشبكة التجارية المصرية و توطدت العلاقات معها مثلما كان عليه الحال خلال الدولة القديمة، بل إزدادت الصلة التجارية بين مصر و الشاطئ السوري على حد تعبير "أحمد فخري" ، و الذي يرى بأن « التجارة بين مصر و شرق البحر المتوسط تأخذ سيرها في واحد من طريقتين أحدهما طريق البر و الثاني طريق البحر»⁽⁷²⁸⁾. وكلامه هذا يؤكد أن مصر كانت لها في هذا العصر أيضا بعثات برية موازية للبعثات البحرية ، إلا أنها بالطبع لم تخلدها الآثار المصرية، و بالتالي لم تكن تميز هذا العصر فقط بل عرفت قبل ذلك كما أوضحت قبل قليل.

أود أن أشير إلى أن المبادلات التجارية خلال زمن الدولة الوسطى لم تكن تركز على "جبيل" فقط، ففي هذه المرحلة نسجل أن العلاقات توسعت لتشمل مدينة " أوغاريت " أيضا. كما أن التجار المصريين تجاوزت بعثاتهم

(722) - N. Grimal , histoire de l'Egypte..., Op-Cit ,p. 106.

(723) - محمد بيومي مهران ، الثورة الإجتماعية...، المرجع السابق ، ص. 213.

(724) - G. Dykmans , histoire économique..., Op-Cit , t. 1, p.225.

(725) - J. Pirenne ,Y'eut-il des foires...?, Op-Cit , p. 13.

(726) - J. Duché , les grandes routes du commerce , Op-Cit , p.14.

(727) - C. Lalouette , Thèbes..., Op-Cit , p. 73.

(728) - أحمد فخري ، مصر الفرعونية...، المرجع السابق ، ص. 227.

في الشمال الموانئ إلى التوغل بداخل المدن الساحلية وتركوا بصماتهم هناك وهو دليل على أنهم قد خاضوا مغامرات عديدة في أعالي البحار.

و تشير الدلائل التاريخية إلى أن عهد الملك "سنوسرت الأول" كان قد شهد علاقات وطيدة مع الشمال وخاصة التجارية منها⁽⁷²⁹⁾، و يعني ذلك أنه كان يرسل البعثات إلى هناك.

كما أن الإشارات التاريخية تفيد بأن البعثات كانت مستمرة خلال حكم "أمنمحات الثاني"، ودليل ذلك السلع التي كانت قد وصلت خزينة "تود" المشهورة من السواحل السورية، حيث عثر على هذا الكنز في أساسات معبدته وهو عبارة عن أربعة صناديق تحوي على عديد البضائع الآسيوية، وبما أن العلاقة بين الطرفين في ذلك الوقت كانت تنقسم بالسلم والحركة النشطة للتجارة فيمكن اعتبار ذلك سلعا مستوردة من خلال بعثة "أمنمحات الثاني" أو على الأقل هدية وصلت رفقة البعثة التجارية، فأرسل هذه البعثات التجارية إلى ساحل مدرجات الأخشاب هو إذن أمر مؤكد بالمخلفات الأثرية التي أشرت إليها في المدخل .

ومما يشهد على إرسال البعثات إلى "رأس الشمرا" (أو غاريت) وجود تماثيل صغيرة لإبنة نفس الملك، كما أكتشفت تماثيل لحاكم "ممفيس" و هو Djehouty hotep الذي يعود لفترة حكم الملك " أمنمحات الثاني" (730).

كما إشتهر عهد "سنوسرت الثالث" بإزدهار تجاري كبير وكانت البعثات تروح وتجيء من وإلى مصر⁽⁷³¹⁾. أما " أمنمحات الثالث" فقد تميز عهده بسلام داخلي وخارجي وبالتالي إنعكس ذلك إيجابيا على الناحية الإقتصادية وقد و طد صلات مصر التجارية مع العديد من مناطق ذلك الساحل و على وجه الخصوص المنائين: "جبيل" و "أو غاريت"، وكان يرسل رفقة البعثات التجارية الهدايا، و واصل خلفه "أمنمحات الرابع" سياسته⁽⁷³²⁾. وهكذا كان " أمنمحات الثالث" و غيره من ملوك هذا العصر يسعون لكسب أسواق أوسع في الشمال من أجل ترويج منتجات بلادهم و بالمقابل الحصول على ما تحتاجه مصر بكميات أكبر.

أستخلص من كل ذلك بأن البعثات إلى مدرجات الأخشاب كانت قد إرتبطت في هذا العصر تقريبا بكل ملوك هذه الدولة، كما ألاحظ غياب تام لتخليد هذه البعثات على المعالم المصرية مثلما حدث مع بعض البعثات الهامة خلال الدولة القديمة، وهذا يدل حسب رأيي على أن البعثات أصبحت أمرا روتينيا و متكررا، و بالتالي لم تعد بنفس الإنبهار الذي ميز الدولة القديمة.

المطلب الرابع: البعثات التجارية خلال الدولة الحديثة

لقد إهتمت مصر خلال الدولة الحديثة بكل موانئ الساحل الشرقي للبحر المتوسط، والتي كانت في هاته الفترة تعمل على تصريف تجارة الشرق الأدنى وشرق البحر المتوسط، و وسعت مصر كذلك إهتمامها إلى المدن السورية التي كانت تراقب طرق القوافل الداخلية المؤدية إلى الممالك الآشورية الكبيرة⁽⁷³³⁾. بل إن "أو غاريت" كانت منذ منتصف القرن الخامس عشر مرتبطة مع مصر بحلف إقتصادي و هو يصب في مصلحة الطرفين، الأولى كانت ترغب في أن تكون بلادها محمية من هجمات أجنبية ، و رأت أن ذلك تحققه لها مصر بإعتبارها قوة إقتصادية كبرى ، و بالمقابل كانت مصر ترى في "أو غاريت" قاعدة هامة للتجارة البحرية و البرية و لا بد من الإستفادة منها⁽⁷³⁴⁾.

ويمكن أيضا ذكر مدينة "صور" التي برزت بقوة منذ أواخر عصر الدولة الحديثة بمصر وتزعمت المدن الفينيقية وهو ما توضحه بصورة جلية مرثية "حزقيال" حينما كان يعدد المتاجر التي تدخل هذه المدينة من عديد المناطق بما فيها مصر.

و على العموم فإن المكتشفات في كل من الشرق الأدنى وكريت أكدت ما جاءت به التواريخ المصرية والإغريقية، فإبتداء من القرن السادس عشر إلى غاية القرن العاشر أو التاسع ق.م إتسمت الفتوحات المصرية بسيادة الفرعون على تجارة كل الحوض الشرقي للبحر المتوسط بما فيها فلسطين والساحل الفينيقي وسوريا وآسيا الصغرى (Cilicie) وجزر أخرى. وبين بداية القرن الخامس عشر وأواسط القرن الثالث عشر (1500-1350 ق.م) وبصورة مباشرة أو غير مباشرة، وبواسطة أتباعه وموظفيه أو بواسطة أساطيل المدن السورية،

(729) - عبد الرحمان الرفاعي ، تاريخ الحركة القومية ...، المرجع السابق ، ص. 60.

(730) - N.Grimal , Op-Cit , p. 218.

(731) - إليزابيث رايفشتال ، طيبة ...، المرجع السابق ، ص 40.

(732) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 181.

(733) - B. Manley , Op-Cit , p. 63.

(734) - كلود شيفر ، حفريات رأس شمرا...، المرجع السابق ، ص. 140.

كان الفرعون يتدخل في الشؤون السياسية والتجارية للمتوسط⁽⁷³⁵⁾، لدرجة أن البعض يرى بأن تلك المنطقة أثناء القرن الخامس عشر ق.م أصبحت جزء من إمبراطورية مصر⁽⁷³⁶⁾. لكن تلك السيادة لم تكن سيادة مباشرة كاعتبار هذه المناطق مستعمرات تابعة لمصر بل كانت إسمية تعود لتفوق مصر وإحتكارها للتجارة في هذا البحر وذلك من أجل أن تحتفظ بعائدات التجارة كما يرى "ولسن"، ومن بين البعثات المهمة التي حدثت خلال زمن الدولة الحديثة نذكر بعثة الملك "تخوتمس الثالث" الذي أرسل أمين الخزينة "سينيفير" (Sennefer) في بعثة كبيرة من أجل إحضار أخشاب الأرز⁽⁷³⁷⁾. لكن الأحداث التي تلت هذا الملك لا تذكر الكثير عن العلاقات التجارية بين الطرفين ماعدا إشارات قليلة إلى غاية زمن العمارنة والتي تثبت حدوث تدهور في هذا المجال⁽⁷³⁸⁾. ليس ذلك فحسب بل أن الأحداث التي سبقتها لم تذكر مثل هذه البعثات، وقد إندهرت حين علمت أن الأسرة الثامنة عشر عرفت معها التجارة المصرية إنطلاقة واسعة لا تخلد فيها بعثات مهمة إلى هناك، وإن كان الأمر يبدو مقبولا بعد حكم الملك "تخوتمس الثالث"، لأن حكام هذه الأسرة الذين أتوا بعده لم يكونوا بنفس قوته وعظمته، إلا أن الأمر لا يمكن تقبله عندما يتعلق مثلا بالملكة "حتشبسوت"، التي يرى فيها الكثير من المؤرخين أنها لم تول عناية لتجارة البحر الأبيض المتوسط، بل أن إهتمامها في هذا المجال كان منصبا باتجاه تجارة البحر الأحمر و أواسط إفريقيا – كما سأتي على ذكر ذلك لاحقا -، إلا أنني لا أرى في ذلك حجة مقنعة و سبب كاف، لأنه بكل بساطة لو تأملنا الأسطول التجاري الذي يعود إلى زمن هاتمة الملكة وكذلك معبدها بالدير البحري لوجدنا أن الأخشاب المستعملة كانت أخشاب سواحل البحر المتوسط، و هو في رأيي دليل قوي يمكن أن يؤخذ به عند القول بأن هذه الملكة قد سبّرت بعثات في البحر الأبيض المتوسط. وبما أن إهتمامها الأول والأخير كان التجارة فلا بد أنها لم تول عناية فقط بتجارة البحر الأحمر وإفريقيا، بل كانت تهتم بالتجارة مع كل جيرانها و في كل الإتجاهات لأهمية كل منطقة وخصوصيتها في التجارة المصرية، و لو أنها لم تخلد بعثاتها في البحر المتوسط كما فعلت مع بعثتها في البحر الأحمر، و هو أمر حسب ما أرى ليس إستثنائيا لأنها أيضا لم تخلد بعثاتها البرية - النهرية إلى إفريقيا، كما أن بعثتها إلى "بونت" لم تكن في إعتقادي الوحيدة طيلة حكمها و كل ما فعلته هو تخليد واحدة منها على إعتبارها فاتحة لبعثات البحر الأحمر بعد إنقطاع طويل، و ربما السبب في عدم العثور على دليل كتابي أو مادي على بعثاتها في البحر الأبيض المتوسط يعود لإتلاف مخلفاتها المادية و الأدبية من قبل أعدائها الذين حكموا بعدها من أجل طمس كل أثر لها.

و مع الأسرة التاسعة عشر نسجل إزدياد حركة التجارة خاصة منذ زمن "رمسيس الثاني"، حيث كانت البعثات متواصلة مع الساحل الشرقي للمتوسط، وتضاعفت الحركة التجارية عما كانت عليه أثناء الأسرة الثامنة عشرة، فقد كان الطريق المائي يعجّ بالسفن التجارية ذهابا وإيابا، كما أن الطريق البري الموازي على طول الساحل عبر برزخ السويس كان له دور بارز خلال هاتمة الفترة⁽⁷³⁹⁾، في حين أن دوره في المراحل السابقة كان ضئيلا أو منعما أحيانا لأنه لم يوجد ذكر لبعثات صريحة عبره. كما أن زمن "رمسيس الثالث" إتسم بالازدهار التجاري خاصة بعد أن رد خطر شعوب البحر⁽⁷⁴⁰⁾. وكنت قد ذكرت في الفصل الأول بأن هذا الملك كان يملك أسطولا تجاريا عد أعظم أسطول في ذلك الوقت.

أود أن أشير إلى أن البعثات خلال الدولة الحديثة كانت بنفس كثافتها خلال الدولة الوسطى، هذا إن لم تكن بصفة أكبر رغم عدم تخليد عدد منها على الآثار المادية أو الكتابية، و قد يقول قائل أن ذلك يعود إلى وجود التجار الأجانب و بروزهم في هذا العصر بقوة و الدليل الذي قد يتخذه البعض كثرة المشاهد التي تظهرهم في حين تقل في عهود سابقة، مما يجعل البعثات لا تكون بتلك القوة التي كانت عليها زمن الدولة القديمة، لكنني أرى أنه رغم ما للتجار الأجانب من بروز في التجارة المصرية - و هو ما سأطرق إليه لاحقا - إلا أنه لم يثبت تاريخيا أن هؤلاء كانوا يجلبون الأخشاب إلى مصر، رغم عديد التفاصيل التي تتناول مختلف منتوجاتهم، و هو في رأيي دليل كاف على أن البعثات ظلت على نفس وتيرتها، لأن مجالات إزدهار الحضارة المصرية كانت هي نفسها.

V. Bérard , Op-Cit , p.201. - (735)

W. Hyde , Op-Cit , p. 41. - (736)

J.A. Wilson , l'Egypte..., Op-Cit , pp. 182 -183. - (737)

(738) - نجيب ميخائيل إبراهيم ، المرجع السابق ، ص. 90.

(739) - محمد عزة دروزة ، المرجع السابق ، ص. 113.

(740) - نجيب ميخائيل إبراهيم ، المرجع السابق ، ص. 96.

و بعد الدولة الحديثة وجدت إشارات تتناول البعثات التجارية على فترات متقطعة منها الإشارة من خلال الآثار إلى عودة الصلات التجارية بين كل من "ششينق الأول" أول ملوك الأسرة الثانية والعشرين، وأمراء "جبيل"، بعد أن كانت تلك الإتصالات قد توقفت خلال الأسرة السابقة (الواحدة والعشرون) (741).

أما خلال الأسرة السادسة والعشرين و تحديدا زمن الفرعون "نخاو الثاني" كانت مدن الساحل الفينيقي قد وقعت مجددا تحت النفوذ المصري، مثلما كان عليه الحال أثناء الدولة الحديثة، و ذلك بفضل إحياء الأسطول المصري وتقويته وجعله قادرا على بسط سيطرة مصر على الحوض الشرقي للمتوسط وإعادة نفوذها التجاري لأن قوة مصر في تفوقها التجاري (742). و هذا دليل واضح على أن هذا الملك كان يرسل البعثات إلى مدرجات الأخشاب مثلما كان الحال زمن الممالك الثلاث.

إلا أن الأدلة التاريخية خلال هاته الأسرة تثبت حدوث بعثة إلى الساحل الفينيقي وهي بعثة "بسماتيك الثاني" الذي وصل إلى الحكم بعد والده "نخاو الثاني" سنة 593 ق.م ، ولو أن فترة حكمه كانت قصيرة حيث توفي سنة 588 ق.م إلا أنه تمكن من القيام بنفسه على رأس بعثة بزيارة الهيكل المصري القديم و المشهور بـ " جبيل" سنة 591 ق.م (743).

المطلب الخامس: الواردات والصادرات

من خلال ما أتيت على ذكره من علاقات تجارية بين مصر و سواحل مدرجات الأخشاب عبر مختلف مراحل العصر الفرعوني بما فيها من قوة وضعف، وإستمرار وتوقف، وهذا طبعا في ظل ما توفر من معلومات أثرية وتاريخية حول الموضوع، أصل إلى الحديث عن السلع التي هي محل التبادلات وبدونها لا تحدث التجارة أساسا، وعن تنوعها هل هي متنوعة أم إقتصرت على نوع محدد؟، وهل هي كمالية - كما يرى البعض - أم ضرورية؟، هل عرفت تطورات من مرحلة إلى أخرى أم ظلت الحاجة ثابتة لنفس المواد؟.

و قبل ذلك أود أن أطرح تساؤلا حول معنى "الجزية" لدى المصريين، فهؤلاء كانوا يطلقون لفظ الجزية على ما يأتيهم من الخارج، وفي الحقيقة لم يكن في غالب الأحيان كذلك، بل كان نتيجة أو ثمرة لتبادل تجاري. و يبدو أن مصر لم تكن وحدها بين شعوب العالم القديم التي تطلق على السلع التجارية إسم جزية، بل أن ممالك الصين كانت تجعل السلع التجارية جزية، و يوضح ذلك "أحمد فخري" من خلال العبارات التالية: «جرت العادة في بعض الممالك مثل الصين إلى ما قبل عصرنا الحاضر بقليل وفي أوائل هذا القرن، على إعتبار ما يأتي إليهم من هدايا من أي مملكة أخرى على أنه جزية يرسلها ذلك الشعب، وإعتبار أي خطاب من خطابات المودة التي يرسلها رؤساء الدول الأخرى أنه تقديم للطاعة و الخضوع» (744).

أ - الواردات :

كما عرفنا سابقا، فإن أخشاب لبنان كانت المنتج الذي يجذب المصريين أكثر من كل المنتوجات الأخرى وهو أساسي في قيام العلاقات التجارية بين الطرفين، وهي مادة ذات قيمة أولى لعديد الحرف والصناعات والبناءات المصرية ، فإستيراد الأخشاب يأتي في الدرجة الأولى ، وهي على مختلف أنواعها ، و لو أن الأرز يأتي في مقدمتها ، ومنها الصنوبر، الشوح ، قسطوس (Lif) ، لأن هذه الأخشاب كان لا بد من الحصول عليها بكميات كبيرة أثناء فترة كل حاكم من أجل المساكن، المعابد و المدافن. فمدينة "جبيل" كان موردها الأساسي هو الأخشاب التي كانت تقطعها حيث تشكل أهم صادراتها بإتجاه مصر، فهذه المدينة إرتبط إسمها بتجارة الأخشاب إرتباطا وثيقا لعهود طويلة منذ عهد الدولة القديمة حتى عصر البطالمة، إلا أن الواردات المصرية لم تقتصر فقط على هذا النوع من الأشجار بل تعدته إلى إستيراد مواد أخرى لا تقل أهمية عنها من حيث ضرورتها للحضارة المصرية ومنها الزيت والراتنج واللذان كانا يعبان في أواني فخارية ، وكان الراتنج مهما في عملية التحنيط، وكذلك الخمور وبعض المعادن كالنحاس والفضة، دون أن ننسى الثياب الأرجوانية التي إشتهر بها سكان الساحل الكنعاني (745). وكانت هناك أيضا بعض المواد المستوردة كالأصبغ الغابية وكذلك الراتنج الذي كان يستعمل أيضا كمادة لتوشيح المراكب ومنها راتنج الأرز والشوح، وهي على ما يبدو كانت تستورد منذ زمن قديم جدا فقد وجدت بقايا لها منذ زمن حضارة "البداري" (746).

(741) - أحمد أمين سليم ، المرجع السابق ، ص. 214.

(742) - محمد بيومي مهران ، الحضارة المصرية...، المرجع السابق ، ص. 227.

(743) - H. Gauthier , Op-Cit , p. 208.

(744) - أحمد فخري ، مصر الفرعونية...، المرجع السابق ، ص. 60.

(745) - محمد الخطيب ، مصر أيام الفراعنة ، المرجع السابق ، ص. 143.

(746) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p. 204.

أما مادتي الزيت والخمور فقد كانتا مهمتين جدا لمصر لأنهما كانتا تدخلان في عمليات التحنيط، كما كانت مصر تستورد من الساحل الفينيقي بعض المنتجات من المناطق الأبعد، منها مادة السيج (الأوبسيديان) واللازورد والأواني الفخارية خاصة خلال الفترة الأولى من العصر الفرعوني حيث كانت تحمل فيها المواد السائلة كالزيت (747)، وهناك إشارات إلى مثل هذه الزيوت من خلال بعثة "ساحورع" التي حفظت لنا على معبده فمن بين ما جلب جرار من طين عالية مملوءة بالزيوت الثمينة (748).

و لو حاولنا معرفة الكميات التي كانت تجلب من المواد خلال البعثة الواحدة لوجدنا صعوبة في ذلك لأنه لم ترد بالتدقيق إشارات من هذا النوع في كل بعثة.

هناك أشياء أخرى كانت تجلب من منطقة مدرجات الأخشاب وهي الدببة، حيث أن أسطول "ساحورع" حمل دببة جلبت لتوضع في حديقة هذا الملك (749). ومن إيرادات مصر من هناك بعض المعادن مثل النحاس الذي ثبت إستيراده خلال الدولة الوسطى، وكذلك معادن أخرى كانت تجلب من مناطق أبعد من سواحل البحر منها الفضة والأحجار الكريمة، وهي المنتجات التي كانت تدخل الأسواق هناك من مناطق العالم القديم، من بلاد ما بين النهرين وإيران والأناطول وبلاد العرب. ومن واردات مصر أيضا مادة الرصاص الذي كان مصدره آسيا و شاع إستعماله خلال السلالة الثامنة عشرة (750)، وخلال العصر المتأخر عرفت ضمن واردات مصر مادة العسل من كل من سوريا واليونان.

فواردات مصر خلال الدولة الوسطى نتعرف عليها من خلال واردات عصر "أمنمحات الثاني"، وهي تتمثل في الفضة واللازورد، وكانت الأعمال الفنية الكريتية والبابلية تدخل مصر وقد وجد بعض منها في كنز "تود" - المشار إليه سابقا - وكذلك الأختام الأسطوانية من بلاد ما بين النهرين العائدة للأسرة الثالثة بأور (1950-2050 ق.م). كما تميز عصر هذا الملك والذي عرف توسعا تجاريا كبيرا، على عكس الدولة القديمة، بوجود سوق للعبيد تأكد وجودها من خلال العدد المرتفع من العبيد الآسيويين في مصر (751)، لأنه وجد كنعانيون كانوا يعملون في مناجم الفيروز والنحاس في "سيرابيط الخادم" حيث فسر ذلك على أنهم أسرى موقوفين في الدلتا وكانوا يقتادون فصليا إلى المناجم تحت حراسة مسلحة، لكن البعض الآخر رجح بأنهم عبيد جلبوا من آسيا، وبذلك فإن تجارة مصر مع الشمال كانت تدخل من ضمنها تجارة العبيد (752)، لكن هناك من يرى بأن تجارة العبيد مع الشمال تعود إلى قبل ذلك التاريخ بكثير، ويرجعها إلى زمن الدولة القديمة، لأن بعضهم فسر وجود الآسيويين الذين جلبوا مع بعثة "ساحورع" على أنهم دخلوا مصر بصفتهم عبيدا (753). ولو أنني أرى هذا التفسير في هذه الحالة بالذات أمرا مستبعدا، لكن بالطبع لا يمكن نفي وجود تجارة العبيد خلال عصر السلالات ككل ولدينا في قصة "يوسف" - عليه السلام - دليلا ساطعا، وقد ورد في الذكر الحكيم قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ وَأَسْرَوهُ بَضَاعَةٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ، وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ، وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا... ﴾ (754). وجاء أيضا في التوراة مايلي: «و اجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر، و باعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة. فأتوا بيوسف إلى مصر» (755). وأستنتج من ذلك بأنها ليست حالة إستثنائية بل حالة عامة تصور لنا مدى إنتشار هاته التجارة خصوصا إذا علمنا العدد الكبير منهم الذي كان يعمل في بلاط الملوك وفي ممتلكات النبلاء والأعيان.

من جهة أخرى نجد إستيراد الفضة قد شاع على ما يبدو في زمن الدولة الوسطى فابتداء من سنة 1950 ق.م أصبح هذا المعدن متداولاً بكثرة نتيجة لتوسع التجارة الخارجية (756).

(747) - والتراب إمري، المرجع السابق، ص. 192.

(748) - Erman et Ranke, Op-Cit, p. 688.

(749) - V. Bérard, Op-Cit, p.157.

(750) - فيليب حتّي وآخرون، المرجع السابق، ص. 148.

(751) - E. Hornung, lecture de l'histoire égyptienne, Op-Cit, pp. 75 - 76.

(752) - J.A. Wilson, Op-Cit, p. 183.

(753) - Erman et Ranke, Op-Cit, p. 685.

(754) - سورة يوسف: آية 19 - 20.

(755) - الكتاب المقدس، (دون مكان طبع، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، 1988)، الخروج 37: 25.

(756) - فيليب حتّي وآخرون، المرجع السابق، ص. 147.

أما خلال الدولة الحديثة فأجد ظهور تجارة جديدة وهي تجارة الأحصنة، وما كان يتبع ذلك من إستيراد العربات وإكسسواراتها، وأيضا الأسلحة (سيوف، رماح). كما تميزت واردات هذا العصر بتنوعها ومنها الأشياء الحرفية الآسيوية، الأواني الفخمة من الفضة والذهب، دون أن أنسى الأحجار الكريمة والأواني والأوعية من مختلف الأنواع خاصة الجرار المحتوية للزيت والخمر⁽⁷⁵⁷⁾. أما تجارة الفضة فبعد أن عرفت إنتشارا في الدولة الوسطى ضلت متواضعة لتصبح في الدولة الحديثة منتشرة أكثر. ومن أهم الواردات أيضا خلال هذه المرحلة، إضافة إلى النحاس والخشب مختلف الدهانات⁽⁷⁵⁸⁾. ويبرز توسع التجارة خلال هذا العصر العربات التي كانت تصنع في سوريا وكذا المواشي التي كانت تأتي من آسيا الصغرى، ومنتجات غذائية كانت تأتي من جزيرة قبرص، وبالطبع العبيد الآسيويين والساميين، كما برزت الأقمشة الفاخرة كواردات مهمة من سوريا والتي كانت ترتديها نساء الطبقات الراقية في مصر، ومن بين المواشي يمكن ذكر الأبقار والثيران، إضافة إلى الفيلة وأيضا آلات موسيقية مثل "lyres" ومختلف أنواع الناي⁽⁷⁵⁹⁾. هذا ونجد صناعات فينيقية عرفت في مصر خلال الفترات المتأخرة ابتداء من الدولة الحديثة، ومنها: «أسلحة ثمينة مزخرفة وثيابا مزركشة وأواني أنيقة وأثاث ومركبات مرصعة بالذهب والفضة والزهور الإصطناعية في الأواني المعدنية حيث أن الفينيقيين هم أول من فكر في ذلك، وقد كشفت بقاياها في مصر، وكمستوردات سورية نجد أوان مزخرفة بدهان ذي بريق معدني منذ الفراعين الأولين»⁽⁷⁶⁰⁾. وهناك خشب جديد عرف من ضمن واردات مصر خلال عصر الدولة الحديثة وهو خشب شجرة الخروب، وهو أحمر ذو عروق صلبة وكثيفة، لم يظهر في النصوص المصرية إلا ابتداء من هذه الدولة و لم يكن يجلب في شكل خام فقط بل كان يدخل مصر في شكل مصنوعات، كمقاعد وكراسي، وصناديق مغطاة بالذهب والميناء⁽⁷⁶¹⁾.

ب - الصادرات:

أما بخصوص صادرات مصر إلى موانئ مدرجات الأخشاب فهي تتمثل على العموم في معدن النحاس⁽⁷⁶²⁾، وبالطبع لم يكن يرسل خاما بل في شكل مصنوعات مختلفة، كما كانت ترسل المنسوجات والخزف⁽⁷⁶³⁾، ويرى البعض أن السواحل السورية كانت بحاجة إلى ذهب، عسل، حبوب، كتان، حبال وأواني حجرية⁽⁷⁶⁴⁾. لا أعتقد أن هذه المناطق كانت تجلب من مصر العسل لأنني كنت قد أوضحت في الفصل الأول أن من ضمن حاجيات مصر هذه المادة، فكيف تكون مصدرة لها؟، خصوصا و أنني كنت قد أشرت بأن مصر كانت تأتي به من هناك أثناء الكلام عن الواردات.

و تؤكد المعلومات التاريخية بأن صادرات مصر في العصر العتيق كانت قليلة وتتمثل في أواني حجرية إلى كل من جبيل وفلسطين وكريت لكن خلال الأسرة الثانية توسعت قائمة الأشياء المصدرة حيث تمثلت في المواد الخام وبعض المصنوعات⁽⁷⁶⁵⁾، وخاصة المصنوعات من المعادن، كما كانت تصدر الذهب والبردي⁽⁷⁶⁶⁾، ومعلوم أن واردات كل مدن الساحل السوري هي نفس واردات جبيل من مصر، أي أن هذه الصادرات لم ترسل فقط إلى "جبيل"، بل كانت ترسل إلى مناطق ذلك الساحل التي تتعامل معها مصر مثل "أوغاريت" وغيرها. كما كان المصريون يقدمون كمقايضة للأخشاب القطع الفنية والمعادن الثمينة والأقمشة الكتانية ولفائف البردي وجلود البقر وأكياس من العدس ومقادير من الأسماك المجففة وهو ما يكشف عنه نص أحد كهنة آمون وهو "أونامو". وكان معدن الذهب مطلوبا جدا من قبل جبيل، و التي كانت مصر تزودها به. كما نجد أن مصر كانت تصدر قماش الثيل إلى تلك الموانئ⁽⁷⁶⁷⁾، وكان إقبال هاته الأخيرة كبيرا على صوف وأقمشة مصر

(757) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 692.

(758) - B. Manley , Op-Cit , p. 64.

(759) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 692.

(760) - فيليب حثي و آخرون ، المرجع السابق ، ص. 147.

(761) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 692.

(762) - أحمد أمين سليم وسوزان عباس ، دراسات في تاريخ مصر ... ، المرجع السابق ، ص. 153.

(763) - نجيب ميخائيل إبراهيم ، المرجع السابق ، ص. 80.

(764) - محمود عبد الحميد أحمد ، الصلات التجارية بين مصر وسورية...، المرجع السابق ، ص. 195.

(765) - والتراب إمري ، المرجع السابق ، ص. 193.

(766) - محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص. 143.

(767) - محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص. 441.

وخاصة الكتان الخفيف الذي كان مرغوباً فيه بدرجة كبيرة⁽⁷⁶⁸⁾، فالأقمشة المصنوعة من الكتان كانت أساسية في صادرات مصر، ويمكن أيضاً أن أشير إلى القطن، و الثياب المطرزة خاصة من مادة الكتان. ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن أهم محصول زراعي كان يعد من صادرات مصر طيلة العصر الفرعوني هو القمح، كما كانت مصر تصدر بعض الأنواع من الحجارة منها: الشب وكذلك الأحجار الكريمة مثل: الياقوت الأصفر (زبرجد Topages)، والزمرد، أما أشهر الأواني نجد أواني Murrhins وقد عدت المصرية منها الأثمن، وكانت تجارتها مهمة في تلك العصور، أما البردي فكان يصدر بكميات صغيرة وكان يعود بفائدة كبيرة على مصر⁽⁷⁶⁹⁾، وهذا راجع لقيمتها الكبيرة لدى تلك الشعوب، وقد زاد الإقبال عليه وكثر تصديره إنطلاقاً من مصانع الدلتا خلال الدولة الحديثة، وكان يصدر في شكل أوراق لإستخدامه كورق للرسائل أو في شكل ظفائر وأيضاً كحبال⁽⁷⁷⁰⁾. ومن المصنوعات الجرات الذهبية والفضية والجلود المدبوغة والأسلاك ولفائف البردي وكل هذه الصناعات كانت تصدر أيضاً إلى موانئ " صور " و " صيدا " و من هنا إلى " بابل " و " قبرص " ⁽⁷⁷¹⁾. إضافة إلى ذلك فإن الدولة الحديثة تتميز بصادراتها من الذهب والعاج ومنتجات إفريقية أخرى، وكذلك كانت تصدر بعض حرفيها وأطبائها الذين ترددت شهرتهم في كل العالم القديم⁽⁷⁷²⁾. ورغم تنوع وتعدد صادرات مصر إلا أن الذهب يبقى أهمها خلال هذا العصر، والذي كان ذائع الصيت ومرغوباً فيه من قبل الآسيويين⁽⁷⁷³⁾، وأشياء أخرى دقيقة مثل اللآلئ والخزف، و تماثيل صغيرة وجعارين⁽⁷⁷⁴⁾، دون أن أنسى ذكر الأواني الزجاجية التي لعبت دوراً هاماً كسلع تجارية، ولمزيد من التوضيح العودة إلى الفصل الأول، ص 84.

من خلال هذا العرض لصادرات و واردات مصر من موانئ ساحل مدرجات الأخشاب أستنتج أنه كان من بينها مواد جرى تبادلها طيلة فترات العصر الفرعوني أهمها الأخشاب والقمح والكتان والأحجار الكريمة والذهب والبردي، وأشياء أخرى برزت كمعادن تبادل في الفترات المتأخرة إبتداء من الدولة الحديثة مثل الأحصنة والعربات والأسلحة وبعض الصناعات النسيجية والأواني. كما كانت هناك مواد تشتهر مصر بتصديرها وأصبحت فيما بعد مستوردة لها وأقصد معدن النحاس، وهناك سلع أخرى كانت تعرف فيها مصر إكتفاء وأصبحت مستوردة لها وهي العسل، من جهة أخرى أرى بأن السلع التجارية المتبادلة بين مصر والحوض الشرقي للبحر المتوسط رغم أنه يطلق عليها تجارة الأخشاب إلا أنها في الحقيقة هي تجارة متنوعة السلع سواء كانت الواردة منها أو الصادرة، وتنوعها هذا لا يجعل منها سلعة كمالية كما يحلو للبعض تسميتها، بل هي ضروريات وحاجيات بين الطرفين، لأن وجودها كان ضرورياً، فلولاها كيف يمكن أن نتصور الإزدهار الذي وصلت إليه الحضارة بمختلف جوانبها لو لم تساهم تلك التبادلات في توفير حاجيات مصر، ويمكن أن نتصور كم كانت حاجة الشعوب الأخرى لما تنتجه مصر وكم كان ذلك ضرورياً لها.

وأصل إلى القول بأن الفترة من بداية الألف الثالثة إلى نهاية الألف الثانية هي قمة إزدهار التجارة المصرية وسيادتها على الحوض الشرقي للبحر المتوسط ولو أنها عرفت إنكماشاً في فترات معينة، وبالتالي فزمن بداية التجارة المصرية يعود إلى ما قبل ذلك بكثير وتواصل بعد هذه المرحلة لكن لم يكن على نفس المستوى وكان على فترات متقطعة. كما أن توزيع النفوذ بين الشعوب أخذ في الظهور منذ منتصف الألف الثانية، إذ نجد بروز شعوب أخرى في كل من " كريت " و " فينيقيا " ليتراجع أمامها نفوذ مصر التجاري.

و في ختام الكلام عن البعثات التجارية في البحر المتوسط رأيت أنه من المفيد حوصلة ما ذكرته عنها في جدول، و لو أنه كان بودي أن أضع فيه سنوات محددة بدقة لكل البعثات، لكن ذلك لم يكن بالأمر السهل لغياب ذكر تواريخ أغلبها في المصادر، و لذلك إكتفيت بذكر الفترة التي يمكن أن تكون قد حدثت فيها وذلك بحصرها خلال فترة حكم كل ملك حدثت في زمنه البعثات. كما كان بودي أن أعطي أرقاماً عن كميات السلع المتداولة، إلا أن ذلك كان بدوره أمراً مستحيلاً في ظل غياب تقديرات عنها.

جدول رقم 1: البعثات التجارية في البحر المتوسط

(768) - أحمد حامدة، المرجع السابق، ص. 69.

(769) - D.M.J. Henry, l'Egypte pharaonique..., Op-Cit, p. 455.

(770) - L.Casson, Op-Cit, p. 30.

(771) - روايات وقصص مصرية، ص. 274.

(772) - B. Manley, Op-Cit, p. 64.

(773) - E. Cavaignac, histoire générale de l'antiquité, Op-Cit, p. 104.

(774) - L. Casson, Op-Cit, p. 30.

الصادرات	الواردات	ملاحظات	الفترة الزمنية	البعثات التجارية	
- أواني حجرية - الحبوب وخاصة القمح - الذهب - لفائف من البردي - تستعمل كأوراق للكتابة - مصنوعات من - البردي مثل الحبال - و الظفائر - الخزف - المصنوعات خاصة - المعدنية مثل النحاسية - القطع الفنية - تماثيل - الأقمشة الكتانية - قماش الثيل - جلد الأبقار - أكياس من العدس - النبيذ - الصوف - القطن - الثياب المطرزة - الأسماك المجففة - جرار ذهبية وفضية	- الأخشاب - الزيوت - الراتنج - الخمور - المعادن خاصة - الذهب، النحاس، - الفضة والرصاص - الثياب الأجنبية - الأصباغ الغابية - الأوبسيديان - اللآزورد - العبيد - العسل - الدببة - المواشي - الفيلة - الأحصنة - العربات - الأسلحة الفاخرة - الآلات الموسيقية - الزهور - الإصطناعية في - الأواني المعدنية	* - جرى تخليد بعض من - بعثات الدولة القديمة بتصويرها - على جدران المعابد مثل بعثة - الملك ساحورع وأخرى جرى - تخليدها كتابيا في عديد الوثائق - المصرية كتسجيلها على مختلف - أنواع المباني. * - البعثات متواصلة منذ عهد - سنفرو إلى آخر زمن الدولة - القديمة	بين 2609 و 2630 و 2605 و 2580 // // 2490 و 2500 و 2380 و 2350 // // 2330 و 2350 و 2280 و 2330 // // 2200 و 2270 //	* <u>الأسرة الرابعة</u> - بعثات "سنفرو" - بعثات "خوفو" * <u>الأسرة الخامسة</u> - بعثة "ساحورع" - بعثة " أونيس" * <u>الأسرة السادسة</u> - بعثة " نيتي" - بعثات " بيبى الأول" - بقيادة " أونى" - بعثات " بيبى الثاني" (إحدى عشرة بعثة).	الدولة القديمة
- الجلود المدبوغة - المصنوعات العاجية - الشب - الأحجار الكريمة مثل - الياقوت الأصفر - والزمرد واللؤلؤ - الأواني الزجاجية.	- أواني مزخرفة - الثياب - المزركشة - أثاث ومركبات - مرصعة بالذهب - والفضة - خشب الخروب - خام - كراسي وصناديق - مصنوعة من - الخروب ومغطاة - بالذهب والمينا	* - لم يسجل ذكر للبعثات خلال - الأسرة الحادية عشر. * - كل الملوك الكبار في - الأسرة الثانية عشرة أرسلوا - بعثات. * - لم تكلد البعثات في شكل - صور على المعالم المصرية - وإقتصر ذكرها من خلال - النصوص الكتابية، وحسب - إعتقادي فإن البعثات أصبحت - أمرا روتينيا.	بين 1919 و 1964 و 1881 و 1919 و 1854 و 1872 و 1809 و 1853 و 1800 و 1809 //	- بعثات "سنوسرت الأول" - بعثة "أمنمحات الثاني" - بعثات "سنوسرت الثالث" - بعثات "أمنمحات الثالث" - بعثات "أمنمحات الرابع"	الدولة الوسطى
- الجلود المدبوغة - المصنوعات العاجية - الشب - الأحجار الكريمة مثل - الياقوت الأصفر - والزمرد واللؤلؤ - الأواني الزجاجية.	- أواني مزخرفة - الثياب - المزركشة - أثاث ومركبات - مرصعة بالذهب - والفضة - خشب الخروب - خام - كراسي وصناديق - مصنوعة من - الخروب ومغطاة - بالذهب والمينا	* - لا توجد معلومات كثيرة عن - البعثات التجارية ماعدا بعض - الإشارات القليلة. * - إنقطاع البعثات خلال - مرحلة " تل العمارنة". * - عودة البعثات مع الأسرة - التاسعة عشر. * - عدم تخليد صور لبعثات - الدولة الحديثة على المعالم - الأثرية. * - لم تكن البعثات خلال هذا - العصر بحرية فقط بل كانت - برية بموازة الخط البحري. * - الإشارات التاريخية عن - وجود البعثات تعود إلى فترات - متفرقة بعد الدولة الحديثة، مما - يدل على أنها كانت غير متصلة - منذ عهد "رعمسيس الثاني".	// 1424 و 1479 و 1212 و 1279 و 1153 و 1185 و 885 و 924 // // 595 و 610 و 591 سنة //	* <u>الأسرة الثامنة عشر</u> - بعثة "تحتتمس الثالث" : - قائد البعثة "سينفير" - أمين الخزينة. * <u>الأسرة التاسعة عشر</u> - بعثات "رعمسيس الثاني" - بعثات "رعمسيس الثالث" * <u>الأسرة الثانية والعشرون</u> - بعثة "ششبنق الأول" * <u>الأسرة السادسة والعشرون</u> - بعثات "نخاو الثاني" - بعثة "بسماتيك الثاني" (زار جبيل بنفسه)	الدولة الحديثة

المراجع:

- 1- W. Hyde , Ancient Greek...Op-Cit, p.31.
- 2 - ن.ي ، تاريخ توت عنخ آمون، المرجع السابق ، ص. 97.
- 3 – عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم...، المرجع السابق ،ص ص. 101،181.
- 4 - M. Tariel , chronique des civilisations...,Op-Cit, p. 41.
- 5 - C. Lalouette, l'empire des Ramsès, Op-Cit , pp. 33- 34.
- 6 - H. Gauthier , l'Egypte pharaonique , Op-Cit , pp. 77,208.
- 7 - L.Casson , les marins de l'Antiquité..., Op-Cit , pp. 15,30.
- 8 - جيمس هنري برستيد ، العصور القديمة ، المرجع السابق ، ص. 40.
- 9 - G. Rachet , dictionnaire de la civilisation..., Op-Cit , pp. 38 , 157.
- 10 - W. Culican , le levant et la mer..., Op-Cit , p.18.
- 11 - T.Save – Soderbergh , the Navy ..., Op-Cit, p. 32.
- 12 - محمد عزة دروزة ، تاريخ موجات الجنس العربي...، المرجع السابق ، ص ص 57، 113.
- 13 - محمد بيومي مهران ، الثورة الإجتماعية...، المرجع السابق ، ص ص. 211، 213.

- 14 - فيليب حتي وآخرون ، تاريخ العرب...، المرجع السابق ، ص ص. 137، 147-148.
- 15 - N. Grimal , histoire de l’Egypte..., Op-Cit , pp. 106,218.
- 16 - G. Dykmans , histoire économique..., Op-Cit , t. 1, p.225.
- 17 - عبد الرحمان الرفاعي ، تاريخ الحركة القومية ...، المرجع السابق ، ص. 60.
- 18 - إليزابيث رايفشتال ، طيبة ...، المرجع السابق ، ص 40.
- 19 - J.A. Wilson , l’Egypte..., Op-Cit , pp. 182 -183.
- 20 - أحمد أمين سليم ، في تاريخ الشرق الأدنى...، المرجع السابق ، ص. 214.
- 21 - محمد الخطيب ، مصر أيام الفراعنة ، المرجع السابق ، ص. 143.
- 22 - G. Dykmans, Op-Cit , t. 2, p.204.
- 23 - والتراب إمري ، مصر في العصر العتيق... ، المرجع السابق ، ص ص. 192-193.
- 24 - Erman et Ranke , Op-Cit , pp. 685,688,692.
- 25 - V. Bérard , les Phéniciens ..., Op-Cit , p. 157.
- 26 - E. Hornung , lecture de l’histoire égyptienne , Op-Cit , pp. 75 -76.
- 27 - الكتاب المقدس ، (دون مكان طبع ، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ، 1988) ، الخروج 37 : 25
- 28 - B. Manley , Atlas historique .., Op-Cit , p. 74.
- 29 - أحمد أمين سليم وسوزان عباس ، دراسات في تاريخ مصر ... ، المرجع السابق ، ص. 153.
- 30 - نجيب ميخائيل إبراهيم ، مصر و الشرق الأدنى...، المرجع السابق ، ص. 80.
- 31 - محمود عبد الحميد أحمد ، الصلات التجارية بين مصر وسورية...، المرجع السابق ، ص. 195.
- 32 - محمد السيد غلاب ، الساحل الفينيقي ...، المرجع السابق ، ص. 441.
- 33 - أحمد حامدة ، التجارة الكنعانية...، المرجع السابق ، ص. 69.
- 34 - D.M.J. Henry , l’Egypte pharaonique..., Op-Cit , p. 455.
- 35 - روايات وقصص مصرية ، ص. 274.
- 36 - E. Cavaignac , histoire générale de l’antiquité , Op-Cit , p. 104.

المبحث الثاني: البعثات التجارية في البحر الأحمر

تعرفنا على أهمية البعثات التجارية المصرية في البحر الأبيض المتوسط، والدور الذي لعبته في ربط مصر بمناطق سواحل هذا البحر، والتي كانت نتيجتها بسط النفوذ التجاري المصري هناك، ونجد نفس الدور قد لعبته البعثات التجارية المصرية في البحر الأحمر. فإذا كان المتعارف عليه إطلاق "تجارة الأخشاب" مجازاً على تجارة البحر المتوسط، فإنه أطلق على سلع البحر الأحمر "تجارة البخور". وإذا كان تحديد مناطق سواحل البحر المتوسط التي تعاطت معها مصر التجارة دقيقاً و دون صعوبات فإن الأمر مع المناطق الساحلية للبحر الأحمر و التي عقدت معها مصر صلات تجارية كان على العكس من ذلك، فهو مسألة متشابكة ومعقدة، ودارت حولها العديد من الآراء والتناقضات. فما السبب في ذلك؟، ماذا تقول الوثائق المصرية عن بلاد البخور؟، ما أهميتها بالنسبة لمصر؟، وما هي البعثات التجارية التي أرسلت إلى هناك؟.

المطلب الأول: التعريف ببلاد "بونت"

إن كلمة "بونت" ورد ذكرها حصرياً في النصوص المصرية، لأن هذه التسمية خلت منها وثائق كل الشعوب سواء كانت الأدبية أو الأثرية، و مع أن بعض المختصين ذهبوا إلى القول بأن كلمة "بونت" تعود إلى كلمة "أون" بمعنى "باب"، وبالتالي فهي كلمة تعني "باب المندب"، لكن كلمة "أون" هاته ظهرت في فترة تاريخية متأخرة⁽⁷⁷⁵⁾. والبعض يرى بأن "بونت" هو تحريف مصري للإسم المحلي "بون" (Poun)⁽⁷⁷⁶⁾. إن أقدم ذكر لبلاد "بونت" يعود إلى "حجر بالرمو"، كما ذكرت في عديد النقوش التي تعود إلى أشخاص مصريين، الذين ساروا إليها في رحلات عديدة، وبالأخص النقوش التي وجدت على طول الطريق الذي يصل مدينة "قفت" بالبحر الأحمر⁽⁷⁷⁷⁾. كما أن هذه البلاد مثلت لأول مرة على أنية تعود إلى الملك "تيتي" زمن الأسرة السادسة حوالي 2280 ق.م وتعد صورة رمزية لتلك البلاد⁽⁷⁷⁸⁾. إن بلاد "بونت" التي معناها "بلاد الإله"، إسم يعني منذ بداية الدولة الوسطى المناطق الشرقية⁽⁷⁷⁹⁾، وقد تكون أحياناً مشتركة بـ: "To-Nutjr"،

(775) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الأحمر...، المرجع السابق ، ص. 19.

(776) - G. Rachet , Op-Cit , p. 213.

(777) - تريجر وآخرون ، مصر القديمة...، المرجع السابق ، ص ص. 58-59.

(778) - A. Gil – Artagnan , retrouver le pays de Pount , Op-Cit , p. 44.

(779) - N. Grimal , Op-Cit , p. 101.

وتصبح معناها "البلاد المقدسة" أي "أرض الإله"، وذلك بسبب ثراء هذه البلاد بالبخور وهو عنصر أساسي للديانة المصرية، ومن الممكن أن تكون لها علاقة مع الطقوس الآتية من هذه البلاد البعيدة (780). كما أطلقت النصوص المصرية على هذه البلاد عبارة "ختيو عنتبو نوبونت" أي "مدرجات الكندر في بونت" (781)، لكن الصورة الخيالية التي كانت في نظر المصريين عن بلاد "بونت" على أنها "الأرض المقدسة" وكذا ما جاءت به قصة "الملاح الناجي" قد تلاشت زمن الدولة الحديثة و أصبحت واقعية من خلال صور بعثة الملكة "حتشبسوت" والتي جاءت خالية من الخرافات (782).

و رغم أن الوثائق المصرية التي تتكلم عن بلاد "بونت" غير مفصلة فإن هناك وثيقة أعطت تفاصيل مهمة عنها وهي صور بعثة الملكة "حتشبسوت"، فهي المصدر الوحيد الذي يتعرض لتلك البلاد بالتفصيل، والتي عرّفنا عن أهل تلك البلاد في عهد الأسرة الثامنة عشرة، الذين يتميزون بلون بشرة سمراء تميل قليلا إلى الحمرة، كما أن تقاطيع وجهم لا تدل على أنهم زواج فهم بالتأكيد لم يكونوا سودا ولم يكونوا من سكان الجنوب الذين يسكنون على طول النيل مثل أهل "واوات" (النوبة السفلى) و "كوش" (النوبة العليا)، كما أنهم يتميزون بشعر ناعم طويل، لكن منذ عهد "أمنحتب الثاني" و "تحتمس الثالث"، فإن المناظر تثبت إرتداء أهل "بونت" لشعر مستعار، ثم نجد تغير بسيط في تسريحة الشعر حيث تظهرهم الرسوم بعد فترة "تحتمس الثالث" بقصاتهم القصيرة التي تشبه قصة شعر رئيسهم في عهد "حتشبسوت"، أما اللحية فكانت تبدو في كل المراحل بنفس الشكل إذ تتخذ شكلا مخروطيا وهي متدلية من الذقن، وعن لباسهم فالصور أظهرته بسيطا سواء في شكله أو تزيينه، وهو عبارة عن رداء ملفوف حول نصفهم الأسفل ويكون أحيانا طويلا، أما نسائهم فلم يظهرن في الرسوم إلا في إشارات بسيطة (783)، وكانوا يسكنون أكواخا مرتفعة موضوعة على دعامات، وهم يشبهون المصريين وشعورهم طويلة مظفورة جدائل وساق أميرهم مغطاة بحلقات من نحاس (784). من خلال هاته الصفات فإن سكان تلك البلاد كانوا خليطا بين الإفريقيين السود ومهاجرين من جنس سامي من شبه الجزيرة العربية، وهذا ما تدل عليه ملامح كلا الفريقين (785)، ونظرا لدقة تفاصيل تلك البعثة فإننا تمكنا من تخيل صورة بلاد "بونت"، حيث تبدو عبارة عن قرى تمتاز بنخيلها وأكواخها العالية المقامة على أعمدة من سيقان الأشجار وكانت لها سلالم، كما أعطت تلك الصور نماذج لحيوانات تلك البلاد (786).

و في بعض النصوص المصرية التي سبقت بعثة "حتشبسوت" نجد كلمة "بونت" تعني القلعة و الحصن و في مشاهد "الدير البحري" تأكد ذلك من خلال رسم أسوار وبوابة، أي أنهم قصدوا منها تحديد المستعمرة اليونانية، ثم تطورت كتابة هذه الكلمة لتصبح في نصوص لاحقة "بونت" و قد ظلت الاسم الذي يدل عليها (787)، وعلى ما يبدو أن هذا الاسم إرتبط بكل سواحل البحر الأحمر أو أنه يدل على منطقة أبعد ما يصل إليه المصريون في رحلاتهم البحرية و التي تظهر لهم على أنها أرض جديدة، و في نشيد "أمون- رع" نرى "الإله - الشمس" يأتي من "بونت" لينزل في بلاد "Matiaou" بمعنى الليبيين في الغرب أي أن "بونت" تعني بلاد في الشرق (788).

و رغم كل ما جاءت به الوثائق المصرية إلا أنها لم تحدد الموقع الجغرافي لبلاد "بونت"، تاركة بذلك الباب مفتوحا أمام كل الاحتمالات، ولذلك دارت إختلافات كبيرة من قبل المؤرخين الذين يتعرضون إلى دراسة هذا الموضوع. لا أريد الدخول في إبراز هذه الآراء، وأود فقط الإشارة إلى أنها أربعة، وأنا أرجح الرأي الأخير كما رجحه عدد كبير من المؤرخين، و القائل بأنها جنوب الجزيرة العربية و الشرق الإفريقي، وهذا راجع لتوفر هاتين المنطقتين على نفس السلع التجارية التي ترغب مصر في الحصول عليها.

(780) - M. Damiano- Appia , l'Egypte..., Op-Cit , p. 215.

(781) - عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص. 575.

(782) - عبد الفتاح محمد وهبة، مصر و العالم القديم...، المرجع السابق، ص. 311-312.

(783) - تريجر وآخرون، المرجع السابق، ص. 305-306.

(784) - G. Rachet , Op-Cit , p. 213.

(785) - عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص. 575.

(786) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص. 208.

(787) - عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص. 19.

(788) - G. Rachet , Op-Cit , p. 213.

المطلب الثاني: البعثات التجارية خلال الدولة القديمة

إن الإبحار إلى "بونت" البلاد الأسطورية كان قد بدأ زمنا طويلا بعد أن كان سكان وادي النيل قد أصبحوا معتادين على سواحل البحر المتوسط و مناطق خليج السويس أين كانوا يستخرجون النحاس من سيناء، والدليل على ذلك أن المراكب التي كانت تسير في البحر الأحمر يطلق عليها "كبننت" (Kebent)، ومن ناحية الترتيب الزمني نجد الإبحار إلى الساحل السوري كان أقدم ويأتي بعده الإبحار في البحر الأحمر⁽⁷⁸⁹⁾. وكتحديد زمني يرجع البعض العلاقات بين مصر الفرعونية وبلاد "بونت" - على الأقل- إلى الألف الثالثة في عصر لم يكن فيه ميناء "جواسيس" قد وجد بعد⁽⁷⁹⁰⁾، لكن البعض الآخر يرى بأن تردد المصريين على بلاد "بونت" حدث منذ "عصر الإله" ⁽⁷⁹¹⁾، لا يمكن تحديد العصر الذي إنطلقت فيه أولى البعثات بالضبط لكن يمكن القول بأنها إرتبطت بإحتياجاتهم لمواد تلك البلاد.

يرى " تريجر " في بلاد "بونت" بأنها منطقة الجوار الوحيدة التي ربطت معها مصر علاقة مباشرة رغم أنها كانت بعيدة عنها فقد عرف المصريون كيفية السير إلى هناك حيث كانوا يأخذون البحر الأحمر سبيلهم بمحاذاة ساحله الغربي، ثم يصلون إلى مناطق تعد أسواق دائمة يجلبون منها "عنتيو"، وهو "المر" أو "البخور" وأحيانا المادتين معا⁽⁷⁹²⁾. حقيقة أن مصر ربطت مع هذه البلاد علاقة مباشرة لكن لم تكن منطقة الجوار الوحيدة في ذلك، فقد سبق و أن أشرت إلى صلة مصر المباشرة مع مناطق الساحل الشرقي للبحر المتوسط و سآتي لاحقا على ذكر مناطق أخرى.

و يرى "عبد المنعم عبد الحليم سيد" بأن العلاقات بين مصر و "بونت" قد مرت بمراحل أجملها في ثلاث : الأولى التي تسبق بعثة الملكة "حتشبسوت" و الثانية بعثة هذه الملكة ، والأخيرة البعثات التي تلت هذه البعثة حتى نهاية عصر الدولة الحديثة⁽⁷⁹³⁾. و يكاد يتفق أغلب المؤرخين على أن البعثات المنظمة في البحر الأحمر تؤرخ بالأسرة الخامسة، و هم في ذلك يعتمدون على ما جاء في حوليات الملك "ساحورع" من إشارة واضحة لبعثة جلبت منتوجات بلاد "بونت" ، و مع أنني أثنى ما لهذه المعلومات التاريخية من أهمية في مجال البعثات التجارية، إلا أنني أرى أن البعثات كانت تحدث قبل ذلك التاريخ ، لأنه توجد إشارات من بعيد و غير مباشرة في فترات متفرقة.

إبتداء من الدولة القديمة، فإن ملوك مصر كانوا يرسلون البعثات على طول البحر الأحمر نحو "بونت"، إلا أن هذه الرحلات تميزت كما يرى "عبد المنعم عبد الحليم سيد" بأنها لم تصل إلى الموطن الأصلي لأهم السلع، وحسب رأيه فإن العلاقات بين مصر وهذه البلاد قبل عصر الملكة "حتشبسوت" لم تكن واضحة ولم يكونوا يصلون إلى منطقة " مدرجات الكندر " ⁽⁷⁹⁴⁾.

و تواصل إرسال البعثات عبر هذا البحر خلال عصر بناء الأهرام، و قد إرتبط ذلك خاصة بالملكين: "خوفو" و "سنفرو" و هذا الأخير تذكره النصوص المصرية بأنه كان يقوم بإرسال بعثات تجارية عبر البحر الأحمر⁽⁷⁹⁵⁾.

و مثلما إزدادت الصلات التجارية زمن الأسرة الخامسة مع " مدرجات الأخشاب" فإنه حدث نفس الشيء مع بلاد "بونت"، و مثلما سجل "حجر بالرمو" بعثة "ساحورع" في البحر المتوسط فإنه أشار إلى بعثة نفس الملك في البحر الأحمر (حوالي 2500 ق.م) ، و يرى الكثيرون بأنها لم تكن بعثة واحدة بل كانت سلسلة من البعثات أرسلها إلى تلك المنطقة.

و قد حذا ملوك هذه الأسرة حذو "ساحورع"، و يذكر " فركوتيه" (Vercoutter) بأن ملوك الأسرة الخامسة كانوا يرسلون البعثات إلى "بونت" لجلب المنتوجات الضرورية⁽⁷⁹⁶⁾، وهكذا فقد أصبح الطريق إلى "بونت" بعد بعثة "ساحورع" خطا تجاريا منتظما، والذي كان يرتاد من قبل البحارة المصريين، وبالتالي كانوا قد إستكشفوا

(789) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p.279.

(790) - M.Mollat, du Jourdin et J. Desanges , les routes millénaires , Op-Cit , p. 97.

(791) - P. Montet , la vie quotidienne en Egypte..., Op-Cit , p. 180.

(792) - تريجر و آخرون ، المرجع السابق ، ص. 160.

(793) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص ص. 20- 21.

(794) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 20.

(795) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، الدور المصري ... ، المرجع السابق ، ص. 23.

(796) - J. Vercoutter , les pistes de l'or ... , Op-Cit , p. 24.

كل السواحل الإفريقية والعربية للبحر الأحمر⁽⁷⁹⁷⁾، ومن البعثات نجد بعثة تعود إلى الملك "إسيس" (Isesi) من نفس الأسرة وقد توافقت بعثته إلى "بونت" مع بعثة إلى مناجم ومحاجر الصحراء الشرقية⁽⁷⁹⁸⁾، وكان يقودها أمين الخزينة الملكية ويدعى "Baourdadon" وقد جلب له قزما من نوع نادر لإستخدامه في الرقصات الدينية⁽⁷⁹⁹⁾.

و تعددت البعثات التجارية إلى بلاد "بونت" خلال الأسرة السادسة والدلائل على ذلك كثيرة، ، منها أن خادما كان يتفاخر بمرافقة سيده في البعثات التجارية الإحدى عشرة، وقد قتل سيده على ما يبدو أثناء تهيئة الرحلة الثانية عشرة، و هو ما يوضحه نقش سجلت فيه قصة المدعو "منكودة" عندما قام ببناء مركب على ساحل البحر الأحمر من أجل الذهاب إلى بلاد "بونت" في عهد "بيبي الثاني"⁽⁸⁰⁰⁾ (أنظر المدخل ص 38). وهو دليل واضح على أن هذا الملك مثلما إشتهر عهده بإرسال البعثات إلى سواحل مدرجات الأخشاب وباتجاه داخل إفريقيا إهتم بإرسالها إلى "بونت"، كما أن الشواهد الأثرية تدل على أن البعثات كانت تذهب إلى "بونت" برا بالتوازي مع البعثات البحرية.

و يرى "ديزونج" (J.Desanges) في تعدد هذه البعثات خلال هاته الأسرة دليلا على نجاحها ونجاح مهمة المستكشفين الذين كانوا يقودونها و التي كانت محل فخرهم وإعتزازهم⁽⁸⁰¹⁾.

المطلب الثالث: البعثات التجارية خلال الدولة الوسطى

و تعود البعثات التجارية من جديد بعد توقف خلال مرحلة الإضطرابات التي تبعت نهاية الدولة القديمة والتي تعرف بالفترة الإنتقالية الأولى، والمقصود هو توقف كل إتصال مباشر من قبل المصريين إلى تلك البلاد، فإن كانت الرحلات التجارية إلى هناك قد وردت عنها إشارات قليلة في الدولة القديمة ما عدا زمن الملك "ساحورع"، فإننا نجد في نصوص الدولة الوسطى ورود تفصيلات لأحداث الرحلات إلى هناك إبتداء من الأسرة الحادية عشرة، وأهم ما تركته هذه الأسرة من أخبار عن بلاد "بونت" أن آخر ملوكها وهو "سنخرع أمنتوحتب" نسبت إليه بعثة تجارية بحرية إلى "بونت"⁽⁸⁰²⁾.

و على العموم فإن الإشارات لبلاد "بونت" تظل محدودة، وقد وجدت ضمن نقوش "وادي حمامات" ومنها نقش يعود إلى موظف إسمه "حنو" (Hnw) والذي قاد حملة بإسم هذا الملك وكانت بعثة عبر الصحراء الشرقية إنطلاقا من "قفط" وصولا إلى شاطئ البحر الأحمر لإحضار "المرّ الطازج" (الأخضر) من "بونت" حيث يقول « وصلت البحر، ركبت السفينة، و جهزتها بكل شيء »⁽⁸⁰³⁾. و لو أن الكثير يعتبره أنه كان يحتل منصب رئيس بيت المال عند قيامه بتلك البعثة ، إلا أن هناك من يقول بأنه كان وزيرا للملك "منتوحتب الثالث"، وقد حدثت هذه البعثة حوالي الألف الثانية ق.م⁽⁸⁰⁴⁾، وكانت تضم مركبا واحدا كان مملوء بالبضائع وخاصة السلع الثمينة⁽⁸⁰⁵⁾، و يقال بأن بعثة "حنو" هاته كانت قد أرسلت خلال السنة الثامنة من حكم الملك "منتوحتب الثالث" وقد إرتبطت ببعثة إلى مناجم الصحراء الشرقية والتي كانت تتألف من 3 آلاف رجل⁽⁸⁰⁶⁾.

إن إهتمام هذه الأسرة بالبحر الأحمر كان واضحا من خلال هذه البعثة في حين لا نجد أثرا لمثل هذه البعثات في البحر المتوسط تعود إلى عصر هذه الأسرة، فكانت فاتحة لإحياء الإتصالات التجارية مع بلاد "بونت"، وهناك من يرى بأن "حنو" لم يرافق هذه الرحلة البحرية، والدليل على ذلك أنه لم يذكر تفاصيل عنها⁽⁸⁰⁷⁾، بل إنه لم يشر إليها بصريح الكلام، ومع ذلك فإن نص نقشه يؤدي بالإعتقاد بأن العلاقات عبر البحر بين مصر وبلاد البخور البعيدة هي شيء معروف وعادي⁽⁸⁰⁸⁾.

(797) - A. Gaudio , les empires de la mer, Op-Cit , p. 153.

(798) - ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 99.

(799) - H. Gauthier , Op-Cit , p. 85.

(800) - تريجر وآخرون ، المرجع السابق ، ص. 161.

(801) - M. Mollat du Jourdin et J.Desanges , Op-Cit , p. 97.

(802) - ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 102.

(803) - T. Save – Soderbergh , Op-Cit , p. 11.

(804) - L. Casson , Op-Cit , p. 19.

(805) - J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit, p. 56.

(806) - N.Grimal , Op-Cit , p. 209.

(807) - G. Rachet , Op-Cit , p. 179.

(808) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 678.

الملاحظ أنه دار خلاف بين المؤرخين في موضوع إنتساب بعثة "حنو" إلى أي ملك من ملوك تلك الأسرة لأننا نجد البعض يرى أن "حنو" كان وزيرا للملك "منتوحتب الثالث"، والبعض الآخر يرى بأن البعثة حدثت زمن الملك "منتوحتب الرابع" وكان "حنو" وزيرا للمالية⁽⁸⁰⁹⁾. إلا أن الأكثرية ترجّح أنها حدثت زمن "منتوحتب الثاني" وكان قائدها يتولى منصب "مدير البيت الملكي"⁽⁸¹⁰⁾.

و إن كانت النقوش التي تناولت البعثات التجارية خلال هاته الأسرة هي محدودة، فإننا نجد مثل هذه النقوش عديدة أثناء الأسرة الثانية عشرة، والتي أكتشفت على طول الطريق الذي يصل مدينة "قفت" بالبحر الأحمر، وفي "وادي جواسيس" بالقرب من هذا البحر و إكتشاف ميناء عند مصب هذا الوادي، والذي كان يستخدم زمن الدولة الوسطى لركوب البحر إلى بلاد "بونت"⁽⁸¹¹⁾. ولأهمية البعثات خلال الدولة الوسطى وتعددتها فإننا نجد "راشيه" (G.Rachet) يذكر بأن الميناء الأول على البحر الأحمر لم ينشأ إلا في زمن الدولة الوسطى وهو ميناء "القصور" أثناء بعثة الوزير "أمنمحات" خلال حكم الملك "أمنوحتب الثاني" وكان يسمى في ذلك العصر "ساو" (Saou) وفي زمن الإغريق أطلق عليه "لوكوس ليمن" (Loukos Limen) (Le port blanc)⁽⁸¹²⁾.

و من أهم البعثات التجارية التي تعود إلى هذه الأسرة نجد بعثة "سنوسرت الأول" (Sesostris I)، وقد وصلت هذه البعثة على ما يبدو إلى مناطق أبعد مما وصلت إليه البعثات السابقة والدليل على ذلك - حسب ما يرى "عبد المنعم عبد الحليم سيد" - بعض الكلمات التي وجدت منقوشة على مقصورات على إحدى الطرق المؤدية إلى البحر الأحمر، ومنها كلمة "أوب - تا" و ترجمتها "أقصى الجنوب"، و التي كان المصريون يشيرون بها إلى أقصى الحدود الجنوبية في رأيهم للعالم آنذاك، كما وردت بعد هذه الكلمة كلمة "خنت" ومعناها "الإبحار جنوبا"، وعليه تكون ترجمة العبارة ككل: "الإبحار إلى أقصى الجنوب"، ويستخلص من هذه العبارة أن القصد منها هو أن بعثة "سنوسرت الأول" كانت قد وصلت إلى أماكن أبعد من التي كانت تقصدها البعثات من قبل⁽⁸¹³⁾. وكان قائد هاته البعثة هو المبعوث الملكي "أمني" (Ameni) في العام الثامن والثلاثين (38) من حكم "سنوسرت الأول" أي حوالي سنة 1934 ق.م على رأس جيش مكون من 17000 رجل⁽⁸¹⁴⁾، فقد كان لها هدف مشترك تجاري و منجمي. و يبدو أنه اختلف حول تحديد زمن حدوثها، فمنهم من يرى بأنها حدثت خلال السنة الرابعة والعشرين وفي الشهر الأول من فصل الشتاء وقد تم تحديد هذا التاريخ من خلال النص الذي نقش على مقصورة "وادي جواسيس"⁽⁸¹⁵⁾، والدليل الآخر على قيام هذا الملك ببعثات إلى "بونت" هو إكتشاف نصب يعود إليه في سنة 1976 م من قبل بعثة مصرية بقيادة "عبد المنعم عبد الحليم سيد" يعود تاريخه إلى سنة 1950 ق.م، ومن بين ما كتب عليه أنه قطع الأشجار وبنى المراكب على شاطئ البحر الأحمر وقد أكتشف هذا النص بالقرب من "بير سفاجا" (Bir Safaga)⁽⁸¹⁶⁾.

و إذا ما حاولنا معرفة عدد السفن التي كان يرسلها "سنوسرت الأول" خلال بعثته إلى "بونت" فإننا نستطيع معرفة ذلك من خلال عدد المراسي المكتشفة خلال بعثة "عبد المنعم عبد الحليم سيد" الأثرية أثناء بحثه عن موقع ميناء الأسرة الثانية عشرة على البحر الأحمر، ففي حالة غياب نص يفيد بإعطاء معلومات عن عدد سفن كل رحلة بحرية فإنه توصل إلى تحديدها إنطلاقا من المراسي، والتي كانت قد تحولت إلى مقصورات ولوحات تذكارية، وهي ثمانية مراس، ونتيجة لثقل وزن كل منها وحجمها الكبير جدا وبما أن كل مركب لا يمكن أن يكون له أكثر من مرساة واحدة، فإن بعثة "سنوسرت" تكون قد ضمت ثمان سفن⁽⁸¹⁷⁾.

و يبدو أن هذه البعثة كانت مهمة جدا والدلائل على ذلك كثيرة منها - كما ذكرت - أنها وصلت إلى أماكن أبعد مما وصلت إليه البعثات السابقة، وكذلك العدد الكبير من السفن (ثمانية)، إضافة إلى كل هذا فإن البعض يرى بأن دخول منتوجات الهند والصين إلى مصر كان نتيجة لهاته البعثة، و البعض الآخر يرى بأن ضخامتها هي دليل على أن الطرق إلى تلك البلاد كانت مفتوحة للتجارة المصرية مما نتج عنه تسيير بعثة

(809) - J.Leclant , à la quête de Pount , Op-Cit ,p. 41.

(810) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، المرجع السابق ، ص. 28.

(811) - تريجر و آخرون ، المرجع السابق ، ص. 161.

(812) - G. Rachet , Op-Cit , p. 228.

(813) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 99.

(814) - E. Hornung , Op-Cit , p. 74.

(815) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 98.

(816) - J. Leclant , Op-Cit , p. 41.

(817) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 111.

ضخمة⁽⁸¹⁸⁾، بمعنى آخر أن مثل هذه البعثة وجدت الطريق مهياً أمامها، والذي كان يتردد عليه من قبل بصفة متواصلة.

إن صدى هذه البعثة الضخمة ظل يتردد لدرجة أنه دارت حولها الأساطير، منها أن "سنوسرت الأول" قام برحلة طاف خلالها حول الجزيرة العربية ليصل إلى بلاد ما بين النهرين، و حسب "إليزابيث رايفشتال" فإن ذلك يدل على مدى القوة والسمعة والمكانة التي يملكها حكام الأسرة الثانية عشر في العالم القديم، لأنه لم يتأكد من حدوث هذا الطواف بإثباتات أثرية وتاريخية⁽⁸¹⁹⁾.

وهناك بعثة لا تقل أهمية عنها وهي بعثة حدثت زمن الملك "أمنمحات الثاني" وهو ثالث ملوك الأسرة الثانية عشرة، أرسلها إلى بلاد "بونت" حوالي 1900 ق.م، وأولكت مهمتها إلى "مدير عام الخزينة" وهو "خنت-خاتي-ور" (Khente-Khetwer) وقد عاد بثروة من بلاد "بونت" وكان قد رسا عند ميناء "ساو" ⁽⁸²⁰⁾. و رغم ما لهذه الأسرة من منجزات مهمة في مجال البعثات التجارية عبر البحر الأحمر إلا أن مثل هذه الأعمال كانت قد توقفت وإنقطعت بعدها.

المطلب الرابع: البعثات التجارية خلال الدولة الحديثة

بعد إنقطاع الإتصال مع بلاد "بونت" الذي دام خلال فترة حكم الهكسوس لمصر هاهي العلاقات التجارية تعود من جديد، ف "عبد المنعم عبد الحليم سيد" يرى أن المرحلة الثانية في هذه العلاقات تتمثل في بعثة الملكة "حتشبسوت"، لأن المصريين في هذا العصر كانوا قد وصلوا بالفعل إلى المواطن الأصلية للمنتوجات التي كانوا يسعون إليها عبر أسفارهم في هذا البحر، كما أن المعلومات عن هذه البلاد أصبحت تقدّم من قبل المصريين بصورة جد واقعية⁽⁸²¹⁾، وكانت "حتشبسوت" الملك الخامس لهذه الأسرة قد سلكت منهاجاً سلمياً مع جيرانها، و بالتالي العمل على توسيع التجارة الخارجية، و من أهم ما قامت به في هذا المجال تجهيز تجريدة إلى بلاد "بونت"، وذلك لتغطية حاجياتها التي يتطلبها معبدها ومقبرتها، وقد حرصت على أن تسجل تفاصيلها على جدران ذلك المعبد، وقد أكتشفت هذه الرسوم من قبل بعثة المتحف الأمريكي "الميترو بوليتان" المتواجد في نيويورك⁽⁸²²⁾، وهكذا فإن ذروة التجارة في البحر الأحمر كانت أثناء بعثة "حتشبسوت"، خلال القرن الخامس عشر ق.م، وكانت بعثتها مؤلفة من أسطول صغير مكون من خمسة سفن شراعية⁽⁸²³⁾، ويمثل الرسم إثنين منها وهما راسيتان على شاطئ بلاد "بونت"، حيث أنزلت "القلوع" والسقالات ممدودة والملاحون رسموا و هم يشحنون البضائع⁽⁸²⁴⁾، هذه السفن الخمسة التي سارت في بعثة إلى بلاد "بونت" كانت قد حدثت على الأرجح سنة 1495 ق.م⁽⁸²⁵⁾.

و يعتقد بأن بعثة "حتشبسوت" هاته كانت روتينية، مماثلة لكل البعثات التي وصلت إلى بلاد "بونت"، لكن ما ميزها أن الكتاب الكهنوت و أرباب الحرف (الصناع) بمدينة "طيبة" فخّموها و عظموها من خلال رواية تمجيد وتعظيم مخصصة لتخليد هذه الرحلة، عن طريق نقوش جد جميلة وبنص طويل يمجد الملكة⁽⁸²⁶⁾. و بعد بعثة "حتشبسوت" أصبحت الرحلات البحرية إلى بلاد "بونت" منتظمة أكثر وأصبحت تجلب أشجاراً طازجة من "الكندر"، والذي كان يعاد غرسه حول المعابد، لأن هذا العمل أصبح تقليداً متبعاً منذ نجاح رحلة "حتشبسوت" ووصولها إلى "مدرجات الكندر" على ساحل الصومال الحالي وقد نشطت هذه التجارة بين الطرفين إلى حد أصبح فيه "البونتيون" (أهل بونت) يتوافدون بأنفسهم في مراكبهم الخاصة إلى مصر، والذين كانوا يستقبلون من قبل موظفي الملك⁽⁸²⁷⁾.

و قد أمدتنا مقابر بعض الخواص التي تعود إلى زمن الدولة الحديثة بإشارات إلى قيام بعثات تجارية منها أربعة مقابر وجدت بـ "طيبة" تصور مشاهد عن بلاد "بونت" وأقدمها مقبرة "بويمرع" "Puyemre" التي

(818) - D.M.J. Henry , Op-Cit , pp. 447- 448.

(819) - إليزابيث رايفشتال ، المرجع السابق ، ص. 38.

(820) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 678.

(821) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 21.

(822) - جيمس هنري برستيد ، إنتصار الحضارة...، المرجع السابق ، ص. 127.

(823) - عبد الرحمان الرفاعي ، المرجع السابق ، ص. 91.

(824) - جيمس هنري برستيد ، المرجع السابق ، ص. 128.

(825) - بلقاسم رحمانى وحرشوش مدني ، المرجع السابق ، ص. 34.

(826) - C. Lalouette , Thèbes..., Op-Cit , p. 256.

(827) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 21.

تؤرخ بعصر "تحتوتمس الثالث"، وهي تصور فقط إستقبال السلع وأمامها الملك. وتوحي الكتابة المرافقة لهذه المشاهد بأن بعثة سيّرت إلى تلك البلاد خلال حكم هذا الملك وتنتهي بالإشارة إلى أسرى أحضرهم فخامته من بعيد نتيجة لعملياته العسكرية هناك، لكن لا يمكن أن يكون هؤلاء البونتيين أسرى لأنه لم يثبت تاريخيا أن قام هذا الملك بحملات عسكرية في بلاد "بونت" (828) هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المصريين كانوا يشيرون إلى السلع التي كانت تجلب سواء عن طريق بعثات قاموا بها أو عن طريق وسطاء أحضروها إلى مصر بأنها جزية تدفع وليس كسلع تجارية، من جهة ثالثة أن الأشخاص الأجانب الذين كانوا يأتون إلى مصر يصورون دائما على أنهم أسرى وهذا من أجل تبيان عظمة الملك وأنه سيّد على كل الشعوب وليس على شعبه فقط، وأضيف تفسيراً آخر وهو إمكانية أن يكون أولئك أسرى بالفعل لكن أسروا في طريق عودتهم عندما تعرّضوا بالإعتداء على البعثة سواء على سواحل البحر أو عند مرورها عبر مسالك الصحراء الشرقية، وهي من ضمن المخاطر التي كانت تتعرض لها البعثات التجارية .

كما تدل حوليات "تحتوتمس الثالث" على قيام هذا الملك ببعثات تجارية من خلال إشارات إلى التجارة مع "بونت"، وكان حدوث كل واحدة منها بعد إنتهائه من حملته العسكرية إلى بلاد آسيا، ففي السنة الثالثة عشرة من حكمه قام ببعثة إلى "بونت" بعد أن قام بسبع حملات، حيث تخبرنا هذه الحوليات على رسل أحضروا جزياتهم والتي تتكون من المرّ، وفي السنة الثالثة والثلاثين، حدثت بعثة حصل من خلالها على نفس السلعة من أرض "بونت" وهي المرّ اليباس وكذلك الذهب، أما في السنة الثامنة والثلاثين، فقد أحضر له من "بونت" كذلك المرّ، كما يمدنا نصبه على جبل "البركل" الذي نقش عليه عبارات يعد فيها الإله "أمون" بأنه سيحضر له من بلاد "بونت" أثمن ما تنتج، ومن بين ما جاء فيه: « كل الحجارة الثمينة الباهرة وكل النباتات ذات الرائحة الزكية التي تنمو في بونت، كل شيء جميل بأرض الجنوب، كل الذي يأتي من التجارة، بيد فخامتي أقدمه لك ». و هكذا يبدو الأمر واضحا جدا أثناء حكم الملك "تحتوتمس الثالث" بخصوص التجارة مع بلاد "بونت" والتي كانت أمرا مؤكدا حتى ولو لم نقرأ أي شيء بخصوص تفاصيل البعثة مثلما حدث مع بعثة "حتشبسوت" الشهيرة (829).

ورغم أن البعثات إلى بلاد "بونت"، خلال هذه المرحلة كانت متتابعة إلا أنها إنقطعت زمن الملك "إخناتون"، لتعود من جديد مع حكم الملك "حورمحب" (Horemheb)، الذي أسس الأسرة التاسعة عشرة (830). ومع ذلك فالإشارات إلى بلاد "بونت" خلال هذه الأسرة تصبح قليلة، منها وجود كتابة تدل بأن "أمون" أهدى كل بلاد "بونت" بكل جزياتها إلى "سيتي الأول"، وفتح له الطريق إلى "بونت"، وفي أحد أوامره يذكر هذا الملك بأنه صنع سفنا من أجل إرسالها إلى "بونت". ومن الإشارات أيضا أن "رمسيس الثاني" جعل أهالي "بونت" ضمن الشعوب التي أخضعها، ونفهم من ذلك سيطرته التجارية على تلك المنطقة وفي البحر الأحمر ككل مثلما كان الحال في الحوض الشرقي للبحر المتوسط وسيطرة مصر على تجارته، ففي عهد هذا الملك (رمسيس الثاني) نجد نقشا بسياء يدل على قيامه ببعثة إلى "بونت"، حيث ذكر فيه إله "توت" وهو سيد "بونت"، كما أنه روى من خلال معبده بـ "أبيدوس" بأنه غرس عددا من الحقائق بأنواع من نباتات "بونت"، كما أن ترنيم "أمون"، الذي يعود إلى هذا الملك نقرأ فيه إشارات إلى أنه كان يرسل بعثات تجارية إلى تلك البلاد هو والملك "سيتي الأول" (831).

و إرتبط إسم الفرعون "رمسيس الثالث" (1167-1198 ق.م) ببعثة تجارية إلى "بونت" و التي حدثت حوالي سنة 1180 ق.م (832). ويبدو أن هذه البعثة هي آخر عمل ملاحي تجاري مهم، لأنها شملت على أسطول كبير، و تم حدوثها بعد مرور ثلاثة قرون عن رحلة الملكة "حتشبسوت" (833)، وبذلك تمثل بعثة "رمسيس الثالث" آخر صلة تجارية مباشرة مع بلاد "بونت" من قبل المصريين خلال العصر الفرعوني (834). وأخبرتنا بردية " هاريس I " عن هذه البعثة ، حيث تذكر بأن "رمسيس الثالث" أرسل سفن شحن إلى بلاد "بونت" (835)، ومما ورد فيها من وصف لهذه البعثة: « لقد وصلوا (رجال البعثة) في سلام إلى مرتفعات (أو

(828) - T.Save –Soderbergh , Op-Cit , pp. 18 -19 .

(829) - Ibid , p. 21 .

(830) - Moret et Davy , des clans aux empires ... , Op-Cit , p. 355 .

(831) - T. Save –Soderbergh , Op-Cit , pp. 21-22, 27- 28 .

(832) - A. Gil – Artagnan , retrouver le pays de Pount , Op-Cit , p. 44 .

(833) - عبد الفتاح محمد وهيبة ، المرجع السابق ، ص. 312 .

(834) - K.A.Kitchen , grandeur et décadence des empires , Op-Cit , p. 87 .

(835) - T.Save –Soderbergh , Op-Cit , p. 28 .

صحراء) قفط (خاست جيتيو)، وقد رسوا في سلام حاملين الأشياء التي أحضروها «، وقد نقلت على ظهور الحمير والرجال إلى ميناء "قفط" حيث شحنت في سفن النيل و أبحرت شمالا إلى العاصمة (836). وتوضح المشاهد المرسومة في المقبرة رقم 143 عودة هذه البعثة، من خلال صور رسو السفن على ساحل البحر الأحمر ونقل البضائع عبر القوافل البرية، والتي كانت ترافقها مجموعة من أطفال زعماء "بونت"، عابرة الصحراء لينزل أفرادها النيل إلى غاية إقامة الملك. كما نجد أيضا إشارة أخرى تصف بعثة "رمسيس الثالث" في قول له ذكر فيه: «أهدي إلى "أمون" بلاد "بونت" بكل منتوجاتها الثمينة، ومنها أشجار البخور التي غرستها حول دارك» (837). فعصر هذا الملك تميز بحركة تجارية واسعة نتيجة لكثرة الاتصالات والرحلات التي أمر بها، خاصة باتجاه الجنوب، وقد أنشأ من أجل ذلك أساطيل للنهر و البحر، وكان ميناء القصير يعرف حركة نشطة في عصره (838).

لكن هناك من يرى بأنه حدثت بعثة بعد زمن هذا الفرعون، وهي بعثة الملك "رمسيس الرابع"، والتي عدت بمثابة آخر بعثة في البحر الأحمر لتتوقف بعدها مثل هذه البعثات إلى غاية العصر البطلمي الذي أعيد فيه إحياء مثل هذه الرحلات الكبيرة من جديد في هذا البحر (839). وفي حقيقة الأمر أن البعثات التجارية إلى بلاد "بونت" توقفت مرة أخرى خلال فترة الانتقال الثالثة لتعود للاتصالات وتتوسع خلال الأسرة السادسة والعشرين وكمثال عنها بعثات "نخاو الثاني" الذي تذكره الوثائق بأنه كان له أسطولاً يجوب البحر الأحمر.

المطلب الخامس: الواردات والصادرات

إن البخور كان إهتمام المصريين الدائم في تجارتهم عبر البحر الأحمر التي ربطتهم مع بلاد "بونت"، وقد كانت تحرق منه كميات ضخمة في المعابد.

أ - الواردات:

يمكن وضع قائمة من السلع التي كانت تشحن في المراكب المصرية عند عودتها من بلاد "بونت"، وهي تتمثل في الجذوع الجيدة من أرض الإله "Tonoutir"، أكياس من حبوب البخور (Ensens)، أشجار البخور الخضراء، الأبنوس، العاج، الذهب، عطور، نوعين من القروود و جلود الفهود. وكانت تأتي على قمة الواردات العطور والتي كانت تحرق في المعابد لشرف الآلهة والملوك، ولكن أيضا في المنازل من أجل أن يكون الهواء نفسه مليئا بالعطور (840)، فكم كانت ضخامة إستهلاك البخور! فتجارة البحر الأحمر بنيت على سلع كثيرة ومن أشهرها البخور، الذي كانت شهرته ذائعة الصيت في مختلف أنحاء العالم القديم وتسعى مصر في طلبه من المناطق البعيدة، وكانت سلع البحر هاته يطلق عليها سلع الترف ذات الأهمية الكبيرة للنظم الملكية القديمة ومن المحتمل أن مصر آنذاك كانت أكبر سوق تروج فيها هذه السلع. لا أرى فيها سلعة ترف لأنها كانت تستخدم من قبل كل أفراد الشعب المصري بمختلف طبقاته لأغراض دينية و جنائزية.

و من هذه السلع نجد أيضا المعادن الثمينة، كالذهب والأحجار الكريمة، وأيضا العاج والتوابل و ريش النعام والقرودة والفهود و كلاب الصيد والأشجار العطرية (841).

فبلاد "بونت" كانت تصدر: البخور، اللبان، المر، الصمغ، المعادن شبه الكريمة، العاج، بعض الأخشاب الثمينة، أقزاما، جلود الفهود و النمرور و حيوانات نادرة، وكذلك كانت تصدر مسحوق التجميل، و حيوانات مثل الجاموس، والقروود، التي تتميز برؤوس تشبه رؤوس الكلاب و التي تسمى "Cynocéphale" (842).

و يبدو أن الواردات من بلاد "بونت" كانت هي نفسها، التي تجلب من قبل كل البعثات التجارية، فخلال الدولة القديمة نجد أسطول "ساحورع" قد جلب «البخور والروائح العطرية والأدهنة الجميلة الكثيرة الإستعمال

(836) – عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص. 204.

(837) – T. Save – Soderbergh, Op-Cit, p. 29.

(838) – بلقاسم رحمانى و حروفش مدني، المرجع السابق، ص. 38.

(839) – G. Rachet, Op-Cit, p. 180.

(840) – P. Montet, Op-Cit, pp.183, 199.

(841) – محمد الخطيب، المرجع السابق، ص. 144.

(842) – G. Posener et autres, Op-Cit, p. 229.

عند الشرقيين» (843)، و قد عاد مملوء بـ 80,000 كيل (وحدة قياس) من المرّ ، و 2600 جذع من الأخشاب، وأشجار البخور و 6200 قياس من مادة إليكتروم (844).

كما أن الدولة الوسطى كانت تجلب القروء ، فقصة " الملاح الناجي" تذكر نوعين منها : " النسانيس " (babouins) وقرود "Guenons"، كما أن بعثة "حتشبسوت" كانت قد جلبت قرود "Quadrumanes"، وكانت هذه القروء جالسة فوق البضائع، إضافة إلى ذلك فإن بعثتها جلبت أشياء لا مثيل لها، ولم يحدث أن جلب ملك قبلها مثل تلك السلع و بنفس الكمية ، حيث كانت المراكب محمّلة إلى درجة كبيرة بأكياس الصمغ ، والمرّ مع أشجار المرّ الخضراء، أخشاب الأبنوس، العاج الصافي، الذهب، وأخشاب ذات الرائحة الزكية، وبمختلف أنواع البخور ومسحوق العيون، وجلود الفهود وأناس من "بونت" (845)، ومن السلع أيضا والتي تظهرها صور "الدير البحري" ببيض وريش النعام، والقرفة وثيران وزرافات (846). والبعض يرى بأن هذه البعثة كانت قد جلبت كلاب الصيد والرقيق (847)، وثلاثة آلاف وثلاث مائة من رؤوس الماشية (848)، كما كانت الحناء من بين المواد التي جلبتها بعثة "حتشبسوت" (849). والمميز في هذه البعثة أنها لأول مرة تجلب الأشجار الخضراء من "بونت" والتي قدّرت بواحدة وثلاثين شجرة من البخور الطازج، والتي أعيد غرسها في ساحات المعبد الجنائزي للملكة بـ "الدير البحري".

و رغم فشل زراعة "الكندر" في مصر إلا أن الفراعنة واصلوا جلبه، حيث نجد أن من جاء بعد الملكة "حتشبسوت" أرسل حملات إلى "بونت" و هذا حذوها في جلب أشجار "الكندر" بجذورها وإعادة زراعتها في مصر، و منهم بالطبع " رمسيس الثالث " الذي من خلال معبده في مدينه "حابو" مثلت صورة لشجرتين وكومة من صمغ "بونت" (850).

ب- الصادرات:

و بخصوص صادرات مصر إلى بلاد "بونت" فتتمثل أساسا في المنتجات المصنعة، و التي كانت تشحن بها المراكب المتجهة إلى هناك، و التي كان أهالي "بونت" يقدّرونها بدرجة كبيرة، وهي تتمثل خاصة في الحلي، مرايا، أسلحة منها الخناجر والفؤوس إضافة إلى أشياء الزينة مثل القلائد ذات الألوان المتنوعة (851). فمثلا بعثة "حتشبسوت" حملت معها سلعا من أجل مبادلتها مع منتجات "بونت" وقد شملت مجوهرات ، أدوات وأسلحة، و على ما يبدو أن هذه المصنوعات كانت نفسها صادرات مصر إلى "بونت" طيلة العصر الفرعوني، والتي كانت تحملها معها كل البعثات التجارية، إذ كانت المراكب تذهب بحمولة خفيفة لتعود وهي محمّلة بشحنات ضخمة من سلع "بونت".

إن البعثات التجارية في البحر الأحمر إلى " مدرجات الكندر" تعود إلى أزمنة مبكرة من علاقات مصر الفرعونية الخارجية، و الملاحظ أيضا على تجارة مصر مع بلاد "بونت" خلال العصر الفرعوني أنها كانت مزدهرة و نشطة خلال معظم فترات التاريخ المصري القديم ، أي أن الحركة كانت دؤوبة في البحر الأحمر ذهابا وإيابا، إلا أنها سجّلت قمة إزدهارها في الدولة الحديثة (عصر الإمبراطورية) وخاصة في عهد الرعامسة، على حد تعبير بعضهم. فالمؤرخ "هرمان" (Zvi Herman) يرى بأن الرحلات التجارية إلى بلاد "بونت" لم تكن حالات معزولة، لأن الرحلات كانت مستمرة قبل عصر "حتشبسوت" وبعده لمدة طويلة، وظلت البعثات ترسل إلى هناك إلى غاية نهاية عصر مصر المستقلة (852).

و رغم أهمية هذه الرحلات فإنها لم تخلد في السجلات الرسمية سواء كانت المكتوبة منها أو المصورة، حتى أثناء مراحل إنتظامها، إذ لم توجد أية تمثيلات على البناءات الرسمية ما عدا بعثة "حتشبسوت" بالطبع ، و هذا لا ينفي عدم وجود تلك البعثات مثلما أوضحت، والتي أكدتها دلائل تاريخية أخرى، لأنه إذا جمعنا كل

(843) – عبد الرحمان الرفاعي ، المرجع السابق ، ص. 42.

(844) - A. Gaudio , Op-Cit , p. 153.

(845) - A. Gil – Artagnan , retrouver le pays de Pount , Op-Cit , p. 4.

(846) - C.Lalouette , Thébès..., Op-Cit , p. 253.

(847) – عبد الفتاح محمد وهيبه ، المرجع السابق ، ص. 312.

(848) - L. Casson , Op-Cit , p. 25.

(849) - روايات وقصص مصرية ، ص. 76.

(850) - T. Save – Soderbergh , Op-Cit , p. 28.

(851) - P. Montet , Op-Cit , p. 182.

(852) - Z. Herman , peuples ... , Op-Cit , p. 65.

الدلائل (الشواهد) التي تتعلق بالاتصال بين مصر و"بونت" منذ الأزمنة المبكرة إلى غاية نهاية الدولة الحديثة، نجد أن التجارة مع "بونت" كانت أكثر إنتظاما بإستثناء المراحل التي أضاعت فيها مصر قوتها السياسية، لأننا نجد أغلب الملوك قد أرسلوا بعثات إلى هناك. لذلك إتصفت العلاقة بين مصر وبلاد "بونت" بأنها تراوحت بين الضعف والقوة، أي أنه في فترات تزداد العلاقة وتقوى وفي فترات أخرى تضعف أو تنقطع.

كما تتميز علاقة المصريين ببلاد "بونت" بطابع مميز عن علاقاتهم بشعوب العالم القديم الأخرى فهم يكتون لساكنيها المودة و الإحترام في حين أن طبيعة علاقاتهم بالشعوب المجاورة لهم نلمس فيها نوعا من القسوة على حد تعبير بعضهم (853). وإن لم تكن هذه الصفة قد ميزت كل فترات تاريخهم فإنها على الأقل إتسمت بتلك القسوة في بعض الأحيان. والميزة الأخرى أن هذه التجارة الصعبة عبر الجزء الأعظم من البحر الأحمر كانت تدار أساسا من قبل المصريين، رغم أن عديد المؤرخين يؤكدون على وجود دور فيها لسكان بلاد "بونت". فهذا الجهد من قبل المصريين يحتم علينا أن ننظر إليهم كملاحين تجاريين، و تقدير فعالية البحرية المصرية ومدى مجازفتها في ذلك البحر.

و يوضح الجدول التالي أهم وأشهر البعثات التجارية في ذلك البحر، و هي بدورها تنطبق عليها الملاحظات التي ذكرتها عند الكلام عن حوصلة البعثات في البحر المتوسط.

جدول رقم 2: البعثات التجارية في البحر الأحمر

الصادرات	الواردات	ملاحظات	الفترة الزمنية	البعثات التجارية	الدولة القديمة
- حلي ومجوهرات خاصة القلاند - أسلحة منها خناجر وفؤوس - مرايا	- البخور بأنواعه - الكندر والمر - أشجار البخور - الخضراء - الأبنوس - العاج - الذهب - عطور - القزود - جلود الفهود	* - وجود إشارات قليلة للبعثات التجارية خلال الدولة القديمة.	بين 2630 و 2609 // 2605 و 2580 2500 // 2420 و 2380 // 2350 و 2330 // 2270 و 2200	* الأسرة الرابعة - بعثات "سنفرو" - بعثات "خوفو" * الأسرة الخامسة - بعثة "ساحورع" - بعثة الملك "إسيس" (بقيادة أمين الخزينة) * الأسرة السادسة - بعثة "تيتي" - بعثات "بببي الثاني"	
	- جلود النمرور - الأحجار الكريمة - التوابل - القرفة - بيض وريش النعام - الحيوانات البرية مثل الفهود، الزرافات - كلاب الصيد - الصموغ - الأقزام - مسحوق التجميل - الأسود الخاص بالعيون	* - نصوص الدولة الوسطى تورد تفصيلات لأحداث الرحلات. * - إذا كانت البعثات في البحر المتوسط تواصلت مع الأسرة الثانية عشر فإن الرحلات إلى "بونت" كانت تحدث منذ الأسرة الحادية عشر ولو أنها كانت قليلة خلال هذه الأسرة. * - إرتباط البعثات التجارية بالبعثات المنجمية. * - النقوش التي تتناول موضوع البعثات هي عديدة خلال الأسرة الثانية عشر.	حوالي 2000 ق.م حوالي 1934 ق.م 1900 ق.م بين 1872 و 1854	* الأسرة الحادية عشر - بعثة "منوتحتب الثاني" * الأسرة الثانية عشرة - بعثة "سنوسرت الأول" - بعثة "أمنمحات الثاني" - بعثة "سنوسرت الثالث"	الدولة الوسطى

البحر الأحمر	الأسرة الثامنة عشر - بعثة "حتشيسوت" - بعثات "تخوتمس الثالث"	1495 ق.م الأولى: 1497 الثانية: 1466 الثالثة: 1461	* - البعثات خلال الدولة الحديثة كانت تجلب أشجار البخور الخضراء التي أصبحت تقليدا متبعا منذ رحلة "حتشيسوت". * - تتابع الرحلات بعد زمن هذه الملكة و لو أنها عرفت إنقطاعا زمن الملك "إخناتون".	- الجواميس - المواشي - الحناء
البحر الأبيض المتوسط	* الأسرة التاسعة عشر - بعثات "حورمحب" - بعثات "سيتي الأول" - بعثات "رمسيس الثاني" - بعثة "رمسيس الثالث" - بعثة "رمسيس الرابع"	1292 1290 و 1279 // 1279 و 1212 // 1180 1153 و 1146 //		
البحر الأبيض المتوسط	* الأسرة السادسة والعشرون - بعثات "نخاو الثاني" - بعثات فترة الغزو الفارسي	595 و 610 // 404 و 525 //		

المراجع:

- 1 - عبد المنعم عبد الحليم سيّد ، البحر الأحمر...، المرجع السابق ، ص ص 20- 21، 98 - 99، 111، 204.
- 2 - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، الدور المصري ... ، المرجع السابق ، ص ص 23، 28، 34، 38.
- 3 - J. Vercoutter , les pistes de l'or ... , Op-Cit , p. 24.
- 4 - A. Gaudio , les empires de la mer, Op-Cit , p. 153.
- 5 - ن.ي ، تاريخ توت عنخ آمون، المرجع السابق ، ص ص 99 ، 102.
- 6 - H. Gauthier , l'Egypte pharaonique , Op-Cit , p. 85.
- 7 - تريجر وآخرون ، مصر القديمة...، المرجع السابق ، ص 161.
- 8 - T.Save – Soderbergh , the Navy ... , Op-Cit, pp. 11,18-19,21-22,27-29.
- 9 - L.Casson , les marins de l'Antiquité..., Op-Cit , pp. 19,25.
- 10 - J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit, p. 56.
- 11 - N. Grimal , histoire de l'Egypte..., Op-Cit , p. 209.
- 12 - G. Rachet , dictionnaire de la civilisation..., Op-Cit , pp. 179-180,228.
- 13 - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 678.
- 14 - J.Leclant , à la quête de Pount , Op-Cit ,p. 41.
- 15 - E. Hornung , lecture de l'histoire égyptienne , Op-Cit , p. 74.
- 16 - D.M.J. Henry , l'Egypte pharaonique..., Op-Cit pp. 447-448.
- 17 - إليزابيث رايشتال ، طيبة ...، المرجع السابق ، ص 38.
- 18 - جيمس هنري برستيد ، إنتصار الحضارة...، المرجع السابق ، ص ص 127-128.
- 19 - عبد الرحمان الرفاعي ، تاريخ الحركة القومية ...، المرجع السابق ، ص ص 42، 91.
- 20 - C. Lalouette , Thébés..., Op-Cit , pp. 253,256.
- 21 - Moret et Davy , des clans aux empires ... , Op-Cit , p. 355.
- 22 - A. Gil – Artagnan , retrouver le pays de Pount , Op-Cit , p.44.
- 23 - عبد الفتاح محمد وهيبة ، مصر و العالم القديم...، المرجع السابق ، ص 312.
- 24 - K.A.Kitchen , grandeur et décadence des empires , Op-Cit , p. 87.
- 25 - P. Montet , la vie quotidienne en Egypte..., Op-Cit , pp. 182-183,199.
- 26 - محمد الخطيب ، مصر أيام الفراعنة ، المرجع السابق ، ص 144.
- 27 - G. Posener et autres , Op-Cit , p. 229.
- 28 - روايات وقصص مصرية ، ص 76.

المبحث الثالث: البعثات التجارية البرية - النهرية

بعد أن تعرفنا على منطقتي "مدرجات الأخشاب" و "مدرجات البخور" و أهميتهما في العلاقات التجارية مع مصر من خلال البعثات التي كانت تسير إلى هناك و التي كانت بعثات بحرية، جاء دور بلاد النوبة التي سیرت لها بعثات برية- نهرية، فما ميزة بلاد النوبة التي جعلت مصر توليها ذلك الإهتمام الكبير؟، وما ميزة البعثات إليها؟.

المطلب الأول: أهمية بلاد النوبة

تعد بلاد النوبة إحدى مناطق الجوار الإفريقي التي ربطت معها مصر علاقات مميزة جدا ومتواصلة عبر مختلف مراحل تاريخها القديم وخاصة العصر الفرعوني، و كانت تعني للمصريين الكثير.

يقصد بكلمة "النوبة" في اللغة المصرية القديمة "بلاد الذهب"، وبالتالي فإن غناها بمعدن الذهب كان الدافع وراء إهتمام المصريين بها⁽⁸⁵⁴⁾، وأطلق المصريون في عصر الدولة القديمة على سكان النوبة إسم "نحسيو" و "با نحسي" ومعناها "النوبي"⁽⁸⁵⁵⁾. و رُمز لبلاد النوبة في النقوش المصرية بالقوس، أي "أرض القوس" (تا-ستي أو تا-زيتي Ta-Zeti)، لأن النوبيين كانوا يتقنون إستعمال القوس الذي كان مرافقا لهم دوماً، وهي صفة لازمتهم حتى عصور متأخرة، لذلك نجد المؤرخين العرب يطلقون عليهم "رماة الحدق". و في نقوش "وادي حلفا" التي عثر عليها سنة 1949 يرمز لها برسم القوس، و أستنتج من ذلك بأن أقدم إسم أطلقه المصريون على بلاد النوبة كان "أرض القوس"، وما يؤكد ذلك أن العديد من الكتابات تربط بين القوس وبلاد النوبة السفلى، هذا إذا علمنا بأن النوبيين كانوا يستخدمون القوس والنبال بكثرة بل كان سلاحهم الأساسي⁽⁸⁵⁶⁾، كما أطلق عليهم المصريون أيضاً إسم "تابجت" (Ta-Pedt) والتي تعني أيضاً "أرض القوس"⁽⁸⁵⁷⁾. إن لفظي "تاستي" و "تا بجت" لهما نفس المعنى وهو "أرض القوس"، وقد أطلق المصريون إسم "واوات" (Ouaouat) على النوبة السفلى، و هو إقليم يمتد بين الجندل الأول و الجندل الثاني و يطلق على سكانه إسم "نيحيسيو" (Nehesiou)، ويعني القبائل القاطنة بالقرب من النهر، أما إسم "مجايو" (Medjaïou) فهو يطلق على سكان البراري، ويبدو أن لفظة "نيحيسيو" أصبحت تعني منذ الأسرة الثانية عشرة كل سكان بلاد النوبة⁽⁸⁵⁸⁾. ويتميز النوبيون بقامة طويلة، وشعر مجعد، وهم يشملون قبائل عديدة منهم: الواوات، إيرتيت (Iretet)، وإيام (Iam)، وهم من نفس جنس الليبيين⁽⁸⁵⁹⁾، كما يتميزون ببشرة سمراء توحى بالتقارب بينهم وبين المصريين⁽⁸⁶⁰⁾.

أما الإسم الإغريقي للنوبة: Nubie أتى إما من كلمة "Nubae"، و هو شعب من جنس إثيوبي الذي كان يحتل الشاطئ الأيسر من النيل ابتداءً من "مروي" (Meroé) في جنوب "ناباتا" (Napata) إلى غاية المصببات الكبرى للنيل، وإما من كلمة "Noub" والتي تعني "الذهب"، لأن هذا المعدن كان واحداً من الثروات الكبرى التي تزخر بها النوبة⁽⁸⁶¹⁾، أما المراد من إطلاق كلمة إثيوبيا في المصادر الكلاسيكية فهي للإشارة إلى بلاد النوبة وشمال السودان⁽⁸⁶²⁾.

و هذه البلاد لها أهمية خاصة بالنسبة للمصريين، فهي تشكل بالدرجة الأولى إمتدادهم الطبيعي المتمثل في نهر النيل، أي إمتداداً طبيعياً لمصر، و بالتالي جزء محتوى في أرضهم⁽⁸⁶³⁾، لأن الوصول إليها كان أمراً يسيراً، كما تتميز النوبة بغنى جبالها بمعدن الذهب، إضافة إلى أنها بوابة بلاد السودان الغنية بالعاج والأبنوس و جلود الحيوان التي يسعى المصريون إلى الحصول عليها⁽⁸⁶⁴⁾.

وتتأتى أهمية النوبة من الثراء الذي تزخر به، فهي تزود مصر بالجنود، فمنذ العصر "الثاني" كانت النوبة بالنسبة لمصر تشكل احتياطياً من اليد العاملة للأعمال الكبرى، وكذلك لتثبيت النظام، أي أنها كانت تزود مصر بالجنود الذين كانوا أفراداً أساسيين في الشرطة، يضاف إلى ذلك إستخدامهم لحماية تنقل القوافل التجارية وأيضاً في حماية العمل المنجمي في الصحاري⁽⁸⁶⁵⁾.

و كان إهتمام المصريين ببلاد النوبة يزداد عبر الزمن، حيث كانوا يرونها جزءاً متمماً لحدودهم الجنوبية، فعملوا كل ما في وسعهم لجعل المواصلات آمنة وتأديب قبائلها وحماية المراكز الحدودية من خطرهم وكذلك حماية القوافل التجارية والمناجم، والسعي لفتح أسواق تجارية مع سكانها، وجعلها وسيطاً في التجارة بينهم وبين السودان، ومع ذلك فإن ضمها عملياً لم يحدث إلا في عهودهم المتأخرة، لذلك جعلوا حدودهم عند "إليفنتين" لأن

(854) - سلامة موسى، مصر أصل الحضارة، المرجع السابق، ص. 34.

(855) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص. 137.

(856) - محمد بيومي مهران، مصر منذ قيام الملكية...، المرجع السابق، ص. 93.

(857) - أحمد أمين سليم وسوزان عباس، المرجع السابق، ص. 139.

(858) - C. Lalouette, Thèbes... , Op-Cit, p. 66.

(859) - Moret et Davy, Op-Cit, p. 194.

(860) - Erman et Ranke, Op-Cit, p. 668.

(861) - G. Rachet, Op-Cit, p. 185.

(862) - بلقاسم رحماني وحرشوش مدني، المرجع السابق، ص. 12.

(863) - C. Lalouette, l'empire des Ramsès, Op-Cit, p. 42.

(864) - أحمد أمين سليم وسوزان عباس، المرجع السابق، ص. 139.

(865) - N. Grimal, Op-Cit, p. 91.

ما وراءها يمكن أن يستفيدون منه بإرسال بعثات تجارية، وبالتالي لم يكونوا بحاجة لممتلكات إضافية في هذا المجال(866).

و كانت " واوات" هي المنطقة الرئيسية في بلاد النوبة الغنية بالذهب والتي كانت الممول الرئيس لمصر، كما كانت فيما بعد ممولها بقليل من الحديد الذي كان يأتي من مملكة "مروي" (Méroé) البعيدة، والتي كانت واحدة من المنتجين القلائل من هذا المعدن مع واحة "البحرية" (867)، كما وددت أن تؤكد على الدور الذي لعبه الذهب في العلاقات بين مصر والنوبة، إذ كان ذو أهمية من الدرجة الأولى بالقدر الذي يرى فيه البعض أن تفوق مصر التجاري يعود إلى الذهب النوبي، فمنذ أن بدأت تستعمل مناجم الذهب هناك أصبحت لها قوة تجارية جعلتها رائدة العالم القديم(868).

وإضافة إلى الذهب فإن بلاد النوبة تتميز بغناها بالحجارة ذات النوعية الجيدة والأخشاب الصلبة وبالمواشي الكثيرة، كما أن هذه البلاد تعطي منافذ إلى قلب إفريقيا وإلى مصادرها مثل العاج والأبنوس، و الحيوانات المتوحشة، و الأقزام، و ظلت النوبة مدة طويلة بالنسبة لفراعة مصر بلد إستغلال و عبور، وإستعمار أيضا(869).

لأجل كل ذلك فإن الكثيرين يصفون ثراء بلاد النوبة والسودان بالتنوع نتيجة لتعدد مصادرها منها: القمح، الأبقار، العاج، الأبنوس، البخور، ريش النعام، وهي منتجات موجودة في " وادي علاقي"، وهو الآن واد جاف يمتد في الصحراء الشرقية و الذي يربط النيل بالشلال الأول والشلال الثاني، وإلى الشمال من منطقة Aniba توجد حجارة الكوارتز تحوي معدن الذهب، والتي أستغلت منذ زمن باكر من قبل المصريين(870)، بدون شك فإن هذا التنوع كانت تستفيد منه مصر و يعني لها الكثير، ما عدا القمح الذي لا يمكن أن يكون قد جذب أنظار المصريين إلى هذه البلاد لأن أرضهم كانت تنتج فائضا منه.

لذلك ذهب البعض إلى أبعد من ذلك في إبراز أهمية هاته البلاد، فهي كما يقول "غريمال" (N.Grimal) نقطة مرور إلى إفريقيا شبه الاستوائية عبر "دارفور"(871).

و لا تقتصر أهمية بلاد النوبة فيما أتيت على ذكره، بل أن أهميتها تفوق ذلك بكثير، فإن كانت غابات سواحل البحر المتوسط تزود مصر بالأخشاب فإن الغابات النوبية كانت بدورها لا تقل شأنا في هذا المجال، حيث كانت تزود المصريين بجذوع وكتل الأخشاب، منها خاصة الأبنوس و كذلك السنط – سبق و أن تطرقت إلى ذلك في الفصل الأول - .

و إضافة إلى غنى النوبة بالمعادن الثمينة فهي تشهد حركة نشطة للقوافل التي تجلب لها البخور، الزيوت، الأبنوس، العاج وولود الحيوانات الآتية من الأقطار الشرقية والجنوبية البعيدة، إذن فاهمية بلاد النوبة لمصر هي بالدرجة الأولى مصلحة تجارية، ورغم أن إقتصاد النوبة كان في الأساس زراعيًا ورعويًا إلا أن التجارة كانت هي الأخرى مزدهرة، ولم يقتصر الأمر على حركة القوافل للأقطار الأخرى، بل كان زعماء بلاد النوبة يمارسون بأنفسهم تجارة البخور والزيوت، وغيرها من السلع الآتية من البلاد الإفريقية الداخلية(872).

وهكذا لعبت النوبة دورا أوليا في الإزدهار الإقتصادي لمصر، و لأجل كل ذلك كانت العلاقة التجارية بينهما حتمية، فمثلما أوضحت أن بلاد النوبة كانت تشكل أهمية بالغة لمصر إذ لا يمكن أن تستغنى عن كنوزها، وبالمقابل تشكل مصر نفس الأهمية لدى النوبيين، الذين بدورهم لا يستطيعون الإستغناء عن جيرانهم المصريين الذين يفوقونهم حضارة و ثراء، فكانت مصر بالنسبة لهم مصدرا يزودهم بالحبوب إضافة إلى منتجات أخرى.

بقي أن أشير إلى أن وصول مصر إلى بلاد النوبة والتي كانت بوابتها لإفريقيا كان يتم من خلال منافذ ترسل عبرها بعثاتها الإستكشافية والتجارية وحتى الحملات العسكرية عند الضرورة.

المطلب الثاني: البعثات التجارية خلال الدولة القديمة

فإن كانت علاقة مصر بالشمال الشرقي و بلاد "يونت" لا يعرف عنها الكثير خلال عصر الأسرتين الأولى و الثانية فعكس ذلك صحيح مع بلاد النوبة، فهذه العلاقة مرتبطة بحاجة البلاط الملكي للأسرة الحاكمة

(866) – محمد بيومي مهران، مصر منذ قيام الملكية...، المرجع السابق، ص. 241.

(867) - N. Grimal, Op-Cit, p. 36.

(868) - B. Manley, Op-Cit, p. 17.

(869) - G. Posener et autres, Op-Cit, p. 194.

(870) - C. Lalouette, Thébès..., Op-Cit, p. 65.

(871) - N. Grimal, Op-Cit, p. 112.

(872) - B. Manley, Op -Cit, pp. 17, 26.

إلى ما تزخر به المناطق شبه الصحراوية جنوبا وخاصة من العاج والأبنوس حيث تهاقت تلك الطبقة للحصول على مثل هذه المنتوجات، وهذا الهدف كان دافعا لحماية حدود مصر الجنوبية عند الشلال الأول وبالتالي تجارتها هناك.

إن حوليات الملك " سنfro " التي سجلت على " حجر بالرمو " تذكر أن هذا الملك كانت له حملات ضد بلاد النوبة، و التي أسر فيها سبعة آلاف أسير و مائتين من الماشية، و لم توضح الدلائل التاريخية فيما إذا كان قد إستولى على جزء من بلاد النوبة أو أن عمله ذاك كان مجرد حملة رافقت بعثة تجارية(873).

و مع بداية الأسرة الرابعة نجد " زوسر " كان قد توغل في بلاد النوبة و ألحق هذه البلاد إلى مصر، وعدّه البعض أول ملك دخل النوبة السفلى وراء الشلال الأول، وإلى غاية منتصف المسافة بين الشلالين الأول والثاني أي حوالي 143 كلم ، لأن عصر بناء الأهرام تميز بنشاط تجاري واسع ، وكانت التجارة جد نشطة في عهد الملك "خوفو" باتجاه الجنوب كما كانت نشطة في الشمال باتجاه " مدرجات الأخشاب"، حيث كانت التبادلات في عصره كثيفة بين مصر والنوبة وكان النيل يسهّل ذلك(874). و سار خلفاء "خوفو" على سياسته والتي كانت عبارة عن علاقات سلمية مع بلاد النوبة(875).

و توسعت تجارة الأسرة الخامسة باتجاه الجنوب حيث وصلت قوافلها إلى منطقة "بوهن" و كانت نتيجتها بسط النفوذ السياسي، وفي الوقت الذي تواصل فيه إرسال البعثات التجارية كانت الحملات العسكرية موازية لها(876).

ويستخلص من النقش الموجود قرب بلدة "توماس" ببلاد النوبة أن الملك "ساحورع" كانت له بعثات تجارية إلى هناك و خلال حكمه عرفت مصر نشاطا كبيرا في علاقاتها التجارية مع محيطها الخارجي وبالتالي برزت كقوة على مسرح أحداث العالم القديم(877).

و لم تكن لدى المصريين إلى غاية الأسرة الخامسة سياسة ضم بلاد النوبة بل كانوا يرون حدودهم تنتهي عند "إليفنتين" أما ما وراء الشلال الأول فإن خيرااته يمكن إستغلالها عبر بعثات تجارية منظمة، والتي كانت ترافقها الحملات العسكرية لأجل حماية القوافل التجارية من هجمات القبائل ولتسهيل مهمة العمل في المناجم، إضافة إلى سعيهم لخلق أسواق تجارية في بعض المناطق الهامة، وبالتالي إستخدام أهلها كوسطاء تجاريين بينهم وبين داخل إفريقيا(878).

أما معلوماتنا عن العلاقات التجارية بين مصر وبلاد النوبة خلال الأسرة السادسة فهي تتميز بوفرة أكثر من الفترات السابقة، لذلك كانت البعثات تتميز بوضوح أكبر. فكانت للملك "بيبي الأول" ثالث ملوك الأسرة السادسة عدة بعثات تجارية إلى عديد مناطق الجوار الجغرافي منها بعثاته إلى بلاد النوبة(879).

وخلال حكم الملك "مرنرع" (Merneré) حدثت بعثات تجارية إلى هذه القبائل من أجل إحضار خاصة خشب " السنط" لصناعة المراكب، من خلال نقش عثر عليه هناك، و يذكر نفس النص بعثات المحاجر خلال حكم هذا الملك إلى أسوان، والتي لم تكن محروسة إلا بمركب واحد وهو دليل على إستتباب الأمن هناك(880).

أما زمن " بيبي الثاني " فكان يمتاز بالتوسعات التجارية من خلال عديد العلاقات التي عقدتها مصر مع كل مناطق الجوار الجغرافي و المتمثلة في البعثات إلى "بونت" وإلى " مدرجات الأخشاب" وتوسيع الكشف باتجاه الجنوب وتوسيع العلاقات التجارية مع السودان(881).

كان "حركوف" أحد الرحالة المستكشفين المشهورين و في نفس الوقت حاكما لـ "إليفنتين" (أسوان)، وقام بقيادة أربعة رحلات ثلاثة منها زمن الملك "مرنرع" والأخيرة في عهد الملك "بيبي الثاني"، وقد عدت بمثابة إكتشافات لأنه وصل إلى أماكن لم يصلها قبله أحد، وبالتالي فهو يعد مكتشفها، ومدة رحلاته الأربع إستغرقت

(873) - أحمد أمين سليم و سوزان عباس ، المرجع السابق ، ص. 248 .

(874) - H. Gauthier , Op-Cit , pp. 77, 81.

(875) - محمد بيومي مهران ، تاريخ السودان... ، المرجع السابق ، ص. 200.

(876) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 128.

(877) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، المرجع السابق ، ص. 23.

(878) - محمد بيومي مهران ، الثورة الإجتماعية... ، المرجع السابق ، ص. 212-213.

(879) - ن. ي. ، المرجع السابق ، ص. 100.

(880) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 67.

(881) - ن. ي. ، المرجع السابق ، ص. 101.

في مجملها أربع سنوات⁽⁸⁸²⁾، وهي تعد أهم بعثات هاته الأسرة والتي حدثت بين سنتي 2250 و 2240 ق.م⁽⁸⁸³⁾.

كان الهدف من الرحلة الأولى هو كشف طريق جديد يؤدي إلى بلاد "بونت" وكان ذلك رفقة أبيه ، والتي دامت مدتها حسب ما يذكر سبعة أشهر، جلب معه سلعا متنوعة وقيمة⁽⁸⁸⁴⁾. ووصل من خلالها إلى "إيام" أو "يام" وهي تقع عند الشلال الثاني وكان الهدف من هذا الكشف هو تجاري بحث⁽⁸⁸⁵⁾، ويقول عن رحلته الأولى : « أرسلني فخامته مرنرع نحو "إيام" مع أبي وكاهن من أجل كشف الطريق الذي يؤدي إلى هذه البلاد، و قد أنجزتها خلال سبعة أشهر فقط، و قد أحضرت كل أنواع السلع من هذه البلاد... »⁽⁸⁸⁶⁾، وبعد نجاحه في إكتشاف تلك الطريق عاد رفقة 300 حمار مشحونة بمنتجات الجنوب المتنوعة⁽⁸⁸⁷⁾.

وفي رحلته الثانية إنطلق من مدينة "أبيدوس" وسلك طريقا قدر بـ: 1725 كلم، وعبر بقافلته مناطق كل من "إيدل" و "ديكسون" حتى وصلت منطقة "دنقله" ، وكانت قد سلكت هذا الطريق البري الذي أطلق عليه إسم "طريق العاج" على ظهور الحمير، و دامت هذه الرحلة ثمانية شهور⁽⁸⁸⁸⁾. وخرج فيها من "إيفنتين" قاصدا منطقة "يام" وكان في هذه المرة يقودها لوحده، وتميزت هذه الرحلة بأنه جلب فيها سلعا بكميات ضخمة لم يجلب مثلها من قبل⁽⁸⁸⁹⁾.

و في رحلته الثالثة إنطلق من أبيدوس لكنه في هذه المرة عبر "طريق الواحات" والذي يسمى "درب الأربعين" ، و هذا الطريق ظل حتى الوقت الحاضر ترتاده القوافل ، و هو الطريق الذي يربط بين إقليم "دارفور" و الواحات الخارجية ويصل إلى غاية "أسبوط"⁽⁸⁹⁰⁾، هذه الرحلة أعطت تقريرا أكثر تفصيلا، حيث سار عبر "طريق الواحات" نحو "يام" ، والتي وجد أميرها غائبا حيث كان يقود جيشا ضد بلاد الليبيين، وعاد رفقة منتجات الجنوب الثمينة⁽⁸⁹¹⁾، و يقول عن رحلته الثالثة : « مرة ثالثة ، أرسلني فخامته نحو "يام"، و قد سافرت عبر طريق الواحات وكنت قد عدت رفقة 300 حمرا محملا بسلع... »⁽⁸⁹²⁾.

سلك هذه المرة الطريق من مقاطعة "الثنية" من "أبيدوس" (وهي بلدة "هو" الحالية)، و صادف في رحلته هاته حربا دائرة بين زعيم "يام" وقبائل "التمحو" التي تقطن الصحراء الغربية، حيث توسط بين الطرفين لإنهاء النزاع حتى لا ينعكس ذلك سلبا على أمن طرق القوافل هناك و نجح في ذلك⁽⁸⁹³⁾.

و جاءت رحلته الكشفية الرابعة أيام حكم الملك "بيبي الثاني" ، وعاد بما تعود جلبه من هناك في كل مرة، لكن هذه المرة جلب معه قرما. وكان في كل رحلاته يعمل على تأمين ذلك الطريق ويرسل ما يجلبه إلى الملك ويطمئنه على بسط سلطانه في تلك البلاد⁽⁸⁹⁴⁾، و حدثت بعثته الرابعة في العام الثاني من تولي الملك الحكم.

ذكرت رحلات "حركوف" أماكن في بلاد النوبة مثل "يام" و"واوات" و "إيرتيت" و "مدجا"، و دار حولها جدال بين المختصين وخاصة "إيام" أو "يام" لأن كل رحلة من رحلاته كانت هي أبعد مكان يصل إليه في بعثاته، ويعتقد بأنها لا تتجاوز خط عرض 22°، وهناك من يرى بأنها تقع في واحات "دنقله"، وآخرون يرون بأنها عند الشلال الثاني، والمرجح أنها تقع بين الشلال الثاني والثالث. بينما كان تحديد الأماكن الأخرى على عكس "يام" التي حصل جدل كبير في تحديد موقعها، أمرا هينا حيث حددت بصورة قطعية، "فواوات" هي المنطقة التي تقع إلى ما وراء الشلال الأول، و "إرتيت" تقع قريبة من "توماس" حيث أن هذه الأخيرة تقع في

(882) - عبد الرحمان الرفاعي ، المرجع السابق ، ص. 45.

(883) - B. Manley , Op-Cit , p. 8.

(884) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، المرجع السابق ، ص. 25.

(885) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 138.

(886) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p. 284.

(887) - W. Hyde , Op-Cit , p. 263.

(888) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 138.

(889) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 668.

(890) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 138.

(891) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 668.

(892) - G. Dykmans , Op-Cit , t 2, p. 284.

(893) - محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية ... ، المرجع السابق ، ص. 244.

(894) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 138.

وسط الطريق المؤدي من " أسوان " إلى " وادي حلفا "، و "مدجا" بجوار الشلال الثاني⁽⁸⁹⁵⁾. أي أن البعض يرى أن هذه الصعوبة في تحديد المصطلحات الجغرافية المذكورة في سيرة "حركوف" تمنع من إتباع مغامراته بدقة. ومع ذلك تمكن بعض المؤرخين مثل " مانلي " (Manley) من وضع تخطيطا لبعثتين من بعثات " حركوف" و يمكن الإطلاع عليهما في الفصل السادس من خلال الخريطة رقم 06 ص 288 .

أما بخصوص تحديد تاريخ تلك البعثات، أجد أن نفس المؤرخ يرى بأن الثانية منها قد حدثت حوالي 2250 ق.م والثالثة في سنة 2245 ق.م ، كما حدد بعثة " بيبى نخت " بحوالي 2200 ق.م⁽⁸⁹⁶⁾، والتي واصل بها أعمال "حركوف" في الجنوب خلال زمن حكم الملك " بيبى الثاني"، و بذلك تواصلت التجارة المصرية مع بلاد النوبة ويعتقد أنها وصلت إلى أسواق كرما، وهي أقصى نقطة في "دنقله"، حيث عدت من أهم الأسواق وأكبرها بين بلاد النوبة والسودان، فهذا الحاكم واصل الكشف وتأمين سبيل التجارة⁽⁸⁹⁷⁾.

و آخر ما نعرفه عن البعثات التجارية خلال الدولة القديمة بعثة " سيبني " (Sebni) التي نظمها من أجل إحضار جثة والده " ميخو " (Mekhou) ، الذي توفي في منطقة "واوات" و ذلك من أجل تحنيطها، وقد إغتنتم هذه الفرصة وشحن مائة حمار بالمنتجات الأجنبية، وهذه البعثة هي العمل الأخير الذي لدينا معرفة عنه خلال الدولة القديمة⁽⁸⁹⁸⁾. و مما جاء في سيرته الذاتية قوله :« إصطحبت جنودا من رجالي و مائة حمار و أخذت معي عطورا و عسلا و زيتا و ملابس لأقدمها هدايا في تلك البلاد »⁽⁸⁹⁹⁾.

وهكذا و مع حلول الأسرة السادسة فإن مصر كانت ترسل فقط البعثات التجارية، ووصلت إلى غاية مملكة "يام" (جنوب الشلال الثاني). وبذلك إتضحت معالم العلاقات مع النوبة حيث إتخذت شكل البعثات الكشفية ورحلات تجارية وحملات تأديبية.

المطلب الثالث: البعثات التجارية خلال الدولة الوسطى

من خلال الحديث عن البعثات التجارية خلال الدولة القديمة فإن مصر إكتفت في هذه المرحلة من تاريخها بإرسال بعثات تجارية بحتة إلى بلاد النوبة والتي كانت ترافقها فرق عسكرية من أجل الحماية لا غير، لكن هذه السياسة نجدها قد تغيرت خلال الدولة الوسطى وتحولت إلى تواجد فعلي في النوبة، وذلك حتى يتسنى لها الحصول على معادن تلك البلاد بشكل أيسر وحتى تتمكن أكثر من تأمين تجارتها هناك عبر الحدود⁽⁹⁰⁰⁾. وعلى ما يبدو فإن الفرق العسكرية التي كانت ترسل من حين إلى آخر خلال الدولة القديمة لم تكن تستطيع فرض أمن دائم هناك بل كان أمنا مؤقتا لفتح الطريق أمام البعثات التجارية. وفي ذلك تقول "إليزابيث رايفشتال": « قنع الحكام السابقون بالمحافظة على حدود مصر وحمايتها من أي عدوان خارجي وفتحها في وجه التجارة »⁽⁹⁰¹⁾.

بدأت الدولة الوسطى بإرسال البعثات منذ أن قامت خلال الأسرة الحادية عشرة، وأبدؤها ببعثات الملك "منتوحتب نب رع". فهذا الملك لم يكتف بإرسال البعثات إلى الصحراء الشرقية والبحر الأحمر- كما مر بنا - بل أنه أرسل بعثتين إلى بلاد النوبة من أجل إستكمال إستغلال مناجمها خاصة في "وادي الهودي" الواقع جنوب شرق " أسوان" و الذي يبعد عنها مسافة سبعة عشرة ميلا، وكانت تستخرج منها " الجمشيت " ⁽⁹⁰²⁾، وكباقي البعثات فإن بعثتي هذا الملك كانت مزدوجة أي ليست فقط لجلب الأحجار بل كان لها عمل ثان وهو إجراء مبادلات تجارية. وهناك نقش "أبيسكو" الذي يعطينا فكرة عن مدى الإهتمام الذي أولاه ملوك ذلك العصر لبلاد النوبة من خلال ذكره أن الملك "منتوحتب نب رع" ذهب بنفسه إلى " بوهن" وجاب تلك البلاد عبر النهر على ما يبدو، حيث عاد وهو محملا بالمعادن الثمينة والحجارة، وهو ما رواه أمين الخزينة الذي يدعى "خيتي"⁽⁹⁰³⁾، و أرى أنه من المحتمل كان مرافقا للملك في تلك الرحلة، ولو أن بعثات هذا الملك كانت عديدة إلا أننا نعرف منها إثنين فقط، الأولى حدثت خلال السنة التاسعة والعشرين من حكمه والثانية في السنة الواحدة و الثلاثين،

(895) - محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص ص. 244- 245 ، 247.

(896) - B. Manley , Op-Cit , p. 27.

(897) - أحمد أمين سليم ، المرجع السابق ، ص. 283.

(898) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p.286.

(899) - أحمد فخري ، مصر الفرعونية... ، المرجع السابق ، ص. 158.

(900) - بلقاسم رحمانى وحرشوش مدني ، المرجع السابق ، ص. 29.

(901) - إليزابيث رايفشتال ، المرجع السابق ، ص. 40.

(902) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 158.

(903) - محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية ... ، المرجع السابق ، ص. 385.

واللتان قادتا المصريين إلى غاية "واوات" ، أي إلى غاية الشلال الثاني، و الهدف كان المراقبة وليس الإحتلال الحقيقي (904). و من خلال ما تذكره نقوش "كروسكو" فإن الملك " أمنمحات الأول " بنى "حصن سمنة" بعد أن ضم "واوات" (النوبة السفلى) لسيادته، وحدث ذلك خلال السنة التاسعة والعشرين من حكمه، و كان لحملته هاته غرضان: الإستفادة من المناجم والحصول بسهولة من هناك على منتجات البلاد الأجنبية الأبعد ، والغرض الثاني هو جعل تلك المنطقة كدفاع متقدم في وجه الأخطار المحتملة من "الكوشيين". و تتضح أهمية بلاد النوبة السفلى أيضا من خلال حرص "أمنمحات الأول" على تأمينها بإرسال ابنه " سنوسرت الأول " لتنفيذ سياسته هناك (905).

كان توسع "أمنمحات الأول" في النوبة عبر مراحل، ففي السنة التاسعة والعشرين من حكمه إمتد نفوذه إلى غاية "كوروسكو"، ثم وصل إلى منطقة "سمنة" عند الشلال الثاني (906). وبهذا العمل تصبح النوبة جزء من الأرض المصرية ولم تعد كمنطقة جوار، بل أن نفوذ مصر تعدى ذلك إلى " دنقلة"، ويحتمل بأن " كرما" أصبحت في عهده مركزا تجاريا مهما بعد أن كان قد تسنى له تحصين " سمنة"، و بالتالي فإن تأسيس مركز "كرما" التجاري أصبح أمرا أكثر من ضروري (907).

و بما أن والده كان قد مهّد له الطريق بضمّ النوبة، فما كان على "سنوسرت الأول" إلا أن وسّع نفوذ مصر فيها من خلال إستغلال مناجم الصحراء التي كان يستخرج منها الذهب والنحاس ، و في نفس الوقت الإهتمام بالتجارة هناك (908). وقد وضع بـ: " بوهن " حامية عند الشلال الثاني ودخل في علاقات تجارية مع "كرما" (909)، التي تقع جنوب الشلال الثالث وتكمن أهميتها في كونها كما يقول "عبد العزيز صالح" « سوقا رئيسية لتجارة القوافل التي تخرج منها غربا إلى واحة سليمة ثم تتجه إلى درب الأربعين أو تتجه منها شمالا حتى الشلال الثاني»، وكان الذي يعين عليها يحمل لقب "الرئيس الأعلى للجنوب" و"رئيس زعماء الجنوب" (910).

أما الملك "أمنمحات الثاني" فإن عهده كان مزدهرا تجاريا لأنه كان قد أرسل عديد البعثات التجارية المزدوجة المهمة تجارية وتعدينية (911)، أي أنه جمع بين إستغلال المناجم والتجارة كما فعل سابقوه. وبمجيء عهد الملك "سنوسرت الثالث" فإن إمتداد النفوذ المصري في الجنوب أصبح أيسر نتيجة لتحسينات الملوك السابقين وكذلك لسهولة العبور إلى هناك عن طريق قناة - سأتطرق إليها في الفصل السادس -. وكان هذا الإمتداد يتم على مراحل، وللمرة الأولى في تاريخ مصر تمتد حدودها إلى جنوب الشلال الثاني (912)، فإن دلّ ذلك على شيء فإنه يدل على خطورة المنطقة وأهميتها في نفس الوقت. و في هذا الصدد يقول "سترابون" عن بعثات هذا الملك: « لقد جاب سيزوستريس أثيوبيا كلها إلى غاية Cinnamôphre، وهناك الكثير من النصب والنقوش التي تركها كمعالم شاهدة على فتوحاته هناك » (913). و هكذا تميزت بعثات الدولة الوسطى بأنها كانت تتزامن مع سياسة التواجد المصري و إمتداد نفوذه الفعلي على أرض النوبة.

المطلب الرابع: البعثات التجارية خلال الدولة الحديثة

خلال المرحلة الإنتقالية الثانية أي مرحلة حكم الهكسوس، نجد قيام دولة موحدة في النوبة وشمال السودان يطلق عليها اسم دولة " كوش" وذلك منذ سقوط الدولة الوسطى، و التي قامت كقوة منافسة للأسرة الحاكمة في "طيبة" ولدولة الهكسوس في منطقة الدلتا ومصر الوسطى، وعليه فإنه طيلة هذه المرحلة خرجت بلاد النوبة عن الرقابة الإدارية لمصر. (914).

(904) - N. Grimal , Op-Cit , p. 208.

(905) - محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص. 398.

(906) - أحمد أمين سليم وسوزان عباس ، المرجع السابق ، ص. 384.

(907) - أحمد فخري ، مصر الفرعونية... ، المرجع السابق ، ص. 212 .

(908) - عبد الرحمان الرفاعي ، المرجع السابق ، ص. 56.

(909) - N.Grimal , Op-Cit , p. 217.

(910) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 176.

(911) - عبد الرحمان الرفاعي ، المرجع السابق ، ص. 60.

(912) - B. Manley , Op-Cit , p. 50.

(913) - Strabon , XVII , Chap I, 5.

(914) - محمد إبراهيم بكر ، المرجع السابق ، ص. 163-164.

وخلال زمن الملكة "حتشبسوت"، تأسست روابط تجارية مع البلدان الواقعة جنوب "كوش"، منها "إرم" (Irè) و "Nmayon"، وكانت الأسر الملكية لهذه المناطق قد أستقبلت في القصر المصري(915)، فهذه الملكة يرى فيها المؤرخون بأنها إهتمت بإفريقيا أكثر من إهتمامها بآسيا، لأنها أولت عناية بمنطقة "كوش" وعملت على إحلال الأمن بها حتى تتمكن من الحصول على خيرات مناجمها و تحقيق التبادل التجاري مع تلك المنطقة ومع المناطق الأبعد منها(916).

و في زمن حكم " تحوتمس الثالث " وصلت الحدود الجنوبية إلى غاية الشلال الرابع وعرف ذلك من خلال نصب "جبل بركل"، الذي يذكر بأن هذا الملك فتح المنطقة بين " تومبوس" الحد الجنوبي الذي كان قد وصله "تحوتمس الأول" و"جبل البركل" (917)، و أقام ذلك النصب في عامه الـ47 من الحكم إلى ما وراء "كرما" بالقرب من الشلال الرابع كما أنشأ هناك قلعة جديدة(918)، وذلك المكان يتطابق مع مدينة "ناباتا" (Napata) على بعد حوالي 600 كلم جنوب أسوان، والتي أصبحت منذ ذلك الزمن الحدود الجنوبية للمملكة المصرية. و إنطلاقاً من ذلك التاريخ لم تتوقف هذه المدينة عن أخذ أهمية متزايدة كمكان تبادل للتجارة بين السودان والشاطئ الجنوبي للبحر الأحمر. إن النوبة وكما يسميها المصريون في هذا العصر "كوش" بقيت لمدة نصف الألفية تحت السيادة المصرية(919)، وهكذا فإن المصريين دخلوا في إتصال مع السود الذين سيمثلون من الآن فصاعداً في التمثيلات الجنازية إلى جانب الشعوب الأجنبية الأخرى.

و نجد ذكر لبعثة إلى الجنوب أيام حكم الملك "توت عنخ آمون" والذي قام بها نائب الملك عن بلاد النوبة المدعو "Houij"، و الذي كان والده موظفا سامياً خلال زمن حكم "أمينوفيس الثالث" و أصبح هو صديقاً للملك الشاب "توت عنخ آمون" لذلك كان الملك يكلفه بالوظائف الدبلوماسية، كرسل له في كل البلدان الأجنبية، ومن بين أشهر بعثاته بعثته التجارية إلى النوبة، وهناك في الجنوب كان يرسل مبعوثه إلى مناطق أبعد لدى صيادي الفيلة والزرافات وغيرهم وكذلك لقطع أشجار الأبنوس لأجل إنجاز المراكب، وعاد بأسطوله إلى "طيبة" مشحوناً بمنتوجات الجنوب، المتمثلة في أكوام مكدسة من الذهب في مقصورات المراكب وهي محروسة من طرف الجنود، و تم العثور في الخيام المقامة على المراكب أمراء وأميرات من "واوات" و"كوش" وهو ما يدل على أنهم جاؤوا رفقة البعثة، وهناك أيضاً عبيد كانوا جالسين في شكل القرفصاء على سقف المقصورات و هم نساء وأطفال من أجل خدمة النبلاء(920). وهذه البعثة لا تقل أهمية من بعثة "حتشبسوت"، فإن كان هدف بعثتها هو جلب البخور فإن بعثة "Houij" كان هدفها جلب أخشاب الجنوب. كما تدل على أن تجارة العبيد لم تقتصر على عبيد آسيا، بل كانوا يجلبون أيضاً من الجنوب، ومثلما كان يزور مصر وفود من "بوننت" و آسيا و "كريت" و غيرها، فإن سكان الجنوب كانوا هم بدورهم يفعلون ذلك، و يبدو أن زعماءهم كانوا يحتلون مكانة مهمة لدى المصريين نتيجة لأهمية السلع التي تجلب من هناك.

تتجدد البعثات التجارية مع الأسرة التاسعة عشرة وتحديدًا زمن الملك "رمسيس الأول"، ومنذ السنة الثانية من حكمه أشرك معه ابنه "سيتي الأول"، و قاما بتنظيم بعثة إلى النوبة والتي تقدمت على الأقل إلى "وادي حلفا" إلى الشمال قليلاً من الشلال الثاني(921)، ثم واصل ابنه "سيتي الأول" البعثات، حيث أنه وصل إلى "وادي ميا" على بعد 100 كلم إلى الجنوب من مسلك "وادي حمامات"(922).

و لم تقتصر البعثات إلى الجنوب على الدولة الحديثة بل وجدت إشارات لها في فترات لاحقة منها حملة "بسماتيك الثاني"، والتي تمكنت من الوصول إلى غاية الشلال الخامس والسادس(923)، والبعض يرى أنها لم

(915) - B. Manley , Op-Cit , p. 74.

(916) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص. 207.

(917) - T. Save –Soderbergh , Op-Cit , p.45.

(918) - B. Manley , Op-Cit , p. 61.

(919) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 670.

(920) - Christiane Desroches-Noblecourt, vie et mort d'un Pharaon Toutankhamoun, (Paris: Librairie Hachette, 1963),

pp. 195,199.

(921) - H. Gauthier , Op-Cit , pp. 156 -157.

(922) - C. Lalouette , L'empire des Ramsès , Op-Cit , p. 159.

(923) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني، المرجع السابق، ص. 43.

تتجاوز الشلال الرابع، وكانت قيادتها لـ: " أمازيس " والذي كان قد إعتد على فرقة من المرتزقة الإغريق، إلا أن فائدتها محدودة لأن النوبة خلال العصر الصاوي لم تكن ملحقة بمصر (924).

المطلب الخامس: الواردات والصادرات

بعد هذه الجولة في بلاد النوبة من خلال بعثات المصريين طيلة العصر الفرعوني، أصل إلى التعرف عن واردات وصادرات هذه البعثات.

أ - الواردات :

إن واردات مصر منذ عصر ما قبل الأسرات تتمثل في أخشاب الأبنوس الثمينة، ريش النعام والقرود ذات الرأس شبيه برأس الكلب (Cynocéphale)، جلود الفهود التي كان يرتديها الكهنة في الإحتفالات الدينية وتبر الذهب (925)، إضافة إلى ذلك كانت بلاد النوبة تزودهم بالعاج (926)، وتواصلت هذه الواردات خلال الأسرتين الأولى والثانية. أما خلال عصر الأهرامات فكانت الواردات تعتمد أساسا على الأبنوس والعاج، إضافة إلى ريش النعام وأنواع البخور (927)، وكان البخور الذي يجلب من النوبة له تسمية خاصة تميزه عن البخور الذي يأتي عن طريق البحر الأحمر من بلاد "بونت" إذ كان يطلق عليه "سنتر"، وهذه التسمية وجدت في نصوص مقابر أمراء "أسوان" من خلال سيرهم الذاتية مثل "حركوف" و "سبني" وهذا النوع يعد من حيث الجودة أقل من بخور "عننبو"، إلا أن تسمية "سنتر" أصبحت تطلق على البخور الذي يجلب عبر البحر وهو مثبت من خلال بعثة "حتشبسوت" (928)، و إنضم إلى هذه الواردات خاصة منذ أواخر الدولة القديمة إستيراد الأقزام.

هذا و نجد بعثات "حركوف" خلال الدولة القديمة تذكر الواردات المتمثلة في: الذهب، إليكتروم، المعادن، الأحجار الكريمة، العاج، الأبنوس، المر، وريش النعام، جلود الحيوانات، وأنواع مختلفة من الأخشاب (929)، وإذا قارناها بما جلبته بعثة "حتشبسوت" البحرية خلال الدولة الحديثة لوجدنا التشابه الكبير في السلع المجلوبة، ماعدا إختلافات بسيطة منها أن ما كان يجلب من بلاد النوبة هو العبيد. و من واردات بلاد النوبة أيضا جلود الضباع والماشية والغلال (930)، وكذلك بيض النعام والأحجار الكريمة (931).

و كانت النوبة تزود مصر خلال الدولة الحديثة بكميات ضخمة من الذهب، حوالي 2600 كلف في السنة الرابعة والثلاثين من حكم الملك "تحوتمس الثالث" وتقريبا 2680 كلف في السنة الثامنة والثلاثين وأكثر من 3000 كلف في السنة الواحدة والأربعين من حكمه، فإذا كان توافد هذه الكميات بكثافة خلال فترة حكم الأسرة الثامنة عشرة فإنها تناقصت شيئا فشيئا بعد ذلك، و أثناء حكم "رمسيس الثالث" فإن معبد "أمون" الذي هو الأهم في المملكة لم يستقبل إلا 273 كلف من الذهب وهو قليل مقارنة بالكميات التي تحصل عليها "تحوتمس الثالث" من الجنوب (932).

بالإضافة إلى ذلك فإن تجارة مصر مع هذه البلاد ميزتها تجارة العبيد كما ذكرت قبل قليل. و الملاحظ على هذه الوردات أنها كانت نفسها في كل فترات العصر الفرعوني، و كانت كل البعثات تجلب نفس المواد ، لأن الحاجة إليها كانت أساسية و ثابتة.

ب - الصادرات :

تذكر النصوص المصرية أن من ضمن الصادرات: الدهون العطرية، العسل الأبيض، المنسوجات، الزيوت، مصنوعات القشاني و كذلك الأواني الفخارية، والملاحظ عن الصادرات المصرية أنها كانت تتمثل في الأشياء التي كانت قيمتها تساوي الكثير و في نفس الوقت ذات حجم صغير وذات وزن خفيف، مثل: الخرز، الحلي، سكاكين ضخمة، العطور القوية الرائحة، لفائف من ثيتل (نسيج القنب)، و يبدو أنها كانت نفس صادرات مصر إلى بلاد " بونت " .

(924) - H. Gauthier , Op-Cit , p. 208.

(925) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 1, p. 215.

(926) - D. Maillet , Op-Cit , p. 41.

(927) - جيمس هنري برستيد ، إنتصار الحضارة... ، المرجع السابق ، ص. 111.

(928) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 215.

(929) - H. Gauthier , Op-Cit , p. 88.

(930) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 137.

(931) - عبد الفتاح محمد وهيب ، المرجع السابق ، ص. 310.

(932) - F. Daumas , Op-Cit , p. 223.

و كانت المنتجات المصرية التي ترسل إلى الجنوب يجرى تبادلها في أسواق هناك منها: سوقا " أبو " و "سين" (أسوان) بمنتجات الجنوب التي كان يحضرها وسطاء سودانيون إلى هناك (933). هذا بالطبع في مراحل التوسع التجاري الأولى وخاصة خلال الدولة القديمة، لكن بعد ذلك فإنها كانت تصل إلى أسواق أبعد كما عرفنا من خلال البعثات التي كانت تقيم القلاع والمدن. فميزة التجارة في الجنوب هو أن القلاع في تلك المنطقة كانت تقوم بتبادلات تجارية في حدود ضيقة كما يذكر "تريجر"، وكان يعطى للتجار القادمين من الجنوب مقابل سلعهم الخبز و الجعة و هو ما تشير إليه بعض الكتابات في "سمنة" التي تقول أنهم كانوا يأتون من أجل ذلك (934).

هناك من يقيم العلاقات بين النوبة ومصر بأنها كانت علاقات سلمية وتجارية، وإبتداء من الأسرة الأولى فإن المصريين يغزونها بانتظام، و إستعمروها تجاريا خلال الدولة الوسطى، ثم أصبحت مستقلة خلال المرحلة الإنتقالية الثانية لكن أستعمرت من جديد خلال الدولة الحديثة. فهل يعتبر ذلك صحيحا؟.

يرى " بيرين" بأن البعثات التجارية إلى بلاد النوبة كانت تشمل مراكب حرب و فرق عسكرية، لكن هدفها كان تجاريا ، و هي ميزة ميزتها عن باقي بعثاتها في الإتجاهات الأخرى (935). والبعض الآخر يرى أن هناك فرق أساسي بين سياسة مصر تجاه النوبة وسياستها تجاه آسيا. فخلال المملكة الوسطى كانت النوبة محتلة بصفة دائمة من قبل الجيوش المصرية، وفي المملكة الحديثة ضمت سياسيا وثقافيا وأصبحت تدار من قبل نائب ملك مصري. أما في آسيا فلا نجد مثل هذا المسؤول، كما أن المراقبة المصرية تكون بصفة أقل. فالمراقبة في كل من فلسطين وسوريا كانت تحدث عن طريق حصون وقلاع وحاميات في مدن مهمة بمساعدة جزئية من زعماء أهم المدن. و كان موظفو الفرعون يرسلون إلى آسيا كحماية للمصالح المصرية ، في الممالك الآسيوية (936).

يمكن أن يكون هؤلاء مصيبيين إلى حد ما، لأنه من خلال العرض السريع لمختلف بعثات مصر يتبين أنه لا فرق في طبيعة البعثات في حد ذاتها ، فكلها كانت ترافقها فرق عسكرية ، لكن البعثات التي كانت بإتجاه بلاد النوبة ربما كانت تدعم أكثر بالوحدات العسكرية لخطورة المنطقة، فرغبة مصر في الوصول إلى عمق مناطق مصادر الثروات الجنوبية يجعل أحيانا من تلك الفرق العسكرية ذات فاعلية محدودة ، لذلك كانت تعمل على إيجاد مناطق متقدمة تحمي قوافلها التجارية المتجهة إلى هناك، وبالتالي فأنا لا أراه إستعمارا بمعنى الكلمة، بل هو بكل بساطة تواجد من أجل مهمة تجارية، بدليل أن مصر لم تكن محتفظة بهذه المنطقة بصفة متواصلة حتى في فترات قوتها ، بل كان التواجد بين مد و جزر تبعا للمتطلبات و للمصالح التجارية. و الدليل الآخر أنه وعلى الرغم من هذه الجهود المصرية في بلاد النوبة ، إلا أن البعض يرى من خلال ذلك أن النفوذ المصري في الجنوب لم يجعل من تلك المنطقة جزء ضمن المملكة المصرية، بل أنها كانت تحكم من قبل ملوك مصر برتبة "الإبن الملكي لبلاد النوبة والقيّم على البلاد الجنوبية" وعلى "بلاد الذهب" (937)، و أنا أرى بأنهم عبارة عن قناصل يمثلون مصر من أجل مصالحها التجارية، لأن التجار المصريين كانوا يقومون بصلات مع الجنوب منذ أواسط الألف الخامسة ق.م (الفصل الثاني). فهذه الروابط التي حدثت منذ ما قبل الأسرات بين مصر و الجنوب وصلت في الدولة القديمة لأن تصبح مزيجا من المبادلات التجارية وبعثات مباشرة من قبل المصريين إلى مصادر الثروات النوبية و إستمرت خلال كل مراحل العصر الفرعوني.

ويرى " بريستد " قيمة فتح "النوبة" تتمثل فقط في أن هذه المنطقة كانت الطريق الوحيد للوصول إلى بلدان الجنوب التي كان ملوك مصر يعقدون معها العلاقات التجارية المنتظمة، حيث كانت السودان ترسل عبر الطريق النهري الذهب، ريش النعام، والأبنوس وغيرها ، بينما نفس الطريق كان يوصل إلى "بونت" والمناطق الواقعة إلى الشرق، أين يوجد المرّ والراتنج المعطر والأخشاب العطرية الأخرى، وعليه كانت ضرورة ملحة بالنسبة للملوك المصريين في أن يكونوا أسياد هذا الطريق (938).

و أصل الآن إلى تليخيص البعثات البرية – النهرية في الجدول التالي، و الذي يشمل بدوره مثلما ذكرت في الجدولين السابقين ، تعداد البعثات بالترتيب حسب مراحل العصر الفرعوني ، رفقة أهم الواردات و الصادرات، و بعض الملاحظات.

(933) – عبد الفتاح محمد وهيبه ، المرجع السابق ، ص. 310.

(934) - تريجر و آخرون ، المرجع السابق ، ص. 159.

(935) - J. Pirenne , Y'eut-il des foires ... ?, Op-Cit , p.14.

(936) - T. Save –Soderbergh , Op-Cit , pp. 31- 32.

(937) – بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، المرجع السابق ، ص. 32.

(938) - J.H. Breasted, histoire de l'Egypte ... , Op-Cit , p. 137.

جدول رقم 3 : البعثات التجارية البرية-النهرية

الصادرات	الواردات	ملاحظات	الفترة الزمنية	البعثات التجارية	
- الدهون العطرة - العسل الأبيض - المنسوجات (ملابس) - الزيوت - مصنوعات القشاني - الأواني الفخارية - الحلي والخرز - سكاكين ضخمة - عطور - لفائف من نسيج القنب - الخبز - الجعة	- الأبنوس - ريش النعام - بيض النعام - تير الذهب - العاج - القروود - جلود الفهود - البخور - الأقزام - الإليكتروم - الأحجار الكريمة - جلود الحيوانات - العبيد - الماشية - الغلال - جلود الضباع	* - بعثات الأسرة الرابعة كانت تصل إلى المنطقة الواقعة بين السلالين الأول والثاني. * - الأسرة الخامسة وصلت إلى بوهن. * - بعثات "حركوف" وصلت إلى مناطق لم تصلها البعثات من قبله. * - إمتازت البعثات التجارية خلال الدولة القديمة بأنها حملات تجارية ترافقها حملات عسكرية لأجل حماية القوافل التجارية. * - خلقت هذه البعثات أسواقا تجارية أصبحت بمثابة وسيط تجاري بين مصر وأواسط إفريقيا. * - إمتازت البعثات خلال الأسرة السادسة بوفرة المعلومات عنها. وتميزت بأنها بعثات إستكشافية. وبأنها بعثات تجارية ومنجمية.	بين 2660 و 2680 و 2605 و 2580 // // 2490 و 2500 // 2280 و 2330 الأولى : / الثانية : 2250 الثالثة : 2245 بداية حكم "بيبي الثاني" 2200 /	* <u>الأسرة الرابعة</u> - بعثة "زوسر" - بعثات "خوفو" * <u>الأسرة الخامسة</u> - بعثة "ساحورع" * <u>الأسرة السادسة</u> - بعثات "بيبي الأول" - بعثات "مرنرع" (بعثات حركوف الثلاث) - بعثات "بيبي الثاني" : ▪ رحلة حركوف الرابعة ▪ بعثة "بيبي نخت" ▪ بعثة "سييني"	الدولة القديمة
		* - خلال الدولة الوسطى أصبح التواجد المصري في النوبة فعليا من خلال التحصينات التي سهلت مهمة حماية الطرق هناك. * - الفرق العسكرية كانت توفر أمنا مؤقتا خلال مدة الرحلات التجارية لفتح الطريق أمام البعثات لكن الآن تعززت بالتواجد المصري هناك وأصبح الأمن دائما. * - لأول مرة يمتد النفوذ المصري إلى النوبة. * - مما سهّل مهمة البعثات هناك هو إعادة فتح القنوات عند الجندل الأول.	الأولى: 2045 الثانية: 2033 بين 1964 و 1994 و 1919 و 1881 و 1872 و 1854 //	* <u>الأسرة الحادية عشر</u> - بعثتا "منتوحتب نب رع" * <u>الأسرة الثانية عشر</u> - بعثات "أمنمحات الأول" - بعثات "سنوسرت الأول" - بعثات "أمنمحات الثاني" - بعثات "سنوسرت الثالث"	الدولة الوسطى
		* - توسّع النفوذ المصري إلى الشمال الرابع وأصبح للمصريين علاقة مباشرة مع سود إفريقيا. * - إن البعثات التجارية إلى النوبة تميزت خلال فترات العصر الفرعوني عن البعثات في الإتجاهات الأخرى في كثير من الأحيان بمرافقة مراكب حربية لها ولم تعتمد فقط على فرق عسكرية ضمن حاشية مراكبها التجارية.	// 1457 و 1479 و 1424 و 1457 و 1318 و 1328 // // 1291 و 1292 و 1279 و 1290 //	* <u>الأسرة الثامنة عشر</u> - بعثات "حتشبسوت" - بعثات "تحوتمس الثالث" - بعثة "توت عنخ آمون" * <u>الأسرة التاسعة عشر</u> - بعثات "رمسيس الأول" - بعثات "سيتي الأول"	الفترة المتوسطة
			// 589 و 595	* <u>الأسرة السادسة والعشرون</u> - بعثات "بسماتيك الثاني"	العصر الحديث

- 1 - أحمد أمين سليم وسوزان عباس ، دراسات في تاريخ مصر ... ، المرجع السابق ، ص. 248.
- 2 - H. Gauthier , l'Egypte pharaonique , Op-Cit , pp.77,81,88,156-157,208.
- 3 - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، الدور المصري ... ، المرجع السابق ، ص ص 23 ، 25 ، 43.
- 4 - J. Vercoutter , les pistes de l'or ... , Op-Cit , p. 24.
- 4 - ن.ي ، تاريخ ثوت عنخ آمون، المرجع السابق ، ص 100.
- 5 - Erman et Ranke , Op-Cit , pp. 67,668.
- 6 - عبد الرحمان الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ...، المرجع السابق ، ص 45.
- 7 - B. Manley , Atlas historique ... , Op-Cit , p. 8.
- 8 - عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم...، المرجع السابق ، ص ص 137-138 ، 158 ، 176 ، 207.
- 9 - G. Dykmans , histoire économique... , Op-Cit , t. 2, pp.284,286.
- 10 - محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية...، المرجع السابق ، ص ص 244 - 245 ، 247 ، 385 ، 398.
- 11 - B. Manley , Atlas historique ... , Op-Cit , pp. 27,61,74.
- 12 - أحمد أمين سليم ، في تاريخ الشرق الأدنى...، المرجع السابق ، ص. 283.
- 13 - أحمد فخري ، مصر الفرعونية... ، المرجع السابق ، ص ص 158 ، 212.
- 14 - N. Grimal , histoire de l'Egypte... , Op-Cit , pp. 208,217.
- 15 - عبد الرحمان الرافعي ، تاريخ الحركة القومية ...، المرجع السابق ، ص ص 56 ، 60.
- 16 - Strabon , XVII , Chap I, 5.
- 17 - T.Save – Soderbergh , the Navy ... , Op-Cit, p.45.
- 18 - Christiane Desroches-Noblecourt, vie et mort d'un Pharaon... , Op-Cit, pp.195,199.
- 19 - C. Lalouette, l'empire des Ramsès , Op-Cit , p. 159.
- 20 - G. Dykmans , Op-Cit , t. 1, p.215.
- 21 - D. Maillet , les rapports des Grecs avec l'Egypte... , Op-Cit , p. 41.
- 22 - جيمس هنري برستيد ، إنتصار الحضارة...، المرجع السابق ، ص 111.
- 23 - عبد المنعم عبد الحليم سيّد ، البحر الأحمر...، المرجع السابق ، ص 215.
- 24 - عبد الفتاح محمد وهيب ، مصر و العالم القديم...، المرجع السابق ، ص 310.
- 25 - F. Daumas , Op-Cit , p. 223.
- 26 - تريجر وآخرون ، مصر القديمة...، المرجع السابق ، ص 159.

هكذا كانت مصر منذ زمن مبكر قد أنشأت علاقات مع البلدان المجاورة من أجل التجارة لا غير مع كل من إفريقيا الوسطى وآسيا وغيرها، لذلك نجد المصريين يعدون المكتشفين الأوائل لقلب إفريقيا، وكان أمراء "أسوان" هم أبطال هذا الإكتشاف، وبذلك يكونون قد إكتشفوا النيل الأزرق و نهر عطبرة إلى غاية منابعهما في الحبشة، ويمكن أنهم كانوا قد وصلوا إلى إلتقاء بحر الغزال مع النيل الأبيض⁽⁹³⁹⁾.

ومن خلال هذا العرض للبعثات التجارية المصرية تتضح حقيقة و هي أن مصر كانت قد عرفت الملاحة لمسافات طويلة، والدلائل تؤكد بأنها كانت تجري منذ الألف الرابعة ق.م، و في ذلك يرى "تومازي" (A.Thomazi) بأنها بدأت مع المصريين و أن بدايتها كانت صدفة عندما دفعت عاصفة بمراكب كانت تقوم برحلات قصيرة و معتادة إلى شواطئ أبعد و هناك وجدوا أشياء ثمينة رأوا فيها منفعة لهم فكررروا تلك المحاولات إلى أن أصبحت منتظمة⁽⁹⁴⁰⁾، و بالتالي فإن المصريين و منذ زمن مبكر كانوا يغامرون بإجتيازهم المياه في طلب المنتجات بأنفسهم⁽⁹⁴¹⁾، و عليه كانوا هم الأوائل الذين سلكوا طرق القوافل و الممرات البحرية بأساطيلهم الكبيرة التي كانت تجوب البحرين المتوسط و الأحمر و التي سلكتها فيما بعد القوى التجارية التي أتت من بعدهم، و بذلك كانت مصر خلال العصر الفرعوني قد مارست التجارة البرية و النهرية و البحرية في نفس الوقت و سيطرت عليها ، و تميزت بذلك عن باقي شعوب العالم القديم.

(939) - W. Hyde , Op-Cit , p. 265.

(940) - A.Thomazi , histoire de la navigation , (2^{ed} ; Paris : Press Universitaire, 1942) , p.6.

(941) - D. Maillet , Op-Cit , p.188.

الفصل الرابع: تنظيم البعثات التجارية

كانت تلك لمحة عن البعثات التجارية خلال عصر سلالات مصر القديمة، والتي إرتبطت بفترات قوة مصر وبملوكها الكبار وكانت متنوعة منها البحرية والنهرية والبرية، وكان إتجاهها صوب الشمال وصوب الجنوب، وهذه الأخيرة إتسمت بأنها بعثات تجارية وإستكشافية في كثير منها، وقد توجت هذه البعثات في العصر المتأخر بالطواف حول القارة الإفريقية. إن هذه البعثات تبيّن مدى إرتباط مصر بمحيطها الخارجي وتشعب شبكة التجارة مع مناطق الجوار الجغرافي، ولكن كل ذلك يعد ناقصا لأنها عبارة عن معلومات سطحية وبالتالي تبادر إلى ذهني عدد من الأسئلة رأيت أن الإجابة عليها أمر ضروري، كونها تتعلق بمعرفة كنه هذه البعثات وتفاصيلها، ولو أن الكتابات لا تتطرق إلى هذا الموضوع بدقة وضمن دراسة خاصة، إلا أنني حاولت جمع معلومات من هنا وهناك، ورغم أنها لا تكفي من وجهة نظري، إلا أنها أوفت إلى حد ما بالغرض المطلوب وأعطت صورة يستطيع المرء معها أن يسافر بخياله في الماضي البعيد ويعيش مسيرة تلك البعثات من خلال الإجابة على التساؤلات الآتية: من كان يشرف على البعثات التجارية؟، كيف كانت تحضر وتسير؟، ما هي الطقوس الدينية المرافقة للبعثات التجارية؟، ما هو دور الدبلوماسية في تسهيل المعاملات التجارية؟. وقبل الخوض في الإجابة على هذه التساؤلات أود التطرق إلى بعثة "نخاو" والتي تسمى بالطواف حول القارة الإفريقية.

المبحث الأول: الطواف حول إفريقيا

من خلال عديد البعثات وتنوعها عدّ المصريون بحق أول من جاب أواسط إفريقيا، كما كانوا مستكشفين كبارا لمناطق عدة من العالم القديم، فهذه الرحلات التجارية وسّعت من أفقهم في مجال الجغرافيا لأن بعثاتهم التي كانوا يرسلونها عبر البحر إلى بلاد "بونت" كانت في كل مرة تمنحهم معلومات جديدة عن الأفق الجغرافي للعالم الذي أخذت تتوسع أفكارهم عنه، فكان ذلك دافعا إلى أن يرسلوا بعثة لإكتشاف مناطق أبعد لتدور حول إفريقيا و يصلوا إلى معرفة ما يحيط بهم من مناطق جغرافية. فماذا عن هذه البعثة؟.

المطلب الأول: " نخاو " يرسل بعثة حول إفريقيا

رغم أنه لم يكن معروفا من خلال المعالم المصرية والتي لم تشر إليه كثيرا، إلا أن "نخاو الثاني" إحتل مكانة مميزة في تاريخ العالم القديم. فهو ينتسب إلى العصر الصاوي الذي يمثل الأسرة السادسة والعشرين، والذي كان قد شهد حركة إقتصادية وعرف بصورة خاصة حركة تجارية نشطة، حيث إزدادت العلاقات التجارية مع المدن الفينيقية واليونانية لدرجة وجود جالية يونانية إستقرت خاصة في مدينة "نوقراطيس" بغرب الدلتا، وتمثل الإزدهار التجاري في إنشاء أسطول بحري من قبل هذا الملك، كما قام بمحاولة حفر قناة بين النيل والبحر الأحمر (942).

و يقال إن إعادته فتح القناة القديمة ربما كان من أجل مرور هذه البعثة بها، فحسب هذا الرأي فإن البعثة تكون قد إجتازت القناة، إذ كان يهدف من وراء حفرها مد النشاطات البحرية والتجارية للمملكة. كما أدخل تحديثات في الأسطول البحري والذي أصبح ذو ثلاث صفوف من المجاديف (943)، وأحيا من جديد الكشف عن المعادن والتنقيب في عديد الأماكن وخاصة على مستوى شواطئ البحر الأحمر، إضافة إلى عقد العلاقات التجارية مع الشعوب المجاورة. ويبدو أن بعثاته التجارية كانت كثيرة إلا أن أعظمها كان الطواف حول القارة الإفريقية (944)، وذلك أسوة بمن سبقه من ملوك مصر العظام الذين سيروا البعثات إلى كل الإتجاهات، ف "نخاو الثاني" - كما ذكرت - كان قد وصل ببعثاته البرية إلى أماكن عميقة في إفريقيا .

وقد أرسل أسطولا صغيرا ليستطلع السواحل الإفريقية، و دامت الرحلة ثلاث سنوات ووصلت عبر البحر المتوسط و جلبت معها ما إستطاعت الحصول عليه من السواحل الإفريقية (945). وكان هذا الطواف بغرض فتح منافذ إفريقية لأسطوله أي مراكز تجارية جديدة، وهو يعد الطواف الأول حول إفريقيا، لإكتشاف البحار والأراضي الجنوبية أي إكتشاف عالم جديد (946).

(942) - نعيم فرح ، موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم ... ، المرجع السابق ، ص. 93.

(943) - G. Posener et autres , dictionnaire de la civilisation..., Op-Cit , p. 184.

(944) - Z. Herman , peuples ..., Op-Cit , p. 91.

(945) - محمد بيومي مهران ، الحضارة المصرية...، المرجع السابق ، ص. 227.

(946) - J. Boulos , les peuples et les civilisations du Proche-Orient ... , Op-Cit, p. 251.

و كما يقول البعض فإن المصريين من خلال بعثاتهم عبر البحر الأحمر كانوا في كل مرة يصلون إلى سواحل أبعد من التي وصلها من سبقهم. فنجد "نخاو" سار على نفس منوالهم لذلك كان من بين أهداف الرحلة التي أرسلها هو الوصول إلى أبعد الأماكن، وبالتالي إكتشاف طريق تجاري جديد.

و هناك سبب آخر يردده الكثير من المؤرخين و يعدونه الأساسي إن لم يكن الوحيد حسب رأيهم، و هو تقادي الخطر الفارسي الذي كان يهدد مصالح مصر التجارية في منطقة الشرق الأدنى القديم (947).

و بما أن إهتمام المصريين كان منصبا طيلة العصر الفرعوني- كما يرى "دوماس"- على إيجاد طرق جديد يوصلهم إلى مصادر ثراء جديدة (948)، أيضا و بما أنه كان من الأولويات التي إهتم بها هذا الملك هو «ترقية التجارة وتشجيع الملاحة» (949)، فإن "نخاو" لم يشذ عن هذه القاعدة و أراد بدوره أن يخلد وجوده في مجال الإكتشافات التي تحقق لمصر الثراء ، فتلك الرحلة كانت إذن من أجل التوسع التجاري. و لتبرير هذا الرأي أعطي الدليل المتمثل في عدم إكتشاف معالم مهمة سواء كانت دينية أو غيرها تثبت أنه كانت له إهتمامات أخرى أولية غير المجال التجاري.

و يحدد البعض إنطلاق هذه الرحلة بحوالي 600 ق.م (950)، وبذلك تكون قد حدثت قبل واحد وعشرين قرنا من رحلة "فاسكو دا قاما" (Vasco da Gama).

ويبدو أن هناك إتفاق على أن البعثة لم يقم بها المصريون بل أوكلت مهمتها للفينيقيين، ونطرح السؤال التالي: لماذا الفينيقيين تحديدا؟.

يرى البعض أن هؤلاء الفينيقيين كانوا من الذين يعيشون في مصر أو من الممكن إستدعاهم "نخاو" من مدينة صور (951)، ومن خلال ذلك العمل نفهم بأن المصريين والفينيقيين كانت بينهما إتصالات وطيدة، وتطورت لتصبح تحالف بين الطرفين ليعطي ثمرته في هذه الرحلة، وقد كانت لهم مصالح يريدون تحقيقها من خلال قبولهم القيام بذلك العمل، وهي كسب معارف جغرافية جديدة عن القارة الإفريقية يضيفونها إلى معارفهم عنها من خلال إكتشافها عبر البحر المتوسط، والذي جعلهم يتحمسون لذلك هو رغبتهم في أن يجدوا طريقا جديدا لعالمهم الجديد يكون الوصل بين ذلك العالم وموطنهم في الشرق، حتى يتخلصوا من المنافسة ومن القوى المعادية لهم في البحر المتوسط وخاصة الإغريق (952)، فدوافع الفينيقيين هاته إجتمعت مع دوافع المصريين التي أتيت على ذكرها، وكما أن الفينيقيين كانوا في ذلك العصر قد أصبحوا سادة العالم في الإكتشافات والمغامرات خاصة منها البحرية، فهذا لوحده سبب يجعل إختيارهم أمرا لا مفر منه، وهو يرجع بدون شك لصيتهم وشهرتهم كبحارة وتجار، وشهرتهم هاته جعلت شعوب العالم القديم تعتمد عليهم في هذا المجال منهم خاصة الفرس والمصريين.

إبتداء من القرن السابع ق.م فإن الزمن الكبير للإكتشاف أعيد من جديد، وليمتد هذه المرة إلى بحار أخرى عدا البحر المتوسط. وبعثة "نخاو" عمل جريء جدا لأنها ستطوف حول إفريقيا من الشرق إلى الغرب إنطلاقا من البحر الأحمر لتصل مصر عبر المتوسط.

وهكذا إستدعى "نخاو" الملاحين الفينيقيين من أجل إنجاز هذا الطواف، لأن بعثة بمثل حجم بعثة "نخاو" الثاني والأهداف المهمة المرجوة من ورائها لم تكن بعثة إرتجالية بل كانت بعثة مدروسة، ولتأمين نجاحها فإنه لا بد أن تكون حاشيتها تتوفر على خبرة تستطيع بها التغلب على الصعاب والمخاطر التي تحف مثل هذه البعثات في بحار مجهولة العواقب، فكان من الضروري وجود ربان محنكين وفي نفس الوقت تجار ذوي خبرة بالملاحة التجارية، وبالتالي فإن أقدر أناس تتوفر فيهم هذه الصفات في ذلك العصر هم الفينيقيون بدون منازع.

المطلب الثاني: خط سير البعثة

قبل الحديث عن هذه النقطة أود أن أذكر مسألة مهمة أوردها "كاسون" (L.Casson)، و هي أنه لا بد من معرفة حدود العالم وتحديد إفريقيا في نظر القدامى ، إذ نجد أن "هومبروس" قد وصف العالم كجزيرة، محاطة بواد يسمى "المحيط" (Océan)، أما الإغريق خلال عصر "نخاو الثاني" فكانوا مقتنعين بأن الماء كان يحيط أوروبا وإفريقيا، ومع ذلك فإن البحارة لم تكن لديهم أية فكرة عن ضخامة القارة الإفريقية، فقد كانوا يمثلونها بمثلث متجه شرق- غرب، وكانوا يظنون بأن أي سفينة تصل إلى جنوب إثيوبيا بإمكانها تشكيل زاوية قائمة

(947) - بلقاسم رحماني وحرفوش مدني ، الدور المصري...، المرجع السابق ، ص. 42.

(948) - F. Dumas , la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 235.

(949) - بلقاسم رحماني وحرفوش مدني ، المرجع السابق ، ص. 40.

(950) - A.E. Maithand , les premiers marchands ... , Op-Cit , p. 62.

(951) - W. Hyde , Acienc Greek Mariners , Op-Cit , p. 235.

(952) - رحماني بلقاسم رحماني وحرفوش مدني ، المرجع السابق ، ص. 42.

بمحاذاة الواجهة الجنوبية لإفريقيا، وكانوا يعتقدون بأن هذا الشاطئ كان موازيا لساحل المتوسط، وبدون شك كانت هذه أيضا أراء فينيقيو "نخاو" الذين لم يشكوا أبدا في صعوبات المشروع⁽⁹⁵³⁾، وهكذا كان "نخاو" بدوره يعتقد بأن إفريقيا هي عبارة عن جزيرة، لذلك أراد إستكشاف مناطقها⁽⁹⁵⁴⁾.

وكان خط سير البعثة إنطلاقا من البحر الأحمر، حيث سار أفرادها جنوبا حتى وصلوا المحيط الهندي، ثم وصلوا الإبحار إلى غاية رأس الرجاء الصالح بالقرب من أقصى نقطة جنوبية لقارة إفريقيا ثم ساروا شمالا في المحيط الأطلسي وعبروا مضيق جبل طارق ثم البحر المتوسط إلى غاية الساحل المصري⁽⁹⁵⁵⁾.

و قسّم "كاسون" هذه الرحلة الطويلة إلى مراحل ثلاث، الأولى : غادرت فيها الرحلة السواحل المصرية على البحر الأحمر في آخر فصل الخريف، وعلى ما يبدو كان الإبحار صعبا لأن طاقم البعثة كانوا يجدّون ضد ربح الموسم شمال شرق وضد تيار البحر، وعند وصولهم الجنوب كانوا يستديرون إلى ما وراء رأس "كواردافوي" (Guardafui) أي الصومال الحالية التي تمتاز بمدرجات البخور، وهناك تصيح الرياح والتيارات البحرية ملائمة للإبحار⁽⁹⁵⁶⁾، و إنطلقوا تحديدا في آخر شهر نوفمبر مع ربح شمالية شرقية معاكسة لهم وكانت مراكبهم مشحونة بالقمح⁽⁹⁵⁷⁾. وبعد مسافة من السير يصادفهم تيار "موزمبيق" ثم تيار "أفولاس" (Agullas) حول رأس الرجاء الصالح، وفي هذه المنطقة كانوا قد توقفوا وصادف ذلك شهر جوان ليزرعوا القمح وينتظروا حتى ينمو فيحصلونه في شهر نوفمبر و يكون قد مر على إنطلاقهم سنة. وتبدأ المرحلة الثانية بإنطلاق السنة الثانية من إبحارهم حيث تساعدهم رياح الجنوب على ذلك، إذ كانت تدفعهم على طول الساحل الغربي لإفريقيا، كما كان التيار مناسباً في المنطقة من خليج "غينيا" إلى غاية "رأس بالاماس"، ومن المحتمل أن يكون توقفهم الثاني هنا في مكان يمتاز بشدة هدوء البحر أو أن الحرارة الشديدة تكون قد سببت لهم الإزعاج، وهنا من جديد يتوقفون لبذر القمح وينتظرون كما في المرة السابقة موسم الحصاد⁽⁹⁵⁸⁾، إلا أن المؤرخ "هيد" يخالف "كاسون" ويرى أن الرحلة واصلت مسيرها بعد اجتياز المنطقة بين أنغولا وليبيريا والتي كانت سهلة بالنسبة إليهم نتيجة للرياح والتيارات المساعدة على الإبحار، وبالتالي فالتوقف يكون قد حدث في بلاد المغرب بعد أن كان أفرادها يجدّون ضد ربح شمال-غرب، وضد تيار "كناري"، حيث وصلوا شواطئه في شهر نوفمبر أين قاموا بزراعة القمح ثم حصده في شهر جوان⁽⁹⁵⁹⁾.

أما المرحلة الثالثة و هي النهائية فتتمثل في اجتياز جبل طارق في مياه معروفة بالنسبة للفينيقيين والإبحار فيها يكون بدون خوف⁽⁹⁶⁰⁾، و بإجتيازهم جبل طارق تأتي آخر مرحلة من الرحلة التي عبرت المتوسط إلى غاية الإسكندرية و كانت سهلة لأن الرياح ملائمة⁽⁹⁶¹⁾. ورغم أن تقسيم هذه الرحلة إلى مراحل يدل على أنها قد حدثت في فترة زمنية لا تتجاوز الثلاث سنوات كما هو متعارف عليه، إلا أن هناك من يرى بأنها دامت أربع سنوات⁽⁹⁶²⁾، ورغم طولها فإن مسيرها كان سهلا نسبيا من خليج السويس إلى رأس "كواردافوي" لأنه بحر معروف، ومن هذا الرأس إلى "Natal" كان الإبحار ترافقه شتاء لكنه ملائم للإبحار ثم أن الرياح تكون ملائمة إلى غاية الغابون، لكن الصعوبات تبدأ في خليج "البنين" وإلى غاية السينغال، ثم أنه من هذا الخليج إلى غاية "رأس جوبي" فإن الظروف كانت معاكسة تماما بعدها تكون المهمة سهلة.

و لقد وصف "هيرودوت" هذه الرحلة من خلال قوله : « عندما توقف الملك "نخاو" عن حفر القناة التي كان من المفروض أن تقود مياه النيل إلى الخليج العربي، أعطى أمرا إلى مجموعة من الفينيقيين بأن ينطلقوا في رحلة من مصر ليعودوا إليها عبر البحر الشمالي [البحر المتوسط]. فإنطلق أولئك الفينيقيون مارين بالبحر الإثري [البحر الأحمر] ثم أبحروا في البحر الجنوبي. وعندما حل الخريف نزلوا في مكان ما على شاطئ ليبيا وقاموا بزراعة القمح، و إنتظروا موسم الحصاد، بعد ذلك أبحروا مجددا بعد أن مر على إبحارهم سنتين. وفي

(953) - L. Casson , les marins de l'Antiquité..., Op-Cit , p. 160.

(954) - A.E. Maithand , Op-Cit , p. 62.

(955) - محمد عزة دروزة ، تاريخ موجات الجنس العربي ...، المرجع السابق ، ص. 71.

(956) - L. Casson , Op-Cit , p. 161.

(957) - W. Hyde , Op-Cit , p. 240.

(958) - L. Casson , Op-Cit , p. 161.

(959) - W. Hyde , Op-Cit , p. 240.

(960) - L. Casson , Op-Cit , p. 161.

(961) - W. Hyde , Op-Cit , p. 240.

(962) - P. Rousseau, histoire des transports , Op-Cit , p. 35.

السنة الثالثة إجتازوا أعمدة هرقل إلى أن وصلوا مصر. وعند وصولهم قالوا بأنه أثناء إبحارهم حول ليبيا كانوا يشاهدون طلوع الشمس على يمينهم. هذا الأمر لا أعتقد بصحته، لكن من الممكن أن يعتقد به البعض الآخر. وهكذا فإن ليبيا كانت قد أكتشفت للمرة الأولى» (963).

إن وصف "هيرودوت" للرحلة رغم أهميته التاريخية على أساس أنه الوحيد الذي أورد لنا هذه المعلومات، إلا أن الكثير من المؤرخين يعيب عليه عدم ذكر التفاصيل، لأنه قدم وصفا ملخصا لحدث يمثل هذه الأهمية، ومع ذلك يلتزم له البعض العذر لأنه ربما لم يتمكن من الحصول على معلومات أكثر من ذلك (964)، لكنني أرى من المحتمل جدا أنه لم يحاول البحث فيه، و إكتفى بذلك القدر من المعلومات، كما حصل معه في كثير من المواضيع التي لم يحاول تقصي حقائقها، و هي من الأشياء التي تعاب على هذا المؤرخ في كتاباته. ويقول "هيد" (Hyde) في هذا الصدد: «فهذا التقرير المقتضب هو كل ما لدينا عن واحدة من أعظم أعمال الملاحة القديمة، لأن هيرودوت لم يحدد بدقة مصدر معلوماته، بل يقول بأنه سمعها من الأهالي أثناء إقامته في مصر» (965). فلو حفظ لنا تقرير البعثة لتغيرت أمور كثيرة، ولأعطي تفسير لكثير من التساؤلات.

من جهة أخرى فإن السبب في شح المعلومات أن الفينيقيين عندما عادوا إلى مصر كانوا قد وجدوا الفرعون "نخاو الثاني" قد مات، وبالتالي لم يكافئوا حتى على ذلك الإنجاز (966)، بل إنه لم يذكر شيء عن هذا التقرير حتى في مصادر أخرى، فالمعروف عن الفينيقيين أنهم كانوا كتومين جدا عن كثير من مغامراتهم البحرية ويعدونهم من أسرارهم الخاصة ولا بد من الإحتفاظ بها لأنفسهم (967)، لذلك ظلت هاته البعثة طي الكتمان. على كل يبقى هذا الإنجاز يستحق التقدير، فكم كانت الرحلة صعبة بل أنها تعد مستحيلة في ذلك الزمن بوسائل ذات فعالية محدودة، فالصعوبات التي نعرفها عن الملاحة حول القارة الإفريقية دفعت البعض إلى القول بأن الطواف حولها لا يمكن أن يتم خلال تلك العصور و بتلك التجهيزات.

ومع أن الكثير من المؤرخين يرجع الفضل في تلك البعثة إلى كفاءة الفينيقيين العالية وخبرتهم الفائقة لدرجة أن البعض يرى بأنه حتى المراكب كانت فينيقية وليست مصرية، إلا أن "جورج فضلو حوراني" يرى بأنه لا يمكن إنكار أهمية ما قام به "نخاو الثاني" من تحضير ودراسة، وتوفير كل ما تحتاجه البعثة من إمكانات بشرية ومادية (968).

وأريد أن أوضح شيئا، فإضافة إلى ذلك فإن حاشية البعثة لا بد أنها كانت تتكون من أشخاص لهم مهمات مختلفة، وبالتالي فإنه من المؤكد كان يرافقها المشرف على هذه البعثة والذي يكون مصرية وكذلك كاهن- كما سنرى بعد قليل في كيفية تنظيم البعثات التجارية، والبحارة بالطبع يكونون فينيقيين، لأن في ذلك الوقت لم يكن لمصر بحارة بنفس مستوى البحارة الفينيقيين الذين كانوا قد تفوقوا على المصريين في مجال المعارف الجغرافية والفلكية و تطبيقها ميدانيا، و بالتالي كسبهم لخبرات لم تتح لغيرهم و هو ما كان ينقص "نخاو"، بعد أن وفر التجهيزات المادية وطاقم الإشراف.

المطلب الثالث: الرأي القائل بعدم حدوث الطواف حول القارة الإفريقية

هذا الرأي قال به جملة من المؤرخين سواء منهم القدماء أو المحدثين، ورغم كل الإثباتات التي يمكن أن تدل على نجاحها إلا أن هذا الرأي ظل سائدا إلى الآن.

ف "بوليبوس" (Polybe) كما يذكر "كاسون" (Casson)، وبعد قرنين من ذكر هيرودوت لبعثة "نخاو الثاني"، كان مشككا في صحة حدوثها (969)، فرغم أنه كان قد أرسل خلال القرن الثاني ق.م من قبل "سبيو" (Scipio) لقيادة أسطول لكشف الشاطئ الغربي لإفريقيا ومن المحتمل أنه وصل إلى Cap Nun، لم يثبت ما إذا كان جنوب إثيوبيا محاطا بالبحر أو باليابسة، وسرد "هيد" قول "بوليبوس" الذي اعتبره كدليل على أنه شكك في بعثة "نخاو" وقد جاء فيه: «لا أحد إلى غاية عصرنا (القرن الثاني ق.م)، كان بإمكانه الإعتقاد والتأكد من أن آسيا و ليبيا لديهما قرابة تجاور كبيرة جدا مع إثيوبيا وهل أن هذه القارة ممتدة إلى الجنوب أو محاطة

(963) - Hérodote , *Histoires*, traduction de L.Humbert,(Paris : Garnier frères , Libraires-Editeurs , S.d) , IV, 42.

(964) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني، المرجع السابق، ص. 41.

(965) - W. Hyde, Op-Cit , p. 235.

(966) - أنور الرفاعي وشاكر مصطفى، معالم الحضارات...، المرجع السابق، ص. 48.

(967) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني، المرجع السابق، ص. 41.

(968) - جورج فضلو حوراني، المرجع السابق، ص. 41-42.

(969) - L. Casson, Op-Cit , p. 161.

بالبحر» (970)، أنا لا أفهم من قول "بوليب" بأنه شكك في بعثة "نخاو الثاني"، بل أفهم منه أنه لم يفصل فيما إذا كانت بلاد إثيوبيا يحيط بها البحر أم اليابسة في ضوء معارفه الميدانية، لأن رحلته وصلت إلى حد معين، وهنا أقترح احتمالين إما أن "بوليب" لم يعر أهمية لما جاء به "هيرودوت" عن الرحلة وأعتبره ليس بالأمر اليقين بل هو ضرب من ضروب الأساطير، أو أنه لم يشأ الإقرار بذلك حتى يعطى لإنجازه أهمية، لأنه من المنطق أن أقصى نقطة وصل إليها في رحلته تثبت بأنه لا زالت هناك مياه وإستمرار إمتداد الساحل.

ومن بين القدماء المشككين في الرحلة، نجد "بوسيدونيوس" (Posidonius) (971)، بل أن هيرودوت نفسه شكك فيها ولم يقتنع بأن البعثة قد أنجزت مهمتها.

إن كثيرا من العلماء المعاصرين كما يقول "كاسون" الذي يعتقد بأنهم الأغلبية هم مشككون في رحلة "نخاو الثاني" حول إفريقيا (972)، مما أدى ببعضهم إلى طرح تساؤلات و التي ذكر "موني" (R.Mauny) أحدها مفاده: هل أن الدوران حول إفريقيا يمكن حدوثه من الناحية التقنية؟، ويجيب على ذلك بمجموعة من الأدلة، منها أن المسافة الإجمالية بمحاذاة الشواطئ من السويس إلى النيل عبر البحر المتوسط تقدر بـ: 27000 كلم، منها 10000 فقط كانت معروفة للملاحين الفينيقيين في ذلك العصر، من السويس إلى "رأس كواردافوي"، وكذلك المسافة بين جنوب المغرب إلى غاية النيل عبر البحر المتوسط، وبين المسافتين، هناك مسافة تقدر بـ: 17000 كلم من الشواطئ غير معروفة، لا يعرفون شيئا عن رياحها وتياراتها وشعوبها ولغاتها والأماكن التي يمكن الرّسو عندها. أما بخصوص المراكب التي أنجزت الرحلة، فكانت عبارة عن عدد من المراكب ذات شراع، والتي كانت محاطة بالمجاديف لإدارتها في حالة الضرورة، إن شراعيها المربع كان قد صنع ليُسمح لها بالصعود بخفة أثناء الريح، ومع ذلك فهي لم تكن تكفي حسب رأيه. و من الأدلة الأخرى التي يذكرها أن أصعب مرحلة في الإبحار كانت من "الرأس الأبيض" إلى غاية "رأس جوبي"، وبما أن الرياح العكسية كانت تهب في هذه المنطقة بقوة طيلة السنة فإنها لم تمكن المراكب القديمة من إنجاز مهمتها. من جهة أخرى لا يوجد أي دليل مؤكد على أن القدماء كانوا قد اجتازوا المسافة بين "الرأس الأبيض" و "رأس جوبي" أي اجتياز جزر الكناري في المحيط الأطلسي باتجاه الجنوب، وحتى بعض النصوص مثل رحلة حانون فإنها لا تعطي إلا فرضيات، زيادة على ذلك لم يهتم علم الآثار بدراسة شاطئ الأطلسي جنوب "أغادير" Mogador (973).

والدليل الآخر الذي يقدمه البعض على نفي حدوث الدوران حول إفريقيا، القول بأنه لا يمكن تفسير حصول الدوران حول إفريقيا من خلال ما ذكره البحارة عن الشمس لأن الذي ينتقل ليعود من نقطة إنطلاقه يكون المشرق أولا على يساره وفيما بعد على يمينه، عند العودة، إذن الأمر يتعلق بوضعية الشمس عند منتصف النهار (974).

ويبدو أن أصحاب هذا الرأي لديهم أدلة لا نهاية لها، و هنا سأكتفي بالإشارة إلى دليلين آخرين، الأول: القول بأنه لو أن هذه الرحلة كانت قد تمت لكانت قد أحدثت تغييرا في مفاهيم شعوب العالم القديم عن شكل إفريقيا، كما أن طول المسافة تعد ضخمة جدا لم يحدث في تلك العصور أن قام بحارة بقطعها أو حتى قطع مسافة قريبة منها. وبخصوص الدليل في أن الشمس كانت تترأى على الجانب الأيمن من السفينة عند الوصول إلى ساحل إفريقيا الجنوبي والإستدارة حوله، لا يمكن التأكد منه على أساس أن هيرودوت إعتد على هذه المعلومة التي هي محل شك من حيث المصادقية (975). و الدليل الثاني: أن التقارير الجغرافية والإكتشافات التجارية لكل بعثة بحرية مصرية تتسرب إليها الأساطير والخرافات العجيبة، والتي كانت تثير روح المغامرة لدى الملاحين وتزيد من رغبة الفراعنة في إرسال البعثات لإكتشاف المجهول (976)، بمعنى أن الطواف لم يحدث في الواقع بل يعتبر ضربا من ضروب الأساطير، و بالتالي فحسب هذا الرأي فإن الدوران حول إفريقيا لم يتحقق إلا خلال القرن الخامس عشر ميلادي وعندها أصبح حقيقة مؤكدة لا شك فيها.

والبعض يرى بأن عدم وجود وثيقة تتكلم عن تقرير البعثة من قبل الفينيقيين مثلما تركوه عن بعثة "حانون" هو دليل آخر على عدم حدوثها، ويرد "هيد" على ذلك بأن معلوماتنا عن المعارف الجغرافية والفلكية للفينيقيين

(970) - W. Hyde, Op-Cit , p. 277.

(971) - Raymond Mauny, « le périple de l'Afrique par les Phéniciens de Néchao vers 600 av.J.C », Archéologia 96, -

(Juillet,1976) p. 44.

(972) - L. Casson , Op-Cit , p. 161.

(973) - R. Mauny , Op-Cit , pp. 44 - 45.

(974) - M. Mollat du Jourdin et J. Desanges, les routes millénaires, Op-Cit, p. 68.

(975) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني، المرجع السابق، ص ص. 40 - 41.

(976) - A. Gaudio , les empires de la mer, Op-Cit , p. 153.

والتي جعلت أسفارهم ممكنة وسهلة لم يعرف عنها الكثير وهذا راجع لإحتفاظهم بها كسر من أسرارهم(977)، وهو ما حدث مع موضوع الدوران حول إفريقيا ، أي أن عدم وجود تقرير يتناول الطواف لا يؤخذ كدليل على عدم حدوث الرحلة .

المطلب الرابع: الرأي القائل بصحة حدوث الطواف حول إفريقيا

هناك العديد من المؤرخين المحدثين إعتقدوا بصحة قيام بعثة "نخاو الثاني"، وذلك لتوفر دوافع كثيرة وإشارات تاريخية غير مباشرة منها أن "نخاو" هذا شرع في إعادة فتح قناة بين النيل والبحر الأحمر، وهناك دوافع أخرى محفزة وهي السماع عن شهرة منطقة غنية بالذهب تقع بإفريقيا بجوار زمبابوي. والتي يتناقل أخبارها البحارة العرب و لذلك ذاع صيتها(978)، إضافة طبعا لما قلته من إحياء لمجد أجداده التجاري وأراد هو أن يضيف إليه شيئا يخلد إسمه في هذا المجال.

ومن الأدلة التي إتخذها البعض عن حقيقة القيام بالرحلة حول إفريقيا إعتراض هيرودوت عليها، وهذا راجع لإعتقاده مثل كل معاصريه من المؤرخين بأنه بعد رأس "كواردافوي"، فإن الساحل الإفريقي كان يمتد تقريبا في شكل مستقيم إلى مضيق جبل طارق، في هذه الحالة فإن الذي كان يقطع هذه المسافة كان يفترض أن تكون الشمس دائما على يساره، لكن الواقع غير ذلك، لأن الشمس تتحول لتصبح على يمينه، لأجل كل ذلك كان الإعتقاد بحقيقة الرحلة وعلى أنها قد تمت بالفعل لأن الملاحين عند عودتهم ذكروا بأن الشمس كانت تطلع في الصباح على يسارهم ثم تحولت لتشرق من جهة اليمين (979).

و أورد " موني " (R.Mauny) مجموعة من الأدلة عن صحة حدوث الطواف حول إفريقيا منها:

* - بذر القمح، و بما أنه لا ينمو إلا في البلدان التي تسقط فيها الأمطار شتاء وليس في البلدان التي تسقط فيها صيفا كما هو الحال في المناطق الاستوائية، فإن ثلاثة سنوات من الغياب تتطابق مع محطتين شتويتين في بلدان يمكن أن ينمو فيها القمح أثناء الصيف الجنوبي و في المغرب.

* - الرياح المواتية للإبحار والتي درسها بالتفصيل بنفسه حيث يقول بأن الإبحار ضد الرياح هو أمر ليس بالهين، لكن الفينيقيون في دورانهم حول إفريقيا كانوا يبحرون على طول شواطئ إفريقيا المجهولة لهم والتي لا يعرفون شيئا عن رياحها التي كانت تهب بصفة منتظمة في بعض المواسم لتتقلب في مواسم أخرى، ومع ذلك فإنه على طول الشواطئ الإفريقية للمحيط الهندي كانت تهب الرياح الموسمية في الشتاء بدون إنقطاع وكانت تهب شمال غرب إلى غاية منطقة Natal وبذلك كانت تساعد سفن البعثة على السير بسهولة لأن الرياح كانت دائما من الخلف فتدفع السفن إلى الأمام، كما أن الرياح عند جنوب القارة وبإتجاه السواحل الغربية الإفريقية تكون مواتية لأنها تأتي من الخلف لتدفع السفن بإتجاه الشمال. وعليه فإن الملاحة أثناء ربح خلفية لم تكن تطرح مشاكل كثيرة على خلاف الملاحة في وجه الرياح العكسية و بمراكب ذات شراع مربع- حتى وإن كان متقن الصنع - فإن ذلك سيكون العقبة الرئيسية للملاحة في بعض الجهات من القارة وأصعبها بالتأكيد المنطقة بين "الرأس الأبيض" بموريطانيا و "رأس جوبي" ، أين تتغير الرياح وتصبح عكسية.

* - الإستدلال بدراسة قام بها "راوول لويس" (R.Louis)، المختص في إفريقيا القديمة، حول الملاحة بين هذين الرأسين في ملتقى بديكار في شهر جانفي 1976، تحمل عنوان: " ظروف الملاحة على الشاطئ الأطلسي لإفريقيا في العصر القديم: مسألة الرجوع" (Les conditions de la navigation sur la cote de l'Atlantique dans l'Antiquité: le problème du retour)، يبين هذا المؤرخ من خلالها بأن القدماء كانوا من جهة، يعرفون الإلتفاف بوضع الشراع في شكل مائل أثناء هبوب الرياح ، و من جهة أخرى بأن Le gouvernail à pivot كان شيئا معروفا ومتداولاً لدى الرومان و في ذلك العصر عموما، وقد لخص دارسته قائلا: «تقنيا، كان ممكنا على ملاح المغامرة نحو الجنوب وراء "رأس جوبي" و " الرأس الأبيض" فعل ذلك في إتجاه رياح معاكسة والسفر بين الرأسين، فهذا لم يكن شيئا يسيرا ولا يكون متكررا»(980).

يبدو أن طريق الملاحة الأطلسية، على طول الشواطئ الإفريقية لم يكن أبدا يتردد عليه خلال كل العصر القديم، ومع ذلك يمكن قبول إمكانية الملاحة الإستثنائية. فإن كان إحتمال اجتياز هذه المنطقة ذات الرياح العكسية إحتمالا ضعيفا ولا يتكرر، فإن هناك إحتمال آخر يدل على تغلب الملاحين على تلك الصعوبة، فيما أن الملاحة بين الرأسين كانت صعبة وهي مستحيلة بالنسبة للملاحين القدماء فإن البحارة الفينيقيين كانوا قد تفادوا ذلك بالوصول برا إلى الجنوب المغربي ومن هناك كان بإمكانهم مواصلة الإبحار من "أغادير" Mogador للوصول

(977) - W. Hyde , Op-Cit , p. 3.

(978) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني، المرجع السابق، ص. 42 - 43.

(979) - محمد بيومي مهران ، الحضارة المصرية...، المرجع السابق، ص. 227.

(980) - R. Mauny, Op-Cit , pp.44 - 45.

إلى النيل. وقد حاول "جيل - أرتانيون" (André Gil-Artagnan) إجراء تجربة لتوضيح كيف كانت تتم الملاحة القديمة وإعادة تكرار دوران الفينيقيين حول إفريقيا، والتي توصل من خلالها إلى أن الملاحة كانت ممكنة لكنه لم يجزم بحدوث الطواف لأنه ترك للمؤرخين إستخلاص النتائج. وإعتمد في ذلك على أن الظروف الجوية لم تتغير إطلاقا منذ العصر القديم، وقد قام بالتجربة من خلال نموذج صنع بتقنية مراكب الألف الثانية، لأنه يعتقد بأن النتيجة التي سيتحصل عليها بهذا النوع من المراكب هي نفسها المتحصل عليها مع مركب من العصر الصاوي الذي نفذ الطواف⁽⁹⁸¹⁾، و هو بالطبع نموذج مصغر لسفن أسطول الملكة " حتشبسوت "، الذي كان قد قطع البحر الأحمر وصولا إلى الصومال.

يبدو أن كثيرا من المؤرخين المعاصرين يقرون بأنه لا يوجد أي سبب لإنكار أن الفينيقيين كانوا قادرين على إنجاز هذه الرحلة في المدة والطريقة التي ذكرها هيرودوت. و من بينهم "هرنل"، الذي أنجز بحثا حول "التجارة البحرية في العصور القديمة" (Sea trade in Early times) حيث لا ينفي قيام الفينيقيين بالطواف حول إفريقيا باعتبارهم ذوي خبرة طويلة، وذوي كفاءة عالية في الملاحة البحرية، ويؤكد على ضرورة أخذ شروق الشمس من جهة يمينهم الذي ذكره هيرودوت كدليل قاطع على ذلك ولو أن هيرودوت شكك في الأمر⁽⁹⁸²⁾.

أما "كاسون" فذهب إلى أبعد من ذلك، حيث يرى بأن الدوران حول إفريقيا حقيقة حتى ولو لم يكن الفينيقيون هم الذين قاموا به وحججه في ذلك التفاصيل التي قدمها هيرودوت حول بذر القمح أثناء السفر، وهو ما يثبت بأن هذه البعثة كانت محضرة بعناية كبيرة. زيادة على ذلك أنها وصلت إلى ما وراء المنطقة الإستوائية، وهو مكان يقول عنه رجال السفينة بأنهم عندما وصلوا إلى هناك كانت الشمس في جهة اليمين، معنى ذلك أنها كانت في الشمال بالنسبة لهم، إذن كانوا يبحرون باتجاه جنوب - غرب وغرب إفريقيا وهو ما ذكره هيرودوت بنفسه، ولو أنه لا يصدقه ، في حين أنه أكثر الأشياء إقناعا في الرواية⁽⁹⁸³⁾.

وكرر على التساؤل الذي يطرح بخصوص إمكانية قيام الرحلة بتلك المراكب البدائية يجيب "هيد" بأنه لو نظرنا إلى المراكب الصغيرة والبدائية فإننا نجدها كانت تقوم بجولات بحرية تصل فيها إلى نيوزيلندا ومدغشقر⁽⁹⁸⁴⁾. وحتى في أيامنا هاته لازالت تصنع زوارق بدائية من البردي من قبل شعوب أمريكا اللاتينية، وكان يركبها الشخص كما يمتطي حصانا ويقطع بها مساحات شاسعة في المحيط.

ورغم ما قيل من تشكيك وتأكيد في حقيقة الطواف حول القارة الإفريقية ، فإن "ديزنج" (J.Desanges) يرى قبول أو عدم قبول حقيقة رحلة "نخاو الثاني" هي مسألة إيمان⁽⁹⁸⁵⁾.

رغم كل هذه الاختلافات حول حدوث بعثة "نخاو" من عدمه، إلا أن هناك دلائل كثيرة وقوية تؤكد حدوثها، وبالتالي فإن المؤرخين الذين ينفون صحة قيام رحلة "نخاو" إستنادا إلى نفي هيرودوت لها هي حجة واهية لأن هذا المؤرخ نفسه لم ينف ذلك وذكر بأن هذا الطواف إكتشف مناطق ليبية للمرة الأولى، أي أنه يصدق ضمنا إمكانية إنجاز البعثة لمهمتها إلا أنه لم يستوعب حقيقة طلوع الشمس من جهة اليمين، وهذا راجع بالطبع للشكل الذي كان متصوره عن القارة الإفريقية. والخريطة رقم 2 ، ص 198 ، توضح المناطق التي زرع فيها القمح ، و تصور لنا مسار تلك البعثة مع توضيح الظروف الطبيعية التي تحيط بها من رياح

خريطة رقم 02: بعثة "نخاو" (الطواف حول القارة الإفريقية)

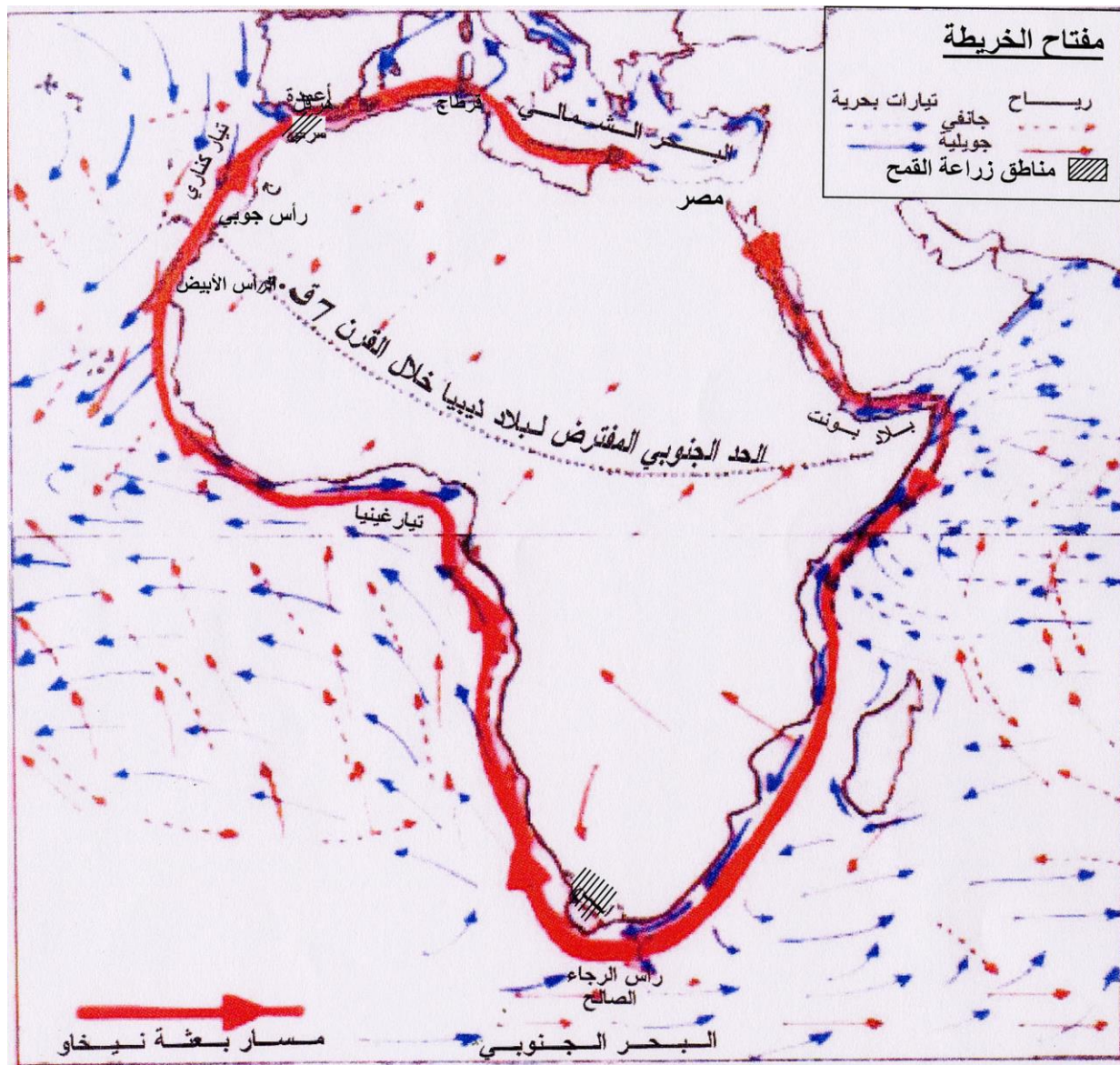
(981) - A. Gil – Artagnan , Retrouver le pays de Pount , Op-Cit , pp. 45,54 - 55.

(982) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني، المرجع السابق، ص. 42.

(983) - L. Casson, Op-Cit , p. 162.

(984) - W. Hyde, Op-Cit , p. 239.

(985) - M. Mollat du Jourdin et J.Desanges, Op-Cit , p. 68.



المرجع (بتصرف) : R.Mauny , le périple de l'Afrique ..., Op -Cit , p.45. :

وتيارات بحرية وكذا المنطقة التي تعد أصعب مرحلة في ذلك الإبحار، وأذكر هنا بأنها نفس المنطقة التي اجتازتها رحلة حانون ذهابا وإيابا وهو أمر يفند تعبير الملاحة الإستثنائية فيها، وعليه فأنا أرى في عدم تواتر البعثات من قبل المصريين أو الفينيقيين إلى هناك وحول إفريقيا ككل هو راجع بكل بساطة إلى بعد المسافة، وإمكانية حصولهم على ما يحتاجونه من مناطق أقرب.

المطلب الخامس: صدى الطواف حول القارة الإفريقية

عرفنا بأن المصريين كانوا أول المستكشفين في العالم القديم وخاصة في القارة الإفريقية، وإكتشافاتهم تلك توجت بأعظم وأطول وأول بعثة تدور حول إفريقيا، وكما كانت هذه الرحلة هي نتيجة لإكتشافات سبقت، فإنها ولو لم تذكر بصراحة في النصوص القديمة ولم تخلد على الآثار المادية إلا أنها على ما يبدو فتحت المجال أمام قيام الإستكشافات البحرية وحتى البرية إلى داخل إفريقيا.

إن هذه البعثة رغم أن هدفها كان تجاريا بحتا، إلا أن نتيجتها الرئيسية كما يرى "تومازي" (A.Thomazi) هي تبديد النظرة التي كانت حول إفريقيا، و أن هذه القارة تمتد إلى أبعد من ذلك بكثير، و لذلك نجد هذه النتيجة يتردد صداها لدى القرطاجيين الذين يعدّون شعب تجاري بامتياز، فقد رأوا أنه بإمكانهم إعادة إحياء تلك الأسفار والإكتشافات التي قام بها أسلافهم لصالح الملك المصري "نخاو الثاني"، وإنشاء مستوطنات على الشاطئ الغربي لإفريقيا إلى غاية الكامرون، و هو ما تمثل في رحلة "حانون" القرطاجي (986)، التي تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد و هو القرن الذي إتجهت فيه قرطاج في سياستها الخارجية إلى داخل إفريقيا هروبا من المنافسة الإغريقية في البحر المتوسط و من تهديد مصالحتها هناك وتحولت بتجاريتها إلى إفريقيا السوداء، وبما أن القرطاجيين يميلون إلى البحر فإنهم أرادوا الإستفادة منها لكن عبر البحر فأنجزوا تلك الرحلة التي إنطلقت من قرطاج، لكن لم يحفظ النص الأصلي لها بل حفظت نسخة مترجمة إلى الإغريقية في معبد "بعل حانون" في قرطاج (987). ويقول عنها "ميلا": «إن حانون القرطاجي بعد أن اجتاز المضيق، قام برحلة بحرية طويلة حول جزء كبير من إفريقيا» (988).

حدثت هذه الرحلة حوالي 425 ق.م، وكانت مهمتها تجارية، و يظهر فيها وصف لنهر السينغال، ويقال بأن "حانون" كان قد وصل إلى غاية الكاميرون أي 2000 كلم إلى الجنوب (989)، ورغم ذلك دارت إختلافات كبيرة حول أقصى نقطة وصلت إليها، فالبعض يرى بأنها وصلت إلى خليج غينيا وآخرون يرون بأنها وصلت إلى سيراليون الحالية، والبعض الآخر يقول الغابون أو الكاميرون (990)، وفي هذا المجال يذكر "بليين": «و وجد تقرير يعود إلى القائد القرطاجي حانون، الذي تلقى أمرا أثناء ذروة ازدهار الدولة البونية بإكتشاف شواطئ إفريقيا، تبعا لهذه الشهادة فإن أغلب الكتاب الإغريق وكتابنا [الرومان] يرون بأنه قام بتأسيس عدد من المدن في تلك المنطقة لكن لم يبق من أثر لها هناك» (991).

إن الوثيقة التي تروي هذه الرحلة هي عبارة عن ملخص للوثيقة الأصلية التي كتبت باللغة الفينيقية وهو خلاصة قصيرة دون ورود تفاصيل عنها، وكل ما جاء فيها هو أن الرحلة كانت بقيادة "حانون" والذي سار في بعثة تضم ستين سفينة كانت مملوءة بالأشخاص، وكان هدفها على ما يذكر الملخص هو إستعمار السواحل الغربية الإفريقية على البحر الأطلسي، وكانت كلما وصلت منطقة مناسبة كان ينزل أناس فيها، كما جاء في التقرير أسماء القرى والمدن التي نزلوا فيها وكذلك ذكر ما شاهده "حانون" هناك ولفت إنتباهه (992).

إضافة إلى بعثة "حانون"، نجد بعثة أخرى لا تقل أهمية وهي بعثة "هملكار" سلك من خلالها الطريق المعروف بإسم طريق القصدير، من إسبانيا إلى غاية فرنسا وإنجلترا (993)، ولو أنه لم يعثر على نص هذه الرحلة مثلما حدث مع رحلة "حانون" إلا أنها ذكرت من قبل الكثير من المؤرخين (994).

(986) - A. Thomazi , histoire de la navigation , Op-Cit , pp.15 -16 .

(987) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني، المرجع السابق، ص. 45.

(988) - Pomponius Méla , Géographie , traduit par Louis Baudét, (Paris, 1843), III , 9 .

(989) - A.E. Maithand , Op-Cit , p. 63 .

(990) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني، المرجع السابق، ص. 45.

(991) - Pline , histoire naturelle , V , Chap V , 8 .

(992) - محمد عزة دروزة، المرجع السابق، ص. 71.

(993) - Moscati et Napoli , Phéniciens et Grecs..., Op-Cit , p. 19 .

(994) - A.E. Maithand , Op-Cit , p. 64 .

و لقيت الرحلات الإستكشافية المصرية بما فيها الدوران حول إفريقيا صدى لدى الإغريق الذين أنشأوا مستعمرة قورينة، وقد ذكر هيرودوت بأن أهاليها كانوا يزورون بإستمرار واحة "سيوة" والتي تسمى أيضا بواحة "أمون"، وهي عبارة عن سفرات أو رحلات تجارية تعقد مع تلك الواحة، وقد قص أحد ملوكها وهو "إتيار خوس" (Etearchus) عليهم أنه كانت تحدث بعثات إستكشافية منها واحدة قام بها خمسة أفراد من أجل إكتشاف مجاهل داخل بلاد ليبيا، وأغوار صحاريها وقد تعمقوا في رحلتهم إلى أن وصل بهم المطاف إلى أواسط القارة ووجدوا أنفسهم عند قوم زنوج يتميزون بقصر قامتهم، أي أقزام وكانوا يقطنون بالقرب من نهر ظنوا أنه نهر النيل(995)، و هي المنطقة التي كانت تصلها البعثات المصرية منذ الدولة القديمة و التي كانت تجلب منها الأقزام.

ونفس المؤرخ يذكر لنا حدوث رحلة قادها رحالة يدعى "سيلاكس" في زمن "دار الأكبر" (485-521 ق.م) من أجل إنجاز طواف حول جزيرة العرب ووصل إلى غاية مصر. و يبدو أن الإسكندر عندما إحتل مصر عرف مدى أهمية الرحلات التي كان المصريون يرسلونها بإتجاه الجنوب وما مدى فائدة المنتوجات المجلوبة من هناك في تجارة العالم القديم، لذلك سار على منوالهم فأرسل البعثات إلى البحر الأحمر(996).

المبحث الثاني: سير البعثات التجارية

سبق وأن أشرت في الفصل الثاني إلى أن الدولة هي التي كانت تباشر البعثات التجارية منذ الأسرات الأولى، فكانت هناك إدارة مركزية أساسية خلال حكم الممالك الثلاث، فمنذ ذلك الزمن فإن الدولة كانت هي وحدها التي تستطيع القيام بالبعثات التجارية نحو "جبيل" وإلى الجنوب، والدولة أيضا هي التي كانت تنظم البعثات في البحر الأحمر، فالعمليات التجارية الكبرى مع البلدان الخارجية كانت بين يدي الفرعون، الذي كان يرسل موظفيه للإتجار هناك.

فكل البعثات سواء منها التجارية أو المنظمة من أجل جلب الذهب، النحاس، والحجارة شبه الثمينة أو مواد البناء كانت توضع تحت إشراف الموظفين السامين للفرعون، وعمالهم كانوا يعينون لذلك الغرض من قبل الحاكم وحتى وإن وجد خواص ومؤسسات فإنها لغاية الآن لا يعرف عنها شيئا، إنه من المؤكد أن لا أحد من هؤلاء الذين تركوا لنا مقابر بها معلومات عن بعض البعثات، كان قد أكد بأنه بائع أو حتى مالك لورشة(997)، وحتى البعثات التي كانت تتجه إلى سيناء كانت أعمال منظمة من قبل الدولة أيضا - كما مر بنا - لأجل سد حاجيات الحكم وأمن الطرق. إذن من هم هؤلاء الموظفين الذين كانوا يشرفون على البعثات التجارية؟.

المطلب الأول: الإشراف على البعثات

كان الملك يكلف أحد موظفيه بأن يرأس البعثات التي كان يوجهها في إتجاهات عدة. وكانت دائرة المالية هي واحدة من دوائر الإدارة التي كان يشرف عليها الوزير، ويعمل تحته موظف يطلق عليه "الخازن" وتتعدى مهمته هذه إلى الإشراف على مهمة خارج البلاد، فهو المسؤول الأول على ما يعرف بالحمولات التجارية الملكية التي كانت تجلب المواد الخام كالنحاس والخشب والذهب من الخارج، ولذلك فهو تطلق عليه ألقاب مثل "القائد" أو "أميرال" حيث كان يترأس جيشا ويقود سفنا. وهو ما نكتشفه من خلال بعض البعثات التجارية التي كان قادتها هم من كان يمتن تلك المهمة. وكان أمناء الخزينة يسهرون على نقل الكنوز ونجدهم يرافقون في ذلك جنودهم أثناء عبورهم الطرق المؤدية إلى "بونت" وكانوا يشكلون قادة مراكز الملك.

خلال الدولة القديمة نجد القوافل المتجهة صوب الجنوب إلى بلاد السودان أي البعثات البرية -النهرية كان يشرف عليها أشخاص يعملون كأعوان للملك، وقد عدوا « أقدم رواد مجاهل إفريقيا الوسطى »(998).

فالبعثات في بداية عصر هذه الدولة كانت تحت الرقابة الصارمة للدولة و تابعة مباشرة للسلطة المركزية بإشراف الوزير، لكن عند نهاية الأسرة السادسة نلاحظ تنامي المسؤوليات المحلية للموظفين السامين للمقاطعات (الأقاليم) ب "قفط"، و "إدفو" وخاصة "إلفنتين" وتشهد على ذلك السير الذاتية الجنازية التي خلفها هؤلاء (أنظر المدخل). ويبدو أن حكام الأقاليم هؤلاء قد إزداد نفوذهم نتيجة لأهمية ما كانوا يقومون به لصالح الملك من جهة، ومن جهة أخرى كونهم كانوا يستفيدون من التدهور والإنحطاط الذي كان يصيب بين الفينة والأخرى السلطة المركزية للممالك المصرية، ونتيجة للبعثات التي كانوا يقومون بها إلى الجنوب فإنه تجمعت لهم ثروة وسلطة

(995) - أحمد فخري، واحات مصر، المرجع السابق، ص. 108.

(996) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني، المرجع السابق، ص. 44 - 45، 47.

(997) - J. Janssen, Gagner sa vie, Op-Cit, p. 62.

(998) - جيمس هنري برستيد، العصور القديمة، المرجع السابق، ص. 41.

جعلتهم أندادا للطبقة الحاكمة في العاصمة "ممفيس" (999)، بل نجد أن رحلاتهم التجارية قد تجاوزت البر إلى البحر، فخلال عصر هذه الدولة دائما كان الحكام بـ "أسوان" يمتازون بأنهم رحالة محترفين كانوا يصلون إلى غاية برزخ السويس وشواطئ البحر الأحمر، وكانوا يقودون البعثات البحرية في البحرين: المتوسط باتجاه "جبيل"، والبحر الأحمر باتجاه "بونت". ومن أشهرهم بالطبع "أوني" الذي يعود إلى زمن الأسرة السادسة، والذي كان من أصل متواضع وقد أصبح أحد المقربين من الملك "بيبي الأول" وإستطاع كسب ثقته، لذلك إعتد عليه في إنجاز وترأس عديد الحملات منها التآديبية للقبائل البدوية في جنوب فلسطين، والتي كان هدفها تأمين سبل التجارة، وبعد أن كان ضابطا عاديا أصبح اليد اليمنى للملك حيث عينه في منصب "حاكم بلاد الجنوب" من أجل أن يقود البعثات التجارية هناك ويوفر لها الحماية (1000).

ونجد هذا الحاكم يؤدي نفس المهمة خلال حكم الملك "مرنرع" أي أنه يكلف بأداء مهمة "حاكم مصر العليا"، بهذا التكليف الجديد أصبح "أوني" مسؤولا عن كل البعثات في الصحراء وفي شرق النوبة أي أن مهمته التجارية قد توسعت (1001). فقيادة الجنوب كانوا قد كسبوا شهرة كبيرة كقادة قوافل تجارية خلال زمن الدولة القديمة. و من المشهورين أيضا المدعو: "حركوف" الذي سبق وأن تكلمت عن بعثاته باتجاه الجنوب، ففي رحلاته الثلاثة كان مكلفا بترأسها من قبل الملك "مرنرع" و الأخيرة كلفه بها الملك "بيبي الثاني".

و نجد أيضا "بيبي نخت" الذي كان أمير "إلفنتين"، كان يقود البعثات خلال حكم الملك "بيبي الثاني" إلى الجنوب (1002). إن الإهتمام الذي كان يوليه الملك تجاه حكام "إلفنتين" في إعطائهم مهمة قيادة البعثات إلى الجنوب فسرّ على أن هؤلاء الأمراء كانت لهم دراية واسعة بتلك المناطق وساكنيها ولغتهم (1003).

إن النصوص المصرية التي تعود إلى الدولة القديمة أوردت فقط إشارات مختصرة عن الرحلات البحرية دون تفاصيل كثيرة عن من كان يشرف عليها ومن كان يقودها، والعكس من ذلك فإن تفاصيل عن أحداث الرحلات إلى هناك نجدها في نصوص الدولة الوسطى، إبتداء من الأسرة الحادية عشرة ومنها التقرير الذي سجله رئيس بيت المال المدعو "حنو" في عهد الملك "منتوحتب الثاني"، جاء فيه: «بعثني جلالتك لأجهز سفن ببيلوس إلى "بونت" لجلب البخور...». لقد أشرت إلى بعثته في الفصل السابق.

فرئيس بيت المال هو الذي كان يترأس البعثات التجارية خلال الدولة الوسطى وهو أمر لا جدال فيه، فالمشروعات الكبيرة كانت تتم من قبل الملك الذي كان يرسل على رأس البعثات أهم موظفي الإدارة مثل الوزير (1004).

أما في عهده فإن "أمنمحات الثاني" كان قد أمر رئيس الحجاب وحامل الأختام والذي يدعى "خنوم حتب" بالقيام ببعثة إلى البحر الأحمر، وهذا الأخير سجل معلومات عن تكليفه بتلك المهمة في لوحة أكتشفت بالقرب من ساحل البحر الأحمر، ومما جاء فيها: «حامل ختم الإله (الفرعون)، المقرب فعلا من الملك المحبب إليه، المرتبط بمحبته، الذي في قلبه، الذي يعرف تعليماته وينفذها بمهارة، المخلص للملك، الذي لا يعصي أوامر القصر أو قرارات البلاد، الوحيد لدى الملك، الذي نشأ في القصر (الملكي)، تلميذ حورس رب الأرضين، الذي يقدم رجال الحاشية للملك الذي يتوخى الدقة مثل (الإله) تحوت، رئيس الحجاب، خنوم حتب». كما نجد خلال الدولة الوسطى و مثلما هو الحال في الدولة القديمة أن حكام الأقاليم أوكلت لهم مهمة ترأس البعثات منهم "عج - مرتنورنون"، وقد تعرفنا عليه من خلال مقصورة عثر عليها بـ "وادي جواسيس" بالقرب من البحر الأحمر، ويستنتج "عبد المنعم عبد الحليم سيد" بأن هذا الحاكم الذي أوكلت له هذه المهمة كان مكلفا بإدارة منطقة الصحراء الشرقية إلى غاية سواحل البحر الأحمر، كما يطلق على هذا المنصب أيضا لقباً آخر وهو "رئيس الذهب" على أساس أن أهم ما كان يجلب من "بونت" - إضافة إلى البخور - هو الذهب ووجود شخص يحمل هذا اللقب يدل على أنه كان يكلف باستخراجه من تلك البلاد أو على الأقل بجلبه من هناك (1005).

أريد أن أضيف شيئا إلى إستنتاجات هذا المؤرخ وهو إذا كان حكام الأقاليم الجنوبية في الدولة القديمة قد لعبوا دورا بارزا في قيادة القوافل و البعثات التجارية، فإن مثل هذه الأدلة المكتشفة على ساحل البحر الأحمر تثبت بأن الملوك قد أوكلوا تلك المهمة إلى حكام الأقاليم الشرقية وبالتالي فإن نفوذهم إتجه أكثر ناحية البحر

(999) - محمد الخطيب، مصر أيام الفراعنة، المرجع السابق، ص.ص. 60 - 61.

(1000) - M. Tariel, chronique des civilisations ... , Op-Cit, p. 43.

(1001) - E. Hornung, lecture de l'histoire égyptienne, Op-Cit, p. 53.

(1002) - C. Lalouette, La littérature ... , Op-Cit, p. 6.

(1003) - أحمد فخري، مصر الفرعونية...، المرجع السابق، ص. 152.

(1004) - عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم...، المرجع السابق، ص. 157.

(1005) - عبد المنعم عبد الحليم سيد، البحر الأحمر...، المرجع السابق، ص.ص. 80، 99.

الأحمر هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن لقب "رئيس الذهب" يبدو لي أن المقصود منه ليس إستخراج الذهب من بلاد "بونت" أو حتى جلبه من هناك بل كان يطلق على حاكم الأقاليم الشرقية التي تشرف على المناطق التي تحوي مناجم الذهب في الصحراء الشرقية، وبما أن البعثات إلى مناجم الذهب كانت تشترك مع البعثات التجارية الموجهة إلى بلاد "بونت" - سافصل ذلك لاحقا- فإن المكلف بهذه البعثات هو شخص واحد.

كما أفادتنا مقصورة أخرى أكتشفت دائما في نفس المكان بالقرب من ساحل البحر الأحمر عن وظيفة الأشخاص الذين كلفوا بترأس بعثات تجارية و هي مقصورة "عنخو"، مما جاء فيها: «...المقرَّب فعلا لدى الملك، المحبوب(منه)، الذي يمتدحه (الملك) دائما (حرفيا: كل يوم)...رئيس حجاب القصر الملكي (بر- عا) أي البيت العظيم عنخو المبرأ، المبجل»، ويبدو أن بعثات الدولة الوسطى كانت توكل أيضا إلى الحجاب، فهذا "عنخو" كان حجاب القصر الملكي في عهد الملك "سنوسرت الأول"(1006).

وهناك أدلة أثرية تثبت أن إرسال حكام الأقاليم على رأس البعثات التجارية خارج وحداتهم الإدارية كان أسلوبا متبعًا خلال هذا العصر كما في السابق، حيث كان الملك "سنوسرت الثاني" قد أرسل حاكم مقاطعة "هيرموبوليس" المدعو "توتحوتب الثاني" (Tothotep II) إلى الشمال، لأن بقايا من تماثيل هذا الحاكم رفقة تماثيل أخرى تعود إلى نفس العصر وجدت بـ "مجيديو" بفلسطين، ومعلوم أن زمن حكم هذا الملك كانت مرحلة سلمية، وبالتالي فذلك يدل على بعثة تجارية. وخلال الدولة الحديثة نجد بعض الإشارات إلى قادة البعثات فمثلا بعثة "حتشبسوت" إلى بلاد "بونت" كانت بقيادة رئيس خدمها المدعو "نيحيسي" (Néhésy) (1007)، وهناك من يرى بأن قيادتها كانت مزدوجة بين أمين الخزانة الرئيس "نيحيسي" و وزيرها "سنموت" (Senmout) (1008). وخلال زمن الملك "تحوتمس الثالث" نجد أنه كان يرسل رئيس الخزانة على رأس البعثات إلى مدرجات الأخشاب(1009)، وكان يدعى "سينيفي" (Sennefé) وهناك نقش يعود إليه لكنه حفظ في حالة سيئة ولم يفدنا بالشيء الكثير(1010).

لا نغادر عصر الملك "تحوتمس الثالث" لنجد إشارة مهمة تفيدنا في موضوع الإشراف على البعثات التجارية، والتي نكتشفها من خلال مقبرة "ريخميرع" (Rekmiré) والتي تميزت برسوم تمثل شعوبا عديدة وهي تأتي بمنتوجاتها، وهذه الشخصية لعبت دورا كبيرا في البعثات التي كان يرسلها هذا الملك خاصة في البحر المتوسط، فهو يعد من النبلاء وهو الرجل المهم بعد الملك، إذ كان يتولى منصب وزير، وكانت مهمته في البعثات مراقبة الملاحين (حاشية البعثة) في شرق المتوسط، وقد أمر الفنانين بأن يرسموا على جدران قبره صورا تمثل العالم كله الذي كان يدفع (الضريبة) (1011)، والأصح السلع التجارية.

وأفهم من ذلك أنه خلال حكم الملك "تحوتمس الثالث" حدثت نقلة نوعية تتمثل في إسناد مراقبة البعثات التجارية لأهم رجل بعد الملك، ومن المحتمل أيضا أن مهمة هذا الموظف كانت تشمل مراقبة كل البعثات، وهو ما نفهمه من خلال رسمه لكل الأمم التي كانت تعقد معها مصر علاقات تجارية في ذلك العصر. إلا أن "بيرين" يرى أن هناك عديد البعثات التي كان يتولى الوزير قيادتها ولم تكن تلك الحالة إستثنائية، وكان الأمراء الإقطاعيون (حكام الأقاليم) يمُونونها بالقوات وخاصة التي كانت ترسل إلى جنوب البحر الأحمر(1012).

إن الأدلة التاريخية تثبت أن الإشراف على البعثات وترأسها لم يكن حكرا على بعض الموظفين السامين الذين يوكل لهم الملك أمر تنفيذ تلك المهمة، حيث كان للكهنة أيضا أساطيلهم التي كانوا يسيرونها في شرق البحر المتوسط من أجل شراء الأخشاب لبناء المعابد و السفن وإحضار أيضا العطور الضرورية للديانة(1013)، حيث كانت المعابد أو بالأحرى الكهنة يملكون سفنا خاصة بهم ولهم في ذلك إمتيازات كمرورها دون شرط(1014).

(1006) - نفس المرجع ، ص ص. 93 - 94.

(1007) - E. Hornung , Op-Cit , pp.77, 103.

(1008) - J.H. Breasted , histoire de l'Egypte..., Op-Cit , p. 285.

(1009) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 212.

(1010) - V. Bérard , les Phéniciens..., Op-Cit , p. 187.

(1011) - L. Casson , Op-Cit , p. 33.

(1012) - J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 81.

(1013) - G. Rachet , dictionnaire de la civilisation..., Op-Cit , p. 65.

(1014) - محمد بيومي مهران ، الحضارة المصرية...، المرجع السابق ، ص. 230.

فخلال عصر الدولة الحديثة دائما، هناك مصدر مهم يخبرنا عن ذلك، وهو التقرير الذي أنجزه أحد كهنة معبد "طيبة"، المدعو "أونامو"، والذي يتكلم فيه عن ترأسه لإحدى البعثات إلى الساحل الفينيقي وبالتحديد إلى مدينة "جبيل"، وقد حدثت هذه البعثة عندما ضعفت هذه الدولة، كما كانت المعابد أيضا تجهز البعثة بالسلع الضرورية للمبادلات⁽¹⁰¹⁵⁾. ويبدو أن البعثات التي تقوم بها المعابد كانت تحدث في زمن ضعف الدولة، كما أن تجارة مصر كانت تتم عن طريق وكلاء (مفوضين) لحساب الملك أو المعابد.

المطلب الثاني: طاقم البعثات

بعد التعرف على من كان يترأس البعثات التجارية أحاول الآن التعمق نوعا ما في كيفية تنظيم البعثات ومسيرتها والحاشية التي تتكون منها.

إن الخطوة العملية الأولى في إرسال البعثات التجارية تبدأ بإصدار المراسيم من قبل الملك، وقد تمكنا من معرفة ذلك من خلال بعض النقوش التي عثر عليها بالقرب من البحر الأحمر، منها المرسوم الذي أصدره الملك "سنوسرت الأول" إلى وزيره "انتيفوكر"، يأمره من خلاله ببناء السفن التي ستقوم برحلة إلى بلاد "بونت". كما أن التكليف بمهمة قيادة البعثة كان بدوره يتم بإصدار أمر من قبل الفرعون، ودائما من خلال نفس المصدر نجد أن الفرعون "سنوسرت الأول" قد أصدر مثل هذا الأمر لكبير حبابه والمدعو "عنخو" لترأس البعثة إلى "بونت"⁽¹⁰¹⁶⁾.

بعد ذلك نجد أن حاشية مراكب البعثات كانت تختار من الذين يتمتعون بخبرة في المياه ومخاطرها وكانوا يعرفون كيفية التخلص من الحيوانات المتوحشة - هذا بالنسبة للبعثات البرية والنهرية في الجنوب - وتكون لهم خبرة بالتنبؤ بحدوث العواصف قبل وقوعها، فحاشية المراكب كانت عبارة عن ممثلين للملك وكتاب وجنود وغيرهم⁽¹⁰¹⁷⁾.

وهناك دليل أثري عن ذلك متمثلا في مقصورة وادي جواسيس، والتي تفيدنا بالأشخاص الذين كانوا يرافقون البعثة و تم التعرف على البعض منهم فقط لأن كثيرا من النقوش كانت مبتورة مما جاء فيها: «رئيس البحارة، رئيس المترجمين، فرق المجندين الشبان، القاضي وحاكم مقاطعة المحيط، المشرف على الذهب»⁽¹⁰¹⁸⁾. ومنذ عصر الدولة القديمة نجد ذكر لألقاب "رئيس السفينة" و"قائد المركب"⁽¹⁰¹⁹⁾.

أما عن عدد أفراد الحاشية ككل نجد مثلا أن البعثات إلى "بونت" كانت تضم مائتي وعشرة رجلا مقسمين على النحو التالي: ثلاثون مجدفا في كل مركب، واحد وعشرون رجلا من الحاشية الملكية مرفوقين بثمانية جنود وضابط أو قائد⁽¹⁰²⁰⁾، هذا طبعا بخصوص بعثة "حتشبسوت" التي كانت تضم خمسة مراكب.

والملفت للانتباه أن البعثات التجارية سواء عبر البحر الأحمر أو باتجاه الجنوب كانت تقوم بمهمة مزدوجة النشاط التجاري والنشاط المنجمي. فمنذ الدولة القديمة كانت البعثات ترسل إلى محاجر ومناجم سيناء والجبال العربية (الصحراء الشرقية على ساحل البحر الأحمر) وبلاد النوبة، وكان يتولى مسؤوليتها الوزير، وكانت تتطلب الكثير من المستخدمين (تأطير مسلح وتأطير إداري، وأشخاص مختصين، فلاحين، القائمين بالأعمال المنجمية، وآخرين مكلفين بالنقل والتموين... إلخ)⁽¹⁰²¹⁾. وإضافة إلى هؤلاء الأنفار هناك ربان (رئيس المركب) يعمل على مراقبة البعثات، وأيضا رؤساء العمال، والأشخاص الذين يقودون القوافل، وآخرون يسوقون الحمير⁽¹⁰²²⁾.

وبالنسبة للبعثات التي كانت توجه للنوبة فإن وجود أحد النوبيين كان أمرا ضروريا، ويشترط أن تكون له دراية جيدة بالملاحة في نهر النيل وأغواره وتتميز هذه البعثات إلى الجنوب خاصة خلال الدولة القديمة بأن الملك كان يوكل مهمتها إلى ولي عهده⁽¹⁰²³⁾.

(1015) - C. Lalouette , La littérature ..., Op-Cit , p. 98.

(1016) - عبد المنعم عبد الحليم سيّد ، المرجع السابق ، ص. 96.

(1017) - P. Montet , la vie quotidienne en Egypte ... , Op-Cit , p. 182.

(1018) - عبد المنعم عبد الحليم سيّد ، المرجع السابق ، ص. 98.

(1019) - محمد بيومي مهران ، الحضارة المصرية...، المرجع السابق ، ص. 217.

(1020) - C. Lalouette , Thèbès ... , Op-Cit , p. 250.

(1021) - J-C. Margueron et L. Pfirsch , Le Proche-Orient ..., Op-Cit , p. 184.

(1022) - G. Dykmans , histoire économique..., Op-Cit , t. 2, p. 275.

(1023) - إسكندر سامي روفائيل ، التيممة المشطورة ، مراجعة و تقديم زكي إسكندر ، (القاهرة : دار المعارف ، 1970) ، ص. 16.

إن هذه البعثات المزروجة كانت تضم أعدادا ضخمة من الأشخاص، ومن الأمثلة أنه مع بداية الدولة الوسطى (1800-2050 ق.م) كانت ترسل تجريدات تتكون من ثلاثة آلاف رجل، وكانت تنطلق من مدينة "ققط" على النيل سائرة عبر الصحراء سالكة "وادي حمامات" لتصل إلى قصير على شاطئ البحر الأحمر، وهي البعثة التي قادها "حينو" وزير المالية إلى ذلك الوادي، لكن واصلت سيرها في رحلة إلى بلاد "بونت" أي كانت مهمتها مزروجة تجارية ومنجمية⁽¹⁰²⁴⁾. وكانت بعض البعثات تضم 17000 رجلا، وهو عدد تضمنه المشروع الضخم لعمل المناجم في الصحراء منها التي حدثت زمن الملك "سنوسرت الأول"، وقد كانت تحت قيادة "المنادي أميني" والذي كانت مهمته في الأصل إيصال أوامر الفرعون وكذلك الموظفين الكبار الآخرين مثل الوزير إلى الذين تتوجه إليهم تلك الأوامر، ليس ذلك فحسب، بل يتابع ويراقب مهمة تطبيق هذه الأوامر ميدانيا - مثلما حدث في البعثة التي أتيت على ذكرها- وكانت مهمة هذه البعثة تجارية أيضا وهي الذهاب إلى بلاد "بونت"⁽¹⁰²⁵⁾. لكن لم تكن كل البعثات تضم ذلك العدد الضخم لأن البعثات العادية كانت أقل أهمية، وكانت نادرا ما تتجاوز عدد الألف رجل⁽¹⁰²⁶⁾. وقد كان الأشخاص يختارون على أساس قوتهم ومدى تحملهم لمشاق الرحلة أما الربان الذين يرسلون إلى الجنوب فكانوا في العادة يختارون من النوبيين لكي يكونوا متمكنين من معرفة الطريق وكان يرافقهم كذلك بعض المترجمين⁽¹⁰²⁷⁾.

والملفت للانتباه هنا، أن البعثات التي كانت ترسل عبر البحر المتوسط خاصة باتجاه "جبيل" لم تكن ترتبط ببعثات المناجم والمحاجر في حين أن الكثير من بعثات بلاد "بونت" إقترنت بمثل هذا العمل والأمثلة على ذلك عديدة ونقوش "وادي حمامات" و "وادي جواسيس" غنية بالمعلومات، فمنذ عصر الدولة القديمة وتحديدًا منذ زمن الملك "ساحورع" وجدت النقوش على الصخور بـ "وادي حمامات" و "وادي جواسيس" حيث مناجم الذهب هناك، وعديد الإشارات تؤكد إقتران مشروع إرسال البعثة إلى "بونت" بمشروع إستخراج الذهب من الوديان المؤدية إلى مرسى "جواسيس"⁽¹⁰²⁸⁾.

فبعثة "حنو" هي مثال رائع على الجمع بين المهمتين حيث سلك في طريقه إلى بلاد "بونت" الطريق الذي ينطلق من مدينة "ققط" ثم مشى في أحد دروب الصحراء ويبدو أنه درب مؤمن من قبل، عند وصوله إلى البحر أنزل سفنه فيه و إنطلقت البعثة إلى بلاد "بونت" وعاد متخذًا نفس الطريق بناء على توجيه الملك ، بل أنه لم يكتف بجلب منتوجات "بونت" إذ كان ينتظر أفرادها عملا آخر أثناء مرورهم بالصحراء والمتمثل في القيام بأعمال قطع الحجارة من أجل إقامة تماثيل للملك، وكان "حنو" يقول بأنه كان يعمل كل ذلك من أجل مولاه الذي كان يكن له الحب⁽¹⁰²⁹⁾.

إن قطع الحجارة لم يتم بعد عودة "حنو" من "بونت" ، لأن أفراد البعثة الثلاثة آلاف لم يذهبوا كلهم إلى هناك حيث أن البعثة سارت بمركب واحد ، و بالتالي كانت حاشيتها بدورها محدودة العدد ، و الباقيون إستغلوا الزمن الذي تستغرقه البعثة ذهابا و إيابا و قطعوا الأحجار وإستخرجوا المعادن، وكما يقول "محمد بيومي مهران": «فإن الذين أبحروا إلى "بونت" كانوا قليلا وظل الباقيون يعملون في محاجر "وادي حمامات" من أجل الحصول على حجارة الجرانيت التي تدخل في صناعة التماثيل»⁽¹⁰³⁰⁾.

فهذه الثنائية أوجدها حتمية طبيعية ، لأن "وادي حمامات" و باقي الوديان التي كانت تقود إلى الساحل كانت هي الطرق الأكثر ترددا من قبل البعثات إلى بلاد "بونت" وهي في نفس الوقت المناطق الصخرية التي تزود مصر بالحجارة لصناعة التماثيل وبناء المعالم، إضافة إلى غناها بمناجم الذهب.

وهناك دليل آخر جد هام يتمثل في بردية "تورين" التي تثبت بأن الطرق المؤدية لساحل البحر الأحمر كانت توجد بها مناجم الذهب فاستغل المصريون ذلك للإستفادة من القوة البشرية في إنجاز العمليتين، أي التجارة مع "بونت" وقطع الحجارة من محاجر "الشيسيت" وهو ما تؤكد به بعثتا "حنو" و "أميني" اللتين ربطتا بين التجارة مع "بونت" وإستغلال مناجم الذهب، و من الأمثلة أيضا بعثة "رمسيس الثالث" إلى "بونت"⁽¹⁰³¹⁾. كما أن

(1024) - J. Leclant , à la quête de Pount , Op-Cit , p. 41.

(1025) - عبد المنعم عبد الحليم سيّد ، المرجع السابق ، ص. 143.

(1026) - E. Hornung , Op-Cit , p. 74.

(1027) - إسكندر سامي روفائيل ، المرجع السابق ، ص. 14-15.

(1028) - عبد المنعم عبد الحليم سيّد ، المرجع السابق ، ص. 215.

(1029) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 158.

(1030) - محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية... ، المرجع السابق ، ص. 385.

(1031) - عبد المنعم عبد الحليم سيّد ، المرجع السابق ، ص. 210-211.

البعثات إلى النوبة كانت بدورها تجمع بين العمل المنجمي و التجاري، خاصة التي كانت ترسل خلال الدولة الوسطى.

ونتيجة لضخامة هذه البعثات فإنها لم تكن تسير ببسر، بل كانت تعترضها معاناة، فنقوش بعثة "حنو" تكشف لنا عن بعض من الصعوبات، بل إن بعض النقوش التي تعود إلى فترات زمنية مختلفة تكشف عن شكاوى لبعض العمال من شدة الحرارة (1032). وهو ما يدل على أن أشخاص البعثات لم يكونوا دائما راضين عما يقومون به، وبالتالي كان إرسال البعثات عملا متعبا، فهو عمل مكلف و مثقل لخزينة الدولة، و شاق بالنسبة للأفراد المسخرين له.

و الميزة الأخرى أن الحملات الملكية مهما كان نوعها ، كانت ترسل معها المترجمين، وقد وجد لقب "رئيس المترجمين" كلقب لحكام المناطق القريبة من تخوم مصر، حيث كانت توكل لهم مهمة القيام بالبعثات إلى البلدان المجاورة، ومن أشهر من حمل هذا اللقب نجد حكام "أسوان"، كما أطلق كذلك على الموظفين السامين الذين كانوا يرسلون إلى الصحراء الشرقية وسيناء (1033). وقد عد المترجم في ذلك الوقت بمثابة السفير وقد صور على متن أحد مراكب الملك "ساحورع" (1034)، و ذكر أيضا في نقوش "وادي جواسيس".

كما كانت البعثات تضم كتابا ، و قد ثبت منذ عصر "بيبي الأول" (الأسرة السادسة) وجود نقوش تذكر كتابا إلى جانب قادة البعثات (1035). و قد كانت لوظيفة الكاتب مكانة خاصة في مجتمع مصر الفرعونية ، لأنه يتقن مهنة الكتابة والقراءة، إضافة إلى الحساب أي أنه الرجل المثقف في المجتمع، وكان يحتل أعلى المراتب الإدارية و أهميته تكمن في تعدد مهامه فهو يقوم بعدد مدخول الخزينة من الضرائب ، و يعدد المساحات المزروعة ، و كان يشرف على إدارة المسائل التجارية و كذلك الصناعية فهو بإختصار كما يقول "محمد الخطيب" « دعامة النظام وسند القانون » (1036)، لذلك كان أحد العناصر التي لا غنى عنها ضمن حاشية البعثات وكانت الوثائق المصرية حين تنطرق للكاتب تبرزه في مكانة رفيعة في حين كانت تصور المزارعين والصناع والتجار، ببؤس وإحتقار (1037).

ومنذ بداية الأسرة الثانية عشرة فإن الكتاب المصريين يتكلمون اللغة الكريتية وكانوا يكلفون بعلاقات بين كريت ومصر (1038)، ويبدو أن دور الكتاب زمن عصر السلالات لا يقل عن دور الكتاب الذين كانوا يرافقون الرحلات التجارية للتجار المسلمين في العصور الوسطى، والذين بفضلهم أحتفظ بتلك الرحلات الجغرافية وعرفنا عنها الكثير وعن الطرق والمسالك التجارية و حياة الرحالة و البحارة ، وكثير من المعلومات عن المدن التجارية و المبادلات التجارية و غيرها كثير (1039)، لكن الكتاب المصريين لم يخلّفوا لنا مثل هذا الزخم من المعلومات لأن ما رووه عن البعثات كان مختصرا خاصة عندما يتعلق الأمر بالتفاصيل التقنية وتفاصيل مجريات البعثات (1040). كما جاء ذلك عبارة عن تخليد للملك و تشكرات للآلهة ، ما عدا تقرير "أونامو" الذي تضمن تفاصيل مهمة عن سير بعثة تجارية إلى الساحل الفينيقي و قد جاء خاليا من المبالغة وكان دقيقا ومحددا (1041).

إلى جانب المترجمين والكتاب، فإن البعثات التجارية كان يرافقها الرسامون، ولهم فضل كبير في تصوير واقع بعثاتهم بدقة تكاد تنطق حيوية والتي عدت مصدرا مهما، ففنانو عصر "ساحورع" تركوا لنا على جدران معبد مراكب البعثة الكبيرة الحجم وإستقبال الملك لها وحاشيتها رفقة منتوجات "جبيل". كما أن بعثة "حتشبسوت" كان يرافقها أحد الفنانين والذي قام بعد عودتها بنقش تفاصيل الرحلة ذهابا وإيابا على جدران معبدها بالدير البحري.

(1032) - جيمس هنري برستيد ، إنتصار الحضارة...، المرجع السابق ، ص. 84.

(1033) - عبد المنعم عبد الحليم سيّد ، المرجع السابق ، ص. 98.

(1034) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 127.

(1035) - V. Bérard , Op-Cit , p. 135.

(1036) - محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص. 59.

(1037) - إليزابيث رايفشتال ، طيبة...، المرجع السابق ، ص. 145.

(1038) - J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 80.

(1039) - شحادة الناظور وآخرون ، مدخل إلى تاريخ الحضارة ، (ط 2 ؛ الأردن : دار الكندي للنشر و التوزيع ، 1991) ، ص. 99.

(1040) - I. Shaw , le pays noir ..., Op-Cit , p. 23.

(1041) - روايات وقصص مصرية ، ص. 273.

وكان الهدف من مرافقة الفنان والكاتب للبعثة هو التعرف عن قرب على سير البعثة ومعايشتها وإجراء رسومات تجريبية لها بما فيها الأشخاص والحيوانات والطبيعة و كل ما تقع عليه أعينهما ليسهل عليهما العمل عندما يعودان. وفعلا جاءت أعمالهما متناهية في دقة وصف التفاصيل، و من خلالها أمكن التعرف على بيئة ومجتمع بلاد "بونت"، فلو لا هذه الرسوم لظلت تجهل عنها إلى الآن مثل هذه التفاصيل (1042). إن تلك البعثات صورت كما حدثت منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، بكل خطواتها منذ بداية الإبحار من خلال وضعية السفن وهي مبسطة الشراع وتحريك المجاديف، ومرحلة الوصول وإجراء المبادلات وشحن السفن... إلخ، وجعلتنا نعيشها كما لو أنها أمامنا الآن.

و قد أبدع الفنانون في رسم مشاهد تجارية في مقبرة "ريخميرع" و الذي كان وزيرا للملك "تحوتمس الثالث"، حيث طلب من الفنانين أن يرسموا له الشعوب التي كانت تتعاطى التجارة مع مصر وهي تجلب البضائع، علما بأن هذا الوزير كان مكلفا - كما ذكرت - بمراقبة حاشية المراكب في شرق البحر المتوسط.

المطلب الثالث: تحضير البعثات وإنطلاقها

فبعد الإتفاق والإنتهاء من النقاش بخصوص تفاصيل الرحلة تقدم معابد "طيبة" للكهنة المرافق لها المال وكل ما يحتاجه من عتاد وجنود مع أسلحتهم لتتطلق بعد ذلك البعثة التي على ما يبدو كانت بدايتها من العاصمة حيث كانت الجماهير تحتشد لتوديعها وهي تهتف متمنية لها النجاح مرفوقة ببركات الكهنة (1043)، أي أنها كانت تودع في جو مهيب وكأنه إحتفال من الإحتفالات الهامة. كما أودّ أن أضيف شيئا هنا و هو أن التموين لم يكن فقط من قبل المعابد ، بل أن خزينة الدولة كانت تخصص حصّة من وارداتها للتجارة.

كانت البعثات تجهز بمؤونة منها التمر المجفف والخبز (1044)، إضافة إلى جرار الماء، و أقتطف مما جاء في نقش " حينو " الآتي: «لقد أعطيت قرية وجرتين من الماء و 10 من الخبز لكل رجل في كل يوم» (1045)، أفهم من ذلك أن "حينو" كان رجلا منظما، لم يترك الأمور للصدفة حيث كل شيء كان محسوبا بدقة، وعلى وجه الخصوص ما كان مهما، وهو تموين ثلاثة آلاف رجل بالماء والغذاء خلال مسيرة ثمانية أيام عبر الصحراء.

وكانت البعثات تزود بالمواشي والثيران والغزلان حيث يقول "حنو": «وصلت إلى البحر الأحمر وصنعت هذه السفينة وجهزتها بكل شيء وزودتها بعدد وافر من الماشية والثيران والغزلان» (1046)، أعتقد أن عمله ذاك كان من أجل تقديمها قربانا للآلهة عند وصولهم كما كانوا يفعلون ذلك عند إنطلاقهم. ويبدو أن دقة التنظيم هذه إمتازت بها كل البعثات المصرية لأنه من خلال بعثة "أميني" التي حدثت في عهد الملك "سنوسرت الأول" نجد أنه كان يسير تحت إمرته 17 ألف شخص وكان يديرها بصفة جيدة. وتمدنا الكتابة التي خلفتها هذه البعثة بمعلومات عن أهلية تنظيم الموظفين المصريين للبعثات، حيث كانت النسب دقيقة من المؤونة المخصصة لأعضاء البعثة حسب الترتيب الوظيفي (1047).

لكن هناك خاصية إنفردت بها البعثات التجارية إلى بلاد "بونت"، التي كانت تنطلق من سواحل البحر الأحمر بجنوب مصر، وهي حمل لوازم البعثات من الأخشاب على طول الطريق الصحراوي، وكل المواد الضرورية لبناء المراكب، والإختصاصيين من كل نوع، إضافة إلى الملاحين، الجنود، و الدواب وبالطبع الغذاء والماء (1048). هذا طبعا في الحالات التي كانت إنطلاقة الرحلات من موانئ البحر الأحمر.

أما بخصوص موضوع توقيت إرسال البعثات والمدة الزمنية التي كانت تستغرقها فإن البعثات إلى جنوب مصر أي إلى بلاد النوبة والسودان كانت تدوم بضعة أشهر، وكانت تنطلق في شهر "كيهك" وهو الشهر الرابع من الشهور القبطية، و الإنطلاقة تكون بالطبع من العاصمة وخصوصا في العصور التي كانت فيها مدينة "طيبة" هي العاصمة، وكانت البعثات تصعد النيل جنوبا، وفي ذلك الزمن يكون التيار ضعيفا في وجه البعثة وتقطع المسافة من "طيبة" إلى الجندل الأول في ظرف أسبوعين أو أكثر بقليل، ثم تجتاز بلاد النوبة إلى غاية الشلال الثاني ثم الثالث، وعندها تنتهي منطقة النفوذ المصري وتبدأ بلاد كوش ومن هناك إلى غاية إلتقاء

(1042) - محمد إبراهيم بكر ، صفحات مشرقة ...، المرجع السابق ، ص. 107

(1043) - إسكندر سامي روفائيل ، المرجع السابق ، ص. 15-16.

(1044) - نفس المرجع ، ص. 14.

(1045) - L. Casson , Op-Cit , p. 20.

(1046) - عبد الفتاح محمد وهيبه ، مصر و العالم القديم...، المرجع السابق ، ص. 311.

(1047) - E. Hornung , Op-Cit , p. 74.

(1048) - C. Lalouette , Thébès..., Op-Cit , p. 68.

النيل برافده عطبرة والذي يكون في تلك الأثناء جافاً، ثم يواصلون مسيرهم عند نقطة إلتقاء النيل الأبيض بالأزرق (1049).

ولدينا أمثلة عن البعثات البرية من خلال رحلات "حركوف"، فأولها إستغرقت مدة سبعة شهور والثانية ثمانية، أما الثالثة فقد وصلت إلى أبعد من ذلك وبالتالي فإن مدتها كانت أطول.

و عن المسافة التي كانت تقطعها البعثات عبر البحر الأحمر إلى بلاد "بونت" لا نعرف عن زمن إنطلاقها ولا المدة التي كانت تستغرقها، لأن الأمر يتعلق بنقطة إنطلاق هذه البعثات والمنطقة التي تقصدها البعثة وهذان الأمران إختلفا باختلاف العصور الفرعونية.

لكن على ما يبدو أن المسافة بين بلاد "بونت" والعاصمة "طيبة" من خلال قصة "الملاح الناجي" هي مدة شهرين أي أن مدة الرحلة خلال زمن الدولة الوسطى كانت أربعة أشهر ذهاباً وإياباً، هذا دون الأخذ بعين الإعتبار المدة التي كانت تقضيها في بلاد "بونت". وهناك إشارة في رسومات الدبر البحري التي تمثل بعثة الملكة "حتشبسوت" وهي صور أعشاش طيور وهي تحضن بيضها، ويستنتج من ذلك أن وصول البعثة كان يتزامن مع موسم الربيع وهو الفصل الذي تكثر فيه الأمطار التي تروي الأنهار هناك والتي تعبرها السفن المصرية وتكون ملائمة للرسو فيها (1050). ويذكر صاحب كتاب الدليل: «...والسفر إلى هذا المكان أفضل ما وقع في شهر أيلول (سبتمبر) أي توت [إسم قبطي وهو يبدأ بيوم 28 أغسطس] إلا أنه ليس ثمة ما يمنع من القيام بالرحلة قبل ذلك» (1051). أي أن أفضل وقت لإنطلاق البعثات هو فصل الخريف، وكلامه هذا يؤكد الطواف حول إفريقيا الذي إنطلق في شهر نوفمبر ووصل إلى جنوب البحر الأحمر في الربيع، أما البعثات في البحر المتوسط فإن تحديد مدتها أمر سهل وقد تناولتها بشيء من التفصيل في الفصل السادس أثناء الكلام عن الطرق البحرية، هذا بالطبع إذا إستثنيتم المدة التي يقضيها طاقم الرحلة في المبادلات وقطع الأخشاب والشحن والمسافة التي كانت تقطع على النيل إلى غاية العاصمة.

المطلب الرابع: إستقبال البعثات عند الوصول وعند العودة

أعتقد أن البعثات قبل إنطلاقها كان يقام لها إحتفال كبير، فمثلاً بعثة Houij أثناء حكم "توت عنخ آمون" كانت عند إنطلاقها ترافقها رقصات، ثم تغادر البعثة تاركة وراءها ذلك الجو الإحتفالي (1052).

و لدينا صورة حية ترافقها كتابات تعبّر عن لحظة وصول البعثة وعمليات التبادل بين الطرفين ولحظة المغادرة من خلال تمثيلات بعثة "حتشبسوت" إلى بلاد "بونت"، وهي تنطبق على كل البعثات. فمن خلالها كانت لحظة الوصول إلى بلاد "بونت" تبدأ منذ رؤية المراقب (الراصد)، الذي يكون واقفاً في مقدمة المركب فيعلن عن ذلك لتقترّب المراكب من الموانئ وتنزل العوارض من أجل إنزال وتفريغ شحناتها ويحتفل البحارة بنجاح وصولهم ويأكلون ويشربون ويشعلون الموقد أي يحتفلون برحلتهم (1053).

و كان المصريون يستقبلون برقة ولطافة من قبل البونتيين، وبعد الوليمة وقبل أن تحدث العمليات التجارية وتبادل السلع يتبادل الطرفان الهدايا كإجراء أولي يعبر عن السلم والصداقة، ويقوم بعدها فريق البعثة بإقامة الخيام والتي تكون محاطة بفرقة الجنود الصغيرة، ثم يخرجون بضائعهم ويصففونها أمام خيامهم، وفي المقابل يحضر أهالي "بونت" بضائعهم (1054)، وهذه التفاصيل تظهر من خلال الجانب الأيمن من المشهد، وإلى اليسار من المبعوث المصري وبضائعه المكدسة يوجد طابور من البونتيين يحملون أشياء أخرى على رؤوسهم إضافة إلى تلك المكدسة، لكن النقش المرافق للمشهد مبثور وما بقي منه هي هذه الكلمات : ذهب، بخور (1055). وقد كان أهالي "بونت" من خلال صور هذه البعثة يكدسون أمام المبعوث الملكي البخور وكذلك الذهب في شكل حلقات والكميات الهائلة من أنياب الفيل، ومن جهتهم فإن المصريين يضعون طاولة على الشاطئ عليها: خناجر وفؤوس الحرب والعقود ذات الألوان المتعددة (1056). ثم تحدث عمليات التبادل حيث يقدم الطرف المصري ما أحضره

(1049) - إسكندر سامي روفائيل ، المرجع السابق ، ص. 16.

(1050) - عبد المنعم عبد الحليم سيّد ، المرجع السابق ، ص. 18.

(1051) - نقولا زيادة ، دليل البحر الإثري ...، المرجع السابق ، ص. 24.

(1052) - C. Desroches -Noblecourt , vie et mort d'un Pharaon..., Op-Cit , p. 182.

(1053) - P. Montet , Op-Cit , pp. 172, 182.

(1054) - ن.ي ، تاريخ توت عنخ آمون ، المرجع السابق ، ص. 174.

(1055) - C. Lalouette , Thébès..., Op-Cit , p.252.

(1056) - Erman et Ranke , la civilisation égyptienne , Op-Cit , pp. 684- 685 .

لمقايضته بمنتجات بلاد "بونت" (1057)، وكان ذلك العمل يجري في بشاشة ووسط ضجة، فترى أحدهم يصرخ قائلا لرفيقه: «حذاري (احترس) على رجلِك، يا رفيقي، لأن الحمولة ثقيلة» أو يقول «كل شيء سيكون جيدا بالنسبة لنا إن أشجار بخور بلاد الإله ستذهب إلى معبد آمون، هناك سيكون مكانها...» (1058). وبعد شحن المراكب بتلك المنتجات تأخذ طريق العودة، وقد كانت البعثات التجارية يرافقها نقل الأشخاص فمثلا نجد بعثة "حتشبسوت" عند عودتها ركب معها عدد من أهالي "بونت"، وحسب ما يبدو كانوا زعماء في زيارة سياحية لمدينة طيبة للتمتع بمفاخرها (1059)، أي أن التبادلات التجارية كان يرافقها تبادل الزيارات، و يمكن إعتبارهم أيضا ممثلين تجاريين.

وكما هو الحال عند إنطلاق البعثات فإن عودتها كانت تستقبل بحفاوة كبيرة، واليوم الذي تصل فيه يكون بمثابة يوم عيد أو إحتفال. فعند عودة الأسطول أي أسطول "حتشبسوت"، فإنه خرج حشد كبير من الناس للإستمتاع بذلك الموكب وما يحمله من عجائب بلاد "بونت" وسرهم رؤية الزرافة التي جلبت رفقة البعثة التي تعد بالنسبة لأهل "طيبة" من عجائب بلاد الإله. كما إستقبلت من قبل الجيوش التي إنطلقت من مدينة "طيبة" لإضفاء صبغة الإجلال لسلامة البعثة ونجاح المستكشفين (1060).

أما عن البعثات التي كانت تسير إلى بلاد النوبة فإنها كانت تصل أحيانا إلى نقطة إلتقاء النيلين وتتخذ إما السير في النيل الأزرق إلى غاية هضبة بلاد الحبشة حيث كان هذا السير سهلا لأن الوقت مناسب لذلك، فمنسوب المياه يكون منخفضا، في حين سيكون العكس زمن حدوث الفيضان حيث يكون السير فيه مستحيلا ويعد مجازفة، وإما في النيل الأبيض وصولا إلى المناطق الحارة، وهناك كانوا يعانون من البعوض والحيوانات المفترسة، كما أن المراكب بإتجاه جنوب مصر كانت عندما تصل الجندل الأول تجد في إنتظارها أهالي النوبة الذين كانوا يتوزعون على شواطئ النيل محييين أفراد البعثة ويقدمون لهم مؤونة متمثلة في تمر جاف، وكان كهنة معابد المنطقة يقدمون لهم الهدايا. أما عن كيفية رسو المراكب فكانت « تدق أوتاد من خشب السنط في البر، وتربط المراكب إلى الأوتاد بأمراس من ليف النخل أو الكتان » (1061).

وأستخلص من ذلك أن موسم الإبحار عبر النيل جنوبا كان يختار زمن إحصار مياه النيل وليس في وقت الفيضان، وكما عرفنا في الفصل السابق قد تكون البعثات برية حيث تسلك الطرق المحاذية للنيل ويبدو أنها كانت تحدث مرة في السنة وهذا راجع لطول المدة التي تستغرقها والتي تعد بالأشهر وأحيانا تكون نهريّة وبرية في آن واحد.

وفي الشمال كان مبعوث الملك وقائد البعثة يدخل بنفسه إلى غابات لبنان، وقد ذكر ذلك في نقش يعود إلى مبعوث الملك "تحوتمس الثالث" والمدعو "سينفي"، ربما من أجل إختيار نوع الأخشاب والكمية المطلوبة، أي أنه كان يشرف بنفسه على عملية قطع وجمع الأخشاب، والتي كان يحشد لها عدد كبير من الأشخاص، فمن خلال بردية Petrograd (بردية أونامو) فإن ملك جبيل "زكربعل" كان قد جمع 300 رجل و 300 ثور ذهب إلى قطع الأشجار التي جرّت إلى الشاطئ (1062).

وفي الختام أشير إلى أن البعثات التي كانت ترسل إلى بلاد النوبة كانت تتعرض إلى مخاطر جمة تصل إلى حد أن تفقد ولا تصل عنها أخبار خاصة إذا كانت بعثة صغيرة مكونة مثلا من مركب واحد ولم تكن مجهزة جيدا وأسلحتها بسيطة (1063).

وعلى العموم فإن البعثات ذات الهدف التجاري لم تكن بعثات بسيطة بل كانت تتخذ صفة المشاريع الضخمة، وتعد لها عدّة كبيرة، وكانت أغلب البعثات التجارية سواء منها بإتجاه "بونت" أو بإتجاه النوبة تجمع بين التجارة والعمل المنجمي والمحاجر.

المبحث الثالث: دور الدين والدبلوماسية في البعثات التجارية

إن الديانة المصرية تمحورت حولها كل الحضارة الفرعونية بل كانت هي الأهم في حياة المصريين ومماتهم، ولم يعرف شعب من شعوب العالم القديم بإهتمامه بالديانة كما إهتم بها المصريون، بل إن الملك في حد

(1057) - L. Casson , Op-Cit , p. 24.

(1058) - C. Lalouette , Op -Cit , p. 253.

(1059) - محمد السيد غلاب ، الساحل الفينيقي ...، المرجع السابق ، ص. 175.

(1060) - ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 175 - 176.

(1061) - إسكندر سامي روفائيل ، المرجع السابق ، ص. 16 - 17.

(1062) - V. Bérard , Op-Cit , p. 127.

(1063) - إسكندر سامي روفائيل ، المرجع السابق ، ص. 11.

ذاته كان مؤلها ويعتبر ابن الإله. كما أنهم تميزوا باعتقادهم الشديد بالحياة ما بعد الموت، لذلك كان كل شيء في خدمة الآلهة، لدرجة أنهم لم يخلفوا مباني تخلد حياتهم المدنية كما فعلت بقية شعوب العالم من منازل وقصور، بل أن ضخامة ما أنجزوه يتمثل في عمارة دينية وجنازية. فهذا الاعتقاد شمل حتى الحياة الاقتصادية ومنها بالطبع الجانب التجاري، فإلى أي حد إرتبطت التجارة بالديانة المصرية؟، وما مظاهر ذلك؟.

سبق وأن أشرت إلى دور الكهنة والمعابد في القيادة والإشراف وتحضير البعثات التجارية. بل أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد إذا علمنا بأن البعثات في حد ذاتها تعتبر وحيا من الآلهة وتحديدا لأجل كبيرها وهو الإله "أمون"، أو أنهم كانوا يهدونها إلى الآلهة، ومن أشهر الأمثلة على ذلك وحي الإله للملكة "حتشبسوت" التي روت من خلال تخليد بعثتها بمعبد بالدير البحري بأن الإله "أمون" أوحى لها في مرة من المرات في شكل أمر وهي بداخل معبده في "طيبة" وأثناء أداء صلاتها له بأن تبعث إلى بلاد "بونت" رحلة تجارية بعد زمن طويل من إنقطاع العلاقة التجارية معها⁽¹⁰⁶⁴⁾، حيث يقول لها: «لقد أعطيتك "بونت" كلها، أرض الإله، التي لم تكن قد وطئت من قبل»⁽¹⁰⁶⁵⁾.

و يوجد الكثير من مثل هذه الإشارات في النصوص و التمثيلات تفيد بأن البعثات كانت ترسل من أجل الآلهة، فهذا الفرعون "رمسيس الثالث" يعلن قائلا: «لأجلك (أمون) أرسلت بعثة إلى بونت، لإحضار البخور الطازج لإحاطة حدائق معبدك بأعداد من أشجاره لم يشهد لها مثيل من قبل»⁽¹⁰⁶⁶⁾. كما أنه إذا تصفحنا السلع التي كانت تجلبها البعثات من الشمال أو الجنوب، فإننا نجد أن غاية معظمها هي خدمة الأغراض الدينية والطقوس الجنازية.

المطلب الأول: المعبودات

المعروف أن مصر إشتهرت بتعدد الآلهة، ومن الطبيعي أن يكون لها آلهة مرتبطة بالتجارة ، وأهم المناطق التي يتاجرون معها وبأهم السلع التي تتمحور حولها المبادلات التجارية. ومن هذه الآلهة نجد الإله "حورس" الذي هو إله المشرق أي إله المناطق الشرقية بما فيها بلاد "بونت" والتي تسمى "بأرض الإله" أي "الإله حورس"، والذي كان يذكر من قبل طاقم البعثات عند إنطلاق رحلاتهم عبر البحر الأحمر المليء بالمخاطر ويدعونه لنصرهم في عملهم⁽¹⁰⁶⁷⁾. أما الإلهة "حتحور" فكانت تتجلى في هيئة بقرة أو إمراة، لكن دائما يظهر عليها قرنا البقرة واللذان كانا يحملان قرص الشمس، أما عن رمزها فهي إلهة الأمومة. وإسم "حتحور" يعني "بيت أو مقر أو ملاذ حورس"، ونجد إسمها لا زال يحتفظ به كإسم لأحد شهور السنة القبطية وهو الشهر الثالث، والذي يدعى "هاتور". إضافة إلى ذلك فإنها ترمز إلى الحب والجمال، وهي إلهة الصحاري التي كانت تزودهم بالثروة المعدنية والأحجار الثمينة، لذلك كانت حامية المتعبين والذين يشتغلون في التعدين هناك بل أن هذه الإلهة إرتبطت إسمها بالمجوهرات⁽¹⁰⁶⁸⁾.

كما إرتبطت أيضا بالملاحين وكانت حامية لهم حيث كانوا يتضرعون إليها بالدعاء قبل إنطلاقهم في أسفارهم، ونتيجة لذلك أصبحت إلهة للبلدان التي كانوا يعقدون معها العلاقات التجارية عن طريق البحر منها بلاد "بونت" و "جبيل" و الساحل الفينيقي عموما⁽¹⁰⁶⁹⁾. لذلك أخذت بعض الألقاب منها "سيدة جبيل" و "حامية الأساطيل"⁽¹⁰⁷⁰⁾، و أيضا "حامية سيناء" و "سيدة بونت"⁽¹⁰⁷¹⁾.

كما كانت طرق القوافل التجارية البرية لها معبودات خاصة بها تقوم على حماية من يتردد عليها من قوافل، منها المعبود "ست" وهو المعبود المحلي للواحات وعلى وجه الخصوص الواحات: "الخارجة" و "الداخلة"، وهناك معبود آخر يدعى "Asch" وكان يحمل لقب "سيد ليبيا"⁽¹⁰⁷²⁾.

المطلب الثاني: الطقوس الدينية المرافقة للبعثات التجارية

(1064) - ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 173.

(1065) - J. Leclant , Op-Cit , p. 41.

(1066) - Ibid , p. 41.

(1067) - عبد المنعم عبد الحليم سيّد ، المرجع السابق ، ص. 103.

(1068) - سيريل ألدريد ، مجوهرات الفراعنة ، المرجع السابق ، ص. 84.

(1069) - عبد المنعم عبد الحليم سيّد ، المرجع السابق ، ص. 97.

(1070) - محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص. 237.

(1071) - G. Rachet , Op-Cit , p. 213.

(1072) - محمد إبراهيم بكر ، المرجع السابق ، ص. 283.

هذه الطقوس تجلت من خلال مظاهر عدة مست البعثة عند الإنطلاق، أثناء الوصول إلى الإتجاه المقصود، وعند العودة.

ولا أجد خير مثال من رحلة "حينو"، فعندما وصل إلى شاطئ البحر الأحمر وانتهى من إعادة بناء المركب قدم قربانا للآلهة، حيث يقول: «...وقد قمت بتقديم مقدمة كبيرة له من الجواميس البرية، والجواميس الإفريقية، ومن المواشي الصغيرة بعد ذلك سرت في البحر» (1073)، إضافة إلى تلك الحيوانات فقد شملت المقدمة طيور "إيبس"، وكذلك الغزلان (1074). وقد جرت التقدّمات أمام سفن البعثة لمباركة الآلهة لتلك الرحلة وبعد ذلك وضعت فيها منتوجات مصرية لمقايضتها بمنتوجات "بونت" (1075).

ويبدو أن هذه التقدّمات كانت نفسها أثناء كل البعثات، بل أن مثلها كان يجري عند الوصول إلى المناطق التي يتاجرون معها. فمثلا في الجنوب (أي بلاد النوبة) كانوا عندما يصلون إلى هناك يقيمون مذبحا مؤقتا يجرون فيه قربانا من الطيور والحيوانات للآله "توت" وكانوا يعودون رفقة المنتوجات منها الزمرد (1076).

أما البعثات التي كانت تتجه إلى بلاد "بونت" فكانت تصطحب معها التماثيل، فبعثة "حتشبسوت" حملت معها تماثالا من الجرانيت الوردي يمثل الإله "أمون" والملكة وذلك لتتصيه على سواحل "بونت" (1077)، وعند وصول البعثة وضع ضمن الهدايا المقدمة إلى زعيم تلك البلاد (1078). والأكثر من ذلك أن هذه البلاد كانت كلما زارها المصريون يهدون لها محرابا للآله "أمون" على اعتبار أن هذه البلاد قد خلقها هو لتكون حديقته (1079).

إن المعلومات بخصوص الطقوس الدينية بتلك المنطقة هي قليلة رغم أهمية هذه البلاد خاصة من الناحية الدينية لمصر، إلا أنه وجدت إشارات تاريخية على قيام أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة ببناء معبد في الواجهة البحرية للسودان الحالي بجوار "إيريتريا" بين بور السودان والعقيق (1080)، وهذا يدل على أن البعثات في تلك الفترة كانت تصل إلى تلك المنطقة وأن أفرادها كانوا يشيدون مثل تلك المعابد في كل منطقة يصلونها، وبالتالي فإن ذلك دليل على إقامة قد تطول نوعا ما أو على تواجد فئة من التجار المصريين هناك على غرار تواجد بعضهم في "جبيل" مثلا.

لكن في جهة الشمال الأمر أحسن حالا وهناك دلائل تاريخية وأثرية بخصوص موضوع الطقوس الدينية المرافقة للبعثات، فعند وصول البعثات إلى "جبيل" تقدم الهدايا للآلهة هناك (آلهة جبيل) حتى ترضى عنهم وتكون عملية حصولهم على الأخشاب أمرا سهلا، وقد وجد العديد من تلك الهدايا هناك (1081)، بل تعدى ذلك إلى وجود معبد مصري يعود إلى الأسرة الرابعة في هذه المدينة (جبيل)، كما يذكر عن "أمنحات الرابع" أنه بنى معبدا للآلهة "حتحور" في تلك المدينة (1082).

وكان ضباط البحرية الملكية والباعة والتقنيون المصريون يضعون التقدّمات ويؤدون الصلوات في معابد "جبيل"، حيث أن إلهة "جبيل" كانت تعتبر من قبل المصريين مثل الإلهة "حتحور" (1083)، أي أن هؤلاء التجار والبحارة كانوا يقومون فيها بعباداتهم التي كانوا يؤدونها في بلادهم، ومخلفات المصريين الدينية التي تعبر عن أدائهم لطقوسهم هناك تعدى وجودها مدينة "جبيل" لتشمل خلال الدولة الوسطى "بيروت" و "قطنة" و "أوغاريت"، حيث كانوا يتركون هناك تماثيلا للآلهة وأخرى لأبي الهول، لكن "جبيل" كانت تحتفظ بصفة متميزة في هذا المجال.

وهناك إثبات يعود إلى الدولة الحديثة وتحديدًا إلى زمن الملك "تحوتمس الثالث"، حيث كان رئيس الخزانة عندما يرسل في بعثة لجلب الأخشاب كان يحرص على تقديم القرابين إلى إلهة "جبيل" "بعلات" قبل أن

(1073) - P. Montet , Op-Cit , p. 184.

(1074) - T. Save- Soderbergh , the Navy..., Op-Cit , p. 11.

(1075) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 158.

(1076) - إسكندر سامي روفائيل ، المرجع السابق ، ص. 28.

(1077) - C. Lalouette , Thébès..., Op-Cit , p. 250.

(1078) - H. Gauthier , l'Egypte pharaonique , Op-Cit , p. 140.

(1079) - B. Manley , Op-Cit , p. 74.

(1080) - M. Mollat du Jourdin et J.Desanges , Op-Cit , p. 99.

(1081) - محمود عبد الحميد أحمد ، الصلات التجارية بين مصر و سورية ...، المرجع السابق ، ص. 196.

(1082) - J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 80.

(1083) - A. Gaudio , Op-Cit , p. 152.

يشرع في جمع أخشاب الإرز من هناك⁽¹⁰⁸⁴⁾، بل أن التقدمات تواصلت مع تواصل البعثات إلى هناك فلدينا إشارة من عهد الأسرة الثانية والعشرين أن الملك "ششنيق" أهدى تمثالا إلى معبد "بعلات"⁽¹⁰⁸⁵⁾. كما أن "أونامو" كان قد أخذ معه في بعثته التجارية إلى الساحل الفينيقي تمثالا للإله "أمون" يدعى "أمون - الطريق"⁽¹⁰⁸⁶⁾.

و عند عودة البعثات كانت تجرى طقوسا دينية وقد كشفت عن ذلك عديد الألواح التي نقشت على إثر العودة من "بونت" بالقرب من ساحل البحر الأحمر، منها لوحة "خنت - خاتي- ور" والتي حملت صورة الفرعون " أمنمحات الثاني" (ثالث ملوك الأسرة الثانية عشرة) و هو يقدم للآلهة تقدمة تتمثل في شراب وأمامه الإله "مين" [رب الصحراء الشرقية] ونقشت تحت ذلك المشهد كتابات تضم أدعية سجلها صاحب اللوحة مقدمة إلى الإلهين "حورس" و "مين" وهذا الشخص صور على اللوحة وهو في حالة تعبد أي رافعا يديه. وقد جاء فيها: «الدعاء وتقديم الصلوات إلى (الإله) "حر- ور" (حورس العظيم) وللإله (مين) رب قفط، من الأمير الوراثي والحاكم، حامل خاتم ملك الوجه البحري، المشرف على قاعة العدل، "خنت - خاتي - ور"، بعد عودته في سلام من "بونت" وجيشه معه، سليما معافى، وقد رست سفنه في ساوو، في السنة الثامنة والعشرين». كما أن اللوحات المكتشفة في "وادي جواسيس" كانت وظيفتها دينية لأن الذين وضعوها مثلوا أنفسهم في وضعية تعبد، فهي تعد لوحات تذكارية تعود إلى جنود وبحارة إثر عودتهم من بعثاتهم سالمين من رحلة شاقة وهم يشكرون الآلهة على حمايتها ورعايتها لهم⁽¹⁰⁸⁷⁾.

كما أن الطقوس الدينية كانت ترافق البعثات عند إنطلاقها من العاصمة والعودة إليها، فقد كان قائد البعثة يزور معبد "أمون" قبل أن ينطلق في بعثته⁽¹⁰⁸⁸⁾، كما ورد في بعثة "حتشبسوت" عند وصولها إلى العاصمة إشارة إلى القيام بتقدمات لـ "أمون" وعندها أعلن رسميا في كل البلاد عن نجاح البعثة⁽¹⁰⁸⁹⁾.

إن الإشارات و العيّنات التي قدمتها عن دور الدين في البعثات التجارية، تؤكد ذلك الارتباط الوثيق بين التجارة و الحياة الدينية في مصر، حيث يتضح أن هذه البعثات كانت قد صبغت بصبغة دينية بدء بالتفكير فيها، مروراً بإنطلاقها وسيرها، ووصولاً إلى عودتها، لذلك تعددت الآلهة التي إرتبط إسمها بالمجال التجاري، منها ما خصص للتجار وبعض منها للطرق التجارية و أخرى كانت لها مهام متعددة بما فيها الجانب التجاري، بل أن التجارة إرتبطت بأهم الآلهة المصرية وحتى كبيرها الإله "أمون"، وأستخلص من ذلك أنه لا يوجد شعب من شعوب العالم القديم إرتبطت رحلاته التجارية بالجانب الديني بنفس الدرجة التي حدثت في مصر، ولو تعمقت في إبراز الثنائية بين الدين والتجارة لإتضحت أشياء أكثر مما أتيت على ذكره.

المطلب الثالث: دور الدبلوماسية في تسهيل المعاملات التجارية

إن المبادلات التجارية وعمليات المقايضة كانت تجري في جو من الهدوء والمحبة، ويكشف لنا هذا عن جانب مهم سهّل تلك المبادلات ألا وهو الدبلوماسية، وأهميتها أنها كانت تسبق العلاقات التجارية، وهي ذات أشكال متعددة منها إرسال الرسائل والرسائل والهدايا وكذلك تبادل الزيارات وحتى المصاهرة. ويبدو أن كل هذه الألوان كانت قد مورست من قبل المصريين مع جيرانهم خاصة الآسيويين، وكل ذلك من أجل تسهيل المبادلات التجارية وتحقيق مصالح الطرفين وتغليب السلم على الحرب.

فأول شيء كان يتقدم المبادلات التجارية هو الرسائل الرسمية التي كان يرسلها الرسل أي رؤساء البعثات (سبق وأن أشرت إليهم) ويحدث ذلك حتى أثناء عصر قوة مصر، وبالتالي فإن هذه الرسائل هي فاتحة للمبادلات التجارية، ولو أنه قيل بأن الساحل الفينيقي كان أثناء فترات قوة مصر تابعا لها، إلا أن ذلك لم يكن صحيحا وهو ما تثبته الرسائل الرسمية التي كان يطلب من خلالها الملك وبصفة رسمية من حاكم "جبيل" أن يزوده بالأخشاب وأن يقايضه إياها بالبضائع التي كانت تحملها سفن البعثة المصرية، والتي كان ذلك الحاكم يعاينها ويقبلها و بعد ذلك يدفع ثمنها لها الأخشاب ثم يتبادل الطرفان عبارات الشكر⁽¹⁰⁹⁰⁾.

(1084) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 212.

(1085) - أحمد أمين سليم ، في تاريخ الشرق الأدنى ... ، المرجع السابق ، ص. 214.

(1086) - C. Lalouette , La littérature ..., Op-Cit , p. 98.

(1087) - عبد المنعم عبد الحليم سيّد ، المرجع السابق ، ص. 80 ، 91.

(1088) - C. Desroches-Noblecourt , Op-Cit , p. 195.

(1089) - C. Lalouette , Op-Cit , p. 55.

(1090) - P. Montet , Op-Cit , p. 179.

و رغم أهميتها فإن الرسائل الرسمية من هذا النوع لا تفيدنا كثيرا في الموضوع لأنه لم يكتشف منها المزيد والأكثرية التي عثر عليها تعود إلى رسائل "تل العمارنة"، والتي تزامنت مع فترة ركبت فيها التجارة المصرية، وكل ما يستخلص منها هو إنحطاط التجارة في ذلك الوقت.

ومن المعلوم بأن معدن الذهب كان مادة أساسية في المبادلات التجارية المصرية مع البلدان الأخرى، ونتيجة لأهميته كانت مصر تعبر من خلاله على مدى روابط المحبة بينها وبين جيرانها، فكانت ترسله إليهم كهدايا من أجل كسب ودّهم وتواصل العلاقات التجارية بينهم⁽¹⁰⁹¹⁾. ولم يكن يرسل إليهم كخام فقط بل أيضا كمجوهرات لملوك وحكام آسيا، وقد وجدت دلائل تاريخية، تثبت بأنهم كانوا يرفقون معها رسائل دبلوماسية توضح كمية المعدن المستخدم في تلك المجوهرات ووزنه، كما كانوا يرسلون إليهم أيضا مجوهرات من الفضة⁽¹⁰⁹²⁾. إلا أنني أرجح أن تكون تلك المجوهرات هي أيضا عبارة عن بضائع تجارية من أجل المقايضة لأنه من خلال رسائل بعض الآسيويين للملوك المصريين كانوا يطلبون منهم أن يزودهم بالذهب الذي كانوا يرونه متوفرا بكميات كبيرة في مصر، وبالتالي فقد تكون المجوهرات كهدايا وفي حالات أخرى كسلع تجارية، وكما يرى "دوماس" (F.Daumas) بأنه لا بد من التمييز بين إرساليات الذهب المطلوبة عن طريق طلب وبين الهدايا والتي كانت تمنح بإرسال سفير أي هناك إتفاق تجاري حقيقي مع وجود تبادل سفراء من الممكن أن يكونوا دائمين مثلما كان يجري بين مصر وملك قبرص⁽¹⁰⁹³⁾.

لم تكن الرسائل الرسمية وحدها هي التي لعبت دورا في تسهيل العلاقات التجارية، فالدبلوماسية تتجلى أيضا من خلال إستقرار بعض الأجانب في مصر للنهل من حضارتها، حيث ثبت بأن أبناء الأمراء والملوك الآسيويين كانوا يرسلون أبناءهم للإقامة فترة في مصر، وقد كانت لهم أحياء خاصة موجودة بالقرب من المعابد، وهي سياسة إنتهجها المصريون من أجل أن يبقى هؤلاء الأطفال عندما يكبرون و يعودون إلى بلدانهم على علاقتهم السلمية مع مصر وخاصة منهم الممالك التي كانت توجد في فلسطين وسوريا⁽¹⁰⁹⁴⁾.

و لا أستبعد أن ذلك كان يحدث مع مناطق جوارية أخرى ، و لو أنني لم أجد إشارات صريحة عنها ضمن ما جمعته من معلومات حول تجارة العصر الفرعوني، إلا أنني إستخلصت من خلال المخلفات الأثرية و التاريخية التي تناولتها كمصادر للدراسة، أن البعثات المصرية عند عودتها سواء من بلاد " بونت " أو من بلاد النوبة كانت تجلب معها في بعض الأحيان إن لم يكن في كل الحالات أفراد من سكان تلك المناطق و كان من ضمنهم أطفال، قد يقال ربما يكونون من ضمن السلع التجارية أي إعتبارهم عبيدا، إن وجود العبيد هو أمر لا جدال فيه خصوصا و أن هذه التجارة كانت رائجة مع بلاد النوبة، لكن هذا النوع من التجارة لم يكن يمارس مع بلاد "بونت"، وبالتالي فهم جاؤوا من أجل البقاء فترة من الزمن في مصر، من جانب آخر فإن الأشخاص الذين رسمت مناظرهم يبدو أنهم كانوا من طبقة حاكمة، خصوصا وأن بعض البعثات ورد فيها فصل بين الأشخاص الذين ينتمون إلى هذه الطبقة و الأفراد البسطاء من خلال الأماكن التي وضعوا فيها في المراكب، وكذلك من خلال الثياب التي يرتدونها وغيرها من الأمور، والدليل الآخر الذي يؤكد إستنتاجي هو أن بعثات النوبيين والبونتيين وهي بعثات تجارية بحتة كانت تأتي إلى مصر و كان من ضمنها الأطفال.

و هذا الدليل الأخير يقودني إلى القول بأن العلاقات التجارية كانت ترافقها زيارات سياحية، وهو وجه آخر من الدبلوماسية أي تبادل الزيارات، وهذه العمليات كانت تجري منذ زمن الدولة القديمة إذ يقال بأن أسطول الملك "ساحورع" كان قد أحضر على متنه أميرا آسيويا لزيارة إقامة الملك، والأمثلة على ذلك متعددة أذكر منها أن بعثة "حتشبسوت" - كما مر بنا- كانت قد أحضرت معها بونتيين، والبعثة التي حدثت خلال زمن الملك "توت عنخ آمون" إلى بلاد النوبة لإحضار الأخشاب جلبت معها بعض الأهالي.

وتتراءى لنا الدبلوماسية في المصاهرة ولدينا عديد الأمثلة خلال العصر الفرعوني، فالملك "ساحورع" مثلا كان قد تزوج من أميرة فينيقية، وهو ما يستنتج البعض من نقشين بارزين منحوتين بداخل المعبد الجنائزي لهذا الملك بـ: "أبو صير"، وهما يمثلان ذهاب وعودة أسطول أعالي البحر، حيث كان بالسفينة فينيقية (آسيوية) شابة وأطفال وهي بدون شك الأميرة لأن هناك نص يقول: «نفرت» (Nefret بمعنى "الجميلة") جاءت هنا لدى ساحورع ابن رع⁽¹⁰⁹⁵⁾. ويبقى ذلك احتمالا غير مؤكد، والأكد الذي يراه أغلب المؤرخين أن "تحتوتمس

(1091) - إليزابيث رايفشتال ، المرجع السابق ، ص. 77.

(1092) - سيريل ألدريد ، المرجع السابق ، ص. 100.

(1093) - F. Daumas , Op-Cit , p. 207.

(1094) - إليزابيث رايفشتال ، المرجع السابق ، ص. 62.

(1095) - C. Lalouette , Thébès ..., Op-Cit , p. 73.

الرابع" كان أول الملوك المصريين الذي دشن في آسيا سياسة التحالف مع مملكة "ميتاني" وأرسل إلى ملكها "Artatama" سفارة يطلب من خلالها يد ابنته(1096).

وهكذا فإن مصر تدخل خلال الدولة الحديثة مرحلة ذات نشاط دبلوماسي كبير، يتميز بالزيجات الدبلوماسية التي ستصبح قاعدة بالنسبة للملوك، وقد دشنها "تحوتمس الرابع"، وكان ملوك الأسرة الثامنة عشرة قبله يتزوجون أميرات من العائلة الملكية، أما هو فقد تزوج من "Montemonia" وهي أم "لأمينوفيس الثالث"، وقد سار هذا الأخير على نهج أبيه في هذا المجال، فمصر كانت تعقد مع بابل علاقات تجارية متتابة، ولذلك نجده، ومن أجل تثبيت هذه العلاقة بروابط صداقة متبادلة بين الدولتين، تزوج بالتتابع من أخت ثم ابنة الملك "Kadashmanharbé"(1097).

إن المبادلات التجارية كان يرافقها تبادل الهدايا بين مصر و"جبيل"، ومن بين الهدايا التي كانت تقدم إلى أمراء "جبيل" أواني من الألباتر والحلي وتعاويذ، فمثلا الملك "خوفو" حوالي سنة 2600 ق.م أرسل هدية إلى سيدة "جبيل" تمثلت في أنية من الألباتر بعد أن نقش عليها اسمه(1098)، كما كان يرسل تماثيله، وكان أمير "جبيل" يأخذها وينقش عليها بالكتابة الفينيقية أمنيته بأن تريد إلهة "جبيل" سنوات حكمه، علما بأن تقديم الهدايا كان يحدث منذ "زمن الآلهة"(1099).

وقد ظلت هذه الهدايا مستمرة طيلة الدولة القديمة بل نجدها أصبحت أكثر أهمية، فالهدايا التي كانت ترسل إلى ساحل "مدرجات الأخشاب" لم تقتصر على مدينة "جبيل"، بل كانت تقدم إلى أمراء "أوغاريت" منها أشياء مصنعة أنتجتها ورشات مصر كإناء مصنوع من الأوبسيديان مرصع بالذهب يحمل إسم الملك "أمنمحات الثالث"(1100)، والذي وجد موضوعا في مدخل معبد المدينة وهو معبد "البعل"، والأمثلة في موضوع الهدايا هي كثيرة منها أن الملك "سنوسرت الأول" ثبت تاريخيا أنه كان يرسل الهدايا إلى أمراء "أوغاريت" (1101).

كما كان "أمنمحات الرابع" يرسل إلى نفس المناطق الهدايا إلى أمرائها، منها صندوق بإسمه وهي هدايا أعطيت من قبله إلى ملوك "جبيل" خاصة، والتي وضعت بعناية في أضرحتهم(1102). وقد أكتشف في "بيروت" تمثال لأبي الهول صغير الحجم مصنوع من الديوريت يعود إلى هذا الملك. وأثمن رأي "كتشن" (K.A.Kitchen) حين ذكر بأن العلاقات التجارية بين الدولة الوسطى وشرق المتوسط سيطرت عليها التجارة والدبلوماسية مع وجود غارات عرضية(1103).

ومن زمن الدولة الحديثة هناك إشارات منها أن رسائل "تل العمارنة" ورد فيها ذكر عشرون "تالنت" من الذهب أرسلت من قبل الملك "أمينوفيس الثالث" إلى ملك "أشور" (1104). إن الهدايا لم تكن دائما من قبل مصر إلى البلدان التي تربطها معها مصالح تجارية بل كانت تحدث من قبل الطرف الآخر، فرسائل "تل العمارنة" تكشف لنا أن أحد ملوك الكاشيين قدم هدية ثمينة من حجر اللازورد إلى أحد ملوك مصر(1105). إن الهدايا المتبادلة من قبل "أمينوفيس الثالث" مع الأمراء الميسنيين والكريتيين كانت في ارتباط مباشر بالعلاقات البحرية والتجارية الثابتة التي توجد بين مصر وهذه البلدان، مثلما هو الحال مع "رودس" و"قبرص"(1106). هذه النماذج بخصوص الشمال، أما فيما يتعلق بالجنوب فإنه كان يحدث الشيء نفسه تقريبا، فكانت البعثات إلى "بونت" تحمل معها الهدايا ويبدو أنها ميّزت كل فترات العصر الفرعوني، فمن خلال قصة "الملاح الناجي"، نجده يعد حاكم الجزيرة بأنه سيرسل له هدايا ثمينة حين عودته إلى مصر، ولدينا مثال رائع من خلال بعثة "حتشبسوت"، إذ كان سكان بلاد "بونت" يتجمعون لرؤية فريق البعثة المصرية وهم في حالة فضول

(1096) - H. Gauthier , Op-Cit , p. 145.

(1097) - J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte... , Op-Cit , pp. 225-226.

(1098) - فيليب حتي ، تاريخ سوريا ...، المرجع السابق ، ص. 137.

(1099) - P. Montet , Op-Cit , pp. 179 -180.

(1100) - J. Pirenne , Histoire de la civilisation de l' Egypte..., Op-Cit , p. 80.

(1101) - محمد عزة دروزة ، المرجع السابق ، ص. 60.

(1102) - J. Pirenne , Op-Cit , p. 80.

(1103) - K.A. Kitchen , grandeur et decadence des empires , Op-Cit , p. 81.

(1104) - H. Gauthier , Op-Cit , p. 146.

(1105) - بشير زهدي ، لمحة عن الأحجار الكريمة ...، المرجع السابق ، ص. 102.

(1106) - J. Pirenne , Op-Cit , p. 227.

لمعرفة الهدايا، وكان أمير تلك البلاد بنفسه يستقبل المبعوثين عند الشاطئ، كما كانت الهدايا تعبر على أنهم أتوا للسلم، وقد تمثلت الهدايا المقدمة لرئيس بونت في خمسة أساور وعقدين ذهبيين وخنجر بغمد وفأس حربي وإحدى عشرة عقدا من الخرز الزجاجي، ونفس الأجواء التي كانت تجري هناك أثناء بعثة "حتشبسوت" نجدها في بعثة "رمسيس الثالث" إلى "بونت" حيث كان المصريون يقدمون لهم هدايا(1107).

ويبدو أن الهدايا التي كانت تقدم تعتبر نفسها سلع المقايضة أي هدايا وسلعا للمقايضة على عكس الهدايا التي كانت تقدم إلى ممالك الشمال والتي كانت تختلف عن سلع المقايضة. وحسب إعتقادي يمكن تفسير ذلك بأن المصريين كانوا يرجون من إرسال هدايا خالصة إلى ملوك حضارات مناطق الشمال والبحر المتوسط كسب ودّهم وإنقاء غزوهم وأخطارهم، في حين أن المناطق المجاورة في الجنوب لم تشكل ذلك الخطر على المصريين ولم تكن لها سياسات توسعية باتجاه مصر.

وكان ملوك مصر يرسلون رسلهم إلى شعوب العالم القديم وكانوا يحملون الهدايا بإسم الملك وكانوا يقدمون التقارير له عند عودتهم(1108). فمن بين المكتشفات في "أوغاريت" نصب صنع في عين المكان وقد فسر من خلال ما جاء فيه على أنه إثبات بأن موظفا ساميا كان قد أنهى مهمته إما كسفير أو كحاكم بها(1109). كما كان يزور مصر رسل تلك الشعوب في نفس الحالات التي كان يرسل فيها الرسل المصريون، منها حالات للتعزية، إعتلاء العرش، زواج الملك من أميرات أجنبيات، إتفاقيات صداقة أو تجارة أو لمعالجة مسائل السياسة الدولية(1110)، وكأمثلة أذكر أنه خلال الأسرة الثانية عشرة كان هناك سفراء مصريون يذهبون بصفة متواترة إلى سوريا وفلسطين وبما أن المصريين كانوا مجاورين لأمرأ هذه البلاد فإن مهمتهم بالتأكد كانت من أجل المسائل التجارية(1111). وهو ما توضحه بالطبع قصة "سنوحي" التي تؤكد أنه كان لمصر سفراء في تلك البلاد. كما وردت إشارات تعود إلى زمن الملك "سنوسرت الثالث" تفيد بأنه كان يرسل سفراء خاصة إلى مدينة "مجدو" وأمكن التعرف على إسم واحد منهم يدعى "حوتحوتب"(1112).

لكن مع ذلك يقال أن المثال الوحيد عن تبادل السفراء الذين يعتمدون كمنصب ثابت نكتشفه من خلال عقد تحالف بين ملك "قبرص" (الاسيا Alasia) ومصر الذي يقول فيه ذلك الملك: «سنعقد إتفاق على أساسه يذهب سفير إلىك وسفيرك يأتي إلي». وما عدا هذا الإتفاق بين الطرفين فإنه لا يوجد ذكر لإقامة سفارات في مصر أو بابل أو نينوى أو ميتاني، إن السفارات المرسله كانت دائما مكلفة بمهمة خاصة، ولم تبق في الخارج إلا لوقت محدد، وأحيانا تقيم عددا من السنوات، ولكن المفاوضات كانت تجري بصفة دائمة بين الطرفين(1113). فهذا الملك "سنوسرت الثالث" نتيجة لتمييز حكمه بالإستقرار الداخلي نجده يهتم بالسياسة الخارجية، ويقوم بإرسال بعثات دبلوماسية نحو كل من بلاد النوبة وشمال فلسطين وسوريا وصولا إلى كريت لتحقيق أهداف تجارية، وكانت تسلك مختلف الطرق البرية والبحرية(1114).

ولو أنه لم توجد مخلفات أثرية أو تاريخية تثبت وجود بعثات تجارية حدثت مع بحر إيجا كما حدث في شرق المتوسط مع الساحل السوري وفي البحر الأحمر، إلا أن إتفاقات تجارية وتبادل سفراء كان قد حدث زمن الدولة الحديثة بين مصر و"قبرص" على وجه الخصوص، وهو ما تثبته الوثائق التاريخية من أن الملك "أمينوفيس الثالث" منذ إعتلائه العرش أرسل إلى "ميتاني" وإلى "بابل" سفراء لتأكيد علاقات الصداقة التي كانت بين أبيه وهؤلاء الحكام، وكانت مثل هاته العلاقات تتجدد عند إعتلاء كل ملك للعرش(1115). ومع ذلك

(1107) - P. Montet , Op-Cit , p. 185.

(1108) - G. Glotz , la civilisation égéenne , Op-Cit , p. 242.

- Daniel Arnaud, le Proche – Orient ancien de l'invention de l'écriture à la hellénisation, (Paris : Bordas, 1970), - (1109)

p. 106.

(1110) - J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 242.

(1111) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 688.

(1112) - C. Lalouette, Thébès..., Op-Cit, p. 74 .

(1113) - J. Pirenne , Op-Cit , p. 239.

(1114) - M. Tariel , Op-Cit , p. 67.

(1115) - J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 231.

فالبعض يرى بأنه ومن خلال عصر الرعامسة، يوجد دليل مادي على وجود تمثيل دبلوماسي للملوك المصريين في كل البلدان الأجنبية⁽¹¹¹⁶⁾.

وكان السفراء يحملون " تصريح مرور " و كانوا يعاملون بإحترام كبير لدى الملوك المصريين وكانوا يحضرون لهم الهدايا بإسم ملكهم، وبالمقابل يهديهم الملك شخصيا هدايا ذات قيمة⁽¹¹¹⁷⁾. فهذا يثبت بأن الدبلوماسية تعدت كونها مجرد هدايا ورسائل إلى نطاق أوسع وهو سفراء دائمون، وكل ذلك من أجل تسهيل العمليات التجارية. إن العلاقات بصورة إجمالية بين مصر وبلدان الشرق القديم كانت تتسم بالطابع السلمي، تميزت بجانبها التجاري والدبلوماسي ولم تكن علاقات حربية وعدائية.

فالتجارة كانت موضوعا لعدد الإتفاقات منها ذلك الإتفاق الذي أتيحت على ذكره بين مصر و ملك "قبرص" و الذي ينص على أن التجار و المراكب القبرصية يكونون معفيين من الحقوق الجمركية في مصر مقابل تقديم كمية من النحاس و الأخشاب سنويا (أكثر من 30.000 كلغ من النحاس)، و نفس الإتفاق ينص على ضمان حماية الفرعون للتجار القبارصة الذين يسافرون إلى مصر ، و يبدو أن مصر و " قبرص " كانتا وحدهما تتبادلان السفراء في شكل منصب ثابت، و بوساطة هؤلاء كانت تعقد الصفقات التجارية⁽¹¹¹⁸⁾.

وهكذا فخلال الفترة من الدولة القديمة إلى الدولة الوسطى، فإن المصريين في الوقت الذي كانوا يجلبون فيه من مناطق مختلفة منتجاتهم المفضلة، كانوا يأخذون أيضا إلى هناك المنتجات الخاصة بهم، وهكذا فإن المصري القديم أنشأ منذ زمن مبكر تبادلا تجاريا نشطا، وكان الإمتداد الجغرافي التجاري يمتد من خط الاستواء جنوبا إلى غاية جزر بحر إيجا في الشمال، فخلال هذا العصر لم يكن لمصر سوى علاقات سلمية مع الخارج للحصول على حاجياتها و تصريف فائض منتجاتها.

كانت الدولة الحديثة إمبراطورية بالمعنى الحديث للمصطلح: قوة منظمة بدرجة عالية، لها مستعمرات تجارية في النوبة، ومحميات بآسيا، ومع ذلك لم تكن مصر أثناء ذلك آلة حرب إستعمارية، بل كانت عملاقا تجاريا يربط إفريقيا بأوروبا والشرق الأدنى، فلم تكن تبحث عن ضم أكثر الأقاليم الممكنة- كما فعل ملوك آشور وبلاد فارس- ولم تغزو الشعوب المجاورة، لكن كانت تريد العيش معها في سلام.

وكانت الأسرة الثامنة عشرة قد أوصلت مصر إلى درجة من الإزدهار التجاري والثراء لم تصله من قبل، و لم تكن الضرائب وإستغلال المناجم أو المغنم هي العامل الوحيد في ذلك بل إن هناك عامل أهم وهو أن مصر نتيجة للسياسة الخارجية لهذه الأسرة، وصلت إلى أن تضع يدها على عصب تجارة الشرق عبر البر، كما كانت لها أساطيل تجوب البحرين الأحمر والمتوسط و التي كانت في خدمة التجارة و توفير الحراسة لها وتأمين السواحل، فذلك المناخ خلق حركة عبر البر والبحر من قبل التجار والرسل والسفراء الذين كانوا يأتون إلى مصر و ينطلقون منها.

وهكذا كانت التجارة خلال الدولة الحديثة أكثر إزدهارا، فالنيل الذي كان يحرك الحياة من الدلتا إلى غاية الشلالات، كان يشهد تفريغ منتجات العالم كله على شواطئه و التي تجلب إما عبر أساطيل البحر الأحمر وإما عبر القوافل العابرة للمسافات الطويلة. كما أن المراسلات الإقتصادية التي كانت تجري بين "مصلحة البلدان الأجنبية" و ملوك "قبرص" و ملوك "بابل" تثبت بأن ملوك الأسرة الثامنة عشرة كانت لهم سياسة إقتصادية واسعة جدا والتي كانت ترمي إلى ترقية العلاقة التجارية لمصر.

وخلال الأسرة السادسة والعشرين حاول فراعنتها إعادة إصلاح الوضع في المملكة بتطوير التجارة، بالإهتمام بالجنوب، وذلك بإرسال بعض البعثات التجارية إلى بلاد "النوبة"، وإعادة سياسة الإكتشاف عبر البحر الأحمر متمثلة في الدوران حول إفريقيا، لكن هذه النهضة لم تدم طويلا، وتجارة مصر لم تستعد مكانتها المفقودة. وعليه فإن طبيعة علاقات المصريين مع جيرانهم خلال كل هذه المراحل تبين بأن الإهتمام الإقتصادي كان المحرك الرئيس في علاقاتهم مع الخارج، والذي يبدو من خلال تجارة منظمة كانت الدولة اللاعب الأول في مراقبة النشاطات التجارية مع شرق المتوسط ومع شواطئ البحر الأحمر منذ أزمنة مبكرة، دون أن أنسى دورها الكبير في التجارة الإفريقية الكبرى والذي دفعها إلى مراقبة النوبة السفلى وليس إحتلالها بل من أجل إكتشافات بعيدة، وكذلك وضع يدها على واحات الصحراء الليبية التي هي نقاط مهمة في تجارة القوافل.

كما أن قوة مصر الإقتصادية هاته إرتبطت بقوة حكامها، فمتى كان الملوك أقوياء فإن البلاد تكون غنية ومزدهرة، و عند مجيء حاكم ضعيف، فإن الإنحطاط الإقتصادي والمجاعة يصبحان ميزة مصر.

(1116) - محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص. 57.

(1117) - J. Pirenne , Op-Cit , pp. 241- 242.

(1118) - J. Pirenne , Y'eut-il des foires...? , Op-Cit , pp. 18 - 19.

الفصل الخامس: دور الوسطاء في تجارة مصر الفرعونية

أشرت في مواضع متفرقة من الدراسة سواء في المدخل أو في الفصول السابقة إلى مسألة توافد الأجانب على مصر خاصة خلال عصر الدولة الحديثة، وكان أغلبهم يقصدها لهدف تجاري، أي أنهم يعتبرون وسطاء تجاريين، وهو ما يؤدي بي إلى طرح التساؤلات الآتية: من هم هؤلاء الوسطاء؟، ما هو الدور الذي لعبوه في تجارة مصر؟، وهل أن الوساطة إقتصرت عليهم فقط أم أن مصر بدورها تعتبر وسيطا تجاريا؟.

المبحث الأول : النوبيون والبونتيون

خلال الكلام عن البعثات التجارية إلى بلاد النوبة التي سبق تفصيلها في الفصل الثالث، أجد أن الهدف من ذلك هو الوصول إلى مصادر الثروة الإفريقية، ورغم أن مصر قد استطاعت أن تمتد نفوذها كحد أقصى إلى الشلال الرابع على نهر النيل إلا أنها ظلت بعيدة عن تحقيق هدفها وهو الوصول إلى ذلك المصدر. وظل وجود الوسطاء في تجارتها الإفريقية أمرا ضروريا.

إن الوسطاء ثبت تاريخيا دورهم في التجارة المصرية منذ عصر ما قبل الأسرات، من خلال وصول بعض المواد من مصادر أبعد من بلاد النوبة منها: "الزجاج البركاني" ذو اللون الأسود، الذي عرف طريقه إلى مصر من نهاية جنوب البحر الأحمر، من "إثيوبيا" ومن جنوب البلاد العربية⁽¹¹¹⁹⁾، كما أن مواد البخور والمرّ ظلت لعدة قرون تسير عبر طريق برّي، فكانت تمر من يد إلى يد في شكل سلسلة مشكلة من تجار صغار كانوا يرفعون ثمنها في كل عملية تجارية، إلى أن تصل إلى مصر، لكن المصريون وجدوا حلا فيما بعد للتقليل من عدد الوسطاء في تجارة البخور والمرّ، وبذلك خلقت المؤسسات البحرية الكبرى⁽¹¹²⁰⁾، التي تعرفنا عليها من خلال الحديث عن البعثات التجارية في البحر الأحمر، بعد أن كان "النوبيون" هم الوسطاء في ذلك وكانوا يجلبونها عبر النيل من خلال قيادتهم لقوافل عبر الصحراء.

وإلى غاية عهد الأسرة الخامسة فإن البعض يرى بأن المصريين كانوا يكتفون بأن تكون النوبة وسيطا بينهم وبين سلع السودان، ولم تكن لدى المصريين نية السيطرة على النوبة طالما هي قادرة على توفير ما يحتاجونه من سلع أواسط إفريقيا وإكتفوا "باليفنتين" كحدود جنوبية لهم⁽¹¹²¹⁾. وعلى ما يبدو فإن المراكب المصرية الكبيرة كانت تصنع من أخشاب "السنط" - قبل إستخدام الإرز - والتي كان الزعماء النوبيون يوفرون كتلا ضخمة منه ويحضرونها إلى مصر. و بما أن السلع الأخرى كان مصدرها بعيدا عن المصريين و في ظل صعوبة الوصول إليها سواء برا عن طريق القوافل أو عبر النهر، فإنهم لجئوا إلى الإتفاق مع "النوبيين" ليكونوا وسطاء لهم في تلك التجارة، وكان على المصريين تأمين الطرق، لذلك جاء إحكام السيطرة المصرية على الصحراء الغربية التي تمر بها القوافل⁽¹¹²²⁾.

ويرى البعض أن جزيرة "الإيفنتين" كان لها دور تجاري بالنسبة للمصريين، فهذه الجزيرة الواقعة في منطقة جد قريبة من الجندل الأول، والتي كان يحكمها أمراء لعبوا دور الصفوف الأمامية بالنسبة للمصريين في الجنوب، وهذا ما نقرأه ونراه بارزا للعيان على الصخور التي تعد بمثابة الكتاب المفتوح الذي يحوي عديد الكتابات و أيضا من خلال الصور المرسومة على جدران مقابرهم بهذه الجزيرة والتي تؤكد بما لا يدعو مجالا للشك بأن هؤلاء الأمراء كانوا يصدون غارات القبائل النوبية الواقعة جنوب الجندل، و من جهة أخرى كانوا حماة القوافل التجارية المارة إلى الجنوب والقادمة منه بل إنهم كانوا في كثير من الأحيان يقودونها بأنفسهم، فكانوا يوفرون لها المناخ الآمن لسيرها في الإتجاهين، وكان هؤلاء يلقبون بألقاب عدة منها: "حماة باب الجنوب"، و"قادة القوافل"⁽¹¹²³⁾.

من خلال تسمياتهم أستخلص مدى أهمية الدور الذي لعبوه في تجارة مصر، لكن لا أتفق مع هذا الرأي و لا أعتبرهم وسطاء لسببين: الأول أن هذه الجزيرة كانت تابعة لأرض مصر وضمن حدودها، وأمراؤها هم موظفون كباقي أمراء الأقاليم الأخرى، والسبب الثاني أن المصريين كانوا يرسلون بعثاتهم التجارية بقيادة أمراء الأقاليم وأمناء الخزينة، وبالتالي فإن تكليفهم بمهمة قيادة القوافل يندرج تحت هذا الباب، ولا يمكن إعتبارهم

(1119) - K.A. Kitchen , grandeur et décadence des empires , Op-Cit , p. 87.

(1120) - L. Casson , les marins de l'Antiquité ..., Op-Cit , p. 33.

(1121) - أمين سليم وسوزان عباس ، دراسات في تاريخ مصر...، المرجع السابق ، ص.267.

(1122) - تريجر وآخرون ، مصر القديمة ...، المرجع السابق ، ص.146.

(1123) - ن.ي ، تاريخ توت عنخ آمون ، المرجع السابق ، ص.170 - 171.

أجانب لعبوا دور الوساطة في التجارة المصرية، لأنهم يقومون برحلات لحساب الملك من أجل التبادل التجاري مع الجنوب، فقد عدوا بمثابة سفراء في بلاد النوبة مكلفين بوضع إتفاقات ملزمة للطرفين تعقد مع الزعماء "النوبيين"، و لكن أيضا بسيطرة مصرية على طرق القوافل المتجهة نحو الجنوب، سواء عن طريق الدبلوماسية أو قوة الجيوش.

وبما أن مصر كانت قد ضيّعت نفوذها التجاري في النوبة على غرار ما كان عليه الأمر خلال الدولة القديمة، فإن دور الوسطاء الجنوبيين في سلع الجنوب وخاصة البخور، برز أكثر خلال الفترة الوسطى (1124). وأثناء الدولة الوسطى نجد نفوذا مصرية في بلاد النوبة يعود من جديد وفتح الطريق من جديد أمام القوافل الأجنبية، كما كانت القلاع والحصون التي أنشئت هناك، والتي أصبحت مدنا صغيرة عند الحدود، عبارة عن أسواق تجارية تقام دوريا وكان يأتي إليها النوبيون حاملين المنتجات الثمينة لبلادهم، معنى ذلك أن هؤلاء الوسطاء كان لهم دور في تجارة مصر رغم أن المصريين خلال هذه الدولة وصلوا إلى مناطق عميقة في النوبة، ورغم أنهم قد وضعوا نصبا للحدود يمنعون فيه اجتياز النوبيين لتلك الحدود ومنها: نصيبين مشهورين للملك "سنوسرت الثالث" بـ: "سمنة" بالقرب من الشلال الثاني إلا أنه و من خلال ما ورد فيهما من كتابات تستثني من ذلك التجار الذين يتجهون إلى "إخن" ومما جاء فيها: «...من أجل منع المرور على كل "نحسي" يتوجه نحو الشمال عبر الأرض أو عبر الماء،... بإستثناء إذا كان "نحسي" يسافر لأغراض تجارية نحو "إخن" أو إذا كان في مهمة (رسمية) أو إذا كان لديه سببا آخر مقبولا» (1125). وكانت تلك الحدود المغلقة بشدة في وجه "النوبيين" تفتتحت في أوقات معينة ، و كانوا ينزلون النيل بمراكبهم المحملة بالمنتجات الثمينة التي كانوا يجلبونها للبيع هناك (1126).

إن "النوبيين" خلال الدولة الوسطى كانوا يدخلون إلى مصر منتجات بلاد "بونت" عن طريق النهر أو برا، والتي كانت تحملها قوافل الباعة الآتية من بلاد "كوش"، التي أصبح زعمائها أثرياء نتيجة لذلك، و هو السبب الذي جعل المصريين فيما بعد يقومون بمحاولات منذ نهاية حكم "تحوتمس الأول" لوضع المجاري التجارية في النوبة تحت سيطرتهم من أجل التقليل من دور "الكوشيين" كوسطاء (1127).

ولو أن الرحلات خلال مرحلة الهكسوس لم تتجاوز الشلال الأول للنيل، وبالتالي إنقطاع الإتصال المباشر (البعثات) مع إفريقيا الوسطى، إلا أن العلاقات التجارية مع النوبة ظلت مستمرة (1128). وبالطبع فإن الفضل يعود إلى وساطة النوبيين. فقد كانت القوافل "النوبية" تزود مصر بصفة مستمرة بمنتجات داخل إفريقيا، حيث كانت "مروي" لا تعدّ فقط مستودع منتجات إفريقيا الوسطى، لكن أيضا لسلع البلاد العربية (1129)، مثلما كانت مدينة "كرما" الواقعة جنوب الشلال الثالث، مدينة تجارية ونقطة نقل البضائع للمراكب والقوافل (1130).

وخلال الدولة الحديثة نجد عديد التمثيلات للنوبيين وهم يأتون محملين بالبضائع الإفريقية، ففي مقبرة "هيا" (Haya) وهو نائب للملك "توت عنخ آمون" ما يوضح كيف كان النوبي يأتي مع سلعه المختارة من كل مناطق الجنوب، وكانت تتكون من حلقات الذهب وقطع أخرى رقيقة وطويلة من نفس المعدن، وكذلك كان يأتي في شكل مسحوق معبأ في أكياس، أحجار كريمة، العاج، جلود حيوانات، زرافات، كلاب وأبقار، ومن بينها أيضا منتجات من الفن "النوبي"، وهي أعمال من الذهب بصورة خاصة، والأثاث الجميل المصنوع من الأبنوس والأواني الفاخرة من المعدن، وكلها أشياء فنية لا تذكرها - في غالب الأحيان - النصوص بينما تذكر منتجات صناعة شعوب سوريا، التي كانت تغرق مصر خلال الدولة الحديثة، ومن بين السلع نجد الأقمشة

L. Casson , les marins de l'Antiquité..., Op-Cit , p. 24. – (1124)

J.A. Wilson , l'Egypte ..., Op-Cit , pp. 129 - 130. – (1125)

J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 81. – (1126)

B. Manley , Atlas historique..., Op-Cit , p. 62. – (1127)

Örjan Olsen , la conquête de la terre , histoire des découvertes et des explorations des origines à nos jours , – (1128)

traduction de E.Guerre , (Paris : Payot ,1933), pp. 28-29.

D.M.J. Henry , l'Egypte pharaonique ..., Op -Cit , pp. 444 - 451. – (1129)

J.A. Wilson , Op-Cit , p.131. – (1130)

الشمينة. وترافق مشاهد السلع هاته مشاهد أخرى تعطي صورة عن منطقة النيل الأعلى متمثلة في نخيل "الدوم" (Doum) و فوق فروعها قروء، و صور لزرافات(1131).

فالوسطاء النوبيين كانوا يحضرون سلعا متنوعة، وأخرى لم تكن تحضرها البعثات التجارية المصرية، كما أنني لمست أن هؤلاء كانوا قد تركوا بصمة واضحة من خلال وساطتهم في التجارة المصرية، و قد كانت بصمة متواصلة منذ ما قبل الأسرات و طيلة العصر الفرعوني ، خلال فترات قوته و ضعفه على حد سواء. أي أن ظهورهم لم يبرز في فترات محددة و يختفون في أخرى، بل ظل تواجدهم محسوسا في تجارة مصر تقريبا بنفس الوتيرة.

لم يكن "النوبيون" يعدون وحدهم الوسطاء الجنوبيين في تجارة مصر بل نجد هناك "البونتيين"، إذ يرى "كتشن" (K.A.Kitchen) بأن العلاقات بين مصر و "بونت" لم تكن في اتجاه واحد، لأن سكان "بونت" كانوا يصعدون نحو الشمال للإتجار بواسطة سفنهم البسيطة ذات الشراع(1132)، وكانوا يزورون البلاط الملكي ليقدموا له هداياهم و سلعهم، أي أنهم كانوا بمثابة سفراء لعقد صفقات تجارية، كما أنه و من خلال بعض البعثات التجارية المصرية إلى تلك البلاد كانت حشود من البونتيين ترافق تلك البعثات عند العودة مثلما حدث مع بعثة "حتشبسوت"، ومن المؤكد أن من بينهم تجار كانوا يعقدون صفقات تجارية مع مصر و فراعنتها(1133).

إن صور "البونتيين" في النقوش المصرية وفيرة، فمعبد "أبو صبير" الذي يعود إلى الملك "ساحورع" وجد على جدرانه صورا تمثل أشخاصا من بلاد "بونت" في هيئة خضوع لذلك الملك ولو أن الفنانين المصريين قد بالغوا في تصويرهم لأن هؤلاء لم يخضعوا لأي ملك مصري، بل كانوا تجارا يتعاطون معه التجارة(1134).

كما أن الوسطاء "البونتيين" كانوا حقيقة واقعة في زمن "تحوتمس الثالث" حتى وإن لم يقرأ شيء بخصوص تفاصيل بعثة بحجم بعثة "حتشبسوت" مثلا، فمن المؤكد أن البونتيين كانوا يجلبون السلع إلى مصر، بل لقد إعتبر البعض أنه أول الملوك الذين إستقبلوا سلع الوسطاء البونتيين(1135)، كما أن الدلائل التاريخية تشير إلى أن "البونتيين" كانوا قد لعبوا دورا هاما كوسطاء في عهد الملك "رمسيس الثالث" الذي كان قد سیر بعثة مهمة إلى هناك، والتي يقال بأنها عادت مرة بقناة "بيتوم" Pithom (قناة النيل- البحر الأحمر)، فقد كان زعماء أرض "بونت" ينزلون إما في منطقة "بيرينيس" (Bèrenice)، وإما في منظمة القصير مع منتوجاتهم، وبعدها يتشكلون في قافلة، محملين بحمولاتهم على الحمير وعلى ظهور الرجال، ويصلون برا إلى غاية مدينة "قفط" ومن هناك يركبون المراكب النهرية لتوصلهم إلى العاصمة "طيبة"(1136).

وهكذا فإن المصريين كانوا يسلكون البحر للوصول إلى بلاد "بونت" و يجلبون سلعها، لكن أحيانا يجلبها سكان بلاد "بونت" بأنفسهم على مراكبهم التي رسمت في بعض المناظر كأنها طوف، وكان يقوم بالإبحار رؤساء تلك البلاد كما توضحه الصور، وقد فسر ذلك على أنهم كانوا يعترفون بالسيادة المصرية ولو في شكل ولاء، إلا أن الأحداث التاريخية تثبت بأن العلاقة بين مصر وبلاد "بونت" لا تنسم بالخضوع أو بسط السيادة بل كانت علاقة تجارية بحتة و لم يسجل التاريخ ولو بعثة حربية واحدة إلى "بونت" ، كما أنه لا يمكن حدوث تلك السيطرة لأنها بلاد جد بعيدة كما أنه لم يثبت وأن أنشئت مراكز في بلاد "بونت" من قبل المصريين ولو للتجارة، ماعدا بقاء البعثة التجارية بضعة أشهر هناك وهذا راجع لطبيعة الإبحار في البحر الأحمر، وحدث في بعض الأحيان أن تجول التجار بداخل تلك البلاد، حيث قامت بعثة "حتشبسوت" هناك ببناء معبد صغير لعبادة آمون و ديانة "بونت"، وهو ما يدل على إقامة قصيرة هناك.

المبحث الثاني : الليبيون

هكذا كان لدور الوسطاء الجنوبيين أهمية كبيرة في جعل تجارة إفريقيا مستمرة بين مصر وأواسط إفريقيا طيلة مراحل العصر الفرعوني، وحتى قبل ذلك بزمان طويل، كما أنها تواصلت حتى خلال الفترات الإنتقالية، لدرجة أن "ديكمانس" (G.Dykman) يرى بأن الحركات التجارية لم تكن مهمة عند المنافذ البرية

(1131) – Erman et Ranke, la civilisation égyptienne, Op-Cit , pp. 671- 672.

(1132) – K.A. Kitchen , Op-Cit , p. 87.

(1133) – E. Cavaignac , histoire générale de l'Antiquité , Op-Cit , p. 40.

(1134) – عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم...، المرجع السابق ، ص. 127 .

(1135) – T. Save - Soderbergh, the Navy..., Op-Cit , p.22.

(1136) – P. Montet , la vie quotidienne en Egypte..., Op-Cit , pp .185 -186.

لمصر باستثناء المنفذ الجنوبي المتمثل في بلاد النوبة⁽¹¹³⁷⁾، فهل كان لسكان غرب النيل نفس الدور؟، وما أهمية بلادهم بالنسبة لمصر؟، إلى أية درجة لعبوا دور الوساطة في التجارة المصرية؟.

المطلب الأول : أهمية الواحات الغربية للمصريين

بالنسبة لأهمية واحات الصحراء الغربية فهي متعددة الوجوه، من جهة تعتبر كمحطات لإستراحة القوافل بين المتوسط وقلب إفريقيا، ومن جهة أخرى فهي عبارة عن نقاط إستراتيجية: ففي الشمال نجد واحة "سيوة"، وبالقرب من وادي النيل نجد "وادي النطرون"، أما في إتجاه الجنوب فنجد بالتتابع الواحات التالية: "البحرية"، "فراغة"، "الداخلية"، "الخارجة"⁽¹¹³⁸⁾. فأهميتها كمحطات على طريق القوافل تتجلى من خلال وجود المياه بوفرة، وكذلك المنتجات الهامة مثل التمر والنبذ، لذلك نجد ملوك الأسرة الثامنة عشر قد بسطوا نفوذهم خاصة على واحة "البحرية" وهو ما يثبتته نقش يعود إلى الملك "تحوتمس الثاني"⁽¹¹³⁹⁾، فقد كانت ثروة الواحات جد هامة بالنسبة للمصريين منها البلح الذي كان يعد من أفضل السلع التجارية لها لدرجة أنه كان يطلق عليها إسم "مزرعة النخيل"، كما كان خمرها مرغوب فيه بدرجة كبيرة، حيث كان المصريون يستوردونه من هناك من أجل سد النقص الذي كانوا يعانونه، وكان أيضا يقدم كقرايين للآلهة، وقد احتل خمر الواحات مكانة هامة لدى المصريين⁽¹¹⁴⁰⁾، فالواحات الغربية كانت تقدم الكثير لمصر، فهي عبارة على حقل كبير لزراعة الكروم وقد بلغ صيتها شهرة كبيرة آنذاك وكان أهلها يزرعون إضافة إلى النخيل الفواكه، كما كانت الواحات تحوي قطعان كبيرة من الماشية⁽¹¹⁴¹⁾. فالملك "رمسيس الثالث" إهتم كثيرا بالواحات خاصة واحتى "البحرية" و"الخارجة" وجعل فيهما عديد الحدائق المزروعة خصيصا بالكروم من أجل إنتاج الخمر، لأن خمور الواحات ذات ميزة خاصة، إضافة إلى ذلك فقد كانت الواحات لها شهرة كبيرة بزيوتها التي كانت تزود وادي النيل بكميات منها منذ عصر الدولة القديمة، وكانت زيوتها متعددة الأنواع ومنها خاصة النوع الذي يدعى "حانت - تحنو" وهو مقدس لدى المصريين بل كانت بعض الواحات لها زيوت خاصة بها مثل "سيوة" و "البحرية"⁽¹¹⁴²⁾.

زيادة على غنى الصحراء الليبية بحدائق الكروم وأشجار الزيتون فهي غنية بثروتها من الماشية، وهو ما تؤكد الغنائم التي يتحصل عليها المصريون بأعداد كبيرة و التي كانوا يجلبونها من خلال حملاتهم ضد هجرات شعوب غرب النيل⁽¹¹⁴³⁾. وهي في نفس الوقت تتميز بتربية الحمير والحيوانات الضرورية لكل الأحمال ونقل السلع، وكان عمل الممالك المصرية هناك يتجلى في تهيئة الأراضي بحفر الآبار الضرورية و الإشراف على المسالك و إقامة معابد للآلهة المصرية⁽¹¹⁴⁴⁾.

ولا تقتصر أهمية الواحات على ما ذكر بل تتعدى أهميتها إلى كونها مصادر لبعض المواد والمعادن مثل : النطرون، والذي أستخدم مثل الصابون في وقتنا الحاضر، أي مجال إستخدامه في النظافة و هو ضروري أيضا في عمليات التحنيط⁽¹¹⁴⁵⁾، وإبتداء من الأسرة التاسعة عشرة كانت للواحات وخاصة "البحرية" منها أهمية في مجال المعادن الخام، وقد ورد ذكر لمناجم كل من تلك الواحة وواحتي "الخارجة" و "الفراغة" والتي كانت منقوشة على جدران معبد الأقصر في زمن "رمسيس الثاني"⁽¹¹⁴⁶⁾. إضافة إلى كل ذلك فإن "الليبيين" كانوا مثل النوبيين يزودون المصريين بيد عاملة وجنود مرتزقة⁽¹¹⁴⁷⁾.

ورغم كل هذه الأهمية التي كانت تمثلها للمصريين فإن البعض يرى أنهم لم يفكروا في جعلها مقاطعات تابعة لممالكهم، ولم تضم هذه الواحات إلى مصر إلا زمن البطالمة الذين مدوا الحدود إلى غاية برقة، وبالتالي شملوا جميع الواحات الغربية⁽¹¹⁴⁸⁾. إلا أن هناك من يرى بأن المنطقة الواقعة غربي بحيرة مريوط

1137 - () G. Dykmans , histoire économique..., Op-Cit , t. 2 , p. 280.

1138 - () C. Lalouette , thébès ..., Op-Cit , p.69.

1139 - () أحمد فخري ، الصحراوات المصرية ، المرجع السابق ، ص. 81.

1140 - () محمد إبراهيم بكر ، صفحات مشرقة...، المرجع السابق ، ص. 283 - 284.

1141 - () G. Dykmans , Op-Cit , p. 281 .

1142 - () محمد إبراهيم بكر ، المرجع السابق ، ص. 284.

1143 - () أنور الرفاعي ، تاريخ الحضارات ...، المرجع السابق ، ص. 32.

1144 - () C. Lalouette , thébès ..., Op-Cit , pp. 69-70.

1145 - () محمد إبراهيم بكر ، المرجع السابق ، ص. 284.

1146 - () أحمد فخري ، الصحراوات المصرية ، المرجع السابق ، ص. 79.

1147 - () Moret et Davy , des clans aux empires ..., Op-Cit , p.214.

1148 - () بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، الدور المصري...، المرجع السابق ، ص. 17 - 18.

إضافة إلى واحات الصحراء لم تكن تابعة لإقليم محدد، وقد ظلت خارجة عن سيطرة الإدارة المركزية لمصر قبل الدولة الوسطى (القرن العشرين ق م)، و خلال القرن الخامس عشر على أيام الأسرة الثامنة عشر فإنها ضمت إلى مصر، لكن حفريات " أحمد فخري " التي جرت بين عامي 1971 و 1972 في واحة الداخلة أثبتت عكس ذلك الإعتقاد، لأن هذه الحفريات أسفرت عن وجود عاصمة بها جعلها الحكام كذلك منذ الأسرة السادسة (2420 – 2280 ق.م) في المنطقة التي تسمى "عين أصيل"، وإستمرروا في حكمهم بها خلال الفترة الإنتقالية الأولى الممتدة بين 2280 إلى 2052 ق.م، و لم يكن حكام الواحات مصريين بل كانوا ليبينين، وكانوا يقرون بالتبعية لملوك وادي النيل، وكانت كل واحدة نظرا لبعدها عن مصر تشكل مملكة حقيقية ومستقلة بكيانها⁽¹¹⁴⁹⁾. وهناك رأي مخالف يرى بأن الإدارة المصرية عملت على إلحاق الواحات الغربية إليها على مراحل منذ زمن مبكر، حيث أن واحة "الفرافرة" كانت مقرا لحاكم مصري أثناء عصر الأسرة الرابعة، ومن الممكن أن تكون واحة "البحرية" هي أيضا قد ألحقت في ذلك العصر، كما أن الحفريات التي أجريت في كل من الواحتين "الداخلة" و "الخارجة" تثبت بأنه منذ عصر الأسرة السادسة كان يديرها حكام مصريون، وقد شكلت مقاطعات مصرية حقيقية وهو ما تدل عليه مصاطب الأسرة السادسة، ومسلات ومعالم مصرية أخرى أكتشفت فيهما⁽¹¹⁵⁰⁾.

ونتيجة لإهتمام المصريين بها فإنهم كانوا يكلفون مهمة الإشراف عليها إلى موظفين مهمين مثل أمير الإقليم، أو الوزير مثلما حدث زمن الملك "سنوسرت الأول" حيث كان حاكمها يدعى "منتو حتب"⁽¹¹⁵¹⁾. و يقال أن "تحو تمس الثالث" كان قد وضع يده على واحات الصحراء الغربية والدليل هو وجود أواني فخارية حاوية لخمور في بقايا مباني "طيبة"⁽¹¹⁵²⁾. يبدو أن المخلفات المصرية في الواحات، و الإشارات التاريخية الأخرى كانت محل تناقض في تفسيرها بما يخدم موضوع التواجد المصري الفعلي فيها من عدمه، و أنا أرجح أن التواجد بمعنى السيطرة و ضمها و إعتبارها مقاطعات تابعة لمصر هو أمر مستبعد، و كل ما هنالك أنه خلال فترات معينة من العصر الفرعوني المرتبطة ببعض ملوك مصر الأقوياء كان الإهتمام بصورة أكبر بتلك الواحات لأهميتها التجارية، وكل ما فعله هؤلاء الملوك هو تأمين هذا المورد الإقتصادي المهم، وسأوضح بعض الأمور بخصوص هذا الموضوع في الفصل السابع.

المطلب الثاني : علاقة الليبيين التجارية بمصر

إن الليبيين كانوا يرسلون القوافل التي كانت تجلب إلى مصر منتجات الواحات الليبية ويجلبون أيضا منتجات القوافل التي تأتي من قورينة إلى تلك الواحات، كما كانت مصر بالنسبة لأهل الواحات السوق التي يجددون منها تموينهم، لقد كانوا يأتون لتبادل القمح بحليب رائب، وأجبان ولحوم حيواناتهم، وكانوا يبحثون عن أشياء مصنعة كانت تضمن عودة القوافل محملة بالسلع⁽¹¹⁵³⁾، أما مصر فكانت تستورد من بلاد الليبيين الزيت المسمى "الليبي" والذي كان يستخدم في المسح والدهن.

إن العلاقة بين سكان وادي النيل مع الواحات الليبية تعود إلى عصر ما قبل التاريخ، فخلال الألفين: الخامسة والرابعة، دخل سكان ذلك الوادي في علاقات تجارية مع الواحات الليبية التي كانت تزودهم بالمنتجات و قطعان من الماشية.

و رغم أن عمر الأسرتين الأولى والثانية أي العصر "الثني" (thanite)، كان قد عرف علاقات عنف وهجوم من قبل الليبيين وحملات عسكرية من قبل المصريين إلا أن الآثار كشفت عن جانب آخر في العلاقات بين الطرفين خلال هذا العصر، وهي العلاقات السلمية والتبادل التجاري، ومثال على ذلك أن الملك "دن" كان يجلب زيت الزيتون من أرض التحنو دون استعمال العنف والقوة ولم تدلنا الآثار على أنه قام بحملة عسكرية هناك⁽¹¹⁵⁴⁾، مما يدل على أنه منذ هذه العصور المبكرة وجدت تجارة مهمة للقوافل بين قبائل ليبية وسكان الواحات من جهة، ووادي النيل من جهة أخرى، فإضافة إلى المواشي ومختلف التجهيزات من حليب رائب وأجبان، يذكر "موريه" و "دافي" (A. Moret et G. Davy) أن المصريين كانوا يشترون من أصحاب تلك

1149 () – أحمد فخري، واحات مصر، المرجع السابق، ص.ص. 102، 108

1150 () – C. Lalouette, thèbès ..., Op-Cit, p. 69.

1151 () – محمد إبراهيم بكر، المرجع السابق، ص. 279.

1152 () – إليزابيث رابفشتال، طيبة...، المرجع السابق، ص. 66.

1153 () – Moret et Davy, Op-Cit, p. 197

1154 () – أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص. 76.

القوافل العطر لأنه ذكر في كل قوائم التقديمات(1155). وكان الليبيون يأخذون مقابل سلعهم التجارية المنتوجات الغذائية المتنوعة التي تزرع بها مصر، إضافة بالطبع إلى الأشياء المصنوعة. وأول دليل مادي على إستيراد نبيذ الواحات هو إكتشاف أنية بها بقايا منه تعود إلى زمن الملك "زوسر"(1156).

كما تميز عصر "خوفو" بتبادلات للمنتوجات بين الطرفين لكن لم تكن علاقات متواصلة، وأثناء الأسرة السادسة نجد المصريين قد تعرفوا على مختلف واحات الصحراء الليبية، بعد أن كانوا قد جابوها وأمنوا الطرق المؤدية إليها وبذلك يكونون قد أسسوا معها علاقات تجارية منتظمة(1157)، وهكذا سارت العلاقات مع ليبيا في تعايش وهدوء وسلم خلال عصر الدولتين القديمة والوسطى (من الألف الثالثة إلى بداية الألف الثانية ق.م) تتخللها حروب عرضية عندما يتطلب الأمر ذلك من أجل إبعاد الخطر عن الدلتا(1158)، وكانت العلاقات التجارية تتم في الإتجاهين فكان سكان غرب النيل يأتون بقوافلهم كما كان المصريون يذهبون إليهم، وخير دليل على تجارة قوافل الواحات هي قصة "الفلاح الفصيح" الذي كان يأتي إلى العاصمة "هيراقلوبوليس" من وادي النطرون على حميره وهو يحمل سلعا تجارية تتمثل خاصة في هراوات التي تشتهر بصناعتها واحة الفرافرة، كما تدل على علاقات الواحات التجارية ببعضها من خلال تنقل هذا الشخص عبرها وحمل سلع الواحدة إلى الأخرى وصولا إلى النيل(1159).

كما تثبت هذه القصة بأن التجارة لم تتوقف خلال فترة الانتقال الأولى بين النيل والليبيين، و تدل أيضا على أن السلع التجارية لم تنحصر فقط في السلع التقليدية التي إشتهرت بين الطرفين بل تكشف عن سلع متنوعة منها: نباتات، أخشاب، جلود وفراء وأملح. و هذه الأخيرة عرفت ضمن تجارة الملح التي تواصل دخولها مصر منذ ما قبل التاريخ و طيلة العصر الفرعوني بدون إنقطاع لما لها من أهمية كبيرة للحياة المصرية فهي التي تحفظ بها الأسماك، اللحوم و الموميאות(1160).

خلال زمن الدولة الوسطى وخاصة زمن الملك "سنوسرت الثالث"، يسجل توطيد الصلات التجارية و إزدهارها خاصة بين الواحات "الخارجة" و "الداخلية" بكل من العاصمة "طيبة" و مدينة "أبيدوس"، لأن هذه الدولة كانت قد إتبعته سياسة صارمة بخصوص تأمين الطرق التجارية إلى تلك الواحات الليبية إبتداء من زمن حكم الملك "أمنمحات الأول"، و تمثلت تلك الحماية خاصة في إرسال الدوريات البوليسية، التي كانت تحمي تلك الطرق و تقوم بدور التفتيش(1161). و مثلما تواصل إحضار منتوجات "التمحو" (الليبيين) خلال زمن الدولة الوسطى، ثبت أن هؤلاء كانوا يترددون على مصر وخاصة منطقة الجنوب، و بالتالي فإن تجارة الواحات ظلت متواصلة بعد زمن تلك الدولة رغم أن "الهكسوس" لم يولوا إهتمامهم بالصحراء(1162). أما خلال الدولة الحديثة فإن العلاقات بين مصر وليبيا كانت متكررة لأن السلم كان ميزة تلك العلاقات(1163).

و رغم أن الليبيين سكان الواحات الغربية قد لعبوا دورا هاما كوسطاء في تجارة مصر بفضل منتوجاتهم الهامة في حياة المصريين و الذين إعتبروها مراكز هامة للقوافل المصرية التجارية إلا أن هذه الواحات ساهمت في العصر المتأخر في إضعاف تجارة مصر لأنها أصبحت نقاط رئيسية تعبرها تجارة أواسط إفريقيا مباشرة إلى ساحل البحر المتوسط، و من هناك يحملها الفينيقيون واليونانيون إلى أوروبا في حين أن ذلك كانت تقوم به مصر من قبل(1164).

كل هذه الإشارات و غيرها كثير تثبت أن هناك علاقات تجارية ثابتة بين مصر و الواحات الليبية، حيث أن المصريين – على حد تعبير "فركوتيه" - كانوا خلال العصر الفرعوني يرسلون بعثات تجارية إلى واحات الصحراء الليبية مثلما فعلوا مع مناطق أخرى(1165). إنطلاقا مما ذكره هذا المؤرخ، ومن خلال الآراء التي

1155 () - Moret et Davy , Op-Cit , p. 201

1156 () - محمد إبراهيم بكر، المرجع السابق، ص.147.

1157 () - H. Gauthier , l'Egypte pharaonique , Op-Cit , p p. 81 , 88.

1158 () - K.A. Kitchen , Op-Cit , p. 83.

1159 () - أحمد فخري، الصحراوات المصرية، المرجع السابق، ص. 177.

1160 () - J. Duché , les grandes routes ..., Op-Cit , p.9.

1161 () - أحمد فخري، مصر الفرعونية...، المرجع السابق، ص.227.

1162 () - أحمد فخري، الصحراوات المصرية، المرجع السابق، ص. 76.

1163 () - K.A. Kitchen , Op-Cit , p.86.

1164 () - أحمد فخري، واحات مصر، المرجع السابق، ص. 107.

1165 () - J. Vercoutter , essai sur les relations..., Op-Cit , p. 21.

ذكرت من قبل و التي تؤكد الصلة الوثيقة و المتواصلة بين الطرفين ، فإنني أفهم بأنهم يقرون بأن هناك بعثات منظمة كانت ترسل من قبل مصر، وبالمقابل كانت هناك بعثات في الإتجاه المعاكس، و هي أيضا بصفة متواصلة ، لكن من خلال محاولات في البحث عن العلاقات التجارية بين المنطقتين لم أجد من خلال الوثائق إشارات صريحة لوجود بعثات منظمة قامت بها مصر، و لو أن البعثات العسكرية كانت كثيرة من أجل حماية الطرق التجارية ، و لربما هذا ما دفع بهؤلاء المؤرخين إلى الإعتقاد بوجودها. و لإثبات ذلك فإن الأمر يتطلب بحثا معمقا أكثر، وبالتالي فأنا أعتقد بأن الصلات التجارية هنا كانت لها ميزتها الخاصة عن باقي صلات مصر بمناطق الجوار الجغرافي، والمتمثلة في أنها كانت تتم بوتيرة ثابتة منذ أقدم العصور و طيلة العصر الفرعوني ، و كانت العملية تحدث في الإتجاهين بنفس المستوى ، إلا أن الوثائق المصرية بصورة خاصة لم تتكلم إلا عن الجانب العسكري في تلك البعثات من جهة، و من جهة أخرى لم تكن تلك البعثات تأتي في رأيهم بالأشياء النادرة و الجوهرية بالنسبة لحضارتهم، بل كانت منتوجات الواحات العديدة تأتيهم من مناطق أخرى ، و أيضا وجود إمكانية الإتيان بها من قبل سكان الواحات.

و هكذا و حتى و إن كانت مصر تسيّر إلى هناك البعثات التجارية إلا أن ذلك لا يمنع بتاتا دور الليبيين كوسطاء في تجارة مصر، خاصة وأن المصريين في فترات عديدة كانوا يمرون بالضعف ولم يكونوا قادرين حتى على تأمين الطرق إلى هناك في حين أن ضروريات حياتهم لبعض مواد الواحات الغربية لا تتوقف.

المبحث الثالث : شعوب جنوب فلسطين

إن شعوب جنوب فلسطين تنتمي إلى الشعوب السامية التي اشتهرت بأنها أقوام تجارية، وهي تعد مثل شعوب جنوب و غرب النيل أي النوبيين و الليبيين أقوام مجاورة مباشرة لمصر، لذلك وجب التطرق إليها. فماذا تقول النصوص المصرية عن هذه الشعوب ؟، وما الدور الذي لعبته كوسيط في التجارة المصرية ؟.

المطلب الأول : شعوب جنوب فلسطين من خلال النصوص المصرية

هناك تسميتان قديمتان جدا إحداهما تعود إلى الملك "جر" ثاني ملوك الأسرة الأولى، حيث يذكر "حجر بالرمو" بأنه أرسل حملات إلى "ضرب ستيه" والتي تعني آسيا والثانية تعود إلى زمن الملك "عج إيب" الذي ذكر عنه بأنه حارب "ضرب الإيونيتو" و لو أن هذا اللفظ غير مفهوم إلا أنه على الأرجح يدل على سكان شمال شرق الدلتا(1166).

أعطى المصريون أسماء أخرى لشعوب صحراء سيناء وجنوب فلسطين منها: "الشماليون" ، و "الذين يعيشون وراء الرمال" ، و "شعوب العقدة على الكتف" ، وأيضا "مرتدي الإزار" ، و كذلك "الحاملين للقوس" ، و "شعب القوس" ، ومن الأسماء أيضا "رجال آسيا المتوحشون" (1167) ، وقد وجدت تسميات في النصوص المصرية تخص بدو كنعان (جنوب فلسطين)، أي أنها أطلقت على القبائل البدوية التي كانت تجوب أرض كنعان منها تسمية: "نميوشي" (Nemiu-She) ومعناها عدائي الرمال، و أيضا لفظة "أريوشي" (Aeriou-She) و التي تعني ساكني الرمال، و خلال الأسرة الثامنة عشر نجد لفظة آخر أطلق عليهم و هو: "شاسو" (Shasou) (1168). كما أطلق المصريون تسميات أخرى لكنها أوسع لأنها تشمل في معناها مناطق وشعوب أخرى منها "خورو" (khûru) أو (kharu) والتي يقال عنها بأنها تحريف لتسمية "حوري"، ومن التسميات أيضا نجد "زاهي" (zahi) أو (djahi) وهي أيضا تسمية تطلق على السهل الفينيقي، وكذلك تسمية "رتينو" (pzanu) أو (retenu) (1169) ، وقد وردت هذه الأخيرة لأول مرة من خلال قصة "سنوحي"، والتي تميز بين "رتينو" السفلية و "رتينو" العليا، ولا يعرف بالتحديد على من ينطبق هذين الإسمين الجغرافيين، ولكن من المحتمل أنهما يدلان على البلاد الخلفية للساحل(1170).

و من الأسماء التي جاءت في النصوص الهيروغليفية نجد لفظة "عامو" و هي تعتبر من أقدم الألفاظ و أكثرها تداولاً، لأنها وردت منذ نصوص الدولة القديمة كما أن مضمونها واسع حيث كانت تطلق على كل من سكان الصحراء الشرقية وسيناء وسوريا وفلسطين وحتى شمال الجزيرة العربية، و هذه الكلمة نجدها تقترب من

1166 () - محمد بيومي مهران ، الثورة الاجتماعية...، المرجع السابق ، ص . 213.

1167 () - M. Damiano- Appia , l'Egypte ..., Op-Cit , p. 237 .

1168 () - C. Lalouette , thébes ..., Op-Cit , p. 71 .

1169 () - فليب حتي ، تاريخ سوريا...، المرجع السابق ، ص. 138.

1170 () - C. Lalouette , Thébès ..., Op-Cit , pp. 74 -75 .

الكلمة "عم" في العربية، ويستنتج من ذلك أن القصد منها هو الساميين⁽¹¹⁷¹⁾، كما تعني "بدوي" أو "آسيوي"، أي سكان الشمال الشرقي بما فيهم شمال الجزيرة العربية⁽¹¹⁷²⁾.

و من التسميات التي أطلقت على جنوب فلسطين تسمية "كنعان"، وهي تطلق على الشعب والمنطقة في آن واحد، وتعني المنطقة السورية - الفلسطينية بين المتوسط وأنهار: "أورونت" « oronte » والأردن من الشرق، إن لفظة "كنعان" هاته كانت تظهر في المصادر المصرية والعراقية خلال الألف الثانية ق.م، ثم إستعملت بصورة واسعة في التوراة والتي تدل على شعب عرف قبل الإسرائيليين⁽¹¹⁷³⁾. وهذه التسمية على ما يبدو قد ظهرت في الوثائق الرسمية للدولة الحديثة، حين تذكر البلدان التي أخضعها الحكام المصريون ويعنون بها فلسطين وتحديدًا جنوبها⁽¹¹⁷⁴⁾. أما تسمية فلسطين فهي تحريف لكلمة "فلسطين" المستمدة من قبيلة "فليسية" Philistin التي إستقرت في جزء من أرض كنعان على ساحل البحر المتوسط⁽¹¹⁷⁵⁾. أي أنها تسمية متأخرة تعود إلى القرن الثاني عشر ق.م.

من خلال ما أوردته من تسميات ألاحظ بأنها كانت متعددة، و هو دليل واضح على معرفة المصريين الجيدة بتلك المنطقة و الروابط التجارية المستمرة بينها وبين مصر، مثلما كانوا يعرفون مناطق سواحل مدرجات الأخشاب التي هي بدورها أطلقوا عليها تسميات متعددة كما ذكرت في الفصل الثالث. بالإضافة إلى ذلك، فإن المصريين كانوا يطلقون على شعوب جنوب فلسطين و منطقتهم إسم مميز في كل مرحلة من مراحل العصر الفرعوني، و لو أن هناك تسميات ظلت تتداول طيلة هذا العصر، و هو أمر يعكس تعدد شعوب تلك المنطقة التي كانت تعرف من حين إلى آخر إستقرار جماعات جديدة بها.

المطلب الثاني : العلاقة التجارية بين مصر وجنوب فلسطين

عرفنا من خلال البعثات التجارية في البحر المتوسط إلى موانئ الساحل الآسيوي أنه كانت تجلب من هناك منتجات آسيا الغربية، إلا أن هناك ممر بري يؤدي إلى الآسيويين و إلى أرض كنعان وهو برزخ يمر بالمنطقة الصحراوية على طول 120 كلم ولو أنه يشكل حاجزا من الرمال بين مصر والآسيويين إلا أنه يمكن اجتيازه بالقرب من الساحل والذي كان يعد طريق القوافل البرية التي تدخل مصر، وبذلك كانت مصر تحصل أيضا عبره على منتجات البلاد الخلفية (ما وراء السواحل) منها: ذهب، حديد، أحجار كريمة، أخشاب البناء، و أقمشة صوفية، ومن جهتها كانت مصر ترسل إلى هناك أشياء مصنعة، أثاث، أسلحة، و مجوهرات، المطلوبة بكثرة نتيجة لتفوقها فيها وتقنياتها العالية التي تصنعها ورشات الدلتا، وكانت هذه التجارة تجتاز سوريا والمناطق الصحراوية عبر القوافل على ظهور الحمير، و هي السلع التي كانت تنقل في نفس الوقت عبر الطريق البحري - كما مر بنا -

كما كانت منتجات الجزيرة العربية تدخل مصر من تلك المنطقة، وكان الوسيط التجاري فيها هو "مدین" حيث كان الطريق من جنوب الجزيرة إلى شمالها يمر بها، و بالتالي فقد كانت تعقد صلات تجارية مع شبه الجزيرة العربية، سيناء، وادي النيل وخاصة الدلتا، وبالتالي علاقات مع فلسطين.

و شكلت السهول الفلسطينية والشعوب المستقرة فيها وسطاء بين مصر وبلدان "أورونت" عبر سهل "سارو" من جهة، ومن جهة أخرى كانوا يشكلون وساطة بين مصر وأراضي الدجلة و الفرات منذ عصور ما قبل الأسرات، حيث كانت بعض المواد تنتقل بين الطرفين بفضل أولئك الوسطاء⁽¹¹⁷⁶⁾، و كانت القوافل هناك تكثر الذهاب والإياب بين مصر و مناطق الحضارة الكلدانية عبر سوريا وبلاد ما بين النهرين، ومن الممكن عبر الطريق الأقصر مسافة إنطلاقا من الصحراء إلى غاية "أور" و "بابل"، وكانت تحمل ثروات آسيا الصغرى من المعادن: النحاس، الرصاص، الحديد، وأيضا الأخشاب، وكل هذه الثروات كانت تستغل خلال كل العصور القديمة⁽¹¹⁷⁷⁾.

1171 () - عبد المنعم عبد الحليم سيد، البحر الأحمر...، المرجع السابق، ص. 401.

1172 () - حتي وآخرون، تاريخ العرب...، المرجع السابق، ص. 41.

1173 () - Moscati et Napoli, Phéniciens et Grecs..., Op-Cit, p. 7.

1174 () - J. Boulos, les peuples et les civilisations..., Op-Cit, p. 38.

1175 () - K.A. Kitchen, Op-Cit, p. 83.

1176 () - G. Dykmans, Op-Cit, t. 2, p.280.

1177 () - V. Bérard, les Phéniciens ..., Op-Cit, p.109.

إن قدم هذه المبادلات التجارية وإستمرارها يدل على أن شعوب فلسطين كانت لها حضارة متقدمة وثرى من خلال موقعها المتميز على طرق القوافل، حيث كانت قوافلها تسير بإستمرار إلى مصر (1178). وأيضاً لأن مصر كانت تعتبر المنفذ لها من المجاعة والموت الأكيد في حالة تدهور محصولاتها الزراعية، فكانت أهم ما تأخذه من أرض مصر وهي عائدة الغلال وخاصة القمح. لدرجة أن البعض إعتقد بأن حفر قناة بين النيل والبحر الأحمر لم يكن لها هدف آخر سوى تسهيل نقل الحبوب إلى هناك (1179)، بل إنها كانت الملجأ لهم في مثل تلك الأوقات العصيبة، وكان يسمح للجماعات المهاجرة منهم بالإستقرار عند الحدود، والأدلة على ذلك كثيرة منها تقرير موظف الحدود في عهد الملك "مرنبتاح" و مما جاء فيه قوله: « أنه سمح لقبائل البدو بالدخول إلى الدلتا الشرقية، ليظلوا أحياء ولتظل ماشيتهم حية » (1180).

ومن الشعوب التي كانت تدخل قوافلها إلى مصر هي قوافل "الأراميين" الذين إشتهروا بالتجارة، وكانت قوافلهم تصل إلى كل الاتجاهات ومنها مصر، حيث كانت تأخذ منتوجات مصر والمنتوجات التي تصلها من التجارة الإفريقية، وكانت تحضر لها في المقابل منتوجات المناطق الأخرى أي أنهم كانوا وسطاء بين مختلف الشعوب القديمة بما فيهم مصر (1181). وبالطبع كان من بينها شعوب جنوب فلسطين الذين كانوا يشكلون مزيجاً من شعوب كثيرة و ليس الكنعانيين فقط، و التي إتضح دور وساطتها في التجارة المصرية منذ الأسرات الأولى إذ عملت على ربط سكان النيل بآسيا في الشمال، و مع آرام (aram) و الدولة الكلدانية في الشرق، ومع البلاد العربية في الجنوب (1182)، فقد كانت تجلب إلى مصر خلال هذا العصر أي بداية الأسرات، إضافة إلى الأخشاب مواد أخرى تقتقر إليها مصر ومتوفرة في الشمال الشرقي وهي الزيت والراتنج، والذي كان يحمل في أواني عثر عليها في مصر، وهي ذات صناعة إنتشرت في كل من فلسطين وسوريا، والتي أتيت على ذكر بعض منها في المدخل.

فهؤلاء التجار كانوا يأتون خلال الدولة الوسطى، و هو ما تكشف عنه مناظر مقبرة "خنوم - حوتب"، التي تظهر قبائل سامية رفيعة زعيمها وهم يجرون حميرهم معهم، و يبدوون كأنهم هجرة منظمة لما تظمنته هذه القبائل من نساء و أطفال (1183). لأن العلاقات التجارية مع أرض كنعان قد نشطت من جديد خلال هذه الدولة، و هذا راجع للحمالات التي قادها ملوك مصر من أجل تأمين الطرق التجارية، ويقول "دروزة" عن تلك الحركة التجارية النشطة: « قويت الصلات بعد ذلك (بعد حملات سنوسرت الثالث) بين مصر وبلاد الشام وإنتظمت ونشطت حركة التجارة بين البلدين وكانت القوافل تسير في طريق الكرمل وفلسطين » (1184)، وبذلك كان الطريق مفتوحاً أمام التبادلات التجارية خلال الدولة الوسطى و أيضاً في وجه تنقل الجماعات في الإتجاهين، مثلما جاء في قصة "سنوحي" التي تكشف لنا عن إستقرار مصريين هناك ومن بينهم هو (1185)، كما أن القرآن الكريم من خلال قصة - يوسف عليه السلام - ، يذكر مثل تلك الإقامة السلمية لبعض الشعوب الفلسطينية في مصر و لو أنها كانت في زمن الهكسوس، وجاء في قوله تعالى: ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ (1186)، وهو ما يدل على أن العلاقات التجارية الوطيدة كانت تتلوه إيواء جماعات تكون بحاجة لمساعدة.

و كانت علاقات مصر مع مدن الرمال نشطة خاصة مع "مجبذو" التي لها موقع هام، فهي تقع عند منفذ مضيق "كرمل" شمال غرب "سماري" (samarie)، وقد كان "سنوسرت الثالث" يرسل سفراءه منهم "حوتبحوتب" (djehoutihotep) إلى بلاد "مجبذو"، كما كان لمدن أخرى مثل "تدمر" (بالميرا) دورها في تاريخ مصر في وقت لاحق (1187).

1178 () - محمد عزة دروزة ، تاريخ موجات الجنس العربي ...، المرجع السابق ، ص. 60.

1179 () - D.M.J. Henry , Op-Cit , p. 458.

1180 () - محمد بيومي مهران ، دراسات تاريخية ...، المرجع السابق ، ص. 95.

1181 () - محمد عزة دروزة ، المرجع السابق ، ص. 294.

1182 () - V. Bérard, Op-Cit , p. 101.

1183 () - أحمد فخري ، مصر الفرعونية ... ، المرجع السابق ، ص. 229.

1184 () - محمد عزة دروزة ، المرجع السابق ، ص. 107.

1185 () - نجيب ميخائيل إبراهيم ، مصر و الشرق الأدنى...، المرجع السابق ، ص. 83.

1186 () - سورة يوسف : آية 99.

1187 () - C. Lalouette , Thébès ... , Op-Cit , p. 74.

إن الأسرة الثانية عشرة تجاوزت إتصالاتها مناطق الجوار القريبة منها إلى مناطق أبعد، بعقد صلات مع بلاد ما بين النهرين والتي هي أرض لم تكن مجهولة للمصريين، بل كانت لهم صلات معها منذ أزمنة بعيدة(1188)، وبالطبع فإن الوسيط بينها هو شعوب جنوب فلسطين.

ولم تنقطع المبادلات التجارية بين مصر وفلسطين بعد الدولة الوسطى، بل إستمرت خلال مرحلة الهكسوس، فمخلفات هذه المرحلة وجدت في مناطق عديدة بسوريا وفلسطين(1189).

أود أن أشير إلى أن العلاقات التجارية بين المنطقتين قد ميزتها تجارة العبيد، والتي كان يتعاطاها على وجه الخصوص الإسماعيليون الذين كانوا يترددون على مصر، والذين كانوا يجلبون لها التوابل والعطور التي كانت تستخدم في الديانة وفي نفس الوقت في الوصفات الطبية وفي التحنيط، والدليل على تعاطيهم تجارة الرقيق هو بيعهم ليوסף الصديق الذي إشتراه منهم رئيس شرطة الحدود والذي يدعى "فوطيفار"(1190)، وتأكيدا لذلك فقد جاء في الآية الكريمة: ﴿ وقال الذي إشتراه من مصر لإمرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا... ﴾ (1191).

ويبدو أن تجارة الرقيق هاته والتي لعبت شعوب جنوب فلسطين دورا وسيطا مهما فيها، لم تكن حالات منعزلة بل كانت تجارة منظمة و لم تقتصر على مرحلة محددة ، وفي هذا يقول " محمد بيومي مهران " : « كانت تجارة الرقيق من البنين و البنات الآسيويين تلقى يومئذ رواجاً دل عليه ما كشفت عنه بردية في متحف "بروكلين" بالولايات المتحدة الأمريكية فقد جاء فيها ذكر ما يربو على أربعين أسويوا من نيف وثمانين، كانوا يعملون خدما في بيت واحد من عصر الأسرة الثالثة عشر قبل مجيء الهكسوس ». وحسب رأيه لا يمكن تفسير ذلك العدد الكبير على أنهم أسرى حرب لأن الظرف لم يشهد حروبا(1192). وأضيف إلى رأيه بأن تلك الأسرة كانت أسرة ضعيفة، فلو حاولنا معرفة عدد العبيد خلال الأسرات القوية فكيف ستكون المفاجأة؟. و قد وجدت نصبا جنائزية عديدة خلال الدولة الوسطى تذكر نساء آسيويات كن عبيدا لأسيادهن المصريين(1193).

هذا وكان المصريون منذ العصور القديمة بحاجة إلى مادة "اللادن"، وهو راتنج مصدره شجرة "اللادن" التي تنمو على شواطئ البحر المتوسط، وكان يتاجر فيه التجار الذين إشتروا يوسف عليه السلام، كما كانت مصر بحاجة إلى حجر الكحل الذي أدى إلى تطور سريع لتجارته وتجارة منتوجات التجميل، وهذه المادة كانت تجلب في الأصل من آسيا الصغرى، وكان الكنعانيون هم الوسطاء في ذلك، وكان المصريون يضيفون إليه أصباغا حمراء لأجل تجميل العيون(1194).

ومن خلال ما أحضره إخوة يوسف -عليه السلام- تأكد بأن القوافل كانت تجلب لمصر الصوف وربما ملابس صوفية(1195). وقد تميزت التبادلات بين الطرفين خاصة في الأزمنة الأقدم بأنها كانت تتم مع التخوم، وهذه المناطق كان يتبادل فيها منتوجات وادي النيل بالخمير وزيت الزيتون، وهناك كان المصريون يلتقون بأصحاب القوافل السورية، الذين كانوا يضمنون الروابط مع بلدان "أورونت" عبر سهل "سارو"(1196)، و على الرغم من أن العلاقات التجارية بين مصر وفلسطين وسوريا كانت تتم أساسا عبر البحر، فإن خدمة القوافل للتجارة المصرية كانت هامة، حيث كانت القوافل الفلسطينية تجلب بصورة منتظمة "الراتنج" (صمغ الصنوبر resines) و التوابل ومعادن مثل "ملاشيت".

و يصور لنا مؤلف كتاب " توت عنخ آمون " قوافل شعوب جنوب فلسطين خلال الدولة الحديثة بأنها كانت تتردد على مصر بصفة مكثفة، إذ كانت الطرق داخل البلاد تعج بحركتها، و يرى بأن أفرادها كانوا يتكلمون بلغات عديدة مما يدل على أنهم كانوا شعوبا مختلفة، وسمة الثراء بادية عليهم من خلال ما كانوا يلبسونه من أثواب ذات ألوان متعددة(1197). إن ذلك يدل على أن تجارة القوافل زمن هذه الدولة كانت حركتها نشطة جدا

1188 () - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 179.

1189 () - E. Hornung , lecture de l'histoire égyptienne , Op-Cit , p. 87.

1190 () - محمد بيومي مهران ، دراسات تاريخية...، المرجع السابق ، ص. 94.

1191 () - سورة يوسف : آية 21.

1192 () - محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص. 104.

1193 () - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 689.

1194 () - E. Samhaber , histoire du commerce , Op-Cit , p. 25.

1195 () - محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص. 81 .

1196 () - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p. 280

1197 () - ن. ي. تاريخ توت عنخ آمون ، المرجع السابق ، ص. 50.

لأنها كانت تنقل الثروات من المناطق الأبعد إلى مصر⁽¹¹⁹⁸⁾، لأن ارتباط مصر بآسيا كان وثيقا آنذاك، فإضافة إلى ارتباطها بموانئها نجد الصلة قوية مع المدن التي تحاذي الطرق التجارية الممتدة من "مجدو" إلى غاية مملكة "ميتاني" (1199).

وكان الطريق البري الموازي للطريق البحري الذي يجتاز برزخ السويس، تعبره القوافل في حركة دائمة، وهي محملة بأقمشة سوريا، و التوابل، الأخشاب العطرية، الأسلحة وأواني من فينيقيا وآلاف الأشياء الأخرى، كما وطدت قوافل الفلسطينيين العلاقات التجارية بين مصر و كل من الحيثيين و البابليين للعبها دور الوساطة بين الطرفين، فكانت سلع تلك الشعوب تدخل إلى جنوب فلسطين لتأخذها شعوب هاته المنطقة إلى مصر⁽¹²⁰⁰⁾.

وقد تميز عصر الدولة الحديثة نتيجة لنشاط التجارة المتزايد مع جنوب فلسطين بإمدادنا بتفاصيل أكثر عن المواد التي كانت تدخل مصر بل وحتى عن مقاديرها، و من بين تلك المواد نجد العاج واللبن، والأخشاب العطرية، ورغم أنها كانت تدخل مصر من الممالك الإفريقية إلا أنها كانت تصلها عبر القوافل من بلاد "ريتينو"، كما كانت تأتي أنواع مختلفة من حجارة "اللازورد" من بلاد آشور وبابل وقبرص وبلاد الحيثيين و دائما عن طريق جنوب فلسطين، و رغم أن النحاس كان يجلب من قبرص إلا أنه كان يدخل أيضا مع القصدير من جنوب فلسطين، ففي السنة الواحدة والثلاثين و السنوات التالية من حكم الملك "توتمس الثالث" كانا يأتيان من "ريتينو"، كما كان يدخل من نفس المنطقة الذهب، ففي السنة الثالثة والثلاثين من حكمه جاءت كمية منه تقدر بـ: 45 "دين" وفي السنة الرابعة والثلاثين جاءت كمية 55 "دين" كما كانت هذه المنطقة تزود مصر بفضة بلاد ما بين النهرين، ففي السنة الـ 39 من حكمه جلبت من هناك 495 دين من هذا المعدن، ولم تكن الأشياء المصنعة التي تجلب كل سنة من الذهب والفضة والنحاس في شكل مزهريات وأكواب فقط، بل أيضا هناك موائد من خشب وأحذية مرصعة بالعاج زيادة على المصنوعات الحربية، منها الدروع والرماح المصنوعة من البرونز وأقواس، ومختلف أسلحة الحرب وغيرها كثير⁽¹²⁰¹⁾.

وخلال زمن الدولة الحديثة دائما فإن العبيد رغم أنهم كانوا يدخلون مصر كغنيمة حرب إلا أنهم كانوا يدخلونها أيضا من خلال التجارة، وهناك ذكر لهم في مناطق عدة، و كانوا موزعين على كل إمتداد البلاد من قبل رئيس كتاب الملك، و كانوا يسجلون كعبيد أرض (الرق)⁽¹²⁰²⁾.

وهناك مشهد يعود إلى عصر الملك "توت عنخ آمون" يصور لنا تجارة العبيد من قبل الآسيويين في مصر، وذلك المشهد يمثل تاجرا بجوار أحد المعابد في عاصمة البلاد وهو في حالة أخذ ورد مع رجل آسيوي، الذي كان يرغب مزايا وصفات فتيات لمجموعة من الناس وقفوا من حوله⁽¹²⁰³⁾. وخلال عصر هذا الملك دائما هناك مشاهد تمثل كبار "رتينو" الذين كانوا يأتون على رأس موكب بمحاصيلهم المختلفة التي كانت تقدم إلى الملك⁽¹²⁰⁴⁾.

أما خلال الألف الأولى ق.م، و هو زمن تراجع التجارة المصرية في البحر الأحمر، أصبح النبي سليمان يمسك بزمam مراقبة الطريق التجاري في هذا البحر باتجاه البحر المتوسط⁽¹²⁰⁵⁾. وبذلك كان مسيطرا على التجارة الدولية بعد أن كانت تلك السيطرة تحتكرها مصر، و مكنه ذلك من أن يلعب دور الوسيط في تجارة ذلك البحر مع مصر.

هكذا كانت شعوب جنوب فلسطين قد لعبت دور الوسيط التجاري في تجارة العصر الفرعوني بدرجة لا تقل عن أهمية وساطة الشعوب المجاورة الأخرى من جنوبيين أو ليبيين، و كان دورها لا غنى عنه خاصة و أنه كان متواصلا نتيجة لتعاطيها تجارة متنوعة و أساسية لمصر، وفي المقابل كان ارتباط تلك الشعوب مميزا بتجارة مصر لحاجتهم الشديدة لمحاصيل مصر الزراعية و على رأسها القمح.

المبحث الرابع : الفينيقيون

C. Lalouette , l'Empire... , Op-Cit , p. 157. – () 1198

B. Manley , Op-Cit , p. 64. – () 1199

J.H. Breasted , histoire de l'Egypte..., Op-Cit , pp. 191, 348. – () 1200

C. Lalouette , Thébès..., Op-Cit , p. 306. – () 1201

J.H. Breasted , Op-Cit , p. 350. – () 1202

1203 – () ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 50.

C. Desroches - Noblecourt , vie et mort d'un Pharaon..., Op-Cit , p. 206. – () 1204

J. Pirenne , Y'eut-il des foires... ?, Op-Cit , p.21. – () 1205

لم يقتصر دور الوسطاء في تجارة العصر الفرعوني على الشعوب المتاخمة لمصر والواقعة على منافذها البرية، بل تعدى ذلك إلى شعوب أخرى فصلت ما بينهما البحار، وهي الشعوب التي عرفت في العالم القديم كقوى تجارية عظيمة، ومنها الشعب الفينيقي، ففي ماذا تتجلى بصمات الفينيقيين في التجارة المصرية؟ على الرغم من أن الدولة الحديثة كانت في بداية عهدها قد وصلت في غزواتها الخارجية إلى غاية بحر "إيجا" و "كريت" و "قبرص" إلا أن هذه الإمبراطورية سعت إلى توسيع شبكة مواصلاتها البحرية، وبالتالي إزدادت روابطها بدول العالم القديم، وشهدت موانئها حركة دؤوبة لسفن الشعوب الأخرى ذهابا وإيابا محملة بالمنتجات التي تقوم بمبادلتها مع السلع المصرية⁽¹²⁰⁶⁾. لكن القوة التجارية المصرية ما لبثت أن تراجعت مع بداية القرن الحادي عشر، وهو ما تكشف عنه الرسائل التي كان يوجهها ملك "جبيل" للملك "أخناتون" طالبا منه النجدة، وهذا الأخير لم يكن في حالة تسمح له فيها بتلبية الطلب، وهو ما انعكس سلبا فيما بعد على العلاقات التجارية بين الطرفين عندما ذهب المبعوث "أونامو" لطلب الأخشاب من هناك خلال الأسرة التاسعة عشر⁽¹²⁰⁷⁾، لدرجة أن البعض يرى بأنه لم يسافر في مركب مصري رسمي، بل على متن مركب سوري، وخلال سفره تعرض لسرقة جزء كبير من ماله، وعندما نزل بمرسى "جبيل" لم يستقبله أحد، ورفض الملك "زكر بعل" إستقباله وظل يعاني مدة طويلة قبل حصوله على الأخشاب⁽¹²⁰⁸⁾، وقصة "أونامو" تصور لنا ظروف التجارة المصرية في ذلك العصر، و التي كتبت حوالي 1070 ق.م، ظروف أصبحت فيها صيدا جد قوية، و التي أخذت مكان "جبيل"، و أصبحت المسيطرة على كل المدن الساحلية⁽¹²⁰⁹⁾. على كل فإن كانت مصر قد تدهورت كقوة تجارية فإننا نجد سفن التجار الأجانب تدخل مصر بحرية منذ الدولة الحديثة، منها المراكب الفينيقية التي كانت تصعد النيل إلى غاية العاصمة "طيبة"⁽¹²¹⁰⁾.

وإزدادت حركة التجار الأجانب خلال العصر الأسفل، حيث نجد أمراء العصر "الصاوي" أي منذ القرن الثامن ق.م، كانوا قد تفتنوا لأهمية التجارة مع البلدان الأجنبية، ففتحو مصبات النيل أولا أمام المراكب الفينيقية والتجار الساميين، بعد ذلك إلى البحارة والتجار الإغريق، "المليزيين" (Milésiens) بصورة خاصة⁽¹²¹¹⁾، وهذه الحقائق تفند رأي هيرودوت الذي إعتقد بأن الإغريق هم أول الشعوب ذات لغة مختلفة التي سكنت مصر⁽¹²¹²⁾.

كما تزعم الفينيقيون الملاحه في البحر الأحمر بعد أن ضعفت قوة مصر التجارية فيه، وقد أتاحت لهم الفرصة في عهد الملك سليمان، ولو أنه يرجح أنهم عملوا بالتجارة فيه قبل ذلك بقرون، وهكذا كان الفينيقيون يتاجرون في البحر الأحمر لحساب الملك سليمان، بل أن الأمر تجاوز ذلك، وقد كان لهم أسطولا مستقلا يتاجر مع أسطول سليمان ويجلبون ذهب "أوفير" إنطلاقا من ميناء "عصيون" قرب أيلة الحالية⁽¹²¹³⁾.

و كانت "صور" تتزعم تجارة الساحل الفينيقي، و كان زمن قمة توسع تجارتها خلال القرنين التاسع والثامن ق.م، حيث كانت بحريتها التجارية تشمل مصر و الجزيرة العربية، وأصبحت الأساطيل الفينيقية تجلب خيرات "أوفير" المتمثلة في: العاج، الذهب، القرده و الطواويس⁽¹²¹⁴⁾. وهي بالطبع نفس السلع التي كانت تحتكرها مصر في ذلك البحر.

المطلب الأول : الجالية التجارية الفينيقية في مصر

إن الفينيقيين من خلال رحلاتهم التجارية كانوا قد أنشأوا مستعمرات تجارية أو بالأحرى محطات تجارية، فكانت نقاط إستراتيجتهم ويتزودون منها بما يحتاجونه في رحلاتهم، وتطورت لتصبح مكان مبادلات تجارية بينهم وبين من كان يقطن تلك المناطق، بل إن الأمر تجاوز ذلك الحد لتكون لهم جاليات مستقرة في مناطق مهمة تعمل على تنظيم التجارة بينهم وبين الطرف الآخر، فكانت لهم جالية تجارية في الموانئ الفلسطينية، ولو أن هذه الموانئ هي قليلة بهذه المنطقة و التي وجدت بغزة وتحديدا بالعريش التي كانت تسمى

1206 () - محمد الخطيب، مصر أيام الفراعنة، المرجع السابق، ص. 142.

1207 () - F. Daumas, la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit, p. 585.

1208 () - A.E. Maithand, les premiers marchands..., Op-Cit, p.24.

1209 () - C. Desroches - Noblecourt, Op-Cit, p. 206.

1210 () - J. Pirenne, le statut de l'étranger..., Op-Cit, p. 94.

1211 () - H. Gauthier, Op-Cit, p. 240.

1212 () - S.D. Methuen, race-relations in Ancient Egypt..., Op-Cit, p. 18.

1213 () - جورج فضلو حوراني، العرب و الملاحه ...، المرجع السابق، ص. 33 - 34.

1214 () - W. Culican, le levant et la mer ..., Op-Cit, pp.77- 78.

(ينوكولورا) ، أما أهم جالياتهم التي وجدت بـ: " منف " ، وهذه الجاليات تنامت وأصبحت في كثير من مناطق البحر المتوسط الأخرى محطات تجارية⁽¹²¹⁵⁾، بل إن موضوع الجاليات الفينيقية في مصر يعود إلى عصر أقدم من ذلك بكثير ، حيث كانت المدن الصناعية بالدلتا تجلب الملاحين السوريين قبل بروز العصر الفينيقي مثلما كانت مناطق فينيقيا تستقطب في السابق المغامرين المصريين وتغريهم بحفيف غاباتها⁽¹²¹⁶⁾.

والمؤكد أن الجالية الفينيقية قد أقامت في مصر إقامة دائمة منذ فترات جد قديمة، و كانت متكونة أساسا من تجار الذين برزوا بوضوح وازداد نشاطهم وعددهم ابتداء من الدولة الحديثة، حيث كان هناك سوريون يأتون بكل حرية للإقامة في المدن المصرية لتعاطي التجارة ولفتح بنوك ومستودعات⁽¹²¹⁷⁾. فوثائق الدولة الحديثة وخاصة منها التي تعود إلى زمن الملك " توت عنخ آمون " تصور لنا محلات لتجار فينيين بالقرب من مرفأ رسو السفن القادمة من بلاد فينيقيا و ذلك في العاصمة " طيبه"، وكانت هناك محلات لهؤلاء التجار القادمين من تلك السفن يعرضون فيها بضاعتهم المختلفة ، وكانت هذه المحلات أو المتاجر في شكل مظلات تصنع من الخشب⁽¹²¹⁸⁾.

و هكذا فإن الفينيقيين لم تقتصر إقامتهم على مدينة واحدة بل تواجدوا في كل المدن المصرية الهامة، حيث كانت توجد أحياء خاصة بالتجار الفينيقيين والسوريين على إثر الحركة التجارية التي جاءت نتيجة لأعمال " رمسيس الثاني " في كل من مدينة " منف" و "رعسيس" وغيرهما من المدن ، بل أن العلاقة بين هذه الجاليات والمصريين كانت قوية ويبدو أنه كانت لهم مكانة كبيرة لدى ملوك وفراعنة مصر ، لدرجة أن " رمسيس الثاني " زوج أحد أبناءه من ابنة ضابط بحري سوري وقد قوي بذلك مركز هذا الأخير و وصل إلى مناصب مهمة في القصر الملكي وإدارته⁽¹²¹⁹⁾.

وبالتالي لم يعيش الفينيقيون في مصر منزولين بل أن دورهم تعدى الهدف الذي جاؤوا من أجله إلى دورهم في الشؤون الإدارية للبلاد، وقد كانوا فئة مميزة في المجتمع المصري، فقد كانت تقيم في أحياء خاصة بها ، وهو ما تمدنا به النصوص المصرية القديمة عن أخبارها والتي إنتشرت على مختلف مراحل العصر الفرعوني وفي مختلف عواصمه⁽¹²²⁰⁾.

فهذه الوثائق تخبرنا أيضا بأن هذه الجاليات كانت قد وصلت إلى حاشية الملك "رمسيس الثالث"، ثاني ملوك الأسرة العشرين ، الذي حاول إرجاع سيادة مصر التجارية في العالم القديم بعد الاضطرابات التي شهدتها في أواخر الأسرة التاسعة عشر لذلك نجده يعتمد كثيرا على السوريين الذين أصبحوا ضمن حشايتهم وذوي نفوذ قوي⁽¹²²¹⁾، أي أن العلاقة بين المصريين والفينيقيين ظلت عبر العصور علاقة تجارية، فكما كانت هذه العلاقات جد نشطة خلال زمن البعثات المصرية، فإننا نجدها قوية خلال عصر مدينة "صور" (مرحلة التوسع الفينيقي)، وكان للصوريين بـ: " منف " حي خاص بهم، لكن في هذا العصر أصبحت العلاقة في الإتجاه المعاكس من الساحل الفينيقي إلى مصر.

و يقول " هيرودوت" عن هذا الحي الصوري : «تولى الحكم من بعده - حسب قولهم - رجل من "ممفيس" يسمى باللغة اليونانية "بروتوس" له في "ممفيس" حرم جميل جدا حسن الزينة، يقع إلى الجنوب من معبد "هيفايستوس"، يقيم حول هذا الحرم فينيقيون من "صور" ويسمى هذا الحي كله معسكر الصوريين»⁽¹²²²⁾. وقد أثبت قول هيرودوت هذا فخار أحمر عثر عليه في أماكن مختلفة من دلتا مصر يعود إلى الفينيقيين⁽¹²²³⁾.

و يعطي البعض تحديدا زمنيا لبروز مستعمرات للتجار الكنعانيين و السوريين بمصر على أنها قد أنشئت منذ زمن الفرعون "أمينوفيس الثاني" (1415-1440 ق.م)، و الدليل على ذلك وجود قطع من الفخار تحمل أسماء

1215 () - محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص. 16 .

1216 () - G. Dykmans , Op-Cit , t. 1 , p. 228 .

1217 () - J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 227 .

1218 () - ن. ي. ، المرجع السابق ، ص. 156 .

1219 () - محمد عزة دروزة ، المرجع السابق ، ص. 113 .

1220 () - أنور الرفاعي ، المرجع السابق ، ص. 18 .

1221 () - محمد عزة دروزة ، المرجع السابق ، ص. 114 .

1222 () - هيرودوت ، فقرة. 112 .

1223 () - Moscati et Napoli , Op-Cit , p. 20 .

أجنبية، كما أنه أثناء حكمه توسعت التجارة و توسع إنتشار ديانة آلهة كنعانية(1224)، وهو ما يدل على تواجد الفينيقيين في عديد مدنها، منها مستعمرة فينيقية وجدت على الفرع " الكانوبي" للدلتا وكان بها معبد كرس لعبادة الإله " مالفارت الفينيقي " والذي يقول عنه هيرودوت: «... وإلى ما يسمى الآن" بفرع النيل الكانوبي" والملاحات وكان يوجد على الشاطئ – ومازال موجودا حتى الآن – معبد لـ "هيراكليس"»(1225).

وكتحديد أدق لتلك المستعمرة الفينيقية فهي تقع على مصب قناة تمتد من الإسكندرية إلى غاية الفرع الكانوبي للنيل، و في الواقع أن معبد تلك المنطقة كان للإله آمون ، لكن الكلاسيكيون كسترابون و ديودور و هيرودوت إعتبروه معبد " هيراكليس "(1226)، ويرى البعض أن مدينة "نقراطيس" كانت مستعمرة فينيقية ودليلهم في ذلك العثور بها على معبد " لأفروديت " أي " عشتاروت" يعود إلى عام 688 ق.م(1227)، ولو أن المعروف عن هذه المدينة أنها كانت مستعمرة إغريقية إلا أنه من المحتمل أنها كانت تحوي الفينيقيين و الإغريق أو أنها كانت في البداية للفينيقيين ثم تحولت إلى الإغريق فيما بعد.

و من بين المراكز التي إرتبط إسمها بالملاحين الفينيقيين نجد " تانيس " خاصة خلال زمن الأسرة الواحدة و العشرين (القرنين الحادي عشر و العاشر)، و قد كانت تلك المدينة عاصمة لها ، و هذا من خلال ما جاء في وثيقة " أونامو" الشهيرة ، التي ذكر فيها بأن تلك المدينة كانت تستقبل كل سنة 10.000 مركب من ميناء صيدا لوحده ، وهو ما يفهم منه بأن تجارا فينيقيين كانوا قد إستقروا في هذه العاصمة الإقتصادية و قاموا بدور الوساطة مع الموانئ الفينيقية و حتى قبل ذلك الزمن بقليل(1228). و لو أن ذلك الرقم مبالغ فيه ، فإنه يمكننا أن نتصور كم كانت الحركة التجارية نشطة بين الطرفين حتى زمن تدهور قوة مصر ، و بالتالي كم كانت هذه الوساطة مهمة في إستمرارية تحريك الدورة الإقتصادية آنذاك، المبنية أساسا على المعاملات التجارية ، و إذا كانت هذه الوساطة قد عوضت دور مصر التجاري فإننا ندرك بأن هذا الدور كانت تلعبه مصر أيام قوتها ، وكم كانت الحركة التجارية دؤوبة. فمحطات إستقرار الفينيقيين هاته و التي طبعت بحضارتهم وديانتهم ومحافظتهم على مميزاتهم الخاصة بهم كلها دلائل على حركاتهم التجارية الهامة مع مصر، وما مدى الثراء الذي كان يعود عليهم من جراء ذلك النشاط الذي جعلهم يتمتعون بمكانة خاصة.

المطلب الثاني: وساطة الفينيقيين في تجارة مصر

كل ما ذكرته عن الفينيقيين يشير بما لا يدعو مجالا للشك إلى وساطتهم في تجارة مصر، وهذه الوساطة يمكن تتبعها إبتداء من عصر "جبيل"، هذه المدينة كان لها دور كوسيط بين آسيا ومصر وهو أمر ليس بمبالغ فيه لأنه يتضح من خلال أوجه عدة. فهذه المدينة وكل مناطق الساحل السوري (دون أن نهمل جنوب فلسطين) كانت الوسيط بين مناطق النيل والفرات منذ عصر ما قبل الأسرات. لأن مدن "سومر" و "بابل" لم تكن تستطيع أن تعقد إتصالات مباشرة مع المتوسط ، و كان يحدث ذلك عن طريق باعة الساحل و الذين يشملون بدون شك باعة "جبيل".

فمدن الساحل السوري كانت عبارة عن وسطاء تجاريين بأتم معنى الكلمة وقد لعبوا هذا الدور مع مصر حيث كانوا يجلبون ما تزخر به حضارات آسيا الصغرى والعراق من مصنوعات متنوعة وغيرها من المنتجات إلى غاية سواحلهم البحرية، ومن هناك كانوا يصدرونها إلى مصر عبر طريقين : الأول وهو الطريق البري حيث يرسلونها في قوافل، والثاني و هو الطريق البحري وذلك بعد شحنها في السفن وكانوا يجلبون من مصر مقابل ذلك سلعا تشتهر بها هذه الأخيرة. كما كان المصريون أثناء فترات قوتهم لم يكونوا وحدهم الذين يتاجرون مع " جبيل" بل يقال بأن أمراء " جبيل " آنذاك كانوا بدورهم يرسلون أساطيلهم إلى مصر المحملة بالأخشاب(1229)، كما لعب الفينيقيون – كما يرى البعض – دور الوساطة بين مصر و الميسينيين سكان بحر إيجا ، الذين كانوا يجلبون سلعهم إلى غاية الشاطئ السوري، تاركين المجال للسوريين لنقلها إلى أماكن أبعد مثل مصر، وكانوا يجلبون من مصر أشياء يحتاجها سكان بحر إيجا(1230)، ولو أن ميزة التجارة المصرية كونها كانت تعرف إنقطاعا في فترات محددة لبعثاتها التجارية إلا أنه في الواقع لم تكن التجارة تتوقف

1224 () W. Culican , Op-Cit , p.44.

1225 () – هيرودوت ، فقرة ، 113.

1226 () – نفس المرجع ، ص. 232 .

1227 () – فيليب حتي ، المرجع السابق ، ص. 147.

1228 () J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte... , Op-Cit , p. 20

1229 () – محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص. 238 .

1230 () L. Casson , Op-Cit , p. 40.

بالمعنى المفهوم ، بل كانت الروابط التجارية تتواصل خلال فترات الانتقال خاصة بين الدلتا و " جبيل " و كانت هذه الأخيرة لها دور كبير في ذلك. و بالطبع فإن وساطة هذه المدينة و غيرها متأتية من كونها كانت عبارة عن سوق عالمية كبرى تصلها أغلب طرق الصحراء وتتجمع فيها منتوجات من كل نوع آتية من الشرق و إفريقيا و البحر المتوسط ، الذي كانت موانئه مركز نشاط لكل منتوجات القارات الثلاث للعالم القديم.

و عن أهمية دور الفينيقيين في التجارة المصرية تمدنا الوثائق المصرية بأفضل صورة عن مراكبهم ومدنهم وتجارهم في مصر أفضل من أي مصدر صادر عن الفينيقيين أنفسهم، ومن خلال فحص رسوم مقابر بمصر تبين مدى النشاط الكبير البحري والتجاري للفينيقيين، وحتى قبل أن يصبحوا تلك القوة العظمى، وكشفت التنقيبات التي أجريت في مقابر تؤرخ بين 1500-1200 ق.م عن دلائل أكيدة على نقل النحاس من قبل مراكب سورية إلى مصر (1231). وهو دليل على وساطتهم بين مصر وقبرص وغيرها من المناطق .

كما ساهمت أساطيل الساحل السوري بدور كبير حتى زمن قوة الدولة الحديثة ، حيث كانت تشارك بصورة موسعة في رخاء الإقتصاد المصري إذ كانت تشكل بالنسبة لملوكها قوة عسكرية حقيقية لم يترددوا في تسخيرها لنقل فرقهم، و أدوات الحرب ، و كانت مراكب هذا الأسطول التجارية تصعد النيل إلى غاية العاصمة " طيبة " (1232).

وهناك مشهد لحركة الميناء خلال القرن الرابع عشر يصور أسطولا جاء لتوّه، و مصدره واضح للعيان من خلال لباس وهيئة الربان والبحارة ، الذين كانوا يرتدون ثيابا طويلة مطرزة تصل إلى غاية الأقدام ولديهم لحية كثيفة لأنهم بدون شك ساميين من الساحل السوري (1233). وهناك أيضا مشاهد تعود إلى عصر الملك " توت عنخ آمون " تمثل تجارا فينيقيين عرفوا من خلال لحياتهم المجددة و كانت ترافقهم بضائعهم التي تشتمل أساسا على « أردية حمراء و مصنوعات رقيقة من ذهب » (1234). وخلال زمن الأسرة التاسعة عشر ، برزت إلى الوجود جمعيات من رجال أعمال سوريين فتحت بنوكا و حسابات جارية ، و كانت لها مكاتب في كل مكان و كانوا ممسكين بزمام التجارة الدولية (1235).

إن دور سكان الساحل السوري كوسطاء نجده قد ازداد وتضاعف خلال مرحلة تحولهم إلى قوة بحرية عظمى و عرفهم العالم بالفينيقيين، و بالطبع فإن مصر كانت القطب الحضاري الأكبر و الأقرب إليهم عبر الطريق البحري (1236)، فقد أنشئوا فيها مستودعات للسلع، و بالتالي كانت لهم فيها محطات تجارية قبل سيرهم إلى الساحل الليبي الذي كان لا يلائم نشاطهم لذلك وجهوه إلى الشمال، وهكذا فقد إحتكروا كل تجارة العالم القديم بما فيها تجارة مصر والتي أصبحت بين أيديهم وحدهم كما إحتكروا تجارة البحر الأحمر التي كانت بيد المصريين و كانوا هم الذين يوصلونها إلى فلسطين و مصر. وهكذا يقول " فيليب حتي " : « في العصور الفينيقية ... هاجر كثير إلى وادي النيل ... وكانت معظم العلاقات التجارية بيد الفينيقيين » (1237). لدرجة أن البعض يرى أنه بفضل الثروات التي كانت تتوجه إلى مصر في أساطيل مدن الساحل السوري من أسواقها العالمية هناك استطاعت الحضارة بوادي النيل الوصول خلال هذا العصر إلى درجة عالية من الترف والثراء وخير دليل على ذلك مقبرة " توت عنخ آمون " (1238).

كما يذهب البعض الآخر إلى القول بأن الوساطة الفينيقية حافظت على تزويد مصر بالأخشاب حين كانت تتوقف البعثات المصرية، وكانت تدخل الكمية الكبرى منها إلى مصر من بلاد فينيقيا، وهو ما تؤكدته إشارات تعود إلى العصر الصاوي، حيث كانت الوساطة الفينيقية بارزة بين مصر وسوريا الشمالية وآسيا الصغرى في تجارة الأخشاب (1239).

يبدو أن الأمر فيه شيء من المبالغة في إبراز دور الوساطة الفينيقية في التجارة المصرية لأن الفينيقيين لم يصلوا بعد إلى قوتهم البحرية خلال فترات توقف البعثات التجارية المصرية، وأن دورهم لا زال يقتصر على

1231 () - p. 23 , Op-Cit , E. Angelucci et autres , encyclopedie des navires ,

1232 () - p. 227 , Op-Cit , J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte...

1233 () - pp. 31 - 32 , Op-Cit , L. Casson ,

1234 () - ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 50 .

1235 () - p. 20 , Op-Cit , J. Pirenne , Y'eut-il des foires...?

1236 () - p. 10 , Op-Cit , Moscati et Napoli ,

1237 () - فيليب حتي ، المرجع السابق ، ص. 148 .

1238 () - p. 38 , Op-Cit , J. Boulos ,

1239 () - p.147 , Op-Cit , D. Maillat , les rapports des Grecs avec l'Egypte...

شرق البحر المتوسط، لكن ربما حدثت وساطتهم في تلك المادة خلال العصر الصاوي، إلا أن هذا القول يبقى خال من الدلائل التاريخية خصوصا وأنني لم أجد دليلا تاريخيا أو أثريا واحدا في ضوء ما حصلت عليه من معلومات يدل على أن الفينيقيين كانوا يجلبون الأخشاب ضمن بضاعتهم إلى مصر. كما أن ثراء مصر إضافة إلى كل ذلك لم يساهم فيه فقط الفينيقيون بل كان هناك دور لشعوب أخرى وعلى كل يبقى دور الفينيقيين هام ومميز.

المبحث الخامس : شعوب بحر إيجا

لم يكن الفينيقيون الشعب الوحيد الذي أنشأ إمبراطورية بحرية تجارية سيطرت على كامل البحر المتوسط، بل وجد شعب آخر ينتمي إلى جزر بحر إيجا وصل هو أيضا إلى تحقيق إمبراطوريته ولو أنه في الحقيقة لم يكن شعبا واحدا بل كان عدد من الشعوب سميت بشعوب بحر إيجا ، التي عاصرت مختلف مراحل مصر الفرعونية بما فيها من قوة وضعف وعلى يدها إنتهى العصر الفرعوني. وإن كانت العلاقات التجارية مع موانئ الساحل الفينيقي ومصر كانت واضحة لحد ما ولم يشبها كثير من الغموض والتناقضات فإن المسألة مختلفة تماما بخصوص العلاقات التجارية بين مصر الفرعونية والشعوب اليونانية ، فماذا عن هذه الشعوب ؟ وماذا عن دورها كوسيط تجاري ؟.

المطلب الأول: التعريف بشعوب بحر إيجا

سأختزل التعريف بهذه الشعوب فيما قالته عنها الوثائق المصرية، فخلال عصر الأسرات الأولى فإن الكتابات المصرية تذكر شعب البحر المتوسط بتمسية "حانيبو" (1240)، ويرى البعض بأن مصر كانت تعرف شعوب البحر منذ زمن قديم جدا ، لأن نصوص الأهرامات كانت قد أشارت إلى سكان جزر البحر المتوسط بهذا الاسم أي "La hoou –Nebou" أو "Hannibou" أو "Haïounibou" (1241) ، و يقصد به أناس متواجدون وراء البحار والذين كانوا يشكلون قلعا لملوك عصر الدولة القديمة (1242).

وكانت عديد النقوش على المسلات القديمة تذكر "شعوب البحر" ولم تحدد بالضبط من هم وإلى أي منطقة ينتمون لكن تذكر بأنهم كانوا يقيمون علاقات تجارية مع مصر ، وبالتالي يفترض بأن الأمر يتعلق بدون شك بسكان "كريت" و"قبرص" و"سيكلاد" (1243) ، والبعض يرى بأنهم سكان كل جزر البحر، في حين خص المصريون جزيرة قبرص بإسم خاص وهو "ألاسيا" (Alasia و Eles)، بينما الجزر الأخرى كان يطلق عليها بكل بساطة التعبير العام للجزر الواقعة في البحر.

فإن كان إسم "ألاسيا" ذكر في مرات عديدة في النصوص المصرية وهو يعني فقط جزيرة قبرص، فإن لفظة "كفتيو" (Keftiu) في النصوص المصرية هي إسم أعطى للكرتيين الذين كانوا مستقرين في مصر (1244). وهناك رأي مخالف يرى بأن "كفتيو" إسم معروف منذ الألف الثالثة ق.م وهو يدل على قبرص قبل أن يدل على "كريت" (1245)، وقد حدد بعض المؤرخين تاريخ ظهور كلمة "كفتيو" في النصوص المصرية بحوالي 2200 ق.م ، وقد تواصل ظهورها مما يدل على إستمرارية العلاقة خلال زمن الدولة الوسطى (1246).

على العموم فإن هذا الإسم يدل على جزر البحر المتوسط ، و كان آخر ذكر له زمن الملك أمينوفيس الثالث (1414 و 1378 ق.م) والذي تزامن مع تحطيم المدن المينوية (1247). ومن الوثائق التي ذكرت جزر البحر المتوسط بردية تعود إلى الأسرة الثانية عشرة وهي " بردية برلين" التي ورد فيها بإسم "Oui-dire" وهو إسم عرف لدى مصريي الدولة المنفية (الدولة القديمة) (1248).

أما عن صور شعوب البحر في الوثائق المصرية فقد وجدت نقوش ونصوص في فترات مختلفة تمثل أجناب سواء إيجيين أو آسويين أتوا بمنتوجات إلى مصر و الذين تذكرهم النصوص التي كتبها رجال البلاط بأنهم كانوا يعلنون ولاءهم لمصر ويقدمون الهدايا لملوكها.

1240 () – محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص. 188.

1241 () – G. Dykmans , Op-Cit , t. 2 , p. 273.

1242 () – G. Glotz , la civilisation égéenne , Op-Cit , p. 235.

1243 () – Z. Herman , Op-Cit , p. 61.

1244 () – C. Lalouette , Thébès..., Op-Cit , pp. 75 - 76.

1245 () – E. Cavaignac , Op-Cit , p. 104.

1246 () – J. Vercoutter , essai sur les relations..., Op-Cit , p.172.

1247 () – S.D. Methuen , Op-Cit , p. 18.

1248 () – G. Dykmans , Op-Cit , p. 273.

و وجدت في مقبرة "رخميرع" رسوم شعوب البحر وكانوا يرتدون تنورات قصيرة مزينة، ينتعلون نعال ويصفون شعورهم بطريقة مميزة، وقد رسموا وهم ينقلون أقداحا وأواني وقد أطلقت عليهم الكتابات المرافقة لهذه المشاهد إسم "شعوب جزر وسط البحر" وقد عرفهم المؤرخون بأنهم "المنويون"، لأن تسريحة شعرهم مماثلة لتسريحة الرجال الممثلين على الجداريات الكريتية، وزخرفة أوانيهم تماثل زخرفة الأواني التي وجدت في المواقع المينيوية ويستخلص من ذلك بأنهم جاؤوا من كريت (1249).

إن مقابر الدولة الحديثة تبين لنا في مرات عدة وفودا إيجيين يحملون السلع التجارية إلى مصر: الفضة بكميات كبيرة، ذهب، أحجار كريمة منها اللازورد، النحاس، برونز، عاج وخاصة الأواني المعدنية ذات الأشكال المتنوعة و المصنوعة بأناقة (1250). ومن ضمن المشاهد التي تعود إلى زمن الملك "توت عنخ آمون"، وجود بائع نبيد، والذي كان يبيع خمرا قبرصيا وبجواره شيخا وهو يرتشف من هذا النوع النادر والرفيع (1251)، و يدل ذلك على أن التجارة في وادي النيل خلال الدولة الحديثة قد فتحت ليس فقط أمام الفينيقيين بل أيضا أمام تجار جزر البحر المتوسط الذين كانت مراكبهم تصعد النيل إلى غاية طيبة، و التي كان بها التجار " الآخيين " يعقدون روابط صداقة وتجارة مع المصريين (1252).

مما تقدم ، ألاحظ بأن الوثائق المصرية قد أتت على ذكر شعوب بحر إيجا في فترات مختلفة من العصر الفرعوني و خاصة زمن الدولة الحديثة والعصر الأسفل، لكن التسميات التي أعطيت لهم لم تكن بنفس الدقة و الوضوح الذي قدمته نفس الوثائق بخصوص الشعوب التي تطرقت إليها كالنوبيين و الليبيين و الفينيقيين و شعوب جنوب فلسطين، ما عدا بالطبع جزيرة قبرص. لكن من ناحية تصوير شعوب بحر إيجا فقد أعطت الوثائق المصرية صورة واقعية و صادقة عنها.

المطلب الثاني: الكريتيون كوسطاء

إن الكريتيين كانت لهم علاقات عديدة مع الشعوب الأخرى ، لكن الأقدم والأكثر إستمرارية هي العلاقات التي عقدوها مع مصر، وقد عرف ذلك ليس فقط من خلال الأشياء المصنعة لكلا البلدين والتي وجدت في كلتا المنطقتين ، لكن أيضا من خلال الرسوم وكتابات المعالم المصرية – كما مر بنا - .

فالعلاقة بين مصر والشمال الشرقي للبحر المتوسط تشهد عليها تلك المعالم منذ الألف الثالثة ق.م وخاصة مع الجزيرتين " قبرص " و " كريت "، وهذه الأخيرة كان يتواجد بها ميناء "فايستون" (Phaistos) الذي خصص للتجارة مع الدلتا ، و من الممكن كذلك أن جزيرتي "ميلوس" و "ساموس" كانتا تزودان مصر بالزجاج البركاني المستعمل منذ زمن قديم جدا في مصر (1253).

أما " كريت " فإن مدنها كانت عديدة وكانت في الأساس عبارة عن أسواق صغيرة ثم أصبحت أسواقا مهمة نتيجة لتطور الصناعة والملاحة ، ومن موانئها أيضا نجد " زاكرو " (Zacro) و هو يحتل وضعية جيدة بين البحر الإيجي وإفريقيا وبه محلات كبيرة للإستيراد والتصدير (1254).

ولذلك يرجع البعض إتصالات مصر بالبحر الإيجي، على الأقل مع كريت، إلى الألف الرابعة ق.م (1255)، و لو أن الأدلة على تلك الإتصالات قليلة ما عدا بعض الأشياء التي أكتشفت في كلتا المنطقتين، و التي أتيت على ذكر بعض منها في المدخل، كما أنه لم يثبت في العصر " الثاني " (عصر الأسرتين الأولى والثانية) علاقات مباشرة بين الطرفين، ويبدو أن "جبيل" هي التي كانت وسيط بينهما في ذلك العصر. لكن هناك من يرى عكس ذلك لأن الملاحة أثناء هذا العصر كانت نشطة ، و كانت تحدث من مصر باتجاه " كريت " (1256). لأنهم يرون بأن الملاحة الكريتية تعود إلى نفس زمن الملاحة المصرية و المتمثلة في أسفارهم الأولى نحو غرب المتوسط

1249 () - L. Casson, Op-Cit , pp. 33 - 34 , 38.

1250 () - G. Posener et autres , dictionnaire de la civilisation..., Op-Cit , p. 97.

1251 () - ن. ي. ، المرجع السابق ، ص. 50.

1252 () - C. Lalouette , l'Empire des Ramsès , Op-Cit , pp. 157 - 158.

1253 () - C. Lalouette , l'Empire des Ramsès , Op-Cit , p. 34.

1254 () - G. Glotz , Op-Cit , p. 215 .

1255 () - Ö. Olsen , Op-Cit , p. 30 .

1256 () - J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 13.

أي ما وراء مضيق صقلية⁽¹²⁵⁷⁾، بمعنى أن مصر هي المبادرة بالإنصال بالعالم الإيجي و الدليل على ذلك ضرورات مصر الإقتصادية المتمثلة في حاجتها للفضة و الأخشاب⁽¹²⁵⁸⁾.

وتواصلت العلاقات التجارية بين مصر وبحر إيجا و خاصة مع " كريت " لكن ليس بالأمر المؤكد أن تلك العلاقات كانت مهمة ومنظمة وفيما إذا كانت مباشرة أو كانت تتم في الساحل السوري. والبعض يرى بأن العلاقات التجارية الأولى بين مصر والمينيويين تعود إلى عصر كل من "سنفرو" و "ساحورع" ⁽¹²⁵⁹⁾.

وخلال الدولة الوسطى وخاصة الأسرة الثانية عشرة ازدهرت التجارة المصرية مع "كريت" من جديد، وكان الباعة المينيويون يترددون على مصر ، وتواصلت تبادلاتهم التجارية إلى غاية الدولة الحديثة، إن هذه الأسرة كانت قد إهتمت بإستتباب النظام في المملكة وحمايتها من القراصنة، والدليل على الإزدهار التجاري بين الطرفين هو تعيين مكتبا خاصا لـ: " شعوب البحر " خلال هذه الأسرة وهو عبارة عن ديوان مكلف بالأعمال الخارجية ، وكان القرنين التاسع عشر و الثامن عشر بالنسبة لـ: " كريت " مرحلة ذات نشاط مكثف وكانت لها علاقات ثابتة مع هذا المكتب. و في هذه المرحلة كانت علاقات مصر مع كل جزر البحر المتوسط و على وجه الخصوص جزيرة " قبرص " و أيضا جزيرة " كريت ". ومرة أخرى تعرف العلاقات بين الطرفين توقفا لمدة قرنين أو ثلاثة ، فحوالي 1750 تهدمت قصور " كنوسوس "، وفي الطرف المقابل نجد مصر كانت قد إحتلت بين 1675 و 1580 ق.م من قبل الهكسوس ، فقد أدى ترميم آثار التهديم وتجزئة مصر إلى توقف العلاقات التجارية والتجأت " كريت " إلى الشمال لإيجاد سوق تعوضها عن سوق مصر⁽¹²⁶⁰⁾. لا يفهم من ذلك بأن التوقف في العلاقات خلال تلك المرحلة كان توقفا كلياً ، لأنه وجدت أشياء تعود إلى ملوك الهكسوس في كريت وفي قصورها بالتحديد ، وبما أن الأمر لا يتعلق بسيطرة ، فإن وجود تلك المخلفات يفسر بعلاقات تجارية واسعة.

لكن خلال الدولة الحديثة وإبتداء من الأسرة الثامنة عشرة تضاعفت العلاقات بين مصر و كريت، والدلائل الأثرية أصبحت أكثر ومتنوعة عن ذي قبل منها أرشيف مدينة " تل العمارنة " ، والتي وجد بها أيضا قطع فخارية تعود إلى جزيرتي قبرص وكريت ومن جهة أخرى مكتشفات فخارية بكريت عليها تزيينات مصرية. لدرجة أن البعض يرى بأنه إبتداء من هذه الأسرة وخاصة خلال زمن حكم الملك "تحتوتمس الثالث" (1501 – 1447 ق م) فإن شعوب بحر "إيجا" كانت خاضعة للمصريين⁽¹²⁶¹⁾.

إن مكتشفات بقايا الفخار تلك تدل على أن " الكريتيين " كانوا يتعاطون في كل بقاع مصر تجارة الفخار والزيت ، والنحاس والفضة والقصدير والخشب ، ويأخذون إلى الجزر وإلى كل العالم " الأخي " (achéen) المنتوجات المصرية المصنعة وكذلك المنتوجات العربية الواردة إلى مصر عبر البحر الأحمر⁽¹²⁶²⁾. وميزة العلاقات بين مصر وبحر إيجا خلال زمن الدولة الحديثة أنها لم تعد كما كانت في السابق علاقات سلمية بل أن سكان تلك الجزر وخاصة " كريت " لم يكونوا كلهم تجارا بل كان منهم القراصنة، وبالتالي فالعلاقة أصبحت عدائية، كما أن العلاقات خلال هذا العصر قد إقتصرت على جزيرتي: "كريت" و "قبرص"، لأن الوثائق أصبحت تطلق شعب " كيفتي " (Kefli) بمعنى شعب جزيرة " كريت"، وقبرص بإسم (ألاسيا).

ويقسم " فركوتيه " التجارة خلال الدولة الحديثة مع العالم الإيجي إلى مرحلتين كبيرتين الأولى من 1550 إلى 1400 ق.م ، و فيها تبدو السيادة المصرية بوضوح من حيث المراقبة و التنظيم ، أي أنها كانت تحت إشراف مصر ، و كانت كريت قد لعبت دورا مهما في هذه التجارة ، أما المرحلة الثانية فهي تمتد من 1400 إلى 1200 ق.م ، و يظهر فيها تفوق " مسينا " في الحوض الشرقي للمتوسط، مستفيدة من إنحطاط القوة المصرية في آسيا، و يشهد على ذلك الفخار المسيني الذي أصبح أكثر إنتشارا في مصر ، لكن غزو شعوب البحر ثم غزو الدوريين وضع حدا لهذه التجارة المتنامية في الشرق الأدنى ، و في نفس الوقت لتاريخ العلاقات بين مصر والشعوب الإيجية⁽¹²⁶³⁾. وهكذا كانت تجارة الكريتيين نشطة خلال الدولة الحديثة، فعلى طول النيل- كما ذكرت - هناك كريتيون يتعاطون تجارة الزيت، المصنوعات الفخارية ، النحاس، الفضة، القصدير، و الأخشاب، و عند عودتهم كانوا يجلبون معهم منتوجات مصنعة أو المنتوجات المجلوبة إلى مصر من البلاد العربية. كما كان الكريتيون

A. Thomazi , histoire de la navigation , Op-Cit , p.7. – () 1257

J. Vercoutter , essai sur les relations... , Op-Cit , p.20. – () 1258

L. Casson , Op-Cit , p. 35. – () 1259

G. Glotz , Op-Cit , pp. 235 - 237 . – () 1260

V. Bérard , Op-Cit , p. 198 . – () 1261

J. Pirenne , le statut de l'étranger... , Op-Cit , p. 94 . – () 1262

J. Vercoutter , essai sur les relations ... , Op-Cit , p. 95. – () 1263

منذ زمن هذه الدولة يرغبون في الخيول والعربات، والأسرة من الخشب النادر مغطاة كلها بالذهب، و ملابس النساء (1264).

لم يقتصر دور التجار الكريتيين على نقل سلع بلادهم إلى مصر، بل لعبوا دورا وسيطا أيضا في نقل منتوجات مناطق أخرى إلى مصر ومنها أخشاب الساحل اللبناني. ونتيجة لدورهم التجاري هذا فقد كانت لهم مكانة لدى المصريين، وقد نتج عنه أن أصبحت لهم جاليات في مصر، فخلال القرن التاسع عشر وجدت مستعمرة كريتية أنشأت في مصر الوسطى ودامت لسنوات طويلة، وكانت سلعهم تصعد النيل إلى غاية مصر العليا (1265)، فمن خلال الأواني الكريتية الجميلة التي وجدت بأعداد كبيرة في الفيوم أدى بالإعتقاد بأنها كانت تعد مستعمرة من الإيجيبين خلال زمن الأسرة الثانية عشرة (1266).

المطلب الثالث : الوسطاء الإغريق

سبق وأن أشرت بأن العلاقات بين مصر والعالم الإيجي عرفت مرحلتين مميزتين، إنتهت خلال القرن الثاني عشر بغزوة شعوب البحر، و التي وضعت حدا للعلاقات السلمية بين الطرفين ، و لزم إنتظار التوسع الإغريقي في القرنين الثامن و السابع لعودة الإتصال من جديد.

ورغم أن مصر عرفت إنفتاحا على الأجانب خاصة التجار والذين إستقروا بها مثل الفينيقيين والكريتيين وغيرهم ، و الذين فتحت لهم الدولة الحديثة الباب على مصرعيه و إستقبلتهم بأعداد كبيرة ، إلا أن هؤلاء الأجانب كانوا لا يلقون التقدير و الترحيب من قبل المصريين الذين كانوا ينظرون إليهم نظرة تعال (1267). و رغم أن العلاقات بين الإغريق و المصريين كانت متواصلة و وطيدة إلا أن ذلك لم يصل إلى حد يسمح فيه للأجانب بأن تكون لهم علاقات حميمة و أسرية مع المصريين (1268). فهؤلاء الإغريق كان لهم دور كبير في تجارة مصر بل في تاريخها ككل، و يتبادر إلى الذهن أنهم الإغريق الذين أتوا مع مجيء " الإسكندر الأكبر"، و لكن في الحقيقة أنهم وجدوا بمصر قبل ذلك الوقت بقرون عدّة، وقد إستقروا بها ابتداء من العصر "الصاوي" (الأسرة السادسة والعشرين) بمنطقة الدلتا، و لم يكن الإغريق في مصر تجارا فقط كما كان الأجانب السابقين، بل كان وجودهم في مصر لأغراض متعددة ، البعض منهم كانوا جنودا مرتزقة للملوك المصريين وكانت لهم مكانة كبيرة في الجيش المصري خلال تلك الأسرة و قد ساهموا في حماية حدود الدلتا من الشرق والغرب، حيث أنشئ لهما معسكران أحدهما على خليج السويس والثاني قرب الفرع الكانوني (1269).

أما بخصوص التجارة، فإن جزءا مهما من تجارة الدلتا مر شيئا فشيئا بين أيدي الإغريق، حيث كان "المليزيون" يبادلون الفضة مقابل الحبوب والبردي، وكانوا يحضرون إلى مصر زيت الزيتون كما كان يزور مصر علماء الإغريق ومنهم "أفلاطون" الذي دفع ثمن إقامته على أطراف النيل شحنة من الزيت (1270)، وبالنسبة للمنتوجات المصنعة فقد كانت متنوعة، ويأتي بعد زيت الزيتون الصوف الفاخر و قد برع في تلك الصناعة خاصة " الملّزيين" الذين بلغت شهرتهم كل العالم القديم، وكانت منسوجاتهم ذات نوع رفيع، بعد ذلك تأتي الخمور، والتي كانت تأتي من كل بلاد اليونان معبأة في أواني من طين وتدخل إلى مصر مرتين في السنة (1271). كما إستغل الإغريق القيمة العالية للفضة في مصر وأصبحوا يصدرونها في شكل عملة أو في شكل سبائك ليشتروا بها القمح (1272).

هذا الأمر حسب إعتقادي يبدو أنه كان قاعدة مطبقة من قبل المصريين الذين كانوا يشترطون مقايضة محاصيلهم الزراعية خاصة القمح بالفضة أو على الأقل يكون وجود هذا المعدن ضروري ضمن السلع الأخرى ، كما أستخلص أن هذا الشرط قد فرضته مصر على كل جيرانها الذين هم بحاجة لمحاصيلها الزراعية مثلما أشرت إليه عند الكلام عن دور وساطة شعوب جنوب فلسطين، لأن هذه الأخيرة كانت تشتري القمح بالفضة، وهو ما يؤكد ما قلته في الفصل الأول من أن مصر كانت تتخذ هذا المحصول كورقة رابحة للحصول عما تريده.

1264 () - L. Casson , Op-Cit , p. 30 .

1265 () - G. Glotz , Op-Cit , pp. 236 - 237 .

1266 () - E. Cavaignac , Op-Cit , p. 23 .

1267 () - إليزابيث رايفشتال ، المرجع السابق ، ص. 229.

1268 () - D. Mailet , Op-Cit , p. 124 .

1269 () - محمد إبراهيم بكر، المرجع السابق ، ص ص. 249، 251.

1270 () - F. Daumas , Op-Cit , p. 227 .

1271 () - D. Mailet , Op-Cit , p.47 .

1272 () - J. Vercoutter , essai sur les relations ... , Op-Cit , p.18 .

ويبرهن كل ما ذكرته أن ذلك لم يحدث فقط في فترات قوة العصر الفرعوني بل وحتى أثناء فترات الضعف، وكانت بذلك تملئ على الوسطاء ما يمكن جلبه من سلع.

وهكذا كان القرن السابع ق.م (العصر الصاوي) يشهد حركة واسعة من الأجانب الإغريق، تجارا، و سواحا، بل أنهم وصلوا إلى أن أصبحوا مستشارين لبعض الفراعنة وقادة للجيش. وهكذا ورث الإغريق الإمبراطورية البحرية الإيجية وأسسوا بدورهم عديد المستوطنات في جزر البحر المتوسط ووصلوا إلى شواطئه الغربية، فابتداء من القرن التاسع ق.م كان الإغريق قد برزوا بقوة في تجارة مفتوحة أمام التجار الأجانب منهم المصريين، وكانت السياسة التي إنتهجها كل من "بسماتيك الأول" و ابنه "نخاو الثاني" التي سمحا بموجبه للإغريق - كما سمحا من قبل للفينيقيين - بالدخول إلى وادي النيل و جعلهم يستقروا في مناطق عدة من الدلتا لأن المليزيين إستقروا عند مصب الفرع "البولبتي" للنيل، وقد إستمرت هاته السياسة خلال حكم خلفائهما (1273)، كما إنتشرت مستعمرات للتجار الإغريق و "الإيونيين" في الدلتا السفلى في كل من "نقراطيس" و "دنفاي" (Daphnae). وكان هؤلاء التجار يبادلون فيها قمح وشعير مصر، وكذلك صوف ليبيا بالزيت والخمر و الخرز و غيرها من المنتجات الإيجية (1274).

تواصلت المبادلات في هذه المنتجات بين الطرفين خلال حكم كل من "أبيريس" و "أمازيس"، أي قمح مصر بزيوت وخمر الإغريق. و تزامن مجيء التجار الهلينيين خلال العصر الأسفل المصري مع التوسع الهليني الكبير نحو جزر وشواطئ البحر المتوسط، و الذي يؤرخ بهجرة إغريقية - إيجية نحو وادي النيل، وعلى عكس الليبيين الذين إستقروا في مصر وتبنوا لغتها وعادات البلد فإن الإغريق ظلوا محافظين، لذلك كانت الإتصالات بينهم وبين المصريين ليست دائما حميمة (1275)، ومع ذلك فقد كان الملوك المصريون يعطونهم تقديرا نتيجة إستفادتهم من خبرتهم العسكرية و ثرائهم التجاري.

فبعد أن كانوا قد جاؤوا كمرتزقة في البداية تحولوا فيما بعد للعمل في التجارة بمصر، ونتيجة للحرية التي أعطيت لهم ثار المصريون ضدهم لذلك حُدد لهم نطاق تحركهم في الدلتا وحددت لهم سوق تجارية بـ: "نقراطيس"، حيث كانت لهم فيها متاجر تعج بالسلع اليونانية مثل النبيد والزيت والأواني الخزفية ومصنوعات معدنية والتي كانت تقايض بالقمح المصري، وكانوا قد توسعوا في نشاطهم التجاري وأعطى لهم عدد من التسهيلات في عهد الفرس (1276).

و بما أنهم كانوا يتاجرون بحرية في كافة أنحاء الدلتا، أدى ذلك إلى إثارة المصريين الأهالي ضدهم لتخوفهم من نفوذهم المتزايد، لذلك ألزمهم الملك "أمازيس" مدينة "نقراطيس" وأصبحت البضائع الآتية من بلاد اليونان تمر بها من أجل الحصول على ضريبة تلك المواد، وقد إهتدى ذلك الملك إلى هذا الحل لأنه لم يكن يستطيع إبعاد الإغريق والكاربيين لأهميتهم في تجارة مصر، وقد كانت "نقراطيس" تقع جنوب مدينة الإسكندرية وكشفت الأبحاث عن موقع تمرركزهم فيها منذ زمن الملك "بسماتيك الأول" (1277).

تأسست هاته المستعمرة في نهاية القرن السابع ق.م (1278)، وقد أختيرت تلك المدينة لأنها منطقة عرفت تمركزا كبيرا للتجار الإغريق عند المصب الكانوني (المصب الغربي) (1279)، وهذه المدينة هي اليوم "كوم جعيف" (Kom Gaef) بالقرب من "سايس" و التي كانت قد أسست من قبل "المليزيين" أثناء حكم "بسماتيك الأول"، وجعلها "أمازيس" النقطة الوحيدة في مصر أين يسمح فيها للإغريق بالإتجار بحرية، وقد فقدت هذه المدينة أهميتها أثناء تأسيس مدينة "الإسكندرية"، لكنها بقيت ميناء نشاط تجاري ففيها سكنت النقود من الفضة والبرونز المعروفة في مصر. و قد فتح فيها الإغريق مستودعا للسلع الشرقية، وكانت هناك قناة تربط هاته المدينة بالعاصمة "سايس" (1280).

و يقول "هيرودوت" عن هذه المدينة: «و قديما كانت "نقراطيس" البلدة التجارية الوحيدة، ولم يكن بمصر غيرها، وكان إذا بلغ أحد ما داخل مصب آخر من مصبات النيل، وجب عليه أن يُقسم إنه لم يأت بمحض رغبته. وبعد القسم كان عليه أن يُبحر بسفينته وحمولتها إلى المصب الكانوبي، وأما إذا إستحال عليه الإبحار

(4) - N. Grimal , histoire de l'Egypte..., Op-Cit , p. 457.

(5) - J.A. Wilson , Op-Cit , p. 277.

(1) - J. Boulous , Op-Cit , p. 250.

1276 () - موسوعة تاريخ الحضارات ، ص. 71.

1277 () - N. Grimal , Op-Cit , p. 468.

1278 () - J. Haywood , les civilisations antiques ..., Op-Cit , p. 123.

1279 () - محمد إبراهيم بكر، المرجع السابق ، ص. 250.

1280 () - J. Duché , Op-Cit , p.22.

بسبب رياح مضادة، فيتحتم عليه أن ينقل بضاعته في قوارب مصرية ويطوف بالدلتا حتى يصل إلى "نقراطيس"، وهكذا كانت "نقراطيس" مكانة ممتازة» (1281)، أما سترابون فيقول عنها «... في الإقليم "الصاوي"، وبعد أن تغلب المليزيين على "Imarus" في معركة بحرية، فإنهم بنوا مدينة نقراطيس» (1282). و بفضل تجارتها مع الخارج أصبحت واحدة من المدن المزدهرة في دلتا النيل، وهي تبعد حوالي 35 ميلا إلى الجنوب الشرقي من الإسكندرية. أما عن تاريخ إنشائها فقد حدد بين عامي 615 و 610 ق.م (1283)، وقد كان عصر "أمازيس" هو العصر الذهبي للإغريق في مصر، لأن مصر خلاله تبدو أكثر إنفتاحا عن الإغريق، ولم تكن "نقراطيس" مقر إقامة الإغريق الوحيد أثناء هذا العصر، فقد عدت هي ومدينة "سايس" مراكز إغريقية مهمة خلال هذا العصر (1284)، و من المستوطنات الإغريقية الأخرى في مصر نجد في شرق الدلتا "دقناي" وهي "تل دفنة" اليوم، ومن الممكن وجود مراكز أخرى لأن قطع الفخار الإغريقي كانت أكثر إنتشارا في هذه المنطقة مقارنة بمنطقة "نقراطيس"، كما نجد تواجد لتجار إغريق حول مدينة "منف" و كذلك في إقليم الجنوب و تحديدا في مدينة طيبة (1285)، حيث وجدت بها أحياء لـ: "كاربين"، مثلما هو الحال في عدد من مدن الدلتا الأخرى. بل و ثبت تواجد الإغريق في مناطق أبعد من ذلك، حيث يذكر "أحمد فخري" بأن هؤلاء تعدى تواجدهم و إستقرارهم الشمال إلى مناطق في الجنوب و تحديدا بـ: "إلفنتين"، التي ثبت فيها إقامة جالية يونانية تتعاطى التجارة، و كانت أثناء ذلك تتميز بحركة تجارية نشطة، كما كان يرافق تواجدهم فرقة عسكرية (1286).

مما تقدم، يتضح جليا أن شعوب بحر إيجا و خاصة منهم الإغريق كانوا قد إستقروا في نقاط إستراتيجية في مصر و ذات أهمية تجارية كبرى، و هم بذلك لم يكتفوا بالسيطرة على السلع التجارية التي كانت تتداول بين المصريين و الحوض الشرقي للبحر المتوسط بل تعدوا ذلك للسيطرة على المنتجات الليبية التي كانت تدخل مصر، و الأهم من ذلك أن إستقرارهم بـ "إلفنتين" بالذات كان من أجل السيطرة على التجارة الإفريقية التي كانت تحتكرها مصر في السابق لمدة زمنية طويلة، و هم بذلك أدوا دور الوسيط التجاري بجدارة لا يقل عن دور الوساطة الفينيقية.

المبحث السادس: العرب

يرى "فوثنيه" (H. Gauthier) بأن التجارة في مصر إزدهرت خلال العصر الأسفل أكثر من أي وقت مضى، وخاصة خلال حكم الفرعون "أمازيس"، الذي على حد تعبيره، عمل على توسيع التجارة وفتح مصر أمام الأجانب بشكل لا مثيل له في أي عصر من العصور الفرعونية، ويضيف بأنها لم تكن تمارس فقط مع سكان جزر البحر المتوسط أي "الإغريق"، بل أنها كانت ذات نشاط أكبر مع أقوام أخرى عبر طرق قوافل الصحراء و عبر البحر الأحمر ومنهم العرب سكان اليمن (1287). رغم أنني أتخفظ من كلامه عن عصر إزدهار التجارة المصرية، الذي يجعله يتطابق مع المرحلة الأخيرة من العصر الفرعوني لأن ما أتيت على ذكره في الدراسة يؤكد بأنها عرفت عصورا زاهرة من قبل، إلا أن رأيه يعتبر مهم بخصوص تصوير تعدد الأجانب و دورهم في هذه التجارة و خاصة أنه ركز على العرب، الذين قل ما نجد من يتكلم عن وساطتهم خلال العصر الفرعوني. فماذا تقول النقوش القديمة عن العرب؟، و ما الدور الذي لعبوه في تجارة مصر؟.

المطلب الأول: التسمية و أهمية الموقع الجغرافي

عرفنا فيما سبق بأن مناطق الجوار الجغرافي لمصر أعطتها الوثائق المصرية تسميات دلت عليها ولو أنها أحيانا لم تكن دقيقة ومحددة بما فيه الكفاية، إلا أنها أوضحت أمورا كثيرة، أما مع منطقة جنوب الجزيرة العربية فإن الأمر مختلف، وكل ما جاء فيها من تسميات هي عامة لا تحدد بدقة الرقعة الجغرافية لتلك المنطقة أو تدل على شعبها، ومن هذه التسميات نجد لفظة "عامو" التي تردد ذكرها كثيرا في النصوص المصرية والتي تعني الآسيويين وكذلك كلمة "تا.عامو" والتي تعني أرض الآسيويين، وهو معنى واسع يشمل كل من سكن الصحراء شرق النيل، وأيضا جنوب فلسطين، ويمتد معناها ليشمل حتى شمال الجزيرة العربية، ومن الألفاظ

1281 () - هيرودوت، فقرة 179.

1282 () - Strabon, XVII, Chap I, 18.

1283 () - هيرودوت، المرجع السابق، ص. 210.

1284 () - H. Gauthier, Op-Cit, p. 240.

1285 () - S.D. Methuen, Op-Cit, p. 25.

1286 () - أحمد فخري، مصر الفرعونية...، المرجع السابق، ص. 427.

1287 () - H. Gauthier, Op-Cit, p. 210.

التي وردت في النقوش المصرية نجد "تا. نثر"، وهي أيضا تدل على نفس المنطقة التي تقع شرق النيل، والملاحظ أن هذه التسمية لا تحدد منطقة بعينها بل كان معناها يشمل المناطق التي تمكن المصريون من معرفتها، فمثلا خلال الدولة الحديثة أصبحت التسمية تطلق حتى على المناطق الأبعد من جنوب فلسطين إلى غاية سوريا، ومن المحتمل جدا أنها توسعت جنوبا لتدل أيضا على شبه الجزيرة العربية ككل (1288). ويعتقد أيضا بأن جنوب الجزيرة العربية قد ورد في النقوش المصرية القديمة بإسم "أرض الإله" ويقصد به تحديدا "اليمن" أي الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية، بينما البعض يرى بأن المقصود في تلك النقوش هو كل مناطق الجزيرة (1289).

ومن الأسماء التي جاءت في الكتابات الهيرغليفية "الجنبتيو" والتي قيل عنها بأنها أطلقت على "القتبانين" الذين ينتمون إلى إحدى القبائل المشهورة وهي قبيلة "قتبان" وقد ظهرت هاته التسمية زمن الملك "تحتمس الثالث"، و جاءت كتابتها رفقة صور منقوشة لمجموعة أحضرت له مواد صمغية والبخور (1290). ومن التسميات العامة التي أطلقها المصريون، والتي يمكن أن تدخل ضمنها الجزيرة العربية نجد "شاسو" "منتيو" أو "نتيو"، لكن إسم "عرب" أو "أرب" لم يكن له وجود في النقوش المصرية (1291).

والسبب في عدم وضوح التسميات المصرية بخصوص الجزيرة العربية والإشارة إلى سكانها يرجعه البعض إلى عدم وجود إتصال مباشر بين الطرفين خلال العصر الفرعوني، والعقبة في ذلك هو طول الطريق البري إلى هناك ومخاطر الطريق البحري في عرض البحر الأحمر، وفي المقابل كانوا يحصلون على منتجات تلك المنطقة بسهولة من محطات تجارية إفريقية عن طريق المساحلة إلى هناك (1292).

أما إذا حاولت إلقاء نظرة على النقوش العربية في مصر علي أجد فيها ما يشير إلى وجود إتصالات تجارية بين الطرفين فإنني أجدها كما يذكر "عبد المنعم عبد الحليم سيد" على نوعين : نقوش سامية جنوبية (سبئية ومعينية وغيرها)، ويوجد أغلبها في الطرق التي تخترق الوديان الجنوبية التي تربط بين النيل والبحر الأحمر مثل "وادي حمامات" و "وادي عباد"، ثم نقوش سامية شمالية وأغلبها نقوش نبطية وتوجد على صخور الطرق في الوديان الشمالية مثل "وادي الجضامي" و "وادي حمامة" و "وادي أم ضلفة" و "وادي أم عتب" وغيرها. وهو دليل على أن العرب كان لهم إتصال مباشر بمصر و يبدو أنه كان منذ عصور قديمة جدا قبل أن يبادر المصريون برحلاتهم البحرية في البحر الأحمر خلال فترات قوتهم، لأن العرب كانوا قد أدركوا مدى أهمية السوق المصرية لمنتجاتهم (1293).

أما موقع جنوب الجزيرة العربية، فهو رقعة جغرافية واسعة أطلق عليها العربية السعيدة، وأكثر مناطقها شهرة وأهمية هي "اليمن" وقد سميت في نقوش سبئية قديمة إسم "يمنات" و "يمنت" وتعني الخير، وقد أطلق عليها الإغريق نفس المعنى بلاد العرب السعيدة (Arabia Félix) حيث كانت تشتهر بخيرات كثيرة سواء زراعية أو تجارية (1294)، وقد جاء في كتاب الجغرافيا لـ : "ميلا" ما يلي: «من نهاية مصر، [الشرقية]، تمتد البلاد العربية إلى غاية البحر الأحمر [المحيط الهندي] هذه المنطقة الخصبة في أجزائها الجنوبية والشرقية، تشتهر بإنتاج البخور وعطور أخرى» (1295).

ويحدد سترابون موقعها في قوله : «يحدّها شمالا الصحراء ومن الجهة الشرقية الخليج الفارسي ومن الجانب الغربي يحدها الخليج العربي ومن جهة الجنوب البحر الكبير» (1296). وهي بذلك يحدها البحر الأحمر غربا والمحيط الهندي جنوبا والخليج العربي شرقا، أما حدودها الشمالية فهي أرض الحجاز (1297).

ساعد موقع جنوب الجزيرة العربية، الذي يحيط به الماء من ثلاث جوانب، العرب على إرتياد البحر والذي كان مجالا هاما للإتصال بين سواحل هذه المنطقة لأنه يعد أقل خطورة من الإتصال عبر اليابسة، فكان

1288 () - بلقاسم رحماني وحرفوش مدني، المرجع السابق، ص. 73.

1289 () - جورج فضلو حوراني، المرجع السابق، ص. 309.

1290 () - بلقاسم رحماني وحرفوش مدني، المرجع السابق، ص. 83.

1291 () - عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص. 401.

(1292) - بلقاسم رحماني وحرفوش مدني، المرجع السابق، ص. 84.

1293 () - عبد المنعم عبد الحليم سيد، المرجع السابق، ص. 409، 412.

1294 () - بلقاسم رحماني وحرفوش مدني، المرجع السابق، ص. 75.

1295 () - Méla, I, 10.

1296 () - Strabon, XVI, Chap III, 1.

1297 () - بلقاسم رحماني وحرفوش مدني، المرجع السابق، ص. 76.

يسهل التجارة و الإتصال بالعالم الخارجي في إتجاه الغرب إلى إفريقيا وفي إتجاه الشرق إلى إيران ومنها إلى الهند، فعبور شرق إفريقيا كان بالنسبة لهم جد سهلا عند نقطة خليج عدن في جنوب البحر الأحمر، كما ربط هذا البحر خاصة في الشمال الجزيرة العربية بمصر (1298).

وبذلك كان موقع جنوب هذه الجزيرة له أهمية كبيرة في تجارة العالم القديم وخاصة "اليمن" التي كانت تعد في ذلك الوقت أكبر سوق لتبادل السلع (1299)، حيث كانت مركزا هاما للتجارة العالمية في العصور القديمة، إذ كان التجار يقصدونها من كل النواحي، تجار الهند والتجار الأفارقة و هم يحملون ما إشتهروا به من بضائع كانت اليمن مخزونا لها لتوزع عبر البر خاصة إلى مناطق الحضارات في الشمال (1300).

إن موقع اليمن في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية جعلها واسطة بين حضارات البحر المتوسط الواقعة في الشمال وحضارات المحيط الهندي في الجنوب، فهي على العموم تتوسط كل حضارات العالم القديم وترتبط معها بصلات تجارية. وعن خصوبة هذه المنطقة يقول سترابون: « كان السبئيون أهم أمة في البلاد العربية، و تشكل أرضهم الجزء الأكثر خصوبة في بلاد العرب، الذي ينتج المر والبخور وشجرة القرفة... » (1301)، وقد أشار إلى أشجار أخرى لا مجال لذكرها.

كما تميزت هذه المنطقة بمناخ رطب أكثر مما هو عليه الآن ، فكانت تنزل بها الأمطار الغزيرة وتتمتع بخصوبة الأرض إضافة إلى موقع ممتاز، ومع ذلك فالمنطقة كان لا بد لها من التغلب على صعوبات كفقرها من الأخشاب المستعملة في صناعة السفن و بذلك أصبحت قوة بحرية تجارية، وأصبح العرب من بين رواد البحار في العالم القديم (1302)، وقد أنشؤوا إمبراطورية بحرية تجارية لا تقل أهمية عن الإمبراطوريات البحرية التجارية التي كوّنها كل من الفينيقيين و الإيجيين. وقد تشكلت حول موقع هذه الإمبراطورية شبكة من الطرق كانت عاملا مساعدا لربطها بشعوب العالم القديم وعقد التبادلات التجارية معها، ومن أهم الطرق التجارية في شبه الجزيرة العربية: « الطريق من عمان إلى اليمن والطريق من اليمن إلى الشام، والطريق من اليمن إلى الخليج العربي والعراق والطريق بين جرّها و البترا، وهناك آخرين بين العراق والشام» (1303).

وكانت للعرب موانئ تجارية وكذلك أماكن لصناعة السفن، وإكتسبوا معارف في مجال الملاحة ومعلومات مهمة بخصوص الرياح وكيفية إستغلالها للملاحة، وبالتالي كانت لهم سيطرة واضحة على الطرق البحرية والتي كانت: « تحاذي الساحل شرقا ثم تتجه شمالا إلى الخليج العربي حتى تصل إلى بابل بواسطة الملاحة النهرية أو تتجه غربا وجنوب غرب إلى إفريقيا الشرقية، وهي مرتبطة بخليج العقبة بمناء إيله (إيلات اليوم) » (1304). وهكذا كانت الطرق تتشعب في جنوب الجزيرة العربية برية وبحرية في كل الإتجاهات، وإن كانت طرقها البحرية آمنة فعلى العكس من ذلك كانت طرقها البرية تتعرض لمضايقات من قبل البدو والذين كانوا يتوزعون حول تلك الطرق (1305). إلا أن عرب الجنوب كانت لهم ميزة كبيرة في مجال حماية الطرق وذلك بإنشاء محطات على طولها يتواجد بها وسطاء و ترافقهم فرق حراسة من أجل حماية القوافل التجارية الحاملة لسلع الجنوب (1306).

تمكنت اليمن بموقعها عند مفترق الطرق التجارية في الجنوب الغربي للبلاد العربية وتغلبها على العوائق الطبيعية من لعب دور الوساطة بين الهند و البحر المتوسط، وهما عالمان يتمتعان بثروات متعددة وكل منهما يكمل الآخر (1307). بمعنى حاجة كل طرف إلى الطرف الآخر بإستمرار. فكانت القوافل العربية تنطلق من الجنوب بإتجاه الشمال إلى غاية غزّة و هناك كانت تقايض بضاعتها بما تجده في أسواق غزّة من منتجات آتية من مصر و الشام و آسيا الصغرى ومختلف جزر البحر المتوسط، وتنقلها في طريق العودة إلى عديد المراكز التجارية إلى غاية اليمن و من هناك يؤخذ بعضها في رحلاتهم البحرية إلى الهند. وقد مارس العرب هاته التجارة

(1298) – جورج فضلو حوراني ، المرجع السابق ، ص ص. 23- 24.

1299 () – منذر عبد الكريم البكر ، دراسات في تاريخ العرب، المرجع السابق ، ص. 375.

1300 () – بشير زهدي ، لمحة عن الأحجار الكريمة...، المرجع السابق ، ص. 103.

1301 () – Strabon , XVI , Chap IV, 19.

1302 () – جورج فضلو حوراني ، المرجع السابق ، ص. 25.

1303 () – منذر عبد الكريم البكر، المرجع السابق ، ص ص. 417- 418.

1304 () – عدنان ترسيبي ، اليمن و حضارة العرب مع دراسة جغرافية كاملة ، (بيروت : دار مكتبة الحياة ، دون تاريخ) ، ص ص. 42، 40.

1305 () – P. Montet , Op-Cit , p. 181.

1306 () – عدنان ترسيبي ، المرجع السابق ، ص. 41.

1307 () – J. Chelhod , le traditionnel et l'Acquis dans l'activité..., Op-Cit , p.77 .

منذ أزمنة قديمة ، و ما يؤكد ذلك المادة الأساسية التي كانت عصب تجارتهم ، والتي كانت تتمحور حولها ديانات الشرق الأدنى القديم، بل ديانات كل الحضارات القديمة، التي كانت تحرق منه كميات ضخمة قربانا لألهتهم وكانت البلاد العربية المزود لهم بهذه المادة برا وبحرا، وهذا العامل مكن سكان البلاد الجنوبية من إحتكارهم لهاته التجارة، و كانوا يمارسونها منذ قيام تلك الحضارات القديمة، وبالتالي مهد لهم ذلك بأن تكون لهم صلات بكل تلك الحضارات(1308).

و بالطبع لم تستثنى مصر من ذلك و لو أن الإتصال المباشر بينهما لم يثبت بدقة سواء من خلال الوثائق المصرية أو العربية ، بل أن البلاد العربية لم يعرف عن حضارتها شيء من التفصيل إلا في زمن الدولة الحديثة، التي تزامن دورها التاريخي مع بروز كيانات البلاد العربية الجنوبية، و بالتالي فأنا أرجح أن المصريين عرفوا تلك البلاد حتى قبل هذا العصر وذلك باسم بلاد بونت، لكن لم يعطوا لها تحديدا جغرافيا، خصوصا و أن العرب كانت لهم مستوطنات على الساحل الإفريقي من الصومال الى غابة السودان، وإختلطوا مع سكانه الأصليين، وإحتكروا هناك السلع التي كانت تستوردها مصر وعلى رأسها البخور، وبالتالي فإن الإتصال بالعرب ليس بالضرورة أن يكون قد حدث جنوبي الجزيرة العربية، ولو أن إحتمال ذلك وارد، كما أن نفس السلع كانت تصل إلى مصر ليس بالضرورة عبر الطريق المباشر بل يمكن أن تحصل عليها من غزة وهو ما كان يحدث في فترات تراجع قوة مصر التجارية أي خلال الألف الأولى ق.م.

المطلب الثاني: العرب وسطاء في تجارة مصر

رغم أن بلاد العرب كانت من ضمن مناطق الجوار الجغرافي لمصر، ورغم أهمية العرب كتجار كبار في العالم، إلا أن الصلات التجارية بين الطرفين لم تكن واضحة المعالم طيلة العصر الفرعوني، مما أدى إلى إختلافات في الآراء بين المؤرخين، وكان الكثير منهم يرى عدم وجود صلات مباشرة بين مصر الفرعونية وبين الجزيرة العربية والعلاقات المباشرة لم تتحقق إلا خلال العصر اليوناني (عصر البطالمة)، وهو ما تشهد عليه عديد النقوش العربية المنتشرة على الطرق التجارية بمصر(1309).

وعدم الإشارة إلى العلاقات المباشرة لم يمنع بالقول بوجود علاقات غير مباشرة بين مصر وعرب جنوب الجزيرة العربية لأن الإشارات تثبت حدوث تبادلات(1310). فالمصريون في رحلاتهم إلى جنوب البحر الأحمر كانوا يتصلون بالعرب في مناطق مثل جزيرة سوقطرة، التي كانت ملتقى التجار من أنحاء العالم القديم، وليس مستبعدا أن وصولهم إلى هناك قادهم إلى "عدن" التي كانت أشهر المدن الساحلية التي لعبت دور الوساطة، لأن مصر لم ترسل رحلة إلى بلاد الهند وكانت تحصل على سلع الهند من هذه المراكز التي يتحكم فيها الوسطاء العرب(1311).

والبعض يؤكد بأن، العلاقات التجارية بين مصر وبلاد العرب تعود إلى أزمنة قديمة ودامت طيلة العصر الفرعوني سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة. فخلال عصر " تحوتمس الثالث "، نجد نصوص عصره تدل على مدى ذياع صيته في العالم القديم، وأصبح محط إعجاب ورغبة في التودد إليه، حيث وردت أخبار تروي قدوم بعثة تجارية من اليمن محملة بمنتوجات مثل البخور والكندر، وكانت تود أن تربط معه صلات تجارية مباشرة، ويطلق على هذا الشعب الذي ينتمي إليه "الجنيتيو" (Genebtyou) (القتبانين)، كما ذكرت ذلك فيما سبق. والملاحظ أنه لأول مرة ورد ذكر بعثة لشعب من شعوب بلاد اليمن، في حين لم تذكر بعثة مصرية مباشرة إلى تلك المنطقة.

ويقول " كيتشن" (K.A. Kitchen) عن هذه البعثة بأنها إشارة إلى وجود علاقات مباشرة مع جنوب البلاد العربية خلال الدولة الحديثة(1312). ومن جهته يؤكد " أحمد فخري" بأن الصلة التجارية بين مصر وتلك البلاد حقيقة واقعة، فمن خلال أعماله الأثرية في اليمن سنة 1947 عثر على جعران يحمل إسم الملك "أمنحوتب الثالث" يعود إلى أواخر القرن 15 ق.م، وهو دليل مادي على تلك العلاقة(1313).

1308 () - أحمد فخري ، بين آثار العالم العربي ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، 1958) ، ص. 15.

1309 () - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 418.

1310 () - بلقاسم رحماني وحرفوش مدني ، المرجع السابق ، ص. 90.

1311 () - جورج فضلو حوراني ، المرجع السابق ، ص. 61-63.

1312 () - K. A. Kitchen , Op-Cit , p. 87.

1313 () - أحمد فخري ، بين آثار العالم العربي ، المرجع السابق ص. 16.

و يذكر " بشير زهدي " بأن العاصمة المصرية " طيبة " كانت تدخلها سنويا الأحجار الكريمة والجواهر من قبل مختلف رسل بلدان العالم القديم المشهور بهذا النوع من التجارة بما فيهم العرب طبعاً (1314)، و يقال بأن القوافل الآتية من " حضرموت " و المتجهة نحو الشمال كانت تصل مصر وهي ناقلة لها البخور (1315).

كما كانت لمصر علاقات تجارية مع المعينين في المراحل المتأخرة من العصر الفرعوني، و الذين كانوا يأتون إلى مصر كما يفعلون ذلك في عصر البطالمة (1316). و قصة يوسف – عليه السلام – خير دليل على دخول المعينين والإسماعيليين إلى مصر بقوافلهم الآتية من جنوب الجزيرة العربية. من جهة أخرى فإنه حتى و إن لم تكن علاقة مصر بدولة معين علاقة مباشرة فإن العلاقة مع مستوطنات هاته الأخيرة في كل من الحجاز ودادان (العلا الحالية) كانت علاقات أكيدة لأن دولة " معين " كانت قد تأسست قبل القرن الحادي عشر ق.م وبالتالي فالعلاقات المصرية التجارية مع بلاد العرب هي أكثر وضوحاً بوجود مثل هذه الكيانات (1317).

و هكذا كانت معين ، قتيان ، حضرموت ، سبأ ، و حمير تلعب دور الوساطة في تجارة الهند، و من أجل تحقيق ذلك الغرض عملت على مراقبة المسالك التجارية و خلق محطات، و تأسيس وكالات تجارية، ولم تكن هذه الممالك ثرية بالطيوب فقط بل تعدى ذلك إلى إمتلاكها لكنوز من ذهب ، فمثلاً سبأ تذكر التوراة بأن ملكتها منحت للملك سليمان 120 تالنت من الذهب (1318).

و كان العرب وسطاء في تجارة الأحجار الكريمة بين مواطن تواجدها والشعوب التي ترغب في الحصول عليها. وقد كان لهم دور كبير في هذه التجارة و تحديداً بين مصر والهند ، منها خاصة " Saphir " المنتشر بكثرة في مصر والذي كان يستخدم في تزيين التماثيل، والأثاث، وفي صناعة الحلي، وكان يتواجد حصرياً في الهند، وكانت هذه التجارة مزدهرة منذ زمن موغل في القدم (1319). كما تمثلت منتوجات الهند أيضاً في نوع من الخشب الثمين، الذي كان يستخدم في صناعة الآلات الموسيقية وبعض أثاث المحلات السكنية، والأقمشة الفاخرة (1320).

و عن وساطة العرب التجارية بين شعوب العالم القديم يقول " شحادة الناظور " : « أما العرب فقد لعبوا منذ أقدم العصور دوراً مهماً على صعيد التجارة العالمية، وساهموا بذلك في إتصال الحضارات ببعضها، وكانوا حلقة الوصل بين هذه الحضارات في مختلف العصور، ففي القديم كان العرب اليمنيون حلقة الوصل بين الهند... وبلاد بونت (الصومال الحالية) من جهة ومصر الفرعونية وبلاد الشام من جهة أخرى » (1321).

وألخص دور العرب كوسطاء فيما ذكره " أنور الرفاعي وشاكر مصطفى " ، فباستقرارهم في المناطق الخصبة أدى بوجود وفرة في السكان تحول جزء منهم إلى تعاطي التجارة، حيث كان موقع البلاد يسمح لهم بذلك في الوساطة التجارية، فكانوا ينقلون كل شيء نادر من منطقة إلى أخرى فإنعكس عليهم تعاطي النشاط التجاري ثروة و ثراء، فتعالى شأنهم وانتقل دورهم التجاري الوسيط إلى دور وسطاء حضاريين، وكانوا حلقة الوصل بين حضارات ذلك العصر سواء في شرق إفريقيا وجنوب آسيا أو حضارات البحر المتوسط (1322).

المبحث السابع: المصريون كوسطاء تجاريين

عرفنا بأن الجاليات الأجنبية في مصر كان لها دور هام في التجارة وكانت تعتبر الوسيط الهام في تحقيق وتسهيل المبادلات التجارية، وهذه الجاليات كانت على أنواع، وفي هذا المجال يقول " محمد السيد غلاب " : « القواعد التجارية قوامها جاليات تتكون من شعب تجاري بالذات تعيش في حي خاص وتمارس نشاطها التجاري في الإقليم كما تمارسه الوكالات التجارية الأجنبية في الوقت الحاضر، وقد يتسع المجال أمام الجالية فلا تقنع بالحي من المدينة، بل تشتري مدناً بأكملها تديرها على النسق الذي تدار به مدنها في أوطانها الأصلية، ومثل الحالة الأولى الأحياء التجارية الفينيقية في مدن مصر ومدن سوريا الداخلية، ومثل الحالة الثانية المدن الإغريقية مثل نقراطيس و إلفنتين في مصر » (1323).

1314 () – بشير زهدي ، المرجع السابق ، ص.ص. 100-101.

1315 () – E. Samhaber , Op-Cit , p. 25.

1316 () – منذر عبد الكريم البكر، المرجع السابق ، ص. 384.

1317 () – بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني، المرجع السابق، ص. 93.

1318 () – J. Chelhod , Op-Cit , p.78.

1319 () – Z. Herman , Op-Cit , p. 72.

1320 () – D.M.J. Henry , Op-Cit , p. 457.

1321 () – شحادة الناظور و آخرون ، مدخل إلى تاريخ الحضارة ، المرجع السابق ، ص. 97.

(4) – أنور الرفاعي وشاكر مصطفى ، المرجع السابق ، ص. 101.

(1) – محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص. 470.

ولم تقتصر الجاليات الأجنبية في مصر فقط على هؤلاء بل كانت هناك جاليات من جنوب فلسطين وغيرها، ويبدو أن كل الشعوب التي تعاطت التجارة، كانت لها جاليات خارج أراضيها وقد تصل إلى حد إنشاء مستوطنات، وكان للعرب نفس المنهج وقد عرفنا ذلك قبل قليل، فهل كان لمصر جاليات تجارية على غرار ما فعلته الشعوب التي كانت تمثل قوى تجارية عظمى؟، وهل يمكن اعتبار مصر وسيط تجاري؟.

كان للمصريين ممثلين يبعثونهم إلى الخارج، فخلال عهد "الرعامسة" عثر على قائمة تشمل عديد الوظائف من بينها ممثلين للفراعنة في الخارج في كل البلدان التي تربطهم معها علاقات (1324). ولم تكن مصر تقتصر على إرسال هؤلاء المبعوثين بل تعدى الأمر إلى إنشاء مستوطنات خارج أراضيها وإذا بدأنا بالجنوب فإن المصريين نجدهم كانوا قد قاموا برحلات عديدة كشفية عن الذهب والجواهر ومنها رحلات قادتهم إلى مناجمها مثلا في بلاد النوبة، والملفت للانتباه أنهم كلما عثروا على تلك المناجم أقاموا مستوطنات حولها، وذلك بهجرة تتمثل في العمال وغيرهم، حيث يعملون في زراعة الأرض ويقيمون قرى حولها، وشيئا فشيئا كبرت هذه المستوطنات، وكانت تجلب خيرات تلك المناجم في شكل بعثات إلى خزينة الفرعون، والبعض الآخر من العمال كان يضل هناك ويختلط بالسكان المحليين (1325).

وكانت هذه المستوطنات تتحول إلى مراكز تجارية، لأن مصر كانت تعمل على إنشاء مناطق تجارية بحثة، ففي الجنوب دائما وخلال الدولة الوسطى أنشأت مراكز تجارية جديدة منها "إخن" (ميرجيسا Mirjissa) و"ساي" (sai) للتجارة مباشرة مع "كوش"، كما وجد بـ "كرما"، والتي كانت قلب المملكة النوبية القوية، وكلاء مصريين كانوا بدون شك نشطين هناك (1326). فقد كان حصن "كرما" محصنا بقوة وبالتالي أمن العيش للجالية التي تسكنه، ونتيجة لأهمية هذه المستوطنة التجارية المصرية عين عليها "جعي زفاي" وهو موظف ذو رتبة سامية لدى الفرعون، فقد كان من أمراء أسيوط (1327).

لكن أقدم مستعمرة تأسست في بلاد "النوبة" بالجنوب كانت "بوهن" والتي يعود تأسيسها للعصر "الثنائي"، والتي كانت قد أنشئت بالقرب من الشلال الثاني، وما فتئت أن أخذت تتطور، لكن خلال الدولة الوسطى سقطت في الإهمال وهجرت، وهي اليوم مغمورة بمياه بحيرة ناصر (1328). والسبب في إهمالها يعود لكون مصر خلال زمن الدولة الوسطى وسعت نفوذها في الجنوب إلى أبعد من تلك المستوطنة وأحدثت مستوطنات تجارية جديدة مع أواسط إفريقيا منها "كرما" التي ذكرتها قبل قليل.

و دلت الأبحاث التي أجريت بها على أن هذه المدينة كانت تسكن بها جالية كبيرة من المصريين وذلك من خلال كثرة بقايا مساكنها وشدة تحصينها، وقد جاء سكانها خاصة من منطقة "طيبة" زمن الدولة الوسطى، ومن المستوطنات الأخرى التي عرفت جاليات مصرية نجد "إخن" بالقرب من "وادي حلفا" وكانت مركزا تجاريا مهما وأيضاً مركزاً جمركياً (1329)، كما كانت "ناباتا" مركزاً تجارياً ومنطقة تبادلات، أين تجري بها علاقات بين مصر و "كوش" وهي علاقات تجارية صرفة، وأنشئت كمستوطنة للجاليات المصرية خلال الدولة الحديثة (1330).

أما في الشمال الشرقي (جنوب فلسطين) فإن الأمر كان يسير بنفس الطريقة، لأن الجاليات التي كانت تسكن هذه البلاد تعود في قدمها إلى نفس زمن أقدم مستوطنة بالجنوب، حيث سجل ابتداء من الألف الثالثة ق.م إلى غاية أواسط الأسرة الأولى أن الباعة المصريين كانوا قد هاجروا وفق أسلوب حياتهم وإستقروا بجنوب أرض كنعان وبنوا منازل من الطوب على النموذج المصري، وذلك بإستعمال الطوب المحلي أو الذي إستوردوه من بلادهم، وقد وجد اسم الملك "نارمر" على جرار في هذه المنشآت (المستوطنات)، وبالتالي فقد كانت مراكز تجارية لأنها سكنت من قبل تجار (1331).

و خلال زمن الدولة الوسطى فإن الصورة تتضح أكثر والوثائق تمدنا بالكثير، فهذه قصة "سنوحي" تكشف عن جوانب كثيرة للتجارة المصرية خلال زمن الدولة الوسطى، فالببدو لم يكونوا بالخشونة والقسوة التي صورها بهم المصريون من قبل، بل كانت لهم صفات الشهامة والنبيل عندما أنقذوا "سنوحي". كما أن هذه

1324 () - محمد الخطيب، المرجع السابق، ص. 57.

1325 () - سلامة موسى، مصر أصل الحضارة، المرجع السابق، ص. 34.

1326 () - B. Manley, Op-Cit, p. 50.

1327 () - محمد بيومي مهران، مصر منذ قيام الملكية...، المرجع السابق، ص. 397.

1328 () - M. Damiano - Appia, Op-Cit, p. 74.

1329 () - محمد إبراهيم بكر، المرجع السابق، ص. 161 - 163.

1330 () - B. Manley, Op-Cit, p. 62.

1331 () - K.A. Kitchen, Op-Cit, pp. 80 - 81.

القصة تكشف لنا على أن بدو صحاري شمال شرق البلاد كانوا يتعاطون التجارة مع مصر وهي جماعات كانت تأتي إلى مدن مصرية هامة، ومن جهة أخرى كشفت عن وجود رسل وتجار مصريين يذهبون إلى جنوب فلسطين بصورة دائمة وكان تواجدهم بها بأعداد ملفتة للنظر، بل انهم كانوا يتجاوزونها إلى مناطق أبعد (1332)، فالبعض يذهب إلى أن "سنوحي" كان الوسيط التجاري بين مصر وتلك البلاد حيث يقول: « لقد أمضيت هنا سنوات عدة ، أطفالي أصبحوا أقوياء، كل واحد يترغم قبيلة، و كان مبعوث الملك الذي كان ينزل إلى الشمال أو الذي كان يصعد إلى الجنوب نحو مصر، كان يهرع إلي لأنني أهتم بإستقبالهم جيدا... » (1333).

كما أن "سنوحي" عندما وصل إلى قبائل "رتينو" أستقبل بالترحيب لأنها عرفته من كلامه من أنه مصري، كما تعرفت عليه من قبل الجالية المصرية التي كانت مقيمة هناك وأدركت مكانته الرفيعة في مصر، فوجود تلك الجماعات المصرية هناك دليل على العلاقات المباشرة بين بلاد "الرتينو" ومصر، وبالتالي وجود جالية مهمة من حيث العدد و كذا المهمة التجارية التي تؤديها، وأن الزيارات بين هذه الجاليات ومصر كانت مستمرة (1334).

وعلى ما يبدو فإنه بعد حملة "سنوسرت الثالث" التي كانت نتيجتها إستتباب الأمن عبر الطرق التجارية، سافر مصريون إلى مناطق عدة من بلاد الشام و شكلوا هناك جاليات كبيرة (1335). ومن خلال زمن الدولة الحديثة أي عصر الإمبراطورية المصرية فإن سياسة مصر بجنوب فلسطين كانت تهدف إلى السيطرة على الطرق التجارية هناك، لذلك كان يوجد ممثلين يمثلون الملك ونقاط محددة يترأسها الممثل الرئيس للملك الذي كان مقره غزة وكان تحت إمرته مفتشين وكذلك مكلفين بالإشراف على الحامية في النقاط الهامة على الطرقات. لكن إدارة شؤون تلك المناطق تركت لزعمائها المحليين (1336). وهكذا وجدت مجموعات من التجار مستقرة في مدن بلاد الشام.

أما أهم الجاليات فهي بالطبع الجالية التي إستقرت بمدينة "جبيل" مشكلة بذلك حسب رأي الكثيرين مستعمرة مصرية هناك، وهذا راجع لقدم الإتصالات التجارية بين مصر والساحل السوري و التي أدت إلى إنشاء ما يسمى بالمحميات أو المستعمرات المصرية على ذلك الساحل والتي كانت أشهرها بجيل، وهي مستعمرة صغيرة من التجار مكلفة بعقد الإتصالات بين مصر وأهالي المنطقة، وتحضير الشحنات لتحميلها المراكب المصرية التي كانت ترسو في أوقات محددة (1337). لقد كانت حاجة المصريين لا مثيل لها من تلك المنطقة لدرجة أنهم أقاموا "محلة" في تلك المدينة وهي أقرب إلى المحمية منها إلى المستعمرة وكان لها حاكم يطلق عليه "النبيل" وهو نفس الوظيفة التي يكلف بها النبلاء في المقاطعات المصرية (1338).

ففي عهد الملك "خوفو" نجد أن ميناء " جبيل " أصبح يلعب دورا تجاريا كبيرا في تجارة مصر، وكان على أقل تقدير منذ ذلك الزمن مركز إستقطاب للجاليات التجارية المصرية و التي بدأت تستقر به منذ تلك الفترة ، إذ كان أكبر ميناء تتبادل فيه مصر سلعها التجارية مع غرب آسيا ، بل أن البعض يرى فيه بأنه كان الوسيط التجاري أيضا بين مصر و " كريت " (1339). والمؤكد أن العلاقات التجارية بين مصر والساحل السوري بدأت منذ الألف الثالثة ق.م وبالتالي فالجالية المصرية هناك تعود إلى هذا الزمن، و كانت تقوم بعقد الصفقات التجارية بين الجانبين، أي أن الجالية كانت قد عرفت طريقها إلى هناك قبل زمن "خوفو".

لكن في عهد هذا الأخير، بني معبد مصري وهو يحمل إسمه، وكان يتعرض من حين لآخر إلى إضافات كما دلّ عليه ما كتب على حجارته، وبالتالي فهو يثبت إستقرار جالية هناك ذهبت بدافع التجارة وكانت تمارس شعائرها الدينية فيه. كما كان يرافق هذه الجالية حرفيون مصريون، وهم الذين كانوا قد إستغلوا في بناء ذلك المعبد (1340). إضافة إلى ذلك فإن الجالية المصرية بـ " جبيل " تضم كتابا وهم يعتبرون ممثلين تجاريين لا غنى عنهم هناك، فهم يسهرون على نقل الأخشاب وجلبها وشحنها وكيفية الحصول عليها وعقد الصفقات بين

(1332) – عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 177.

(1333) – V. Bérard , Op-Cit , p. 163.

(1334) – نجيب ميخائيل إبراهيم ، المرجع السابق ، ص. 82.

(1335) – محمد عزة دروزة ، المرجع السابق ، ص. 107.

(1336) – فيليب حتي ، المرجع السابق ، ص. 146.

(1337) – G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p. 266.

(1338) – محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص. 237.

(1339) – محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية...، المرجع السابق ، ص. 228.

(1340) – J. Pirenne , Y'eut-il des foires... ?, Op-Cit , p.13.

الوفد المصري وحكام " جبيل " (1341)، وهم بمثابة رسل يترددون باستمرار على الشواطئ السورية وحتى على المناطق الداخلية، ولذلك تجاوز استقرارهم المدن الساحلية وانتشروا في عديد المدن، وكانت لهم في كل مكان معابدهم الخاصة (1342).

و يحتمل أن هناك جالية في مدينة "أوغاريت" تعود إلى زمن الدولة الوسطى ويستدل على ذلك من خلال عديد الوثائق و منها نصب وردت فيه عبارات تروي قصة موظف مصري سامي أنهى مهنته هناك كسفير أو كحاكم (1343). ويبدو أن مهمته كانت مشابهة لمهمة النبيل الذي كان على رأس الجالية المصرية في " جبيل". والبعض ذهب إلى أبعد من ذلك في اعتقاده بوجود مستعمرة مصرية في جنوب "كريت" وحدد تاريخها بالأسرة السادسة ومع ذلك يظل هذا الاحتمال بعيدا وأن الأمر يتعلق فقط بتبادلات تجارية لا أكثر (1344).

هذه لمحة مختصرة عن الجاليات المصرية التجارية والمحطات التي أنشأتها مصر خارج أرضها، وهي لا تقل أهمية في القيام بدورها كوسيط تجاري عن باقي الجاليات والمستوطنات التجارية لباقي الشعوب التي عرفت إمبراطوريات تجارية سواء كانت داخل أرض مصر أو في مناطق أخرى. ومع ذلك فإن وساطة مصر التجارية لم تتوقف عند هذا الحد بل إن مصر كانت قد جمعت على مدى مراحل العصر الفرعوني ثروات معتبرة من خلال لعب دور الوسيط التجاري بين شعوب العالم القديم، حيث لم تكن تكتف بإستيراد منتجات "بونت" وإستعمالها داخل البلاد بل كانت تعيد تصدير جزء منها إلى الغرب وإلى الشرق الأدنى، مثلما ذكرت قبل قليل بأن شعوب بحر إيجا كانت تأخذ من مصر المنتجات الإفريقية.

كما كانت مصر موزع الذهب في العالم القديم خاصة ذهب الجنوب (بلاد النوبة والسودان)، فالملك " تحوتمس الثالث" جعل مصر الموزع لهذا المعدن الثمين بين الشعوب المجاورة التي كانت ترغب فيه بشدة ويزداد طلبها عليه. فقد كانت مصر بحق الوسيط بين سواحل البحر الأحمر وسواحل البحر المتوسط، وقد كان ميناء القصير كثير النشاطات والبضاعة التي تفرغها به المراكب الآتية من بلاد "بونت" ثم تأخذ طريقها البري إلى " ققط " بواسطة القوافل، وهناك تجد المراكب النهرية في إنتظارها لتتقلها إلى المدن الكبرى للمملكة وإلى ساحل البحر المتوسط ثم تأخذ طريقها إلى شعوب أخرى، لأن الطلب على كل هذه المنتجات المستوردة من أقصى الجنوب تزايد بدون توقف في السوق المصرية، وفي البلدان الأخرى للشرق الأدنى التي لها علاقات تجارية متتابة مع وادي النيل (1345).

وهناك من يرى في الأسطول المصري بأنه كان وسيطا تجاريا بين سوريا و " كريت" زمن قوته وسيطرة مصر التجارية خاصة في المراحل الأولى من العصر الفرعوني قبل أن يبرز دور الساحل الفينيقي، إذ يحتمل بأن هذا الأسطول كان بإمكانه مواصلة الإبحار بعد الوصول إلى السواحل السورية إلى "كريت" وجزر بحر إيجا، وكان بذلك وسيطا بين منتجات " كريت" و سوريا، وهذا أمر وارد بقوة في ظل المعارف القليلة عن إمكانية الملاحة الكريتية بالقيام هي بذلك في تلك الأزمنة (1346). وقد كانت مصر تلعب هذا الدور حتى زمن تراجع توسعها التجاري وإنحطاطها الحضاري و وضع الأجانب أيديهم عليها، حيث كانت تستخدم كوسيط في نقل سلع بين الهند وأوروبا خلال العصور اللاحقة للعصر الفرعوني.

مما تقدم أستخلص حقيقة وهي أن مصر كانت وسيطا تجاريا أساسيا في تجارة العالم القديم، وأدت هذا الدور بإمتياز طيلة العصر الفرعوني، في حين أن وساطة التجار الأجانب كانت متفاوتة الأهمية، وكان بروزها في فترات محددة وبصورة أوضح في الألف الأولى قبل الميلاد زمن تراجع القوة التجارية المصرية.

1341 () - محمود عبد الحميد أحمد ، الصلات التجارية بين مصر و سورية...، المرجع السابق ، ص. 197.

1342 () - أحمد فخري ، مصر الفرعونية...، المرجع السابق ، ص. 228 .

1343 () - D. Arnaud , le Proche - Orient Ancien..., Op-Cit , p. 106 .

1344 () - محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص. 189.

1345 () - A. Gaudio , les empires de la mer , Op-Cit , p. 154 .

1346 () - J. Vercoutter , essai sur les relations..., Op-Cit , pp.172-173 .

الفصل السادس : الطرق التجارية

كانت العمليات التجارية مع الخارج طيلة العصر الفرعوني تتم عبر طرق ثلاث، عبر النيل مع النوبة، وبرا مع كل من النوبة ووسط إفريقيا وكذلك ليبيا وسوريا وبلاد ما بين النهرين الشمالية، وبحرا مع كل من كريت، قبرص وشواطئ شرق البحر المتوسط خاصة مع ميناء "جبيل" وسواحل البلاد العربية والخليج العربي، وكذا السواحل الإفريقية. وكان ذلك عبر مداخل ومنافذ والتي كانت تعد البوابات التي إنطلق منها المصريون باتجاه الخارج، حيث أرسلوا إلى هناك بعثات تجارية وإستكشافية منظمة، وهاته المنافذ إستقبلوا من خلالها جيرانهم التجار، كما شكلت ميدانا لحملاتهم العسكرية من أجل حماية تجارتهم و هو ما سأطرق إليه لاحقا.

فهل حقا لم تعرف مصر طرقا تجارية بمعنى الكلمة إلا في عهد البطالمة؟، وما هي أنواع الطرق التي إستقطبت الحركة التجارية والتبادلات الداخلية والخارجية؟، وما مدى فاعليتها في التجارة ومساهمتها في إزدهارها؟.

المبحث الأول: الطرق النهرية

إن الطرق التجارية خلال العصر الفرعوني هي جد متنوعة منها : الطرق النهرية، القنوات الصناعية التي أنجزها فن الهندسة المصرية، وبالطبع الطرق البرية وكذا البحرية. وقد فضلت أن أبدأ بالطرق النهرية لإرتباطها بنهر النيل الذي هو سر وجود مصر وحضارتها، وهذا النوع من الطرق يتمثل أساسا في النيل وفروعه.

المطلب الأول: نهر النيل

إن النيل طريق كبير للإتصال، فهو الرابط الذي صنع وحدة مصر، وكان الطريق الذي يحتفظ بأهمية رئيسية في المبادلات الداخلية، و للتعبير عن فعل السفر فيه تستعمل عبارة : " ينزل و يصعد النهر"، وهي تستخدم أيضا أثناء إجتياز الطرق البرية الموازية لهذا النهر (1347).

إن الملاحة في النيل كانت يسيرة وسريعة نسبيا و بدون مشاكل، و يقول ميلا : « ... إلى غاية إلفنتين، فإن النيل يكون هادئا و بدون مخاطر على الملاحة... » (1348)، فسهولة الملاحة فيه ناجمة عن الإعتماد على الظواهر الطبيعية، لأن حركة السفن من الشمال إلى الجنوب، كان يستعمل فيها الشراع ، حيث أن الرياح التجارية الشمالية الشرقية كانت تهب من الشمال إلى الجنوب، و بالتالي فهي تعمل على دفع هذه السفن بسهولة، أما إذا كانت السفن تتجه من الجنوب إلى الشمال ففي هذه الحالة يستغنى عن رفع الشراع و تفك العوارض التي يركز عليها، ويوضع الصاري ممددا، لأن الحاجة لا تستدعي رفعه، والسبب

G. Dykmans , histoire économique..., Op-Cit, t.2, p. 240. - (1347)

Méla , Géographie , I, 9. - (1348)

هو الاعتماد على تيار النهر الذي يسير في نفس اتجاه السفن من الجنوب إلى الشمال، فيكون عاملا طبيعيا في دفعها (1349).

وأوقف هنا لأطرح السؤال التالي: هل كان السير في نهر النيل سهلا دائما، أم كانت تصادفه عقبات؟. من مميزات النيل أن الملاحة فيه سهلة، وهذه حقيقة واقعة ميزته عن باقي أنهار العالم القديم، ومنها على وجه الخصوص نهري دجلة والفرات، لكن في نفس الوقت لا يمكن إنكار خلوه من عقبات، خاصة عند المنطقة التي ينحني فيها مجرى النيل عندما يصل " كورسكو " ، لتصبح الرياح عكسية، كما أن رياح "الخماسين الجنوبية " التي تهب في فصل الربيع تشكل صعوبة نوعا ما، والعقبة الأخرى هي عند الجنادل في الجنوب، فالملاحة تكون ملائمة فيها خلال فترة فيضان النهر (1350)، والوصول إذن إلى النوبة عبر هذه المنحدرات بين الصخور شكلت مشكلة حقيقية للمصريين، لذلك كان يحدث في مرّات عديدة أن يرسل الملوك مبعوثيهم إلى هناك لحفر قنوات من أجل تسهيل الملاحة (1351)، وهو ما سأتطرق إليه عند الكلام عن القنوات كعنصر هام ضمن شبكة الطرق التجارية.

وبالتالي فالملاحة في النيل ليست دائما سهلة، لأنه في وقت الفيضان وهبوب الرياح يكون النهر هائج، ومع ذلك، فالمصريون لم يكونوا يخشون ذلك على الإطلاق وكانوا يتجرأون على إرتياده (1352). ومع كل ذلك يبقى النيل بحق، طريقا من طرق المواصلات، أستخدم منذ العصور الحجرية، فهو الرابط بين المناطق المتواجدة على جانبيه، حيث المناخ الملائم لذلك كونه يمتاز بالإتساع من ناحية و من ناحية أخرى أن مياهه هادئة، وبالتالي فالملاحة فيه جد آمنة بل و سهلة لذلك كانت القوارب البسيطة على الرغم من بدائيتها في تلك العصور كانت تستطيع السير فيه دون مخاطر (1353). وقد إعتبر " فوديمييه " (J.Gaudemet) أن جغرافية مصر جعلت من النيل طريق الإتصال الداخلي الوحيد، لأن كل التنقلات كانت تتم عبره على ظهر السفن (1354).

لم يلعب النيل دوره كطريق تجاري بداخل مصر فقط، بل تجاوز ذلك ليكون طريقا يصل إلى مناطق الجوار الجغرافي لوجود إمكانية العبور من خلاله إلى بلاد " بونت " ، أي إنطلاقا من النيل و وصولا إلى منطقة تمتاز بمملكة حيوانية كبيرة ومزروعة بأشجار البخور (1355).

كما أن الطريق البحري لهذه البلاد ينطلق من النيل ، فمثلا أسطول بعثة " حتشيسوت " سار في النيل

صعودا إلى غاية أرصفة " طيبة " (1356).

إن النيل يشكل واحدا من الطرق المستعملة للنقل والتجارة في مصر القديمة، فهو مكمل للطرق العابرة للصحراء، كما يعد أحد منافذ مصر الجنوبية إلى إفريقيا، وهو المنفذ الأوسط، بل إنه أهم هذه المنافذ هناك، حيث كان يقود إلى جزيرة " إلفنتين " ، و التي كانت خلال العصر الفرعوني سوقا تجارية كبيرة وملتقى لبضائع الشمال المصري و سلع الجنوب ، وكان طريق النيل هذا يمتد على طول 1200 كلم (1357).

و بذلك يعد النيل القناة الرئيسية للإتصالات و الأكثر فاعلية ، لأنه يربط مصر العليا بالدلتا والمتوسط مروراً بالتجمعات السكانية، وبما أنه صالح عمليا للملاحة طيلة السنة فيمكن إعتباره الطريق التجاري الأهم لمصر، لأن منتوجات ليبيا، النوبة وغيرهما تدخل إلى المدن المصرية الكبيرة عبره، ومن الدلتا نجد المراكب المصرية والكريتية و فيما بعد نجد مراكب الفينيقيين والإغريق كانت تجتازه إبتداء من الدلتا (1358)، فقد كان بحق

(1349) - محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى ...، المرجع السابق ، ص. 118.

(1350) - عبد الفتاح محمد وهيبه ، مصر و العالم القديم ...، المرجع السابق ، ص. 309 .

(1351) - F. Daumas , la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 234.

(1352) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p. 245.

(1353) - فوزي مكوي ، الناس في مصر القديمة ، المرجع السابق ، ص. 102.

(1354) - Jean Gaudemet , Institutions de l'Antiquité , (2° éd ; Paris, 1982) , p. 57 .

(1355) - M. Mollat du Jourdin et J. Desanges , les routes millénaires , Op-Cit , p. 99.

(1356) - E. Cavaignac , histoire générale de l'Antiquité , Op-Cit , p. 40.

(1357) - بلقاسم رحمانى ، علاقة جنوب شبه الجزيرة العربية بشرق إفريقيا...، المرجع السابق ، ص. 109.

(1358) - Z. Herman , peuples..., Op-Cit , p. 59.

يلعب دوره كطريق تجاري كبير، فالتجار الآتين من الشمال يصعدون من خلاله إلى جنوب مصر لشراء القمح الضروري لهم، وقد كان هذا النهر آمنا لأن الدولة كانت تسهر على حمايته(1359).
وأستنتج من كل ذلك بأن الطبيعة المتمثلة في نهر النيل الذي يمتد في شكله المستقيم وكذا الرياح والتيار النهري كلها عوامل ساعدت المصري القديم على الملاحة، وقد أحسن هو بدوره إستغلالها لصالحه.

المطلب الثاني: فروع النيل

في مصر السفلى كان نهر النيل ينقسم إلى أذرع وقنوات متشابكة محاطة بمستنقعات ، والمنطقة الساحلية بدورها كانت تتبعثر فيها البحيرات والمستنقعات، فكانت الملاحة هنا تسهل التجارة(1360).

إن فروع النيل السبع في منطقة الدلتا تعتبر شبكة مواصلات هامة في مصر السفلى، فالدلتا لعبت دورا هاما في خطوط المواصلات النهرية بفضل هذه الذروع المائية المتفرعة من نهر النيل، حيث كان هذا النهر ينقسم إلى عدد من الفروع الهامة، والتي إختفت على مر القرون، ولم يبق منها اليوم إلا إثنين يصبان في البحر الأبيض المتوسط.

و يقول " هيرودوت " عنها : « فروع النيل خمسة »(1361)، ويعلق على ذلك المترجم قائلا : « أكبر الظن أن هيرودوت يقصد تلك الفروع الطبيعية التي رآها في زمانه ، ذلك لأن المأثور أنه قد كان للنيل عشرة ثم صارت سبعة ثم إنتهت إلى خمس »(1362).

أما " ميلا " فيقول عن فروع النيل التي كانت في عصره : « ... ينقسم [النيل] أولا إلى ثلاثة فروع بالقرب من مدينة Cercasore، و بعيدا بإتجاه أجزاء مصر التي تسمى الدلتا و ميليس، فإنه ينقسم أيضا إلى أربعة فروع، وهكذا وبعد اجتياز كل البلاد، فإنه يصب في البحر بواسطة مصباته السبعة المختلفة و كلها ذات عرض معتبر »(1363).

و ذكرها " سترابون " في قوله : « هاهما إذن الفرعان، المصب المسمى البلوزي و المصب المسمى الكانوبي أو الهرقلي، و اللذان عبرهما يصب النيل في البحر، لكن بين هذين المصبين توجد مصبات أخرى، منها خمسة كبيرة بينها مصبات كثيرة أصغر من الفرعين الأولين، وتتفرع فروع صغيرة لا نهاية لها تنتشر عبر كامل الدلتا وتتشكل كمجاري فيها ، والتي ترسم هناك عددا من الجزيرات، إلا أن هذه الفروع الصغيرة ترتبط فيما بينها بقنوات تشكل شبكة كاملة للملاحة الداخلية حيث تكون فيها الملاحة سهلة جدا، وتحدث التنقلات عبرها على متن مراكب من طين مشوي »(1364).

من خلال أقوال هؤلاء الكلاسيكيين يبرز تضارب في تحديد فروع الدلتا، فهيرودوت يذكر خمسة، وميلا الذي جاء بعده بقرون يذكر بأنها سبعة، أما سترابون فيذهب إلى أبعد من ذلك ويرى وجود فروع ثانوية بين الفروع الكبيرة لدرجة أنها وقت الفيضان كانت تغرق الدلتا بالمياه، فيقول: « أثناء فيضانات النيل، فإن الدلتا كانت تغطي كليا بالمياه ، و أن الأماكن المأهولة بالسكان، سواء الضواحي البسيطة أو المدن الكبيرة كانت مبنية على مرتفعات، والتي تُرى من بعيد كأنها جزيرات »(1365).

ويبدو أن هيرودوت ذكر فقط أكبر الفروع، والتي كانت تعد طرقا تجارية، لأنه ثبت بأن فرع التانيتيك كان يعد طريقا أساسيا في شبكة المواصلات التجارية في مصر(1366)، ومثله في ذلك الفرع الكانوبي والذي يسمى النهر الغربي(1367).

وما زاد في أهمية هذه الفروع أن لها مصبات على ساحل البحر المتوسط والتي تعد منافذ بحرية لحضارات العالم القديم سواء بآسيا أو بجزر البحر المتوسط ، و هي نفس المصبات التي ذكرها كل من " ميلا " و كذلك " سترابون " الذي يقول أيضا بوجود مصبات ثانوية تتخلل المسافة بين مصب وآخر من

J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 82. - (1359)

G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p. 239. - (1360)

(1361) - هيرودوت ، هيرودوت يتحدث عن مصر ، فقرة 10.

(1362) - نفس المرجع ، ص. 81.

(1363) - Méla , I , 9.

(1364) - Strabon , Géographie , XVII , Chap I , 4.

(1365) - Ibid , XVII , ChapI , 4.

(1366) - إليزابيث رايشتال ، طيبة ...، المرجع السابق ، ص. 31.

(1367) - أحمد فخري ، واحات مصر، المرجع السابق ، ص. 102.

المصببات الأساسية⁽¹³⁶⁸⁾. و الشيء نفسه ذكره " ديودور " الذي يرى بأن للنيل ذراعان يشكلان جانبي مثلث الدلتا التي تتخللها سبعة مصبات تصب في البحر و التي عددها بذكر أسمائها كالتالي: « المصبب الأول من هذه المصببات يبدأ من الشرق و يسمى البلوزي ، الثاني التانيتيك ، الثالث المنديسي ، و الرابع الفاتينتي ، الخامس يدعى السينيتي ، و السادس البولبيتي ، و أخيرا السابع و هو الكانوبي و الذي يسميه البعض الهرقلي »⁽¹³⁶⁹⁾ . كما كانت للنيل فروع في الجنوب مشكلة لجزيرة كانت محل إستقطاب من قبل المصريين، وكان الوصول إليها يتم عن طريق مائي مزدوج، و كانت عاصمتها " مروى " Méroé، وهذه المنطقة تعد منطقة تجارية مهمة لمصر، لأنها قريبة من البلاد العربية⁽¹³⁷⁰⁾، و التي كانت مصر ترغب في الحصول على منتوجاتها كما مر بنا.

كما كانت مصر تستعمل نهر " عطبرة " Atbara في الجنوب كطريق تجاري إلى " كاسالا " Kassala التي تعتبر مركزا تجاريا مهما⁽¹³⁷¹⁾، فهي بدورها تجلب منها منتوجات " بونت " . وأصل إلى القول بأن مصر بجريان نهر النيل فيها والذي يعد ميزة جغرافية فريدة، من جهة لصالحيتها الكبرى للملاحة و من جهة أخرى تشعبه إلى فروع لعبت دورا كبيرا وأساسيا في الحركة التجارية سواء داخل مصر أو خارجها. و هذه الحقيقة تبرزها بوضوح الخريطتين: الأولى رقم 6 ص 288 ، و الثانية رقم 7 ، ص 301. إذن كان النيل وفروعه عبارة عن طرق طبيعية إستغلها المصريون في تنقلاتهم وفي حركتهم اليومية و التجارية، فكانت السفن تجوبها وهي مشحونة بمختلف البضائع.

المبحث الثاني: القنوات

لقد عرف المصريون إنشاء القنوات منذ عصر ما قبل الأسرات ، و قد جاءت نتيجة لمعرفة إنسان ذلك العصر الزراعة و توسعها، فإضطره ذلك إلى إنشاء قنوات تصل مياه النيل بالأراضي التي تبعد عنه، لذلك نجد أن المصريين القدامى كانوا قد إستفادوا من براعتهم وتطورهم في علم هندسة القنوات في إنشاء منجزات في هذا المجال لتسهيل سير التجارة ولتصبح كطرق مباشرة إلى عالمهم الخارجي، وهي قنوات حفرت في شمال وجنوب البلاد.

المطلب الأول: قناة النيل - البحر الأحمر

وفي البداية أنطرق إلى القناة التي حفرت في شمال البلاد، والتي يطلق عليها الإغريق إسم: "ترعة سيزوستريس" أو " ترعة الفراعنة " ⁽¹³⁷²⁾ ، وفي النصوص المصرية كان يطلق عليها : " Kem – Ur - Mi " ⁽¹³⁷³⁾ . وقد دارت إختلافات بين المؤرخين القدامى في وجودها من عدمه وحتى في من بدأ حفرها أول مرة، و لذلك نجد المؤرخين المحدثين إنقسموا بدورهم حول هذا الموضوع ، فمشروع بناء هذه القناة ورد ذكره في مصادر إغريقية ورومانية منهم : هيرودوت، ديودور الصقلي، سترابون و بلين وغيرهم. وكان هيرودوت أول الكتاب القدامى الذين أشاروا إلى حفر القناة من قبل الملك " نخاو " وأكد بأنه لم يتمها ، حيث جاء في سياق كلامه ما يأتي : « و أنجب " ابسماتيك " ولدا، (هو) " نيكوس " حكم مصر، وهو أول من شرع في حفر القناة التي تؤدي إلى بحر " إروتري "، والتي أتم حفرها من بعده (دارا) الفارسي، وطول القناة يساوي مدى إبحار أربعة أيام، وقد حفرت عريضة، حتى أن سفينتين من ذوات ثلاثة صفوف من المجاديف تمخرانها جنبا إلى جنب^(*)، ويؤتى إليها بالماء من النيل، منصرفا من مكان فوق مدينة "بوباسطيس" بقليل، بالقرب من المدينة العربية " تاتوموس " و تنتمي إلى بحر " أروتري " : حفر منها الجزء الذي في السهل المصري من جانب بلاد العرب ، و يتصل بهذا الجانب إلى الشمال من السهل، سلسلة الجبال التي تواجه " ممفيس "، والتي توجد بها المحاجر و على ذلك فالقناة تجري بحذاء أسفل الجبل، ممتدة من الغرب إلى الشرق ثم تسير في منحدرات متجهة من الجبل نحو الجنوب أو نحو مهب الريح الجنوبية حتى تبلغ الخليج العربي – هناك، حيث - يوجد أصغر طريق وأقصره للذهاب من البحر الشمالي إلى البحر الجنوبي - وهذا نفسه يسمى بحر " أروتري " - من جبل " كاسيوس "، الحد الفاصل بين مصر وسورية»⁽¹³⁷⁴⁾.

(1368) - Strabon, XVII, Chap I, p 18.

(1369) - Diodore , Bibliothèque historique , I, 19.

(1370) - D.M.J. Henry , L'Egypte pharaonique..., Op-Cit , p. 451.

(1371) - M. Damiano – Appia , L'Egypte..., Op-Cit , p. 85.

(1372) - عبد الرحمن الرافي، تاريخ الحركة القومية ...، المرجع السابق ، ص. 63.

(1373) - M. Damiano – Appia , Op-Cit , p. 273.

(1374) - هيرودوت ، فقرة 158.

و يرى البعض بأن " ديودور الصقلي " كل ما قاله حول موضوع القناة هو إعادة لما ذكره هيرودوت أي أنه نسبها إلى الملك نخاو الذي بدأ مشروعها ولم يتمه (1375). ومما جاء في قوله عنها: « أنشئت قناة إتصال تنطلق من الخليج البلوزي إلى البحر الأحمر. وقد بدأ بناؤها نخاو ابن بسماتيك، و واصل عمله داريوس ملك الفرس، لكن بدوره أوقف العمل فيها لأن المهندسين كانوا قد أشاروا عليه بأن عمله ذاك سيغرق مصر لأن أرضها منخفضة عن مستوى سطح البحر الأحمر، وقد أنجزها فيما بعد بطليموس الثاني الذي وضع حواجز في مكان مناسب من القناة تفتح أثناء مرور السفن ثم تغلق فيما بعد » (1376). من خلال ما أورده ديودور عن القناة أستخلص أنه لم يردد فقط قول هيرودوت عنها بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين نفى أيضا عن داريوس الفارسي إتمامه لحفرها ، و نسب ذلك الإنجاز للإغريق الذين حسب رأيهم هم الذين وجدوا حلا لمشكلة القناة و هم الذين عرفوا كيف يستفيدون منها.

إلا أنه هناك من الكلاسيكيين من ينسب القناة إلى فراعنة مصر، و أولهم الفيلسوف الإغريقي "أرسطو"، الذي عاش بين 384 و 322 ق.م، والذي ينسبها إلى " سيزوستريس " وقال عنه بأنه لم يتمها (1377). وبدوره نسب سترابون في مؤلفه " الجغرافيا " حفر القناة إلى ذلك الملك، وأكد بأنه قد أتمها، بل أكثر من ذلك جعل تاريخ إنشائها يعود إلى قبل إندلاع الحرب الطروادية، وقد قال في هذا المجال بعد أن ذكر عديد القنات بشرق الدلتا : « قناة أخيرة تصب في البحر الإثري بمعنى في الخليج العربي (خليج السويس) بالقرب من مدينة " أرسينوي " Arsinoé ... هذه القناة تجتاز بحيرات عامر ... إن أول ملك شرع في حفر هذه القناة هو " سيزوستريس " منذ ما قبل حرب طروادة (Troie)، و حسب آخرين فإنه ابن إيسماتيكوس (نخاو الثاني)، لكن هذا الملك لم يستطع إلا بدء الأعمال، و قد توقفت بموته، وفيما بعد فإن داريوس الأول تابعها ... » (1378). فإن كان ديودور قد ردد ما قاله هيرودوت بخصوص هذه القناة ، فإن سترابون يفهم من قوله أنه جمع كل آراء من سبقه من الكلاسيكيين ، لأنه نسبها إلى ثلاثة حكام ينتمون إلى عصور مختلفة.

وحذى المؤرخون المعاصرون حذو القدامى في تضارب آرائهم حول وجود القناة من عدمه خلال العصر الفرعوني، وحتى الذين أكدوا وجودها، فإنهم لم تتفق آراؤهم على أول ملك تنسب إليه. ومن بين هؤلاء " جيمس هنري برستيد " الذي يؤكد على وجود القناة، ويقول بأنها تمتد من شمال البحر الأحمر، وتتجه غربا إلى أن تصل فرع النيل في شرق الدلتا، وبالتالي فقد توصل الفراعنة إلى ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر، وكانت سفنهم تعبرها قبل أربعة آلاف سنة من حفر قناة السويس (1379).

ويذكر " عبد الفتاح محمد وهيبه " ، بأن هذه القناة كانت تربط البحر الأحمر بالنيل عبر وادي طوميلات وبحيرات التمساح والمرة، لأن هذه البحيرات كان لها إتصال مباشر بهذا البحر، وأن أول من أقدم على حفرها هو الملك " سنوسرت الثاني " الذي ينتمي إلى زمن الدولة الوسطى، وذلك سنة 1900 ق.م، وكانت تمر بمدينتي " بيتوم " (تل المسخوطة) و " هيروبوليس " و حدد موقعها على بعد 36 كلم غرب مدينة الإسما عيلية اليوم، وهي تبعد بـ : 55 كلم عن شمال خليج السويس (1380).

وهناك من يرى بأن " سنوسرت الثالث " قام بعمل جبار و هو وصل البحر الأحمر بالنيل لأول مرة في التاريخ، و يؤكد هذا الرأي عديد المؤرخين، حيث يعتبرون هذا الإنجاز أقدم الطرق التي ربطت بين البحر الأحمر والنيل (1381).

و عليه، فإن هذا الملك يرجحه الكثيرون أن يكون أول من حفر القناة، لأنه رغم تميز عهده بتوسعات خارجية وغزوات عسكرية إلا أن إسمه إرتبط بكونه أول من جعل ربط البحر الأحمر بالنيل مباشرة عبر قناة. وقد كان إنجازها سهلا لوجود مجموعة من البحيرات التي تتصل بالدلتا بواسطة نهر ضيق هو " وادي طوميلات ".

أما " محمد بيومي مهران " فيرى بأنها كانت قد أنجزت خلال الدولة الحديثة (1382) ، و بعضهم حدد لها زمن الملك " سيتي الأول " كأول تاريخ لحفرها (1383)، وهناك من يرجع تاريخ أول حفرها إلى الألف الثالثة

(1375) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الأحمر ...، المرجع السابق ، ص. 199.

(1376) - Diodore , I , 19.

(4) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 199.

(*) - بذلك الوصف يكون عرضها يمثل حوالي 40 م .

(1378) - Strabon , XVII , Chap I , p. 25.

(1379) - جيمس هنري برستيد ، العصور القديمة ، المرجع السابق ، ص. 56.

(1380) - عبد الفتاح محمد وهيبه ، المرجع السابق ، ص. 230.

(1381) - عبد الرحمان الرافي ، المرجع السابق ، ص. 62.

ق.م، والذي عد عملا جبارا في ذلك العصر، ويبدو أن هذا العمل كان قد أخذ زمنا طويلا لإتمامه والذي أنهى خلال حكم " سنوسرت الثالث" (1384)، فهذا الرأي يرى أن القناة التي وردت إشارة إليها في زمن ذلك الملك من قبل بعض الكلاسيكيين، لم تكن المحاولة الأولى بل كانت ثمرة مجهود ومحاولات متكررة بدأت مع بداية العصر الفرعوني وإستفادت من التطورات في مجال هندسة القنوات التي إشتهرت بها مصر على أساس أنها أرض مغمورة بالمياه.

ويبدو أن هذا المنحى أخذ به العديد، فهذا " هرمان " (Z.Herman) الذي يذهب إلى أبعد من ذلك ويرى بأن تاريخ هذه القناة بدأ في عصر جد قديم، و يعطي تفسيراً بأن مصر كانت تقع على حافة البحر الأحمر وتملك من جهة أخرى مصبا عريضا على البحر المتوسط، ولتسهيل الإتصالات، وإقتصاد مصاريف النقل، و لخدمة بعثات الفراعنة، لزم على هؤلاء التفكير في يوم ما في هذا المسلك البحري (1385).

ويبدو أن هذه القناة قد أعيد حفرها في أزمنة لاحقة خلال الدولة الحديثة، و يرى " دوماس" أن ذلك إرتبط بالحكام الأقوياء، مثلما حدث زمن " تحوتمس الأول " و " تحوتمس الثالث " حيث فتحت القناة في عهدهما (1386)، ولو أنها كانت تتعرض للإهمال إلا أنها حفرت من حين إلى آخر مثلما حدث زمن الملك "سي تي" الذي أعاد حفرها في سنة 1250 ق.م (1387)، ومرة أخرى زمن الملك "رمسيس الثاني"، فمن أجل جعل إقامته في الدلتا في إتصال مباشر مع البحر الأحمر قام بترميمها وكلفه ذلك نفقات كبيرة (1388).

و إهمالها كان يتزامن مع إنحطاط المملكة، حيث كانت تغمر بالرمال والحجارة لدرجة أنه أحيانا لا يبق منها أي أثر، و طال إهمالها مدة 600 سنة إلى غاية أن جاء الفرعون " نخاو الثاني " الذي إرتبط إسمه بتطوير المجال التجاري، وقام بإرسال البعثات التجارية البعيدة (1389). فهذا الملك يكاد يجمع كل المؤرخين على أن إسمه إرتبط بهذه القناة سواء كأول من حفرها، وإن كان لم يتمها، أو على أنه أحد الملوك الذين أعادوا حفرها.

و رغم كل ذلك فهناك من ينفي قيام أي فرعون من فراعنة مصر بربط النيل بالبحر الأحمر و الإعتماد فقط على ما جاء به هيرودوت، و من هؤلاء أذكر " عبد المنعم عبد الحليم سيد " ، الذي قام - كما قلت - بحفريات على شاطئ ذلك البحر وإنطلاقا مما عثر عليه نفى نفيا قطعيا إمكانية وجودها (1390).

لكن إذا رجعنا إلى زمن قديم جدا نجد أن النيل كان متصلا بالبحر الأحمر، فخليج السويس كان يمتد إلى غاية الإسماعيلية أين كان يستقبل هنا ذراع نهر النيل الآتي من الدلتا، و الذي كان يجري مستقيما نحو الشرق، وأثار ذلك بادية من خلال المياه التي إنحصرت تاركة على الأرض بصماتها المتمثلة في : " وادي طوميلات " ، " بحيرة التمساح " و " بحيرة عامر "، فهذا التتابع كان يملئ على الإنسان تسطير هذه القناة ، ضف إلى ذلك أنه خلال القرن الثلاثين ق.م، كان الخليج يمتد بداخل الأراضي وكان إتصاله بالنيل عن طريق أحد الأذرع المائية للنيل وبالتالي كان بمثابة طريق طبيعي، إذن هناك سبب طبيعي يجعل المصريين يتوصلون إلى إمكانية ضرورة ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر من خلال وادي طوميلات، والذي يجري من الشرق إلى الغرب بين النيل والبحر الأحمر منذ العصر القديم الأعلى.

كما يعتقد البعض بأنه محتمل جدا أن الطريق المباشر من النيل إلى البحر الأحمر، كان مستعملا خلال فترة الفيضان، و عندما يجف الطريق، فإن الفراعنة كانوا يخلقون قناة صناعية (1391).

و أتساءل مع " فرانسوا دوماس " (François Daumas)، هل صحيح ما ذكره المؤرخون القدماء بأنه لا أحد من الفراعنة قد أنجز هذه القناة ؟. و يجيب ليس ذلك بدليل على عدم وجودها، لأن السبب في ذلك هو أنها لم تكن محفورة بصفة دائمة بل أنها كانت تهمل نتيجة لأسباب عدة منها الجفاف التدريجي الذي كانت تعرفه مصر،

(1382) - محمد بيومي مهران ، الحضارة المصرية...، المرجع السابق ، ص. 227.

(1383) - شكري صادق ، تاريخ الفنون الجميلة ...، المرجع السابق ، ص. 42.

(1384) - E. Angelucci et autre , encyclopedie des navires , Op-Cit , p. 20.

(1385) - Z. Herman , peuples ..., Op-Cit , pp. 79 -80.

(1386) - F. Daumas , Op-Cit , p. 234.

(1387) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، الدور المصري ... ، المرجع السابق ، ص. 20.

(1388) - P. Montet , la vie quotidienne en Egypte ..., Op-Cit , p. 181.

(1389) - Z. Herman , Op-Cit , pp. 81- 82.

(1390) - لمزيد من المعلومات والتفاصيل حول هذا الموضوع، الرجوع إلى كتاب البحر الأحمر و ظهوره في الجغرافيا و التاريخ لـ " عبد المنعم عبد الحليم سيد ".

(1391) - M. Damiano - Appia , Op-Cit , p. 195.

والردم الذي كانت تتعرض له القناة، وما يؤكد ذلك أن " نخاو " أعاد حفرها ولم يكن هو الأول الذي دشن ذلك العمل، لنفتح من جديد بعد مائة سنة و بلغت 80 كلم طولا، ومن الممكن أنه أثناء زمن الفراعنة لم تكن تصان بعناية إلا أثناء مراحل الإستقرار الحكومي والتبادلات التجارية المتتابعة(1392).

فالأمر ليس مدهشا ولا بالعمل الغريب على شعب إمتاز في كل وقت من تاريخه بإتقان حفر القنوات من أجل الري أن يقوم بالتفكير في جعل الفرع الشرقي من النيل يتصل بالبحر الأحمر، و كما قال " جيل أرتاغنيون " (André Gil-Artagnan) : « إن الفراعنة الذين برعوا في حفر قنوات الري و غيرها ليس من الصعب أو المستحيل قيامهم بحفر تلك القناة وهو عمل من إنجاز الفراعنة ولا تعود أسبقيته لأحد غيرهم»(1393).

فدافع المصريين هو قوي جدا لأن تكون لهم محاولات لربط النيل بالبحر الأحمر ليكون طريقا مباشرا يسهل إرسال البعثات نحو الجنوب ويتفادون بذلك عناء شحن وتفريغ البضائع من سفينة عند شاطئ البحر وشحنها في أخرى عند النيل، ومع أن الأمر مؤكد بعبور البعثات التجارية عبر " وادي حمامات "، لكن ذلك لا يعني أنه دليل على أنه لا يوجد وسيلة للإبحار بين البحر الأحمر والنيل، لأن البعض أخذ نقوش رحلة الملكة " حتشبسوت " كدليل على ذلك ، ولو أن " عبد المنعم عبد الحليم سيد " كان قد نفى تفسير الرحلة بأنها كانت متواصلة من البحر إلى النهر.

ومن الناحية الأثرية فإنه عند حفر قناة السويس في العصر الحديث وجدت بقايا تدل على أن القناة القديمة قد حفرت أو أعيد حفرها زمن الملك " رمسيس الثاني " لجعل إقامته في الدلتا تتصل مع البحر الأحمر، وكانت تحاذي تلك القناة مدنا منها " برعمسيس " و " بوباسطي " و " بيتوم " ، وكانت توضع على طولها مسلات من الغرانيت منتصبة على ركائز عالية تخلص مجد الفرعون وأعماله(1394).

ومن جهته يرى " دومينيك ماييه " (Dominique Maillet) أن الحجة المقدمة من قبل البعض على أن القناة لم تحفر إلا في عهد الإغريق الذين كانوا يمتلكون تقنية بناء حواجز (écluses) بداخل القناة، ليست بالحجة القوية بما أن الفارسي " داريوس الأول " كان قد أعاد حفرها وإستخدامها، وهو ما يدل عليه نصبه هناك، وبالتالي فإن كل ما فعله هو الإستفادة من تقنية الفراعنة في ذلك ، وعليه فإن هؤلاء كانوا قد حفروها في وجه الملاحة بفضل مهندسيهم الذين إستعملوا تقنية قد تخالف تقنية الإغريق لمعادلة مستوى سطح البحر الأحمر بمستوى مياه النيل لتسهيل عبور المراكب(1395).

وأنا أؤيده فيما يذهب إليه وأقول أن الذي إستطاع حفر قنوات للملاحة في الجنوب – سأذكر ذلك لاحقا – منذ الدولة القديمة، وربما كان حفرها أصعب من حفر هذه القناة، والذي شيد المباني الجنائزية والدينية الضخمة التي ظلت خالدة لآلاف السنين بإمكانهم حفر مثل تلك القناة التي تعد في إنشائها وهندستها أسهل بكثير من هذه المنشآت المدهشة التي أسسها الفراعنة، خصوصا وأن المصريين كانوا مولعين كثيرا بحفر القنوات ليس فقط من أجل الري بل أيضا لإستخدامها في التنقل والأغراض التجارية، وسبق وأن ذكرت عند التطرق إلى فروع النيل بأن سترابون قال بأن الفروع الصغيرة كانت ترتبط فيما بينها بقنوات تشكل شبكة كاملة للملاحة الداخلية ، كما أجد هيرودوت في حد ذاته، والذي إعتد الكثيرون على شهادته في تأكيد رأيهم بعدم وجود القناة ، لم ينكر وجودها بل كل ما ذكره أن الملك "نخاو" لم يتمها، وحسب ما أورده هذا المؤرخ من خلال العبارات التالية: « ولما توقف " نيكوس " عن حفر القناة، وجه إهتمامه نحو الخدمة العسكرية، فبنى ذوات ثلاثة صفوف من المجاديف، بعضها للبحر الشمالي وبعضها الآخر في الخليج العربي في بحر أروتري. ومازال من الممكن، حتى الآن، رؤية الأماكن التي كانت تحفظ بها»(1396)، وأشار في موضع آخر قائلا: « طول القناة يساوي مدى إبحار أربعة أيام، و قد حفرت عريضة، حتى أن سفينتين من ذوات ثلاثة صفوف من المجاديف تمخرانها جنبا إلى جنب »(1397)، فإنني أرى في ذلك دليل على حقيقة وجود القناة أثناء العصر الفرعوني . لأن الأسطول الذي كان يجوب البحر الأحمر لابد أنه كان يجتاز تلك القناة ذهابا وإيابا مثلما كان عليه الحال زمن حكم الملك الفارسي " داريوس ".

(1392) - F. Daumas , Op-Cit , p. 235.

(1393) - André Gil – Artagnan , « essai de reconstitution d'un navire et d'une navigation antique », *Archéologia*, 96, -

(Juillet 1976) , p. 54.

(1394) - P. Montet , Op-Cit , p. 181.

(1395) - D. Maillet , les rapports des Grecs avec l'Egypte..., Op-Cit , pp.184-185.

(1396) - هيرودوت ، فقرة 159.

(1397) - نفس المرجع ، فقرة 158.

وإذا رجعنا إلى الوثائق المصرية فإنه تم العثور على بردية تسمى بردية "ميليت" تعود إلى زمن الملك "نيخاو الثاني"، والتي تناولت موضوع القناة ومما جاء فيها: «لقد أمرت رجالك أيها الملك العظيم بأن يعيدوا حفر القناة التي سبق لسلفك العظيم "سيتي الأول" حفرها لتوصل بحر الشمال ببحر "أروتري الجنوبي" مرة ببحيرات المرّة، إنني أرى وراء الغيب أن عملك هذا سيجلب الضرر على الغريب دون القريب وعلى الأجنبي دون الوطني. إنك اليوم تتقاضى الرسوم على مرور الناس بأرضك وعلى مرور التجارة والقوافل وتتحكم في مصير الناس والبضائع. أما غدا عندما تفتح القناة فتسير بها الجميع وتجذب الجميع. ستجذب مطامع أعدائك فتفقد السيطرة على القناة وتجعل للخطر منفذا إلى قلب بلادك. فبحق الآلهة وبحق الوطن عليك مرّ بوقف العمل في الحفر. لا كانت القناة ولا كان الإتصال» (1398).

ومن جهة أخرى تناولت بردية "أنسطاسي الأول" الكلام عن رحلات الملك "سيتي الأول" وجاء فيها ذكر للقناة فيما يلي: «أقام [سيتي الأول] قلعة "ثارو" على القناة الفاصلة التي تفصل مصر عن الصحراء الشرقية»، وقدمت البردية رسما يوضح القناة والأشجار التي تحيط بها من الضفتين من أجل حمايتها من الرمال. كذلك نجد دليلا كتابيا نستمد من المؤرخ "مانيتون" الذي يقول بأن "سيتي الأول" سلك نهج "سنوسرت الثالث" في إعادة حفر القناة. إضافة إلى ذلك وجدت لوحة تخلد إفتتاح الملك "سنوسرت الثالث" للقناة عام 1874 ق.م، وهي أول وثيقة تذكر القناة التي أفتتحت «في الشهر الثاني من فصل الفيضان في العام الثاني عشر من حكمه بعد إنتصاراته المجيدة على قبائل الشاسو و الرتينو والأقواس السبعة»، من خلال هذه اللوحة تبدو القناة بأنها ثلاثية تربط كل من البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر عند بحيرة المرّة ومن هذه الأخيرة هناك قسم يصلها بالنيل عند مدينة "منف"، وقد سجلت هذه اللوحة على الواجهة الخارجية للجدار الشمالي لمعبد "الكرنك" (1399). ويمكن مشاهدة هذه القناة الثلاثية مسطرة على الخريطة رقم 03 ص 276.

وأمام هذه الوثائق الأثرية والكتابية تتضح جليا حقيقة وجود القناة، ولا أدري لماذا دار كل ذلك الجدل وتمسك بعض المؤرخين بعدم وجودها.

المطلب الثاني: قنوات الشلال الأول

فإذا كانت قناة ربط النيل بالبحر الأحمر دار حولها جدال بين مؤيد ومعارض لوجودها، فإن القنوات التي حفرت في الجنوب لم يحدث حولها مثل ذلك الجدل. وأول من أثبت تاريخيا قيامه بحفر قنوات في الجنوب هو "أوني" (Ouni)، حيث حفر خمسة في سنة واحدة حتى تتمكن المراكب من الوصول إلى مجرى النهر تقاديا للشلال الأول (1400)، وقد كلفه بحفرها الملك "مرنرع" (Merenrâ)، وهي عبارة عن خمس ممرات مائية في منحدرات أسوان تسمح بمرور أسطول صغير مكون من سبعة سفن (1401).

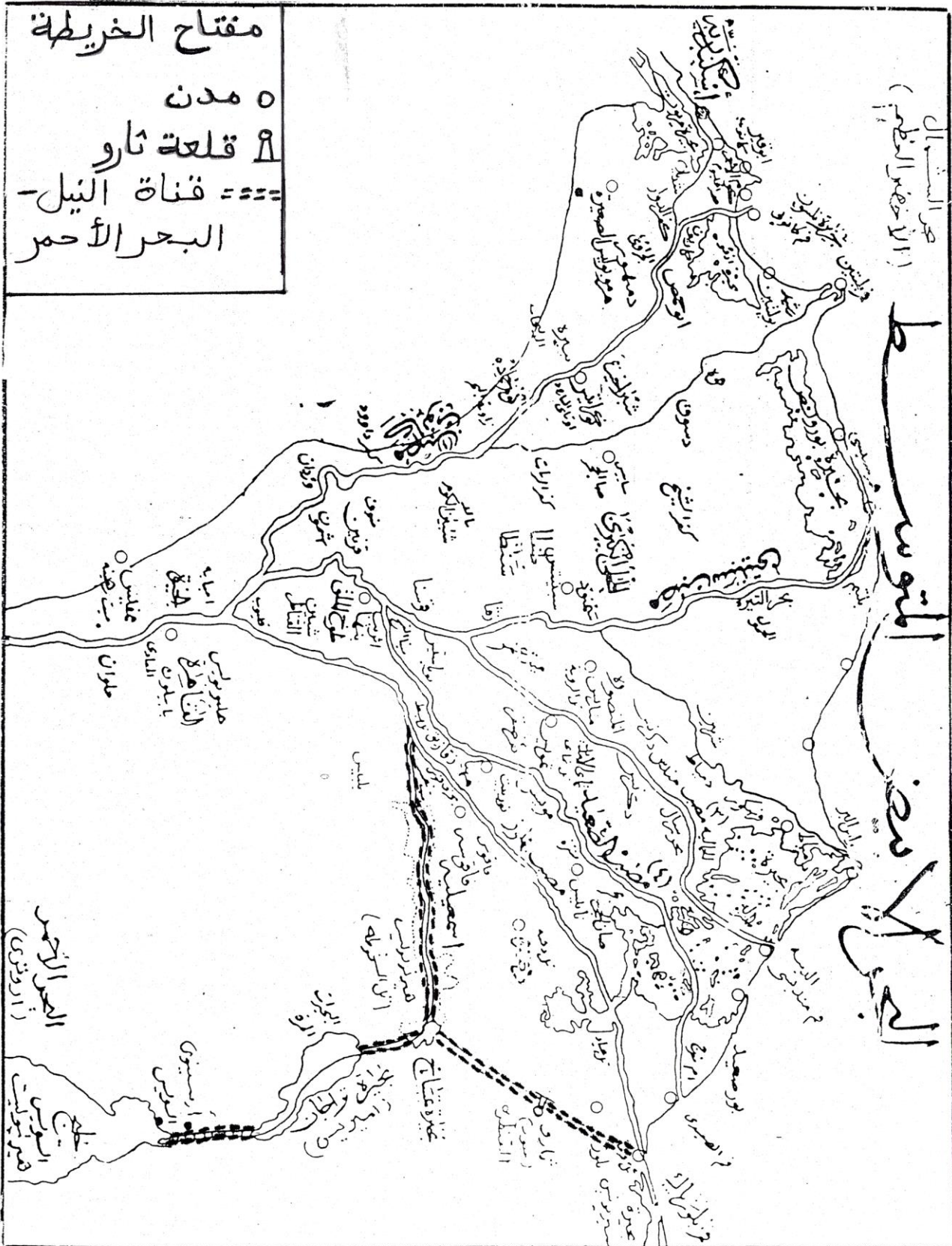
و المعروف عن الملك "مرنرع" أنه إهتم بالجنوب بصورة خاصة، و إعتد في ذلك على أمراء "إيفنتين" في القيام بعمله هذا وهو حفر قناة في حجر الصوان على مقربة من الشلال الأول من أجل تسهيل

(1398) - سيد كريم، لغز الحضارة المصرية، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996) ص ص 267، 269.

(1399) - نفس المرجع، ص ص 263 - 267.

(1400) - F. Daumas , Op-Cit , p. 234.

(1401) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, pp. 283 - 284.



المرجع: سيد كريم، المرجع السابق، ص 265 .

مهمة البعثات التجارية إلى بلاد النوبة وقد عاين ذلك المشروع بنفسه حيث عبر تلك القناة ليدشن عملية إستكشاف الجنوب عبرها (1402).

فكان ذلك العمل عبارة عن خط متواصل عبر الماء مع محاجر الغرانيت في النوبة بواسطة تتابع خمس قنوات محفورة عبر الحواجز الغرانيتية للشلال الأول (1403)، أي أنها حفرت بالقرب من هذا الأخير الذي كان يدعى في ذلك الوقت "البوابة الجنوبية"، وخلافا لما ذكرته فإن البعض يرى أنها حفرت في عهد "بببي الأول" و كان الهدف منها هو الدوران حول الشلال وقد دام العمل بها سنة (1404)، وبذلك ظهر مسلكا مائيا جديدا للأغراض التجارية.

إلا أن المتعارف عليه هو أنها فتحت في عهد الفرعون "مرنرع" من أجل تسهيل الملاحة في الجنوب ، فهذا الملك أمر وزيره "أوني" (Ouni) بحفر تلك القنوات (1405). أو أن بداية الأعمال كانت قد إنطلقت في عهد "بببي الأول" و أستكملت في عهد خلفه.

و مثلما هو الحال في حفر قناة النيل – البحر الأحمر فإن قنوات الشلال الأول بدورها إرتبط ذكرها بفترات متكررة وبملوك كبار ، أو بالأحرى أعيد حفرها خلال عصور لاحقة ، و أخص بالذكر منهم الملك "سنوسرت الثالث" الذي عدت أعماله هناك عظيمة، وقد حدث ذلك في السنة الثامنة من حكمه، ولم يكتف بإعادة حفرها بل عمل على توسيعها (1406)، وقد إرتبط عمله ذاك بأشهر بعثاته التي أرسلها إلى الجنوب – أي بلاد النوبة - التي قامت بحفر قناة بالقرب من الشلال الأول من أجل أن تجتازها "مراكب الشحن" تقاديا للشلال ، وهكذا إجتازت بعثته القناة إلى غاية أن وصلت إلى الشلال الثاني (1407).

وجدت نقوش تخلد حفل إفتتاح القناة من قبل "سنوسرت الثالث" عند جزيرة "سهل" حيث صور فيها هذا الملك، وتصف أيضا أبعاد القناة، كما أنه وجدت بعض البرديات تتكلم عن هذه القناة في عهده، إذ سمح بممارسة الصيد فيها ونقل البضائع عبرها، وكذلك الإشارة إلى الإعتناء بها بعد كل فيضان (1408).

وكان عمل "سنوسرت الثالث" ذو أبعاد معتبرة إذ أن طولها 80 م و عرضها 10م، وعمقها 7م (1409)، إلا أنه يوجد إختلاف بسيط في تحديد أبعادها بين المؤرخين فمنهم من يحددها بـ: 90 م طولاً و 10م عرضاً وعمقاً، وهذه الأبعاد تسمح لمرور مراكب كبيرة الحجم (1410). و هكذا قام الملك "سنوسرت الثالث" بتوسيع قناة "مرنرع" التي كان قد بناها هذا الأخير خلال الأسرة السادسة بالقرب من الشلال الأول لتسهيل مرور المراكب في منحدرات "أسوان"، وقد أطلق هذا الملك على تلك القنوات إسم "جميلة هي طريق" "خع كاورع" (1411)، و كان هذا الملك قد أعاد حفرها خلال سنة 1871 ق.م، عبر حاجز من الغرانيت (1412). و من جهته قام "تحوتمس الأول" خلال الدولة الحديثة بتكليف نائب الملك الجديد المدعو "تو- رع" (Thourê) بتهيئة قناة الشلال الأول ونزع الرمال عنها وفتحها من جديد في وجه الملاحة (1413).

و الملاحظ أن قنوات الجنوب كانت مفتوحة بصفة متواصلة طيلة العصر الفرعوني، و لو أنها أحيانا لم يهتم بها نتيجة لتدهور التجارة و ضعف مصر ككل. على العموم فإن هذه القنوات كانت تشكل مسالك مائية هامة في الحركة التجارية ، خاصة و أن مصر تعتمد في حياتها على النهر و فروعها ، فكان وجود القنوات أمرا ضروريا لا مفر منه.

المبحث الثالث: الطرق البحرية

لا أغادر الحديث عن المجاري المائية دون التطرق إلى الطرق البحرية، التي تعد سبلا هامة في شبكة الطرق التجارية في أي زمن، فما بالك في العصر القديم، الذي إرتبط فيه وجود الأمم التجارية الكبرى بسيطرتها على مثل هاته الطرق، فهل تحقق ذلك لمصر خلال العصر الفرعوني؟، وما هي المسارات التي سلكتها التجارة المصرية؟.

(1403) - J.H. Breasted , histoire de l'Egypte..., Op-Cit , p. 137.

(1404) - Z. Herman , Op-Cit , p. 80.

(1405) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، المرجع السابق ، ص ص. 24- 25.

(1406) - M. Damiano – Appia , Op-Cit , p. 229.

(1407) - M. Tariel , chronique des civilisations..., Op-Cit , p. 67.

(1408) - سيد كريم، المرجع السابق، ص 266.

(1409) - F. Daumas , Op-Cit , p. 234.

(1410) - Z. Herman , Op-Cit , p. 80.

(1411) - أحمد أمين سليم ، في تاريخ الشرق الأدنى...، المرجع السابق ، ص. 149.

(1412) - E. Hornung , lecture de l'histoire égyptienne , Op-Cit , p. 79.

(1413) - H. Gauthier , l'Egypte pharaonique , Op-Cit , p. 138.

المطلب الأول: طرق البحر المتوسط

في شمال مصر كانت تنطلق طرق بحرية في اتجاه " جبيل " و " قبرص " و " كريت " و بحر " إيجا " عموما ، فماذا عن هذه الطرق ؟.

أ- الطريق بين مصر وساحل مدرجات الأخشاب :

يرى " كاسون " (L.Casson) بأنه قبل عصر الملك " سنفرو " لا يمكن الجزم فيما إذا كان الطريق التجاري بين مصر وساحل مدرجات الأخشاب يمر عبر البحر ، لكن نتيجة للنص الذي يعود إلى زمن ذلك الملك نعرف بشكل مؤكد بأنه حوالي الألف الثالثة ق.م، هناك أسطولا مكونا من أربعين سفينة كان قد غادر ميناء ذلك الساحل وسافر بحرا نحو مصر ، وهو محملا بشحنة من أرز لبنان (1414).

لكن " ديكمانس " (G.Dykman)، يرى بأن الطريق البحري إلى ساحل مدرجات الأخشاب معروف قبل عهد هذا الملك ، إذ كان مفتوحا منذ زمن طويل لهذا النوع من التجارة، وكل ما فعله " سنفرو " هو إحياء العمل الذي كانت تقوم به قبله مدن الدلتا منذ ما قبل العصر " الثاني " في تعاطيها لتلك التجارة مع ذلك الساحل (1415).

وما يدل على أن هذا الطريق كان يتردد عليه من قبل المصريين هو قصة " أوزيريس " و التي تعد أقدم المصادر التي تذكر هذا الطريق. فهذه القصة تثبت بأنه عرف منذ زمن جد قديم، و تروي أحداثا منذ ولادة " أوزيريس " ، و كان له أخ يدعى " ست " الذي أقدم على حبك خيوط مؤامرة بمساعدة إثنين و سبعين رجلا، حيث صنع صندوقا، وفي سهرة عشاء، أعلن فيها على أن ذلك الصندوق الثمين سيكون هدية منه للشخص الذي يكون الصندوق مقاسه، وهكذا جرب " أوزيريس " التمدد فيه، وعندما أطبق رجال "ست " على " أوزيريس " بغلقهم الصندوق، رموا به في نهر النيل وقاده التيار إلى أن أوصله إلى مياه البحر المتوسط، ومن هناك ظل يسير إلى أن وصل ميناء " جبيل " وساقته المياه عند شجرة صغيرة فنمت حوله، ولفنت إليها بحجمها ذاك إنتباه ملك " جبيل " ، الذي إتخذها كعماد في قصره. وقد علمت أخت " أوزيريس " بما حدث لأخيها عن طريق الريح فإلتحقت به وظلت تبكيه بصمت على الشاطئ فلما رأتها ملكة " جبيل " و علمت بقصتها أعادت لها الصندوق بعد نزعها من جذع الشجرة وحملته في سفينة أبحرت إلى مصر (1416).

هذه القصة تدل على قدم إستخدام هذا الطريق بين مصر وسواحل البحر المتوسط وتحديد مدينة "جبيل " أي أنه يعود إلى زمن حكم الآلهة في مصر، كما تعطينا من جهة أخرى فكرة على أن السفن البحرية قد بنيت في أزمنة موعلة في القدم قبل العصر الفرعوني، ومن جهة أخرى تعطينا سيرا مفصلا عن الطريق البحري من النيل إلى ساحل مدرجات الأخشاب، و الذي يبدأ من النيل ثم يصل البحر حيث قادت الأمواج ذلك الصندوق إلى غاية " جبيل " ، كما تبين بأن طريق العودة كان نفسه.

ولو أن السفر إلى هناك كان ميسرا عبر طريقين : طريق بري بمحاذاة طول الشاطئ، والطريق البحري، إلا أن هذا الأخير كان على ما يبدو الأهم، ولو أن الملاحة فيه تكون أكثر ملائمة خلال شهري ماي وجوان عندما تهب الرياح الشمالية (étésiens)، حيث أن المراكب الشراعية الكبيرة كانت تجتاز خلال أربعة أيام مسافة 650 كلم، وهي المسافة التي تفصل دلتا النيل عن شاطئ " جبيل " (1417).

فهذا الطريق ينطلق من أحد مصبات نهر النيل على شاطئ البحر المتوسط، و أنا أرجح أنه أقصى الفروع الشرقية، و من هناك يعرج إلى الشرق بمحاذاة شاطئ شبه جزيرة سيناء ثم يمتد إلى الشمال بمحاذاة شواطئ فلسطين ثم ساحل مدرجات الأخشاب إلى أن يصل مدينة " جبيل " ، والملاحظ أن هذا الطريق يمر بمحاذاة السواحل ولا يبتعد عنها. و بمشاهدة الخريطة رقم 04 ، ص 280 ، أجدها تشير بوضوح إلى هذا الطريق و هو باللون الأحمر الذي يحاذي عديد المحطات بل و يتجاوزها إلى آسيا الصغرى. كما كان لهذا الطريق فرعان أحدهما يتجه إلى جزيرة قبرص و الآخر إلى جزيرة كريت.

(1414) - L. Casson , les marins de l'Antiquité..., Op-Cit , p. 15.

(1415) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 1, p. 230.

(1416) - محمود عبد الحميد أحمد ، الصلات التجارية بين مصر و سورية...، المرجع السابق ، ص ص. 193-194.

(1417) - C. Lalouette, Thébès ..., Op-Cit , p. 72.

خريطة رقم 04 : الطرق التجارية في البحر المتوسط



المرجع (بتصرف) : B. Manley, Atlas historique ... Op -Cit, p.49.

وأستخلص من ذلك بأن الطريق البحري من مصر إلى ساحل مدرجات الأخشاب لا يتوقف عند "جبيل"، بل كان يصل نقاطا أخرى من هذا الساحل إلى غاية "أوغاريت" وما ورائها، والدليل ما ذكرته في الفصل الثالث بأن البعثات التجارية كانت تصل إلى تلك المناطق . كما أن هذا الطريق كان مستعملا أيضا من

قبل الكنعانيين وخاصة في عصر ازدهار الفينيقيين، وبرزهم كقوة بحرية، كما أستخلص بأن الطريق البحري لم يتوقف عند مصبات النيل بل أنه يستمر عبر فروعه ليصل إلى العاصمة، وبالتالي فإن النيل كان يشكل جزء من هذا الطريق التجاري المشهور.

ب - الطرق بين مصر وبحر إيجا

إن المراكب المصرية زارت معظم موانئ شرق المتوسط، إذ وجدت آثار على مرورها من هناك سواء في موانئ فلسطين، الساحل الفينيقي، أو في جزيرة قبرص.

فالوثائق السابقة للدولة الوسطى - كما علمنا فيما سبق - كانت قد ذكرت " كريت "، وعليه يحتمل منذ ذلك الوقت وجود طريق بحري يربط مصر بكريت، فالمسافة التي تفصلهما تقدر بـ 400 ميل، والمدة اللازمة لقطعها لا تتعدى خمسة أو ستة أيام من الإبحار أثناء طقس جميل خصوصاً وأن المصريين لهم القدرة على الإبحار في عرض البحر إلى كريت(1418).

لكن " ثركوتيه" يقدر المسافة التي تفصل أقرب نقطة من الشاطئ الكريتي عن المصب الكانوبي للنيل بحوالي 500 كلم، أي 270 ميل بحري، وهي حسب تعبيره مسافة ليست بالضخمة ويستدل على ذلك بما جاء في الأوديسا التي تقدر تلك المسافة بخمسة أيام، وبالتالي فهو دليل تاريخي على هذا الطريق المباشر من كريت إلى مصر(1419). ومما جاء في الملحمة الشعرية لهوميروس عن هذا الطريق العبارات التالية: « ركبنا السفن و أقلعنا من كريت الفسيحة، بينما تهب الرياح الشمالية رقيقة و معتدلة، وأخذنا نشق طريقنا في سرعة وسهولة كأننا مع التيار... وصلنا في اليوم الخامس إلى أيجيبتوس (Aegyptus) الهادئ الجريان »(1420).

من جهة أخرى فإن هذا الطريق ترددت عليه شعوب بحر إيجا و منهم خاصة الإغريق، و لو أن بحرية هؤلاء كانت تتكون من مراكب تسير بمحاذاة السواحل، إلا أن النصوص بيّنت بأن هذه البحرية كانت تتردد على طريق مباشر من بحر إيجا إلى مصر، وكان يساعدها في ذلك الرياح الشمالية الشرقية (étésiens) والتي هي ربح موسمية ذات اتجاه واحد من الشمال إلى الجنوب حيث تهب خلال كل فصل الصيف بانتظام، بينما عند العودة فإن الإبحار كان يتم بمحاذاة الساحل الآسيوي، و ما يثبت ذلك أيضاً أن المراكب في الوقت الحالي تستفيد من هذه الرياح باتجاه الجنوب وهي محملة بمحصول العنب الطازج من جزر سيكلاد إلى مصر(1421)، وكان التاريخ يعيد نفسه، فهي تعطي صورة عما كان يجري منذ آلاف السنين حيث كانت تشحن المراكب من جزيرتي كريت وقبرص بالمنتجات إلى مصر من خلال ما أثبتته رسائل " تل العمارنة " التي تطرقت إليها في الفصول السابقة.

و يذكر "ديكمانس" نقلاً عن " برستيد" بأن المسافة التي تفصل مصبات النيل عن سهل " ميسارا " (Messara) تبلغ 340 ميلاً والتي يمكن اجتيازها خلال ثلاثة أو أربعة أيام بفضل التيارات البحرية وبفضل الرياح الشمالية(1422)، فهذه الرياح التي تدفع بقوة مراكب جزر السيكلاد باتجاه " كريت "، ومن هذه الأخيرة إلى مصر والتي تهب من الشمال إلى الجنوب، كانت بدون شك ملائمة للملاحة بين كريت ومصر(1423). إن الطريق المباشر من مصر إلى كريت هو بدوره محدد بفصل الصيف و لم تكن تساعده الرياح بل كان الإبحار عبره يعتمد على المجداف(1424).

و مع ذلك فإن هناك من يستبعد الإبحار المباشر بين الطرفين، و أخص أسباب ذلك في ما يلي:

- 1 - إن ظروف الملاحة لم تكن تسهل أبدا العلاقات المباشرة بين كريت و مصر على أساس أن المراكب البسيطة لا يمكنها الإبحار في عرض البحر و كذا النفور من الملاحة الليلية.
- 2 - إن الرياح كانت عقبة في اجتياز المسافة في الاتجاه من مصر إلى كريت، و لو أن هبوب الرياح الجنوبية يشجع على الإبحار في ذلك الاتجاه، إلا أنها كانت غير منتظمة وبالتالي فالمجداف هو الوسيلة

(1418) - M. Damiano- Appia, Op-Cit , p. 195.

(1419) - J. Vercoutter, essai sur les relations..., Op-Cit , pp.13-14.

(1420) - هوميروس، فقرة 14.

(1421) - C' Lefebvre Des Noëttes, de la marine antique à la marine moderne, la révolution de gouvernail, (Paris 1935), p. 59.

(1422) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 1, p. 253.

(1423) - G. Glotz , la civilisation égéenne , Op-Cit , p. 5.

(1424) - L. Des Noëttes , Op-Cit , p. 59.

الوحيدة في هذا الإبحار الذي لا يكون إلا في فصل الصيف ، لأن العواصف المفاجئة في فصل الشتاء تقرر على المراكب الشراعية البقاء في الموانئ.

3 - إن المراكب بدون أترابيل لا تستطيع المقاومة و تحمل الضغط الجانبي للرياح لأنه من الصعب إيجاد إجابة عن إمكانية قيام مركب مصري قديم بقطع المسافة المباشرة في إتجاه مصر - كريت.

و عليه فإن هذا الرأي يرجح أن الإتصال بين الطرفين كان يتم عبر طريق غير مباشر والذي كان حسب هذا الرأي هو الحل الوحيد بين كريت و مصر و هو بذلك وسيلة أخرى تعوّض الإتصال المباشر ، و هو الطريق الوحيد المضمون لمراكب ذات الحمولات الصغيرة ، و عند الإنطلاق من كريت يمر بـ: كاسوس ، كارباثوس ، و يصل إلى غاية رودس و شاطئ الأناضول ، و له محطة عند قبرص ثم يصل إلى الشاطئ السوري - الفلسطيني، و الذي يمتد بمحاذاته إلى غاية مصر. و بدلا من الرياح المنتظمة فإن الربان القديم كان يجد أماكن لرسو السفن أثناء الليل ، و التي تعتبر كملاجئ في حالات الطقس السيئة، و أيضا إمكانية التزود بالماء. و مع ذلك فهناك من ينتقد هذا الرأي على أساس أن الطريق كان طويلا جدا (أكثر من 1500 كلم) ، و هي ملاحية تدوم إثنا عشرة يوما على الأقل. و بالتالي يقدم احتمال أسهل للتطبيق و يكون مباشرا بين الطرفين و هو إمكانية وجود طريق غربي مريح للبحارة القدامى مثلما هو الحال مع الطريق الشرقي بل هو أقصر منه . إلا أن هذا الاحتمال لا يصمد أمام نقص الأدلة التي تجزم بتعدد القدامى عليه، لأن الشاطئ الإفريقي بكل بساطة من قورينة إلى الدلتا لم يكتشف أثريا . و عليه فإن هذا الرأي يخلص إلى ترجيح الطريق الشرقي عبر قبرص و الشاطئ السوري على أنه الطريق الأكثر ترددا. و يرى بأن الملاحية من كريت إلى مصر هي ملاحية إستثنائية ، لأن الإجتياز يتم خلال الصيف و خلال فترات هبوب الرياح الشمالية ، كما أن الظروف الطبيعية و إن لم تمنع الرحلات البحرية ، فإن ذلك السفر يكون خطرا نتيجة لعدم إنتظام الأمواج التي تكون عنيفة أحيانا (1425).

إن تحليل " فركوتيه " هذا كان أكثر من مهم لأنه درس كل الاحتمالات، إلا أنه يعثره نقص لعدم أخذه بما جاءت به الأوديسا و بعض من المصادر الكلاسيكية، وهي إثباتات تاريخية على إبحار شعوب بحر إيجا المباشر إلى مصر ، كما دفعني لأعقب على إستنتاجه بأن الملاحية من " كريت " إلى مصر هي ملاحية إستثنائية ، فأنا لا أتفق معه في وصفها كذلك، لأن كل الرحلات المصرية كانت تحدث في مواسم معينة و في أوقات محددة سواء في البحر المتوسط أو في البحر الأحمر. كما أن الرحلات التجارية الإيجية والإغريقية كانت تحدث بإتجاه مصر مرتين في السنة ، و هذه المسائل تطرقت إليها في مواضع متفرقة من الدراسة ، وبالتالي فهي ملاحية منتظمة تحدث كل سنة و لا يصح وصفها بالإستثنائية ، لأن الإقرار بذلك يعني أن حدوثها ليس متكررا بل هو نادر.

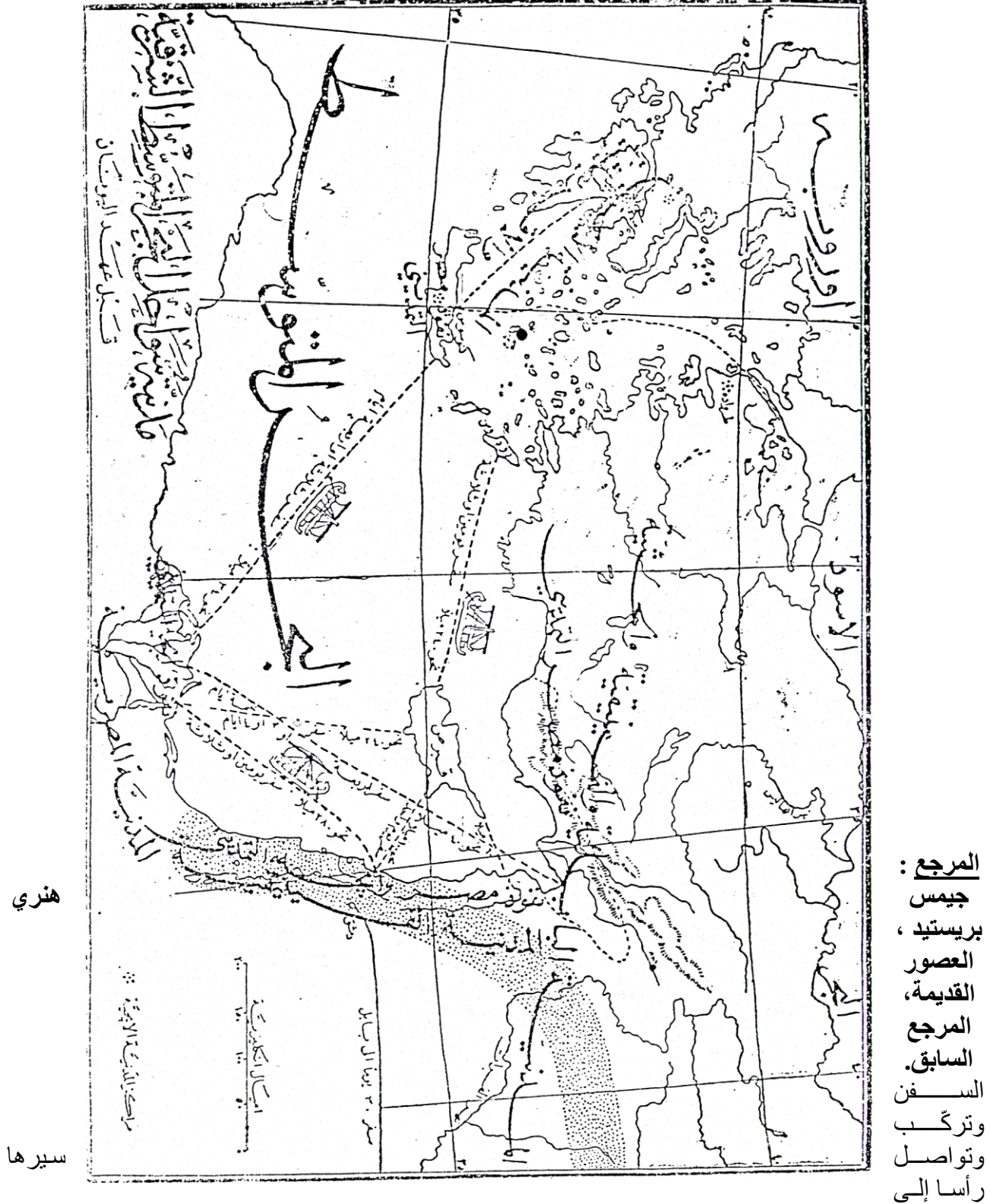
في ختام الكلام عن مسالك البحر المتوسط رأيت أنه من المفيد تقديم التخطيط الذي وضعه المؤرخ " بريستيد " عن طرق هذا البحر التي كانت تشكل شبكة إتصال بحرية ترتبط بمصر (أنظر الخريطة رقم 05 ، ص 284) ، وهناك مسألة لابد من توضيحها وهي أنه رغم أهمية الخريطة إذ أنها تعطي تفاصيل عن مسافة المسالك ومدتها الزمنية بالأيام، إلا أنني لمست فيها إختلافات طفيفة مع ما أتيت على ذكره بخصوص هذه التفاصيل .

المطلب الثاني: طرق البحر الأحمر

إن التواجد المصري في البحر الأبيض المتوسط خلال العصر الفرعوني قد تزامن مع وجود قوى تجارية أخرى شاركت المصريين تعاطي التجارة فيه، وأحيانا تنافسهم وتشكل لهم عقبات لدرجة حدوث تصادم، بل أن هذا البحر كان يشهد إرتفاع قوى ونزول أخرى، لكن البحر الأحمر كان خلال العصر الفرعوني أو على الأقل إلى غاية الدولة الحديثة على عكس ذلك، إذ كانت السيطرة المطلقة فيه للمصريين، ولم يسجل خلال هذه المدة الزمنية أن نافسهم أحد فكانت مصر الأقدم تواجدا فيه، والمتعدد على طرقه بدون منازع، وهي طرق تجارية بالدرجة الأولى، إلا أنها لعبت أدوارا متفاوتة الأهمية بالنسبة لمصر.

إن مصر عرفت طرقا مختلفة نوعا ما إلى بلاد " بونت "، وقد تغيرت بتغير العاصمة، ففي عهد الدولة القديمة كانت عاصمة مصر هي " منف "، فكان الطريق البحري الذي يصل إلى بلاد " بونت " ينطلق منها متجها إلى السويس الحالية ، دون المرور بأية مدينة أخرى ، و هناك على ساحل البحر الأحمر تصنع

خريطة رقم 05 : تخطيط " جيمس هنري بريستيد " للطرق التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط



الجنوب، وكان طريق العودة يتخذ نفس طريق الذهاب (1426).

فكان الطريق الأول خلال الدولة القديمة طريقا غير مباشر يبدأ من ممفيس ثم يسلك الصحراء، شرق هذه المدينة إلى غاية نقطة الإبحار على ساحل البحر. كما كان هناك طريقا ثانيا خلال الدولة القديمة لكن هذه المرة إنطلاقته من سواحل سيناء، ثم الإبحار من هناك على طول سواحل البحر الأحمر باتجاه الجنوب (1427)، وهذا راجع - كما مر بنا - للإرتباط الوثيق بين البعثات إلى المناجم والبعثات التجارية. وهناك دليل مادي على وجود هذا الطريق الممتد من خليج السويس إلى جنوب البحر، والمتمثل كما سبق وأن ذكرت في سيرة "بيبي نخت"

(1426) - عبد الفتاح محمد وهيبة، المرجع السابق، ص. 311.

(1427) - B. Manley, Atlas historique... Op-Cit, p. 74.

الذاتية التي يروي لنا فيها بأن الملك "بيبي الثاني" ، كان قد أرسله إلى بلاد " عامو " لأخذ جثة "أمخات " (Amankhat) من هناك، هذا الأخير كان ربانا مكلفا ببناء مركب لإرساله إلى بلاد "بونت"، لكن البعثة لم تتم بسبب تعرضها لإعتداء البدو. وهذه الإشارات التاريخية أخذت كدليل على الرحلات الأولى في البحر الأحمر وعلى إنطلاقها أيضا، فهي تعود إلى زمن الأسرتين الخامسة والسادسة وإنطلاقها كانت من خليج السويس. إن الطريق البحري إلى مناطق جنوب البحر الأحمر نجده في عصر الدولة القديمة يبدأ من رأس خليج السويس ، حيث كانت تصنع السفن هناك ، ثم تجوب البحر كله من الشمال إلى الجنوب، و عند العودة تسلك نفس الطريق، وكان الأمر يبدو صعبا أكثر من الذهاب لأن السفن كانت تسير في وجه الريح⁽¹⁴²⁸⁾.

و في أوقات فتح القناة، فإن الطريق إلى " بونت " كان يسير في أقصى فروع النيل الشرقية ثم تكمل المراكب سيرها في طريق القناة وصولا إلى البحيرات المالحة ثم إلى خليج السويس⁽¹⁴²⁹⁾.

ويشبه "بيرار" (V.Bérard) طريق البحر الأحمر خلال الأسرات الأولى بأنه « كان ينطلق من خليج السويس، وكانت أول محطاته للراحة هي سيناء، مثلما هو الحال في العصر الهلنستي، حيث كان التجار وقتئذ يتفخرون بسير مراكبهم بجانب الأراضي الحمراء أمام الجبال ذات الألوان المختلفة، فكانوا يرتاحون في محطات الطور، أين كانت منابع الماء والوديان الشديدة البرودة والأشجار المثمرة »⁽¹⁴³⁰⁾، إن صح ما ذهب إليه هذا المؤرخ، فإن ذلك يعني أن نقطة إنطلاق هذا الطريق كانت واحدة ثم يتفرع إلى فرعين الأول سبق و أن ذكرته و هو الذي يسير بمحاذاة السواحل الإفريقية، و الثاني بعد وصوله إلى محطة الطور فإنه يتجه شرقا ثم يعرج جنوبا بمحاذاة سواحل البلاد العربية، و بالتالي فإن المصريين يكونون قد عرفوا الإتصال المباشر بجنوب الجزيرة العربية. لكن في ظل غياب أدلة قطعية حول هذا المسلك البحري وبالنظر أيضا إلى الجدل الكبير حول علاقة المصريين المباشرة بتلك البلاد يبقى هذا الإقتراض مجرد تصور.

لكن منذ الأسرة الحادية عشر فإن الطريق البحري إلى جنوب البحر الأحمر تغير بتغير العاصمة والتي أصبحت مدينة "طيبة" الواقعة في القسم الجنوبي لمصر، وبذلك كان الطريق إلى "بونت" أقصر نوعا ما حيث كانت البعثات إلى هناك تنطلق من هذه المدينة ثم تسلك طريق "وادي حمامات" لتصل إلى البحر الأحمر⁽¹⁴³¹⁾.

وهناك من يرى بأن الطريق إلى جنوب البحر الأحمر أثناء الدولة الوسطى يبدأ من شرق الدلتا عبر القناة التي تصل البحر الأحمر، ومن هناك يسير جنوبا إلى بلاد " بونت "، وتواصل السفن عبر المضائق طريقها إلى أن تصل المحيط الهندي والذي كان المصريون يعتبرون مياهه آنذاك آخر الدنيا⁽¹⁴³²⁾.

ومن جهة أخرى فإن قصة الملاح الناجي توضح لنا أن الطريق إلى بلاد " بونت " كان ينطلق من العاصمة " طيبة " حيث تذكر القصة بأن الأمواج رمته على سطح جزيرة قيل بأنها تبعد عن العاصمة " طيبة" مسافة سفر يدوم شهرين⁽¹⁴³³⁾.

هذا الطريق الثاني إلى بلاد " بونت " خلال الدولة الوسطى كان ينطلق بعد أن تكون البعثة قد عبرت " وادي حمامات " ، ثم الإبحار بمحاذاة سواحل البحر الأحمر في إتجاه الجنوب ، و الإنطلاقة الفعلية هي من مدينة " فقط " على النيل⁽¹⁴³⁴⁾.

أما عن الطريق البحري إلى بلاد " بونت" خلال الدولة الحديثة فيمكن التكلم عنه ضمن إمكانية توفر مصر على ميناء يقع إلى الجنوب عند " رأس غريب " (Ras Garib) . و الأدلة التاريخية تثبت بأن نفس الطريق خلال الدولة الوسطى قد سلكته البعثات أثناء الدولة الحديثة ومنها بالطبع بعثة الملكة "حتشبسوت"، وقد كان طريقا طويلا يصل إلى آلاف الكيلومترات.

ويكاد الباحثون يجمعون على أن الملكة " حتشبسوت" كانت هي أول من دشّن أطول طريق بحري يربط بلاد " بونت " ذهابا وإيابا، والذي سلكه من جاء بعدها من الملوك الأقوياء خاصة منهم " رمسيس الثالث " ⁽¹⁴³⁵⁾، و مع ذلك فإنه لا يعرف بالتحديد كم كانت المدة الزمنية التي إستغرقتها سفن " حتشبسوت " ذهابا وإيابا، لكن المؤكد أن مثل هذه الأسفار كانت تسير ببطء وكانت تعترضها مخاطر شتى.

(1428) - جورج فضل حوراني ، العرب و الملاحة في المحيط الهندي ...، المرجع السابق ، ص. 30.

(1429) - موسوعة تاريخ الحضارات ، ص. 70.

(1430) - V. Bérard , les Phéniciens..., Op-Cit , pp. 104-105.

(1431) - عبد الفتاح محمد وهيب ، المرجع السابق ، ص. 311.

(1432) - جيمس هنري برستيد ، العصور القديمة ، المرجع السابق ، ص. 56-57.

(1433) - عبد الفتاح محمد وهيب ، المرجع السابق ، ص. 312.

(1434) - B. Manley , Op-Cit , p. 74.

(1435) - جورج فضل حوراني ، المرجع السابق ، ص. 31.

والملاحظ على الطريقتين المؤديين إلى بلاد " بونت " أنهما كانا يستعملان في أحيان كثيرة من قبل نفس البعثة في ذهابها وإيابها، و أبرز مثال على ذلك يعود إلى الدولة الوسطى، إذ أن عودة بعثة " حنو " من بلاد " بونت " إلى مصر كانت قد سلكت البحر الأحمر ثم اجتازت " وادي حمامات " حتى وصلت العاصمة. وفي حالات أخرى يكون طريق العودة ليس بالضبط طريق الذهاب، و هناك مثال حي يعود إلى الدولة الحديثة وتحديدًا إلى رحلة " حتشبسوت"، ونتيجة لصعوبة مرور البعثات بالصحراء وهي محملة بأشجار البخور الخضراء فإنه توجب عليها مواصلة الطريق عبر البحر الأحمر إلى غاية خليج السويس، ثم السير في القناة وصعود النيل إلى غاية " طيبة "(1436)، وهي بذلك لم تتبع عند العودة طريق الذهاب أي الطريق المشهور خلال الدولة الوسطى، ومعنى ذلك أن الطريقتين البحريتين يمكن إتباعها في نفس الرحلة. و خاصة في أوقات فتح قناة النيل- البحر الأحمر.

وأستنتج من ذلك بأن الطريق إلى " بونت " خلال الدولة الوسطى كان بريًا - بحريًا، وهو ما نكتشفه من قصة " الملاح الناجي " الذي كان قد أرسل إلى المناجم الشرقية، وبدون شك فالإنطلاقة تكون من " قفط " ثم عبور " وادي حمامات"، وشحن المراكب على ساحل البحر الأحمر ثم التوجه ناحية الجنوب، أود هنا أن أشير إلى وجود إختلاف في تحديد مناجم الملك التي يقصدها الملاح الناجي لأن البعض يرى المقصود منها هي مناجم سيناء، و البعض الآخر يرى بأنها مناجم الصحراء الشرقية وبالتالي فإنطلاقة الطريق البحري تكون من بعض الموانئ في خليج السويس، و يمكن أن تكون من موانئ جنوبية.

وهذا الطريق البري البحري يقال بأنه كان يستخدم فقط ابتداء من بداية الألف الثانية قبل الميلاد أي بداية الدولة الوسطى في حين كان المصريون في السابق يصلون إلى "بونت" عبر النيل وعبر طرق الصحراء(1437)، بل أن هناك من يرى بأن الملاحة إلى بلاد "بونت" كانت تتم طيلة العصر الفرعوني بطريق غير مباشر، لأنه يوجد فاصل بين النيل و البحر الأحمر وهو الطريق البري، و من أبرزهم " عبد المنعم عبد الحليم سيد " الذي نفى تماما القناة الرابطة بين البحر والنهر في أية فترة زمنية – كما ذكرت في موضع سابق - ، و قد دلل على ذلك بمجموعة من الإثباتات التاريخية، و رغم ما لأهمية تحليله من فائدة ، فإنه بالمقابل هناك إشارات تاريخية تدل على إمكانية وجود طريق مائي مباشر من مصر إلى بلاد " بونت"، والإحتمال حسب رأيي أن الطريق الغير مباشر سلك في فترات عديدة مثلما تثبته الدلائل التاريخية ، و في نفس الوقت عرف العصر الفرعوني طريقًا مائيًا مباشرًا إلى بلاد " بونت " في فترات أخرى.

و أخلص إلى القول بأن البعثات التجارية في البحر الأحمر كانت قد سلكت طيلة العصر الفرعوني طريقتين أساسيتين أحدهما مباشر من النيل إلى البحر الأحمر و الثاني غير مباشر أي أن الفاصل بينهما أحد المسالك البرية العابرة للصحراء الشرقية. على كل لقد حاولت تسطير طرق هذا البحر على الخريطة رقم 06 ص 288، و هي باللون الأحمر.

و هكذا أصل إلى القول بأن النيل بقنواته و فروعه و كذا مسالك البحريين : المتوسط والأحمر تعد كلها طرق إتصال تجاري هامة وعملية في نفس الوقت.

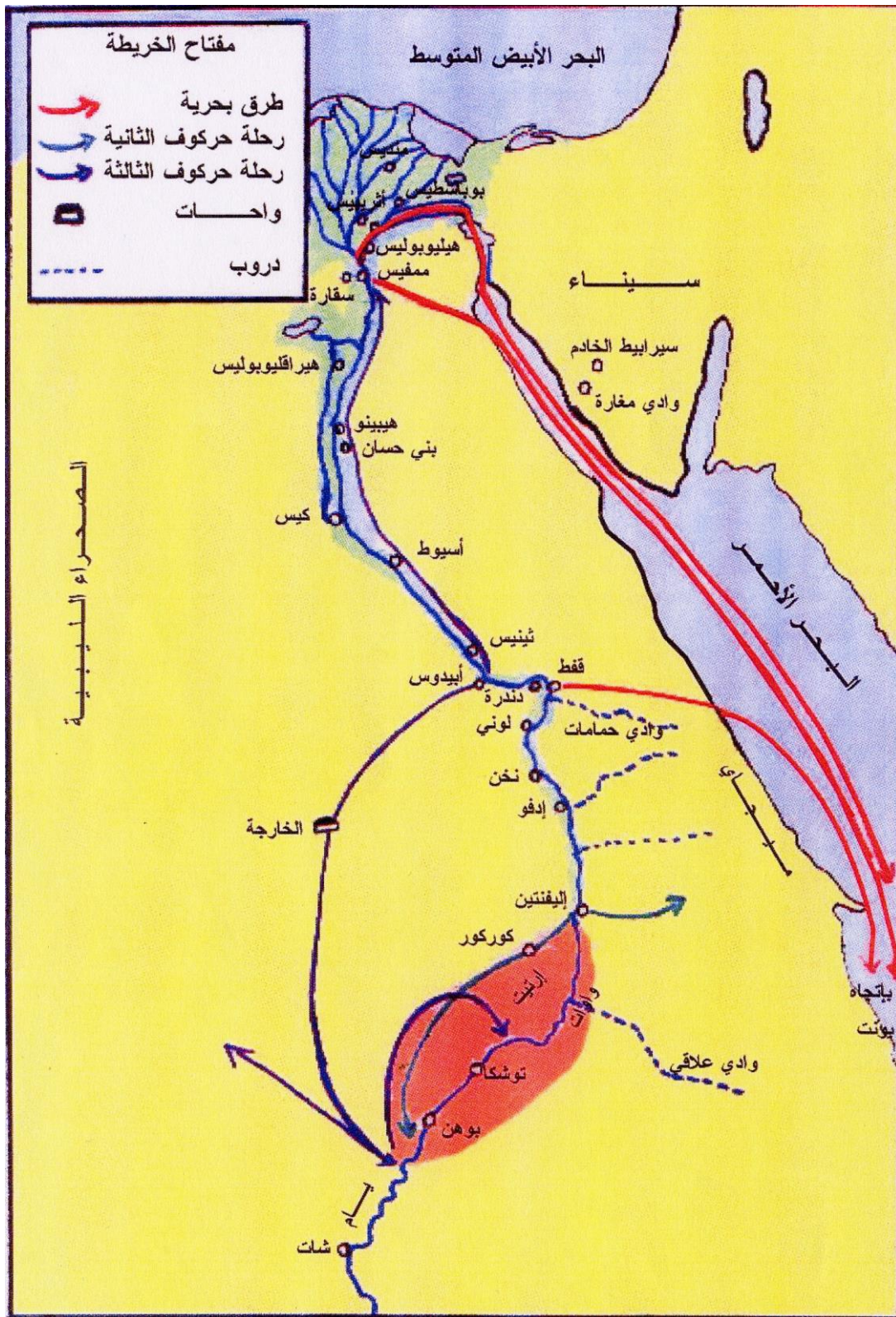
المبحث الرابع: الموانئ

من خلال ذكر الطرق البحرية فإن مصر عرفت البحار و إستخدمتها من خلال الإشارات العديدة التي

خريطة رقم 06 : الطرق التجارية في البحر الأحمر

(1436) - F. Daumas , Op-Cit , pp. 234-235.

(1437) - J. Vercoutter , essai sur les relations ..., Op-Cit , p. 24.



المرجع (بتصرف): B. Manley, Atlas historique ... Op -Cit, p.27

تدل على الإتصالات التجارية ، وكانت هذه الطرق تنطلق من الموانئ ، وبالتالي فإن مصر كانت لها موانئ على البحرين المتوسط والأحمر ، ما هي هذه الموانئ ؟ ، وهل عرفت مصر موانئ غيرها ؟.

المطلب الأول: موانئ نهر النيل

وجدت منذ عصر ما قبل الأسرات مرافئ السفن في الدلتا والتي كانت تنطلق منها الأساطيل لتجوب البحر المتوسط. ويقال بأن مصر كانت تملك أساسا على حدّ تعبير البعض موانئ نهرية وخاصة ممفيس (1438)، والتي جعلها " تحوتمس الثالث " مركزا للأسطول (1439)، وأطرح هنا تساؤلا لماذا مدينة منف بالذات؟ كان يطلق على ميناء هذه المدينة إسم : " الميناء الجميل " ، وكذلك " ترسانة ملكية "، وكانت مهمته تتمثل في :

- تجهيز السفن التي تقصد منطقة آسيا .
 - كونه عبارة على ورشة لصناعة مختلف أنواع السفن النهرية منها والبحرية
 - إستخدامه كمقر لولي عهد الملك منهم خاصة ابن " تحوتمس الثالث " وهو " أمنحوتب الثاني "، و الذي كان في نفس الوقت يشرف على عملية تأمين الخشب للميناء من أجل صناعة السفن .
 - دوره العسكري، فقد خرجت منه سفن حربية إلى غربي آسيا (1440).
- وكان ميناء "ممفيس" يستقبل خلال الدولة الحديثة المراكب التي تأتي من البلاد العربية، كريت، وفينيقيًا، و هناك أساطيل كانت تذهب إلى " بونت " وتخرج منها عبر القناة التي أعيد فتحها في زمن هذه الدولة (1441)، و كانت هذه المدينة مقرا للأسطول الرئيسي، بعدها إنتشرت مراكز له في مدن مثل " هيليوبوليس"، و " طيبة" والتي كانت آنذاك عاصمة للإمبراطورية المصرية (1442)، وقد وجد بها مرفأ على الجزء الشرقي من النهر يضم أماكن لرسو السفن (1443)، وكانت مراسيها تعج بحركة السفن خاصة خلال الدولة الحديثة، حيث كانت تأتيها الأساطيل من مختلف أنحاء إمبراطوريتها المحملة بالسلع والبضائع التجارية، ومن البلدان البعيدة مثل كريت، بحر إيجا، و اليونان. ولم تكن هذه المراسي تستقبل فقط الأساطيل التجارية بل كانت تنطلق منها الأساطيل التجارية المصرية منها أساطيل حتشبسوت و غيرها من بعثات ذلك العصر (1444).
- ولم تقتصر الموانئ النهرية على مدينتي : " ممفيس " و " طيبة " بل أنّ المسألة تتعلق تقريبا بكل المدن المتواجدة على طول نهر النيل وعلى فروعه في الدلتا، أذكر منها المدن التي عرفت شهرة في الشمال وهي : " ميليتيس "، " سايس "، " بيزيريس " وغيرها كثير، وكلها كانت تملك أساطيل وموانئ هامة تنطلق منها لتغامر بدون أخطار كبيرة خلال طقس جيد (1445).

و تواصلت أهمية مدن الدلتا كموانئ تجارية في العصور المتأخرة حيث نجد مدينة " تانيس"، والتي عدت آنذاك أهم مدن مصر السفلى، التي كانت عبارة عن ميناء كبير يوجه نشاطه نحو آسيا ونحو قبرص، إذ كان أصحاب السفن الكبار من مصريين وسوريين يستقرون فيها (1446)، ولأهمية هاته المدينة، والتي إمتازت بأنها من الموانئ التجارية الهامة على فرع النيل الكانوبي، فإن المصادر الكلاسيكية تطرقت إلى ذكرها، منها الأوديسا والمكتبة التاريخية لـ ديو دور الصقلي، و هذا الأخير ذكرها في العبارات التالية: « أطلق الحاكم "ثونيس" Thonis إسمه على تلك المدينة، التي كانت إحدى الموانئ التجارية على الفرع الكانوبي للنيل» (1447).

المطلب الثاني: موانئ البحر المتوسط

و نتيجة لتعدد و أهمية تلك الموانئ النهرية أدى بالبعض إلى الإعتقاد بأن الموانئ المصرية لم تكن توجد مباشرة على ساحل البحر المتوسط، بل كانت تتواجد في الداخل و بصورة خاصة على الأذرع الشرقية للدلتا (1448)، فإلى أي مدى صحة هذه المقولة ؟ .

إن الإعتقاد السائد أن مدينة الإسكندرية التي بناها الإسكندر، كانت من ضمن أهدافها أن تكون ميناء تجاريا وبالتالي مستودعا لتجارة الشرق ككل (1449)، لكن الحقيقة أن ما فعله الإسكندر هو إعادة إستعمال الموقع

(1438) - C. Lalouette , l'empire des Ramsès , Op-Cit , p. 157 .

(1439) - محمد بيومي مهران ، الحضارة المصرية...، المرجع السابق ، ص. 223 .

(1440) - نفس المرجع ، ص. 224 .

(1441) - J. Boulos , les peuples et les civilisations..., Op- Cit , p. 44 .

(1442) - محمد بيومي مهران ، المرجع السابق، ص. 230.

(1443) - ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 152 .

(1444) - V. Bérard , Op- Cit , p. 104 .

(1445) - G. Dykmans , Op- Cit , t. 1 , p. 228 .

(1446) - J. Pirenne , les villes ... , Op- Cit , p. 41 .

(1447) - Diodore , I , 19 .

(1448) - E. Hornung , lecture de l'histoire égyptienne, Op- Cit , p. 32 .

الذي كان مستعملا في السابق من قبل " الرعامسة " قبل ألف سنة من مجيئه ، فمن أجل تمرکز التجارة البحرية فإن فراعنة الدولة الحديثة أنشأوا على الموقع الحالي للإسكندرية الميناء الكبير " فاروس " (Pharos) ، والذي كان يتردد عليه من قبل البحارة الفينيقيين والكريتيين خلال عصر هذه الدولة، وهو يقع في غربي الدلتا ، إنه مكان إرساء مميز للمراكب التي تتاجر مع مصر ، حيث كانت المراكب تصل إليه بمساعدة الرياح الشمالية التي تعمل على دفعها فتسير بسهولة، كما يقع هذا الميناء على ممر المراكب الفينيقية التي كانت تبحر من صور و صيدا إلى موانئ إفريقيا : قورينة ، ثم قرطاج ، بالإضافة إلى ذلك كان هذا الميناء مركز مراقبة فريد من نوعه، حيث كان يسمح بمراقبه البحر والدلتا والتخوم الليبية(1450). فهذا الميناء لم يلعب فقط دورا تجاريا في تجارة مصر بل تعداها ليصبح محطة من المحطات الهامة للشعوب الأخرى منها الفينيقيون عند إتجاههم إلى السواحل الغربية للبحر المتوسط (السواحل الإفريقية) .

و عثر " بيرين " عن أهمية هذا الميناء بقوله أنه جعل من الدلتا المركز المنظم للتجارة البحرية(1451)، نفهم من ذلك بأنه لم يكن أقل شأنًا من موانئ مثل " جبيل " أو " صور " أو الميناء الروماني " أوستي " (Ostie) ، التي كانت تعتبر قواعد لقوى تجارية بحرية . و إن كانت هذه الموانئ قد لعبت هذا الدور بجدارة فإن ميناء " فاروس " لعب نفس الدور في زمن أسبق و كان قاعدة لقوة بحرية تجارية ربطت بين تجارة البحر الأحمر و المحيط الهندي من جهة، و تجارة البحر المتوسط و أواسط إفريقيا من جهة أخرى، و أدى نفس الدور الذي كان في فترات لاحقة زمن الإغريق، و بالتالي لم يكن الرومان هم من إشتهر بإنشاء الموانئ المهيئة صناعيا لتسهيل العمليات التجارية كما يرى " تومازي " (1452)، لأن مصر كانت السبّاقة في ذلك. و يبدو أن المصريين كانوا قد أدركوا الحقيقة التي ذكرها " بيرين " حين قال: « إن التجارة الكبرى في العصر القديم هي أساسا بحرية، وكما هو الحال في كل مراحل التجارة الدولية الكبرى فإن كل مراكزها كانت تقع على البحر أو على الطرق المائية الكبرى »(1453)، وهذه المقولة تنطبق بالفعل على المصريين لأن بلادهم تقع بمحاذاة بحرين إشتهرا بالنشاط التجاري، وبما أنه كانت تنطلق من مصر عديد الطرق البحرية، فكان على المصريين فقط تهيئة موانئ لتسهيل الحركة التجارية، وبذلك مارسوا التجارة الكبرى وشكلوا مرحلة هامة من مراحلها.

أما عن تحديد الزمن الذي يعود إليه ميناء فاروس هذا ، فقد أكتشفت إلى الشمال الغربي وشمال هذه الجزيرة بقايا مغمورة تحت المياه لأعمال بحرية ضخمة الأقدم تؤرخ بزمان " تحوتمس الثالث " ، لكن أغلبها يؤرخ بزمان " رمسيس الثاني " ، وقد أجرت الأبحاث هناك بعثة فرنسية التي كشفت عن رصيف يبلغ 700 متر ممتدا بداخل الماء ومحمي من قبل كاسر الأمواج يبلغ طوله 2 كلم ، والذي كان يعطي شكل مرسى توجد به أرصفة للرسو عرضها 14 م تمتد على مساحة 60 هكتار من الأحواض(1454).

و هو بذلك يعد ميناء كبيرا لا يقل عن الموانئ المهمة التي إشتهرت بها شعوب عرفت كقوى تجارية بحرية، كما أن الثابت تاريخيا – كما ذكرت في المدخل – أنه في فترة ما قبل الإتحاد يرجّح أن تكون الدلتا هي السبّاقة إلى مزاوله التجارة، والدليل هو العثور على رسومات لقوارب تحمل رايات في غربي الدلتا بلغ عددها مائتي و إثنين وعشرين (222) رسما، كما يستدل على ذلك بأن أقدم ميناء على شاطئ البحر المتوسط كان في القسم الغربي من الدلتا ويحتمل أنه نفس المكان الذي بنيت فيه الإسكندرية، و الذي كشفت عنه لوحة " نارمر "، التي جاء فيها إسم " A.Ur " ، و قيل عنه بأنه إسم لأقدم ميناء كانت تملكه مصر على البحر المتوسط .

و جاء في الأوديسا وصف لمرسى هذا الميناء من خلال العبارات التالية : « هناك جزيرة في البحر الصახب، تجاه مصر ، يطلق عليها الناس إسم فاروس، تبعد بقدر ما تسييره السفينة السريعة في يوم كامل، عندما تهب من خلفها ريح قوية. هناك في الداخل ميناء ذو مرسى بديع ، منه ينزل الرجال السفن الرائعة الصنع إلى البحر»(1455)، أما " سترابون " فيقول عن أهمية تموضع الميناء « اليوم، إن الذي يساهم في ازدهار الإسكندرية، هو موقعها وهو المكان الوحيد في مصر الذي أختير بعناية (موقع إستراتيجي)، للتموضع الممتاز لمينائها ، وللتجارة التي تجلب إليها كل السلع التي تنزل النيل » (1456).

(1449) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، المرجع السابق ، ص. 47 .

(1450) - C. Lalouette , L'empire des Ramsès , Op- Cit , pp. 137,157 .

(1451) - J. Pirenne , Y'eut il des foires... ? , Op- Cit , p.18 .

(1452) - A. Thomazi , histoire de la navigation , Op- Cit , p.12 .

(1453) - J. Pirenne , Op- Cit , p. 22 .

(1454) - C. Lalouette , Op- Cit , p. 137 .

(1455) - هوميروس ، فقرة 14.

(1456) - Strabon , XVII , Chap I, 13 .

و يقال بأن "رمسيس الثالث" ومن أجل صد غارة شعوب البحر كان قد حصن سواحله الشمالية ، وذلك بتوزيع أسطوله على الموانئ المتواجدة هناك⁽¹⁴⁵⁷⁾.

و أستنتج من ذلك بأن مصر كانت لها موانئ عدّة على سواحل البحر المتوسط وليس فقط ميناء فاروس" ، و في هذا المجال تقول إليزابيث رايفشتال : « الساحل الشمالي كان غنيا بالمواقع الصالحة لرسو السفن تحمية المستنقعات والبحيرات المالحة من جهة البر ، وكتبان الرمال المستورة من جهة البحر ، ولعل الطريق البحري الرئيسي إلى سوريا كان يمر عبر "التانيتيك" وهو فرع من فروع النيل تقلص مع الزمن حتى أصبح اليوم جدولاً صغيراً يفيض في مستنقعات بحيرة المنزلة »⁽¹⁴⁵⁸⁾. ويبدو أن مصبات فروع النيل كانت تعتبر موانئ ساحلية منها مصب البولبتي الذي يقول عنه سترابون : « إن "المليزيين" كانوا أثناء حكم الفرعون "بسماتيك"، يتوجهون رفقة 30 مركبا إلى المصب البولبتي (Bolbitine) ويفرغونها هناك »⁽¹⁴⁵⁹⁾، كما يعتبر المصب الكانوبي هو الآخر ميناء متوسطياً وقد قيل فيه : « رغم عدم ملائمتها، فإن مصب الكانوبي كان يتخذ كميناء تجاري »⁽¹⁴⁶⁰⁾. أما بخصوص ميناء "نقراطيس" فقد أصبح خلال زمن "أمازيس" المؤسسة الرسمية الوحيدة المفتوحة أمام التجارة الإغريقية في مصر.

المطلب الثالث: موانئ البحر الأحمر

و كما ساد الاعتقاد بين عديد المختصين بنفي وجود موانئ مصرية على البحر المتوسط في ظل غياب أدلة قوية و واضحة، على الرغم من وجود إشارات على إمكانية وجودها، وماعمق المشكل أن علم الآثار البحرية لا يزال لم يعط ثماره بالنسبة لمصر، فإن المشكلة تطرح بنفس الحدة فيما يخص البحر الأحمر رغم إثباتات تاريخية على قيام رحلات بحرية ضخمة به، وخاصة قبل أن يكتشف به ميناء في منتصف السبعينيات، وعلى الرغم من وجود دلائل تاريخية أخرى.

و من بين الثغور التي ساعدت مصر على الإتصال بالعالم الخارجي هي ساحل البحر الأحمر الذي يمتد شرقها، وهو يتميز بخلوه من الموانئ الصالحة لرسو السفن، ومن جهة أخرى فإن الملاحة به جد صعبة وخطرة، إضافة إلى أن المناطق التي تحاذيه (ظهيرة) فقيرة من مظاهر الحياة، ومع ذلك فإن المصريين غامروا في هذا البحر، وذلك باستغلال بعض ثغوره القليلة و نجحوا في عقد إتصالات تجارية عبره كما يرى "عبد الفتاح محمد وهيب"، منها ثغر "لوكوس ليمن" (Leucos Limen) المتواجد على مقربة من القصير الحالية، و هو يقع جنوب ثغر يدعى "ساو" أو "فيلوتيرا". وكذلك ثغر "ميوس هورمس" (Myos Hormos) المتواجد على مقربة من الغردقة الحالية، و ثغري "أرسينوي" (Arsinoi) و"القلزم" (Clysma) المتواجدان قرب السويس الحالية، و أيضاً ثغر "برنيس" أو "برنيك" (Bérénice) و يقع تحديدا قرب نقطة الحدود بين مصر و السودان، إلا أنه يؤكد بأنها تعود إلى العصر الإغريقي ما عدا ثغر "ساو" الذي يرى فيه بأنه يعود إلى العصر الفرعوني، و يتم الوصول إليه إنطلاقاً من "قفط" عبر "وادي حمامات"، لكن توجد طرق أخرى تؤدي إليه من شاطئ النيل ثم تجتاز الصحراء العربية، وهذا الميناء كان قد بناه الملك "منتوحوتب" أي أن أقدم تواجد له يعود إلى الدولة الوسطى وهو الذي يعرف بميناء القصير الحالية⁽¹⁴⁶¹⁾. ومع ذلك هناك من ينفي وجود موانئ على البحر الأحمر خلال العصر الفرعوني، والحجج في ذلك عديدة وهي دليل حسب إعتقادهم لعدم وجود الموانئ على البحر الأحمر على غرار ما يوجد عند مصبات النيل، فكان لابد من إحضار المواد الأساسية إلى سواحل البحر الأحمر لبناء المركب، وعند كل بعثة إستلزم إعادة تركيب السفن من جديد وتهيئة الميناء⁽¹⁴⁶²⁾.

و في هذا يقول "جيل أرتاغنيون" (André Gil – Artagnan) : « نندهش حين نعرف من قصص البعثات ، أن رجالا كانوا يذهبون إلى شاطئ البحر الأحمر ، و يعيدون صنع مراكبهم هناك و من ثم ينطلقون إلى بلاد بونت »⁽¹⁴⁶³⁾.

وحسب رأي المؤلفين الكلاسيكيين الإغريق فإنه خلال عصر "البطالمة" فقط كان البحر الأحمر بحراً مصرياً، أي كانت فيه الموانئ تتضاعف ابتداء من "ميوس هورموس" في الشمال إلى غاية "أدوليس"

(1457) - نجيب ميخائيل إبراهيم ، مصر و الشرق الأدنى...، المرجع السابق ، ص. 95 .

(1458) - إليزابيث رايفشتال ، المرجع السابق ، ص ص. 30-31.

(1459) - Strabon , XVII , Chap I , 18.

(1460) - Ibid , XVII , Chap I , 18.

(1461) - عبد الفتاح محمد وهيب ، المرجع السابق ، ص. 228.

(1462) - G. Dykmans , Op- Cit , t. 2 , pp. 275,277.

(1463) - A. Gil -Artagnan , essai de reconstitution d'un navire..., Op- Cit , p. 54.

(Adulis) مرورا بميناء " بيرينيس " (Bérénice). والحقيقة أن إنشاء الموانئ لأول مرة لم يكن من قبل هؤلاء البطالمة، بل أن كل مافعلوه – مثلما في ساحل المتوسط - هو إعادة استخدام الموانئ التي كان الفراعنة قد استخدموها هناك وأعطوها أسماء يونانية(1464).

إن هذا الرأي الذي ينفي وجود موانئ على البحر الأحمر إعتد أساسا على الأدلة الأدبية للمؤرخين الكلاسيكيين نافيا بذلك أهمية الأدلة التاريخية المادية المتمثلة في الإشارات العديدة على قيام رحلات تجارية في هذا البحر والأساطيل التي كانت تجوبه. فكان حل هذا الإشكال المتعلق بنشاط المصريين في البحر الأحمر هو البحث عن موقع الميناء الذي كان منطلقا لبعثات المصريين البحرية فيه و الذي تضاربت حوله الآراء، فهناك من يرى بأنه على شاطئ خليج السويس وبعضهم يرى بأن الميناء يوجد في القصير بالقرب من ميناء القصر الحالي على بعد 8 كلم إلى الشمال منه(1465)، والذي كان يسمى في ذلك العصر " ساو " (Saou) و أعطاه الإغريق إسم الميناء الأبيض (Leukos Limen) (1466).

لكن " عبد المنعم عبد الحليم سيد " يؤكد بأنه أستخدم لأول مرة من قبل الفرعون " سنوسرت الأول" وخلال عصر خلفائه على فترات متقطعة أثناء زمن كل من " سنوسرت الثاني" والثالث(1467). و أرى أن استخدامه من المحتمل أنه كان حتى قبل ذلك الوقت مثلما أستخدم في فترات لاحقة، كما يحتمل أن يكون هناك موانئ أخرى، لأنه ورغم أهمية إكتشاف موقع ميناء جواسيس إلا أن وجود موانئ أخرى على البحر الأحمر أمر ليس بالمستحيل .

لا أحد ينكر أهمية إكتشاف " عبد المنعم عبد الحليم سيد " و الذي وضع حدا للجدال الذي ظل لسنين طويلة يتداول بين المختصين، لكن يعاب على هذا المؤرخ أنه ظل ينفي كل الإحتمالات التي من الممكن جدا أن يكشف عنها مستقبلا، خصوصا وأن هناك إشارات على إحتمال وجود موانئ أخرى على البحر الأحمر أستخدمت في العصر الفرعوني حتى وإن لم ترق إلى مصاف موانئ باتم معنى الكلمة ، لأنه وجدت كما يرى " كاسون " أحواض لبناء السفن في ذلك البحر ، كان المصريون ينشئونها من أجل إعادة بناء أسطولهم وكانت مجهزة بطريقة لائقة حيث كان يتم فيها إعداد الأساطيل ، و كانت هذه الأحواض تصان من حين لآخر أثناء البعثات(1468). والدليل على قدمها هو إرتباطها بحاجتهم لمنتجات ذلك البحر، وربما تعود إلى زمن سابق لرحلاتهم فيه كما يرى " دومينيك ماييه" (1469). من جهة أخرى أرى في كلام " عبد المنعم عبد الحليم سيد" شيء من التناقض حين رأى في ميناء "جواسيس" الذي إكتشفه على ساحل البحر الأحمر بأنه الميناء الوحيد الذي كانت تنطلق منه البعثات المصرية في ذلك البحر، في حين أنه أكد كما ذكرت قبل قليل بأن الموانئ التي إستخدمها البطالمة كانت في الأساس قد أستخدمت في العصر الفرعوني. وهذا الأمر أرى فيه دليل كافي على أن المصريين لم يكن لهم ميناء واحد بل موانئ متعددة، خصوصا إذا علمنا بأنه ثبت من خلال الأدلة التاريخية عبور المصريين لمسالك عديدة في الصحراء الشرقية والتي كانت تؤدي إلى نقاط متفرقة على سواحل ذلك البحر – وهو ما سأذكره بشيء من التفصيل لاحقا عند الكلام عن الطرق البرية – وحدد بعضها على أنه مواقع للموانئ التي كان يستخدمها البطالمة.

كما كان هناك ميناء يدعى " أبو زونيمة " (Abou Zunayma) بجنوب سيناء، والذي كان في السابق نقطة مرور لمناجم النحاس القديمة ومناجم الفيروز(1470)، وكنت قد أشرت أثناء التحدث عن طرق البحر الأحمر أن هناك طريق ينطلق من خليج السويس و الذي من المحتمل جدا أنه كان ينطلق من هذا الميناء. أود أن أضيف شيئا وهو أن هذه الموانئ والمرافئ كانت تصان بصفة متواصلة وليس فقط أثناء إنطلاق البعثات، لأنه من خلال الرسوم والنقوش التي تمثل وصول بونتيين عن طريق البحر كانوا يتوقفون عند تلك الأحواض وتحمل سلعهم برا إلى غاية النيل وبالتالي فإن ذلك يتطلب وجود مصريين في إستقبالهم. وأختم الكلام عن الموانئ بأن مشاهد الآثار المصرية لا تعطينا فكرة واضحة عن شكلها وأرصفتها، فمن خلال الرسوم يظهر عدد من المراكب في حالة رسو و كانت تبدو قد ربطت إلى الشاطئ وأشرعتها أنزلت و السلام كذلك من المقدمة نحو الشاطئ.

(1464) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 578.

(1465) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 77 .

(1466) - G. Rachet , dictionnaire de la civilisation..., Op- Cit , p. 228.

(1467) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 116 .

(1468) - L. Casson , Op- Cit , p. 19.

(1469) - D. Maillet , Op- Cit , p.188.

(1470) - I. Shaw , le pays noir..., Op- Cit , p. 23.

و إستخلصت من هذا العرض السريع لموضوع الموانئ ، أن النهرية منها و كذلك التي كانت تقع على البحر المتوسط يمكن إعتبارها بحق موانئ بآتم معنى الكلمة ، لإمتلاكها مواصفات الموانئ التي إمتازت بها شعوب أخرى، لكن موانئ البحر الأحمر يمكن أن نطلق عليها لفظ مراسي، والسبب حسب ما أرى أن أغراضها كانت محددة من حيث المهمة والزمن هذا من جهة، و من جهة أخرى أن المصريين لم يهتموا بها على أساس بعد المسافة بينها و بين مواطن إستقرارهم ، حيث تفصل بينهم الصحاري ما عدا بالطبع – حسب ما إستخلصته من الدراسة – موانئ سيناء التي كانت لها أغراض أخرى، ومع كل ذلك فإنه لا يمكن الإنتقاص من دورها في التجارة المصرية لأنها تعتبر نقاط إنطلاق الطرق البحرية في البحر الأحمر ، كما أنها إستقطبت حتى المراكب الأجنبية مثلما فعلت موانئ البحر المتوسط، أي أن دورها كان مزدوجا من جهة لأهميته في تجارة مصر، ومن جهة أخرى في تجارة البحر الأحمر ككل. ويمكن رؤية مواقع هذه الموانئ من خلال الخريطة رقم 07 ، ص. 301.

المبحث الخامس: الطرق البرية

بدأت تظهر سيماءات تشكل الطرق البرية منذ العصر الحجري القديم وخاصة حول الأنهار، وشيئا فشيئا بدأت تتشكل شبكة من الطرق تتبع الطرق الطبيعية والفجاج⁽¹⁴⁷¹⁾، وينطبق ذلك على مصر، والتي تعد طرقها البرية مسالك صحراوية تنتشعب طبيعيا حول محيط وادي النيل، وحول قنواته وروافده وفروعه، و البعض من هذه الطرق لم يكن سوى مسالك بسيطة يتردد عليها الصيادون، الشرطة و قليل من الرحل، والأخرى كانت منذ القدم تشكل طرقا حقيقية أساسية لإقتصاد العصر الفرعوني، إلا أن هناك من يرى بأن تنظيم شبكة الطرق هاته هي جهد ضائع ولا فائدة منه في بلد مغمور بالمياه في فترات طويلة من السنة⁽¹⁴⁷²⁾. فهل حقا لم يكن للطرق البرية أي دور يذكر في تجارة مصر الفرعونية؟

المطلب الأول: الطرق الشمالية

يقال بأن الطرق البرية المؤدية إلى الشرق الأدنى ليست كثيرة وحتى التي وجدت منها، كان إجتيازها يشكل مصاعب⁽¹⁴⁷³⁾، إن هذا القول صحيح نسبيا لأن الطرق إلى هناك قليلة. و الثابت تاريخيا أن الممر الوحيد بإتجاه الشرق و الذي يربط مصر بآسيا هو برزخ السويس، فالمسالك هنا كانت معروفة ويتردد عليها منذ ما قبل التاريخ ومنها إثنين رئيسيين وهما : طريق بحري- سبقت الإشارة إليه- وطريق بري.

وقبل التطرق إلى الطريق البري وفروعه، لابد من الإشارة إلى أنه يوجد طريق بري تجاري مهم لعب لفترات طويلة دور الوسيط بين النيل والبحر الأحمر قبل أن تحفر القناة الواصلة بينهما أو أثناء فترات إهمالها، وهو طريق يتبع "وادي طوميلات" إنطلاقا من أقصى فروع النيل الشرقية وصولا إلى خليج السويس فهو مسلك مهم ملحق بمصر السفلى، وقد كان أساسيا في ربط الإتصال بين طريق البحر الأحمر المؤدي إلى "بونت" و المسلك الآخر الذي يتجه ناحية سيناء⁽¹⁴⁷⁴⁾، خصوصا وأن عبوره على ما يبدو كان سهلا مقارنة بمسالك أخرى - سآتي عل ذكرها - وذلك لتوفر الماء عبره بوجود بحيرات ووديان جارية.

وأشهر طريق بري ينطلق من شمال شرق مصر هو الطريق الذي يربط مصر بسورية وفلسطين، والذي حدد بدقة وعرفت النقاط التي مر بها بوضوح، و بإلقاء نظرة على الخريطة رقم 04، ص 280، فإننا نجده باللون الأخضر وينطلق من المكان المسمى اليوم " القنيطرة " في شرق مصر ثم يمتد إلى مدينة " رفح " الفلسطينية وبالتالي نجد العالم " جاردنر " (Gardiner) قد حدد نقطة إنطلاقه بدقة وهي "جين تل" ، وقدرت المسافة التي تربط هذه النقطة بمدينة " رفح " بمائة وأربعين ميلا، حيث أن المسافة بين القنيطرة والعريش تقدر بواحد وتسعين ميلا، ومن هذه الأخيرة إلى رفح عشرين ميلا، وعلى ما يبدو فإن هذا الطريق كان يعتنى به بصفة جيدة، و كان تأمينه ظاهرا من خلال العثور على العديد من الآثار، لحاجة القوافل الماسة للماء، كما كان محصنا بالحصون في عدد من الأماكن حتى لا تتعرض القوافل لقطاع الطرق⁽¹⁴⁷⁵⁾، والخريطة ذاتها توضح بدقة تلك الحصون.

(1471) - P. Rousseau , histoire des transports , Op- Cit , p. 11.

(1472) - G. Dykmans , Op- Cit , t. 2, p. 239.

(1473) - إليزابيث رايفشتال ، المرجع السابق ، ص. 30.

(1474) - G. Posener et autres , dictionnaire de la civilisation..., Op- Cit , p. 255.

(1475) - محمود عبد الحميد أحمد ، المرجع السابق ، ص. 194- 195.

كان هذا الطريق البري نحو آسيا يمر من الدلتا إلى جنوب فلسطين عبر سيناء وتحديدًا أسفل جبالها، و كان يسير بجانب الشاطئ و يجتاز شريطًا صحراويًا من القنطرة (ثارو) إلى طرف جنوب فلسطين أي أنه لم يتوغل بالداخل.

و توصل " جاردنر " إلى تحديده بضبط المناطق التي يمر بها في الجزء الشمالي من شبه جزيرة سيناء، و بذلك فإنه تمكن من وضع مخطط له بالرجوع إلى ما كتبه علماء المصريين عن الجزء الشرقي الشمالي لمصر الذين درسوا حضارة مصر منذ أن وطأت حملة نابليون أرضها، ولم يكتف بذلك بل عكف على دراسة المشاهد التي رسمت على معبد الكرنك والتي مثلتها الجدران الخارجية للقاعة الكبرى به (1476). و قد بحثت عما كتبه هذا المؤرخ بخصوص الطريق و لكي أستفيد أكثر من دراساته عن العصر الفرعوني علي أجد فيها توضيحات أكثر عن موضوع التجارة إلا أنني لم أوفق في ذلك.

والملاحظ أن هناك من يرفض بأن الطريق البري عبر صحراء القنطرة كانت له فائدة في العلاقات بين الدلتا والمناطق الفلسطينية، والحجج المقدمة تتمثل في صعوبة اجتيازه، والأخطار الكثيرة في مثل تلك المناطق الصحراوية، لأنها مناطق خاضعة لغارات القبائل، و إعتبار سيناء حاجز حضاري يمنع تنقل المظاهر الحضارية عبرها، والحجة الأخرى هي فقر أرض فلسطين التي لم تعط شيئًا تجلب به المصريين لعقد تبادلات تجارية معها (1477). إن هذه الحجج لا تصمد أمام الشواهد الأثرية والتاريخية لأنه كما مر بنا في فصول سابقة أن أرض فلسطين كانت تربطها علاقات تجارية قديمة جدا تعود إلى عصر سابق للعصر الفرعوني، وكانت العلاقات في الإتجاهين، وهذا راجع لحاجة كل منهما للآخر.

إضافة إلى ذلك فإن الحجج المقدمة بخصوص عدم ملائمة الطريق البري للإتصالات بين الدلتا وفلسطين هي مبالغ فيها كما يرى " ديكمانس " (G. Dykmans)، لأن الصعوبات المذكورة تتعلق بسيناء في حين أن إدخالها في المسألة هو أمر لا جدوى منه لأنها بعيدة عن الطريق المباشر والذي لم يكن ينبع من "وادي طوميلات"، بل كان يتبع الشريط الساحلي إلى الشرق من بحيرة " المنزل " (Menzalah)، كما أن الأخطار التي ذكرت فيها شيء من التضخيم، وأن صعوبة الطبيعة الصحراوية لم تكن شديدة مثلما هو الحال في وقتنا الحاضر (1478).

وثبت تاريخيا أن الطريق التجاري إلى فلسطين أستعمل منذ عهد الملك " نارمر"، وذلك من خلال أنقاض من طين أكتشفت حديثًا تحمل إسمه (1479)، كما أنه لم يتوقف عند جنوب فلسطين بل نجده على إثر توسعات "تخومس الثالث" قد أصبح طريقًا تجاريًا كبيرًا، فقد كان يمتد في الهلال الخصيب عبر غزة في الجنوب الغربي من فلسطين ثم يصعد نحو الشمال عبر بلاد " الفلستينيين " (Philistins) بمحاذاة سهل " سارون " (Saron)، ويخترق جبل الكرمل ليصل إلى سهل (Esdrelon) بـ "مجيدو" (Megiddo)، وهنا كان يتفرع إلى ثلاثة فروع تعطي منافذ على الساحل الفينيقي، والنهر السوري ودمشق بالداخل (1480)، و توضح نفس الخريطة ذلك الإمتداد بوضوح، أي أن هذا الطريق كان يمتد إلى مناطق حضارية أبعد تتميز بخصوبة أراضيها وازدهارها الحضاري.

كانت لمصر خلال الأسرة الثامنة عشر طرق تجارية على شواطئ البحر المتوسط، والتي كانت قبل ذلك الوقت طرقًا تعبرها الجيوش التي كانت تنطلق من مصر إلى آسيا، ثم أصبحت هي نفسها الطرق التي تعبرها القوافل محملة بالبضائع إلى مصر، وأصبحت المواقع التي دارت فيها معارك بين جيوش مصرية و جيوش آسوية في ذلك الحين – أيام توسع هذه الدولة – أسواقًا تتبادل فيها العمليات التجارية، ولم يعد الجيش هو الذي يجلبها إلى مصر على إثر عملياته الحربية، بل أصبح الحامي لها وأصبحت تدخل مصر في شكل عمليات تجارية (1481).

و يقول " أنور الرفاعي " عن هذا الطريق الساحلي: « هو الممر الطبيعي الذي عبرته جميع التحركات البشرية بين مصر وفلسطين سواء كانت قوافل تجارة، أم هجرات، أم جيوش غازية » (1482).

(1476) - نفس المرجع ، ص. 194.

(1477) - G. Dykmans , Op- Cit , t. 1 , p. 227.

(1478) - Ibid , p. 227.

(1479) - E. Hornung , Op- Cit , p. 15.

(1480) - J. A. Wilson , l'Egypte..., Op- Cit , p. 169.

(1481) - ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 50.

(1482) - أنور الرفاعي ، تاريخ الحضارات...، المرجع السابق ، ص. 14.

و يعد أطول طريق بين المنطقتين لأنه يصل إلى القصر الملكي و إلى عواصم الأقاليم المصرية، حيث كانت تتردد عليه القوافل التي تصل إلى مدن بشرق الدلتا، و لأهميته هاته أطلق عليه " مسالك حورس " نسبة إلى ذلك الإله(1483).

من خلال ما تقدم من معلومات ، فإن المختصين يرجعون أهميته التجارية إلى زمن الدولة الحديثة، وهو أمر لا جدال فيه ، لكنني لمست أن هذه الأهمية تعود إلى عصور فرعونية أقدم و تحديدا زمن الدولة الوسطى، والدلائل على ذلك ما جاء في قصة " سنوحي "، التي روى فيها بطلها الطريق الذي سلكه، والذي كان يتردد عليه من قبل التجار المصريين الذين يقصدون المناطق الفلسطينية و السورية و حتى الساحلية منها، و في المقابل التجار الذين يتوجهون من هذه المناطق قاصدين مصر، و أستخلص من قصة " سنوحي " أن هذا الطريق المؤدي إلى جنوب فلسطين كان به فروع و بالأخص ذلك الفرع الساحلي الذي يمتاز بوجود مواضع ذات أهمية. لأن " سنوحي " ذكر بأنه كان قد وصل عبره إلى " جبيل "، و بالتالي فهو دليل واضح على أنه كان معروفا كطريق تجاري في هذه الفترة و في الفترات السابقة منذ إنطلاق العلاقات التجارية بين المنطقتين . وبالنظر أيضا إلى نفس الخريطة تتضح مسألة أخرى و هي أن هذا المسلك لم يكن الوحيد ، بل كان يوازيه طريق آخر و هو باللون البني يمر بعدد المحطات التجارية إلى غاية أن يصل إلى " قطنة " و " قادش " في بلاد العموريين . وتكون إنطلاقته من مصر حسب ما تكشف عنه ذات الخريطة من بعض مدن الدلتا مثل: " بوباسطيس " أو " منف " أو " ليش ".

وفي ختام هذا العنصر أود الإشارة إلى طريق تجاري مهم أطلق عليه " الطريق الملكي "، لأنه تقريبا يشمل كل المملكة من الشمال إلى الجنوب، حيث يسير في شكل متواز مع وادي النيل و عرضه يصل 8 أميال، و رغم أهميته إلا أن الأثريين يرون بأنه لم يعبد بل كانت تجرى عليه عمليات مسح (1484). و السبب في ذلك على وجه الإحتمال يعود إلى فيضان النيل كل سنة فيغمر ذلك الطريق و يمحي أثره.

المطلب الثاني: طرق الصحراء الشرقية

كان المصريون يطلقون اسم " تا- نثر " أي أرض الإله على الصحراء الشرقية و قد وجد ذلك في نصوصهم ومنها لوحة " خنوم - حتب " (1485)، فهذه المساحة من الأرض كان يقصدها المصريون طيلة العصر الفرعوني، بل إنها كانت معروفة بالنسبة لهم قبل ذلك بزمان طويل، وتتميز بوجود شبكة من الطرق لعبت دورا هاما في إقتصاد مصر و تجارتها بالدرجة الأولى لدرجة أنه يقال أن أحد طرقها الذي يجتاز " وادي حمامات " هو أفضل من الدرب الشمالي، والذي يسير بمحاذاة " وادي طوميلات " لأن الأول كان يتردد عليه حتى خلال العصر " الثني " (Thinite)، وكان ملوك هذا العصر يفضلونه من جهة لقربه من مقر إقامتهم المتواجد بمصر العليا ومن جهة أخرى لأنه كان أقل خطورة من طريق الشمال الذي كان يمر عبر خليج السويس و " وادي طوميلات " (1486).

و توجد وثائق توضح بدقة شبكة الطرق في الصحراء الشرقية منها ما ورد في بردية " تورين " والتي رسمت عليها خريطة للطرق المؤدية من النيل إلى البحر الأحمر، حيث تعطينا فكرة عن مسارها و أهمها أن الطريق الرئيس ينطبق على وادي يسمى : " وادي الفواخير " ، و الذي يقع عند منتصف " وادي حمامات "، وكانت هناك طرق فرعية ممتدة منه وأهمها وادي: " عطا الله " و " السد ". وقد أنجزت هذه الخريطة لتصبح مرشدا على أماكن تواجد المناجم والمحاجر والطرق المؤدية إليها، لكن في نفس الوقت تكشف أن هذه الطرق كان لها غرض آخر لا يقل أهمية ألا وهو التجارة البرية، وتمدنا هاته الخريطة على الأقل بطريقتين، ثبت بشكل قاطع أنهما يعدان طريقتين تجاريين لأنهما كانا يوصلان إلى ميناء " مرسى جواسيس "، وهما يمران عبر وادي " ساقى " عند نقطة وجدت بها دلائل مادية تتمثل في خراطيش تحمل أسماء " سنوسرت الأول " و " رمسيس الثالث "، ونقوش تدل على أنهما أرسلتا بعثتين من هذا الميناء بعد أن كانا قد اجتازا هذين الطريقين(1487).

وهناك خريطة أخرى أنجزها أحد المهندسين خلال عهد " سيتي " رسمها على ورقة بردي تمثل مواقع مناجم " وادي حمامات "، حيث كانت محددة المواقع بدقة ورسمت عليها الطرق الرابطة بينها، وكذلك الطرق التي توصل إليها من مواقع على النيل، وطرق أخرى تنطلق من تلك المناجم إلى البحر الأحمر، وبلغت من الدقة

(1483) - B. Manley , Op- Cit , p.48.

(1484) - إليزابيث رابفتال ، المرجع السابق ، ص ص. 104، 100.

(1485) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 102.

(1486) - G. Dykmans , Op- Cit , t. 2, p. 274.

(1487) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص ص. 209 - 210، 212.

أن حددت عليها الأسماء وقد رسم عليها أيضا معبد و كذلك الجبال مثل جبل " بخن " (جبل الشست) وقد ذكر البحر بإسم " يم " (1488).

كما عرفت طرق الصحراء الشرقية من خلال روايات الدولة الوسطى والحديثة على وجه الخصوص، ومنهم المغامر " حنو " (Henou)، الذي كان قد أعاد فتح الطريق الذي يوصل إلى البحر الأحمر عبر الصحراء الشرقية، كما أن بعثة " حتشبسوت " دليل قاطع على ذلك.

والملاحظ أن الوديان الجافة في الصحراء الشرقية كانت عبارة عن طرق طبيعية، حيث أن السير فيها أختير لثرائها بنقاط التزود بالماء، فكانت تصل إلى غاية مناجم السلاسل العربية بالقرب من البحر الأحمر، ويمكن حصر خمسة طرق كانت تجلب ذهب وطيوب بلاد " بونت " وهي تتفاوت من ناحية الأهمية (1489)، و يبدو أن أشهرها - كما قلت - هو " وادي حمامات " فمن خلال إلقاء نظرة على الخريطة رقم 07 ص 301 ، أجده يجتاز الصحراء الشرقية من الشرق إلى الغرب ، من البحر الأحمر إلى النيل، إنه أكثر الوديان المصرية الجافة ترددا. و يمتاز بأنه أقصر طريق يجتاز الصحراء إلى البحر الأحمر، والمؤكد أن تجارة هذا البحر لم تتوقف أبدا عبره منذ عصر الفراعنة إلى غاية أيامنا هاته.

إن " وادي حمامات " كان ذلك الطريق الرابط بين ميناء القصير ومدينة " فقط "، و كانت القوافل تجتازه على حد تقدير " ديكمانس " خلال أربعة أيام ، رغم أن تلك المسافة تمتد في صحراء قاحلة ، دون واحات ودون أماكن للتموين بالمياه وصولا إلى غاية شواطئ مقفرة تمتاز بشمسها الحارقة (1490).

و من المحتمل جدا وجود طرق أخرى تنطلق من مناطق مختلفة من شاطئ النيل و تمر عبر الصحراء العربية وصولا إلى البحر الأحمر، لأن هناك نقوش تدلنا على وجود طريق يربط بين مدينة " إدفو " و البحر الأحمر، و تتمثل في نقش يعود إلى الملك " واجي " وجد بالقرب من هذا البحر بحيث يعد مصدرا عن تجارة مصر في عهد بداية الأسرات، وقد وجد في صخور واد كان الطريق البري الذي إشتهر بمعادنه ومحاجره، كما إتخذ المصريون منذ زمن قديم جدا هذا الوادي طريقا تجاريا يربط النيل بالبحر (1491). ولو أن " عبد العزيز صالح " لم يذكر إسم الوادي ، إلا أنني حسب إطلاعي على بعض الخرائط أرجح أن المقصود به إما " وادي أبو معوض " أو " وادي عباد ".

وقد أكتشفت أنقاض مباني مصرية قديمة من قبل العالم " بلزوني " (Belzoni) دلت على أنه منذ العصر القديم الأعلى، كان الطريق التجاري من " أدفو " (Edfou) في مصر العليا إلى غاية الخليج العربي و " برينيس " (Bérénice) طريقا تجاريا كبيرا، وكان ثلثيه يمران بين التلال الصخرية، كما كان يمتد إلى " طيبة " (1492)، و مع أن المعلومات قد أوردتها " هنري " ، الذي إعتبر ذلك الطريق من أكبر الطرق التجارية إلا أنه شكك في نفس الوقت في أن يكون الفراعنة قد سلكوه، وهو ليس بالأمر الغريب عليه لأنه من أنصار نفي صفة التجارة عن المصريين، وأن مصر لم تعرف هذا النشاط إلا في عصر البطالمة. بل هناك من ينفي أي تواجد لمسالك تجارية في هذه المنطقة عدا الطريق البري الوحيد وهو " وادي حمامات ". ولو أخذنا بصدقية مثل هذه الآراء فبماذا نفسر الطرق التي رسمت على خرائط على أوراق البردي والنقوش المتناثرة على عديد مسالك تلك الصحراء التي يروي فيها أصحابها سيرهم، والأدلة كثيرة في هذا المضمار.

(1488) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 222.

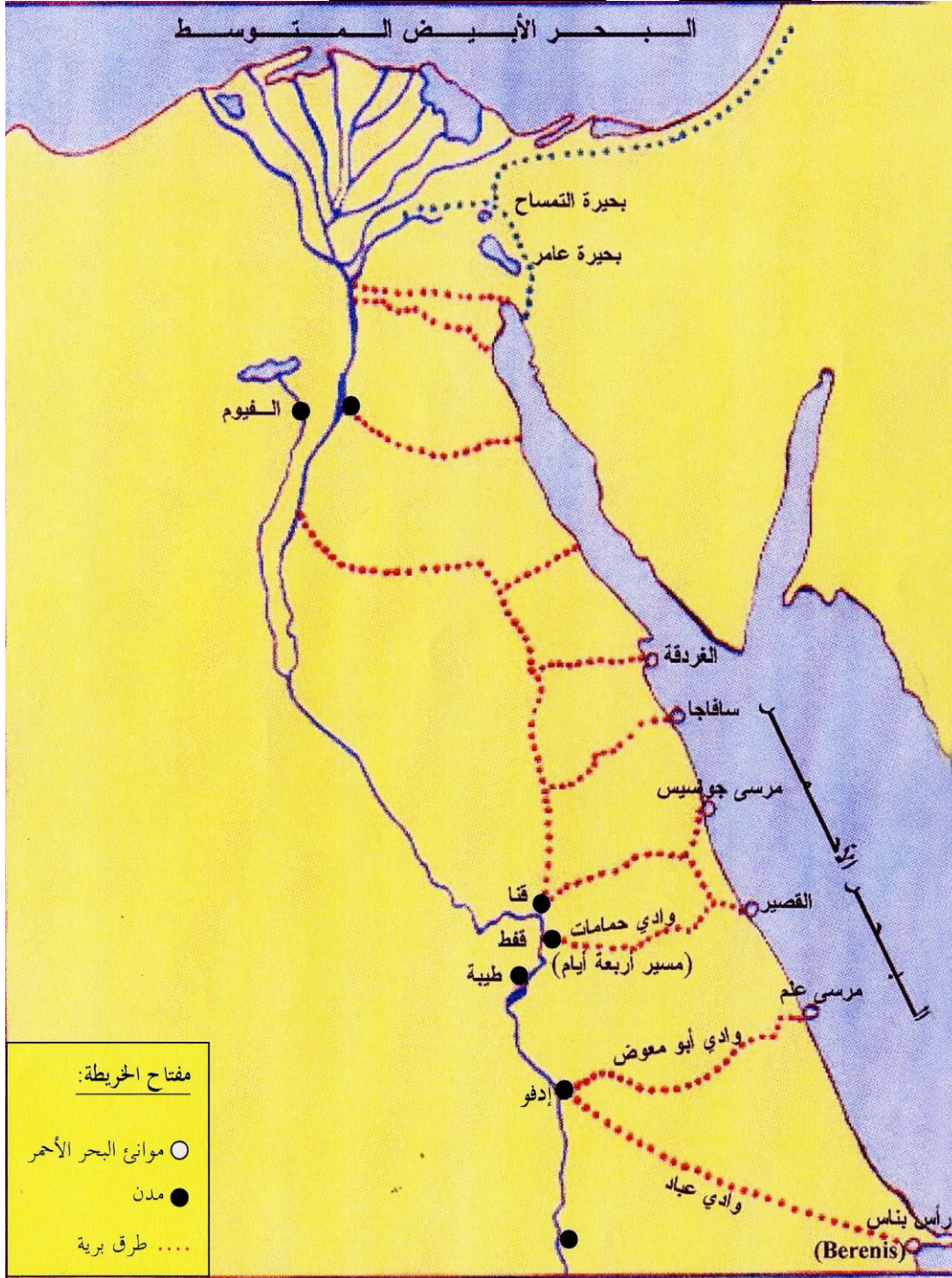
(1489) - G. Posener et autres , Op- Cit , p. 255.

(1490) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p. 277.

(1491) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 87.

(1492) - D.M.J. Henry , Op-Cit , p. 500.

خريطة رقم 07 : طرق الصحراء الشرقية



المرجع (بتصرف): - تريجر وآخرون ، مصر ، المرجع السابق ، ص 220.
- عبد المنعم عبد الحليم سيد، البحر الأحمر...، المرجع السابق.

و إنطلاقا مما ذكر حاولت إعطاء صورة تخطيطية تقريبية عن شبكة الطرق التي عرفتها الصحراء الشرقية و التي توضحها الخريطة رقم 07 ، ص 301.

المطلب الثالث: طرق الصحراء الغربية

تكلمت فيما سبق عن الطريق التجاري الساحلي المؤدي من مصر إلى جنوب فلسطين، وأجد في الجهة المقابلة له طريق شمال غرب والذي كان ينطلق من الدلتا الغربية ليلامس المناطق التي كان يعيش فيها الليبيون ، وقد كان هذا الطريق بدوره يمر بمحاذاة الساحل، لكنه أقل أهمية من الأول، والسبب يعود لكون عبوره يتميز بصعوبات طبيعية منها عدم وجود نقاط ماء يمكن التزود منها، لكن في عصور لاحقة و في زمن البطالمة تحديدا فإنه كان يعد من الطرق المتردد عليها خاصة من قبل جيوشهم(1493).

وبالإتجاه إلى الداخل فإن الأمر يصبح على العكس من ذلك، إذ كانت مصر من جهتها الغربية محاطة بالصحراء الغربية، التي تميزت بأنها مقرا لتجمعات سكانية في شكل واحات، وهي عبارة عن نقاط تربط شبكة الطرق التي تمتد شمالا وجنوبا، فتلك الطرق كانت عصب إقتصاد مصر، لذلك فإنها كانت تربط مصر بالواحات، وهذه الأخيرة بالبحر المتوسط شمالا و ببلاد النوبة جنوبا ، هذه الطرق تربط مرسى مطروح الواقع على البحر المتوسط بواحة " سيوة " (1494)، وقد كانت أبعد الواحات حيث يدوم السفر إليها مدة 15 يوما ابتداء من " وادي النظرون" وهي تقع على بعد حوالي 340 كلم إلى الجنوب من مرسى مطروح، وقد أطلق عليها هيرودوت إسم (Amonium)، بمعنى " واحة آمون" وهي تمتاز بحماية كبيرة بفضل الرمال المحيطة بها التي تشكل حواجز طبيعية ، و ينطلق منها طريق يمر بواحة البحرية حتى يصل إلى النيل في مصر الوسطى (1495)، لذلك عد أطول طريق بين الواحات لأنه يجتاز المسافة الرابطة بين " البحرية" و "سيوه" و عديد الواحات(1496). و من " الداخلة" كانت تنطلق طرق تصل إلى قلب إفريقيا بإتجاه ليبيا وتشاد، فإن أردنا أن نتجه من الشمال إلى الجنوب نجد أن هذه الطرق تسمح بالوصول إلى الواحات الليبية و التي كانت تمر عبر واحة " زرزورة " (Zerzoura) في الشمال و " جلف الكبير " (Gulf Kebir)، وأبعد من ذلك بإتجاه الجنوب هناك طريق كان يمر عبر " جبل عوينات " (Gebel Ouweinat)، و هو ما تثبته بقايا الجرار التي تعود إلى الدولة الوسطى بـ: " أبو بلاس " (Abou Ballas) (1497).

كانت واحة " الخارجية" تشكل جيوبا للزراعة وكانت تتصل بوادي النيل بواسطة طرق تجارية(1498)، وهي تقع على بعد 170 كلم من وادي النيل وكان ينطلق منها طريق يصل إلى " أبيدوس" أو ما يعرف بمدينة " الهو " (1499).

و من واهتي " الداخلة" و " الخارجية" كانت تنطلق طرق إلى السودان والتي كانت تمر بالآبار منها : " بير الصحراء "، و " بير طرفاوي " و غيرهما، إلى أن تصل إلى واحة " سليمة "، وابتداء من هذه الواحة هناك طرق أخرى كانت تتجه صوب منطقة بعيدة وهي " دارفور"، وذلك بإجتياز واحات كل من " Laqiya " و " درب الأربعين"، أو نحو النيل إلى مرتفع " Sai"، و في هذه المنطقة كانت توجد بلاد " يام " المزدهرة تجاريا، بعد ذلك يصل إلى بلاد " كوش" و " كرما"، وكانت تنطلق من هذه الأخيرة طرق بإتجاه الجنوب والجنوب الغربي عبر " وادي الهوار" و " وادي ميلك" (1500).

كما كانت لواحة " الفرافرة" رغم أهميتها القليلة طرقا تربطها ببعض الواحات منها الطريق الذي يربطها بـ " البحرية" في الشمال، وبـ " الداخلة" في الجنوب، و طريق آخر يصلها من جهة بوادي النيل ومن الجهة الأخرى بواحة " سيوه"، ويبلغ طول جزئه من " الفرافرة" إلى النيل حوالي 280 كلم، ومدة إجتيازه هي من سبعة إلى ثمانية أيام، ونتيجة لأهميته فإنه لازال يستعمل في العصر الحاضر(1501)، ورغم أن " الفرافرة" تعد أقل أهمية عن باقي الواحات إلا أن لها أهمية متأتية من موقعها على الطريق التجاري (طريق القوافل) الذي يربط بين واهتي " الداخلة" و " البحرية" (1502)، و من هذه الأخيرة كانت تنطلق منها عديد الطرق التجارية بإتجاه وادي النيل وبإتجاه البحر المتوسط و واحات أخرى، لكن أهم هذه الطرق هو بالطبع الذي

(1493) - بلقاسم رحمانى ، المرجع السابق ، ص. 110.

(1494) - M. Damiano - Appia , Op-Cit , p. 85.

(1495) - محمد إبراهيم بكر ، صفحات مشرقة...، المرجع السابق ، ص. 278.

(1496) - أحمد فخري ، الصحراوات المصرية ، المرجع السابق ، ص. 44.

(1497) - M. Damiano - Appia , Op-Cit , p. 85.

(1498) - J. Haywood , les civilisations antiques..., Op-Cit , p. 49.

(1499) - I. Shaw, Op-Cit , p. 14.

(1500) - M. Damiano - Appia , Op-Cit , p. 85.

(1501) - أحمد فخري ، الصحراوات المصرية ، المرجع السابق ، ص. 182-183.

(1502) - محمد إبراهيم بكر ، المرجع السابق ، ص. 278.

يربط بينها وبين النيل، والذي يبلغ طوله 340 كلم لكنه فقير من حيث مصادر المياه. و من بين الطرق التي ربطت " البحرية" بالواحات الأخرى نجد طريقا يربطها بواحة " الفرافرة" يصل طوله إلى 185 كلم وثبت إستخدامه منذ فترات زمنية قديمة جدا وهذا من خلال البقايا الأثرية لمبان وجدت على طوله، وما سهل إستخدامه هو تواجد مصادر الماء على مسافة سير يوم ويدوم السفر عبره بالحمير مدة أربعة أيام، كما أن هناك طريق يربط " البحرية" بـ " الفيوم" يبلغ طوله 240 كلم ومدة السفر فيه يتم خلال خمسة أو ستة أيام. كما كانت هناك طرق تنطلق من " أبيدوس" الواقعة على النيل ومن مدينة " ديوسبوليس" لتصل إلى واحة " الخارجة". و هناك طريق يبدأ من مدينة " أوكسيرنكوس"، و يصل إلى غاية واحة " البحرية"، و إنتشرت عبر هذا الطريق ديانة الإله " ست" سيد منطقة Oscyrhynchite في كل المنطقة التي كان يمر بها، فهو طريق يربط الواحات الكبرى و يمتد إلى غاية النوبة(1503).

وإذا أردنا أن نتعرف على إنطلاقة هذه الطرق من ليبيا فإننا نجد أنها تنطلق في مسلك واحد لكنه كان يتفرع إلى ثلاثة فروع، فهو يمر في إتجاهه نحو مصر ببعض الواحات منها " جغبوب" و " سيوه"، و يتجه فرع منه نحو الشمال حتى يصل إلى الطريق الساحلي - سبقت الإشارة إليه - ، والفرع الثاني يسير عبر وادي النطرون صوب الشرق إلى أن يصل إلى الدلتا والفيوم، أما الفرع الثالث ينخرج صوب الجنوب الشرقي من ليبيا بإتجاه الواحات إلى أن يصل وادي النيل، وقبل أن يصل إليه كان يتفرع منه طريق عند واحة " البحرية" قاصدا إتجاه الجنوب، حتى يصل إلى الواحات هناك وهي : " الداخلة" و " الخارجة"، ومع أن الطريق التجاري الذي يربط مصر بليبيا يتشعب إلى عدة طرق تربط أهم نقاط الصحراء الغربية إلا أنه يقال بأنها قليلة الأهمية(1504).

وهناك طريق تجاري هام من مصر إلى بلاد الغرامنت أو فزان، هذا الطريق يمتد من " طيبة" في مصر العليا إلى غاية حدود بلاد " الغرامنت"، حيث يصل إليها بالقرب من " زويلة" (Zuila)، وهو يمر عبر واحة " أمون" و " أنجيلا" (Angila)، و الذي تمتد على طوله محطات عديدة إلى غاية إقليم قرطاج(1505).

من خلال ما ذكرته عن هذه الطرق يتضح أمرا مهما جدا وهو أن الصحراء الغربية كانت عبارة عن شبكة عنكبوت نتيجة للشبكة المتداخلة و الكثيرة الفروع من الطرق التجارية. فإن كانت مسالك الصحراء الشرقية تشكل شبكة بسيطة ، فإنه على العكس من ذلك فإن شبكة طرق الصحراء الغربية هي معقدة. و مع ذلك فإن مصر إهتمت بها و أمنتها نتيجة لدورها التجاري، وهو ما ينفي المقولة التي ترى بأن مسالك الصحراء الغربية ذات أهمية قليلة. و قد وجدت صعوبة في إعطاء صورة توضيحية عن هذه الطرق التي تضمنتها الخريطة رقم 08، ص 305 ، فالقراءة عليها يبرز للوهلة الأولى ذلك التشابك والترابط في ما بينها من جهة، وبينها و بين المسالك الجنوبية من جهة أخرى.

المطلب الرابع: الطرق الجنوبية

سبق وأن أشرت في الفصل الثالث بأن البعثات التجارية المصرية إلى الجنوب في بدايتها إتسمت بصفة الإستكشاف، وكان من نتائجها فتح مسالك هناك ظلت تتردد في عصور لاحقة من قبل عديد البعثات ، حيث كان الأمر ميسرا لأفرادها الذين كانوا يقتفون أثر المصريين هناك، بل أنها لازالت هي نفسها اليوم، ولهذا أردت من خلال هذا العنصر أن ألقى نظرة عن هذه الطرق ومسارها ومدى أهميتها.

يرى البعض بأن الطرق الجنوبية عرفت إقبالا أكثر في العصور المتأخرة، فبعد أن كانت البعثات المصرية إلى بلاد النوبة تتم عبر النيل فإنها في الفترات الأخيرة من العصر الفرعوني كانت تتجنبه، وهذا راجع لصعوبات عديدة منها : صعوبة اجتياز هذا النهر بعد الشلال، فالملاحة كانت جد صعبة (وقد عرفنا أنه في أثناء فترات قوتهم وجد المصريون حلا لذلك بحفر القنوات)، و الصعوبة الثانية هي هجومات قطاع الطرق الذين كانوا يغربون على الأراضي المحيطة بالنيل، وبما أنه في العصور المتأخرة كان المصريون غير قادرين على تجنب هذا الخطر نتيجة لضعفهم ، فقد فضلوا الطرق الصحراوية، فكانت القوافل تجوب

خريطة رقم 08 : طرق الصحراء الغربية

(1503) - G. Posener et autres , Op-Cit , p. 255.

(1504) - بلقاسم رحمانى ، المرجع السابق ، ص. 110.

(1505) - D.M.J. Henry , Op-Cit , pp. 497,499.



- J.Pirenne, Histoire de la civilisation de l'Egypte ...Op-Cit. : المرجع (بتصرف)

- G.Posener , dictionnaire de la civilisation ...Op -Cit.p. 254

الواحات إلى غاية منطقة تدعى " الفاشر " الواقعة غرب السودان، والتي كانت تجتاز خلال أربعين يوما : وهي طرق سار عليها من جاء بعدهم خاصة العرب(1506).

لكنني أرى العكس من ذلك لأنه إذا عدنا إلى العصر الفرعوني، فإننا نجد الطريق البري إلى بلاد " النوبة " كان يتمثل في طرق كثيرة كشفت رحلات " حركوف " عن بعضها، وعلى ما يبدو أنه خلال الدولة القديمة لم يكن النيل يستخدم كسبيل إلى هناك، لأن حركوف كان يتبع في رحلاته " درب الأربعين " ، ويستنتج ذلك من مدة الرحلة التي دامت بين ستة وثمانية أشهر، وإعتمادها على الحمير كوسيلة للسفر وحمل الأثقال، و بالتالي فإن هذا الطريق كان أيسر له من أن يجتاز النيل و الذي تنتشر فيه الصخور و كثرة الرمال على جانبي الوادي، و التي كانت تشكل عائقا حقيقيا(1507).

و" درب الأربعين " هذا هو من ضمن ثلاث طرق مهمة في الجنوب، و « يبدأ من دارفور وكردفان وينتهي في مصر العليا مارا بواحة الخارجة، وهذا الطريق القديم أستخدم في العصر الفرعوني، وإشتهر في العصور المتأخرة بتجارة الرقيق والعاج وريش النعام »(1508)، إن شهرته بهذا النوع من التجارة لم تختص به العصور المتأخرة بل أنه في الأساس كان طريقا لهذه التجارة خلال العصر الفرعوني و حتى قبله كما أتيت على ذكره في الفصول السابقة.

فهذا الطريق و الذي يطلق عليه أيضا "طريق الواحات" نجده ينطلق من الإقليم " الثاني " نحو واحة "الخارجة" ومن هنا باتجاه واحة " سليمة "، ويصل أيضا إلى شمال واحة " الخارجة"، وهناك طريق يقود نحو الغرب أين يتواجد " التحنو " بعد أن يكون قد عبر واحة " الداخلة" ثم " الفرافرة " التي أكدت الأبحاث تواجد النفوذ المصري بها (1509)، وهو ما يؤكد أن رحلات الكشف في الجنوب هي التي أوصلت المصريين إلى هذه الواحات.

ولو أن طرق الصحراء هي عديدة لكن أشهرها هو " درب الأربعين " الذي لعب دورا لا يقل عن دور النيل في إيصال التأثيرات الحضارية خاصة المصرية إلى الجنوب، و لإيضاح خط سير هذا الطريق أكثر فهو ينطلق من أسبوط باتجاه واحة " الخارجة" و واحة " سليمة"، و من هذه الأخيرة إلى غاية الشلال الثالث، ومن هناك إلى " الديبة" و بعدها " أم درمان"، ثم يمتد إلى غاية الوصول إلى نقطة إلتقاء النيلين : الأبيض والأزرق، بعد ذلك يتجه إلى غاية " كردفان " و " دارفور "، ثم ينعرج قليلا ناحية الغرب ليصل إلى تشاد، بل إنه يمتد إلى " تمبوكتو" في وادي النيجر، وهناك يلتقي بطريق تجاري هام، و الذي ينطلق من طرابلس إلى هناك(1510). فكم كانت أهمية هذا الطريق و الذي يعد جد موعلا في القدم !، لكن هل كان المصريون القدامى قد سلكوه إلى غاية تلك الأماكن ؟.

و لو أن البعض يرى أن الدلائل التاريخية لم تشر إلى أن المصريين كانوا قد وصلوا إلى هناك، بل تثبت أنهم قد وصلوا كأقصى حد إلى " دارفور " و " كردفان " (1511)، إلا أنني كنت قد أشرت في الفصل الرابع أن المصريين من خلال بعثاتهم يحتمل أنهم قد وصلوا إلى منطقة إلتقاء النيلين و أيضا إلى منابعهما. و تشكلت شبكة من الطرق بين الصحراء الشرقية وشمال السودان، وكانت تعبر بعض الوديان مثل " وادي علاقي " (Allaqi)، الذي يوصل إلى " بلدة العلاقي "، وهناك " وادي خريط "، والذي يؤدي إلى بلدة " كوم أمبوره "، وهي وديان تعد طرقا جنوبية شرقية لأنها تصل وادي النيل بشمال السودان(1512).

وكما سبق وأن ذكرت فإن النيل كانت تنتشعب حوله شبكة طرق برية وكان لمنطقة الجنوب عدد منها تسير موازاة مع النيل، واحد منها هو مسلك " مهيلة" (Maheila)، الذي كان يذهب من " كاوا " (Kawa) إلى " ناباتا "، وعلى الشاطئ الآخر للنيل، هناك طريق "بيوضة" (Bayouda)، وكان يصل إلى مكان قريب من " بربر " (Berber)، فهذا الطريق كان يسمح بتجنب المجرى النهري الذي كان يحدث عراقيل عند الشلالات وبه التيارات المعاكسة(1513).

وكان هناك عديد الطرق التي تنطلق من " ققط "، حيث كان المصريون ينزلون نهر النيل ويذهبون إلى غاية " كوبان " في بلاد النوبة، ومن هناك يخترقون الصحراء باتجاه " وادي علاقي " و " وادي قبقابة" حتى يصلون إلى المنطقة المنجمية بـ " واوات" التي يتزودون منها بالمعادن و كذلك السلع التجارية، وهناك طريق آخر بري يتردد عليه باستمرار و الذي ينطلق من " إدفو" ثم يسير بمحاذاة النيل باتجاه الجنوب، بالإضافة إلى ما

(1507) - محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية...، المرجع السابق ، ص ص. 245- 246.

(1508) - بلقاسم رحمانى ، المرجع السابق ، ص. 109.

(1509) - N. Grimal , histoire de l'Egypte..., Op-Cit , p. 113.

(1510) - محمد إبراهيم بكر ، المرجع السابق ، ص. 172.

(1511) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، المرجع السابق ، ص ص. 19- 20.

(1512) - بلقاسم رحمانى ، المرجع السابق ، ص. 109.

(1513) - M. Damiano -Appia , Op-Cit , p. 85.

ذكره يؤكد " فركوتيه" أنه ابتداء من الألف الثانية فقط إستعمل المصريون المسلك البري- البحري للوصول إلى مناجم "واوات" القريبة من البحر الأحمر وأيضا للذهاب إلى بلاد "بونت" (1514). معنى كلامه أنه يحاول إبراز مدى أهمية الطرق البرية في إقتصاد مصر ككل وبصفة خاصة التجارة، إلا أنني لا أتفق معه بشأن إتخاذ المصريين الطريق البحري إلى "بونت" ابتداء من زمن تلك الدولة، وهي مسألة تطرقت إليها أنفا.

و هناك طريق يمتد من " طيبة " إلى إثيوبيا، وإلى " مروى " و هو على فرعين أحدهما يتبع طول النيل، وفي جزء منه يمر في هذا النهر، والثاني يتجه من " طيبة " إلى مستعمرة " مروى " عبر صحراء بلاد النوبة، و لو أن هذا الطريق لم يفصل المؤرخون فيما إذا كان موجودا أثناء العصر الفرعوني، إلا أنه في نفس الوقت لا يمكن إنكار وجوده حينذاك(1515).

و بعد اجتياز النيل وعند الوصول إلى الشلال الأول ولتفادي هذا الأخير، نجد المصريين يتخذون طريقا عبر واحة " دنقلة " (Dongola) للوصول إلى بلاد " واوات " التي تزود مصر بالمحاصيل التي أتيت على ذكرها في السابق، وهي أيضا نقطة المرور إلى إفريقيا شبه الإستوائية عبر " دارفور ". ومن الطرق الجنوبية نجد " درب الطويل"، وهو ينطلق من النيل ليصل إلى منطقة "بلات" (Balat) عند مدخل واحة " الداخلة"، وفائدته تكمن في الإستفادة من محاصيل الواحة وكذلك مراقبة المسالك هناك والمتجهة شمالا وغربا وجنوبا(1516).

إن الطرق الجنوبية تستعمل للوصول برا إلى بلاد " بونت " ، و ذلك بالتعمق نحو الجنوب الشرقي إنطلاقا من " إيفنتين"(1517)، وصولا إلى " كاسالا " (Kassala) التي كانت مركزا تجاريا مهما لعدة قرون ومنها كان يمكن الوصول إلى بلاد " بونت" جنوبا، كما كان هناك طريق ينطلق منها باتجاه الشمال الشرقي بإجتياز ممر " سيمرات" (Simrat)، ويمكن الوصول إلى طرق متجهة نحو البحر الأحمر(1518).

وهناك طريق تجاري يمتد من " مروى " إلى غاية الخليج العربي تدل على وجوده آثار كل من " أكسوم " (Ascum) و " عدول " (Adule) (1519). بل إن " مروى " كانت تنطلق منها طرق أخرى : أحدها في إتجاه الشمال ليصل إلى غاية " أبو حامد"، ثم يجتاز الصحراء النوبية نحو " قصر بريم " مرورا بوادي " قبقابة " Kabqaba و " وادي علاقي"، والآخر في إتجاه الجنوب و كان يتبع وادي " هواذ " (Hawad) في إتجاه إثيوبيا الحالية، حيث كان النيل يأخذ مجراه باتجاه الجنوب، وسمح ذلك بالوصول إلى غاية خط الإستواء بواسطة النيل الأزرق الذي يبلغ المناطق الخصبة " للجزيرة " المروية بمياه النيل الأبيض(1520).

أما عن الطرق التي كانت تنطلق من " كرمة"، فقد كانت ملائمة للعبور بدرجة عالية، حيث كان اجتياز المسافة بينها وبين الشلال الثاني لا يستغرق سوى ستة أيام من قبل القوافل، و التي كانت تصعد من هناك النيل، لأنه يكون صالحا للملاحة في تلك المنطقة، ومن هناك يمكن للقوافل أن تتجه نحو واحة " سليمة" غربا ثم تتابع سيرها نحو الشمال بأخذ " درب الأربعين"، والذي كانت تصطف فيه الأبار على مسافة مسيرة يوم واحد من المشي، للوصول إلى الشلال الأول ثم " أبيدوس" أو الواحات الشمالية، و هناك طريق آخر ينطلق من " كرمة" بإتجاه المنطقة الخصبة للشلال الرابع، و هي مسافة لا تتطلب أكثر من يومين لقطعها (1521).

هذا و نجد طريقا تجاريا إزدهر في فترة متأخرة عندما برزت دولة " كوش" ودولة "إكسوم"، ونتيجة لوجود حركة تجارية نشطة بينهما إمتد طريق من " إكسوم " إلى "كاسالا " فـ " مروى " ثم بإتجاه مصر، وكان إمتداده في الجنوب إلى غاية الصومال(1522).

ومن الطرق ما ذكره " نقولا زيادة " نقلا عن كتاب الدليل بخصوص طريق بري يحاذي ساحل البحر الأحمر : « إن الطريق البري من أدوليس (عدول) على الساحل الإفريقي إلى عطبرة، ثم شمالا إلى مصر هو

(1514) - J. Vercoutter , les pistes de l'or..., Op-Cit , p. 24.

(1515) - D.M.J. Henry , Op-Cit , p. 500.

(1516) - N. Grimal , Op-Cit , pp. 112 - 113.

(1517) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p. 285.

(1518) - M. Damiano –Appia , Op-Cit , p. 85.

(1519) - D.M.J. Henry , Op-Cit , pp. 500 -501.

(1520) - M. Damiano –Appia , Op-Cit , p. 85.

(1521) - J.A. Wilson , Op-Cit , pp. 131-132.

(1522) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 577.

أفضل من الطريق الشمالي من القصير إلى الداخل، لأن الأول فيه كلاً وماء، أما الثاني فيمر في أرض تكاد تكون قاحلة» (1523).

وهناك نقش يعود إلى الملك " تحوتمس الأول " الذي وجد في " كورفوس " (Kourgous) يشير إلى أن البعثات كانت تنطلق على شاطئ النيل وتتجه عبر وديان الصحراء الشرقية وصولاً إلى " واوات " قاطعة مئات الكيلومترات جنوباً (1524).

الملاحظ أن الطرق الجنوبية كانت في إتصال مباشر مع طرق الصحراء الشرقية والغربية، وهذه الحقيقة تبرزها على أرض الواقع الخريطة رقم 09 ، ص 310 .

و تميزت الطرق التجارية البرية بمصر المؤدية إلى العاصمة بوجود تماثيل على كل جانب منها تمثل الآلهة وأبو الهول، وكانت تلك الآلهة ممثلة في رؤوس حيوانات (1525).

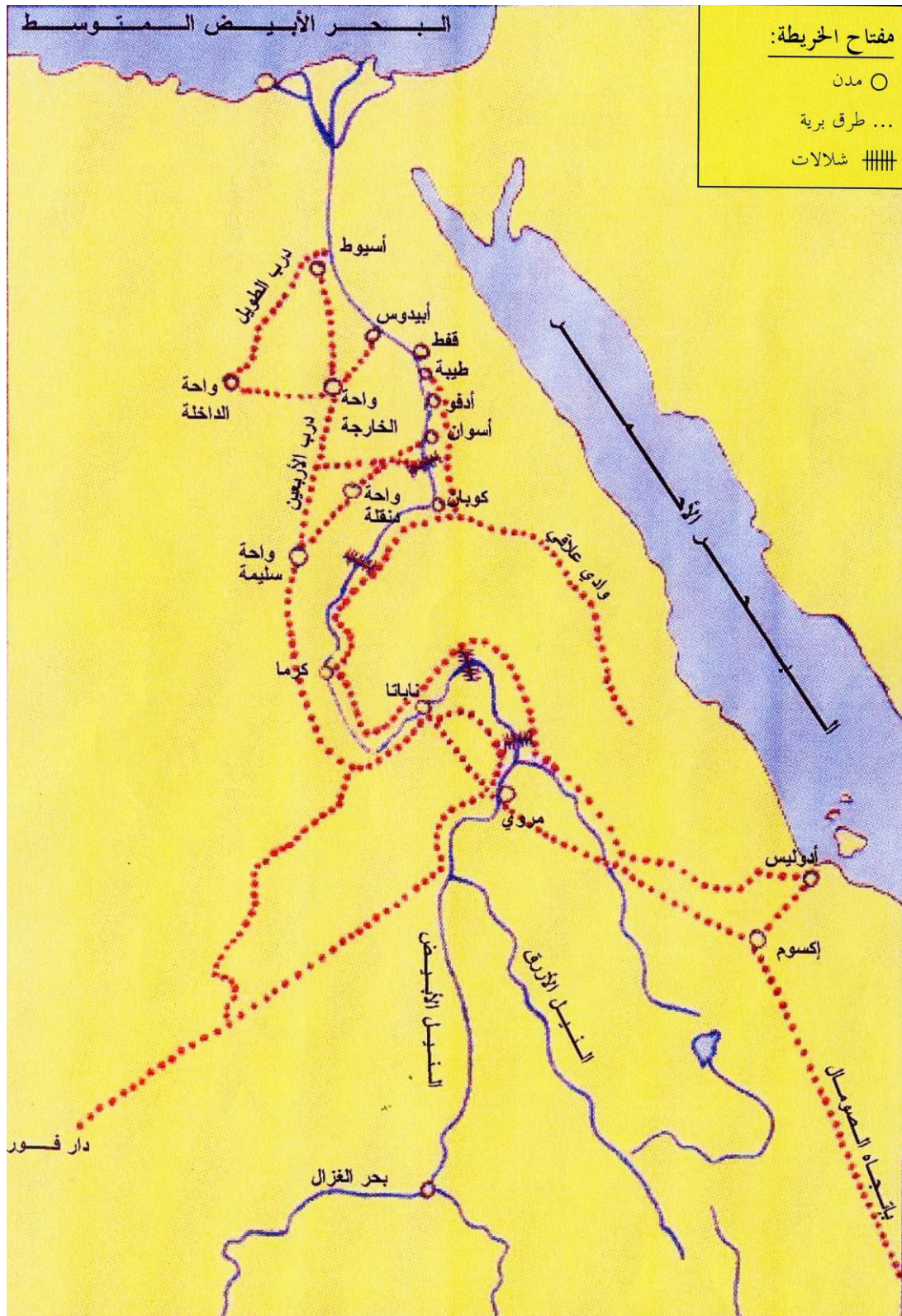
من خلال هذا العرض الشامل لشبكة الطرق و مميزاتها أثناء العصر الفرعوني ، تتضح لنا بعض الملاحظات، أولها أن الطرق البرية كانت تعترضها بعض الصعوبات لأن البعثات التجارية التي كانت تسلكها تعاني قساوة المسير فيها سواء من جهة طول الطريق ، أو المسالك الوعرة ، أو نقص التزود بالماء، و أخطرها بالطبع التعرض لإعتداءات اللصوص ، و هناك عديد الوثائق المصرية التي تكشف عن ذلك و بصفة خاصة الأدب المصري. والملاحظة الأخرى أن الطرق البرية التجارية في مصر تواصل إستخدامها منذ العصر الحجري الحديث إلى غاية العصر الحالي، لأن مهمتها ظلت مستمرة، و لذلك نجد الذين إحتلوا مصر فيما بعد أبقوا عليها و إستغلوها منهم الرومان، الذين إستخدموها و هيئوها وأعادوا إستعمالها لذلك برز دورها أكثر، لأن هذه الحضارة عرفت بتنظيم الطرق.

خريطة رقم 09 : الطرق الجنوبية

(1523) - نقولا زيادة ، المرجع السابق ، ص. 264.

(1524) - B. Manley , Op-Cit , p. 63.

(1525) - ن. ي. ، المرجع السابق ، ص. 50.



المرجع (بتصرف):

M.Mollat du Jourdin et J.Desanges, les routes millénaires, Op-Cit, p.98.

الفصل السابع: نظام حماية الطرق التجارية

هكذا كانت مصر الفرعونية قد عرفت شبكة طرق متنوعة و متشعبة ، وبالتالي فإن ذلك يدحض الأراء التي تقلل من شأن هذه الطرق التي تعتبر ركيزة للحركة التجارية ، و قد إعتمدت مصر وسائل نقل فعالة لضمان إنتعاش تلك الحركة ، كما دعمت فاعلية هذه الطرق و هاته الوسائل بنظام حماية كان هو الآخر مميّزا لتنوعه و ضخامة المجهودات التي بذلت من خلاله لدري الأخطار عن تلك المسالك. فما هي وسائل النقل التي إعتمد عليها

المصريون في رواج التجارة؟، و فيما تتمثل الأخطار التي تشكل معوقات للحركة التجارية؟، و ماذا فعلت مصر من أجل تقاديتها؟.

المبحث الأول: وسائل النقل

تراوحت وسائل النقل بين وسائل برية و أخرى بحرية و كانت لكل منهما مساهمة معتبرة في التنقلات التجارية.

المطلب الأول: وسيلة النقل البرية

كان الحيوان الوحيد الذي أستخدم في النقل خلال الدولة القديمة هو الحمار، لأن الجمل كان لا يزال مجهولا ، لذلك أعتمد على الحمير في النقل والجر وحمل الأثقال(1526).

كان هذا الحيوان الوسيلة البرية المفضلة والوحيدة التي إستخدمها الفراعنة من جهة لإيصال رسائلهم، ومن جهة أخرى لحمل البضائع المتنوعة الآتية من داخل إفريقيا، ومنها الثمينة مثل التبر والأبنوس والعاج، فكانت مثل هذه القوافل تشتمل على مئات من الحمير لتتمكن من حمل الحجم الكبير من البضائع (1527)، وقد كان الحمار يستعمل في المسافات الطويلة من قبل القوافل الرسمية التي كانت تذهب إلى المناجم أو إلى بلاد " النوبة"، كما كان يستخدم أيضا من قبل الرحل في الصحراء العربية (صحارى شرق مصر) و من قبل الباعة المتنقلين الذين كانوا يأتون من الواحات(1528)، أي أن الحمار لم يكن وسيلة نقل برية لدى المصريين فحسب بل أن المناطق المجاورة لهم في إفريقيا كانت تستخدمه لنفس الغرض أي كوسيلة نقل تجاري.

و لذلك لعب الحمار دورا كبيرا، أما الحصان والجمل فلم يستوردا إلا في فترات متأخرة من العصر الفرعوني، لذلك كان إستخدام الحمار يعود إلى زمن قديم قدم حضارة مصر، فهو لا يستغنى عنه ولا بديل له بالنسبة لرجال القوافل التجارية(1529).

و معلوم أن مصر قبل غزو الهكسوس لم تكن تعرف لا حصان الجر ولا حصان السرج، ويفسر ذلك بأن أرضها التي تتميز بكثرة المستنقعات كانت تسمح بسحب الأثقال بواسطة سواعد بشرية أو بواسطة السحب بالثيران، وهو ما تبينه آثارهم، فإلى غاية الأسرة الثامنة عشرة فإن النصب الفرعونية كانت تبين لنا صورا فيها 400 رجل يسحبون بالحبل الحجارة، ولضمان توازنها كانت توضع على سحاب ضخمة، أو أن مثل هذا العمل تقوم به ثلاثة أزواج من الثيران مربوطة إلى سحاب موصول بالصخور المسحوبة(1530).

فإعتماد مصر على هذه الوسيلة في النقل راجع لأنها لم تعرف الدواب خلال الدولة القديمة، وحتى بعد أن عرفته في وقت لاحق لم تدخله في تنقلاتها خاصة منها التجارية(1531).

على العموم فإن من مميزات النقل البري أنه كان « صعبا ومكلفا » على حد تعبير "محمد عبد الفتاح وهيبة"، ويضيف بأن مصر رغم أنها كانت قد عرفت الحصان منذ الألف الثانية ق.م إلا أنها لم تستخدمه في النقل، وظلت تحتفظ به لجر عربات الحرب، كما أنها لم تستخدم الجمل الذي إستخدمه البطالمة فيما بعد(1532).

لكن مع ذلك نسجل تطورا في وسيلة المواصلات البرية خلال الدولة الحديثة، حيث أستخدمت العربات التي يجرها الحصان، كما أستخدمت أخرى تجرها الثيران لنقل البضائع(1533)، لكن العربات ظل مجال إستخدامها محدودا، فقد كانت نافعة لزيارة قصر الملك أو قصر الوزير ، و لجولات التفتيش في القرى، وللذهاب إلى الصيد، ولم تكن تسمح بالذهاب بعيدا (1534)، هذا في حالة الظروف الجيدة ، فما بالك في ظل ظروف صعبة مثلما هو الحال بالنسبة للطرق البرية ، وما تتميز به أرض مصر من فيضان النيل في فترة محددة من السنة.

المطلب الثاني: السفينة

إن كانت وسيلة النقل البرية متواضعة و مكلفة ، فإننا نجد وسيلة النقل المائية و هي السفينة ، كانت وسيلة النقل الأولى بدون منازع في مصر ، لذلك و جب التعرف عليها و على أهميتها في الملاحة التجارية، هذه

(1526) - E. Hornung , lecture de l'histoire égyptienne, Op-Cit , p. 74.

(1527) - ن. ي ، تاريخ توت عنخ آمون ، المرجع السابق ، ص. 171.

(1528) - G. Posener et autres , dictionnaire de la civilisation..., Op-Cit , p. 15.

(1529) - G. Dykmans , histoire économique..., Op-Cit , t. 2 , p. 240.

(1530) - V. Bérard , les Phéniciens ..., Op-Cit , p. 203.

(1531) - F. Daumas , la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 231.

(1532) - عبد الفتاح محمد وهيبة ، مصر والعالم القديم...، المرجع السابق ، ص. 208 - 209.

(1533) - فوزي مكاوي ، الناس في مصر القديمة ، المرجع السابق ، ص. 103.

(1534) - P. Montet , la vie quotidienne en Egypte..., Op-Cit , p. 169.

الملاحة التي مارسها كل من العرب ، الفينيقيين ، الإغريق ، الرومان وغيرهم من شعوب العالم القديم ، و لذلك اعتبرهم المؤرخون قوى تجارية عظمت ، في حين نفوها عن المصريين.

كنت قد تكلمت في الفصل الأول عن حاجة المصريين إلى الأخشاب ذات النوعية الجيدة، والتي تعد ثمينة بالنسبة إليهم، وعرفنا كم كانت هذه الحاجة كبيرة لأن مصر كانت تفتقر إليها فهي لم تعرف غطاء غابيا، وعلى كل لم يمنعها ذلك من معرفة صناعة السفن وبراعتها فيها، وذلك بالتوصل إلى إستغلال ما وجد بطبيعتها والإستفادة من الأخشاب المستوردة.

و من خلال ما ذكرته في المدخل عن المخلفات الأثرية التي تخص السفن يتضح جليا أن البدايات الأولى لصناعة المراكب كانت في عصور ما قبل التاريخ ، و أن مصر عرفت إنتشارا واسعا لها بل إنها كانت من الأوائل في التوصل إلى ذلك بحكم أمور عدة لا مجال لذكرها. و الآن سأحاول معرفة ما إذا كان ذلك التفوق قد ظل على حاله أم عرف تقدما بالوصول إلى إنشاء مراكب تجارية كبيرة تلائم البحار؟.

بما أن المراكب التي توصل المصريون إلى صنعها في البداية لم تكن بإمكانها شق عباب البحار فإنهم قاموا بتطويرها لتلائم الملاحة فيها حتى تستطيع حمل سلع بلاد " بونت" البعيدة ، إلا أن تلك التعديلات لم تضمن سلامة الرحلة البحرية لذلك لجأ المصريون إلى إستخدام خشب الأرز من الساحل السوري لتصنع منه سفنا تتحمل السفر أعواما عدة في البحر.

إن المراكب الأولى الجديرة بهذا الإسم إنتشرت في مصر أثناء الدولة القديمة ويحتمل جدا بأنها ظهرت منذ الألف الرابعة ق.م (1535). وقد حدد البعض بداية صنعها منذ حوالي 2800 ق.م، حيث كانت تتكون من ألواح خفيفة جدا و لم تكن لها " أترابل" (*) و لا ضلوع التدعيم (renfort) (1536).

فمنذ أوائل العصور الفرعونية كانت للمصريين سفنا تتجول في البحر المتوسط ، والدليل على ذلك السفن التي كانت ترسل إلى الساحل السوري من قبل كل من الملكين: " سنفرو" و " ساحورع " ، و التي كانت مطابقة لمراكب نهر النيل وربما كانت هي نفسها المراكب النيلية و لضرورة الملاحة البحرية أضافوا لها الشراع والمجاديف (1537).

وبذلك كان المصريون هم السباقون في صناعة المراكب الكبيرة قبل كل الشعوب الأخرى وإرتادوا بها البحرين : الأحمر والمتوسط ، وكان شكلها هو نفسه شكل المراكب النيلية التي كانت مخصصة لنقل البضائع. و يرى " تومازي " (A.Thomazi) أن الملاحة تعود إلى العصور الأولى للإنسانية ، و الدليل على ذلك العثور على رسوم ونقوش تعود إلى أكثر من خمسة آلاف سنة تبين مراكب مجهزة بمجاديف و أشرعة، و بما أنها أكتشفت في مناطق عدة فإنه يقول من الصعب تحديد أقدم شعب عرف الملاحة ، إلا أنه حصرها في الشعوب الشرقية من مصريين ، كريتيين ، فينيقيين ، هليينيين ، و ذلك راجع لإستفادتهم من الظروف الجغرافية و المناخية ، و يرى بأنه لدى هاته الشعوب يمكن دراسة تاريخ المراكب القديمة من خلال وثائقها الكثيرة (1538).

وبما أن مصر هي التي تميزت عن باقي الشعوب بتعدد الوثائق وتنوعها حول هذا الموضوع (أنظر المدخل)، وبما أن هذه المراكب إرتبطت بالملاحة التجارية، فذلك دليل قاطع على أن مصر كانت أقدم الشعوب البحرية التي يحق وصفها بأنها قوة تجارية، نظرا لأسبقيتها الحضارية.

و لو أنني لا أود الدخول في تفاصيل تقنية دقيقة بخصوص أبعاد و حمولة المراكب، إلا أنني أردت فقط التعرف على أبعاد مراكب أعالي البحار وسعتها لسببين ، الأول : أنها تعتبر جزء من دراسة البحرية التجارية أو السفن التجارية، والثاني لمعرفة ما مدى قوة المراكب المصرية على حمل البضائع التجارية التي تسير لمئات الآلاف من الأميال ، و هي بالتالي نقطة مهمة في فاعليتها للتجارة البحرية، فكلما كبرت الأبعاد كلما زادت الحمولة والعكس صحيح .

ولو أن " كاسون " (L.Casson) يرى بأنه قبل وجود علم يختص بآثار تحت الماء (الآثار البحرية) لم يكن هناك إلا القليل من المعلومات حول أبعاد وسعة المراكب التجارية القديمة وعن كيفية بنائها، و لا يوجد إلا حفنة من الرسوم والنقوش وبعض الملاحظات المبعثرة لدى الكتاب القدامى، ولا واحدة من هذه المصادر أعطت تفاصيل مدققة (1539)، أي أنه يرجع الفضل إلى ذلك العلم الفتى في إعطاء صور ومعلومات كثيرة تخص مراكب

(1535) - L. Des Noëttes , de la marine antique à la marine moderne..., Op-Cit , p. 10 .

(1536) - E. Angelucci et autres , encyclopedie des navires , Op-Cit , p. 18 .

(1537) - محمد بيومي مهران ، الحضارة المصرية...، المرجع السابق ، ص. 219 .

(1538) - A. Thomazi , histoire de la navigation, Op-Cit , pp. 5- 6 .

(*) - أترابل (quilles) هي خشبة توضع في قاع المركب.

(1539) - L. Casson , les marins de l'antiquité, Op-Cit , p. 231 .

العصر القديم. لا أنكر أهمية ما قاله ، وما قدمته وتقدمه أبحاث و تنقيبات ذلك العلم، إلا أنني أرى أن كلامه ليس قاعدة عامة بل هو نسبي لا ينطبق كثيرا على مصر في حين ينطبق على مناطق أخرى، لأن ما قدمته لنا الآثار المصرية غني لتكوين صورة عن الملاحة التجارية إلى حد كبير، ولو أنها لم تعط بالطبع كل شيء. ولا أنتقص من قيمة علم الآثار البحرية لأنه قد يكشف لنا في المستقبل عن صفحات غامضة لم تستطع ما لدينا من وثائق على تنوعها من إلقاء الضوء عليها، خاصة وأن الفجوات كثيرة في هذا الموضوع .

على كل فإن كانت المراكب النيلية الأولى المصنوعة من البردي و البوص كان طولها يتراوح بين 3 أو 5 أمتار إلى غاية 10 أمتار (1540)، فما هي أبعاد المراكب الكبيرة المصنوعة من الخشب وخاصة منها مراكب أعالي البحار (التجارية) ؟.

قبل الإجابة ، أود أن أشير إلى أن الزوارق المصرية النهرية المصنوعة من الأخشاب كانت كبيرة جدا لأنه من خلال بعض الصور المرسومة على أواني من مصر العليا كان لها أكثر من خمسين مجدافا على كل جانب، ويبلغ طولها تقريبا 100 متر، إن هذه القياسات لم يصلها أي مركب لأعالي البحار، لأن مراكب النقل على هذا الشريان والذي هو النيل كانت تبلغ حمولة جد مرتفعة (1541)، وأبعاد المراكب المخصصة لأعالي البحار هي بدورها ذات مقاسات كبيرة، فمنها التي يبلغ طولها 60 م والتي كانت منتشرة بمصر (1542)، و لو أنه أحيانا لا تفيدنا الدلائل التاريخية عن مقاييس سفن البحار مثلما هو الحال في سفن الملك "ساحورع" حيث لا يمكن التعرف إن كانت كبيرة الحجم أم لا ، لكن قصة الملاح الناجي زمن الدولة الوسطى تبين بأن هذه السفن التي تسير في البحر كانت تصل إلى 60 م طولاً و 20 م عرضاً (1543).

وإذا عدنا إلى زمن الدولة القديمة، فإننا نلمس تقدما في صناعة السفن، والذي يظهر جليا من خلال الرسوم والنقوش التي تشمل كل أنواع السفن، فقد وجدت سفينة بطول 30 م و عرض 15 م ودامت مدة إنجازها 17 يوما، كانت لها إمكانيات معتبرة لعبور البحار، حيث أن أقدم الملاحة في البحر الأحمر تعود إلى سفن هذه الدولة، بعدما كانت تجوب البحر المتوسط (1544).

فمنذ الألف الثالثة ق.م كان المصريون يصنعون مراكب طولها أكثر من 40 م، فمثلا مركب " خوفو" يعد ابتكارا عظيما، فلا أحد كان يتصور بأن مصر أثناء الأسرة الرابعة كانت لها مثل تلك المراكب ذات الأحجام الكبيرة (1545)، فذلك المركب المصنوع من خشب " الأرز " يبلغ طوله 36 م و عرضه 3 م عند الوسط ، و النهائيين مرتفعتين و منحنيتين مثل نهايتي الزورق (gondole) ، و كان يدار من قبل مجدفين (1546). علما بأن هذا المركب كان خاصا بالملك يستعمله في تنقلاته في نهر النيل و لم يكن مركبا مخصصا لنقل البضائع التجارية، فإن كان هذا المركب بذاك الحجم فإن المراكب التجارية حتما كانت كبيرة جدا. و يخبرنا " حجر بالرمو " بأن مراكب أسطول الملك " سنفر " بلغت 50 م طولاً (1547).

أما مراكب البحر الأحمر المصرية فيراها البعض بأنها تمتاز بسطح منبسط (مسطح) ويصل طولها إلى 30 م و عرضها 6 أمتار (1548)، أما سفن البحر المتوسط فكانت تبلغ في العادة 60 م، ولها شراع من الكتان (1549). عموما فإن مقاييس السفن المصرية هي جد معتبرة حيث تتراوح بين 60 و 100 م، هذا بالنسبة إلى السفن التي جابت أعالي البحار على وجه العموم ، و بالنسبة للفرق في الأبعاد بين سفن البحرين فهو يعود حسب ما ألاحظ إلى أن المراكب التي تتجه إلى سواحل المتوسط كانت أبعادها كبيرة نوعا ما عن المراكب التي كانت تسير في البحر الأحمر و هذا راجع لكونها كانت تحمل شحنات لكتل ضخمة من الأخشاب.

و بمقارنتها مثلا بالمراكب التجارية الفينيقية، فأجد أبعاد هاته الأخيرة تتراوح بين 8 و 25 م طولاً لها مجاذيف تستعمل عند دخول وخروج الموانئ المزدحمة، وللتقدم أثناء الريح المعاكسة أو أثناء هدوء

(1540) - P. Rousseau , histoire des transports , Op-Cit , p. 31.

(1541) - A. Gaudio , les empires de la mer , Op-Cit , p. 151 .

(1542) - F. Daumas , Op-Cit , p. 233 .

(1543) - L. Casson , Op-Cit , p. 28 .

(1544) - محمد الخطيب ، مصر أيام الفراعنة ، المرجع السابق ، ص. 142 .

(1545) - H. Steirlin , la Barque royale ..., Op-Cit , p. 29 .

(1546) - P. Rousseau , Op-Cit , p. 33 .

(1547) - F. Daumas , Op-Cit , p.233 .

(1548) - A. Gaudio , Op-Cit , p. 152.

(1549) - C. Lalouette , Thèbes... , Op-Cit , p. 70 .

الطقس(1550). أما أبعاد الأسطول التجاري المصري فتتمثل في مراكب ذات هياكل طويلة مصنوعة خاصة من أخشاب الأرز، وكانت تستطيع مقاومة قوة الأمواج، و كان طولها يتراوح في المتوسط بين 30 و 40 م وعرضها من 6 إلى 8 م، وكانت تحمل في المتوسط من 70 إلى 75 طنا(1551)، وعلى ذكر الحمولة فإن إشارات تاريخية تقول بأن قناة النيل - البحر الأحمر لم تعرف عبور مراكب بحمولة أكثر من 50 إلى 60 طنا(1552). لأنه يعتقد بأنه من الصعب على القدماء تجاوز حمولة 60 طنا ، وعلى حد إستنتاجات هذه الآراء فإن إستعمال مجداف الدفة (gou vernail – rame) في البحرية القديمة أدى في مصر، مثلما في كل مكان خارجها، إلى إيجاد طاقم بشري إضافي يحرك المركب مما تسبب في عرقلة تطور الحمولة بأخذ حيزا كبيرا في المراكب، وإذا كان البعض يرى بأن مثل هذه المراكب لم تكن لها مخازن للسلع، وأن هذه الأخيرة كانت تكس فوق بعضها على سطح المركب إلا أنه وجد ببعض المراكب مخازن (مخابئ) تتمثل في حجر السطح (des roufs) عليها سياجات وكانت سعتها من الأفراد تصل إلى 50 فردا(1553).

و على العموم فإن مسألة الحمولة تضاربت حولها الآراء ، فهناك رأي مخالف يقدر حمولات المراكب التي كانت تجوب البحر الأحمر ما بين 70 و 90 طنا(1554). إلا أن " تومازي" يرى بأن حمولة المراكب القديمة بصفة عامة بما فيها المصرية قد تصل إلى غاية 250 أو 300 طن كحد أقصى، أي أنه من المستحيل تجاوز هذه الأرقام ، لأن ذلك أقصى ما يتطابق مع المراكب الشراعية التي كانت تبحر بمحاذاة الساحل، وتلك الأرقام حددت كأقصى حد لأنه يصعب تحريك أكثر من تلك الحمولة بمجداف دفة يعتبر بدائي(1555).

أما عن عملية شحن البضائع ، فإننا نلاحظ من خلال مشاهد رحلة الملكة "حتشبسوت" أن المصريين كانوا منهمكين في العمل ، وأشجار البخور المقتلعة لتوها نقلت مع قطع الطين وكانت موضوعة بداخل سلال واسعة مثبتة بالحبال فوق عصا من خشب وتحمل على أكتاف ستة رجال ثلاثة في الأمام وثلاثة في الخلف(1556)، إن الكتابات المرافقة لمشاهد رحلة "حتشبسوت" تمدنا بتفاصيل عن عملية شحن المراكب ، التي ذكرتها في الفصل الرابع، هذه الكتابات نستطيع من خلالها معرفة القائمة الكاملة لحمولة المراكب، لكن الرحلة رغم أنها كانت مصورة بدقة حيث رُويت التفاصيل على جدران معبدها بالدير البحري إلا أننا نسجل فيها غياب ما يدل على مقدار الحمولات(1557).

أما بالنسبة لشحن البضائع السائلة في المراكب مثل الخمر والزيت فإنها كانت تنقل في المراكب التجارية بوضعها في جرار (amphore) ثقيلة و كبيرة الحجم و مستطيلة الشكل، والتي كانت تحوي على العموم بين 20 و 40 لترا، وهذه الأواني كانت تشكل المكتشفات الأكثر إنتشارا بين المقننات الأثرية التي تم العثور عليها تحت البحار، وهذه الطريقة في نقل البضائع كانت سائدة لدى شعوب العالم القديم ككل(1558).

و بما أن الكريتيين والفينيقيين كانوا قد إستقادوا من مراكب وطرق الملاحة التي كان المصريون قد إخترعوها، ونحن نعلم بأن سرعة مراكبهم كانت عشرة عقد (nœuds) أي 18 كلم / ساعة(1559)، أستنتج بأن المراكب المصرية كانت بنفس هذه السرعة .

أما بالنسبة لموضوع التطورات التي عرفت صناعة السفن المصرية خلال العصر الفرعوني، فقد تضاربت حوله الآراء، فمنهم من يرى بأنها عرفت تطورات مهمة وآخرون يقولون بأنها عرفت تطورات بسيطة وفريق آخر نفى كل ذلك، بل أن تقهقر تجارة مصر وقوتها أرجعوه إلى عدم تطور سفنها، لا أريد أن أتعمق في هذه الإشكاليات فلا مجال لذلك، وفي نفس الوقت لا يمكن أن أتجاهل الإشارة إلى موضوع التطورات. وأرجح وجهة نظر " جيل – أرتانيون " (A. Gil – Artagnan) حين رأى في تقنية المراكب التجارية المصرية بأنها وصلت إلى قمة دقتها ، لذلك ظلت بدون تحويل كبير وأساسي طيلة ثلاثة آلاف سنة، وظلت المراكب

(1550) - A.E. Maithand , les premiers marchands..., Op-Cit , p. 42 .

(1551) - Z. Herman , peuples..., Op-Cit , p. 64.

(1552) - H. Van loon , la conquête des mers..., Op-Cit , p. 34.

(1553) - L. Des Noëttes , Op-Cit , pp. 10,12, 49 .

(1554) - A. Gaudio , Op-Cit , p. 152 .

(1555) - A. Thomazi , Op-Cit , p.12.

(1556) - C. lalouette , Thébès..., Op-Cit , p. 253 .

(1557) - محمد بيومي مهران ، الحضارة المصرية...، المرجع السابق ، ص ص. 222-223 .

(1558) - L. Casson , Op-Cit , p. 227.

(1559) - P. Rousseau , Op-Cit , p. 35 .

المصرية بل كل مراكب ذلك العصر سواء منها الإغريقية ، اليونانية أو الرومانية ، خاضعة لنفس الخواص: شراع مربع ومجداف الدفة ، وكان لا بد من إنتظار القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين لنرى التغيرات العميقة (1560). فإذا أخذنا مثلا le gréement الذي كان يتشكل من صاري فريد، منتصب عند وسط المركب ، ويحمل شراعا مستطيلا مثبتا على دقل (Vergue) أفقي و تتصل برأس الصاري ركائز أو دعائم تربط عند مقدمة ومؤخرة المركب لضمان متانة الصاري وتسمح لإنزاله و إنزال الشراع على سطح المركب، وجدناه (أي le gréement) ميز المراكب المصرية منذ زمن الدولة الوسطى- وربما قبل ذلك التاريخ -، و ظل نفسه في العهد الروماني (1561).

وهكذا فإن عظمة تقنية صناعة المراكب المصرية تجسدت في أنها وصلت خلال ألف سنة بعد تقنية مركب " خوفو " ، إلى نموذج لن يتجاوز إلا عند نهاية العصور الوسطى، وهو عمل يدعو للإعجاب على حد قول " روسو " (P . Rousseau) (1562)، لأنه خلال الدولة الوسطى والدولة الحديثة عرفت السفن تطورات من حيث الشكل و قد زينت بزخارف متنوعة، وعلى وجه الخصوص السفن التي كانت تقوم بالرحلات البحرية. ورغم أن سفن البحار هاته كانت أشد صلابة من سفن النهر وتستطيع مواجهة أخطار البحر، إلا أنها ظلت خفيفة ، و هو السبب في كون المراكب التجارية بقيت تحتفظ بسطحها المنبسط و بعدم وجود أترابيل ، فكان عاملا سهلا لسحبها على الشاطئ (1563).

المبحث الثاني: نظام حماية الطرق البرية

إضافة إلى أن الكثيرين يرون بأن المصريين لم يكونوا تجارا، يرى هؤلاء أيضا بأن الفراعنة لم يفعلوا شيئا من أجل تسهيل عبور القوافل التجارية عبر مسالك الصحراء، ولم يحدث ذلك إلا أثناء حكم البطالمة الذين عملوا على حفر الآبار على مسافات محددة وذات عمق كبير، وفي أماكن أخرى أنشأوا خزانات لتجميع مياه الأمطار رغم أنها كانت نادرة في مثل هذه الأماكن (1564). فإلى أي مدى صحة هذه الآراء؟، وبماذا نفسر المخلفات الأثرية التي تعود إلى العصر الفرعوني، والتي كانت وفيرة تروي جهود الفراعنة في تأمين الطرق بشتى الوسائل؟، وهل إستطاعت هذه الوسائل أن تثبت عكس تلك الآراء؟.

المطلب الأول: الحملات العسكرية

في مرات عدة على إمتداد التاريخ المصري، إستمر الفراعنة في إرسال الفرق العسكرية ضد الغزاة البدو، الذين كانوا يطبقون تقنية حرب العصابات ، لأن غزوات بدو آسيا كانت تسبب لهم مضايقات على حدودهم الشمالية الشرقية، لذلك كانت تحدث حملات من أجل تأمين دروب القوافل.

و تثبت المخلفات المادية - كما مر بنا - وجود معاملات تجارية بين مصر و بلدان الجوار خلال العصر الفرعوني و الفترة السابقة له، و لحمايتها جرت على الحدود المصرية عمليات عسكرية تمنع تعرض القوافل التجارية للهجوم. ومن أجل تأمين الطرق التجارية في الشمال الشرقي، فإن المصريين خلال العصر " الثاني " قاموا بإرسال بعثات لمدة قصيرة ضد قبائل البدو (1565).

فملوك عصر بداية الأسرات كانوا قد إتبعوا سياسة تأديب البدو في الصحاري الشرقية و الغربية من أجل حماية القوافل التجارية فيها وإستغلال مناجم المعادن والمحاجر هناك، و منذ عهد الملك "عنا" نجد بعض المصادر تتكلم عن ذلك، حيث مثلت صلايته صورا لما كان يجلب من الواحات الغربية (1566).

أما خليفته الملك "جر" فإن نشاطه الحربي إقترن خاصة بالجنوب، إذ خلد هناك إسمه على جبل " الشيخ سليمان" القريب من مدينة " بوهن " عند " وادي حلفا " على إثر إنتصاره على النوبيين الذين كانوا يشكلون خطرا على القوافل التجارية الذاهبة و الآتية من الجنوب. و مثل هذه الأعمال تدل مما لا يدع مجالا للشك بأنه منذ الأسرة الأولى كان الفراعنة جادين في تأمين حدود مصر خاصة الجنوبية حتى تكون المنطقة الواقعة ما وراءها مفتوحة أمام التجارة مع إفريقيا. ويبدو أن سياسة إرسال الحملات كانت متواصلة ومنظمة لأن الملك

(1560) - A. Gil – Artagnan , essai de reconstitution d'un navire... , Op-Cit , pp. 46 - 47.

(1561) - A. Thomazi , Op-Cit , p.10.

(1562) - P. Rousseau , Op-Cit , p. 33.

(1563) - A. Thomazi , Op-Cit , p.12.

(1564) - D.M.J. Henry, l'Egypte pharaonique..., Op-Cit , p. 453.

(1565) - Moret et Davy , des clans aux empires..., Op-Cit , p. 204.

(1566) - عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم...، المرجع السابق ، ص. 87 .

الذي خلفه و هو يدعى "جت" ، و نتيجة لتوسع التجارة عمل على تأمين دروب الصحراء الشرقية بصورة خاصة من أجل أن تصبح التجارة هناك آمنة والدليل التاريخي على ذلك هو العثور على نقوش تحمل إسمه على صخور تقع على مسالك بين مدينة " إدفو " و البحر الأحمر (1567).

وأقدم النقوش التي وصلتنا ما عثر عليه في منطقة إستغلال المعادن في سيناء يعود إلى عصر الإتحاد الثاني، حيث نقش أحد الملوك في ثلاث وضعيات، الثالثة منها تروي أحداث إخضاعه لآسيوي، و هي صورة تعبر على نجاح حملاته من أجل إستغلال مناجم النحاس بالقضاء عن الخطر الذي كان يهدد العمل هناك (1568)، و يهدد في نفس الوقت البعثات التجارية العابرة لتلك المناطق.

و جاء في حوليات " حجر بالرمو " التي تعود إلى عهد الملك " جر " ثاني ملوك الأسرة الأولى ، ذكر حملاته إلى " ضرب ستيه " و التي تعني آسيا، كما يوجد دليل آخر يتطرق إلى حملة الملك " عدي إيب " إلى " ضرب الإيونيتو " ، ولو أن المقصود من هذه التسمية يظل غير مفهوم إلا أنه على الأرجح يدل على سكان شرق الدلتا أي بدو صحاري سيناء ، وهناك إشارات أخرى تصور الملك " دن " أو " ديمو " وهو يُقدم على ذبح آسيوي من سيناء. و تتواصل سياسة إرسال الحملات في زمن الأسرة الثالثة، والتي إرتبطت بالملك " زوسر " الذي أرسل حملات تأديبية من أجل تسهيل مهمة البعثات إلى المناجم بسيناء، و وجد بنفس المنطقة نقش يبين الملك " سخم خت " و هو يهزم بقتل آسيوي ، ويوجد بنفس الرسم منظر لقائد الجيش برتبة عسكرية وردت لها إشارة لأول مرة (1569).

وخلال الأسرة الرابعة والتي عرفت مصر أثناءها توسعا في سياسة إستغلال المناجم والمحاجر خاصة في الصحراء الشرقية وسيناء، كما ضاعف الفراعنة المعاملات التجارية مع محيط الجوار الجغرافي لذلك كان لابد من تأمينها وقد عمل الملك " سنفر " على تأمين الحدود الشرقية ومنطقة سيناء ، و ذلك بإرسال بعثات عسكرية ، فكانت البعثات التجارية إلى هناك تسير في مأمن من خطر البدو (1570).

وأثناء الأسرة الخامسة، أستخدم الجيش في نشر الأمن على الحدود الغربية و بسيناء والنوبة، وذلك لمعاقبة المهاجمين ورد المتسللين ، و كانوا يفرضون عليهم الجزية، ولدينا إثباتات على ذلك من خلال تمثيلات معبد " ساحورع " التي تبين الملك المنتصر على " تحنو " أي سكان المناطق الغربية (1571). وفي عهد آخر هذه الأسرة نجد أن " أوناس " (آخر ملوكها) قام بأعمال في الجنوب حيث دعم سلطانه إلى غاية الجندل الأول بإرسال الحملات العسكرية من أجل تأمين الطرق هناك (1572).

أما خلال الأسرة السادسة فكان ملوكها في صراع مع مناطق الحدود، فمثلا " بيبى الأول " حارب البدو في سيناء لكن في كل مرة كانت تتجدد المخاطر (1573). وعلى عهد من سبقه وفدت هجرات بدوية إلى فلسطين، فكانت تهدد الطرق التجارية بين مصر و جيرانها فأرسل هذا الملك وزيره " أونى " لحماية تجارة مصر وحدودها من مخاطر البدو، و أعد لذلك خطة تمثلت في إرسال أربعة جيوش برا و جيش خامس عبر البحر حيث تمكن من محاصرة البدو وإنتصر عليهم (1574). فسياسة هذه الأسرة كانت مزدوجة عسكرية وتجارية، وقد قدرت الحملات العسكرية لـ " بيبى الأول " بخمسة ضد قبائل البدو في الشمال، و في واحدة منها نجده قد أغار على البدو بطريقة مزدوجة عبر البر و البحر، أي أنه جعلهم داخل كماشة (1575). و قد سجلت حملات " أونى " الحربية على جدران مقبرته في مقاطعة " أبيدوس " والتي ترأسها بنفسه (1576).

وكان لحملته المزدوجة (برية – بحرية) ميزة خاصة، إذ لم يكن هدفها محاربة البدو المتواجدين عند الحدود الشرقية لمصر فقط، بل تجاوزت ذلك لتتجه إلى محاربة الأعداء الذين كانوا قد جاءوا من أرض الفرات ودجلة في مكان يدعى " الكرمل " ، وهي حملة متميزة لأنه إشتراك فيها الجيش برا والأسطول بحرا ، و لم يكتف

(1567) - أحمد فخري ، مصر الفرعونية... ، المرجع السابق ، ص. 79.

(1568) - جيمس هنري برستيد ، إنتصار الحضارة... ، المرجع السابق ، ص. 84 .

(1569) - محمد بيومي مهران ، الثورة الإجتماعية ... ، المرجع السابق ، ص. 213- 214 .

(1570) - أحمد أمين سليم و سوزان عباس ، دراسات في تاريخ مصر الفرعونية ... ، المرجع السابق ، ص. 238 .

(1571) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 3, p. 186.

(1572) - ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 99 .

(1573) - P. Montet , Op-Cit , p. 181 .

(1574) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 134 .

(1575) - أمين سليم وسوزان عباس ، المرجع السابق ، ص. 281 .

(1576) - E. Hornung , Op-Cit , p. 53 .

يقهر الأعداء بل طاردهم إلى غاية جبال فلسطين الشمالية، فكان ذلك المكان «أقصى ماوصل إليه النفوذ المصري في تلك البلاد زمن عهد الدولة القديمة»، كما أن هذه الحملة عُدت الأولى التي حدثت في العالم إشتراك فيها القوتان البرية والبحرية (1577).

إن حملات "أوني" والتي تعود إلى القرن الثالث والعشرين ق.م تعد أول وصف مفصل للحملات العسكرية البرية في فلسطين وسورية (1578)، وقد روى "أوني" مغامراته في شكل شعر غنائي، يتحدث فيه عن نصره على الآسيويين، حيث يقول بأن الجيش عاد بالنصر بعد أن دمر بلاد الذين يعيشون على الرمال، وحطم حصونهم، وقطع أشجار التين وأحرق مساكنهم وقتل قطعان ماشيتهم وجلب معه عديد الأسرى (1579). رغم الحملات التي جرت، فإن المصريين أثناء الدولة القديمة لم يكونوا يبحثون على بسط سيطرتهم الدائمة على الشعوب المجاورة، وما فعلوه كان ضرورة أمنية لحماية الطرق التجارية. وتعود سياسة إرسال الحملات العسكرية من جديد مع الدولة الوسطى، إذ نجد أن سياسة النهوض بالإقتصاد المصري خلال الأسرة الحادية عشر دشنت بالحملات إلى الصحراء الشرقية من أجل نشر الأمن في الطرق المنتشرة بها والمؤدية إلى البحر الأحمر، وموازاة مع ذلك إعادة إعمار بعض مناطقها ووحداتها (1580). وتميزت الأسرة الثانية عشرة بإزدهارها الإقتصادي، الذي ساهم في تحقيقه الحملات التي قام بها ملوك هذه الأسرة ضد قبائل الحدود سواء الغربية منها مع الليبيين أو بلاد النوبة أو حدود الشمال الشرقي (1581). إن مصر خلال الدولة الوسطى لم تستعمل القوة إلا نادراً، وفي حالات محددة إما لضمان أمنها أو لترقية مصالحها الإقتصادية، ففي الشمال هناك تدخل عسكري وحيد حدث أثناء حكم الملك "سنوسرت الثالث". لأن عصره إمتاز بأعمال حربية قام بها في كل من فلسطين وسورية والنوبة، إن حملة هذا الملك التي وصلت إلى غاية سورية كانت قد جاءت على إثر إغارة البدو الآسيويين على شرق الدلتا فأخذ في مطاردتهم وتعقبهم (1582). ويبدو أن حملة "سنوسرت الثالث" قد حققت هدفها، والدليل أن التجارة نشطت بعدها بين مصر وشعوب الشمال الشرقي.

و هكذا فإنه خلال الدولة الوسطى سجلت حملة عسكرية واحدة في فلسطين و هدفها هو معاقبة المنتفضين وتثبيت الأمن للطريق التجاري الكبير الذي كان يجتاز البلاد وليس حرباً من أجل الغزو (1583)، فالدلائل خلال الدولة الوسطى تشير إلى حدوث عشرات الحملات التأديبية ولا يوجد إشارة واحدة إلى غزوة تهدف إلى الإستعمار (1584). لكن المرة الأولى التي بسطت فيها مصر نفوذها على البلاد المجاورة كان زمن الملك "أحمس" الذي لم يكتف بتحرير البلاد من الهكسوس بل طاردهم إلى البلاد التي جاؤوا منها، حيث رأت مصر بعد ذلك أن طردهم وحده لا يضمن لها الأمن بل لابد لها من بسط نفوذها على تلك البلاد لتكون في مأمن من مثل تلك الهجمات (1585). ورغم أنه كان قد حاصر مدينة شاروهين إلا أن الجيش المصري لا يبدو أنه تابع تقدمه في الإقليم الفلسطيني طيلة مدة حكم الملك "أحمس"، لأن مثل ذلك العمل سيكون لا محال خطأ فارتأ هذا الملك تقاديه و فضل ترك هذه المدن بين أيدي حكامها بعد أن تلقى منها ولاء الإخلاص (1586). ونجد "تخوتمس الأول" في عامه الثاني قام بحملة إلى آسيا و هو الأول من حكام مصر الذي تقدم إلى الفرات (1587)، وكانت حملته في بلاد "ريتينو" و "نهاريا" حملة وقائية سمحت له بإنشاء نصب حدود إلى الشمال من الفرات وذلك من أجل حماية الحدود و كذا الطرق التجارية (1588).

(1577) - عبد الرحمان الرافي، تاريخ الحركة القومية...، المرجع السابق، ص. 43.

(1578) - فيليب حثي، تاريخ سوريا...، المرجع السابق، ص. 137.

(1579) - F. Daumas, Op-Cit, pp. 391-392.

(1580) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص. 157.

(1581) - نعيم فرح، موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم...، المرجع السابق، ص. 72-73.

(1582) - M. Tariel, chronique des civilisations..., Op-Cit, p. 68.

(1583) - J.A. Wilson, l'Egypte ..., Op-Cit, p. 127.

(1584) - نجيب ميخائيل إبراهيم، مصر و الشرق الأدنى...، المرجع السابق، ص. 83.

(1585) - عبد الرحمان الرافي، المرجع السابق، ص. 85.

(1586) - B. Manley, Atlas historique ..., Op-Cit, p. 58.

(1587) - J. Boulos, les peuples et les civilisations ..., Op-Cit, p. 32.

(1588) - N. Grimal, histoire de l'Egypte ..., Op-Cit, p. 274.

وفي جهة الجنوب فإن الحملات العسكرية كانت تصل إلى جنوب الشلال الثاني و يقال عنها بأنها كانت ضرورة إجبارية لتأمين الطرق التجارية.

و يبدو أن التبادل التجاري هناك كان محفوفاً بالمخاطر لذلك نجد الملك " حور عا " دشن سياسة تأمين حدود مصر الجنوبية والتي تتمثل في إرسال حملات عسكرية كانت تجلب معها الأسرى وتعاقب من يتعرض للقوافل التجارية الذاهبة والآتية من هناك، ونتيجة لهذه الحملات نجد أن هذا الملك قد وسع حدود مصر إلى غاية الشلال الأول. ولقد واصل من جاء بعده من ملوك هذا العصر هذه السياسة ومنهم الملك " جر " الذي وصل إلى غاية الشلال الثاني، وخلف هناك نصبا صخريا عند النهاية الجنوبية لقمة " جبل الشيخ سليمان " بالقرب من " وادي حلفا " يخلد حملته العسكرية إلى النوبة، والأرجح أن عمله ذلك لا يشكل إستعماراً بل هو ذكرى لحملة تأديبية من أجل حماية التبادل التجاري مع كل من النوبة والسودان، ومن جانب آخر لتوفير الأمن للبعثات إلى مناجم " وادي حلفا " (1589)، هذا عن الأسرتين الأولى والثانية، لكن سياسة إرسال الحملات في الجنوب تعود إلى بداية بروز مصر كدولة موحدة وقوية، فمنذ حكم الملك " آها " فإن الجيش المصري غزا النوبة، وهكذا فإن الغارات المنتظمة للجنود والتجار المصريين إلى الشلال الثاني أصبحت متواترة (1590).

وخلال الدولة القديمة نجد حوليات الملك " سنفر " من خلال " حجر بالرمو " تخبرنا عن حملته لحماية تجارة الجنوب ، حيث قادها هو بنفسه، وقد جلب من هناك سبعة آلاف أسير وعددا كبيرا من الماشية(1591).

و بعد مرحلة من السلم أثناء الأسرة الرابعة فإن الملك " أوناس " عند نهاية الأسرة الخامسة أعاد البعثات العسكرية ، و أنشأ ما يعرف بـ : " باب الجنوب " (1592).

على العموم لقد كانت السياسة الخارجية في عهد الدولة القديمة سلمية، مع وجود غارات هدفها حماية القوافل التجارية، ولا نغادر هذه الدولة دون ذكر حملات " بيبى نخت " حاكم " إلفنتين " زمن الأسرة السادسة ، حيث أمره الملك " بيبى الثاني " بمهاجمة قبائل كل من " واوات " و " إيريتيت " والذي جلب زعمائها كرهائن مع عديد من الأسرى وقطعان من الماشية (1593). و قد كانت له حملة ثانية لكنها أسهل من الأولى لأن الحملة السابقة مهدت له الطريق لجلب الكثير من الغنائم، وقد فتحت حملاته هاته المجال من جديد أمام التجارة هناك و قد وصلت إلى أماكن أبعد من الجندل الثالث عند منطقة تسمى " كرما " (1594).

و خلال الدولة الوسطى فإن أشهر بعثاتها هي بعثات " سنوسرت الثالث " الأربعة و سجل إنتصاراته فيها في نصب بـ : " سمنة " (1595). كما أن هيرودوت تكلم عن إحدى هذه الحملات قائلا : « ... وسأتي على ذكر الملك الذي خلفهم وكان يدعى " سيزوستريس " . روى الكهنة أنه أقلع أولا من الخليج العربي بسفن حربية، وأخضع السكان على سواحل بحر أروتري، ثم واصل الإبحار حتى بلغ المنطقة التي لم يعد عندها البحر صالحا للملاحة لضحائته، ولما عاد بعدئذ إلى مصر أعد - وفقا لرواية الكهنة - جيشا جرارا ، وإخترق القارة، وأخضع الشعوب التي كانت في طريقه، وكان إذا صادف منهم شعوبا بأسلة، تُقاتل من أجل حريتها أقام ببلادهم أعمدة عليها نقوش تنطق بإسمه ووطنه، وتبين كيف أنه أخضعهم بالقوة، وعند هؤلاء الذين لم تقاوم مدنهم، إستولى عليها في سهولة»(1596).

و يرد عليه المترجم قائلا : « لا نعرف أن "سنوسرة " في حروبه قد ركب البحر. ولكننا ما نعرف أنه ركب النيل ليخضع العصاة في بلاد النوبة، وليرد عنها إغارات الزنوج. فهو قد حمل على تلك البقاع حملات أربع؛ كانت أولاها في العام التاسع، وكانت آخرها في العام التاسع عشر في أعوام حكمه... لقد إختلط الأمر على " هردوت " أو على رواته؛ فهو قد سمع ذلك رواية من أفواه الكهان كما يقول. على أن الرواية لا تمثل الحقيقة دائما. وإنما الحقيقة أن فرعون عندما فكر في تحصين أقاليم النوبة؛ بدأ بجزيرة الفيلة. ثم بدا له من بعد ذلك أن

(1589) - أحمد أمين سليم ، في تاريخ الشرق الأدنى...، المرجع السابق ، ص. 75 .

(1590) - أحمد أمين سليم وسوزان عباس ، المرجع السابق ، ص. 137 .

(1591) - N. Grimal , Op-Cit , pp. 90-91 .

(1592) - Moret et Davy , Op-Cit , p. 207 .

(1593) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p. 286 .

(1594) - محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية...، المرجع السابق ، ص. 248 .

(1595) - أحمد أمين سليم ، المرجع السابق ، ص. 149 .

(1596) - هيرودوت ، فقرة 102.

الملاحه في النهر صعبة وغير ميسورة؛ فعمد إلى حفر قناة في الصخر أسماها بإسمه، وبلغ طولها خمسين ومئة ذراع، وبلغ عرضها عشرين، كما بلغ عمقها خمسة عشرة ذراعاً» (1597).

أما في زمن الدولة الحديثة نجد " تحتمس الأول " قد أرسل جيشا كبيرا وأسطولا عبر نهر النيل لهزيمة القبائل السودانية المتمردة، و وصل إلى بلاد لم تطأها أقدام أسلافه، وكان يهدف من مدّ هذا النفوذ إلى توسيع نطاق التبادل التجاري، وبالتالي ضمان أمن الطريق التجاري إلى مصر سواء عبر طريق النيل أو الطريق البري، و لهذا إستولى على تلك المناطق جنوب الشلال الثالث (1598). و من الحملات أيضا نجد حملة " أمينوفيس الثالث " التي وصلت إلى غاية الشلال الرابع أين يوجد حصن " ناباتا " (1599).

و تميزت العلاقات بين مصر وبلاد " التحنو " خلال العصر الفرعوني بإضطرابات، حيث كشفت عديد الأدلة الأثرية بأن الملك " نارمر " كان يرسل الحملات العسكرية من أجل تأديب تلك القبائل التي كانت تهدد أمن مصر من الجهة الغربية وقد إنتهج آخرون نفس سياسته، ومنهم الملك " جر " والملك " قع " (1600).

خلال الدولة القديمة كان الملوك ينظمون تجريدات إلى ما كان يُسمى " باب الغرب " ومنها حملة " سنفرو " الذي أوكلها إلى موظف كبير يدعى Meten وحسب " حجر بالرمو " فقد أسر 11000 أسير، وكذلك سجلت حملة للملك " ساحورع " إلى هناك على جدران معبد (1601).

أما زمن الدولة الوسطى حدثت حملة " منتوحتب الثاني " ضد الليبيين (1602)، وهناك أيضا رحلات قام بها " سنوسرت الأول " إلى الواحات منها واحة الخارجة (1603).

وأبرز حملات الدولة الحديثة تتمثل في حملات " أمينوفيس الأول " ضد الليبيين، وأيضا حملات " سيتي الأول " (1604)، وكذلك حملات " مرنيتاح " و " رمسيس الثالث " (1605). فزمن هذا الأخير الذي بدأت به الأسرة العشرون كان يشهد ملاحه مكثفة أكثر مما كانت عليه في الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة نتيجة لأعماله من أجل تأمين حدوده الشرقية والغربية ورد غارات شعوب البحر (1606)، وبذلك إنعكس تأمين الحدود إيجابيا على ازدهار التجارة.

وهكذا كانت مصر تتدخل في المناطق المحيطة بها ليس بدافع السيطرة عليها ولكن كان ذلك ضرورة بحكم العلاقات التجارية التي كانت بينهما. و بالتالي كان إرسال الحملات لرد خطر جيرانها من ليبيين وآسويين وجنوبيين متزامنا مع إزدياد الحركة التجارية، وكانت هذه الحملات تحدث من حين إلى آخر بصورة متواصلة، فكانت هذه السياسة توفر الأمن في تلك الجهات وبالتالي يصبح الجو مهيأ لعقد صلات تجارية عن طريق مبادلة منتوجاتهم بما يحتاجونه من سلع أجنبية. كما لاحظت بأن الحملات العسكرية كانت إما ملازمة للبعثات التجارية أو سابقة لها، كما أن الإثنتين إقترنتا بفترات قوة مصر لأنها كانت تحدث زمن ملوك مصر الكبار، فالملوك الضعاف لا يستطيعون تنظيم الرحلات العسكرية و هو أمر يتسبب في تراجع البعثات و تدهور التجارة، بل أنني أرى أن التدهور لا ينعكس فقط على إرسال البعثات التجارية المصرية بل كان يشكل عقبة في وجه التجار الأجانب الذين يجلبون السلع التجارية بأنفسهم في فترات تراجع قوة مصر نتيجة لعدم تأمين المسالك، و بالتالي يكونون عرضة إلى مخاطر جمة.

المطلب الثاني: الحصون والأسوار

مما سبق ذكره فإن مصر كانت تتعرض من حين لآخر إلى غزوات من فلسطين و التي كانت تمر عبر سيناء حيث كانت هذه المنطقة منذ القدم تشكل لها خطرا كبيرا، لهذا كانت مصر دائما تسعى لتحصينها، ولكن جنوب هذه المنطقة كان ينعم بالأمن، حيث كان خليج السويس والبحر الأحمر عبارة عن حواجز طبيعية في وجه الغزاة، و ما دعم هذه الحدود وجود جبال يصل علوها في بعض أجزائها إلى أربعة آلاف قدم كانت بمثابة جدار

(1597) - نفس المرجع، ص. 217.

(1598) - بلقاسم رحمانى وحرفوس مدني، المرجع السابق، ص. 33.

(1599) - H. Gauthier, l'Egypte pharaonique, Op-Cit, p. 144.

(1600) - أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص. 75.

(1601) - N. Grimal, Op-Cit, p. 91.

(1602) - Moret et Davy, Op-Cit, p. 206.

(1603) - J.H. Breasted, histoire de l'Egypte..., Op-Cit, p.185.

(1604) - H. Gauthier, Op-Cit, pp.137, 175.

(1605) - K.A. Kitchen, grandeur et décadence des empires, Op-Cit, p. 86.

(1606) - H. Gauthier, Op-Cit, p. 164.

يفصل البحر عن النيل، ومن كان يعيش في تلك الربوع قبائل لا تقوى على الصمود في وجه المصريين⁽¹⁶⁰⁷⁾. إذا كانت هذه حصونها وأسوارها الطبيعية فماذا شيدت مصر من حصون وأسوار هندسية لدرء الخطر المحدق بها من شمالها الشرقي و حدودها الغربية أو الجنوبية و تأمين مصالحها التجارية عبر الطرق هناك؟ إن ما قام بإنجازه المصريون من البناءات العسكرية من أجل تأمين الطرق التجارية هو كثير وهو ما تدل عليه آثارهم خاصة منها المادية، لكن لا يمكن معالجتها كلها لذلك إكتفيت بالتطرق إلى نماذج منها تعود إلى مختلف فترات العصر الفرعوني.

أقيمت تحصينات عند المناطق الحساسة قصد حراسة الطريقين الإمبراطوريين، طريق الشمال والطريق بإتجاه الغرب عبر الدلتا⁽¹⁶⁰⁸⁾. و ليس ذلك فحسب فبتتبع هذه التحصينات نجد الكثير منها ، فخلال الدولة القديمة نجد الملك " زوسر " أقدم على بناء حصن بسيناء والذي يطلق عليه "بوابة إيموحتب"⁽¹⁶⁰⁹⁾. والملك "خوفو" بدوره إتبع سياسة حماية القوافل التي تقصد سيناء والمناطق الإفريقية جنوبا ذهابا وإيابا، وكان من أعماله في هذا المجال ما يعرف بـ: "مصائد خوفو" والتي خلد فيها إسمه في منطقة مهمة تدعى " توشكا " فهي تبعد عن العاصمة حوالي 750 ميلا⁽¹⁶¹⁰⁾.

وبعد فترة عصر الانتقال الأول الذي عرفت فيه مصر فقدان سيطرتها على حدودها نجدها تستعيد سيادتها عليها من خلال بعض أعمال الأسرة الحادية عشر، منها ما قام به "منتوحتب الأول"، الذي بعد أن وحد البلاد أعاد تأمين الطريق إلى سيناء⁽¹⁶¹¹⁾.

أما الأمثلة من الأسرة الثانية عشرة فهي عديدة، فالملك "أمنمحات الأول" عمل على تسهيل وسائل التجارة و تأمين سبلها، حيث إرتبط إسمه بإهتمامه بالتجارة ، فبعد أن صد غارات البدو على الحدود الشرقية والحدود الغربية معا، وطد الأمن هناك بسلسلة من التحصينات⁽¹⁶¹²⁾. و أعطى هذا الملك للحدود الشمالية الشرقية شكلها الثابت بواسطة "أسوار الملك" وهو تحصين يمتد على طول الطرق المخترقة لشمال سيناء⁽¹⁶¹³⁾. فطموحاته في تحصين حدوده مع آسيا وليبيا تحقق لي جعلها آمنة، فعلى الشاطئ الشرقي من الدلتا قام ببناء " أسوار الأمير " – كما ذكرت – و هي عبارة عن تحصينات لحماية الممرات نحو شبه جزيرة سيناء، وبالتالي كانت تراقب بدقة تحركات البدو الآسيويين هناك⁽¹⁶¹⁴⁾. فأسوار أمنمحات هاته كانت عبارة عن حصن كبير مبني من الحجر قادر على مقاومة غزوات شعوب الصحراء. و نتيجة لأهمية هذا المركز، فقد جعله تحت مسؤولية الموظفين السامين⁽¹⁶¹⁵⁾.

و تدل هذه الحصون على مدى الخطر الذي كانت تتعرض له مصر في تلك المناطق، وظل مكان إقامتها مجهولا لحد الآن، إلا أنها كانت عبارة عن مجموعة من الحصون، وكان الغرض منها أيضا مراقبة الطرق التي تتجه إلى داخل مصر من تلك المناطق الشرقية ، و من المحتمل أن " وادي طوميلات " كان الأكثر تحصينا نتيجة لخطورته. و لم يكن " أمنمحات الأول " يهتم بالحدود الشرقية فقط بل تجاوز إهتمامه ذاك إلى الحدود الغربية، حيث أنشأ بها كما فعل في الحدود الشرقية حصونا على طول الدلتا الغربية، ومن أشهر الأماكن التي أقيمت فيها مثل هذه الحصون نجد واحة النطرون، والتي لا زالت آثارها ماثلة للعيان في وادي النطرون حيث تم العثور على بقايا معبد بني بحجر الغرانيت ونقش عليه إسم هذا الملك⁽¹⁶¹⁶⁾.

إلا أن هناك من يرى بأن طموحات هذا الملك في تأمين حدوده الشمالية لم تتحقق على الحدود الشمالية الغربية بواسطة التحصينات، لأن إنشاء سلسلة منها كان أمر صعب، ولم يفلح ما قام به في صد القبائل الليبية،

(1607) – محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية...، المرجع السابق ، ص. 84 - 85.

(1608) - G. Posener et autres , Op-Cit , p. 225.

(1609) - محمد بيومي مهران ، الثورة الإجتماعية...، المرجع السابق ، ص. 214.

(1610) - أحمد أمين سليم و سوزان عباس ، المرجع السابق ، ص. 239.

(1611) - محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية...، المرجع السابق ، ص. 382.

(1612) - عبد الرحمن الراجعي ، المرجع السابق ، ص. 55.

(1613) - B. Manley , Op-Cit , p. 48.

(1614) - E. Hornung , Op-Cit , p. 68.

(1615) - J.A. Wilson , Op-Cit , p. 132.

(1616) - محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية...، المرجع السابق ، ص. 395 - 396.

على غرار الدلتا الشرقية، وبالتالي فإن ضمان أمن الشاطئ الغربي لم تفلح فيه التحصينات بل ظلت حمايته تقتصر على البعثات العسكرية المتواترة (1617).

أما بالنسبة للجنوب كانت لهذا الملك تحصينات من أجل تأمين الطرق التجارية المؤدية إلى بلاد النوبة، حيث أمن منطقة التبادل التجاري والحضاري جنوب " دنقلة " عند منطقة "كورسكو"، بل أن "كرما" يقال أن حضارتها ازدهرت نتيجة لأعمال أمنمحات بها، حيث عمل على تحصين هذه المناطق بالأسوار منها " أسوار كرما " التي أطلق عليها إسم : "أسوار أمنمحات المبجل" (1618).

وشرع هذا الملك ببناء حصن "بوهن" عند الشلال الثاني، الذي يعد ضمن التحصينات المدهشة بهذه المنطقة، بدء من سنة 1950 ق.م، وبلغ علو أسواره تسعة أمتار وسمكها خمسة أمتار، وقد تعزز بعد ذلك بحصون أخرى خلال الدولة الحديثة (1619).

وأنشئت الحصون الأولى في "واوات"، فإننا نجدها قد حدثت بين سنتي 1913 و 1903 ق.م، وهي الفترة التي قامت فيها جيوش " سنوسرت الأول " بإخضاع إقليم " واوات " للرقابة المصرية. فخلال العشر سنوات التي تلت السنة الخامسة من حكمه أنجز خطا من الحصون الجنوبية إلى غاية الشلال الثاني، حيث تموضعت قلاع جديدة بطريقة إستراتيجية موجهة لمراقبة الحركة المائية والأرضية، ومن بينها عدد ضخم جدا بإستطاعته أن يضم محلات إدارية وإقتصادية (1620)، أي أن الحصن لم يكن فقط مجرد حصن عسكري بسيط بل كان عبارة عن مؤسسة إدارية وإقتصادية تمثل الفرعون في تلك المناطق، و قد تابع " سنوسرت الأول " سياسته الخارجية النشطة وأنجز تحصينات قوية في "كوبان" "Kouban" و "أنيبا" "Aniba" إضافة إلى حصون أخرى في "بوهن" و "كور" "Kor" (1621).

أما " سنوسرت الثالث " قام خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1829 و 1818 ق.م بمد الحدود المصرية إلى ما بعد الشلال الثاني وذلك بإنشاء المجموعة الثانية من الحصون. و المتمثلة في "حصنين متقابلين في آخر الحدود الجنوبية على شاطئ النيل أحدهما في " سمنة " و الآخر في " كرمة " (1622)، ومن الحصون التي أقامها على إثر حملاته في الجنوب، الحصون التي أقيمت عند الجندل الثاني وظلت آثارها ماثلة، وقد رسم الحدود هناك بأعمدة (1623). وقد وجدت لوحة بـ " سمنة " تعود إليه و التي تطرقت إليها في الفصل الثاني، كتب عليها: « يمنع تجاوز الحد ما بعد "سمنة" على الأهالي دون رضى أو موافقة الملك، والأجيال القادمة موضوعة أمام تحد لتثبت وضع اليد المصرية على بلاد النوبة ».

لم يقتصر عمل هذا الملك في الجنوب فحسب، بل نجده في الشمال قد ذهب إلى أبعد نقطة والتي لم يكن قد وصلها أحد من سابقه، وقام بإنشاء حصون كانت توفر الأمن للطرق التجارية في جنوب فلسطين (1624).

إن تشييد القلاع ظل ماثلا إلى الآن و أعتبرت بمثابة نقاط حدود. وفي الجنوب وخلال عصر الدولة الحديثة نجد "تحتمس الأول" سجل على صخور جزيرة "طومبوس" "Tombos" عند الشلال الثالث بأنه سيد كل الأقاليم الممتدة بين هذه الجزيرة من الجنوب إلى نهر الفرات في الشمال كما أشرت فيما سبق، وهي دلائل تشير إلى إهتمام هؤلاء الملوك بتحصين حدودهم من أجل توفير السلامة و الأمن لتجارهم.

ورغم كل هذه التحصينات وقوتها إلا أنها كانت تخترق من حين إلى آخر خاصة في فترات ضعف الفراعنة، و مثال على ذلك أن الخط الدفاعي الذي أقامه " أمنمحات الأول " في الدلتا الشرقية أصبح مخترقا خلال الأسرة الثالثة عشرة (1625). و يمكن أن يكون قد حدث مثل هذا الأمر من قبل، وأستخلص ذلك مما ذكره " سنوحي " في قصته الشهيرة، فبعد فراره بلغ موضعا كان به حصن وهناك تملكه الخوف من أن يمسه الحارس فإختبأ بين الأشجار إلى أن أسدل الليل وواصل رحلته. وقد جاء كلامه ذاك في العبارات التالية : « سرت

(1617) - E. Hornung , Op-Cit , pp. 68 - 69.

(1618) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص. 176.

(1619) - E. Hornung , Op-Cit , pp. 67- 68.

(1620) - B. Manley, Op-Cit , pp. 8, 50.

(1621) - M. Damiano - Appia, l'Egypte..., Op-Cit , p. 228.

(1622) - عبد الرحمن الراعي، المرجع السابق، ص. 61.

(1623) - M. Tariel , Op-Cit , p. 67.

(1624) - E. Hornung , Op-Cit , p. 80.

(1625) - Ibid , Op-Cit , p. 85.

شمالاً حتى إنتهيت إلى أسوار الأمير(*) ... ثم جلست منحنيًا في عشب خشية أن يراني حراس الأسوار»(1626).
إلا أن هذه الشهادة تكشف في نفس الوقت أن هذه التحصينات كانت لها فائدتها في حماية مصر ككل ، و خاصة توفير الأمن للقوافل التجارية الداخلة و الخارجة من مصر .

المطلب الثالث: نقاط المراقبة

كانت المناطق الخارجية لوادي النيل تعتبر في الأساس جزء من المملكة، فكانت تتطلب مراقبة ثابتة، وكان يعين لهذه المهمة في غالب الأحيان رجال ذوي رفعة، فالطرق في شمال مصر والحصون الموجودة على الحدود هناك كانت موضوعة تحت مراقبة الإدارة المحلية للمقاطعة الرابعة عشرة لمصر السفلى، و خاصة مسالك "حورس" التي كانت موضوعة تحت الرقابة الصارمة من قبل دوريات عسكرية متواجدة في الحصون، و في نقاط أخرى متقدمة(1627).

كلف حاكم " إلفنتين " من قبل الفرعون بمهمة حراسة الحدود الجنوبية وتأمين طريق التجارة المتمثل هناك في نهر النيل وكان يطلق على حاكم هذه المناطق الجنوبية إسم (حامي المدخل الجنوبي)(1628).
إن مراقبة النظام العام منذ الدولة القديمة كانت تتطلب تأسيس شرطة ، وكانت مقسمة إلى فيلقين أساسيين واحد خصص للصحارى والآخر للمراكز الحضرية (1629). إلى جانب ذلك نجد أن الشرطة في مصر لعبت دوراً مهماً في حماية الطرق التجارية من خلال تموضعها على طول بعض الطرق في شكل نقاط، ومن المعروف أن هناك نوع من الشرطة وهي شرطة العاصمة والمدن الكبرى مثل منف، كانت تكلف بحماية الطرق التجارية التي تنطلق من المدن التي تنتسب إليها، فمدينة " فقط " مثلاً كان ينطلق منها الطريق المؤدي إلى محاجر الصحراء الشرقية إلى أن يصل إلى البحر الأحمر، فكانت لهذه الشرطة مراكز أو نقاط على طول ذلك الطريق(1630).

وفي إطار سياسة مراقبة مطبقة من قبل الإدارة الإقليمية لمصر العليا، هناك دوريات منتظمة تمارس نشاطها عبر شبكة من المراكز العسكرية المتقدمة ، تتبع بدقة حركات القوافل والرحل منذ الأسرة الثالثة، كما أن مصر أمّنت الطرق إلى بلاد كنعان عن طريق فرق شرطة تحت إشراف وإدارة موظف خاص لأن غنى نهر النيل من جهة الدلتا الشرقية كان قد جلب إليه مثلما هو الحال في غرب الدلتا رحل الهضاب والصحاري وبذلك فإن سيادة مصر وزعامتها تأكدت منذ زمن مبكر على تلك المناطق التي تتمثل في الحراسة العسكرية.
إن طرق القوافل الأكثر استعمالاً هي مسالك "حورس"، التي أشرت إليها في الفصل السابق ، وقد كانت موضوعة تحت مراقبة صارمة من قبل دوريات عسكرية مصرية تعتمد على مجموعة من مواقع متقدمة محصنة جيداً(1631).

وتفيدنا بعثة الوزير " أمنمحات " في عهد الملك "منتوحتب نب رع" الذي ينتمي إلى الأسرة الحادية عشرة أنه وضع نقاطاً أمينة عبر درب " وادي حمامات"(1632). فالتجارة كانت منظمة بعناية عند الحدود ومحمية ضد غزو البضائع الخارجية لأن الشرطة الملكية ترأقب بشدة الواردات، و نكتشف ذلك من خلال النصب المشهور الذي أقيم في "سمنة" عند الجندل الثاني من قبل "سنوسرت الثالث" والذي يمنع كل نوبي اجتياز الحدود، عبر الماء أو اليابسة بواسطة صندل يحوي مواشي أو غيرها، ويستثنى من ذلك النوبي الذي يأتي لإجراء تجارة بـ "إخن" (مرجيسا) أو يكون مكلفاً بمهمة ما. وإستمرت مراقبة الجنوب في عهد " أمنمحات الثالث" إذ كانت التقارير اليومية للمراقبات عند الحدود تحفظ في رسائل "سمنة" والتي تذكر بدقة كل الأشياء التي تخرج أو تدخل(1633). إن الحاميات العسكرية خاصة بالجنوب تتميز بكونها تتواجد بصفة دائمة نظراً للحاجة الماسة لها في حماية الحدود(1634).

(1626) - روايات و قصص مصرية ، ص. 43 .

(*) - هناك من يرى بأنها قلعة بنيت عند مدخل " وادي طوميلات " .

(1627) - B. Manley , Op-Cit , p. 48.

(1628) - بلقاسم رحمانى ، علاقة جنوب شبه الجزيرة العربية بشرق إفريقيا...، المرجع السابق ، ص. 109.

(1629) - M. Damiano - Appia, Op-Cit , p. 215.

(1630) - محمد بيومي مهران ، الحضارة المصرية...، المرجع السابق ، ص. 189.

(1631) - B. Manley , Op-Cit , p. 48.

(1632) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 157.

(1633) - E. Hornung , Op-Cit , p. 81.

(1634) - بلقاسم رحمانى ، المرجع السابق ، ص. 107.

ومما يدل على وجود نقاط أمنية على الطرق التجارية البرية والتي كانت في نفس الوقت تستخدم كمسالك مؤدية للمناجم نذكر أن بعثة الوزير " أمنحات " كان من بين أهدافها نشر الأمن في مسالك الصحراء الشرقية من خلال وضع نقاط أمنية عبرها. وأفهم من ذلك أن هذه النقاط لم تكن متواجدة بصفة متواصلة بل أنها كانت مرتبطة بمدى قوة الفراعنة ، و أستنتج بأن الطرق البرية التجارية لم تكن مؤمنة بصفة متواصلة في العصر الفرعوني. كما أستخلص بأن المراقبة أحيانا كانت ثابتة في نقاط محددة و تعمل بصفة متواصلة ، و أحيانا أخرى تكون متجولة عبر الطرقات.

إن مراقبة التجارة الخارجية من قبل الدولة والمتمثلة في مراقبة مناطق الحدود وأمن البعثات لم يكن يفترض وجود جيش حقيقي دائم قبل الألف الثانية ق.م ، فالإدارة المصرية إكتفت بفرق حسب الإحتياجات، وكانت تستخدم منذ زمن مبكر مرتزقة أو محاربين (1635). إلا أن الأمر قد تغير في العصر الأسفل، أي خلال الألف الأولى ق.م، إذ نجد هذه الحاميات وهذه النقاط قد أوكل أمرها إلى الجيش على ما يبدو. ففي زمن الفرعون "بسيماتيك الثاني" الذي خلف " نخاو الثاني" و نتيجة لإزدهار تجارة اليونانيين في الدلتا و على وجه الخصوص في " نفراطيس" فإنه رافقها تواجد لحاميات من الجنود الإغريق، إحداها تتواجد في منطقة "ماريا" والتي تدعى حاليا " مريوط" الواقعة في غرب الدلتا، والثانية في منطقة " دفنة" (دفناي) شرقي الدلتا، والثالثة كانت تتواجد في الجنوب عند " إليفنتين" (1636).

هذه الوضعية تكشف لنا عن حقيقة أن الأجانب في مصر تعدوا مهمتهم التجارية البحتة إلى القيام بدور حماية التجارة ، و هو أمر يدل على أن مصر أثناء ضعفها لم تكن قادرة على حماية التجارة و مسالكها كما كانت تفعل في السابق ، و لماذا تحميها و هي التي فلتت من أيديها زعامتها التجارية لتتحول إلى شعوب أخرى ، خصوصا و أن حاميات الأجانب كانت تتواجد باستمرار في مناطق كانت تحميها في السابق حاميات الشرطة المصرية و حصونها و أسوارها و حملاتها العسكرية.

المطلب الرابع: حراسة القوافل التجارية

كانت ترافق القوافل البرية حراسة مشكلة من جنود تابعين للدولة ومجندين بصفة دائمة لأداء مهام محددة و كذلك بعض من المرتزقة (1637)، فالمؤسسات العسكرية كانت قد أنشئت للغرض الأمني و لحاجة إقتصادية أيضا، فالجيش كان أداة شرطة ووسيلة لحماية التجارة (1638).

إن وجود بعثات عسكرية مرافقة للقوافل التجارية الحاملة للبضائع التي كانت مصر في حاجة إليها هو عمل يعود إلى عهد ما قبل الوحدة وليس وليد العصر الفرعوني. فعملية حماية السلع التجارية كانت منذ عهد بعيد قائمة من قبل الفرق الحربية أي أن التجارة والمجموعات العسكرية كانت تترافق. لأن الجيش كانت له مهام أخرى في حالة السلم منها حماية البعثات التجارية و بعثات إستغلال المناجم والمحاجر في الصحراء، التي كانت القبائل البدوية تغير فيها على البعثات والقوافل التجارية مما ينجم عن ذلك من أضرار كالسلب و القتل فكان الفراعنة في صراع مرير معهم.

المطلب الخامس: تهيئة الطرق

إن تأمين الطرق البرية للبعثات سواء منها المنجمية أو التجارية والتي كانت في كثير من الأحيان تجمع بين المهمتين، لا يكمن فقط في حماية عسكرية ومراكز محصنة عند الحدود ونشر نقاط شرطة ومرافقة الفرق العسكرية للبعثات التجارية، بل هناك شيء مهم كان لابد من توفره في مثل تلك الطرق البرية وفي مناخ تكاد الحياة فيه تكون منعقدة إلا في أماكن متناثرة هنا وهناك، ألا وهو الماء، لذلك فإن هذا الأمر لم يفت المصريين القدامى وعملوا على إيجاد حلول تمثلت في حفر الآبار، وأصبح ذلك عنصرا هاما في تأمين الطرق التجارية. ويذكر "ديكمانس" نقلا عن "ماسبيرو" (Maspéro) بأن الطرق البرية كانت صعبة ومملة، وكانت القوافل تقضي أحيانا الشهور وهي تجوبها، لذلك كان يقع الإختيار على الطرق التي يمكن أن توجد فيها مصادر ماء على مسافات جد متقاربة من أجل سقاية الحمير باستمرار لأنه من المستحيل حملهم لإحتياجات معتبرة من الماء، لذلك كان الوضع يفرض على المسافرين إتباع خطوط سير ملتوية ومعقدة (1639). هذا القول يكشف لنا أن الطرق التي تجوبها القوافل كانت مختارة بالتجربة ولم تكن عشوائية، وكان العامل المهم في إختيارها هو مصادر المياه.

(1635) - J-C. Margueron et L. Pfirsch , le Proche - Orient..., Op-Cit , p. 185.

(1636) - أحمد فخري ، مصر الفرعونية...، المرجع السابق ، ص.ص. 426 - 427 .

(1637) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، المرجع السابق ، ص. 25.

(1638) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p. 188.

(1639) - Ibid , p. 285.

أعتقد بأنّ هذا هو السبب في أنّ معظمها يسير في وديان قديمة جافة مثل: "وادي حمامات" وغيره، وبإمكاننا أن نتصوّر كم كانت المعاناة في اجتياز طريق بدون ماء، لذلك كان الملوك الأقوياء قد عملوا على تأمين هذا المورد قبل أن تقوم البعثات بالتردد عليه، ويبدو أن هؤلاء الملوك قد تقطنوا لذلك منذ زمن الأسرات الأولى. ولو أنّ الإشارات التاريخية تبدو قليلة خلال زمن الدولة القديمة إلا أنّ ذلك لا يمنع من حدوث مثل هذه الأعمال، فيكفي أن أذكر بأن رحلات "حركوف" ورد فيها بأنّه كان يعمل على فتح طرق جديدة وتهيئة مصادر للماء بها وذلك بحفر الآبار.

إلا أنّ تهيئة الطرق وتأمين نقاط الماء مثلما كان تأمينها بنقاط حراسة، كان يهمل في فترات ضعف مصر وكان ذلك يتسبّب في تلاشي تلك المجهودات فتتعرّض للردم مثلما كان يحدث مع القنوات عندما تهمل، ولذلك نجد في مراحل إعادة نهضة التجارة المصرية أول عمل يقوم به الملوك هو إعادة تهيئة الطرق، وإذا كانت الإشارات لهذا العمل في السابق نادرة، فإنّنا نلاحظ العكس خلال الدولة الوسطى والفترات اللاحقة، فقد قام الملك "منتوحتب الثالث" – والأرجح هو "منتوحتب الثاني" – بإعادة تهيئة طريق "وادي حمامات" الذي كان يربط بين النيل والبحر الأحمر وجّهزه بنقاط ماء، وجعل عبوره أمرا يسيرا، وامتدت الآبار التي حُفرت هناك على طول الطريق (1640)، ورغم أنّ هذا الطريق يُعتبر قصيرا مقارنة بالطرق والمسالك الأخرى، لأن مسافته لا تتجاوز أربعة أيام من المشي، ومع ذلك يعد السير فيه شاقا لأنّه بدون تهيئة وغير مزوّد بآبار، فما بالك بالسير في الطرق الأطول.

و يكفي أن أذكر أنّ هذا الملك كان قد أرسل من أجل ذلك بعثة يرأسها أهم موظفيه وهو "حينو" ووزيره "أمنمحات"، والتي كانت أولى أهدافها فتح هذا الطريق من جديد وذلك بحفر الآبار ووضع خزانات ماء على طولها (1641). وقد روى "حينو" تفاصيل رحلته وكانت تمتاز بالدقة في الوصف لدرجة أنّه سجل أبعاد الآبار التي حفرها بدقة فجاءت مضبوطة (1642)، وقد أحصى البعض عدد هذه الآبار بأنّها كانت إثني عشر (12) بئرا (1643). وتتضح لنا أهمية تهيئة الطرق دائما من خلال ما ورد في نفس البعثة التي ضمت 10 آلاف فرد، وهو عدد يرى فيه "أحمد فخري" بأنّه لم يكن لجلب الأحجار فقط بل أيضا من أجل عمل آخر جبار وجدّ هام ألا وهو حفر الآبار التي تمتدّ من نهر النيل إلى غاية البحر الأحمر (1644). وكانت هذه الأعمال لا توقّر السير اليسير للقوافل فقط بل كان ينتج عنها تهيئة الطرق بأنّ معنى الكلمة، وذلك بإعادة إحياء مناطق الإسكان هناك نتيجة لتوفر مصدر مائي، وبالتالي جعل الحياة ممكنة خاصة بالقرب من واحات "وادي جاسوس" القريبة من القصير (1645)، وهذا بدوره ينعكس على راحة القوافل التي يمكنها أن تجد أماكن للراحة والتزوّد بما تحتاجه من هناك. فكم كانت مجهودات تهيئة الطرق بحفر الآبار عمل يعيد الحياة في عديد المناطق المقفرة.

و هذا الأسلوب في تأمين الطرق التجارية نجده باديّا من خلال تواجد عدد كبير من الآبار على الطريق البري بين مصر وبلاد سوريا وهو يدلّ على حاجة القوافل الماسة للماء (1646)، رغم أنّ هذا الطريق يُعدّ سهلا من الناحية الطبيعية لقربه من الساحل مقارنة بمسالك الصحراء الشرقية أو الغربية أو حتّى المسالك الجنوبية. إنّ بذل الفراعنة لجهود معتبرة من أجل بعث الحياة في المسالك ناجم عن إعتقادهم بأنّه لا وجود للآلهة فوق الأرض دون وجود ماء بها، لذلك فعلى مستوى كل الطرق التي سلكوها قاموا بأعمال مهمّة من أجل تزويدها بسلسلة من الآبار، وكمثال عن طرق الجنوب نجد المسلك الممتدّ من "كوبان" (Kouban) و "إدفو" (Edfou) بإتجاه مناجم الذهب مجهّز بعدد منها (1647). أبقعد هذه الصلة الوثيقة بين وجود الماء والآلهة يُقال بأنّ مصر لم تزوّد الطرق بنقاط ماء وتهيئتها لتيسير عبورها؟.

وهناك وثائق تعود إلى زمن الدولة الحديثة تتكلّم عن مثل هذه المجهودات، منها أن الملك "سيتي الأول" خلال السنة التاسعة من حكمه أي حوالي 1260 ق.م، وعلى بعد 43 كلم من مدينة "إدفو" نجده قد حفر بئرا وبنى

(1640) – C. Lalouette , Thébès... , Op-Cit , p. 68.

(1641) – G. Rachet , dictionnaire de la civilisation ..., Op-Cit , p. 179.

(1642) – L. Casson , Op-Cit , p. 20.

(1643) – J.A. Wilson , Op-Cit , p. 121 .

(1644) – أحمد فخري ، مصر الفرعونية... ، المرجع السابق ، ص.ص. 210 - 211.

(1645) – عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 157.

(1646) – محمود عبد الحميد أحمد ، الصلات التجارية بين مصر و سورية... ، المرجع السابق ، ص. 195 .

(1647) – G. Posener et autres , Op-Cit , p.200 .

معيدا صغيرا أهده إلى الإله " آمون" (1648)، وهناك نقش يعود إلى "رمسيس الثاني" على جدران حصن بـ "كوبان" يصف كيف أن هذا الملك أقدم على حلّ مشاكل بعثة أرسلت إلى هناك على طول " وادي علاقي" حيث قام بتأمين مسافة ذلك الطريق من خلال تزويده بنقاط ماء وخاصة أن هذا الطريق يُعدّ مهماً جداً حيث كان يُستخدم لجلب ذهب منطقة "أكيتا" (Akita) وتجارة الجنوب، فكان نقص الماء فيه يؤدي بحياة حيوانات ورجال القوافل من شدة العطش، وهذا الحدث كان السبب في توقّف البعثات عبره أحياناً، وبالتالي خسارة معادن تلك المنطقة وتجارتها، فإستدعى الملك مستشاره وأمره بإعادة حفر الآبار هناك وتحولت المنطقة إلى منطقة حياة بعد أن كانت مقفرة، فهذا النقش يصف كيف تحولت المنطقة إلى حقول مزروعة ومستنقعا تعيش فيه الأسماك (1649). فإن كان تأمين الطرق بنقاط ماء يجعل المسير فيها هيناً وأماناً وباعثاً على الحياة، فإنّ نظام حماية الطرق البرية ككل بما فيه حفر الآبار وتهيئة الطرق والأساليب العسكرية والدفاعية الأخرى كانت تُحيي وتنعش التجارة وتجعل حركتها دؤوبة فتتوطد الصلات التجارية بالمحيط الخارجي و ينعكس ذلك على مصر بالرخاء والثراء الإقتصادي. و هكذا كان الفراعنة قد بذلوا جهوداً معتبرة من أجل التقليل من المخاطر بوسائل مختلفة كانت لكل منها فائدتها. و كان تطبيقها كلها يرفع من فاعلية مجهوداتهم ، و التي كانت في أحيان كثيرة تنجح في تحقيق الأهداف المرجوة و هي تأمين السلامة للتجارة و مسالكها ، و في أحيان أخرى تكون فائدتها محدودة نتيجة لكثرة الصعوبات في بعض الأماكن أو لضعف الحكام. وكل ذلك يفند الآراء التي رأت بأن الفراعنة لم يفعلوا شيئاً من أجل حماية التجارة و طرقها ، بل أنني أرى رغم هذا العرض السريع والمختصر لموضوع حماية القوافل التجارية و طرقها أن الفراعنة عملوا جهوداً لم تقم بها شعوب تجارية أخرى. و هذه الجهود ساهمت إلى حد كبير في حماية التجارة التي كانت سر ثراء و قوة مصر خلال العصر الفرعوني، بل قبله وبعده وعلى مرّ العصور، ولم يكن سرّ ذلك يكمن في قوتها العسكرية.

المبحث الثالث: أخطار الملاحة التجارية وكيفية تفاديها

كان المصريون من خلال إتقان صناعة سفنهم يشدون التمكن من إنجاز رحلاتهم البحرية وتحقيق أهدافهم التجارية بأفضل صورة وأكثر سلامة، ومع ذلك فقد ظلت الملاحة التجارية المصرية لا تتمر بدون عقبات وأخطار، وكما عرفنا قبل قليل فإنهم حاولوا بشتى الطرق تأمين تجارتهم عبر المسالك البرية، و أجدهم قد عملوا الشئ ذاته من أجل تأمين تجارتهم البحرية. فما هي الأخطار التي كانت تواجه هذه التجارة ؟، وماهي الوسائل التي إتخذها المصريون من أجل تفاديها ؟.

المطلب الأول: الأخطار الطبيعية

مما جاء في كلام " حنو" قائد إحدى البعثات إلى بلاد " بونت"، التي أتيت على ذكرها في الفصل الثالث أنه تغلب على كل الصعوبات، بالفعل فإن الإبحار في البحر الأحمر تعثره عديد الصعوبات، فهذا الذراع البحري كان صعباً على المراكب عند اجتيازها له، حيث أنه لا يوفر إلا أماكن قليلة للإختباء في حالة الخطر (1650). وعليه كانت الرحلات تواجه صعوبة الرسو على شواطئه لأنه بها عديد الجزيرات الصغيرة ، لذلك كانت تطلق على رحلاته الأساطير والخرافات مثلما حدث في قصة الملاح الناجي (1651). كما يمتاز هذا البحر بشعابه المرجانية القريبة من سطح البحر، وهي تنمو مشكّلة قنوات متوازية تمتد بإمتداد البحر وعددها ثلاثة : واحدة قريبة من شاطئه الشرقي و الأخرى مجاورة لشاطئه الغربي والثالثة توجد في الوسط وبها تقطعات يمكن من خلالها الإتصال بين هذه القنوات، إن القناة التي تمتد موازية لساحل شبه الجزيرة العربية تتميز بكونها عريضة نوعاً ما مقارنة بالقناة الموازية للساحل الإفريقي (1652). وتنتشر هذه الشعب المرجانية أيضاً على خليج السويس قريبة من سطح الماء وتمتد لمسافات طويلة في البحر مما يؤدي إلى تحطيم السفن في حالة إصطدامها بها، و الظاهرة الأخرى تتمثل في إنخفاض مستوى مياه شمال البحر الأحمر أثناء هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، فيتسبب ذلك في قوة التيارات البحرية في منطقة الشمال (1653).

J. Vercoutter , les pistes de l'or..., Op-Cit , p.25 . - (1648)

I. Shaw , le pays noir..., Op-Cit , p.23 . - (1649)

L. Casson , Op-Cit , p. 20. - (1650)

(1651) - روايات و قصص مصرية ، ص. 76 .

(1652) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الأحمر...، المرجع السابق ، ص.ص. 4- 5 .

(1653) - عبد الفتاح محمد وهبة ، المرجع السابق ، ص. 231 .

وبمناسبة الكلام عن هذه الرياح فهي ثلاثة : الأولى شمالية وشمالية غربية وهي تهب في المنطقة الشمالية إلى غاية خط عرض 19° ، وفي القسم الأوسط من هذا البحر أي المنطقة الممتدة بين خطي عرض 14° و 16° شمالا فهي ليست مستقرة في نوع واحد، أما القسم الجنوبي منه فنجد الرياح الشرقية والجنوبية الشرقية، لكن بين شهري جوان وأوت تسود كل البحر الرياح الشمالية الغربية، ثم تنحصر هذه الرياح إلى خط عرض 16° شمالا ابتداء من شهر سبتمبر تاركة المجال لهبوب رياح متغيرة على باقي البحر خلال مدة محددة . و يمتاز خليج السويس بهبوب رياح شمالية أو شمالية غربية، وهذه الأخيرة هباتها تحدث في فترات من فصل الشتاء، وهي تمتاز بأنها قوية و ترفق بضباب ورمال تغطي السماء، أما خليج العقبة فهو يستقبل هبات الرياح الشمالية – الشرقية، وهي أيضا قوية تقريبا طوال السنة لكن شدتها تقل في شهر أفريل لتعوض بهبات نسيم جنوبي (1654)، ونتيجة لهبوب رياح شمالية غربية في جزئه الشمالي ، فإن ذلك يحول دون إستخدام الشراع، وبالتالي يعتمد الملاحون على المجاديف ليصلوا إلى الشاطئ مما يصعب من مهمتهم لأن تلك الرياح تدفع بتيارات بحرية معاكسة جد قوية (1655).

وقد ورد بعض الشيء عن مخاطر الرياح في إحدى فقرات كتاب الدليل جاء فيها مايلي : « و بعد مسيرة نحو ثلاثمائة ستاديا من هذا المكان [مرسى موزا] ، يقترب الساحل العربي من الساحل البربري [الإفريقي] عند الخليج الأقاليتي بحيث يتكون هناك قنال ليس بالطويل الذي تتجمع فيه مياه البحر بحيث تصبح مضيقا ضيقا طوله ستون ستاديا وتقسمه جزيرة ديودوروس قسمين، ومن ثم فإن الملاحة فيه تتعرض لتيارات عنيفة ورياح عاتية تهب عليه من سلسلة الجبال ... » (1656).

وعليه يرى " جورج فضلو حوراني" بأن البحر الأحمر في العصور القديمة كان عقبة في وجه الملاحة (1657). فكم من مركب تحطم مع جميع رجاله، دون منقذ واحد يمكن أن يروى قصته مثل " الملاح الناجي"، الذي صور لنا خطورة العواصف التي كانت تفاجئ البحارة قبل وصولهم إلى اليابسة، وكان إرتفاع الأمواج يصل إلى ثمانية أذرع (1658)، إن غرق المراكب في هذا البحر كان أمرا منتشرا ، فإن لم يحدث في كل رحلة فإن أقل خطورة تتعرض لها السفن هي الإصطدام بالشعب المرجانية ، أو بجزيرة صحراوية و إنتظار مراكب تمر من هناك لإنقاذ بحارتها ، وأسوء الحالات هو الإرتماء على شاطئ صحراوي (1659).

و تتضاعف صعوبة الإبحار في هذا البحر خصوصا عند العودة وعن ذلك يقول سترابون : « تتعرض السفن في البحر الأحمر لأشد صعوبات الملاحة خاصة على السفن التي تبحر من عمق الخليج في إتجاه الشمال » (1660). و بتلك العوامل المناخية فإن الملاحة في البحر الأحمر تعد أصعب ملاحة حتى في الوقت الحاضر فما بالك في الزمن القديم الذي تستخدم فيه المراكب الشراعية.

فإذا كانت مخاطر البحر الأحمر الطبيعية كبيرة و متعددة ، فإن البحر الأبيض المتوسط كان على العكس من ذلك، ولو أنه بدوره لم يخلو من بعض منها و هو ما ورد ذكره في قصة " أونامو " والمتمثلة في الرياح و الأمواج التي رمته على جزيرة قبرص ، و قد إقتبست من تلك القصة المقطعات التالية: « فلما إبتعدت عن ميناء البحر دفعتني الرياح نحو بلاد ألسا [جزيرة قبرص] » (1661)، وقد جنحت به الرياح و الأمواج إلى تلك الجزيرة أثناء عودته من " جبيل " إلى مصر. من جهة أخرى فإننا إذا تصفحنا الأوديسا نجدها تصور لنا مخاطر هذا البحر في مواضع متفرقة ، و حسب ما فهمت من قراءتي لها أن مخاطره تتمثل أساسا في العواصف الهوجاء المفاجئة و التي تهب في فصل الشتاء، و مما جاء فيها أذكر المقطع التالي: « ... و بعدئذ تهب عاصفة هوجاء يغرق فيها البعض... » (1662).

وبذلك فإن الأخطار الطبيعية لا تميز البحر الأحمر فقط بل أن البحر المتوسط بدوره كانت له أخطار ولو أنها أقل بكثير ، فالبحارة في هذا الأخير كل ماكانوا يخشونه في رحلاتهم إلى الساحل السوري هو ريح أو

(1654) – عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص.ص. 5- 6 .

(1655) – عبد الفتاح محمد وهبة ، المرجع السابق ، ص.ص. 230- 231 .

(1656) – نقولا زيادة ، دليل البحر الأثري...، فقرة 25 .

(1657) – جورج فضلو حوراني ، العرب و الملاحة في المحيط الهندي ...، المرجع السابق ، ص. 25 .

(1658) – P. Montet , Op-Cit , p. 186 .

(1659) – V. Bérard , Op-Cit , pp. 115-116 .

(1660) – Strabon , Géographie, XVII, chap I, 45 .

(1661) – روايات و قصص مصرية ، ص. 291.

(1662) – هوميروس ، الأوديسا ، فقرة 14.

عاصفة من الغرب أو الشمال الغربي، والتي بإمكانها أن تلقي بالمركب على الشاطئ، لكن كان حدوثها قليلا وإستثناء خارج شهري جانفي وفيفري (1663)، ومع كل هذه الصعوبات فإن المصريين في العصور القديمة كانوا مغامرين بارعين في الملاحة، كما تؤكد هذه المشاق والمخاطر مدى قوتهم وعزيمتهم .

المطلب الثاني: القرصنة

لم تقتصر أخطار الملاحة التجارية المصرية على الأخطار الطبيعية، بل هناك مسألة لا تقل خطورة عن ذلك، والمتمثلة فيما يعرف بالقرصنة، وإن كانت أخطار البحر المتوسط الطبيعية هي قليلة مقارنة بالبحر الأحمر، فإن الأمر على العكس من ذلك فيما يتعلق بخطورة القرصنة ، حيث كان المتوسط مسرحا لها، بل ميزة إتصف بها لعصور عدة وليست العصور القديمة فحسب ، ويكفي أن أذكر بأن الوثائق المصرية كانت من حين إلى آخر تشير إلى هذا الموضوع.

ورغم أن الكثير يرى أن البحارة الكريتيين كانوا الأوائل الذين مثلوا وحوش البحر بعد أن كانوا لمدة طويلة تجارا كبارا ، إلا أن الوثائق المصرية لم تحدد شعبا بذاته تعاطى القرصنة بل أطلقت عليهم " شعوب البحر " التي إمتد هجومها إلى السواحل المصرية، وبذلك فإن الأمان من الهجوم الخارجي لم تشعر به مصر في كل فترات تاريخها (1664)، و خصوصا بعد الدولة القديمة إذ أصبحت مصر المجزأة فريسة مقصودة من قبل القراصنة من بينهم بحارة " جبيل " لأننا نجد هؤلاء مذكورين أثناء الأسرة الحادية عشر من بين أعداء مصر، وبالتالي فإن الملاحة لم تنعم بالتأكيد خلال فترة مرحلة الإقطاع الأولى بأمن مماثل للأمن الذي عرفته أثناء الدولة القديمة، فإذا كانت لمدن مصر السفلى في ذلك الوقت مراكب تجارية، فإنها لم تكن تملك أساطيل حربية ولا قوى عسكرية لحماية مصر كما كان يفعل " بيبى الأول " لمراقبة البحر والشواطئ السورية وطرق القوافل بإتجاه فلسطين (1665) ، وهكذا فإن المصريين كانوا ينظرون نظرة سيئة للشعوب البحرية الأخرى على أنهم قراصنة وقد أكد ذلك سترابون حيث قال : « كانوا ينظرون نظرة سيئة للشعوب البحرية، خاصة الإغريق، الذين كانوا يعتبرونهم قراصنة يفتكون ممتلكات الغير » (1666).

و في هذا المنحى يؤكد " تومازي " بأن القرصنة قديمة قدم الملاحة ، و يستخلص ذلك من الجنود الذين كانوا يقفون على سطح مقدمة و مؤخرة السفن التجارية و الذين كانوا مسلحين بالسهام لتصويبها على الأعداء قبل التصادم معهم (1667). وهو يقصد بهؤلاء الجنود الفرق العسكرية التي كانت تشكل مجموعة ضمن أفراد حاشية المراكب قبل أن تستخدم البحرية العسكرية منفردة لحماية السفن التجارية، وهو ما ينطبق على الملاحة المصرية، وكلامه هذا يؤكد بأن مصر عرفت مخاطر القرصنة منذ القدم، وإصطدمت بالقرصنة منذ إنطلاق رحلاتها البحرية الأولى وإلا لما كان لوجود الفرق العسكرية داع على مراكبها التجارية في البحرين المتوسط والأحمر أو حتى التي تسير في النيل بإتجاه الجنوب. فمثلما كانت القوافل البرية تتعرض لخطر اللصوص والحراية فإن البعثات التجارية البحرية كانت تتعرض لنفس الخطر و المتمثل بالطبع في القرصنة.

ومن خلال وثائق أرشيف : " تل العمارنة " نجد أن القراصنة بأساطيلهم يتربصون بالنقل البحري ويفسدون الإتصالات خاصة بين " جبيل " ومصر وحدث و أن سقطت " جبيل " فريسة لهم (1668). و خلال زمن الدولة الحديثة فإن خطر القرصنة تمثل في الأخيين ، ففي سنة 1317 فيما كان الملك " سيتي الأول " يمدن حملاته الشرقية لإعادة فتح فلسطين ، نزل أخيون عسكريون في ليبيا و حاولوا الدخول إلى الدلتا، فقطع الملك حملاته ودخل مصر، و تصدى لهذا الهجوم البحري ضد الدلتا، ومنذ هذا العصر ترك ذلك الحدث لدى المصريين كابوس خطر " شعوب البحر " (1669).

كما كان التهديد خلال الدولة الحديثة يأتي من قراصنة قبيلة " فليستا " التي إستوطنت فلسطين (1670)، إن البحر المتوسط كان يشكل خطرا حقيقيا على الملاحين المصريين منذ زمن " رمسيس الثاني"، فعند مغادرة "

(1663) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2 , p. 268.

(1664) - محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية... ، المرجع السابق ، ص. 84 .

(1665) - J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte... , Op-Cit , p. 79.

(1666) - Strabon , XVII , chap I , 6.

(1667) - A. Thomazi , Op-Cit , p.7.

(1668) - L. Casson , Op-Cit , p. 46.

(1669) - J. Boulos , Op-Cit , p. 70.

(1670) - نجيب ميخائيل إبراهيم ، المرجع السابق ، ص. 95 .

أونامو "جبيل"، وبعد أن نجى من ملكها، فإنه وقع بين أيادي القبرصيين الذين أرادوا قتله، وبما أن البردية التي روى فيها تقريره كانت ممزقة عند نهايتها فإنه لا يُعرف كيف نجا من هذا الخطر الجديد(1671).

كما أن مصر خلال الأسرتين التاسعة عشر والعشرين تعرضت إلى هجمات القراصنة لكن تمكنت من الانتصار عليهم، منها الهجوم الذي حدث زمن "رمسيس الثالث" عام 1174 ق.م وهو يصادف السنة الثامنة من حكمه (1672).

ومن خلال رواية "أونامو"، نفهم أن ذلك العصر انحطت فيه القوة المصرية وأخذت المدن الفينيقية في البروز، وهو عصر تزامنت فيه القرصنة والتجارة. بالإضافة إلى ذلك تدل هذه القصة على أن الساحل الفلسطيني عند "الدورا" سواحل خطيرة إذ تعرّض هناك عند إستراحته إلى إختلاس جزء كبير من أمواله. كما أنه خلال هذه الدولة كانت هناك عصابات رحل وقراصنة ليبيون يغيرون على شواطئ المتوسط الشرقية وكانوا يصلون في هجوماتهم إلى غاية موانئ قبرص مثلما كانوا يجوبون شواطئ الدلتا(1673).

لم يكن البحر المتوسط وحده مجالا للقراصنة بل أنهم عرفوا في البحر الأحمر، حيث كانت بعض جزره المرجانية قد تحولت إلى وكر للقراصنة من بدو صحارى هذا البحر، إضافة لما كانوا يقومون به من إعتداء على القوافل في البر (1674).

وبما أنه لم توجد وثيقة تعود إلى العصر الفرعوني تتكلم صراحة و تفصيلا عن القراصنة فإن ذلك أدى بالإعتقاد بأن هذا البحر كان مثلما في زمن البطالمة، المراكب فيه تهاب العواصف وخاصة قراصنة السواحل العربية. ولقد كان تهديد القراصنة في البحر الأحمر على شواطئ البلاد العربية خطر على حمولة مواد التبادل التجاري التي كانت تحملها الأساطيل عند الذهاب وخاصة البضائع الثمينة المجلوبة من "بونت" عند العودة (1675).

من خلال هذه الومضات حول موضوع القرصنة أجد أن مصر قد عانت مخاطر ها وشكلت لها عقبة أمام مصالحها التجارية، وقد تفاوت هذا الخطر من زمن إلى آخر، ويبدو أنها (القرصنة) قويت وانتشرت في النصف الثاني من الألف الثانية ق.م، وخاصة في البحرين المتوسط والأحمر، أما في النيل فإن خطر ها ظل هو نفسه طيلة مراحل العصر الفرعوني.

المطلب الثالث: الإستفادة من الطبيعة في الرحلات التجارية البحرية

رغم كل المخاطر التي أتيت على ذكرها والتي كانت تشكل عقبة كبيرة في وجه الملاحة التجارية، إلا أن الإنسان المصري القديم لم يقف عاجزا أمامها بل إنه واجهها وحاول التقليل منها بإيجاد عدة أساليب، منها إستغلال الطبيعة لصالحه والإستفادة منها إلى أبعد حد، فالإنسان القديم توصل، بعد إختراع المجداف، إلى إحداث إنقلاب في مجال فن الملاحة، حيث تعلم إستخدام الريح وكانت المرة الأولى التي يستخدم فيها الإنسان قوة غير قوة عضلاته أو خدمه أو حيواناته، إن هذا الإكتشاف له أهمية كبيرة حيث كان منذ ذلك الزمن الوسيلة الأسهل والأقل تكلفة لنقل الأعمال الضخمة لمسافات معتبرة، في الماء(1676).

إن الظواهر الطبيعية مساعدة للإبحار نحو الساحل السوري، منها رياح الغرب السائدة وتيارات ملائمة إلى غاية الكرمل تسمح بأن تقطع المسافة من مصبات النيل إلى "جبيل" في أربعة أيام، أما العودة فتأخذ ضعف الوقت (1677). إن الرياح المميزة للحوض الشرقي للبحر المتوسط هي الشمالية أي أن إتجاهها دائما من الشمال إلى الجنوب، وتبدأ من الظهيرة إلى غاية الغروب، ومن جهة أخرى هناك التيارات البحرية الملائمة للملاحة في هذا الحوض التي تعمل على دفع السفن المنطلقة من الدلتا إلى السواحل السورية، ومن هناك إلى "جزيرة كريت"(1678). حسب ما فهمت أن التيارات البحرية تساعد البعثات التجارية المصرية ذهابا والرياح تساعد على الرجوع إلى الإياب، لكن رحلة العودة تكون مضاعفة أي تدوم بين 8 و 9 أيام وتكون شاقة نسبيا مقارنة برحلة

(1671) - P. Montet , Op-Cit , p. 18 .

(1672) - محمد بيومي مهران ، مصر منذ قيام الملكية ... ، المرجع السابق ، ص. 84 .

(1673) - J.H. Breasted , Op-Cit , p. 349 .

(1674) - جورج فضل حوراني ، المرجع السابق ، ص. 25 .

(1675) - G. Rachet , Op-Cit , p. 180 .

(1676) - L. Casson , Op-Cit , pp. 11-12 .

(1677) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 1 , p. 228 .

(1678) - محمد السيد غلاب ، الساحل الفينيقي ... ، المرجع السابق ، ص. 39 .

الذهاب. و السبب في إعتقادي هو الشحنات الثقيلة التي تحملها المراكب من جهة، و من جهة أخرى فإن التيارات تكون في الإتجاه المعاكس مما يضطر تلك المراكب إلى السير ببطئ و التوقف مرات كثيرة. ومثلما كانت هناك رياح مساعدة على الملاحة في البحر المتوسط بين مصر والساحل الفينيقي و التي عرف المصريون إستغلالها فإن هناك رياح مساعدة بين مصر وكريت تجعل الملاحة المباشرة بينهما ممكنة. فخلال شهري مارس و أبريل ، تكون الرياح الشمالية في تنالوب مع رياح الجنوب، وفي شهر ماي تهب النسائم الخفيفة، وتكون السماء على العموم خلال شهري ماي وجوان صافية وصحوة، والجو جميل، والبحر هادئ مع نسائم متعاقبة من الأرض و البحر، ومن جوان إلى أوت فإن تلك النسائم تكون قليلة، أما خلال شهر سبتمبر فإن الرياح السائدة هي تلك التي تهب من الجنوب، وتأتي خفيفة مع هدوء البحر، وحوالي منتصف شهر أكتوبر هناك ريح قوية من الشمال تتميز بالبرودة متبوعة بنسائم من الجنوب إلى غاية نهاية الشهر، وبحلول شهر نوفمبر تسود الرياح الشديدة، وفي ديسمبر قبل أو بعد الانقلاب الشمسي تتشكل عواصف من كل الإتجاهات، وأخيرا في الشمال وتحديدًا في شهر جانفي فإن الرياح الشمالية هي السائدة. وعن المسافة بين " رودس" ومصر فهي تقدر بسبعة أو ثمانية أيام، والمسافة بين مصبات النيل والسواحل الشرقية لكريت 600 ميل بحري، ورغم طول هذه المسافة إلا أنها لم تكن مدعاة هول ورعب لأن الرياح كانت مساعدة بين مصر وجزيرة كريت، فلم تكن هذه المسافة مانعا في وجه الملاحة، حيث أن إنتظام رياح الشمال خلال موسم الملاحة، كان دائما ميسرا لهذه المسافة و حتى في الشتاء فإن هذه المراكب كانت تغامر في البحر. فخلال كل السنة، ماعدا فصل الشتاء نجد الرياح الشمالية سائدة في هذا الجزء من البحر المتوسط والتي تعمل على دفع المراكب الشراعية من الأرخيبيل إلى الشواطئ الإفريقية⁽¹⁶⁷⁹⁾، ومن الممكن أن ملاحي النيل كانوا يغامرون أحيانا في عرض البحر، لأن الظروف الجوية كانت تسمح لهم بذلك كما أن المسافة من مصبات الدلتا إلى سهل "ميسارا" تقدر بـ: 340 ميل بحري يمكن أن تجتاز في ظرف ثلاثة أو أربعة أيام⁽¹⁶⁸⁰⁾. و لتوضيح هذه المسألة أكثر فإن " فركوتيه " (J.Vercoutter) في دراسته للعلاقات بين المصريين و الشعوب ما قبل الهلنيين ، يشرح إمكانية الإتصال المباشر بين المنطقتين إنطلاقا من إستفادة كل طرف من الطبيعة المتمثلة خاصة في الرياح المناسبة ومواسمها، حيث يرى في الريح الشمالية التي تهب من الشمال، والتي تسود خلال الصيف تعد بمثابة نجدة للملاحين الذين يذهبون من كريت إلى مصر، ويرى أيضا بأن المسافة التي تفصل كريت عن الشاطئ الإفريقي لم تكن المسافة التي لا يمكن إجتيازها بسرعة، وذلك إعتقادا على تلك الرياح التي تسمح للمراكب الشراعية بالسير بدون إنقطاع ، وبالتالي فهو يستخلص بأن هذه الرياح تسهل بكل تأكيد العلاقات البحرية بين كريت ومصر⁽¹⁶⁸¹⁾. أفهم من تحليله هذا بأن المصريين مثلما إستفادوا من الظواهر الطبيعية كالتيارات البحرية والرياح ومواسم هبوبها في مساعدتهم على رحلاتهم البحرية التجارية في إتجاهات أخرى فإنهم حتما يكونون قد إستغلوا الفرصة في عقد صلات مباشرة مع جزر بحر إيجا.

و للتوضيح أكثر ، أرى أن الرياح كانت تساعد المصريين في إبحارهم بإتجاه " جبيل" و باقي مدن ذلك الساحل أثناء العودة، لأنها رياح تهب طيلة السنة من الشمال إلى الجنوب. و بالإبتعاد عن ذلك الساحل فإن الرياح تهب من جهات مختلفة ، إذ تهب الرياح الشمالية في شهور محددة من السنة و تكون مساعدة كما ذكرت على الإبحار من جزر بحر إيجا إلى مصر، و في الأشهر التي تعرف فيها هبوب رياح من الجنوب إلى الشمال فإن ذلك يكون مساعدا على الإبحار من مصر إلى تلك الجزر. و أستخلص من هذا التوضيح أمر أراه جد هام، فإن كانت الرحلات بين مصر و " جبيل" مثلا حددت مدتها إن صح التعبير بدقة، فإن مدة الرحلات بين مصر و كريت مثلا، و رغم تحديد المسافة بينهما بالكيلومترات و ما يستغرقه ذلك من أيام، إلا أنني أرى أن الرحلات بينهما لم تختزل في تلك المدة بل الأمر هنا يتعلق بمواسم الإبحار و الإستفادة من الطبيعة في ذلك، أي أن إنطلاق الرحلات يكون في مواسم الرياح المناسبة، و عند العودة ينتظر هبوب الرياح المساعدة في فصلها المناسب، بمعنى أن الرحلات قد تأخذ شهورا بين الذهاب و العودة، و هذا ينطبق عن الرحلات في الإتجاهين. و بناء على ما أوضحته حول مواسم هبوب الرياح، أجد أن الرحلات من مصر إلى جزر بحر إيجا كانت تحدث في شهر أكتوبر و رحلات العودة تحدث في شهر سبتمبر، أو أنها لم تتخذ نفس الطريق ذهابا و إيابا، أي تتبع طريقا مباشرا و آخر غير مباشر عبر الساحل السوري.

و قد فعل المصريون نفس الشيء في البحر الأحمر، فالملاحة فيه منذ العصر " المنفي" (عصر الدولة القديمة) و ربما قبل ذلك العصر عرفت ضرورة إستعمال التيارات البحرية والرياح الملائمة ، وخشية من

V. Bérard , Op-Cit , pp. 169, 171. - (1679)

G. Dykmans , Op-Cit , t.2, p. 273 . - (1680)

J. Vercoutter , essai sur les relations... , Op-Cit, pp.13 - 14. - (1681)

الأخطار كان لزاما عليهم إختيار الوقت المناسب عند الإنطلاق، فكان البحار يعيش مدة رحلته يُعْدُّ الليالي والأسابيع التي كان يقضيها لعودة ظافرة ، فمثلا كانت تهب رياح على البحر المتوسط توجد مواسم رياح تهب على البحر الأحمر، وكان الملاح المصري القديم يعرف كل التقلبات في هذا البحر و لم يكن يجهل الرياح الملائمة أو المعاكسة في مختلف أوقات السنة، حيث كان بإستطاعته ربط علاقات مع " البونتيين " وضمن الإتيان بشحنات من منتوجاتهم في ظرف أسابيع، ولم تكن الرحلات تتوقف بسبب واحدة من آلاف الحوادث التي كانت تتربص بالمغامرين في البحار (1682).

فرغم أن البحر الأحمر إمتاز بمخاطره الكبيرة إلا أنه كانت به تيارات تساعد المصريين على الإبحار إلى " بونت " ، كما كانت لدى المصريين قدرة على التنبأ بالعاصفة قبل حدوثها هذا مارواه " الملاح الناجي " في قصته. و التي جاء فيها : « و قد نزلت في الخضراء جدا (المقصود البحر الأحمر) على سفينة طولها عشرون ومائة ذراع و عرضها أربعون ذراعا و كان عليها عشرون و مائة بحار من صفوة مصر و كانوا إذا نظروا إلى السماء أو إلى الأرض كانت قلوبهم أشد عزما من قلوب الأسود و كانوا يستطيعون أن يعلموا الإعصار قبل وقوعه و العاصفة قبل حدوثها» (1683).

وفي ظل تلك الظروف فإن الإنطلاق من قصير مثلا كان يحدث في شهر جوان، وكانت المسافة تقطع خلال 30 أو 40 يوما والتي تقدر بـ: 1100 ميل بحري (أكثر بقليل من 2000 كلم) وهي المسافة التي تفصل هذه القاعدة عن مضيق باب المندب، ونحو منتصف جوبلية يمكن أيضا الوصول بإتجاه الشرق إلى غاية " رأس كواردافوي"، أما موسم العودة من "بونت" يتم حوالي شهر أكتوبر، وكانوا يذهبون بسرعة مع الرياح المناسبة، وفي شهر ديسمبر يصلون عند الدرجة 20° عرضا شمالا، ويبقى حوالي 500 كلم للإبحار بالمجداف في وجه ريح معاكسة، وتصبح الأشياء على مايرام للوصول أخيرا إلى قصير في شهر جانفي أو فيفري وإلى نقطة الإنطلاق في وادي النيل التي يصلونها تقريبا بعد سنة من الغياب (1684).

فكم كانت الرحلة طويلة وشاقة، فإن كان قد أثبت بالدليل القاطع على قيامهم بها رغم كل ذلك وبإستمرار طيلة فترات طويلة من العصر الفرعوني ، فإنه ليس بالمستبعد أن يكونوا قد قاموا بمثلها بإتجاه جزر البحر المتوسط و بحر إيجا ، فإستنادا إلى ما ذكرته عن إمكانية إستفادتهم من الظواهر الطبيعية المناسبة في أوقات محددة و قصر المسافة مقارنة برحلاتهم في البحر الأحمر و إضافة إلى بعض الدلائل التاريخية مثل ما جاء في أشعار هوميروس ، و إثباتات و ثائق " نل العمارنة " عن إبحار القبارصة وغيرهم، فإن المصريين كانوا قد عرفوا الإتصال المباشر مع تلك المناطق و لو لم يكن بصفة منتظمة، خصوصا و أن سفنهم كانت قادرة على الإبحار لمسافات طويلة في المياه دون توقف و كذا مقاومة الأمواج لأن تصميمها كان يسمح لها بذلك، هذا إذا تكلمنا عن دور السفينة في الملاحة التجارية ، ضف إلى ذلك أن النموذج المصغر لمراكب الملكة " حتشبسوت " الذي صنع و أجريت عليه تجارب لإختبار مدى مقاومته للأمواج ، أثبت مما لا يدعو مجالا للشك أن تقنية مصر الفرعونية في صناعة السفن التجارية لأعالي البحار كانت فاعليتها لا جدال فيها (*).

المطلب الرابع: المساحلة

من أساليب تفادي أخطار الملاحة البحرية هو السير بمحاذاة الساحل أو المساحلة (le cabotage)، الذي ظل الأسلوب المشترك للتجارة البحرية من قبل شعوب العالم القديم، والتي كانت تمارس في أفضل أوقات السنة، خلال جو هادئ ورياح ملائمة (1685). ويقول " محمد السيد غلاب": « الملاحة القديمة كانت ساحلية لم يُخاطر بقطع البحر طولا أو عرضا وكان الملاح القديم يأوي إلى الشاطئ إذا جنى الليل ، والحوض الشرقي للمتوسط كثير الجزر لا تكاد اليابسة تغيب عن عين الملاح في الجو الصحو ، ففيه ينتقل من رأس إلى رأس ومن جزيرة إلى أخرى حتى يصل إلى مبتغاه» (1686).

ولم تكن المساحلة سيدة البحر المتوسط بل إننا نجد العرب كانوا يبحرون إلى الهند بمحاذاة الشواطئ العربية وشواطئ بلاد فارس إلى غاية الوصول إلى الهند ولم يكونوا يغامرون في عرض المحيط الهندي. ومثلهم

(1682) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, pp. 277- 278 .

(1683) - قصص و روايات مصرية ، ص. 80.

(1684) - G. Dykmans , Op-Cit , t.2 , p. 278.

(*) - لمزيد من التوضيح حول هذه المسألة الرجوع إلى دراسة قام بها "André Gil – Artagnan" ، بعنوان : "Retrouver le pays de"

Pount " ، و التي نشرت في دورية "Archéologia" ، العدد 188 ، سنة 1984 .

(1685) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2, p. 245.

(1686) - محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ، ص. 39 .

نجد الفينيقيين الذين كان طريقهم دائما المساحلة في البحر و لا يبتعدون عن شواطئه حتى لا يقفوا فريسة للأمواج العاتية وقد إقترنت المساحلة بالسير نهارا وليس ليلا لأنها كانت تسمح لهم بالتوقف مساء وقضاء الليل عند الشاطئ ومواصلة الرحلة في اليوم التالي (1687). ولم يشذ المصريون عن هذه القاعدة ، لأنه لا يبدو أنهم كانوا يتجرون على الإبتعاد عن رؤية الشاطئ فكانوا يسيرون بمحاذاة الساحل خلال ساعات النهار و يتوقفون كل مساء لينطلقوا في الغد صباحا ، والسبب في ذلك أن مراكبهم لم تكن تستطيع الإرتفاع بسهولة عند هبوب الرياح القوية كما أن الأشعة التي كانت تسير بها ليست ملائمة إلا عند هبوب رياح خلفية ، وكل ذلك يجعل من الإبحار في عرض البحر أمرا خطيرا (1688)، لذلك كان المصريون يبحرون بمحاذاة شواطئ البحر المتوسط مروراً بشواطئ أرض كنعان، في إتجاه الموانئ الفينيقية (1689) ، فكان الطريق من مصر إلى الساحل الفينيقي ترافقه دائما رؤية اليابسة. إن السير بمحاذاة الساحل هي نفس الطريقة التي إتبعها المصريون في البحر الأحمر ، حيث كانوا يذهبون إلى بلاد " بونت " بواسطة السفن متخذين الإبحار قرب السواحل، وكان إبحارهم فيه نهارا ، وكانت الرحلة الواحدة تدوم عدة أيام.

هذا هو التصور المتداول عن طريقة إبحار المصريين أثناء رحلاتهم التجارية و التي يرى الكثيرون أنه نتج عنها ، خصوصا على مستوى البحر الأحمر ، علاقات إلزامية مع أصحاب الأرض و أناس البحر ، بفضل الرسو ليلا في محطات معينة. إلا أنه لا يعرف عنها الكثير في ظل غياب الأبحاث الأثرية على سواحل البحر الأحمر، و المؤكد أن هناك محطة كبيرة في منطقة " أدوليس " في إريتريا ، من أجل التجارة مع داخل إثيوبيا ، وهي تعد من أهم إسكالات هذا البحر (1690).

و ختاماً لهذا الموضوع وددت الإشارة إلى ما لفت إنتباهي من أن المصريين و كما بدى لي لم يكونوا يبحرون نهارا فقط، بل عرفوا أيضا الإبحار ليلا. و إن لم تكن المعلومات التي إستخرجتها من وثائق الدراسة تتكلم عن هذه المسألة، إلا أنني قرأت دراسة تناولت آثارا بحرية تعود لسفن رومانية من بينها جرار كانت تستعمل للإضاءة، وهي تدل على إبحارهم في الليل، وذكرت نفس الدراسة أن ذلك لم يتميز به هذا الشعب، لأن الرسوم المصرية الملاحية والبحرية تحديدا تكشف عن مثل تلك الجرار. وبالفعل فإنه بالتدقيق في رسومات بعثة الملك " ساحورع " إلى سواحل شرقي البحر المتوسط يتجلى عند مقدمة السفينة رسم لجرة أستعملت كمصباح إضاءة ، وهو دليل على أنهم كانوا يبحرون ليلا. كما يحتمل حسب ما إستخلصته مما جاء في كل الدراسة أن إبحارهم هذا كان أمرا متكررا في البحر الأحمر، والحجج في ذلك كما أراها تتمثل في وجود صور المصاييح، وطول المسافة في البحر الأحمر، وعدم وجود أماكن عديدة و على مسافات متقاربة صالحة للرسو، وبالتالي كان ذلك دافعا إلى مواصلة الإبحار ليلا، كذلك فإن طول المسافة في حد ذاته كان يجبرهم على عدم التوقف كل ليلة. ومن الممكن أن الإبحار بالليل كان يحدث أثناء قطع المسافات المباشرة بين مصر وجزر البحر المتوسط، لأنه يكون بصفة متواصلة لأيام. وعليه و إن لم يكن المصريون قد أبحروا الليل مع النهار بصفة مستمرة في البحر الأحمر فإن ذلك على الأرجح كان يحدث في ليال محددة وليال أخرى يتوقفون فيها عن الإبحار و ذلك متى وجدوا المكان المناسب للتوقف. وأخلص إلى القول، فإنه إذا كانت دوافع المساحلة هو التوقف ليلا عن الإبحار، فلا يبدو أن ذلك كان قاعدة مطلقة، بل كانت هناك إستثناءات تحتم على البحارة المسير ليلا. ورغم كل ذلك فإن الإبحار ليلا خلال العصر الفرعوني بحاجة إلى تدقيق أكبر و دراسة أعمق.

المطلب الخامس: حماية البعثات التجارية البحرية

فيما يتعلق بحماية البعثات التجارية البحرية، أجد أن مصر قد فعلت الكثير في ذلك وقبل أن أعطي نماذج حية من خلال الآثار المادية والكتابية، فمن الضروري القول بأن هذه الحماية تمتد جذورها في نهر النيل، الذي خصصت له شرطة خاصة عرفت بإسم الشرطة النهرية، ويتمثل عملها في حراسة السفن (1691). إن نظام حماية السفن هذا إمتد و توسع ليشمل سفن أعالي البحار فماذا كانت تحمل هذه السفن ضمن حاشيتها؟ هذه المراكب لم تكن تحمل فقط لوازم البحارة ، لكن أيضا رجال السلاح، و تعطينا الآثار المصرية دلالة واضحة عن ذلك ، فمن خلال منظر نفذ على معبد الملك "ساحورع" يمثل سفنا مصرية عائدة من بعثة تجارية من هناك ، ورغم أنه كان على متن سفن ذلك الأسطول آسيويون يحملون أسلحة إلا أن ذلك فسر بأنها تحية للملك الذي كان في إستقبالهم، وغيرها من التفاسير التي قدمت حول ذلك المشهد، وأنا أرى أن هؤلاء الذين يحملون

(1687) - أنور الرفاعي و شاكر مصطفى ، معالم الحضارات ...، المرجع السابق ، ص. 46 ، 105.

(1688) - V. Bérard , Op-Cit , pp. 110 -111.

(1689) - C. Lalouette , Thébès..., Op-Cit , p. 70.

(1690) - A. Gaudio , Op-Cit , p. 153.

(1691) - محمد بيومي مهران ، الحضارة المصرية...، المرجع السابق ، ص. 186 .

الأسلحة هم فرق حماية البعثة وهم مهللين بعودتهم سالمين، خصوصا وأننا نعلم بأن المصريين كانوا يستخدمون القبائل البدوية المجاورة لهم سواء في سيناء أو في الصحراء الشرقية، أو حتى في الجنوب للإستفادة منها في حماية قوافلهم التجارية وتأمين طرقهم البرية، فلا يستبعد بأن يكونوا قد إستخدموهم أيضا في رحلاتهم البحرية . ويرى البعض بأن الفرق العسكرية المصرية ومنذ زمن " ساحورع"، كانت تنزل في الساحل السوري ، وكان الجندي المكمل الضروري للتاجر، أو أن كل بحار كان في نفس الوقت جنديا ، وهو مستعد لطلب المنتوجات الأجنبية بالقوة في حالة رفض تسليمها بالطريقة السلمية(1692). يبدو أن " ديكمانس" قد بالغ كثيرا في تفسيره هذا ، لأنه لم يثبت تاريخيا وأن أخذت مصر بالقوة ما تحتاجه من عالمها الخارجي، على الأقل خلال هذه المرحلة الأولى من العصر الفرعوني خصوصا مع الساحل الفينيقي، وهو ما تشهد عليه الهدايا المتبادلة بين الطرفين والتي تعبّر على العلاقة السلمية وحسن الجوار ، وكل ما هنالك أن الأمر يتعلق بنظام حماية تقتضيه ضرورة المصلحة التجارية .

لذلك يرى عديد المؤرخين بأن المراكب التي مثلت في معبد "ساحورع" كانت تحمل ليس فقط لوازم البحارة، لكن أيضا مجموعة من الجنود المكلفين بحماية البعثة من الإعتداءات المحتملة من قبل الشعوب السورية أو بكل بساطة لإظهار الهيبة. فهذه التمثيلات تعطينا فكرة عن مثل هذه الفرق المكونة من جيش وضباط والتي كانت تعطي للعلاقات التجارية هيبة، لأن الملاحين في الدولة القديمة كانوا تجارا ومغامرين، و كانوا يحملون معهم المؤونة من السلاح والعتاد، وذلك من خلال سير المراكب المصرية التجارية في هذا البحر محمية بفرق عسكرية. وهناك دليل آخر يعود إلى زمن الدولة الوسطى يثبت أن الشبان المجندين مثلما ورد في مقصورة " وادي جواسيس" كان عددهم معتبرا وبلغ 400، ولو أن هذا الرقم يبدو أنه العدد الإجمالي لحاشية مراكب البعثة. ومعلوم أن مصر لم يكن لها أية نشاطات عسكرية باتجاه " بونت" وكل ما هنالك أن هذه الأعداد من الجنود كانت بغرض الحماية لا غير. وهكذا لم تقتصر حماية البعثات التجارية البحرية على البحر المتوسط بل نجد نفس العمل يقوم به المصريون في البحر الأحمر، فبعثة "سنوسرت الأول" إلى "بونت" كانت ترافقها حملة عسكرية وهذا ما يستخلص من تكرار كلمة " نفرو" والتي تعني " المجندين الشبان" على أن البعثة التي ذكرتها مقصورة " عنخو" الموجودة في " وادي جواسيس" كانت برفقة حملة عسكرية يبدو أنها كانت كبيرة على إعتبار العدد الذي أشير إليه، خصوصا إذا علمنا بأن الملاح في هذا البحر كانت جد صعبة (1693).

وخلال الدولة الحديثة نجد الملكة "حتشبسوت" بدورها كانت قد سلّحت مراكبها الخمسة بجنود عُدوا من حاشية المركب حيث وردت كتابة مرافقة لمشاهد هذه الرحلة في معبدها بالدير البحري تقول: « جنود سيد الأرضين أوتوا سالمين »(1694)، وهذه الفرقة تتمثل في ثمانية جنود يترأسها ضابط ، وكانوا مسلحين بالفؤوس ، والرماح ، والحراب (1695).

هناك سؤال يطرح نفسه حول موضوع حماية السفن التجارية بعدد من الجنود ، هل هؤلاء الجنود كانوا هم أنفسهم حاشية المركب من قائد وربان وغيرهم ، أم هم فرق خاصة مسلحة مهمتها فقط الحماية ؟ . على العموم فإن للجيش دور مهم في البعثات التجارية ، حيث كانت الحاشية العسكرية للسفن التجارية التي كانت تبحر سواء في البحر المتوسط أو في البحر الأحمر، توفر الأمن والحماية للمبادلات التجارية . إن هذه الرحلات نحو السواحل السورية ونحو بلاد " بونت " كانت تعد ضربا من ضروب المغامرة فكان لا بد من وجود جنود ملازمين للبعثات ، وبذلك أصبح الجندي المكمل الضروري للتاجر . هل ظلت حماية الملاحية التجارية تقتصر على وجود حاشية عسكرية في المراكب طيلة العصر الفرعوني أم حدث تطورا في حماية البعثات التجارية البحرية ؟ .

إن الأحداث التاريخية والآثار المصرية توضح أن مصر لم تكن في تاريخها دولة حربية على الأقل إلى غاية الدولة الوسطى، وبالتالي فإنه لم يكن لها أسطولا حربيًا وكانت حماية الرحلات البحرية إلى ذلك الوقت تقتصر على وجود فرقة صغيرة ضمن حاشية المراكب، إلا أن الأمر تغير وأصبح هناك أسطولا حربيًا قائما بذاته ، كان له دور هام في حماية التجارة البحرية.

وإذا نظرنا إلى النظام الكريتي لحماية السفن التجارية، فإننا نجد السفن المستعملة لأجل تصريف البضائع وجلب المعادن لم تستطع توفير الحماية اللازمة في وجه الهجمات المفاجئة للقراصنة، لذلك فإنه وجد نوع آخر

(1692) - G. Dykmans , Op-Cit , t. 2 , p. 266 .

(1693) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص ص. 100 - 101.

(1694) - A. Gil-Artagnan , retrouver le pays de Pount , Op-Cit , p. 40 .

(1695) - C. Lalouette , Thébès ... , Op-Cit , p. 251.

من المراكب المسلحة لتشكّل فرقا حربية بحرية⁽¹⁶⁹⁶⁾، فهل مصر تفتنت لمثل هذا خصوصا وأن خطر القراصنة بدأ يزداد منذ الألفية الثانية ؟ .

إن الأمر مجهول بالنسبة للدولة الوسطى حول وجود أسطول حربي، حيث أنه لا يبدو أن السفن المرسلة إلى " بونت " كانت سفن حرب⁽¹⁶⁹⁷⁾، ويبدو أن مصر قد توصلت إلى تحقيق ذلك فيما بعد، وهو ما تمدنا به أمثلة تعود إلى الدولة الحديثة ومابعدھا، حيث تعزّز الأسطول التجاري في الدولة الحديثة بحربية و لو أنه في بدايتها من الأصح تسميتها قوة ملاحية، و التي تحولت و أصبحت نواة لبحرية حربية . و يبدو أن تغيرا مهما حدث في إبراز قوة ومهابة الدولة، فأصبح للقوة الحربية دور هام في المبادلات التجارية. ويُعزى للملك " تحمو تمس الثالث " إنشاء قوة بحرية حربية لأنه أدرك بأن ذلك يوفر له تواجدا في البحر المتوسط ويسهل الإتصال بالمدن الساحلية السورية ويؤمن لها الطرق البحرية⁽¹⁶⁹⁸⁾، ويفهم من هذه القوة الحربية البحرية تقاوم خطر القراصنة، إذ أن الفرق البسيطة في المراكب التجارية لم تعد قادرة على توفير الحماية للبعثات البحرية فكان لزاما وجود أسطول خاص للحماية، وأستخلص أيضا بأن البحرية التجارية هي التي أوجدت البحرية العسكرية .

وبما أن مصر كانت تنقصها الخبرة في هذا المجال (البحرية العسكرية) في حين تفوق غيرها في ذلك ، فإن " تحوتمس الثالث " خلال القرن الخامس عشر نجده قد إستدعى الأساطيل الإيجية والفينيقية وخاصة منهما أساطيل " الصيدوايين " (سكان صيدا) الذين كانوا يعتبرون آنذاك كنخبة لشعوب البحر وكان أسطوله الحربي يضم وحدات مختلفة⁽¹⁶⁹⁹⁾، ولقد عد " تحوتمس الثالث " المنظم الحقيقي للبحرية المصرية، فكانت معسكراته في آسيا تجبره على إمتلاك أسطول لضمان الحماية للسواحل ونقل جيشه لأنه بدون شك كان قد أدرك خطورة غزوات شعوب البحر⁽¹⁷⁰⁰⁾.

ورغم تقاوم خطر القراصنة إلا أن التجارة لم تتوقف، فقد قام الملك " رمسيس الثاني " لدرء خطر القراصنة، بتوكيل مهمة حماية المراكب التجارية لفرق من نبالين (رماة السهام) خصصت لهم مراكب خاصة ، و فرض بذلك إحترام المبعوثين وحمايتهم من القراصنة⁽¹⁷⁰¹⁾. و يبدو أن الأسطول الحربي المصري كان قد خاض حروبا من أجل إبعاد خطر القراصنة عن البعثات التجارية وتأمين طرقها البحرية ، فمن خلال الكتابات المنقوشة على معبد هذا الملك في مدينة " حابو " ، يُستشف حدوث معارك حربية منها معركة دارت على ساحل البحر المتوسط عند مصب النيل، حيث تجمع الأسطول المصري مشكلا سورا حقيقيا، إذ طوت المراكب أشرعها و أخذ رماة السهام (النبالين) و رماة المقاليع (frondeurs) مكانهم على سطح المراكب ، بينما في المقدمة يقف المحاربون المسلحون بهراوات وبحراب⁽¹⁷⁰²⁾.

كما أن البعثات في البحر الأحمر أصبحت ترافقها الأساطيل الحربية ، فأسطول " رمسيس الثالث " إلى " بونت " يشتمل على كثير من المراكب الكبيرة ومراكب الحماية، أما الحاشية فكانت تتكون من البحارة ورماة السهام مع قادتهم⁽¹⁷⁰³⁾. وبالطبع كان " رمسيس الثالث " آخر الفراعنة الكبار لمصر، حيث سلح أسطول الحرب، ويصور لنا عصره معركة حربية دارت سنة 1200 ق.م⁽¹⁷⁰⁴⁾، وأصبحت شواطئ البحر المتوسط بها حاميات والذي ذكرها سترابون في قوله : « بأمهرم [الملوك المصريين] وضعت حامية للحراسة في هذه النقطة من الشاطئ، والمقصود هو ميناء فاروس بالإسكندرية، مهمتها إبعاد أية محاولة إنزال على شواطئ مصر بالقوة [من قبل القراصنة] »⁽¹⁷⁰⁵⁾.

وخلال العصر الأسفل نجد الملك " نخاو الثاني " قد أنشأ أسطولا حربيا، والذي أراد به إعادة إمبراطورية أسلافه التي كانت على أيام " تحوتمس الثالث"، ويقول عنه هيرودوت : « ولما توقف " نيكوس " عن حفر القناة

(1696) - A. Gaudio , Op-Cit , pp. 27- 28 .

(1697) - G. Rachet , Op-Cit , p. 157 .

(1698) - محمد بيومي مهران ، الحضارة المصرية...، المرجع السابق ، ص. 223 .

(1699) - V. Bérard , Op-Cit , p. 192 .

(1700) - G. Rachet , Op-Cit , p. 157 .

(1701) - P. Montet , Op-Cit , p. 180 .

(1702) - G. Rachet , Op-Cit , p.158 .

(1703) - P. Montet , Op-Cit , p.185 .

(1704) - E. Angelucci et autres , Op-Cit , p. 21 .

(1705) - Strabon , XVII , chap I , 6 .

، وجه إهتمامه نحو الخدمة العسكرية، فبنى سفنا ذوات ثلاثة صفوف من المجاديف، بعضها للبحر الشمالي، وبعضها الآخر في الخليج العربي و بحر أورترى [البحر الأحمر] ، ومازال من الممكن، حتى الآن رؤية الأماكن التي كانت تحفظ بها. وكانت هذه السفن تُستخدم وقت الحاجة» (1706)، وكان الفرق بين المراكب الحربية المصرية ومراكب الأعداء أن الأولى لديها مقدمة مزينة برأس أسد، بينما في مراكب أعدائهم نجد النهايتين منتصبتين بعنق البجعه (1707).

والبعض يرى بأن مثل هذه السفن ذات الصفوف الثلاثة من المجاديف كانت مخصصة لمطاردة القرصنة في " باب المنذب" وفي خليج عدن وذلك لحماية التجارة مع سواحل الصومال (1708). هكذا يكون المصريون كما يذكر " دوماس" قد أمّنوا منذ زمن مبكر الطرق لبعثاتهم التجارية البحرية وكانت مراكبهم تقنع نحو لبنان وساحل البحر الأحمر قبل أن تتردد مراكب الفينيقيين أو الإغريق على نفس المناطق (1709)، ورغم كل المخاطر خاصة في البحر الأحمر التي كانت تؤدي بغرق العديد من السفن إلا أن ذلك لم يحد من جراءة الملاحين المصريين، وكما عبر عن ذلك "بيرار" بصورة رائعة حين قال « ماذا تمثل الخشية من الموت أمام إغراء الثروات» (1710).

ويُضح أنّ موضوع الأمن ضرورة ملازمة للتجارة وتوفّره شرط أساسي في قيام المعاملات التجارية والتوسّع التجاري، إلّا أنّ هذه الأهمية يصوّرها الكثير من المؤرخين على أنّها ترتبط بالإغريق في مصر، فهذا الباحث " فودمييه" (Jean Gaudemet) يربط نهضة التجارة في مصر بالعصر الصاوي نتيجة لتوفر الأمن الذي رافق زيارة التجار الإغريق إلى الدلتا وإنشائهم لمؤسساتهم التجارية هناك والتي كانت يحميها أنفارهم العسكريين (1711). وهذا يُعدّ بالأمر المجحف في حق المصريين وتجاهل المنظومة الأمنية التي بذل المصريون قصارى جهدهم من أجل إقامتها لتحفظ الأمن والسلامة لتجارتهم وتساهم في قوتها وإزدهارها، وهي وسائل كاملة متكاملة تعمل كلّها لتحقيق هدف واحد أدركوا أنّ بدونه لا تتحقّق التجارة ألا وهو الأمن. فالوسائل التي أتيت على ذكرها تؤكّد دون أدنى شك بأنّ المصريين فعلوا الكثير في هذا الميدان، وهم بذلك يحضون المقولة التي تنفي عن المصريين جهودهم في تأمين التجارة ومسالكها وتنسب كل الجهود إلى الإغريق.

(1706) - هيرودوت ، فقرة 159 .

(1707) - G. Rachet , Op-Cit , p. 158.

(1708) - M. Mollat du Jourdin et J. Desanges , les routes millénaires, Op-Cit , p. 99.

(1709) - F. Daumas , Op-Cit , p. 23.

(1710) - V. Bérard , Op-Cit , p. 114.

(1711) - J. Gaudemet , institutions de l'Antiquité , Op-Cit , p. 74.

الفصل الثامن: دور التجارة في إيصال التأثيرات الحضارية

بذلت مصر جهودا كبيرة من أجل حماية تجارتها المترامية الأطراف عبر النهر والبر والبحر، لأنها أدركت بكل بساطة أهمية التجارة بداخل البلاد، وفي مجال إرتباطها بمحيطها الخارجي. فما طبيعة العلاقة بين التجارة والحضارة؟، ما هي إنعكاسات التجارة الإيجابية على الحضارة المصرية؟، فيما تتمثل مظاهر التأثيرات الحضارية التي كانت تنقلها التجارة من وإلى مصر؟.

المبحث الأول: إرتباط التجارة بإنتشار الحضارة

تعد التجارة من أهم المواضيع التي لا بد من أن تدرس بعناية كبيرة لما تلعبه من دور بارز في حياة الشعوب القديمة حيث أنها تعد « أهم وسيلة لنقل الحضارة من بلد إلى آخر » هذا ما يراه "محمد الخطيب" (1712)، أما عن دور التجارة في التفاعل الحضاري فيقول " شحادة الناطور " : « لعبت التجارة والرحلات التجارية دورا بارزا في تحقيق التفاعل الحضاري وتسهيل عملية الإتصال بين الحضارات المختلفة قديما وحديثا، بل يمكن القول أنه كلما كانت التجارة مزدهرة ونشطة بين حضارتين أو مجتمعين كانت عامل إتصال وربما وسيلة الإتصال الوحيدة بين المجتمعات المختلفة. وربما نستطيع الجزم بأن التجارة في القديم كانت العامل الأكثر أهمية في الإتصال والتفاعل الحضاري » (1713).

تجلت أهمية التجارة هاته ودورها الحضاري لدى كل الشعوب القديمة التي تميزت كقوى تجارية مهمة، فتجارة العرب مثلا كانت الرابط الأول بين مراكز الحضارة العربية فيما بينها من جهة، ومن جهة أخرى بين هاته المراكز والمناطق الأخرى. لأن العلاقات التجارية تنقل الثقافة، فالقوافل التجارية لبلاد العرب التي كانت توزع البضائع شمالا و شرقا و غربا و جنوبا، كان يرافقها في نفس الوقت إنتقال الأفكار، المعتقدات، الآلهة، اللهجات و اللغات، التي كان الأشخاص يحملونها معهم في تحركاتهم تلك (1714)، فأقدم الحضارات التي قامت في العالم كان موطنها الشرق الأدنى و إتصالاتها الحضارية كانت تتم عن طريق التجارة لا غير (1715) ، كما أن الإغريق في نشاطاتهم التجارية، كما يقال، كانت لهم إتصالات مع حضارات الشرق الأدنى ومصر، وهذه الإتصالات، كانت ملائمة للتنقلات الثقافية والاجتماعية (1716).

و على حد تعبير البعض فإن العلاقات التجارية التي حدثت عند بداية الألف الثانية ، سرّعت من تطور الحضارة في كل من الحوض الشرقي للمتوسط ، اليونان، و مسينا ، وغيرها ، وكانت التجارة محور إنجذابها، و في نفس الوقت القناة التي عبرها إنتقل جزء كبير من الإرث الثقافي للشرق الأدنى إلى تلك المناطق (1717) .

(1712) – محمد الخطيب ، مصر أيام الفراعنة ، المرجع السابق ، ص. 141.

(1713) – شحادة الناطور وآخرون ، مدخل إلى تاريخ الحضارة ، المرجع السابق ، ص. 95.

(1714) – J. Chelhod , le traditionnel et l'acquis dans l'activité mercantile..., Op-Cit , p.78.

(1715) – أحمد فخري ، بين آثار العالم العربي ، المرجع السابق ، ص. 15 .

(1716) - J. Haywood , les civilisations antiques ..., Op-Cit , p.124.

(1717) – W. Culican , le levant et la mer..., Op-Cit , p.9.

كما كان التجار الفينيقيون روادا في إنتشار الحضارة ليس فقط لحضارتهم بل أيضا لحضارات شعوب مختلفة، فكما كانوا وسطاء في نقل السلع من منطقة إلى أخرى فإنهم كانوا يحملون رفقتهم مختلف مظاهر الحضارات من أفكار وديانة وصناعة، و بذلك فإن الحضارات مهما كان بعد بعضها عن بعض فإن التجارة بإمكانها أن تقرب بينها(1718).

فإن كانت تجارة هؤلاء الشعوب لها إرتباط وثيق بإنتشار الحضارة فإن تجارة مصر لم تستثنى من هذه القاعدة، بل قد لعبت ذلك الدور قبل هؤلاء بزمان طويل ولمدة طويلة على إمتداد العصر الفرعوني، و لو أن موضوع التأثيرات الحضارية تدار حوله جدالات كما يؤكد ذلك " عبد العزيز صالح " بقوله نقلا عن مجموعة من المؤرخين منهم: " هنري فرانكفورت " و " رايموند ويل " : « لا زال مدى تأثير كل حضارة من الحضارات الشرقية في أختها، موضعا لمجادلات تاريخية وأثرية طويلة ولكنها مجادلات لا تنفي إطلاقا عمق صلات هذه الحضارات بعضها ببعض منذ فجر تاريخها البعيد»(1719).

هذا الأمر نجده على وجه الخصوص فيما يتعلق بمصر، فكما دارت إشكاليات كبيرة حول تجارتها خلال العصر الفرعوني فإن الآراء قد تضاربت بين ناف ومؤيد بخصوص مسألة التأثيرات الحضارية. فالبعض من المؤرخين نفى بأن تكون مصر قد قامت بالدور الحضاري في مناطق محيطها الخارجي سواء بالتأثير أو التأثير وهذا إنطلاقا من النظرية القائلة بعزلة مصر، وأن حضارتها تطورت بمعزل عن أي تأثير خارجي.

أورد "محمد الخطيب" وصف "توينبي" للحضارة المصرية بأنها « لا تتصل بما قبلها (Egyptiac) ولم تكن وليدة غيرها (Unrelated)، وكان لها القدرة على هضم المؤثرات الخارجية أو لفظها للإحتفاظ بشخصيتها الحضارية »(1720). و يذهب الكثير في هذا المنحى مستندين على أن المصريين لم ينقلوا إلا حصة ضعيفة من العناصر المهمة من ثقافتهم إلى الشعوب المجاورة(1721).

و في المقابل أجد من يدافع عن أهمية تجارة مصر في نقل حضارتها إلى أبعد المناطق حيث يرى "ديكمانس" بأن أطروحة التأثير الحضاري تدافع عن نفسها من خلال الترتيب الكرونولوجي فالأواني التي كانت تصنعها مصر منذ بداية التاريخ من النحاس والرخام وجدت نماذجها في حضارة " كريت " المينيوية بعصرها الثاني والثالث أي بعد فترة زمنية عن تواجدها في مصر(1722).

و كما عرفنا من خلال الدراسة فإن مصر قد مارست التجارة منذ عصر ما قبل التاريخ، وبفضل بعثاتها التجارية، التي تواصلت طيلة العصر الفرعوني، و كانت صوب جهات عدّة إلى إفريقيا الوسطى وبلاد "بونت" وآسيا وغيرها من مناطق العالم القديم، نَمى المصريون معرفتهم بالعالم المحيط بهم وبحضارته، فكان من الطبيعي أن يأخذوا منه ويؤثروا فيه وبالتالي فلم تكن مصر منعزلة عن عالمها، فهي في ذلك لم تمد

(1718) – أنور الرفاعي وشاكر مصطفى ، معالم الحضارات...، المرجع السابق ، ص. 49.

(1719) - عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم...، المرجع السابق ، ص. 14.

(1720) - محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص11.

(1721) - J.A. Wilson, l'Egypte..., Op-Cit , p. 20.

(1722) - G. Dykmans , histoire économique..., Op-Cit , t. 2, p. 272.

سيطرتها السياسية والحربية، بل كانت لها سيادة تجارية على المناطق المحيطة بها في البر والبحر، أي إمتداد تجاري وقوة إقتصادية لا حربية. وقد عبّر عن ذلك " الرافعي " في قوله : « كانت تتمتع بثروة باذخة وتميزت بعز كبير في كل أرجائها خلال الدول الحديثة لحد لم تصله مصر في أي عصر آخر وكانت عاصمتها "طيبة" تعد مركز التمدن العالمي آنذاك وآثارها منتصبة تدهش العالم بشموخها »(1723).

و لم تكن مصر كذلك خلال ذلك الزمن فقط ، بل أن في كل عصورها القوية كانت سياستها سلمية، ولم تستخدم القوة إلا عند الضرورة لحماية التجارة ، و وصلت هذه العلاقات السلمية التجارية إلى مناطق أبعد مثل العراق وبحر إيجا، و نتيجة لهذه الصلات التجارية تولدت تأثيرات حضارية.

من جهة أخرى إمتازت الحضارة المصرية عن باقي حضارات العالم بأنها حضارة متصلة الحلقات ، إذ يمكن للدارس أن يتبع تطورها منذ عصور ما قبل التاريخ في مختلف جوانبها هذا من جهة، ومن جهة أخرى يساعد ذلك على معرفة التأثيرات الحضارية في الشعوب الأخرى وتأثير هذه الأخيرة على مصر.

فالتجارة لها دور كبير في نقل الحضارة لأن المبادلات التجارية والإتصالات بين مصر والحضارات الأخرى في العالم القديم خاصة الشرق الأدنى ، رافقها تنقل مؤثرات حضارية إلى مصر، وفي نفس الوقت تزامن مع ذلك إنتشار الحضارة المصرية خاصة في بلاد النوبة والشام وجزر البحر المتوسط. و ساهم في ذلك بشكل خاص الرحلات التي قادتهم إلى عديد المناطق، و التي تولد عنها نشر لثقافتهم بين الشعوب التي ظل بعضها يعيش حضارة العصر الحجري، ونشرت فيهم الكثير من مميزات حضارتها منها: التحنيط وفن الزراعة، وبناء القصور وتشبيد المعابد(1724).

إن كثرة الإتصالات و إنتشار البضائع عن طريق التجارة يسمح للشعوب أن تتلاقى و تجتمع و تتعارف على ثقافات بعضها، فالسلع المتبادلة لم تكن تنتقل لوحدها بل كانت تحمل معها الأفكار، الروايات، الأساطير، التفكير، وهكذا يحدث تبادل وتلاقح حضاري، لأن البحارة وأصحاب القوافل يعتبرون في العالم القديم ناقلين للفكر(1725). إن العلاقة الوثيقة بين تبادل السلع والتأثير الحضاري تتبع القاعدة التي مفادها أنه كلما إزداد تقارب البلدان بزيادة التجارة بينها، إزدادت أيضا عوامل الإمتزاج بين الشعوب والحضارات في كافة المجالات(1726).

كما كان للتجارة المصرية دور جد هام في هذا المجال فإليها يرجع الفضل في إيجاد صلات حضارية بين شعوب البحر الأحمر، أي بين مصر الفرعونية و شعوب هذا البحر، وبين هذه الأخيرة فيما بينها(1727). لدرجة أنه قيل أن المناطق الأكثر تأثرا بالحضارة المصرية هي الجزيرة العربية وشرق إفريقيا، والسبب يعود لكون هاتين المنطقتين إتصل بهما المصريون في فترات جد قديمة لأجل إحضار السلع المتمثلة في « الأفالوية

(1723) - عبد الرحمان الرافعي ، تاريخ الحركة القومية...، المرجع السابق ، ص. 86.

(1724) - سلامة موسى ، مصر أصل الحضارة ، المرجع السابق ، ص. 67.

(1725) - C. Lalouette , l'empire des Ramsès , Op-Cit , p. 158.

(1726) - محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص. 142.

(1727) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الأحمر...، المرجع السابق ، ص. 80.

و العلوك التي تمضغ و تحرق بخورا و سائر الطيوب التي يحتاج إليها الكهنة في التحنيط و العبادة . و كانت مكانة هاتين المنطقتين في نظر المصريين عالية بل أنهم كانوا يقدسونها «(1728)» .

على كل فإن التأثيرات المصرية وجدت في كل منطقة جرى فيها إتصال بينها وبين مصر خاصة عن طريق الإتصالات التجارية التي كانت ترافقها إتصالات سياسية وغيرها في كل من آسيا الصغرى وبلاد اليونان وكريت والشواطئ السورية ولدى شعوب جنوب فلسطين، و أيضا جنوب مصر حيث أن الطريق المتمثل خاصة في وادي النيل ظل مفتوحا على طول مراحل تاريخها ، و الذي كان يمثل شريان التجارة الهام لمصر مع الجنوب ، و عبره كانت تنتقل المؤثرات الحضارية مع إنتقال بعض الصناعات المصرية و أفكار و معتقدات و غيرهما مما إمتازت به الحضارة المصرية و تفوقت به عن حضارة أرض النوبة و السودان. كما ساهمت التجارة مع بلاد الشام في إيجاد إتصالات حضارية في كل من أرض كنعان و الساحل السوري، و إنتقال حضارة هاته المناطق إلى مصر، أي أن التبادل مع هذه المناطق كان مهما في الإلتجاهين(1729).

و هكذا لم تكن مصر منغلقة عن نفسها ولم تتلق تأثيرات خارجية، لأن الشواهد التاريخية تثبت بأن ثقافة مدن الدلتا كانت تتطور في إطار مزيج بين ثقافتين مصر و فلسطين منذ عصور قديمة وتواصل ذلك المزيج في فترات لاحقة (1730) ، فكما تقبلت مصر منتوجات غيرها فإنها تقبلت أفكار الشعوب المحيطة بها.

و عن أثر مصر في حضارات العالم القديم قيل: « أثرت في الحضارات التي قامت من حولها تأثيرا أفقيا وعموديا بمعنى أنها أثرت في الحضارات المعاصرة لها، كما تابعت التأثير خلال الزمن في تلك الحضارات »(1731). هذا الرأي ينطلق من وجود بعض من مظاهر الحضارة المصرية في مناطق بعيدة جدا من العالم القديم مثل القارة الأمريكية، التي عرفت شعوبها القديمة "الحنيط" وذلك راجع لكون المصريين في سعيهم للحصول على الثراء بجمع كنوز من الذهب والجواهر، طافوا مناطق عدة من العالم مما جعلهم رواد الإكتشاف في ذلك العصر، وبالتالي كان ذلك سببا في ذيع شهرتهم و الإنبهار بحضارتهم(1732).

و لو أن المظاهر الحضارية المتطابقة مع الحضارة المصرية هي عديدة و وجدت في عدة مناطق بعيدة إلا أن ذلك لم يمنع المؤرخين من طرح عدة تساؤلات، و لا أريد هنا الخوض في هذا المجال لأنه يعد لوحده موضوعا قائما بذاته، لكنني فقط أردت أن أعطي فكرة عن مدى إرتباط التجارة بالتأثيرات الحضارية و كنموذج لها تجارة مصر ، وبالتالي الإقتصار على ذكر إطار جغرافي محدود في محيط الجوار المصري.

المبحث الثاني: دور التجارة في ثراء الحضارة المصرية

(1728) - سلامة موسى ، المرجع السابق ، ص. 148.

(1729) - شحادة الناظور وآخرون ، المرجع السابق ، ص 75.

(1730) - B. Manley , Atlas historique..., Op-Cit , p. 48.

(1731) - أنو الرفاعي و شاكر مصطفى ، المرجع السابق ، ص. 33.

(1732) - سلامة موسى ، المرجع السابق ، ص. 33.

ومهما قيل عن مجال التأثيرات الحضارية بين مصر وشعوب العالم القديم، فالأكيد أن هناك إرتباط وثيق بين التجارة وإنتشار الحضارة، وقبل أن يكون لها هذا الدور، فقد لعبت التجارة دورا مهما في ثراء مصر وحضارتها، ففيما تتمثل أوجه هذا الثراء؟.

المطلب الأول: أثر الإزدهار التجاري في ثراء ملوك مصر

كانت أثمن مواد ومنتجات العالم القديم تجمّع في خزائن مصر: الأخشاب و صموغها ومواد التجميل و غيرها كثير و التي تأتي من سوريا، و من كريت جرار الزيت والخمر، و من سوريا و بابل العبيد، الفضة من قبرص وبلاد الحثيين، كل هذه الأشياء كانت مطلوبة بكثرة بالإضافة إلى الأخشاب الثمينة، العاج، الزرافات، جلود الحيوانات والأقزام الراقصة الآتية من إفريقيا، كما كانت تجمع لدى مصر الخيول والأسلحة وعربات القتال والتي كانت تتزود بها مصر من قبل مختلف الممالك الآسيوية، وغيرها الكثير مما وردت الإشارة إليه في الفصول السابقة، وكل ذلك ساهم في ثراء مصر بنسب متفاوتة لكل منها ضرورة، و وجودها أمر حتمي و كان لا بد من الحصول عليها مهما كلف الثمن، إلا أن الذهب كان على قمة تلك السلع التي ساهمت في ثراء مصر، لدرجة أن تقديس الذهب اعتبر عقيدة فرعونية لم يسبقهم إليها أحد، و بما أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم أبناء الإله "رع" إله الشمس والذي له بريق كبريق الذهب، كانوا يعتقدون أن ذلك السائل هو سر البقاء وإطالة العمر والخلود في الحياة الأخرى.

كانت مصر على حد تعبير الكثيرين مهد حضارة الذهب، لأن المصريين هم أول من أعطى للذهب تلك القداسة وهم أول من قام برحلات الكشف عنه، وأثناء ذلك إنتشرت هذه القداسة إلى أمم ذلك العصر ومن أتى بعدهم (1733). فالمصريون كانوا يعتبرون الذهب هو الثروة و الغنى لذلك سعوا للحصول على أكبر قدر منه لدرجة أنه لم يحدث أن فاقتهم إحدى الأمم في هذا المجال (1734). فثراء مصر هذا كان ذائع الصيت في أرجاء العالم القديم، وكانت هاته المادة مرغوبة من قبل الأجانب.

و كان ملوك مصر أكثر ملوك العالم القديم تفاخرا وتحليا بالذهب وكانت معابد آلهتهم خاصة معبد الإله " آمون " بنكا هائلا للذهب (1735). ولأهمية هذا المعدن في حضارة مصر فإننا نجد عديد التمثيلات تظهر صناعة هذا المعدن وتعطي تفاصيل جد دقيقة عنه (1736). إن هذه الصناعة أعطت تحفا فنية يندesh المرء لرؤيتها ولا يكاد يخلو عصر من عصور ملوك مصر من بقايا لها ولو أن الكثير منها سرق على مر الزمن والذي عثر عليه لا يساوي الثراء الحقيقي الذي كان عليه كل عصر من تلك العصور، ويكفي هنا التطرق إلى أروع إكتشاف بخصوص هذا الموضوع والذي قيل عنه أنه أغنى إكتشاف، والمتمثل في مقبرة الملك " توت عنخ آمون " التي أكتشفت في شهر نوفمبر سنة 1922 من قبل " هوارد كارتر " (1737)، وكم كانت المفاجأة

(1733) - سلامة موسى، المرجع السابق، ص. 45.

(1734) - بلقاسم رحمانى و حروفش مدني، الدور المصري...، المرجع السابق، ص. 15.

(1735) - G. Posener et autres, dictionnaire de la civilisation..., Op-Cit, p. 200.

(1736) - J. Vercoutter, les pistes de l'or..., Op-Cit, p. 21.

(1737) - ن. ي، تاريخ توت عنخ آمون، المرجع السابق، ص. 55.

عند رؤية محتويات المقبرة لأنه لم يحدث أن وجد في علم الآثار أغنى وأثمن منها متجمعة في مكان واحد(1738).

و يجد البعض إكتشاف مقبرة " توت عنخ آمون " في وادي الملوك بمصر العليا إكتشاف إستثنائيا في ميدان علم الآثار لأنها المقبرة الوحيدة لملك من الدولة الحديثة وجدت كنوزها كاملة مع أثاثها والمصنوعات الذهبية(1739). فهذه المقبرة شاهد حي على غنى مصر بالذهب، و قد بلغ عدد قطع كنوزها خمسة آلاف قطعة فنية، وكانت أكبر وأهم قطعة هي تابوت الملك الذي يزن لوحده أكثر من 110 كلغ، ناهيك عن الوزن الذي يتعلق بالأقنعة والتماثيل والحلي والتعاويذ وغيرها، ولم يكن هذا المكان حالة إستثنائية لدفن مثل هذه الكنوز بل إن كل ملوك العصر الفرعوني دفنوا معهم نفس الكتل من هذا المعدن الثمين(1740).

و طرح تابوت " توت عنخ آمون " تساؤلات عن كيفية صب هذا الشكل من المعدن و الذي يزن 110 كلغ من الذهب، كيف ألصقت به الأحجار الكريمة؟، باختصار إن كل ذلك يؤكد مهارة مصرية لا مثيل لها في مجال صناعة الذهب في العصر الفرعوني(1741).

إن هذا الثراء العجيب من الذهب ساهمت فيه بالدرجة الأولى التجارة التي كانت تضمن لمصر حصولها على مثل تلك الكميات الضخمة والتي كانت تأتي من مناطق مختلفة من العالم القديم كما عرفنا ذلك خلال الدراسة، والتي كانت تضاف إلى الكميات التي تحصل عليها مصر من أعمالها المنجمية، لأن تلك الكميات الهائلة لا يمكن أن توفرها هذه المناجم لوحدها، بل أن ذهب العالم كان يصب عند مصر، لدرجة أن علماء الحفريات عند إكتشافهم مقبرة " توت عنخ آمون " أصيبوا بالذهول.

و تعد محتويات مدفن " توت عنخ آمون " دليل على ثراء الطبقة الحاكمة، فهي صورة صادقة عن رخاء مصر و ثرائها « فإذا كان لمثل هذا الشاب الذي لم يحكم أكثر من ست أو سبع سنين في إحدى عصور مصر الضعيفة كل تلك الثروة التي وضعت في مقبرته فكيف يتصور المرء الرياش والأثاث التي وضعت في مقابر الفراعنة الذين عاشوا مدة طويلة في شهرة واسعة مثل "تحوتمس الثالث" الذي شيد أسس الإمبراطورية المصرية في آسيا وإستطاع أن يملك زمام العالم المتمدن وقتئذ، أو الملك "أمنحوتب الثالث" و ما كان له من قوة الملك أثناء حكمه وغيرها من المقابر الواسعة التي دفن فيها " سيتي الأول" و "رمسيس الثاني" « (1742)، و لو زدنا على تلك الكميات ما كان يوجد في مقابر باقي الملوك السابقين واللاحقين فكم ستكون الدهشة، ضف إلى ذلك أن هذا المعدن لم يكن يدفن مع هؤلاء فقط بل كانت كل الحاشية الملكية لها نصيب منه، و لو أن البعض يحصر هذه الثروة و يجعلها حكرا على الملوك والآلهة والتي كانت تنقل مع الملوك إلى الحياة الأخرى .

(1738) - محمد إبراهيم بكر، صفحات مشرقة...، المرجع السابق ، ص 259.

(1739) - H. Stierlin , l'or ... , Op-Cit , p. 21.

(1740) - J. Vercoutter , Op-Cit , p. 25.

(1741) - H. Stierlin , Op-Cit , p. 44.

(1742) - ن. ي ، المرجع السابق ، ص ص. 55-56.

و لإرتباط هذه الثروة بالملوك وديانتهم فإن ورشات صناعة هذا المعدن كان يطلق عليها بالمصرية " حيث نوب" (Het Noub)، و تعني "بيت الذهب" ، و التي كانت توجد في كل المعابد والإقامة الملكية(1743). كما إرتبط هذا المعدن كثيرا بالديانة لأنه يعتبر المعدن الإلهي، فقد كان أساسيا في المجالات الجنائزية حيث كانت تصنع منه أقنعة تغطي بها الوجوه المحنطة(1744) ، كما تصنع منه أيضا تماثيل أبي الهول وموائد القربان والمذابح(1745)، ولم يقتصر استخدام هذا المعدن الثمين على المجالات الدينية بل كانت له قيمة كبيرة لدى الأحياء، فإضافة إلى أنه المادة الأساسية لحلي الملوك والطبقة الحاكمة بما فيها الكهنة، كان له تواجد في مجالات عدة منها أن الملك كان يقلد محاربيه الذين يستحقون ذلك بأوسمة في شكل " ذباب من الذهب" وكان يكافئ وزرائه بعقود من ذهب ثقيلة(1746).

كما كانت الأواني تصنع من هذه المادة و التي كانت تتكسد في المعابد و في القصور ، كما طال إستعماله المجال المعماري حيث كانت الأعمدة والأبواب والجدران توضع عليها صفائح من الذهب ولم يبق منها إلا آثار بسيطة نتيجة لتعرضها للنهب(1747)، فلا يكاد يخلو معلم مهم من هذا المعدن حيث نجد قاعات المعابد بكاملها مغطاة برقائق من الذهب (طلاء من ذهب) كما كانت قمة "المسلات" مغطاة بهذا المعدن وزينت بشكل ورقات من ذهب أحيانا تصل إلى غاية منتصف الإرتفاع، كما كانت بعض الأعمدة ملبسة من القاعدة إلى القمة(1748).

و يذكر "محمد الخطيب" أن معدن الذهب تعددت مجالات استخدامه في قوله: « العروش كانت تغطي بصفائح الذهب، وكذا الزوارق وعربات المراكب والموازين وصواري الأعلام والمظلات و المقاصير»(1749). و على ذكر الزوارق فإننا نجد أنه من الأشياء التي إهتم بها الملك " توت عنخ آمون" هي بناء معابد الآلهة كما بنى لها مراكب خاصة بها من خشب السنط وعمل على طلائه بالذهب فكانت تسير في النيل، وهي ترسل إشعاعات كأنها الشمس المضيئة(1750).

كما كان الفراعنة يجلسون على كراسي عرشهم المغطاة بالذهب والعاج والأبنوس(1751). وتعدى استخدام الذهب إلى طلاء أشياء خشبية أخرى منها: « آلات الطرب، والكراسي، والأسرة، وملاعق الروائح العطرية ورؤوس العصي والدبابيس، وتيجان العواميد من الخشب كانت تزخرف كلها بزخارف بديعة وألوان جميلة زاهية »(1752).

J. Vercoutter , les pistes de l'or... , Op-Cit , p. 25. - (1743)

G. Posener et autres , Op-Cit , p. 199. - (1744)

(1745) - محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص. 140.

G. Posener et autres , Op-Cit , p. 199. - (1746)

(1747) - إليزابيث رايفشتال ، طيبة ...، المرجع السابق ، ص. 79.

J. Vercoutter , les pistes de l'or... , Op-Cit , p. 25. - (1748)

(1749) - محمد الخطيب ، المرجع السابق ، ص. 140.

(1750) - ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 31.

(1751) - إسكندر سامي روفائيل ، التميمية المشطورة ، المرجع السابق ، ص. 17.

(1752) - شكري صادق ، تاريخ الفنون الجميلة ...، المرجع السابق ، ص 190.

و لم يكن ثراء مصر من التجارة يقتصر على الذهب بل هناك معدن آخر إشتهرت به مصر وكان ضمن كنوزها والذي قال عنه هيرودوت: «... قالوا إن راميسينيتوس(*) قد إمتلك من الفضة ثروة طائلة، لم يستطع ملك ممّن خلفوه، فيما بعد، أن يقتني أكثر من هذه الثروة أو أن يدانيه فيها» (1753). وقد عرفنا فيما سبق بأن هذا المعدن كانت تفتقر إليه مصر وكان من أهم واردتها التجارية. وهذه الشهادة التاريخية تثبت بدقة أهمية دور التجارة في إثراء مصر وحضارتها حيث دخل هذا المعدن بدوره في مجالات عدة من الحضارة المصرية.

و لم يقتصر ثراء مصر من التجارة على المعادن الثمينة بل تعداه إلى الأحجار الكريمة، والتي كان لها إرتباط وثيق بهذين المعدنين والتي تعتبر مثلها ثروة جاهزة ومقياسا لثراء الشعوب، لأن الجواهر والأحجار الكريمة تعطي صورة عن إمكانيات الشعوب المادية ومفاهيمها الجمالية، فهي تتناسب طردا مع إمكانيات الشعب الذي يمتلكها، فمن الشعوب التي إرتبط إسمها بالجواهر والأحجار الكريمة نجد بلاد العرب خاصة جنوب الجزيرة العربية وقد بلغ ولعهم بها لدرجة أن إستخدامها تعدى الحلي إلى تزيين منازلهم وقصورهم حيث رصّعوها بمختلف الجواهر، ولقد بلغت شهرة المكلة "بلقيس" ملكة سبأ، العالم القديم لثرائها و حبها الشديد للأحجار الكريمة (1754).

ولم يكن المصريون أقل شأنا من ثراء العرب في هذه المواد، ومما يدل على أن المصريين كانوا يهتمون بالأحجار الكريمة لحد كبير، أن الأميرات كن مولعات بها، حيث أنها كانت مستخدمة بشكل واسع في تيجانهم وقلائدهن وحليهن التي كانت مرصعة بمثل هذه الأحجار و تكاد تغطيها كليا، وكمثال لها ما أكتشف من حلي الملكة "حوتب حورس" زوجة "سنفرو" و التي كانت مرصعة بالأحجار الكريمة بمختلف أنواعها وألوانها خاصة القلائد. أما الملكة "عح حتب" (الأسرة 17) فإن سوارها يعطي صورة عن مدى دقة وإتقان صناعة الأحجار الكريمة حيث كان مغطى بقطع جد دقيقة من اللازورد ملئت بها الفجوات الصغيرة المشكلة له و هو عمل غاية في الدقة (1755).

و من الكنوز المكتشفة في مصر نذكر حلي ذهبية أكتشفت بـ: "دهشور" وتمثلت في ثلاث قلائد، تاجين وأساور وأحزمة وعقود وتختلف في شكل الصناعة من قطعة إلى أخرى وكانت أشهر الأحجار المرصعة بها هي: اللازورد، الفيروز والعقيق في شكل متناسق (1756). ولم يكن التزيين بالحلي والأحجار الكريمة حكرا على الأميرات بل نجد كل الملوك كانوا مولعين بها و كانوا يحرصون على التزيين بمختلف أنواع الحلي. وكانت الأساسية منها تزيين عنق فرعون مصر بقلادة والتي كانت ثقيلة نتيجة للحبات الذهبية والأحجار نصف الكريمة وكان يزين ذراعه سوار ذهبي مرصع أيضا بالأحجار شبه الكريمة متعددة الألوان (1757).

(1753) - هيرودوت، فقرة 120.

(*) - المقصود هو "رمسيس الثالث".

(1754) - بشير زهدي، لمحة عن الأحجار الكريمة...، المرجع السابق، ص ص. 97-98، 103.

(1755) - نفس المرجع، ص ص. 99-100.

(1756) - أنور الرفاعي، تاريخ الحضارات...، المرجع السابق، ص ص. 131-132.

(1757) - بشير زهدي، المرجع السابق، ص. 99.

و أبرز مثال عن الأشياء المرصعة بالأحجار الكريمة هو ذلك الكنز الثمين المتمثل في محتويات مقبرة "توت عنخ آمون"، فيكفي أن تنتظر إلى مقدمة تابوت الملك المصنوع من الذهب المليء بالجواهر الساحرة، فهي أجمل ما حوى هذا الكنز، الذي كلما نظرنا إليه نتمنى أن لا نرفع نظرنا عنه، فكان بحق تحفة فنية تسر الناظر إليها ويندهش لرؤيتها.

و لم يكن التابوت هو الوحيد الذي طعم بالأحجار الكريمة ذات الألوان الزاهية بل طالت كل ما حوى هذا الكنز حتى الصندوق الذي كان يضم حلي ومجوهرات هذا الملك ألبيت بهذه الأحجار. كما تميزت مصر بمميزات خاصة في ميدان الترصيع بالأحجار الكريمة، منها أنه لم يكن الملوك والملكات فقط من كان يتحلى بالأحجار الكريمة بل إننا نجد الحلي التي كان يرتديها اللاهوت كانت بدورها مرصعة بالأحجار الثمينة بمختلف ألوانها، ويقول "سيريل ألدريد": « كانت هناك حلي ومجوهرات خاصة بالآلهة خصوصا بالنسبة لتمثيل الآلهة التي كانت تحفظ بالمقصورات بداخل الحرم المقدس أو قدس الأقداس لكل معبد. وكانت طقوس الخدمة اليومية التي يقوم بها بعض كبار الكهنة، تقتضي قيامهم بتغيير الأردية والثياب التي يرتديها تمثال الإله من حلي ومجوهرات وباقات تزين رقبته وأعلى صدره » (1758). وقد كانت أهم وأكثر الأحجار الكريمة المستخدمة في الحلي الذهبية هي: العقيق والفيروز والفسبار الأخضر واللازورد.

و كان من ضمن حلي الملوك والملكات التاج والصدريات وأشهر ما اكتشف منها صدريّة الملك "سنوسرت الثاني"، كما كانت بعض الأواني ترصع بمثل هذه الأحجار خاصة منها "السيج" (1759). إن المجال جد واسع بخصوص استعمال الأحجار الكريمة و لا يتسع المقام للتعمق فيه، ومع ذلك لابد من الإشارة إلى أن الشارة التي كانت تزين صدر أي ملك كانت تتلأل من كثرة ترصيعها بتلك الأحجار، كما أننا نجد أن الأحجار التي كانت قد إنتشر إستعمالها أكثر خلال الدولة الوسطى والتي كانت موضة ذلك العصر هي: « العقيق على أنواعه و في مقدمتها العقيق الأحمر ، و كذلك حجر اليشب الأخضر » (1760).

رغم إرتباط الحلي الثمينة والأحجار الكريمة بمسألة الثراء والترف والتي تعبر عن الطبقة العليا في المجتمع، ربما هذا يكون صحيحا في الحياة الدنيوية، إلا أنه بعد الموت فإن الحلي لا تخص فقط تلك الطبقة بل نجد حتى أفقر فئة في المجتمع تدفن معها مثل تلك الحلي والمجوهرات، وبالطبع كل حسب مقدوراته (1761). فإن كانت لدى شعوب أخرى إرتباط ذلك بالطبقة الثرية فقط دون باقي أفراد الشعب، فإن العكس من ذلك حدث في مصر وهو يعتبر ميزة أخرى إمتازت بها مصر، لأنه أكتشفت مقابر لا تنتمي إلى أناس أثرياء من خلال شكلها و محتوياتها من الأثاث الرث والبسيط، لكن في نفس الوقت عثر بها على حلي من معادن ثمينة وأحجار كريمة.

كما تميزت مصر خلال عصر الأسرة الثامنة عشرة بظهور تطورات في مجالات إستخدام الأحجار الكريمة، حيث توسعت إستعمالاتها المعتادة إلى إستخدامها في ترصيع جدران مقصورات بنيت خصيصا لهذا

(1758) - سيريل ألدريد ، مجوهرات الفراعنة ، المرجع السابق ، ص. 44.

(1759) - ر. إنجلياخ ، مدخل إلى علم الآثار المصرية ...، المرجع السابق ، ص. 195.

(1760) - بشير زهدي ، المرجع السابق ، ص. 99-100.

(1761) - سيريل ألدريد ، المرجع السابق ، ص. 43.

الغرض فأتت كواكب متألئة حين تقع أشعة الشمس عليها وبالتالي تعكسها على ما يحيط بها(1762). فمن جهة يدل ذلك على مدى عبقرية المصريين، ومن جهة أخرى تدل على مدى الحجم الضخم الذي كانوا يستهلكونه من هذه الأحجار، وكم كانت التجارة مهمة في توفير مثل هذه المواد، التي لم يكتفوا فيها فقط بإستخدام ما حوته أرضهم بل سعوا في الحصول عليها من أبعد المناطق .

إن التطرق إلى مسألة ثراء مصر من هذه المواد هو أمر شيق ولا يمل ، لكن لا يمكن التعمق فيه أكثر من ذلك، ولا يسعني إلا أن أختم الكلام فيه بما ذكره " سيريل ألدريد " : « إن ما وصل إلينا من تحف المصوغات والحلي والمجوهرات المصرية القديمة لا يمثل إلا نسبة ضئيلة جدا مما أنتجته مصر خلال ثلاثة آلاف سنة من حكم الفراعنة »(1763).

إن الثراء لم يقتصر فقط على الملوك و الكهنة، بل ساهمت التجارة في غنى حكام الأقاليم وجعلتهم من الطبقة النبيلة خاصة منهم الذين كانوا يكلفون بالإشراف على البعثات التجارية الكبرى وأذكر منهم على سبيل المثال سادة "إيفنتين" ، الذين كان ثراؤهم ذائع الصيت ، و قس على ذلك بقية حكام الأقاليم.

المطلب الثاني: أثر الإزدهار التجاري على العمارة، الصناعة والديانة

يبدو أن كل مجال من مجالات الحضارة المصرية مرتبط ارتباطا وثيقا بالتجارة، لكن لا يسعني المجال هنا للتعرف عليها بشكل مفصل، لأن الغرض هو إبراز فضل التجارة في عظمة تلك المظاهر الحضارية ولولا التجارة لما كانت لتصل إلى تلك العظمة .

فمثلا الملك "سنفرو" نتيجة لإهتمامه بالتجارة وما جلبته له من أرباح عرفت مصر في عهده تقدما واضحا تجلى من خلال بنائه لهرمين ، الأول تميز بشكله الهرمي المدرج وهو موجود بـ "ميدوم"، والثاني بمنطقة "دهشور" وهو يعد ههما كاملا(1764). وهكذا مكن التوسع في النشاط التجاري الذي عرفه زمن الملك "سنفرو" من وجود رخاء و ثراء كبيرين إنعكسا في بناء هرمين له مرفوقين بمعبدين، و ساعده ذلك الرخاء أيضا على إتمام هرم أبيه "حوني" في منطقة "ميدوم". كما إنعكس الثراء التجاري على بناء الأهرام الكبرى التي تعد أعظم المباني الدينية على مدى تاريخ البشرية وأيضاً من خلال محتوياتها ومحتويات كل المقابر، نكتشف مدى الرخاء والرفاهية والثراء الذي توفر لفراعنة مصر من جراء المبادلات التجارية، فمحتويات تلك الأهرام رغم أنها تعرضت للنهب وما بقي منها إلا القليل، إلا أنها تدل بشكل واضح عن مدى رواج التجارة و دورها في ذلك الرخاء(1765).

لم تقتصر هذه المباني الضخمة على عصر الدولة القديمة بل إمتدت عبر مختلف فترات العصر الفرعوني وإرتبط وجودها بالإزدهار التجاري لأننا لا نشاهد مثلها في فترات ضعف التجارة المصرية وفي ظل غياب البعثات التجارية الكبرى، فالبيضاء التي كانت تتدفق من خلال التجارة في عصر الإمبراطورية (عصر الدولة الحديثة) نتيجة لتوسيع التجارة ، أوجدت حالة من الثراء الذي يظهر من خلال صورة المباني

(1762) – بشير زهدي ، المرجع السابق ، ص. 101.

(1763) – سيريل ألدريد ، المرجع السابق ، ص. 43.

(1764) - ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 97.

(1765) - عبد العزيز صالح ، الشرق الأدنى القديم...، المرجع السابق ، ص. 102 - 103.

الفاخرة المدهشة منها معبد الكرنك وقاعته (بهو الأعمدة)، التي قال عنها " بريستيد " أنها « تعد أعظم ما أقامة الإنسان » (1766).

أما في ميدان الصناعات فإنعكاس التجارة واضح بشكل كبير، فلولاها لما ظهرت بعض الصناعات في مصر ولا تطورت أخرى، ونحن نعلم أن مصر قد اشتهرت بالتنوع الصناعي وبالدقة العالية التي ميّزت هذا الميدان والتي بلغت شهرة كبيرة في العالم القديم، وكانت ضمن الأشياء المرغوبة من مصر وهكذا كان ازدهارها يُغذي المبادلات التجارية، أي الإثنان يدوران في حلقة واحدة.

فمنذ الأسرات الأولى وحتى قبل ذلك الزمن و طيلة العصر الفرعوني فإن مادة الأخشاب المستوردة كانت ضرورة ملحة للصناعة المصرية ، لأنها كانت تدخل في عمليات البناء و في صناعات متعددة وأهمها صناعة القوارب التي كان المهندسون يختارون لها الأخشاب ذات النوع الرفيع خاصة الإرز و السرو اللذين كانا يجلبان من بلاد سوريا، والأبنوس الذي أستخدم منه النجار المصري الأثاث، وكانت تؤمنه له تجارة مصر مع الجنوب. فأهمية التجارة مع السواحل السورية كبيرة، لأن الأعمال الكبيرة في البناء والمعالم الضخمة، وكذلك تلبس الخشب الرفيع الناعم، إضافة إلى إنشاء الأساطيل التجارية ، كل ذلك لم يكن أبداً ليزدهر وتنهض صناعته أو تحدث مثل هذه الصناعات من الأساس دون هذه الأخشاب. لذلك توسعت تجارتها بين مصر و مناطق تواجدها مع تواصلها طيلة العصر الفرعوني.

و بدون الإستغلال المضمون والمتواصل لغابات لبنان فإن ملوك مصر لم يكونوا بقادرين على الحلم بتكوين إمبراطورية ولا حتى بتجارة بحرية متطورة. أي أن هذه الأخشاب التي كانت تدخل مصر عن طريق المبادلات التجارية كان لها الفضل الأول في تلك القوة البحرية التجارية المصرية ، وذلك التطور الصناعي للمنشآت البحرية ساهم بدوره في إنتشار التجارة و زيادة مصر فيها. فدور تجارة الأخشاب مهم جدا في تطوير الملاحة، وفي الهندسة المعمارية وأيضا لورشات النجارة المختلفة. ولا تقل أخشاب "الأبنوس" في أهميتها عن تلك الأخشاب التي كانت توفرها لمصر تجارتها مع أواسط إفريقيا، وهو الخشب الثمين ذو اللون الأسود، والذي كان يدخل في إستخدامات عدة منها الأثاث الفاخر والذي كان يطلى بالذهب. و من المكتشفات التي عثر عليها و تثبت ما أتيت على ذكره هو العثور في مقبرة زوجة "سنفرو" و هي "حوتب حورس" متمثلة في سرير الملكة ومعقد صنعا من هذا الخشب واللذان غلفا بطبقات من الذهب(1767).

إن ثراء مصر لا مثيل له، فإضافة إلى الأخشاب نجد هناك مواد أخرى كانت قد وفرتها التجارة، منها الزيوت الضرورية كزيت الزيتون، وهذه الزيوت كانت تدخل في عديد الصناعات، فلولا التجارة لما تطورت تلك الصناعات والتي منها صناعة العطور، والمراهم، والدهن ، كما كان يدخل هذا الزيت في تحنيط "الموميوات" (1768)، إضافة إلى إستهلاكه اليومي في التغذية و الإضاءة و غيرها ، و هو بذلك يستعمل من قبل الأثرياء و البسطاء على حد سواء.

(1766) - جيمس هنري بريستيد ، إنتصار الحضارة...، المرجع السابق ، ص. 130.

(1767) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 103.

(1768) - H. Gauthier , l'Egypte pharaonique, Op-Cit , p. 109 .

إن رواج التجارة ينعكس إيجاباً على مختلف مناحي الحياة، ودائماً في ميدان الصناعة نجد ظهور صناعة البرونز للمرة الأولى في مصر خلال زمن الأسرة الثانية عشرة، حيث تجلب المادة الخام لهذه الصناعة من فينيقيا والتمثلة في مادة القصدير، ومن بين ما كان يصنع منه: شفرات مطعمة بالذهب، والتي عثر على عدد منها في مقابر اللاهوت بمصر، كما صنعت أواني من البرونز (1769).

من المواد الخام التي دخلت مصر عن طريق التجارة والتي لعبت دوراً كبيراً في صناعتها نجد القطن، الذي يقال بأن موطنه الأصلي هو الهند ومن هناك يمتد إنتشاره عبر التجارة إلى حضارات الشرق الأدنى بما فيها مصر، لكن في فترات متأخرة كما يراه البعض ومنهم "هيرودوت" والذي يقال بأنه أول من ذكر القطن بالنسبة لمصر. وهناك من يذكر بأن القطن دخل مصر عن طريق تجارتها مع بلاد السودان وأواسط إفريقيا وأن أصله من هناك، لكن أصبح ينمو فيما بعد بمصر، والذي كان يستعمل ليس فقط في العصور المتأخرة بل أنه ظهر منذ العصور المبكرة، وقد ذكر "بليز" شجرة هذه المادة على أنها كانت تنمو في صعيد مصر و أعطاه اسم *Gossypium*، وكانت تصنع منها أثواب فنية كملابس للكهنة (1770).

و بمناسبة ذكر الكهنة، وددت الإشارة إلى أن فن تحنيط الجثث ما كان ليجد في مصر ويتطور ويستمر، وهو الفن الذي ابتكرته مصر وأصبح ميزة أساسية في ديانتها، لولا توفر موادها الأساسية، ومنها الزيوت التي أتيت على ذكرها، و البخور الذي يستعمل بكميات ضخمة من أجل حفظ الجثث وإجراء الطقوس الجنائزية المتنوعة ولتغطية الروائح الكريهة وعديد الإستعمالات.

كانت هذه ومضات خفيفة عن دور التجارة المصرية في ثراء مصر وإنعكاسها الإيجابي على مختلف مناحي الحياة المصرية.

المبحث الثالث: تأثيرات خارجية في الحضارة المصرية

ذكرت فيما سبق بأن المبادلات التجارية كانت قد لعبت دوراً في نقل المؤثرات الحضارية، فما هي هذه المؤثرات الخارجية التي أدخلتها المبادلات التجارية إلى مصر من مناطق محيطها الجغرافي؟.

المطلب الأول: تأثيرات في المجال الديني

رافق التبادلات التجارية روابط إيدولوجية، فالإله النوبي "ديدون" (Didoun)، كان يماثل منذ زمن مبكر بالإله "حورس"، و إستمر الحال على ذلك النحو خلال فترات العصر الفرعوني وخاصة عصر الملوك الذين يحملون اسم "تحو تمس" (thoutmosides)، و "الرعامسة" (1771). وقبل ذلك كان الملك "سنوسرت الثالث" قد أنشأ في الحصن الذي بناه في الجنوب معبداً للإله "ديدون" و قد ورد ذكر لهذا الإله في نصوص الأهرامات على أنه «الشاب الصعيدي الذي يأتي من بلاد النوبة و يعطي الملك البخور الذي تتبخر به الآلهة» (1772).

(1769) - عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص. 178.

(1770) - ر. إنجليخ، المرجع السابق، ص. 404.

(1771) - C. Lalouette, l'empire des Ramsès, Op-Cit, pp. 31 - 32.

(1772) - بلقاسم رحمان وحرفوش مدني، المرجع السابق، ص. 30.

كما كانت مصر تبجل الإله القزم البونتي "باس" (Bés) وذلك ابتداء من الدولة الحديثة، وقد دخلت عبادته نتيجة للعلاقات التجارية، ولو أن تأثير هذه البلاد على مصر غير ملموس بالمقارنة مع التأثير الذي كان يمارس من قبل فلسطين وسوريا على مصر (1773). فالبعض يرى في تأثير السواحل السورية بأنه جد قديم و ذلك من خلال قصة "آلام أوزيريس"، حيث أعتبرت عبادة "أوزيريس" لدى المصريين بأنها أقتبست من الساحل السوري منذ ذلك العصر القديم جدا (1774). لكن البعض الآخر يرى بأن "أوزيريس" هو الإله الشائع بمصر وكل ما هناك أن المصريين كانوا يماثلون عبادة الإله الزراعي لـ "جبيل" و الذي يدعى "Khay – Taou" بـ "أوزيريس" (1775). إنه من الصعب إثبات من تأثر بالآخر لكن المصريون كانوا يعبدونه إلى جانب "أوزيريس"، و مثلما هو الحال مع الإلهة "بعلات" إلهة "جبيل" التي كانت تصور كالإلهة "حتحور" المصرية وهو مثال عن التسامح الديني.

و لو أنه لم يعرف منذ أي وقت جعلوا من "سيدة جبيل" كالإلهة "حتحور"، إلا أن المصريين كانوا منذ زمن يعبدون الآلهة السورية. وكما يقول "عبد المنعم عبد الحليم سيد": « نظرا للتشابه بين هاتين المعبودتين في الصفات (إذ كان من صفات حتحور أنها إلهة للخصب والجمال، وهي الصفات الرئيسية للإلهة عشتار السامية)، حدث نوع من الملائمة والتوفيق بين المعبودة المصرية والمعبودة السامية، أي أن المصريين قد رسموا المعبودة السامية في صورة "حتحور"، كما قدس الساميون المعبودة المصرية في صورة عشتار، ودعوها "بعله" أو "بعلات" بمعنى "الربة أو السيّدة" أي ربة الفيروز... » (1776).

و في المجال الديني دائما فإنه خلال الدولة الحديثة نجد مصر تقتبس من سوريا عبادات حربية مثل "بعل" و "أستارتي" (Astarté) و "عنات" (Anat) (1777)، التي إنتقلت إلى مصر عبر التجارة و كذلك الإله "رشف" إله النار وهو أحد الآلهة السورية التي ورد ذكرها في ألواح مدينة ماري (1778).

و هناك إله آخر دخل مصر وأصبح يعبد في معابدها وهو الإله "حورون" "Hawron" وذلك منذ زمن الملك "أمنحوتب الثاني" (1450-1420 ق.م) كما ورد ذكر لهذا الإله رفقة إسم الملك "حور محب" أول فراعنة الأسرة التاسعة عشرة، كما تواصلت عبادة الإلهة "عشتاروت" في مصر خلال زمن الرعامسة وقد ورد ذكرها حوالي منتصف القرن الثالث عشر مقترنا بإسم "رمسيس الثاني": "ميري أستروت" "Meri-Astrot" بمعنى "محبوب عشتاروت" (1779).

(1773) - Erman et Ranke , la civilisation égyptienne, Op-Cit , p. 688.

(1774) - فيليب حتي ، تاريخ سوريا ...، المرجع السابق ، ص. 146.

(1775) - J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 80.

(1776) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 419.

(1777) - Erman et Ranke , Op-Cit , p. 693.

(1778) - نجيب مخايل إبراهيم ، مصر و الشرق الأدنى...، المرجع السابق ، ص. 29.

(1779) - فيليب حتي ، المرجع السابق ، ص. 146.

و تتضح التأثيرات الدينية خلال زمن الملك "رمسيس الثالث" والذي شيد " إكيليروس " للإله " بعل " و " أستارتي " بل أن عهده شهد تأثيرات دينية مصرية في أرض كنعان حيث بنى للإله المصري "بتاح" هيكلًا في مدينة "عسقلان" (1780).

و أمام هذا التأثير الديني في ديانة مصر والتسامح والتعايش الديني للذين كانا لأجل تسهيل التجارة، إنعكس ذلك على الأجانب المتواجدين في مصر الذين كانوا أحرارًا في ممارسة ديانتهم كحال السوريين الذين كانوا يعيشون كتجار في مصر، وغيرهم من الشعوب المستقرة بها (1781).
إن التأثيرات الدينية التي أدخلتها التجارة إلى مصر لا تقتصر فقط على عبادة الآلهة الأجنبية وتقديسها ومماثلتها بآلهتهم، بل تعدى الأمر إلى جوانب أخرى من الديانة وهي عديدة لا مجال لذكرها، يكفي فقط القول بأن النساء المصريات كن يتخذن لهن من بين الأسماء اسم "ربة جبيل" (1782).

المطلب الثاني: تأثيرات خارجية في مجالات أخرى

يقال عن النشاط التجاري لبلاد ما بين الرافدين بأنه أثر كثيرًا في الشعوب الأخرى حيث: « إشتهر أهل هذه البلاد منذ القدم بنشاطهم التجاري مع الشعوب المجاورة، وقد أثروا بطرقهم ومعاملاتهم التجارية في تلك الشعوب حتى أخذت عنهم كثيرًا من الأساليب التجارية و مصطلحاتها وبعض أسماء المكايل والموازين التي إستخدموها » (1783). وقد تجلت هذه التأثيرات في جوانب عدة منها: الناحية الحربية والتجارية والصناعية فأخذت عنهم مصر أشياء كثيرة في هذه المجالات (1784)، فما حجم هذه التأثيرات على مصر؟.

يؤكد البعض بأن العلاقات التجارية والحضارية بين مصر وجنوب العراق القديم خلال عصر ما قبل الأسرات وعصر الأسرتين الأولى والثانية، كانت حقيقة واقعة. والدليل على ذلك إكتشاف أواني فخارية، عراقية الصنع تمتاز بالصنابير المائلة، وأخرى لها مقابض مثلثة إستخرجت من مواقع أثرية في مصر مثل: "مستجدة" و "البداري" وهي تعود إلى عصر "جمدة نصر" في العراق القديم (1785).

ففي نهاية عصر ما قبل التاريخ إقتبست مصر عناصرًا من بلاد ما بين النهرين، منها الأختام الأسطوانية التي عرفت في مصر منذ زمن كانت تستعمل فيه في بلاد ما بين النهرين، كما أستعملت لوحات الأجر للترزين في الهندسة المعمارية و هي تقنية ذات أصل يعود إلى بلاد ما بين النهرين و التي لم تصل إلى قمة إزدهارها في مصر إلا عند نهاية عصر ما قبل الأسرات، وكذلك إستوحت مصر بعض المواضيع الفنية و نماذج المراكب العراقية، و هناك عناصر أخرى عديدة دخلت إلى مصر لا يمكن حصرها كلها منها دولا ب الفخرا ني الذي عرف في بلاد ما بين النهرين لكن ظهوره في مصر كان في العصر التاريخي (1786).

(1780) - J. A. Wilson, Op-Cit , pp. 183-184.

(1781) - J. Pirenne , le statut de l'étranger..., Op-Cit , p. 98.

(1782) - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص. 178.

(1783) - محمد أبو المحاسن عصفور ، معالم حضارات الشرق الأدنى...، المرجع السابق ، ص. 235.

(1784) - أنور الرفاعي وشاكر مصطفى ، المرجع السابق ، ص. 39.

(1785) - أحمد أمين سليم ، في تاريخ الشرق الأدنى...، المرجع السابق ، ص. 78.

(1786) - J.A. Wilson , Op-Cit , p. 40.

و تم العثور على أختام إسطوانية عراقية في مصر في مواقع "جزره" و "نجع الدير" وكان عددها أربعة، وهي تعود إلى حضارة "الوركاء" وحضارة "جمدة نصر" في العراق. ولو أن مادتها و أغراض صنعها كانت مختلفة في الحضارتين حيث كانت تصنع في مصر من الخشب و تنقش عليها أسماء الملوك و الموظفين السامين بينما الأختام العراقية وجدت عليها رسوما ، كما إنعكست التأثيرات على جوانب فنية ومنها خاصة أشكال زخرفية التي تمثل الأسود والحيوانات، والتي إشتهرت بها بلاد ما بين النهرين ولم يتميز بها الفن المصري(1787)، ولم تقتصر التأثيرات على الفترات الأقدم بل أنها تواصلت بعد ذلك، منها أن النظام البابلي المتمثل في وحدة القياس التي تدعى: " سيكل" إستخدمته مصر خلال الأسرة الثانية عشرة و كان يزن من 7.58 غ إلى 8.42 غ، والمتوسط 8 غ(1788). و رغم الاختلافات الكبيرة التي دارت بين المؤرخين بشأن الطريق الذي إتبعته هذه التأثيرات العراقية قديما إلى مصر، إلا أن المؤكد هو أنها كانت عن طريق التجارة.

وإن كانت مناطق الساحل السوري وفلسطين لها تأثير كبير في الديانة فإن ذلك لم يمنع وجود تأثيرات تجلت لنا في ميادين أخرى و هي تتميز عن تأثيرات بلاد الرافدين على مصر، أي أنها تعرف إزيادا في الإنتشار على عكس التأثيرات العراقية التي بدأت بقوة لتضعف وأحيانا تنعدم في العصور المتتالية.

و الآثار تعطينا فكرة واضحة من خلال الأواني الفخارية الفلسطينية المنتشرة في مصر، والتي جلبها التجار، وقد تم العثور على نماذج منها منذ عصر الأسرات الأولى و إختفت فترة لتعود مع منتصف الأسرة الثانية عشرة، وخلال الدولة الحديثة شاع إستخدام مثل هذه الأواني المستوردة بكثرة(1789).

كما كانت "أوغاريت" تمد مصر بخبرتها في مجال المعادن، لأنها إشتهرت بوجود فئة كسبت خبرة واسعة في مجال التعدين والتي كانت تنتج مصنوعات معدنية بلغت شهرتها مناطق العالم القديم، لذلك نجد مصر وعن طريق علاقاتها التجارية تحاول الإستفادة من تلك الخبرة وحفظ لنا عهد "سنوسرت الثاني" (الأسرة الثانية عشرة) دليلا على أنه جلب تقنية "أوغاريت" و عمالها للإستفادة من ذلك في مختلف الورشات الصناعية وأهرامه ومدافنه(1790).

و خلال الدولة الحديثة لقيت الصناعات السورية رواجاً كبيراً لدى المصريين الذين كانوا يقبلون عليها بكثرة والتي وفرتها لهم التجارة النشيطة بين الطرفين، ثم بعد ذلك أخذ المصريون في تقليدها لشدة تأثرهم بها، منها الأسلحة الثمينة المزخرفة، وثيابا مزركشة، وكذلك بعض الأواني الفاخرة، وأثاث متنوع، ومركبات مطلية بالذهب والفضة(1791). ونتيجة للحركة المزدهرة زمن "رمسيس الثاني" أي الأسرة التاسعة عشرة، فإن الأثاث السوري الفاخر أصبح متواجدا بكثرة في قصور حكام مصر، والطبقة النبيلة ككل(1792). و أثناء العصر الصاوي عصر البعث الحضاري في مصر و عودة الإزدهار التجاري، فإن المصريين كانوا قد تأثروا كثيرا

(1787) – أحمد أمين سليم ، المرجع السابق ، ص. 79.

(1788) – G. Glotz , la civilisation égéenne , Op-Cit , p. 222.

(1789) - ر. انجلباخ ، المرجع السابق ، ص. 324.

(1790) – محمد عزة دروزة ، تاريخ موجات الجنس العربي...، المرجع السابق ، ص. 89.

(1791) – فيليب حتي ، المرجع السابق ، ص. 147.

(1792) – محمد عزة دروزة ، المرجع السابق ، ص. 113.

بالفن الفينيقي الذي عرفوه عن طريق التجار ولشدة تأثرهم به إقتبسوا كثيرا من عناصره (1793). كما كان الإقبال كبيرا على المصنوعات الفينيقية وخاصة الحلي الفاخرة التي كان يرغب ملوك العصر الأسفل أن توضع ضمن أشياءهم في مدافنهم (1794).

هناك إشكال أو بالأحرى صعوبة تطرح عند التعرض لموضوع التأثيرات ، و هذه الصعوبة تكون بحجم أكبر و بحدّة عند الكلام عن تلقي المصريين خاصة للتأثيرات الإيجابية، و مع ذلك فإن تأثيرات شعوب بحر إيجا نجد بصماتها واضحة و لا تقل أهمية عن التأثيرات التي سبقت الإشارة إليها ، فإبتداء من الأسرة الثانية عشرة يمكن أن نرى تأثير الفن الإيجي في مصر، والذي يبرز من خلال التزيين بأشكال حلزونية (1795)، وحوالي سنة 2000 ق.م عندما كان الفرعون "أمنمحات الثاني" يختار الكنوز التي كان يلزم وضعها في مقبرته، إختار مجموعة من الأواني المصنوعة من فضة ذات نموذج كريتي ، لأنه من المعروف آنذاك أن الطبقة الثرية خاصة الملوك والحكام، إشتهرت بتفضيلها أخذ طعامها في أطباق مزينة على الطريقة المينيوية، و المتمثلة في رسوم لأسلحة و لحلي مينيوية، كما كانوا يلبسون في البلاط ملابس من أنسجة و أقمشة مينيوية (1796). إضافة إلى كل ذلك عمد المصريون تقليد الإيجيين خلال هذا العصر في صناعة الرخام المتعدد الألوان ، و صنعوا منه أشكالا مطابقة للأواني الميسينية ، منها على وجه الخصوص السراج (1797). إن هذا التقليد المتقن دليل على معرفة واسعة بالفن الإيجي الذي خبروه من خلال التجارة التي كانت تحضر لهم أواني منه، و بالتالي إنبهارهم به.

و نجد التأثيرات الإيجية في الحضارة المصرية واضحة السيمات بصورة أكثر خلال الأسرة الثامنة عشرة، حيث بدا هذا التأثير جليا في مجال الفن المصري المتمثل في بعض أشكال الأواني، تقنية التطريز، و صناعة بعض الأقمشة، تزيين سقف المقابر وتبدو كلها مستوحات من معرفة أشكال إيجية (1798)، لأنه عند مقارنتها برسوم تزيينات الأقمشة التي يرتديها التجار الأجانب خلال الأسرتين الثامنة عشرة و التاسعة عشرة تأكد تطابقها مع تزيينات سقوف المقابر (1799)، فكم كان إبداع المصريين ، إذ أنهم لم يأخذوا تلك التأثيرات و تطبيقها على الأقمشة بل أضفوا عليها صبغتهم الشخصية، و إستعمالها في المجال المعماري. و نتيجة للتوسع التجاري خلال حكم الملك " أمينوفيس الثالث " (الدولة الحديثة) فإن التأثيرات الإيجية تصبح ملموسة أكثر في الصناعة المصرية (1800).

و لم يتأثر المصريون بالتزيينات الإيجية بل إقتبسوا أيضا تزيينات شعوب السواحل السورية، و التي أصبحت شائعة إبتداء من الأسرة الثامنة عشر، و هو ما توضحه مقبرة " توت عنخ آمون " (1801).

(1793) - فيليب حتي ، المرجع السابق ، ص. 148.

(1794) - أنور الرفاعي ، المرجع السابق ، ص. 54.

(1795) - J. Vercoutter , essai sur les relations... , Op-Cit , pp.149, 153.

(1796) - L. Casson , les marins de l'Antiquité..., Op-Cit , pp. 35,37.

(1797) - J. Vercoutter , Op-Cit , p. 153.

(1798) - G. Posener et autres , Op-Cit , p. 97.

(1799) - J. Vercoutter , Op-Cit , p. 155.

(1800) - H. Gauthier , Op-Cit , p. 147.

و من جانب آخر يقال أن "الكريتيين" هم الذين صنعوا النقود الأولى، والتي إنتشرت في كل العالم وتأثرت بها عن طريق المبادلات التجارية شعوب العالم القديم بما فيهم مصر، كما أخذت عنهم مفاهيم مثل البنك والخزينة، فنتيجة لإكتشافهم للنقود ظهر للوجود مفهوم البنك والخزينة، وسرعان ما إنتشرت آثاره بين الشعوب الأخرى، و منها مصر. و يقال أيضا بأن الشكل الذي إختاره الكريتيون لسفنهم تبنته بعد ذلك تقريبا كل أساطيل البحر المتوسط(1802). أريد أن أعقب على هذا الرأي في نقطتين، الأولى أن البنوك التي ظهرت في العصر الفرعوني المتأخر كانت بيد الأجانب منهم السوريين، كما أشرت في موضع سابق، و لم تكن مباشرة بيد المصريين، و الثانية أن مصر كانت لها عراقة في مجال صناعة السفن و كانت قد أعطت أشكالاً مميزة خاصة بها، و بالتالي لا أعتقد أنها تأثرت بالكريتيين و لكن ربما حصل تأثر بهم في مجال السفن الحربية، خاصة خلال العصر المتأخر زمن الملك "نخاو الثاني" الذي إقتدى بنموذج السفن الإغريقية ذات ثلاثة صفوف من المجاديف.

إن التحولات الإقتصادية التي عرفتها الدولة الحديثة كانت مرتبطة بعلاقات مصر التجارية الخارجية، كما كانت لها أثر كبير في ميدان الصناعة وتطورها والتي أتيت على ذكر نماذج لها، و نتيجة لتلك العلاقات التجارية طرأت أيضا تطورات هامة على الزراعة المصرية منها إدخال مزروعات جديدة، كغرس أشجار التفاح التي جلبت من آسيا(1803).

والمعروف عن المصريين أنهم إهتموا كثيرا بالزراعة وقد خدمتهم مبادلاتهم التجارية مع مناطق الجوار الجغرافي كثيرا في ذلك، حيث كان لها أثر في نقل الأشجار المثمرة والأزهار العطرية وغرسها في بلادهم، وقد كانت هذه العملية منظمة وليست عشوائية، و يتجلى ذلك من خلال البعثات العلمية والفنية إلى البلدان الآسيوية من أجل العمل على إنتقاء الأنواع المميزة، والتي لم يوجد لها مثيل في بلادهم، و قد أعتبرت بعثة الملكة "حتشبسوت" التجارية إلى بلاد "بونت" كأول بعثة علمية ذكرها التاريخ، والتي أحضرت من هناك نوعان من التين يتميزان برائحة جيدة وقد غرسا في حدائق مدينة "طيبة"، كما إهتمت هذه الملكة بغرس أشجار العنب في ضواحي المدن، و يذكر التاريخ أيضا أن الملك "تحوتمس الثالث" كان قد جلب من بلاد آشور أنواع من أشجار المناطق الآسيوية (1804). وهذا دليل آخر على أن البعثات التجارية كانت بعثات متعددة الأغراض، وكانت لها تأثيرات عديدة وعلى مختلف جوانب حياة ذلك العصر.

و الإشارات التاريخية تعطينا أدلة على أن عدد من الملوك كانوا يجلبون أشجارا لإعادة زراعتها في مصر. لكن ذلك لم يقتصر على زمن الدولة الحديثة بل كان يحدث قبل ذلك وطيلة قرون عدة، حين أدخلت شجرة الرمان، شجرة اللوز، شجرة الريحان، شجرة الليمون وشجرة الزيتون، لكن هذه الأخيرة لم تنتشر زراعتها و ظلت حكرًا على بعض الحدائق أين كان الإعتناء بها بصورة جيدة(1805)، فزيت الزيتون ظل حتى

(1801) - W. Culican , Op-Cit , p.44.

(1802) - A. Gaudio , les empires de la mer , Op-Cit , pp. 26 - 27.

(1803) - نعيم فرح ، موجز تاريخ الشرق الأدنى...، المرجع السابق ، ص. 79.

(1804) - ن. ي ، المرجع السابق ، ص. 242.

(1805) - G. Rachet , dictionnaire de la civilisation..., Op-Cit , p. 23 .

الفترات المتأخرة من العصر الفرعوني يستورد من الخارج. و مع ذلك فإن التجارة كانت قد ساهمت بقدر كبير في ترقية الزراعة المصرية بتعدد المزروعات و تنوعها.

كما كانت المبادلات التجارية بين مصر وبلاد البخور "بونت" قد أدخلت بعض الأسماء الأجنبية لتعيين أنواع من البخور في اللغة المصرية(1806). و دائما في مجال تأثر المصريين بالأسماء الأجنبية نجد أن الأمر قد تجاوز التأثر بالأسماء التي لها علاقة بالديانة و العبادة، لأن المصريين و خاصة منهم البحارة الذين كانوا يترددون على الساحل السوري كانوا يتأثرون بتسمية أنفسهم بأسماء كنعانية و خاصة المصريين الذين يستقرون في الدلتا، و هو دليل واضح على كثافة العلاقات بين المنطقتين(1807).

كما نتج عن الصلات التجارية بين مصر والشعوب الأخرى أن تبنت مصر الأشكال الأجنبية المتنوعة التي زينت الأثاث الجنائزي والفن الديني(1808). وفي مجال الفن والزينة هناك ظاهرة ملفتة للإنتباه تتمثل في زينة الأذن أو ما يعرف بالأقراط، التي دخلت مصر خلال الدولة الحديثة، لأنه لم يسجل أن ظهرت صورها في الآثار المصرية قبل ذلك الزمن ، في حين نجد أن الشعوب المحيطة بمصر خاصة الحضارة السودانية كانت تتميز بها منذ زمن طويل، لكن أقدم إشارة مؤكدة بأن المصريين كانوا قد إستخدموها يعود إلى زمن الأسرة التاسعة عشرة في مدفن وضع فيه طفل يتحلى بها و هي من معدن الذهب. أما أقدم رسوم تبين زينة الأذن يتحلى بها أشخاص فتعود إلى زمن الأسرة الثامنة عشرة(1809).

فإن كانت التأثيرات الأجنبية التي دخلت مصر عن طريق التجارة والتي أتيت على ذكر نماذج لها عرفت بدقة، ولم تطرح تساؤلات وجدالات، فالمسألة مختلفة كلياً بالنسبة لزينة الأذن، فالبعض يرى أنها تأثير جاء عن طريق تجارة مصر مع أواسط إفريقيا أي مصدرها سود إفريقيا، والبعض الآخر يرى العكس تماماً، وأنها تأثير من الشمال وتحديداً من بلاد "ميتاني"، لأن هذه الزينة تؤكد وجودها بين الأمراء زمن الملك "تحوتمس الرابع" الذي كانت له مصاهرة مع البيت الحاكم بتلك البلاد، و آخرون قالوا بأن مصدرها غرب آسيا، وما يصعب تحديد هذا التأثير أن جيران مصر الليبيين من خلال صورهم على الآثار المصرية ظهرت حلهم من الأقراط منذ زمن الدولة القديمة(1810). وكل هذه الشعوب كانت تربطها بمصر علاقات وطيدة خاصة التجارية منها.

المبحث الرابع: تأثيرات مصرية في مناطق الجوار الجغرافي

مثملاً لعبت المبادلات التجارية دور في نقل مؤثرات خارجية رفقة السلع التي كانت تدخل مصر من مناطق مختلفة، فإنها فعلت في المقابل نفس الشيء وحملت مع السلع المصرية تأثيرات الحضارة المصرية إلى الشعوب المجاورة. فيما تتجلى مظاهر هذه التأثيرات؟.

المطلب الأول: تأثيرات في جنوب فلسطين والساحل السوري

(1806) . - Erman et Ranke, Op-Cit , pp. 687- 688 .

(1807) . - J. Pirenne, Y'eut-il des foires...?, Op-Cit , p.16 .

(1808) . - B. Manley , Op-Cit , p. 16 .

(1809) . - محمد إبراهيم بكر، المرجع السابق ، ص. 287.

(1810) . - نفس المرجع ، ص ص. 294- 295.

تطرقت في الفصلين الثالث والخامس إلى الروابط التجارية التي كانت بين مصر وبين كل من جنوب فلسطين والساحل السوري، و كان من الطبيعي أن تتأثر هاتين المنطقتين بالحضارة المصرية، وأبدأ بمنطقة سيناء وجنوب فلسطين التي تلقت تأثيرات خاصة في الجانب الديني من خلال تشييد بعض المعابد المصرية في سيناء، و كان البدو هناك يعبدون فيها آلهة مصر منها: الإلهة "حتحور" كما إمتزج هناك إله مصر "توت" (Thoth) و هو إله القمر مع " إله القمر" المحلي الذي كان يعبد من قبل الرحل(1811). و كان هؤلاء قد تبناوا تأثيرات أخرى للحضارة المصرية و المتمثلة في صناعة اللوحات التذكارية و صناعة تماثيلهم بنفس الأسلوب المصري(1812)، كما إقتبس سكان هذه المنطقة الكتابة المصرية لكنهم حوروها بعض الشيء و أطلق عليها الكتابة ما قبل السينائية(1813)، – سأتطرق إلى ذلك لاحقا - . كما أخذ هؤلاء البدو الساميون و خاصة زعمائهم، عادات مصرية كثيرة في الجانب الاجتماعي منها الزي المصري و حلق الذقن(1814). و إنطلقت التأثيرات المصرية إلى كل الشعوب التي إستوطنت أرض كنعان، و منهم العبرانيين، و لو أن ذلك التأثير كان محدودا مقارنة بالتأثير المصري على مملكة بني إسرائيل و مملكة يهوذا خاصة خلال زمن ملوك " تانيس " المصريين(1815)، منها أن هيكल النبي سليمان – عليه السلام - كان مأخوذا من الطراز المصري (1816).

أما إذا إنتقلنا إلى الشمال و تحديدا إلى ساحل البحر المتوسط ، فإن التأثيرات المصرية تنتشر أكثر و تتجلى بصورة أوضح ، لأن الأدلة الأثرية متوفرة لدرجة أنه قيل بأن « بيبيلوس [جبيل] كانت مدينة مصرية في حضارتها، بل وفي ديانتها منذ بداية الألف الثالثة ق.م » (1817). وقد كان ملكها يتفاخر بلقب "أمير مصري" وفخور بثقافته المصرية، و قد بنى قبرا له قلد فيه المدافن المصرية، وكان يضم عديد الأشياء الثمينة المرسلة من مصر (1818).

فمدينة "جبيل" هاته إستقطبت بعمق تأثيرات الثقافة المصرية، والتي ستصبح ميزة الفن الفينيقي. إن إكتشاف بقايا لوحة تعود إلى عصر "زوسر" في "جبيل" تبين بأن مصر و بفضل العلاقات التجارية نشرت تأثيراتها الحضارية خاصة على المستوى الفني والديني في منطقة سوريا(1819)، و تجلى ذلك بصورة أوضح في الصناعات العاجية في المنطقة الممتدة من فلسطين إلى السواحل السورية التي تعكس نماذج مصرية، و حتى مشاهدها كانت في كثير منها مستمدة من المشاهد المصرية المنقوشة على نفس المادة، هذا إن لم نقل بأنها

(1811) - C. Lalouette , l'empire des Ramsès , Op-Cit , p. 80.

(1812) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 229.

(1813) - M. Damiano – Appia , l'Egypte..., Op-Cit , p. 70

(1814) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 419.

(1815) - G. Posener et autres , Op-Cit , p.109 .

(1816) - شحادة الناظور وآخرون ، المرجع السابق ، ص. 96.

(1817) - محمد السيد غلاب ، الساحل الفينيقي...، المرجع السابق ، ص. 237.

(1818) - P. Montet , la vie quotidienne en Egypte..., Op-Cit , p. 176.

(1819) - E. Hornung , lecture de l'histoire égyptienne, Op-Cit , p. 26.

متطابقة تماما معها. بالإضافة إلى ذلك إمتدت التأثيرات في هذه المنطقة إلى التأثير بالأثاث و الملابس المصرية(1820).

كما كان ملك "جبيل" يلقب نفسه " ابن رع للبلاد الأجنبية "، وهنا يبدو تأثر سكان تلك المنطقة بالديانة المصرية وإلهها "رع"، كما أن الخط الهيروغليفي عرف طريقه إلى هناك، لأن أقدم عقد في تلك المدينة كان قد كتب بالهيروغليفيه(1821).

لم تكن مدينة "جبيل" وحدها التي تلقت التأثيرات المصرية، بل نجد الأمر نفسه مع مدينة "أوغاريت"، التي كان ملوكها يحذون حذو ملوك مصر في كثير من العادات و إمتلاك نفس الأثاث. و مثلما كان ملوك "جبيل" يتباهون بتشبههم بالفراعنة فإن الشيء نفسه حدث مع أمراء " أوغاريت " الذين كانوا يتخذون في حياتهم أشياء و حلي و أثاث شبيهة بالصناعة المصرية، لأن أسلوب هذه الصناعات تبدو فيه تأثيرات مصرية واضحة، كما زينت رسومات عديدة في " أوغاريت " بأبي الهول ، منها العثور على بوق من العاج رسم عليه أبو الهول على كل جانب من جوانبه في هيئة وقوف و جناحيه مبسوطين ، و فسر على أنه كان يحمي الربّة التي مثلت على هذا البوق(1822).

إن الآثار الحضارية المصرية في بلاد الشام تتجلى بصورة أكبر في الجانب الديني، حيث كشفت الأبحاث عن تماثيل صغيرة لآلهة مصرية في شمال الشام، و التي كانت تحمل من قبل التجار إلى هناك و تلقى تقديسا من قبل الأهالي . و من التأثيرات في المجال الديني أيضا أن صورة الإلهة "عشتروت" ممثلة « و هي جالسة على عرش وقد صورت فوقها الدائرة المصرية المجنحة مع الحيتين الرمزيتين في جانبيها. وهكذا يتجلى التشابه في الديانة بين مصر وجبيل بشكل كبير». أما في مدينة "صور" فقد عثر أيضا على تأثيرات مصرية في مجال الديانة، و من خلال حجر يمثل عرش "عشتروت" كشف عن صورتين لأبي الهول المصري، كما نقش الحية الرمزية المصرية على هيكل بنفس المدينة. و لم يقتصر التأثير الديني على الآلهة والرموز الدينية بل تعداه إلى فن التحنيط الذي إشتهرت به مصر و الذي إنتشر إستخدامه من قبل مدن الساحل السوري لكنه إقتصر على فئة معينة وهي الطبقة الثرية، إذ تم العثور على أجساد ملوك محنطة في مدينة "صيدا" بنفس الطريقة المصرية(1823).

لم يقتصر إقتباس مدن ذلك الساحل من الحضارة المصرية على الجانب الديني، بل تجاوزه إلى مجالات أخرى منها علم الفلك، وكذلك صناعة النحاس والكتابة(1824). فبالنسبة للتأثيرات المصرية في مجال الصناعة ، وجود بصمات على فن صياغة "الذهب والفضة" في كل من "جبيل" و " أوغاريت"، و قد وجدت قطع منها تحمل نفس مميزات الفن المصري(1825). كما جرى كذلك تقليد الصناعة المصرية، منها صناعة التماثيل خاصة بصيدا، حيث تم العثور بها على تماثيل صغيرة مصنوعة من مادة القيشاني تحمل بصمات

W. Culican , Op-Cit , p. 57. – (1820)

C. Lalouette , Thébès..., Op-Cit , p.73. - (1821)

(1822) – كلود شيفر، حفريات رأس شمرا...، المرجع السابق ، ص.141- 142.

(1823) - محمد عزة دروزة ، المرجع السابق ، ص.82 ، 84 - 85 .

(1824) - أنور الرفاعي وشاكر مصطفى ، المرجع السابق ، ص.33.

(1825) – محمد السيد غلّاب ، المرجع السابق ، ص.497.

الصناعة المصرية، إضافة إلى ذلك تم العثور بنفس المدينة على أواني من الرخام والزجاج والخزف وحلي متنوعة ذات نقوش وألوان متعددة توحى بالتقليد المصري الواضح، و قد حدد تاريخها بين القرنين العاشر و الثالث ق.م(1826).

ومن الصناعات الهامة التي برع فيها الفينيقيون وأعطتهم شهرة كبيرة بين شعوب العالم، صناعة الزجاج، وتذكر الوثائق التاريخية أن النبي سليمان – عليه السلام - أثناء بناء هيكله إستدعى الفينيقيين لإنجاز التحف الزجاجية لذلك البناء، لأن الفينيقيين كانوا قد بلغوا في هذه الصناعة تقدما هاما حتى إرتبط إسمهم بها، وكانوا يضيفون عليه (أي الزجاج) لمسة فنية غاية في الجمال والإتقان، كما تعددت مجالات إستخدامه: الأواني، التماثيل، المرايا بل أنهم إستخدموه كسيفساء(1827)، وكان زجاجهم شفافا رائعا بألوان متناسقة وقد إشتهرت بهذه الصناعة خاصة مدينة " صيدا " و التي كانت تصنع منه أواني فاخرة كالكؤوس(1828). ولم تكن مثل هذه الأواني تستخدم فقط للإستعمالات اليومية بل صنعوا أواني من أجل الزينة(1829).

ولم يكتف الفينيقيون بأخذ هذه الصناعة من المصريين بل عملوا على نقلها إلى بقية أنحاء العالم، و لشهرة الفينيقيين في هذا المجال فقد نسب إليهم إكتشاف هذه المادة وصناعتها وعدوا بذلك السباقين فيها، و يقول سترابون عن هذه الصناعة و مادتها الخام : « إن الشاطئ الذي يمتد بين مدينتي عكا و صور، كان عبارة على أكوام رمل مكونة خاصة من رمل زجاجي (Hyalitis) ، إن هذا الرمل لا يصهر في عين المكان بل كان ينقل إلى صيدا ليصهر هناك بسهولة »(1830). ومع ذلك فإنه يكاد يكون إتفاق بين المختصين على أن الفينيقيين هم الذين أخذوا صناعة الزجاج من مصر، لأن صناعته كانت تعرف في مصر منذ عصر ما قبل الأسرات وبلغ صانع الزجاج في عمله مهارة عالية. و كل التطورات التي حصلت في صناعة الزجاج بمصر تثبت بأن هذه الأخيرة كانت المبتكر الأول فيها، وقد عرفت قبل الفينيقيين بآلاف السنين (أنظر الفصل الأول) ، لكن هؤلاء عملوا على تطوير صناعته وأضافوا إليها بصماتهم بعد أن وصلتهم تأثيراتها عبر العلاقات التجارية، لدرجة أن منتجاتهم من هذه المادة كانت تعد من سلعهم التجارية التي تدخل مصر في الفترات المتأخرة من العصر الفرعوني.

و هناك صناعة أخرى مرتبطة إرتباطا وثيقا بالتجارة الملاحية ألا وهي صناعة السفن ، و لو أنه لا يعرف إلا القليل عن المراكب الفينيقية ما عدا نماذج قليلة أفادتنا بها المصادر الأثرية المصرية، و من خلال بعض رسوماتها على آثار بلاد ما بين النهرين إلا أنه أمكن الإستنتاج بأن المراكب التجارية الفينيقية كانت تماثل معاصرتها المصرية(1831). فمن المؤكد أن الفينيقيين كانوا قد عرفوا كيف يستفيدون من تقنية صناعة السفن المصرية وطرق الملاحة التي كان المصريون قد إخترعوها وكذلك تجهيزات سفنهم التي كانت تتجاوز أحيانا 100 رجل وسرعتها عشرة عقد (Noeuds) (18 كلم/ساعة)، لكن الفينيقيون أضافوا إلى ذلك إستفادتهم

(1826) - محمد عزة دروزة ، المرجع السابق ، ص. 84.

(1827) - أنور الرفاعي ، المرجع السابق ، ص. 50، 134.

(1828) - محمد عزة دروزة ، المرجع السابق ، ص. 81.

(1829) - أنور الرفاعي وشاكر مصطفى ، المرجع السابق ، ص. 49-50.

(1830) - Strabon , XVI , Chap II , 25

(1831) - E. Angelucci et autres , encyclopédie des navires , Op-Cit , p. 24.

الواسعة من نظام الرياح، الذي كان يساعد على إنتظام الرحلات التجارية⁽¹⁸³²⁾. وبرعوا في هذه الصناعة وطوروها إلى أن أصبحت تتشكل من طوابق من المجاديف.

و هكذا فإن إمتداد التأثيرات المصرية مرتبط بامتداد مصر التجاري، فخلال الدولة الوسطى التي تميزت بتوسعها التجاري نجد الآثار المصرية التي رافقت ذلك التوسع إلى مناطق الساحل السوري مثبتة بالأدلة بل إمتد تأثيرها الثقافي في كل الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. وإلى جانب إنتشار العبادات المصرية في جبيل فإننا نجد هذه الأخيرة قد تأثرت بالكتابة والتقويم المصريين⁽¹⁸³³⁾، حيث قويت العلاقات التجارية مع " جبيل " طوال الدولة الوسطى فخلال هذه المرحلة إنتشرت بصورة كبيرة النصوص الهيروغليفية في تلك المدينة، حيث تبنى حكام هذه المدينة ممارسة الكتابة بالخط الهيروغليفي المصري، وسجلوا به أسماءهم وأحداثهم على مختلف المجوهرات والمعالم⁽¹⁸³⁴⁾. و تعددت التأثيرات المصرية وتنوعت خلال الدولة الوسطى حيث أن جوانب عديدة من الحياة في "جبيل" منها الهندسة المعمارية والعادات كانت ذات صبغة مصرية⁽¹⁸³⁵⁾.

المطلب الثاني: تأثيرات في جنوب الجزيرة العربية وبلاد النوبة

سبقت الإشارة في الفصل الخامس بأن العلاقات التجارية المباشرة بين مصر وجنوب الجزيرة العربية لم تؤكد بصفة قطعية خلال العصر الفرعوني ودار حولها تناقض بين مؤيد ومعارض، والبعض رجح أنها حدثت لكن في العصر المتأخر ، ومع ذلك وجدت علاقات تجارية ولو بطرق غير مباشرة مثلاً عند الإلتقاء في بلاد "بونت" وعن طريق شبه جزيرة سيناء. وهو ما أدى إلى حدوث تأثير حضاري بشكل واضح.

و هكذا وجدت صلات غير مباشرة بين المنطقتين والتي يقول عنها "عبد المنعم عبد الحليم سيد": « نتج عنها تأثيرات حضارية من مصر إلى الجزيرة العربية، ويمكن أن نعتبر هذا الإتصال صورة من صور الظاهرة المعروفة في تاريخ الحضارات بالإنتشار الحضاري وكان طريق إنتقال هذه التأثيرات من مصر إلى الجزيرة العربية هو شبه جزيرة سيناء ومنها إلى الطريق التجاري الشهير الذي يطلق عليه المؤرخون "طريق الذهب والبخور"، والذي كان يسير بمحاذاة الساحل الآسيوي للبحر الأحمر»⁽¹⁸³⁶⁾. وتمثلت هذه التأثيرات بشكل أكبر في الجانب الديني، حيث عثر على تماثيل برونزية تعود إلى القرن السابع أو السادس ق م، وتم العثور عليها في "معبد يكرب" في مأرب⁽¹⁸³⁷⁾. و هي تشبه التماثيل المصرية إلى حد كبير حتى في التفاصيل الدقيقة، مثل هيئة الوقفة وتقدم القدم اليسرى عن اليمنى. كما كانت توضع على هذا النوع من التماثيل جلود فهود وهو تقليد مصري لأن ألتهتم كانت ترتديها . وحتى التماثيل التي صنعت في هيئة الجلوس فإنها تعطي تأثيراً مصرياً واضحاً و ذلك من خلال اليدين الموضوعتين كل واحدة منهما على ركبة. و تظهر التأثيرات

P. Rousseau , histoire des transports , Op-Cit , p. 35. - (1832)

E. Hornung , Op-Cit , p. 80. - (1833)

K.A. Kitchen , grandeur et décadence des empires , Op-Cit , p. 81. - (1834)

A. Gaudio , Op-Cit , p. 152. - (1835)

(1836) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 418.

(1837) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، المرجع السابق ، ص. 91.

أيضا من خلال الشعر وغطاء الرأس . كما أن دقة التشابه في صناعة التماثيل تتضح بصورة كبيرة من خلال تماثيل لسيدة وجد بإحدى مقابر " تمثع " حيث تبدو كالمصريات في تصفيفة شعرها و كانت عيناها من اللازورد مثلما كان يحدث في مصر، و كل هذه التأثيرات أدت بالإعتقاد بأن الفنانين عند تنفيذهم تلك الأعمال كانت بجانبهم نماذج مصرية(1838).

هذا التفسير يوجد تأكيد له من خلال نص جاء في كتاب " دليل البحر الإثري " في الفقرة التالية: « و إلى هذا المكان [كانا] يرد من مصر القمح والخمر كما هو الحال في موزا... والنحاس والقصدير والمرجان... والتماثيل والثياب الرفيعة المصنعة... » (1839) ، أي أن التجار كانوا يحملون معهم إلى جنوب الجزيرة العربية تماثيل آلهتهم مثلما كانوا يحملونها إلى "بونت" ومناطق أخرى.

كما وجدت أحواض للتطهير والإغتسال في المعابد بجنوب الجزيرة واليمن شبيهة بأحواض التطهير بمصر، إلى جانب ذلك وجدت شواهد القبور ذات فجوات في " مأرب " و هي تشبه " الأبواب الوهمية " ، وكانت تلك الشواهد ذات شكل مستطيل بها حفر توضع بها تماثيل أصحاب تلك الشواهد وكان منها ما وجد في المقابر المصرية حين كانت تحفر في جدرانها كأنها أبواب(1840).

و من الأشياء المتعلقة بالحياة الدينية العثور باليمن على موائد قربان مصرية في أحد مذابح المعينيين(1841). ويقول عنها " عبد المنعم عبد الحليم سيد " : « هي ذلك الشكل الخاص الذي يميز موائد القربان المصرية القديمة، المصمم على هيئة مائدة مربعة مصنوعة من الحجر، بها رسوم محفورة تمثل الأطعمة وأواني الشراب، بينما في وسطها تجويف يبرز من أحد جوانبها على شكل مجرى لتصريف السوائل » (1842).

كما إقتبست اليمن في الميدان المعماري بعض الزخارف المصرية متمثلة في الأبواب وواجهات المنازل كان نمطها منتشرا في مصر منذ عصور جد قديمة، ويتحدث عن هذا الموضوع الجغرافي سترابون، وهو يرى بأن طريقة بناء المنازل يوجد فيها تشابه بين مدن الجزيرة العربية والمنازل المصرية حيث يقول: «...إن منازلها [مدن مثل قارناو عاصمة المعينيين وتمنع عاصمة القتبانيين] تذكر بالمنازل المصرية في طريقة جمع الأخشاب » (1843)، فالأبنية اليمنية مقتبسة من الأسلوب المصري، من خلال طريقة البناء بالحجر، والفناء المتسع وإستخدام الأعمدة المربعة و المنقوشة (1844).

هذا و نجد إنتشار تأثيرات ملاحية مصرية في شعوب البحر الأحمر نتيجة لنشاط المصريين الملاحين التجاري هناك ورحلاتهم المتواصلة إلى بلاد "بونت"، حيث شاع إستخدام السفن الخيطية من قبل العرب و

(1838) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 432.

(1839) - نقولا زيادة ، دليل البحر الإثري ...، المرجع السابق ، فقرة 28.

(1840) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 429.

(1841) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، المرجع السابق ، ص. 91.

(1842) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 428.

(1843) - Strabon , X VI ,Chap IV, 3.

(1844) - أنور الرفاعي ، المرجع السابق ، ص. 108.

التي إستخدموها طيلة العصر القديم وحتى خلال العصر الوسيط. وقد أشار إليها صاحب الدليل الذي ذكرها بإسم Madarata (1845).

كما أنه نتيجة للنشاط التجاري المصري في البحر الأحمر إنتشرت عبادة " أمون- رع " و تقديسه من قبل أهل بلاد "بونت" ، كما تأثر أهل هذه البلاد ببعض مميزات المصريين مثل اللحية ، لكن لحيتهم بالطبع أصلية أما لحية الملوك المصريين فهي مستعارة، كما تشبهوا بهم في إرتداء قلادة مستديرة في العنق مثل القلادة التي يتحلّى بها الملوك المصريون (1846).

أما بالنسبة لبلاد النوبة فإنها تأثرت بالحضارة المصرية بدرجة كبيرة لم يحدث أن تأثرت أية منطقة أخرى من مناطق العالم القديم بها، فقد بدا تأثر النوبيين بالمصريين في الكتابة والفن واللباس والعبادة، ويرجع ذلك لأن شعب النوبة كان متخلفا، ويقال بأنه « تحضر على يد المصريين »، و بالتالي كان قد هضم التأثيرات القوية بسهولة، وهو ما لم يحدث مع بدو الصحراء أو سكان بلاد " بونت " (1847).

فأثار مصر و بصماتها في النوبة واضحة من خلال النقوش هناك، والتي تدل على تواجدهم المستمر بها ووصولهم في رحلاتهم إلى غاية السودان أي الإقتراب من أواسط إفريقيا من أجل التجارة والأشياء الثمينة والنادرة.

إن هذه المخلفات الأثرية المتنوعة تثبت أن العلاقات التجارية لازمتها تأثيرات حضارية مصرية في بلاد النوبة، إذ وجد تشابه في المقابر والأواني الفخارية في هذه البلاد مع مثيلاتها في مصر خلال عصر ما قبل التاريخ، وكانت عادات الدفن في تلك المقابر هي نفسها التي كانت تميز طريقة الدفن في مقابر مصر العائدة إلى تلك الفترة. وحتى الحرف اليدوية تشبه مثيلاتها في مصر و التي تعود إلى عصر تأسيس الأسرة المصرية الأولى، و هذا التطابق إمتد إلى رقعة كبيرة جنوب بلاد النوبة (1848).

و نتيجة للإنتشار والتوسع الكبير في تجارة مصر عبر مراحل العصر الفرعوني حيث وصلت في زمن الدولة الحديثة إلى ذروتها فإن ذلك تبعه إنتقال لعناصر من الحضارة المصرية إلى غاية أواسط القارة الإفريقية، وبالطبع كانت التأثيرات الدينية في الصدارة وإنتشرت المعابد المصرية حيث عبدت الشعوب هناك الآلهة المصرية خاصة منها الإله " أمون رع " ، بل أصبح معبده المعبد الرسمي في كل من " ناباتا " و "مروي" . و كانت معابده هناك مماثلة لمعابد "طيبة" ، بل أنه خلال زمن الملك " تحوتمس الثالث " (1491-1436 ق.م) نجد أن المقابر المحلية قد إندثرت وأصبح الشكل السائد هو المقابر ذات الأشكال المصرية وظهرت الأهرامات الصغيرة. كما تجلت التأثيرات في المجال الصناعي، حيث تأثرت مصنوعاتهم اليدوية بالمنتجات المصرية، وقد وصلت درجة التأثير بالحضارة المصرية إلى حد إتخاذ أسماء مصرية من قبل

(1845) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 434.

(1846) - P. Montet , Op-Cit , p. 182.

(1847) - عبد الفتاح محمد وهيب ، مصر و العالم القديم ...، المرجع السابق ، ص. 310

(1848) - محمد بيومي مهران ، تاريخ السودان...، المرجع السابق ، ص. 191.

الحكام مثل الحاكم الذي يدعى " جحوتي - حتب " الذي كان موجودا زمن الملكة "حتشبسوت" في حين كانت الأسماء قبل ذلك محلية(1849).

و هكذا تكون التجارة قد نجحت إلى حد كبير في إيصال التأثيرات الحضارية المصرية إلى الجنوب من بلاد النوبة و إلى مناطق أبعد لم يصلها المصريون مباشرة أي إلى المناطق التي كانوا يتصلون معها عن طريق الوسطاء النوبيين.

و كانت التجارة في ذلك تنقل معها الأفكار المصرية المتعلقة بعقيدتهم فيما يخص الحياة والموت والبعث وأشياء أخرى تتعلق بنظم الحكم، وأيضا ما يتعلق باللغة حيث إتخذتها "كوش" لغتها الرسمية. فتأثير النوبة بالمصريين تجلى في عدة مظاهر منها اللباس، إضافة إلى اللغة والكتابة وبالتأكيد الدين، والذي لم يقتصر فقط على عبادة الإله " آمون رع " - كما أشرت - ، بل كانت هناك آلهة أخرى منها عبادة " إيزيس " والذي يتواجد هيكله بجزيرة " إلفنتين " حيث كان المبعوثون من " مروي " يحجّون إليه كل عام وهم مثقلين بالهدايا(1850)، كما تأثر النوبيون بالفن المصري لكنهم حولوه ليلائم ذوقهم المحلي(1851).

كانت هذه مقتطفات عن التأثيرات المصرية في بلاد النوبة و المناطق الواقعة جنوبها، و لم أتطرق إليها كلها لأنها عديدة و متنوعة و تشكل موضوعا قائما بذاته، و قد حاولت فقط إبراز بعض منها لتوضيح أهمية التجارة و دورها في وصول تلك التأثيرات إلى هناك، و لولاها لما كانت لتنتشر بتلك القوة.

المطلب الثالث: تأثيرات في شعوب بحر إيجا

إذا كانت بلاد النوبة قد اعتبرت أكثر مناطق الجوار الجغرافي المصري تأثرا بالحضارة المصرية، فإننا نجد شعوب بحر إيجا على الرغم من الجدل حول إمكانية الإتصال المباشر بينها و بين مصر، إلا أننا نجدها قد تأثرت هي أيضا إلى حد كبير بالحضارة المصرية وكان الفضل في ذلك يعود إلى العلاقات التجارية ، فكما وصلت بعض تأثيرات شعوب بحر إيجا إلى حضارة مصر فإن مصر بدورها أثرت في هاته الشعوب. و يقال بأن كريت مثلا أخذت الكثير في مجال صناعة النحاس والأواني منها الخزفية وبعض الصناعات المعدنية الأخرى و خاصة في ميدان العمارة كبناء القصور و بالطبع الكتابة (1852) ، فقد كانت " كريت " تستعمل نفس الأكواب والجرار من الحجارة الصلبة والديوريت، و كذا نفس الأختام المصرية وذلك خلال عصر بداية الأسرات في مصر(1853). كما مارست مصر تأثيرات على الفن "المينيوي"، الذي وصل نتيجة لذلك درجة عالية من التقدم(1854).

و نتج عن ذلك أواني فخارية إيجية مزينة تعود إلى زمن الدولة الوسطى المصرية، تعكس بوضوح تأثير الفن المصري خاصة في تطبيق الأشكال الحلزونية على تلك الأواني(1855). وترجع هذه الإقتباسات الفنية

(1849) - محمد إبراهيم بكر، المرجع السابق ، ص.ص. 70 ، 164- 165.

(1850) - نفس المرجع ، ص.ص. 163- 164 ، 166.

(1851) - H. Gauthier , Op-Cit , p. 98.

(1852) - أنور الرفاعي وشاكر مصطفى ، المرجع السابق ، ص. 33.

(1853) - V. Bérard , les Phéniciens ..., Op-Cit , p. 167.

(1854) - Ö. Olsen , la conquête de la terre..., Op-Cit , p. 30.

(1855) - J.H. Breasted , histoire de l'Egypte..., Op-Cit , p. 192.

لمثل تلك الأشكال إلى عصور جد قديمة لكنها أخذت تتطور لتصل إلى ذلك الحد من الجمال، و جاءت مماثلة بدرجة كبيرة للأشكال المصرية. لم تقتصر هذه الأشكال على الأواني بل زينت بها الأختام المصنوعة من الرخام، الذهب والعاج، والحجارة اللينة، أو الطين المشوي وهي تذكرنا بتزيينات الأختام الحزونية المصرية، وهذه الأشكال إنتشرت إلى مناطق أبعد من بحر إيجا(1856). كما تأثر الفنانون في حضارة "مسينا" بتشكيل المعادن في أشكال حيوانية وهي تزيينات كانت متبعة بمدينة " طيبة " المصرية والتي أخذت طريقها إلى المقابر "المسينية" ، و حتى الكتابة الكريتية القديمة تحمل تأثيرات الكتابة الهيروغليفية(1857).

و تتجلى لنا التأثيرات الفنية في سقف مقبرة "Orchomène" التي تعود إلى فترة زمنية سابقة لحرب طروادة و المعروفة بإسم " كنز Mimyas ". فمن خلال التفاصيل والتموضع العام للتزيينات، يعطي تشابها مذهشا مع تزيين مقابر مدينة " طيبة" المصرية التي تعود إلى الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، وحتى وإن لم يكن من السهل إثبات كون الفنانين المصريين هم الذين قاموا بها فإن ذلك يؤكد على الأقل بأنها أخذت عن نموذج مصري(1858). أما الإغريق فقد أخذوا الكثير عن الحضارة المصرية، حيث نجد فنونهم التشكيلية وخاصة أسلوب فن النحت، وهندسة بنائهم كلها مستوحاة من الحضارة المصرية وهم بذلك قد تأثروا كثيرا بها(1859). كما تأثروا بهم في مجالات أخرى منها الهندسة، و التي يقول عنها سترابون: « إن الإغريق كانوا قد إقتبسوا من المصريين الهندسة (Géometrie) » (1860).

و فيما يخص الفن البحري أي فن صناعة السفن، يرى الكثيرون بأن المراكب الإيجية مختلفة عن المراكب في وادي النيل، لأنه منذ زمن مبكر صنع الإيجيون مراكبا ممتازة، و إبتكروا مركبا ظل مستخدما في كل البحر المتوسط مختلفا عن المراكب المستخدمة في ملاحه النيل(1861). رغم ذلك فإن المثال الذي يعبر عن أولى السفن التي كانت تجوب البحار يعود إلى مصر وهو يتمثل في أسطول " ساحورع " و هو مثال إقتبسته بعد ذلك شعوب البحر المتوسط بما فيهم الرومان الذين كانوا يقطعون بها المسافة بين إيطاليا والهند(1862). وبالتالي يكون الإيجيون هم الذين تأثروا بالمصريين وليس العكس.

من جهة أخرى أجد صدى لنماذج مراكب أسطول الملكة "حتشبسوت" في الفن المينيوي المتأخر حين عرفت أشكال مماثلة لأشكال تلك المراكب في رسوم قصور كنوسوس(1863)، لأن المبادلات التجارية بين التجار المينيوبين ومصر قد أنتجت تأثيرا متبادلا غير مباشر في المجال الفني، و تظهر المراكب الإيجية في رسوم جزيرة " ثيرا " أو في "سانتورين" في السيكلاد التي تحطمت في ثوران بركان هناك، تظهر بعض

(1856) - V. Bérard, Op-Cit , pp. 184 -185.

(1857) - J.H. Breasted, Op-Cit , p. 349.

(1858) - V. Bérard , Op-Cit , p. 199.

(1859) - J. Haywood , Op-Cit , pp. 123 -124.

(1860) - Strabon , XVI , Chap II , 24.

(1861) - G. Glotz , Op-Cit , p. 218.

(1862) - جيمس هنري برستيد ، العصور القديمة ، المرجع السابق ، ص. 40.

(1863) - E. Hornung , Op-Cit , p. 104.

التأثيرات ذات تقليد مصري (1864). فمن خلال رسومات جزر بحر إيجا التي توضح لنا مراكب تعود إلى حوالي 2000 ق.م، يتبين مدى التأثير المصري سواء في شكل هيكل المركب أو في أدوات إدارته (1865). هناك جانب آخر تلقى تأثيرات كبيرة، وكانت له علاقة مباشرة ووثيقة بالتجارة ألا وهو الوزن والقياس، فلا توجد تجارة بدون نظام لهذين العنصرين ، و منذ زمن مبكر كانت بلاد ما بين النهرين ومصر تملكان أنواع كثيرة من الأوزان، و قد تبنت جزر بحر إيجا بعض الوحدات عند مرورها عبر البحر ومنها وحدة " سيكل " ، الذي يزن من 7,58 إلى 8,42 غ، و متوسطه 8 غ. هذا النظام إنتشر في كريت منذ الأسرة الثانية عشرة (1866). و هناك مقياس من الذهب يزن 13 غ إنتشر في كل من كريت و قبرص و من هناك عبر إلى اليونان ليصبح خلال القرن السادس ق.م العيار المتبع و الذي يزن 6,12 غ. وخلال الأسرة الثامنة عشرة إنتشر العيار المصري " كيديت " في كريت (1867). و مع تزايد العلاقات التجارية بين مصر وكريت خلال هذه الأسرة، إنتقلت هذه الوحدة إلى كل الجزر الإيجية، وهناك وحدة عرفت في مصر منذ سنة 2000 ق.م ، وهي في شكل زيتونات من ذهب تزن في المتوسط 14,13 غ إنتشرت من مصر إلى كل جزر البحر المتوسط خاصة قبرص وكريت مثلما إنتشرت في فلسطين (1868).

أما في المجال الأدبي فإننا نجد القصص الفرعونية قد إنتشر صداها لدى شعوب بحر إيجا و منهم الإغريق، ومن هناك إنتقلت إلى عديد المناطق الأوروبية، والفضل في ذلك يعود إلى التجار الذين كانوا يتنقلون بسفنهم في البحر المتوسط مرددين تلك الروايات (1869)، فالأدب المصري واضح في الأوديسا، و هناك عدد كبير من العلامات المميزة لقصة " الملاح الناجي " في مغامرات " الأوديسا " ، و كذلك في مغامرات " السندباد البحري " (1870). إن التشابه دقيق جدا بين قصة الملاح الناجي و "الأوديسا" و يتضح ذلك في وصف أهوال البحر وأمواجه التي تعرض لها " أوديسيوس " بطل قصة "الأوديسا" الشعرية أثناء عودته إلى وطنه بعد حصار طروادة وتحطيمها، فجاءت ملحمة هوميروس متأثرة في ذلك بالأدب المصري و كنت قد أوردت مقتطفات منها في الفصل السابع عند الكلام عن الأخطار الطبيعية التي كانت تشكل مصاعب للملاحة التجارية. و لم تخلو ديانة شعوب بحر إيجا خاصة الإغريق من التأثيرات المصرية والتي كانت معتبرة، حيث دخلت أشكال الديانة المصرية إلى كريت، و قد ماثلت تلك الشعوب آلهتها بالآلهة المصرية، و أتوقف هنا لأنني لا أريد الدخول في هذا الموضوع لأنه طويل و شائك.

و في ميدان الطب كانت لمصر تأثيرات في شعوب كثيرة ، حيث بلغت شهرتها به العالم القديم ، و كان أطباؤها خلال الدولة الحديثة يعدون كمنتجات للتصدير ، و ذلك نتيجة لخبرتهم الميدانية المكتسبة بفضل

K.A. Kitchen , Op-Cit , p. 86. - (1864)

E. Angelucci et autres , Op-Cit , p. 21. - (1865)

G. Glotz , Op-Cit , p. 222. - (1866)

J. Pirenne , histoire de la civilisation de l'Egypte..., Op-Cit , p. 228. - (1867)

G. Glotz , Op-Cit , pp. 223-224. - (1868)

(1869) - روايات وقصص مصرية ، ص. 16.

V. Bérard , Op-Cit , p. 162. - (1870)

التحنيط، حيث كان كبار الحكام بآسيا يتمنون أن يكون لهم أطباء مصريين خاصين(1871). كما تأثرت شعوب أخرى بإهتمام المصريين بالأحجار الكريمة ، فقد سار البطالمة في ذلك على نفس منوال الفراعنة ، فمثلا خلال زمن حكم " بطليموس الأول " (258-323 ق.م) إهتم هذا الأخير بالكشوفات على هذه الأحجار في البحر الأحمر ، و كان نتیجتها أن توصل قائد الأسطول آنذاك و هو " فيلون " (Philon) إلى إكتشاف جزيرة "الزمرّد" (1872). و هناك دليل تاريخي على تأثر الإغريق في مجال التشريعات القانونية بمصر والمتمثل فيما ذكره هيرودوت حين قال: « كان " أمازيس " و هو واضع القانون الذي يفرض على كل مصري أن يبين سنويا مورد عيشه لحاكم الولاية، ومن لا يفعل ذلك ولم يثبت أنه يعيش عيشة مشروعة، كان عقابه الموت، ولقد نقل "صولون" الأثيني هذا القانون عن المصريين ووضعه للأثينيين وهؤلاء يطبقونه إلى الآن، إذ لم يوجه إليه أي طعن » (1873).

هذا ونجد بعض التسميات المصرية لسلع البحر الأحمر قد إنتقلت إلى شعوب أخرى معاصرة للعصر الفرعوني، وحتى الشعوب المتأخرة عن ذلك العصر. وهي بالطبع الشعوب التي تعاطت التجارة في ذلك البحر بعد أن تراجعت عنها تجارة مصر، مثل العبرانيين والإغريق، ومن هذه التسميات "الأبنوس" وهو "هبن" أو "هبنی" بالمصرية، نجده في اللغة اليونانية "Ebenos" وفي اللاتينية "Ebenum"، وفي العبرية "أبنوس". وتسمية العاج "أبو" و "آب" بالمصرية بدورها إنتقلت من اللغة المصرية القديمة إلى لغات الشعوب الأخرى و أصبحت في العبرية "أبه" و في السنسكريتية (الهندية) "Ibha"، وفي اللاتينية "Ebu-r". والقرفة "خاسية" بالمصرية نجدها في اليونانية واللاتينية Cassia. والكحل : "مسدمة" نجده في القبطية قد تحول إلى CTHM (Stem) و في اليونانية Stimmi و باللاتينية Stibium ، و غيرها من التسميات (1874).

المبحث الخامس: فضل التجارة في إنتشار الكتابة

إن موضوع الكتابة في العالم القديم إرتبط إرتباطا شديدا بالتجارة، لذلك كان لابد من التطرق إلى هذا الموضوع لإبراز فضل التجار في إنتشار الكتابة. فقد خلف لنا المصريون القدماء نقوشا عديدة تروي لنا تاريخهم وحضارتهم، وهي " الهيروغليفية " ، و هو إسم أطلقه عليها المصريون أنفسهم، وتعني " الكتابة المقدسة"، لأن الغرض منها في البداية كان دينيا و قد جاءت في شكل صور (1875). و يرجع البعض إختراع الكتابة إلى تأثير "سومري" أي أن مصر أخذت فكرة الكتابة عن بلاد ما بين النهرين، لكن في الحقيقة أن جذور الكتابة المصرية تعود إلى عصر ما قبل التاريخ و تحديدا إلى حضارة نقاده قبل أن تطرأ التأثيرات السومرية على مصر (1876). حيث كان المصريون قد إبتكروا الكتابة منذ زمن جد قديم يعود إلى الألف الخامسة ق.م، والدليل على ذلك أن الأسرة الخامسة التي جاءت بعد ذلك بألف سنة ذكر كتابها عديد الملوك الذين كانوا

(1871) - A. Eggebrecht , l'Egypte ancienne..., Op-Cit , p. 223.

(1872) - بشير زهدي ، المرجع السابق ، ص. 101.

(1873) - هيرودوت ، فقرة 177.

(1874) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 74.

(1875) - أنور الرفاعي و شاكّر مصطفى ، المرجع السابق ، ص. 26، 79.

(1876) - أحمد أمين سليم ، المرجع السابق ، ص. 79 - 80.

يحكمون في الوجهين البحري والقبلي قبل بداية عصر الأسرات، كما أن الدليل الآخر هو خط الكتابة في حد ذاته، فقد إستعملت الأسرة الأولى الخط الهيراطيقي والمعروف عنه أنه تطورا للخط الهيروغليفي أي إختزالا له(1877).

لكن البعض يحدد أقدم ظهور للكتابة المصرية التي وصلت إلينا بحوالي 3000 ق.م، وأخذت تتطور إلى أن وصلت إلى اللغة القبطية(1878). و عن إشارات الهيروغليفيه فقد « وجدت بها 22 إشارة أبجدية تمثل حروفا صوتية ونحو 139 إشارة مقطعية تمثل مقطعا كاملا وعدد عظيم من الإشارات والمقاطع الصوتية، على أن هذه الكتابة بقيت في نهاية الأمر للحفر والتزيين، وعدل المصريون عنها إلى نوعين من الكتابة: اليدوية السريعة (الهيراطيقيه) التي وجدت على أقدم البرديات و الديموطيقيه وهي أكثر إختصارا ووجدت بين عهدي الأسرتين الواحدة و العشرين و الخامسة و العشرين » (1879). لكن البعض يرى أن الهيروغليفيه تحوي 24 حرفا أبجديا ولو أن المصريين لم يستخدموها لوحدها ككتابة منفردة، بل كانت ترافق دائما الإشارات المقطعية(1880). إن التطورات التي طرأت على الهيروغليفيه وإختصار تعقيداتها إلى إشارات أبسط من خلال الكتابة الهيراطيقيه، والتي تطورت بدورها إلى الكتابة الديموطيقيه، كل ذلك أدى بها إلى أن تكون ملائمة للمعاملات التجارية والمراسلات الداخلية والخارجية والأداب(1881).

و مع ذلك و رغم السيطرة التجارية التي حققتها مصر خاصة خلال الدولة الحديثة، إلا أن لغة التجارة في العالم القديم كانت اللغة البابلية، حيث إستعملها الفراعنة أنفسهم كلغة عالمية في "مصلحة خاصة بالبلدان الأجنبية"، ورسائل " تل العمارنة " شاهد على ذلك، حيث خطت نصوصها بالكتابة البابلية.

و مثلما إنتشرت الكتابة البابلية في مناطق العالم القديم فإن الكتابة المصرية من جهتها إنتشرت إلى كل من سيناء وجنوب فلسطين في العديد من مدن هاته الأخيرة مثل: " مجيدو " و " شكيم " حيث عثر هناك على نقوش مشابهة لنقوش سيناء التي حددها البعض بأنها تعود إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ق.م(1882)، وقد أطلق على الكتابة التي تم العثور عليها بسيناء بالكتابة ما قبل السنائية ، التي وجدت في "سرابيط الخادم" وهي شبيهة جدا بالهيروغليفيه، و قد حملت ذلك الإسم لأنه وجدت كتابة أخرى في نفس المنطقة زمن الأنباط سميت الكتابة "السينائية"، لكن تحديد زمنها وقع فيه إختلاف ، فالبعض يرجعه إلى الدولة الوسطى وآخرون إلى الدولة الحديثة. وهناك رأي ثالث يرى بأن إختراعها كان قد حدث زمن الأسرة الثالثة عشرة، وكثيرا منها يعود إلى زمن الدولة الحديثة(1883)، إلا أن البعض يذهب بأنها ليست بخط هيروغليفي وأنها كتابة تطورت لوحدها، وكانت تمثل حروفا هجائية، وهي بذلك لا تعود إلى الكتابة المسمارية كما إعتقد البعض الآخر(1884).

(1877) - عبد الرحمان الرفاعي ، المرجع السابق ، ص. 28.

(1878) - محمد إبراهيم بكر، المرجع السابق ، ص. 29.

(1879) - أنور الرفاعي وشاكر مصطفى ، المرجع السابق ، ص. 27.

(1880) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 422.

(1881) - أنور الرفاعي ، المرجع السابق ، ص. 79 - 80.

(1882) - نجيب ميخائيل إبراهيم ، المرجع السابق ، ص. 57.

(1883) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 422 - 423.

(1884) - نجيب ميخائيل إبراهيم ، المرجع السابق ، ص. 53.

لكن يبقى الرأي الأرجح أنها حروف أبجدية نتجت عن تبديل وتحويل في جزء من علامات الكتابة الهيروغليفية وبالتالي فهي تبسيط لما إمتازت بها مقاطع الكتابة المصرية فجاءت في شكل حروف أبجدية. وذلك العمل يعد تطورا هاما في تاريخ الكتابة ككل (1885)، لأن هذه الكتابة ستنتقل إلى عديد مناطق العالم القديم ، فكما كانوا وسطاء في التجارة مع شبه الجزيرة العربية ونقلوا لها التأثيرات الحضارية فإنهم أيضا نقلوا لها تلك الأبجدية المتطورة عن الكتابة المصرية وبالتالي نشأت الأبجدية الجنوبية، ولو أن هناك رأي يقول بأن هذه الأخيرة و المتمثلة في خط المسند هي أقدم من هجائية الكتابة ما قبل السينائية (1886).

لا أريد الدخول في هذا الإشكال المعقد، والأهم إن كان إنتشار الكتابة الهيروغليفية في سيناء وجنوب فلسطين قد أسفر على ميلاد كتابة هجائية عرفت بـ: ما قبل السينائية فإن الكتابة الهيروغليفية أثرت كثيرا في مدينة " جبيل " ، و- كما ذكرت سابقا- فإن أهلها كانوا يستخدمون في كتاباتهم الحروف الهيروغليفية الشبيهة جدا بالمصرية.

تبنى الفينيقيون منذ الألف الثالثة الكتابة الهيروغليفية، وهجروها حوالي 2200 ق.م ليعوضوها بنظام جديد مستوحى من الكتابة المصرية، ومع ذلك ظل هذا النظام يتميز بالتعقيد ، ثم عملوا على إيجاد أسلوب ثالث هيروغليفى أيضا لكن أبسط من السابق والذي أشتقت منه الأبجدية، و هكذا فإن سكان جبيل حوالي القرن الثامن عشر أو التاسع عشر ق.م إخترعوا الأسلوب الرابع و إستمر إستعماله فيما بعد ، و كان يمتاز بإثنتين و عشرين إشارة واضحة وسهلة التمييز تشمل كل واحدة نفس الصوت (1887). كما إنتقلت الكتابة المصرية عن طريق التجارة إلى "رأس الشمر" التي عثر بها على مكتبة مليئة بالألواح الطينية كتب عدد منها بالهيروغليفية (1888).

و هكذا فإن الكتابة المصرية قد إنتشرت في مناطق عدة من العالم نتيجة للتجارة، وهي في ذلك تشبه تجارة الأراميين التي كان يرافقها نشر لغتهم وكتاباتهم في كل منطقة تمكنوا من الوصول إليها، لدرجة أن اللغة الأرامية كانت لغة التجارة والمراسلات، وكان قد خصص لها موظف في كل من مصر وآشور وبلاد فارس (1889). ومن العوامل التي ساعدتهم على إنتشار لغتهم و كتابتهم ، تبسيط الكتابة حيث توصلوا إلى وضع أبجدية إشتقت من الفينيقية، والتي كانت تتكون من 22 حرفا (1890).

إلا أن الأبجدية الفينيقية رغم أن المتفق عليه أنها هي أصل كل الأبجديات لدى شعوب كثيرة وانتقلت حتى إلى اللغات الغربية إلا أنه دار حولها نقاش كبير بخصوص زمن إكتشافها، ومصدر إشتقاقها، والبعض لا يرى بأنها الأبجدية الأم بل تطورت عن كتابة أخرى، لا أريد أن أدخل في هذا الجدل، وأؤكد بأن الكتابة المصرية بفضل التجارة إنتشرت في مناطق عدة من العالم القديم وساهمت كثيرا في الحضارة الإنسانية و لو بطريق غير مباشر.

(1885) - عبد المنعم عبد الحليم سيد ، المرجع السابق ، ص. 422.

(1886) - بلقاسم رحمانى وحرفوش مدني ، المرجع السابق ، ص. 90- 91.

(1887) - J. Boulos , les peuples et les civilisations ..., Op-Cit , p. 108.

(1888) - نجيب ميخائيل إبراهيم ، المرجع السابق ، ص. 57.

(1889) - شحادة الناظور ، المرجع السابق ، ص. 96.

(1890) - ر. انجلياخ ، المرجع السابق ، ص. 345.

و لو أنني تناولت في عجلة و بإختصار شديد موضوع دور التجارة في إيصال التأثيرات الحضارية لأن المجال لا يتسع للدخول في تفاصيل أكثر ، إلا أن هذا العرض السريع أكد بشكل واضح ما للتجارة من أهمية في إنتقال كل موروث حضاري سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، و هو ما توضحه مظاهر تأثيرات التجارة في مصر و في محيطها الحضاري. وبناء عليه أقول و بدون مبالغة بأن التأثيرات الحضارية لم تكن لتنتشر و يكون لها ذلك المفعول في ذلك العصر لولا التجارة، بل هي العامل الوحيد و الأهم في لعب ذلك الدور، و لولاها لعاشت المجتمعات في عزلة عن بعضها ، بل أكثر من ذلك لما تطورت حضارتها و أعطت ثمرة منتوجها للإنسانية.

خاتمة:

بإلقاء نظرة عن أهمية التجارة المصرية في نقل التأثيرات الحضارية من وإلى مصر أكون قد أنهيت آخر فصل في الدراسة، والذي طرحت من خلاله آخر إشكاليات موضوع البحث، وبذلك وصلت إلى الخاتمة والتي تضمنت أهم الملاحظات والإستنتاجات، والتي حوصلتها في النقاط التالية:

* تميّزت تجارة مصر بتنوع وثائقها، بحيث لم تتوفر مثل هذه المصادر سواء كانت ماديّة أو أثرية لأي شعب من الشعوب القديمة التي وُصفت بكونها قوى تجارية، رغم أن ما كُشف عنه يعدّ قليلاً مقارنة بالمدة الزمنية للعصر الفرعوني و ثراء الحضارة المصرية و ازدهارها في مختلف المجالات، ومع ذلك فإن الكثير لا يرى في مصريّ ذلك العصر تجاراً وبحارة عظماء مثلما خلدوا إسمهم من خلال مبانيهم الجنائزية.

* من خلال هذه الدراسة يتّضح لنا أن تجارة مصر خلال العصر الفرعوني متشعبة الجوانب ولا زالت نقاط كثيرة فيها بحاجة إلى توضيح ودراسة من قبل المختصين. فرغم الآثار المتنوعة التي تعطي معلومات وافرة في هذا المجال، إلا أن الدراسات الحديثة لم تعط للتجارة المصرية حقها مثلما أعطته لتجارة شعوب العالم القديم الأخرى حيث حصرت التجارة في شعوب محدّدة. وقليلون هم المؤرخون الذين أفرّوا بممارسة الشعب المصري للتجارة، وهو ما أثبتته دراستي للموضوع. حيث توفرّت عناصر ملائمة جعلت من المصريين تجّاراً خلال العصر الفرعوني، وبالتالي تفنّد الرأي القائل بأن مصر لم تعرف التجارة إلا خلال العصر الإغريقي.

* لم يُعط للوثائق التي تناولت تجارة مصر حقها من الدراسة، و لم تُستعمل كثيراً في تحليل ومعالجة هذا الموضوع، وأرى أن تلك الأحكام إستمدّها أصحابها ممّا جاءت به المصادر الكلاسيكية الإغريقية والرومانية، وما جاءت به التوراة. وهذا النوع من المصادر – كما عرفنا في المدخل- لا يعطي إثباتاً أو إشارات واضحة أو ذكر بصريح العبارة لتجارة مصر رغم عديد الإكتشافات الأثرية التي تثبت مما لا يدعو مجالا للشك إزدهار التجارة المصرية خلال العصر الفرعوني، وأرى أنه رغم النقص الكبير الذي يعترى تلك الوثائق كما أوضحت إلا أنّ ذلك لا ينقص من أهميتها.

* يتميّز موقع مصر بتوسّطه مراكز التجارة العالمية، من جهة التجارة الإفريقية بقسميها الصحراوية والإستوائية (تجارة أواسط إفريقيا)، وتجارة المحيط الهندي، البحر المتوسط وبحر إيجا وكذلك مراكز التجارة البريّة في آسيا الصغرى والشرق الأدنى. وهكذا عرفت مصر كيف تستغل هذا الموقع، وأكثر من ذلك فإنّ هذه الوضعية حثّمت على مصر تعاطي التجارة بأنم معنى الكلمة، وتجاوزت ذلك بأن تكون محطة هامة في تجارة العالم القديم ككل عبر تنقّل السلع التجارية من مصادر ها إلى مناطق أبعد، وفي ذلك لم تقل شأنًا عن شعوب ذلك العصر في لعب دور الوسيط التجاري.

* ومثلما كان موقع مصر جدّ مساعداً على التجارة فإنّ ثراءها بالمنتجات الزراعية والصناعية التي يحتاج إليها جيرانها كان له دور في ذلك، و بالمقابل لم تستغن حضارة مصر أبداً عن بعض الضروريات التي كان لزاماً عليها إحضارها من مصادر ها لدى الشعوب المجاورة، وذلك يدل على أنّ مصر لم تكن متفوقة على نفسها على إمتداد نهر النيل كما يرى الكثير، بل كانت متفتحة على عالمها الخارجي كما يدل كذلك على وجود تكامل بينها وبين جيرانها.

* من مميزات التجارة المصرية إرتباطها بالملك الذي إحتكرها كما إحتكر جوانب الحياة الإقتصادية الأخرى لدرجة أنّ ذلك كان من الحجج التي أتخذت في التدليل على نفي ممارسة مصر الفرعونية للتجارة. ومن خلال الدراسة أثبت بأن ذلك لم يكن بالمبرر الكافي، وبما أن حضارة مصر تمحورت وإرتبطت بدرجة لا مثيل لها بالديانة التي كان يُعتبر فيها الملك إلهاً، فإنه من الطبيعي أن تكون التجارة تنسب إليه، كما أن طبيعة

التجارة التي كانت لها خاصيتها المميزة جعلت الملك هو وحده القادر على الإمساك بزمامها وهو أمر لا ينفي تواجد طبقة من التجار، لكن فاعليتها محدودة وبسيطة إقتصرت على وجه الخصوص على المعاملات المحلية. وعليه فإن كانت طبقة التجار قد برزت بشكل واضح في مجتمعات أخرى وكان لها نصيب وافر من الإهتمام من خلال الوثائق المادية والكتابية فأبني أقول بأن طبقة التجار في مصر كانت هي الأخرى مميزة لأنها كانت على نوعين: إضافة إلى التجار البسطاء هناك طبقة الأعيان وعلى رأسهم الملك والذين اعتبرهم في نفس الوقت طبقة التجار.

* ولو أن المؤرخين قد أجمعوا على أن مصر لم تعرف قوانين تجارية وكان ذلك بالنسبة للكثير منهم دليلاً قوياً على عدم تعاطي مصر التجارة كمهنة قائمة بذاتها على غرار ما نلمسه لدى شعوب أخرى، كشعوب بلاد ما بين النهرين مثلاً التي أعطت للإنسانية أقدم التشريعات القانونية بما فيها التجارية، إلا أن هذه المسألة لا تُطرح بهذه الكيفية بالنسبة لمصر خلال العصر الفرعوني وذلك للإرتباط الوثيق بين التجارة والملك وخاصة التجارة الخارجية، وبالتالي فلا داعي لوجود قوانين طالما الملك هو المُحتكر لها وهو الذي يمثل القانون في نفس الوقت، بمعنى أنه ليس بالضرورة أن ما جرى لدى شعوب أخرى لا بد من حدوثه في مصر وذلك إعتباراً لخصوصية هذه الأخيرة، سيما وأن المصريين عُرفوا بممارستهم القانونية وإنضباطهم في عديد المجالات الأخرى، فلا يمكن أن تسير المعاملات التجارية دون ضوابط قانونية تنظيمية، وهو ما أوضحته في نقاط عدة، فكانت هناك إجراءات صارمة بدء من مراقبة الأسواق الداخلية ومراكز الحدود وفرض الضرائب الجمركية والقوانين المنظمة للتجار الأجانب ووحدات القياس... إلخ. وكلها تدخل ضمن القوانين المنظمة للتجارة، وربما الذي لم يصلنا منها يُخفي معه الكثير عن هذا الموضوع.

* عرفت مصر حركة تجارية داخلية لا تقل أهمية عما تميّزت به مثيلاتها لدى الشعوب الأخرى، فكانت هناك أسواق عملت مصر على تنظيمها، ومن خلال الدراسة يمكن أن نتخيل الحركة النشطة للتجارة داخل هذه الأسواق وفي الموانئ والدليل الأكبر على ذلك هو تحوّل مراكز تجارية وأسواق إلى مدن هامة أُنيت على ذكر بعضها، وأبعد من ذلك أن حدود مصر كانت تُعدّ أسواقاً كبرى تعقد في وقت محدّد وبصفة خاصة الحدود الجنوبية.

* وكما كانت التجارة نشطة بالداخل كانت كذلك مع مناطق الجوار الجغرافي، وهو ما أشرت إليه بشيء من التفصيل من خلال الفصلين الثالث والرابع، حيث تمثل هذا النشاط في بعثات جدّ منظمة، والتي تعد مؤسسات تشمل عديد الجوانب وتضم حاشية كبيرة العدد سواء كانت منها البعثات البرية أو النهرية أو البحرية، لم تشهد شعوب العالم القديم مثلها من حيث التنظيم والإستعداد والإهتمام، وأيضاً من حيث ما كانت تحمله تلك البعثات من ضخامة السلع وتنوعها وقيمتها الثمينة، ومع كل ذلك قيل عنها بأنها سلع كماليات، وهو ما جعل البعض يبنّي عليها نفيه لكون مصر كانت لها تجارة، وحتى وإن كانت كذلك فهي ليست حجة مقنعة، لأنه لا يمكن نفي قيام تجارة على أساس أن السلع هي كمالية، لأن كثير من السلع التي كانت تتاجر فيها الشعوب الأخرى كالفينيقيين كانت كماليات، هذا إن لم أقل أن كلها كانت كذلك هذا من جهة، ومن جهة أخرى هي توصلي من خلال دراستي إلى أن المواد التي كانت محل التداول في التجارة المصرية ليست كلها كماليات أو بالأحرى لا يمكن النظر إليها نظرة سطحية وإعتبارها كمالية، لأن الأمر يتضح جلياً حين التوقف للحظات والتأمل في مجالات إستخدامها لتبدو ضرورية من وجهة النظر الدينية وأيضاً لإزدهار الصناعة.

* إن التجارة المصرية عُرفت بتجارة الرحلات الطويلة وهو ما تؤكده البعثات البحرية والبرية و النهرية، وفي هذا المجال فإن المصريين لم يكونوا أقل شأنًا من نظرائهم الفينيقيين والعرب وغيرهم، خصوصاً وأنهم قطعوا مسافات لم يسبقهم فيها أحد من قبل وُعِدوا بذلك مستكشفين كباراً، وكان لهم الفضل في أن يدشنوا أول طواف حول القارة الإفريقية في سبيل بحثهم عن السلع التجارية.

* من السمات البارزة في التجارة المصرية تعدّد الوسطاء من الأجانب لدرجة أن الكثير من المؤرخين يرون فيهم أنهم هم من حمل على عاتقهم التجارة في مصر ولم يقدّم بها المصريون بأنفسهم، أي أنه لم توجد في مصر تجارة بآتم معنى الكلمة وهو أمر مبالغ فيه. فمن خلال التعلّص لهذا الموضوع خلصت إلى أن الوسطاء التجاريين الأجانب كانوا حقيقة واقعة في التجارة المصرية، وتكاد مصر تنفرد بتعدد التجار الأجانب عن باقي الشعوب المعاصرة لها، ورغم ذلك فإن الأمر لم يتجاوز كونهم وسطاء أدّوا مهمةً مثلما يحدث مع باقي تجارات الشعوب الأخرى، خصوصاً وأن دورهم كان يبرز خلال فترات تراجع التجارة المصرية. فالوساطة كانت قد مارسها كل شعوب ذلك العصر، والمصريون بدورهم لعبوا هذا الدور وساهموا في تنشيط تجارة الغير.

* من خلال الدراسة لفت إنتباهي ميزة أخرى إمتازت بها التجارة المصرية ألا وهي تنوّع طرقها: برّية، نهرية وبحرية وتشعّب مسالكها خاصة منها البرية وكانت تشكّل حول وادي النيل ما يشبه شبكة العنكبوت، فلا أكاد أّمس مثل هذا التفرّع في مناطق أخرى من العالم القديم.

* نتيجة لتسبب الطرق التجارية البرية منها والبحرية إستوجب على ملوك مصر إيجاد منظومة حماية لتلك الطرق من أجل تأمين التجارة برا وبحرا لأن حكام مصر أدركوا مدى أهميتها في الحركة التجارية وإزدهارها، لذلك عمدوا إلى بذل جهود كبيرة من أجل حمايتها رغم أن الأمر في ذلك العصر يُعد جد صعبا خصوصا وأنها تمتد لمسافات طويلة، وتغطي مساحات كبيرة الشيء الذي يُصعب من مهمة السير فيها مع تعدد مخاطرها ولذلك جاءت تلك المنظومة متنوعة الأساليب، وميزت بذلك تجارة مصر عن باقي تجارات شعوب عصرها ويبدو أن مثل هذه الجهود لم تبذلها شعوب أخرى معاصرة، ولو أنها كانت هي الأخرى تطبق بعضها منها إلا أنه لم يكن ذلك بنفس إستحكامات المصريين ولم تجتمع عندهم كل الأساليب في وقت واحد، خصوصا إذا علمنا بأنه أكتشفت على طول ساحل البحر الأحمر أبراجا تعود إلى العصر الفرعوني كانت تستعمل بالتأكيد في حراسة البعثات، وكانت تتصل فيما بينها بالإشارات التي تترجم إلى معان.

* إن صناعة السفن في مصر أعطت دفعة قوية للملاحة التجارية، وذلك بتطورها وتنوعها ومميزاتها من خلال حمولاتها وأبعادها الكبيرة جدا ومقاومتها للظواهر الطبيعية وبالتالي قدرتها على السير لمسافات طويلة، وهو ما يجعل مصر في مصاف القوى التجارية البحرية الكبرى. بمعنى أن مصر كانت قد إمتلك أسطولا تجاريا لم يكن أقل شأنًا من الأساطيل التجارية الفينيقية والإغريقية والرومانية فيما بعد.

* من خلال الدراسة تتضح مسألة هامة وهي مساهمة مصر في تنشيط تجارة الغير، فلو لا حاجة مصر لأخشاب الساحل السوري وبعض منتوجاته الأخرى، إضافة إلى المواد التي تأتيه من مناطق أبعد لما نشطت التجارة لدى شعوب ذلك الساحل ولما كانت أخشابها لتعرف ذلك الإهتمام وتلعب ذلك الدور في تجارة البحر المتوسط. كما أنه لو لا حاجة مصر إلى سلع البحر الأحمر وفي مقدمتها البخور الذي سميت التجارة فيه بإسمه لما ازدهرت التجارة هناك، وقس على ذلك حاجة مصر لمنتوجات القارة الإفريقية وإنعكاس ذلك على التجارة في كل العالم القديم، بالإضافة إلى كل ذلك فإن الفائض في كثير من منتوجات مصر ومعادنها وصناعاتها التي كانت الشعوب المجاورة في حاجة ماسة إليها، ساهم في عقد صلات مكثفة بين الطرفين وكذا تنشيط التجارة المصرية وتجارة هذه الشعوب.

* تلك المساهمة الفعالة في تجارة المحيط الجوّاري يؤدي بي إلى تأكيد مسألة بدورها هامة وهي توفر عناصر ملائمة لدى المصريين خلال العصر الفرعوني لجعلهم تجارا كبارا وهي: الموقع، الإكتفاء الذاتي، وجود فائض للتصدير، حاجة الغير إلى ذلك الفائض، حاجة مصر لعديد المواد المتوفرة في ذلك المحيط، توفر شبكة طرق متنوعة ووسائل نقل فعالة وأيضا إتباع سياسة أمنية من أجل حماية التجارة وطرقها، وجود موانئ عملت على إستقطاب الحركة التجارية العالمية، و إلى جانب كل ذلك فإن مصر لم تكن في يوم ما قوة حربية تحتل وتسيطر، إضافة إلى أمور أخرى كثيرة أتيت على ذكرها في مضمون هذه الدراسة.

* قد يتبادر إلى الذهن أن المصريين لم ينشئوا مستوطنات خلال القيام برحلاتهم التجارية الطويلة على غرار ما فعلته شعوب أخرى كالعرب والفينيقيين والإغريق، وبالتالي قد يعتبر البعض ذلك كاف للإنتقاص من قيمة تجارتهم، لكن من خلال الدراسة تبين بأن المصريين كانت لهم خصوصياتهم في هذا الأمر، حيث إكتفوا بإيجاد محطات عبارة عن مراكز تجارية أكبر بقليل من الأسواق وخاصة في بلاد النوبة، وكانت تتواجد على الحدود، في حين كانت لهم أحياء أو بالأحرى جاليات في مناطق أخرى مثل الساحل السوري والفلسطيني وغيرها، وكلها تسهر على عقد الصفقات التجارية، بينما إنشاء المستوطنات تكون له دوافع أخرى إلى جانب الدافع التجاري منها البحث عن أراضي خصبة للعيش فيها، وبما أن مصر لم تكن بحاجة لذلك لأن أراضيها تعد من أخصب أراضي العالم القديم، فإنها لم تسع إلى خلق مناطق جديدة لها. وعليه فإن هذا الوضع يحسب لصالح التجارة المصرية وليس عليها، لأن كل ممارسات المصريين وتوسعاتهم كانت بدافع تجاري بحث ماعدا في بلاد النوبة حيث كانوا في بحث عن مناجم المعادن الثمينة والأحجار الكريمة و السعي إلى الوصول إلى مصادر بعض السلع.

* تميّزت تجارة مصر بفترات صعود ونزول وهذا تبعا لقوة البلاد، ولو أن المؤرخين تضاربت آراؤهم حول سبب تدهور مصر ومرورها بمراحل تدهور إلى أن تراجعت قوتها خلال الألف الأولى ق.م، إلا أنني أرى في ذلك صلة وثيقة بالتجارة، ولو أن البعض يرى أن تدهور مصر السياسي كان ينعكس سلبا على التجارة، إلا أنني أرى أن العلاقة تسير في الإتجاهين فمثلما ساهمت التجارة المصرية في رقي وتطور الحضارة المصرية وثنائها فإنها في حالات تراجعها كان ينعكس ذلك سلبا على قوة مصر، بمعنى أن عدم الإهتمام بالتجارة نتيجة لضعف السلطة الحاكمة يؤدي حتما إلى تراجع التجارة وهذا الوضع يساهم في ضعف قوة مصر وبالتالي انحطاطها.

* ومثلما كانت التجارة المصرية عاملا ملازما لإزدهار مصر أو تدهورها، كانت كذلك عاملا في بسط التأثيرات المصرية خارج الحدود الجغرافية، و في نفس الوقت تعمل على نقل التأثيرات الخارجية إلى

الحضارة المصرية، ولم يقل دورها في ذلك عن دور تجارة غيرها من الشعوب التي يُعزى لها هذا الفضل، وبذلك كانت التجارة المصرية قد خدمت الحضارة الإنسانية في تبلورها وتطورها.

* وإذا قُسمت الشعوب القديمة على أن بعضها تميز بتعاطي التجارة البحرية وآخر بممارسة التجارة البرية أو التجارة النهرية وثالث إتصف بنوعين في آن واحد، وعُدّت بذلك قوى تجارية عظمى، فإنني أقول من خلال هذه الدراسة أن تجارة مصر خلال العصر الفرعوني كانت تجارة بحرية، نهريّة وبريّة في نفس الوقت، وعليه فإن هذا التنوع دليل كاف على أن مصر مارست التجارة وكانت ترقى بالفعل إلى مصاف تلك القوى.

* مع كل ما أثبتته الدراسة من حقائق على أن التجارة المصرية توفرت لها كل المعطيات والظروف التي جعلتها تلعب دور القوة التجارية المسيطرة في العالم القديم خلال العصر الفرعوني إلا أن القليل من المؤرخين من أنصفها وجعل المصريين شعبا عرف التجارة كمهنة قائمة بذاتها ومع ذلك لم يعتبروها قوة تجارية لا بحرية ولا برية رغم وجود أسطول تجاري ضخم ومميّز و رغم الحقائق التاريخية الأخرى الشاهدة على ذلك.

* إنّ التجارة المصرية هي حقيقة تاريخية لا يمكن إنكارها رغم محاولات كثير من الدراسات التقليل من قيمتها، وأحيانا نفيها تماما عن المصريين، وبالتالي فإنّ تجارة مصر كانت حلقة مهمّة في سلسلة تطوّر تجارة الشعوب القديمة، فقد أخذت فيها مصر الزعامة لفترة زمنية طويلة، هذا إن لم أكن مبالغة حين أقول بأنها كانت المسيطر الأول عليها وأقصد بالتحديد تجارة البحرين: المتوسط والأحمر وتجارة إفريقيا، لتتنقل سيادتها فيما بعد إلى شعوب أخرى.

* على كل إن دراستي لتجارة مصر الفرعونية أوصلتني إلى حقيقة فشل النظرية القائلة بأن قيام الحضارات القديمة كان نتيجة للقوة والسيطرة والحرب وتغلب شعب على آخر، حيث أن الأساس في قيام الحضارات وإزدهارها هو السلم والتعايش مع المحيط الجغرافي المبني على الحركة التجارية، وأن القوة كانت مهدّمة للحضارة وللشعوب. فتجارة مصر مثال بارز على أن قوة هذا البلد ورقي حضارته لم يكونا وليدي القوة العسكرية والحرب بل كانا نتاج التجارة التي جعلت مصر القوة المسيطرة تجاريا، فالقوة هي قوة الإمساك بزمام التجارة ومسالكها وليست قوة الآلة العسكرية.

* أبعد كل هذا يُنتقص من قيمة تجارة مصر خلال العصر الفرعوني؟!.

I- المصادر والمراجع باللغة العربية:

1- المصادر:

أ- الكتب المقدسة:

- القرآن الكريم.

- التوراة ، (بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، 1968).

- الكتاب المقدس ، (دون مكان طبع ، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ، 1988).

ب- قصص فرعونية:

- روايات وقصص مصرية من العصر الفرعوني، ترجمتها إلى الفرنسية جوستاف لوفيفر، و ترجمها إلى العربية علي حافظ وراجعها أنور عبد العزيز، إشراف الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم، (مصر: دار مصر للطباعة. دون تاريخ).

ج- الكتابات الكلاسيكية:

- زيادة نقولا ، « دليل البحر الإثري وتجارة الجزيرة العربية البحرية » ، في : دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، إشراف عبد الرحمن الطيب الأنصاري ، (ط ؛ 1 ، الرياض : مطابع جامعة الملك سعود ، 1984) ، ج 1.

- هوميروس ، الأوديسا ، ترجمة أمين سلامة ، (دون مكان طبع ، دار الفكر العربي ، 1977 – 1978).

- هيرودوت ، هيرودوت يتحدث عن مصر ، ترجمة محمد صقر خفاجة، تقديم أحمد بدوي ، (مصر: دار القلم، 1966).

2- المراجع:

أ- المراجع العربية:

- إبراهيم ، نجيب مخايل ، مصر والشرق الأدنى القديم ، (ط ؛ 2 ، دون مكان طبع ، دار المعارف ، 1964) ، ج 3.

- بكر، محمد إبراهيم ، صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديم، (مصر: مطبعة هيئة الآثار المصرية، 1992).

- البكر، منذر عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، تاريخ الدول الجنوبية في اليمن ، (دون مكان طبع ، مطبعة جامعة البصرة ، مديرية دار الكتاب، 1980).

- ترسيصي، عدنان، اليمن وحضارة العرب مع دراسة جغرافية كاملة، (بيروت: دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ).

- حتي، فيليب وآخرون ، تاريخ العرب ، مطول، (ط؛ 2 ، بيروت: دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، 1952)، ج 1.

- الخطيب ، محمد ، مصر أيام الفراعنة، (ط ؛ 1 ، دمشق: منشورات دار علاء الدين ، 2001).

- دروزة، محمد عزة، تاريخ موجات الجنس العربي ودولها وآثارها في بلاد الشام (سورية ولبنان والأردن وفلسطين) قبل العروبة الصريحة، (بيروت: المكتبة العصرية، دون تاريخ).

- رحمانى، بلقاسم وحرفوش، مدني، الدور المصري في جنوب شبه الجزيرة العربية والشرق الإفريقي ، مراجعة سيد أحمد علي الناصري، (القاهرة، 1997).

- الرفاعي، عبد الرحمن، تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة من فجر التاريخ إلى الفتح العربي، (ط؛ 1، القاهرة، 1963).

- الرفاعي، أنور، تاريخ الحضارات والأساطير في العالم العربي القديم، (ط؛ 5، دمشق: مطبعة جامعة دمشق، 1997 - 1998)، ج 1.

- الرفاعي، أنور و مصطفى، شاكر، معالم الحضارات في الشرق والغرب، (ط ؛ 1، دمشق، 1947).

- روفائيل، إسكندر سامي، التميمة المشطورة، مراجعة وتقديم زكي إسكندر، (القاهرة : دار المعارف، 1970).

- سليم، أحمد أمين، في تاريخ الشرق الأدنى القديم، (ط ؛ 2، القاهرة، 1980) ، ج 1.

- سليم، أحمد أمين وعباس سوزان، دراسات في تاريخ مصر الفرعونية: منذ أقدم العصور حتى بداية الدولة الحديثة، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، دون تاريخ).

- سيد، عبد المنعم عبد الحليم ، البحر الأحمر وظهيره في العصور القديمة ، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1993).

- صادق، شكري، تاريخ الفنون الجميلة عند قدماء المصريين ، (ط؛ 2، القاهرة، 2000).

- صالح، عبد العزيز، حضارات الشرق الأدنى القديم: مصر والعراق، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1973).
- عصفور، محمد أبو المحاسن، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، (ط؛ 2، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1979).
- غلاب، محمد السيد، الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافيا والتاريخ، (ط؛ 1، بيروت: دار العلم للملايين، 1969).
- فخري، أحمد، مصر الفرعونية، موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام 332 ق.م، (ط؛ 2، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1960).
- فرح، نعيم، موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم، السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، (دمشق: دار الفكر، 1972).
- كريم، سيد، لغز الحضارة المصرية، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996).
- مكاي، فوزي، الناس في مصر القديمة، (القاهرة: المجلس الأعلى للآثار، 1995).
- مهران محمد بيومي، الحضارة المصرية القديمة، (ط؛ 4، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1989)، ج 2.
- _____، تاريخ السودان القديم، (ط؛ 1، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1994).
- _____، مصر منذ قيام الملكية حتى قيام الدولة الحديثة، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1995).
- _____، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1995)، ج 2.
- مهران محمد بيومي، الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفرعونية، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1999).
- موسى، سلامة، مصر أصل الحضارة، (مصر: المطبعة العصرية، دون تاريخ).
- الناظور، شحادة وآخرون، مدخل إلى تاريخ الحضارة، (ط؛ 2، الأردن: دار الكندي للنشر والتوزيع، 1991).
- وهيبة، عبد الفتاح محمد، مصر والعالم القديم، جغرافية تاريخية، (دون مكان طبع، دار النهضة العربية، 1972).
- ي. ن.، تاريخ توت عنخ آمون، (ط؛ 1، مصر: مكتبة ريدان العمومية، دون تاريخ).
- ب- المراجع العربية:
- ألدريد، سيريل، مجوهرات الفراعنة، ترجمة وتحقيق مختار السويدي، مراجعة وتقديم أحمد قنبري، (ط؛ 1، القاهرة: الدار الشرقية، 1990).
- إمري، والتر، مصر في العصر العتيق (الأسرتان الأولى والثانية)، ترجمة راشد محمد توير ومحمد علي كمال الدين ومراجعة عبد المنعم أبو بكر، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1917).
- إنجلباخ رجينالد، مدخل إلى علم الآثار المصرية مع الإشارة إلى المتحف المصري بنوع خاص، ترجمة أحمد محمود موسى ومراجعة أحمد عبد الحميد يوسف، إشراف وإعداد وإصدار ضياء أبو غازي، (ط؛ 3، القاهرة، 1988).
- برستيد جيمس هنري، العصور القديمة، ترجمة، داود قربان، (بيروت، 1926).
- _____، إنتصار الحضارة، تاريخ الشرق القديم، ترجمة أحمد فخري، (القاهرة، دون تاريخ).
- تريجر، ب.ج وآخرون، مصر القديمة، التاريخ الاجتماعي، ترجمة: لويس بقطرو مراجعة مختار السويدي وتصدير جاب الله علي جاب الله، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1999).
- حتى، فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، مراجعة وتحرير جبرائيل جبور، (بيروت: دار الثقافة، 1958)، ج 1.
- حوراني، جورج فضل، العرب والملاحاة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة يعقوب بكر ومراجعة وتقديم يحيى الخشاب، (القاهرة - نيويورك: مكتبة الإنجلو المصرية، 1958).
- دريوتون، آتين وفاندييه، جاك، مصر، ترجمة عباس بيومي، (القاهرة، 1950).
- رايفشتال، إليزابيث، طيبة في عهد أمنحوتب الثالث، ترجمة إبراهيم رزق، (بيروت - نيويورك: مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، 1967).
- سبنسر، جيفري، مصر في فجر التاريخ مشرق الحضارة في وادي النيل، ترجمة عكاشة الدالي، مراجعة تحفة حدوسة، إشراف عام جاب الله علي جاب الله، (القاهرة، 1999).
- فخري، أحمد، بين آثار العالم العربي (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1958).

- فخري، أحمد ، واحات مصر، ترجمة جاب الله علي جاب الله، مراجعة محمد جمال الدين مختار،(القاهرة: مطابع هيئة الآثار المصرية، 1993)، ج 1.
- — ، الصحراوات المصرية، ترجمة جاب الله علي جاب الله، مراجعة شوقي عبد القوي عثمان، (القاهرة : مطابع المجلس الأعلى للآثار، 1999)، ج 2.

3- الموسوعات:

- موسوعة تاريخ الحضارات العام، إشراف مورييس كروزية، ترجمة فريد. م. داغر وفؤاد.ج. أبو ريحان، (ط؛ 4، بيروت – باريس: منشورات عويدات، 1998)، ج 1.

4- الدوريات:

- أحمد، محمود عبد الحميد، « الصلات التجارية بين مصر وسورية منذ عصر ما قبل الأسرات حتى نهاية الدولة القديمة (2280-4000 ق.م) » ، دراسات تاريخية ، 19 و 20، (1985).
- حامدة، أحمد، « التجارة الكنعانية (الفينيقية) في البحر المتوسط » ، دراسات تاريخية، 73-74، (2001).
- زهدي، بشير، « لمحة عن الأحجار الكريمة والجواهر القديمة » ، الحوليات الأثرية السورية، 14، (1964).
- شيفر كلود ، « حفريات رأس شمرا – أوغاريت » ، الحوليات الأثرية السورية ، 3، (1953) ج 1 و 2 .
- فرزات، محمد حرب ، « العلاقات الحضارية بين بلاد الخليج العربي وشبه القارة الهندية حتى الألف الأولى ق.م » ، دراسات تاريخية، 37 و 38، (1990).
- مرعي، عيد، « التاجر ونشاطاته في العهد البابلي القديم » ، دراسات تاريخية ، 23 و 24 ، (1986).

5- الرسائل الجامعية:

- رحمانى، بلقاسم، علاقة جنوب شبه الجزيرة العربية بشرق إفريقيا منذ قيام الدويلات العربية الجنوبية حتى الفتح الإسلامي، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، جامعة الجزائر، 1993.

II- المصادر و المراجع باللغة الأجنبية:

1- المصادر:

- Diodor de Sicile, Bibliothèque historique, traduction de Ferdinand Holfer,(3^e éd, Paris:Hachette, S. d.)
- Hérodote, Histoires , traduction de L. Humbert,(Paris: Garnier Frères,Libraires-Editeurs,S.d),t.IV.
- Méla Pomponius, Géographie, Traduit par Louis Baudet, (Paris, 1843).
- Pline l'Ancien , Histoire naturelle , traduit par Hubert Zehnacker, (Paris : Gallimar ,1999).
- Strabon, Géographie,Traduit par Amedée Tardieu,(Paris: librairie Hachette, 1880), t. XVII.

2- المراجع:

- Arnaud,Daniel, le Proche – Orient ancien de l'invention de l'écriture à l'hellénisation , (Paris : Bordas,1970), t. 1.
- Bérard , Victor, les Phéniciens et l'Odyssée, (Paris : librairie Armand Colin, 1927) , t. 2.
- Boulos , Jawad , les peuples et les civilisations du Proche – Orient , essai d'une histoire comparée, des origines à nos jours. (Paris, 1962) , t.2.
- Breasted, James Henry, Histoire de l'Egypte,depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête persane, traduction et préface de Jean Capart, (Bruxelles, 1926), t.1.
- Casson, Lionel, les marins de l'Antiquité (explorateurs et combattants sur la méditerranée d'autre-fois), traduction de Lilly Galhi Kahil, (Paris: Hachete, 1961).
- Cavaignac, Eugène, Histoire général de l'Antiquité. (Paris: les belles lettres, 1946).
- Culican ,William,le Levant et la mer,histoire et commerce,traduit par Antoinette Zendel-Bérnard, (Paris-Bruxelles, 1967).
- Daumas, François , La civilisation de l'Egypte pharaonique , (Paris : B. Arthaud, 1965).
- Des Noëttes, C^t Lefebvre, de la marine antique à la marine moderne, la révolution de gouvernail, (Paris, 1935).
- Desroches – Noblecourt , Christiane, Vie et mort d'un Pharaon Toutankhamoun ,(Paris :Librairie Hachette, Paris, 1963).
- Duché , Jean , les grandes routes du commerce, (Paris : Flammarion , 1969).
- Dykmans, (G), Histoire économique et sociale de l'ancienne Egypte, (Paris,1936-1937). t.1, 2 et 3.
- Eggebrecht, Arne, L'Egypte ancienne, 3000 ans d'histoire et de civilisation au royaume des Phara-

- ons, préface de Jacques Lacarriere, (2° éd; Bordas civilisations, 1997).
- **Erman, (A) et Ranke, (H)**, la civilisation égyptienne, traduction de Charles Mathien, préface de B. Van de Wall, (Paris: Payot, 1963).
 - **Gaudemet Jean**, Institutions de l'Antiquité , (2°éd ; Paris : 1982).
 - **Gaudio , Attilio** , les Empires de la mer, préface de Fernando Fussi, (Paris, 1962).
 - **Gauthier, Henri**, « l'Egypte pharaonique », In: Précis de l'histoire d'Egypte, préface de Mohamed Zaky El- Ibrachy Pacha,(le Caire:Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie orientale du caire ,1932).
 - **Glitz, Gustave**, la civilisation égéenne, (Paris: la renaissance du livre, 1923).
 - **Grimal, Nicolas**, Histoire de l'Egypte ancienne, (Paris : Librairie Arthème 1988).
 - **Haywood, John**, les civilisations antiques du Proche-Orient et de la méditerranée, traduction de Dedier Pernerle, (Paris: Larousse, 2000).
 - **Henry, (D.M.J)** , l'Egypte pharaonique ou histoire des institutions des égyptiens sous leurs Rois nationaux, (Paris, 1846), t. 2.
 - **Herman , Zvi**, peuples, mers, navires, traduction de Josef Milbauer, (Paris:Edition Arts et métiers graphiques, 1964).
 - **Hornung, Erik** , lecture de l'histoire égyptienne , traduction de Denis Trierweiler , (Paris : Edition du Rocher, 2000).
 - **Hyde, Walter Woodburn** , Ancient Greek mariners, (New York- Oxford: University press,1947).
 - **Jansen, Jac (J)**, « Gagner sa vie »« in: Egypte, terre de civilisation, traduction de Claude Grozier-Brelot, sous la direction de Jaromir Malek, (Paris : Bordas, 1993).
 - **Kitchen, (K.A)**,« Grandeur et décadence des empires »,in :Egypte ,terre de civilisation, traduction de Claude Grogier- Brelot, sous la direction de Jaromir Malek, (Paris: Bordas, 1993).
 - **Lalouette, Claire**, La littérature égyptienne, (1° éd ; Paris : Presse universitaire de France, 1981).
 - _____, l'Empire des Ramsès , (Paris : Fayard, 1985).
 - _____, Thébès ou la naissance d'un Empire, (Paris : Fayard, 1986).
 - **Maillet,Dominique**, « les rapports des Grecs avec l'Egypte (de la conquête de Cambyse, 525 , à celle d'Alexandre , 331) » in : Memoires de l'Institut français d'Archéologie Orientale du Caire, (le Caire, 1922), t. 48.
 - **Maithand, A. Edey** , les premiers marchands des mers , traduit par Simon Noireaud , (U.S.A: Noireaud,Editions time-Life International, 1974-1976).
 - **Margueron, Jean - Claude et Pfirsch, Luc**, Le Proche - Orient et l'Egypte antique , (Paris : Hachette, 1996).
 - **Metheun, S.Davis** ,Race – relations in Ancient Egypte – Greek, Egyptian, Hebrew, Roman, (2° éd; London: COLTD, 1953).
 - **Mollat du Jourdin , Michel et Desanges, Jehan**, les routes millénaires, (Paris: Nathan ,1988).
 - **Montet , Pierre**, La vie quotidienne en Egypte au temps des Ramsès 1300-1100 , (Paris :Hachette, 1946).
 - **Moret , (A)**, le Nil et la civilisation égyptienne , (Paris , 1937).
 - **Moret, (A), et Davy (G)**, des clans aux Empires , l'organisation sociale chez les primitifs et dans l'Orient Ancien, (Paris, 1922).
 - **Moscatti, Sabatino et Napoli,Mario**, Phéniciens et Grecs en Méditerranée, traduction de Jean-Paul Clébert , (Paris: éditions Atlas, 1978)
 - **Olsen, Örjan**, la conquête de la terre, histoire des découvertes et des explorations des origines à nos jour, traduction de E. Guerre, (Paris: Payot, 1933).
 - **Pirenne, Jacques** , histoire de la civilisation de l'Égypte ancienne, de la fin de l'Ancien Empire à la fin du Nouvel Empire (2200-1085 av-J.C) (Suisse - Paris, 1962).
 - **Rousseau, Pierre**, Histoire des transports , (Paris : Fayard, 1961).
 - **Saive- Soderbergh,Torgny**, the Navy of the eighteenth égyptian dynasty, (Leipzig, 1946).
 - **Samhaber, Ernst**, Histoire du commerce, traduction de Claude Miquel, (Paris, Arthaud, 1963).
 - **Shaw, Ian**, « le pays noir, le pays rouge », in : Egypte terre de civilisation , traduction de Claude Grozier- Brelot , sous la direction de Jaromir Malek , (Paris: Bordas, 1993).

- **Stierlin Henri** , l'or des Pharaons , (Paris , 1993).
- **Tariel, Michel**, Chronique des civilisations anciennes, (Paris: Les éditions du Panthéon, 1997) , t.1.
- **Thomazi (A)** , Histoire de la navigation, (2° éd; Paris : Press Universitaire , 1942).
- **Van Loon, Hendrik**, la conquête des mers, histoire de la navigation, préface de René Jouan, (Paris : Payot, 1947).
- **Vercoutter, Jean**, essai sur les relations entre Egyptiens et Préhellènes, (Paris , 1954).
- **Wilson, John (A)**, l'Egypte, vie et mort d'une civilisation, préface de Georges Posener , (Paris : Arthaud, 1961).

-3 الموسوعات:

- **Angelucci, Enzo et autre**, Encyclopédie des navires, (Paris / Bruxelles , 1979).

-4 الدوريات:

- **Chelhod Joseph**, « le traditionnel et l'Acquis dans l'activité mercantile Yemenite » , Cahiers du Gremano, N° 10, (1991).
- **Gil – Artagnan, André**, « Essai de reconstitution d'un navire et d'une navigation antique » , Archéologia, 96, (Juillet 1976).
- _____, « Retrouver le pays de Pount » , Archéologia, 188, (Mars 1984).
- **Leclant, Jean**, « A la quête de Pount » , Archéologia, 96, (Juillet 1976).
- **Mauny, Raymond**, « Le périple de l'Afrique par les Phéniciens de Néchao vers 600 av. J-C » , Archéologia, 96, (Juillet 1976).
- **Pirenne, Jacques**, «Y'eut-il des foires dans l'Egypte ancienne? » , Recueils de la société Jean Bodin, t. 5, (1953).
- _____, « les villes dans l'ancienne Egypte , institutions économique et sociales » , Recueils de la société Jean Bodin, t.7, (1955).
- _____, « le statut de l'étranger dans l'Ancienne Egypte » , Recueils de la société Jean Bodin, t.9, (1958).
- **Stierlin, Henri**, « La barque royale de Khéops » , Archéologia, 267, (Avril 1991).
- **Vercoutter, Jean**, « Les pistes de l'or égyptien » , Archéologia, 337, (1997).

-5 القواميس:

- **Damiano - Appia, Maurizio**, l'Egypte, dictionnaire encyclopédique de l'ancienne Egypte et des civilisations nubienes, (Paris: Gründ, 1999).
- **Posener, Georges et autres**, Dictionnaire de la civilisation égyptienne, (Paris, 1959).
- **Rachet, Guy**, Dictionnaire de la civilisation égyptienne, (Paris : Larousse, 1998).

-6 الأطالس:

- **Manley, Bill**, Atlas historique de l'Egypte ancienne de Thébès à la Alexandrie: La tumultueuse épopée Pharaons, traduction de Philippe Martinez, (Paris:édition Autrement, 1998).

فهرس الخرائط

62	إمتداد مصر الفرعونية خلال الدولة الوسطى.....	: خريطة رقم 01
198	بعثة "نيخاو" (الطواف حول القارة الإفريقية).....	: خريطة رقم 02
	القناة الثلاثية الرابطة بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والنيل	: خريطة رقم 03
276		
280	الطرق التجارية في البحر المتوسط.....	: خريطة رقم 04
	تخطيط جيمس هنري بريستيد للطرق التجارية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط.....	: خريطة رقم 05
284		
288	الطرق التجارية في البحر الأحمر.....	: خريطة رقم 06
301	طرق الصحراء الشرقية	: خريطة رقم 07
305	طرق الصحراء الغربية.....	: خريطة رقم 08
310	الطرق الجنوبية.....	: خريطة رقم 09

فهرس الجداول

155- 153	البعثات التجارية في البحر المتوسط.....	: جدول رقم 01
171- 169	البعثات التجارية في البحر الأحمر.....	: جدول رقم 02
187 -185	البعثات التجارية البرية - النهرية.....	: جدول رقم 03

- أتيين دريوتون : 12.
- آثنيين : 74، 377.
- أحمد حامدة : 47.
- أحمد فخري : 19، 102، 144، 148، 253، 258، 331.
- آخيين : 248، 336.
- أرسطو : 47، 270.
- الإسكندر : 114، 115، 200، 250، 253، 290.
- إسييس : 159، 169.

- أ -

- أبريس : 252.
- أتيليو قوديو : 16.

186، 204، 209، 213، 216، 227، 238، 249، 258، 263، 272، 289، 291، 297، 343، 344، 345، 353، 365، 373.
- نحو تمس الرابع : 219، 366.
- التحنو : 230، 306، 319، 324.
- تريجر : 43، 158، 183.
- التملحو : 177، 232، 240.
- توت عنخ آمون : 105، 109، 181، 186، 211، 219، 238، 239، 226، 353، 354، 355، 241، 244، 363.
- تومازي : 187، 199، 291، 313، 316، 337.
- تيتي : 45، 142، 153، 156، 169.

- ج -

- جاردنر : 296.
- جاك فاندبييه : 12.
- جيت : 24، 318.
- جر : 24، 30، 233، 322، 324.
- جورج فضلو حوراني : 193، 190، 334.
- جيل أرتانيون : 196، 273، 293، 317.
- ح -
- حانون : 193، 196، 200، 199.
- حتشبسوت : 19، 21، 22، 28، 55، 146، 156، 159، 158، 162، 163، 165، 167، 168، 170، 180، 181، 183، 182، 186، 187، 203، 205، 209، 212، 211، 215، 213، 219، 220، 227، 266، 286، 289، 316، 317، 342، 366، 373، 375.
- حر كوف : 27، 176، 177، 178، 182، 185، 202، 210، 306، 332.
- حمورابي : 119، 120.
- حورمحب : 165، 170، 179، 361.
- الحثيين : 74، 238، 351.
- حينو : 27، 160، 202، 161، 205، 206، 207، 210، 209، 215، 332، 286، 334.
- خ -

- خنت - خاتي - ور : 30، 162، 216.
- خنوم - حوتب : 20، 30، 38، 202، 236، 203، 299.
- خوفو : 42، 137، 141، 153، 159، 169، 175، 174، 185، 219، 231، 263، 315، 317، 326.
- خيتي : 130، 179.

- د -

- داريوس الأول (دارا) : 114، 200، 270، 271، 274.
- دروزة : 43، 236.
- دوماس : 11، 188، 218، 272، 273، 347.
- دومنيك ماييه : 290، 274.
- ديزونج : 160، 197.
- ديكمانس : 102، 112، 115، 143، 228، 277، 281، 330، 297، 343، 348.
- ديودور : 47، 73، 50، 88، 268، 241، 270، 271، 290.

- ر -

- رخميرع : 20، 22، 204، 209، 247.
- رمسيس الأول : 25، 181، 186.
- رمسيس الثاني : 31، 73، 95، 147، 154، 165، 183، 170، 229، 240، 272، 291، 332، 337، 346، 353، 363.
- رمسيس الثالث : 39، 86، 111، 134، 147، 154، 165، 167، 207، 214، 220، 227، 2268، 241، 286، 292، 299، 325، 337، 346، 365.
- رمسيس الرابع : 165، 170.
- رمسيس العاشر : 77.
- روسو : 316.
- رومان : 291، 312، 375.

- ز -

- زكر بعل : 37، 213، 240.
- زوسر : 174، 185، 319، 326، 367.
- س -
- ساحورع : 18، 19، 26، 32، 137، 142، 149، 150، 153، 158، 160، 159، 167، 169، 175، 185، 208، 209، 219، 248، 313، 314، 315، 322، 341، 342، 376.

- الآسيويون (الآسيويين) : 137، 139، 142، 149، 150، 152، 217، 218، 239، 247، 319، 320، 323، 324، 341، 346.
- الآشوريين : 46، 122.
- الإغريق : 45، 57، 114، 116، 122، 124، 125، 160، 182، 190، 199، 200، 238، 243، 251، 252، 253، 267، 269، 270، 274، 281، 291، 294، 312، 328، 335، 345، 346، 375، 376، 377.
- أفلاطون : 47، 250.
- إليزابيث رايشتال : 162، 178، 293.
- أمازييس : 122، 123، 125، 182، 251، 252، 253، 281، 293.
- إمري : 43.
- أمنمحات الأول : 35، 179، 186، 231، 326، 324.
- أمنمحات الثاني : 14، 29، 144، 145، 154، 162، 169، 178، 186، 202، 203، 216، 363.
- أمنمحات الثالث : 41، 42، 83، 145، 154، 220، 329.
- أمنمحات الرابع : 42، 145، 154، 215، 220.
- أمنحوتب : 21، 124.
- أمنحوتب الثاني : 161، 156، 361.
- أمنحوتب الثالث : 17، 45، 258، 353.
- أمينوفيس الأول : 324.
- أمينوفيس الثاني : 242.
- أمينوفيس الثالث : 31، 40، 181، 43، 219، 197، 222، 220، 246، 323، 364.
- أمينوفيس الرابع (إخناتون) : 39، 40، 43، 121، 122، 125، 165، 132، 240.
- أميني : 161، 206، 207، 210.
- أنتيفوكر : 30، 205.
- أنور الرفاعي : 298.
- أنور الرفاعي وشاكر مصطفى : 257.

فهرس الأعلام

- أوناس : 18، 42، 318، 322.
- أونامو : 37، 77، 128، 152، 204، 208، 213، 216، 240، 243، 333، 335، 336.
- أونى : 18، 202، 277، 275، 319.
- أونيس : 142، 153.
- إيجيين : 13، 92، 247، 250، 364، 375.

- ب -

- البابليين : 121، 136.
- بترى : 13، 15، 39، 137.
- بريستيد : 77، 271، 185، 278، 278، 282، 283، 358.
- بسيماتيك الأول : 122، 252، 271، 291.
- بسيماتيك الثاني : 148، 154، 182، 186، 329.
- بشير زهدي : 81، 258.
- بلين : 47، 51، 52، 53، 72، 73، 75، 77، 83، 88، 96، 199، 359.
- بوكوريس : 107، 122.
- بونتيين : 21، 206، 164، 211، 218، 217، 224، 227، 236، 295.
- بيب : 127، 128، 130.
- بيبى الأول : 18، 42، 142، 169، 153، 175، 185، 208، 202، 277، 319، 335.
- بيبى الثاني : 27، 42، 96، 142، 143، 153، 158، 168، 175، 178، 177، 185، 202، 285، 322.
- بيبى نخت : 27، 38، 177، 185، 202، 285، 322.
- بيرار : 88، 285، 346.
- بيرين : 22، 103، 113، 128، 129، 130، 143، 184، 204، 291.

- ت -

- تحوتمس الأول : 181، 272، 278، 309، 323، 327.
- تحوتمس الثاني : 228.
- تحوتمس الثالث : 20، 21، 22، 33، 39، 40، 43، 83، 84، 91، 110، 111، 131، 139، 146، 157، 156، 164، 170، 181، 183.

- محمد السيد غلاب : 97، 260، 341.
 - مرنبتاح : 235، 324.
 - مرنرع : 27، 175، 177، 176، 185، 202، 277، 275، 278.
 - المسينيين : 41، 220، 243.
 - الملاح الناجي : 34، 35، 156، 167، 210، 220، 286.
 - 287، 314، 333، 334، 340، 376.
 - المليزيين : 240، 250، 252، 253، 292.
 - منتوحتب الأول : 325.
 - منتوحتب الثاني : 150، 161، 169، 202، 323.
 - منتوحتب الثالث : 28، 160، 161، 331.
 - منتوحتب الرابع : 161.
 - منتوحتب نب رع : 178، 179، 186، 328.
 - موريه : 231.
 - موننتية : 41، 42.
 - مونتي : 194، 196.
 - ميخو : 27، 178.
 - ميلا : 199، 255، 265، 268.
 - المينيويون : 246، 248.
 - ن -
 - نارمر : 31، 261، 323.
 - نب حتب رع : 176.
 - نجيب ميخانييل إبراهيم : 58، 137.
 - نحيسي : 203.
 - نخاو الثاني : 46، 49، 147، 154، 166، 170، 188، 189، 190، 191، 192، 193، 194، 197، 198، 199، 251، 270، 271، 272، 273، 345، 365.
 - نعيم فرح : 34.
 - نقولا زيادة : 310.
 - نكتابو الأول : 31، 114، 126.
 - النوبيون : 44، 91، 101، 106، 125، 137، 171، 172، 206، 218، 224، 225، 226، 227، 233، 247، 373.
 - ه -
 - هرمان : 38، 168، 272.
 - الهكسوس : 162، 178، 232، 236، 237، 248، 320.
 - الهلينييين : 125، 251، 313، 338.
 - هنري : 106، 300.
 - هوميروس : 47، 48، 190، 278، 340، 376.
 - هيد : 191، 192، 193، 197.
 - هيرودوت : 47، 48، 49، 50، 57، 104، 123، 135، 192، 193، 194، 197، 200، 240، 242، 252، 267، 268، 270، 271، 272، 274، 302، 321، 345، 352، 359، 377.
 - و -
 - وافي : 28، 300.
 - والقراب إمري : 137.
 - ولسون : 123.
 - وليام كوليكان : 98.
 - ي -
 - اليونانيون : 123، 232، 329.

- سترابون : 47، 48، 50، 51، 88، 95، 137، 180، 242، 252، 256، 268، 270، 271، 274، 292، 335، 337، 373، 376.
 - سنغرو : 14، 32، 42، 45، 58، 137، 141، 153، 159، 169، 174، 248، 278، 313، 315، 319، 322، 324، 355، 357، 358.
 - سنموت : 22، 203، 204.
 - سنوحي : 365، 37، 136، 139، 235، 221، 143، 238، 262، 298، 328.
 - سنوسرت الأول : 29، 30، 36، 43، 106، 144، 154، 161، 169، 162، 179، 186، 206، 205، 210، 220، 230، 294، 299، 323، 326، 344.
 - سنوسرت الثاني : 19، 30، 203، 272، 294، 356، 363.
 - سنوسرت الثالث : 51، 30، 111، 128، 145، 154، 169، 180، 186، 221، 225، 231، 262، 236، 272، 273، 275، 276، 295، 321، 322، 326، 328.
 - السوريين : 121، 122، 244، 289، 361، 364.
 - سيبني : 27، 178، 182، 185.
 - سيتي الاول : 165، 170، 181، 182، 186، 272، 274، 299، 275، 325، 332، 337، 353.
 - سيريل ألدرين : 13، 90، 91، 94، 356، 357.
 - سيلاكس : 199.
 - سينيفر : 146، 154.
 - ش -
 - شحادة الناظور : 259، 347.
 - ششيني الأول : 147، 154، 216.
 - شعوب البحر : 147، 245، 246، 247، 248، 249، 250، 292.
 - ع -
 - عيد العزيز صالح : 179، 300، 348.
 - عيد الفتاح محمد وهيبه : 271، 293، 312.
 - عبد المنعم عبد الحليم سيد : 89، 158، 161، 163، 162، 203، 255، 272، 294، 360، 370، 371.
 - عحا : 30، 318.
 - عدج ايب : 233، 319.
 - العرب : 48، 171، 149، 200، 254، 255، 257، 258، 260، 270، 306، 341، 347، 371.
 - عنخو : 203، 347.
 - ف -
 - الفرس : 114، 252.
 - الفلاح الفصيح : 35، 231.
 - فليب حتي : 245، 296.
 - فينيقيون (فينيقيين) : 22، 36، 47، 69، 100، 115، 120، 139، 140، 151، 155، 190، 191، 192، 193، 194، 195، 196، 197، 199، 233، 241، 242، 243، 244، 245، 246، 248، 250، 257، 281، 267، 290، 312، 313، 316، 341، 348، 363، 370، 373.
 - ق -
 - القبارصة : 121، 122، 125، 222، 340.
 - قريمال : 173.
 - قوتيه : 252.
 - قودميه : 266، 346.
 - ك -
 - الكاريين : 122، 253.
 - كاسون : 16، 190، 191، 193، 194، 197، 294، 314.
 - كريتيون (كريتيين) : 13، 19، 39، 121، 220، 246، 250، 290، 316، 335، 364.
 - كفتيو : 246، 247، 249.
 - كيتشن : 220، 227، 258.
 - ل -
 - لا لوات : 70، 143.
 - لبييون (لبيين) : 111، 157، 169، 177، 228، 229، 230، 231، 232، 233، 239، 247، 252، 302، 320، 323، 366.
 - م -
 - مانلي : 177.
 - محمد أبو المحاسن عصفور : 134.
 - محمد بيومي مهران : 207، 237، 271.
 - محمد الخطيب : 75، 79، 208، 347، 348، 354.

أ -

- أبيدوس : 13، 24، 32، 107، 128، 165، 176، 231، 302، 308، 319.
- إثيوبيا : 178، 190، 193، 224، 307، 308.
- إخن : 108، 124، 126، 225، 261، 328.
- إدفو : 107، 201، 299، 307، 318، 331.
- أدوليس : 293، 308، 341.
- أرسينوي : 270، 293.
- الإسكندرية : 50، 122، 190، 242، 252، 290، 292، 344.
- آسيا : 48، 50، 55، 100، 107، 111، 117، 138، 140، 143، 146، 151، 165، 180، 181، 183، 186، 193، 217، 218، 222، 234، 235، 237، 238، 243، 245، 268، 279، 289، 290، 296، 349، 357، 376.
- أسبوط : 177، 260، 306.
- آشور : 41، 222، 220، 380.
- إفريقيا : 50، 51، 53، 107، 111، 146، 175، 180، 186، 188، 189، 190، 191، 192، 194، 195، 196، 197، 198، 200، 211، 223، 224، 226، 228، 232، 244، 248، 255، 256، 261، 265، 267، 290، 302، 307، 318، 349، 350، 351، 358، 359، 366، 371.
- ألكسوم : 308.

- 308، 313، 315، 316، 330، 331، 332، 333، 334، 335، 336، 338، 339، 340، 341، 342، 343، 344، 345، 349، 371، 372، 377.
- بحر إيجا : 19، 21، 24، 25، 41، 44، 45، 46، 48، 75، 221، 222، 244، 246، 248، 249، 264، 278، 281، 283، 339، 289، 340، 349، 363، 374، 375، 376.
- البحر المتوسط : 30، 38، 40، 44، 46، 54، 99، 107، 114، 124، 125، 129، 133، 137، 138، 139، 140، 141، 142، 143، 144، 145، 146، 147، 153، 155، 158، 165، 168، 169، 173، 189، 190، 191، 192، 194، 199، 202، 204، 211، 220، 221، 222، 223، 232، 234، 239، 237، 340، 244، 246، 247، 249، 251، 253، 259، 264، 265، 267، 268، 271، 272، 273، 279، 283، 287، 289، 291، 292، 295، 297، 302، 303، 304، 313، 315، 317، 319، 335، 338، 340، 341، 342، 343، 344، 345، 349، 364، 367، 370، 375، 376.
- البحرية (واحة) : 173، 228، 229، 303، 304.
- برقّة : 61، 229.
- بلاد ما بين النهرين : 40، 66، 100، 118، 120، 129، 130، 131، 134، 143، 149، 161، 234، 236، 265، 362، 370، 375، 377.
- بوباسطيس : 270، 274، 298.
- بونت : 19، 21، 27، 28، 29، 30، 31، 32، 35، 38، 39، 55، 57، 90، 91، 94، 113، 128، 137، 138، 139، 146، 156، 157، 158، 159، 160، 161، 162، 163، 164، 165، 166، 167، 168، 172، 176، 181، 182، 183، 185، 201، 202، 203، 205، 206، 207، 209، 210، 211، 212، 213، 214، 215، 216، 218، 220، 226، 228، 263، 266، 269، 283، 286، 287، 289، 296، 300، 308، 313، 333، 337، 340، 343، 344، 345، 349، 365، 370، 372.
- بوهن : 43، 106، 175، 179، 185، 261، 321، 326.
- بيتوم : 107، 271، 274.
- بيروت : 216، 220.
- بيرينيس : 227، 293، 300.
- بيزيريس : 107، 290.

ت -

- تانيس : 37، 125، 243، 290، 367.

آ -

- آلسيا : 246، 249.
- إلفنتين (أسوان) : 27، 28، 49، 54، 63، 66، 69، 81، 103، 124، 123، 106، 125، 126، 173، 176، 177، 181، 178، 182، 183، 201، 186، 202، 208، 253، 260، 275، 267، 278، 308، 357.
- أهناسيا : 17، 35.
- أوغاريت : 42، 43، 46، 49، 130، 143، 144، 145، 151، 216، 220، 221، 281، 363.
- إيام (يام) : 172، 176، 177، 303.
- إيرتيت : 172، 177، 325.

ب -

- بابل : 81، 116، 105، 122، 152، 221، 222، 223، 236، 237، 238، 243، 256، 351.
- البحر الأحمر : 38، 50، 51، 52، 53، 54، 99، 100، 101، 107، 111، 112، 137، 138، 146، 155، 156، 157، 158، 159، 160، 161، 162، 163، 165، 166، 167، 168، 169، 178، 181، 182، 187، 188، 189، 191، 195، 197، 201، 202، 203، 204، 205، 206، 207، 210، 211، 214، 215، 216، 221، 222، 223، 239، 245، 249، 254، 255، 258، 263، 269، 270، 271، 272، 273، 274، 275، 277، 283، 286، 287، 289، 291، 292، 293، 294، 295، 296، 299.

- تل العمارنة : 25، 26، 39، 41، 84، 92، 122، 217، 220، 249، 282، 336، 340، 378.
- تود (ساو) : 30، 144، 149، 160، 293.

ج -

- جبل طارق : 189، 193.
- جبيل : 18، 25، 28، 34، 37، 41، 42، 43، 46، 47، 77، 86، 100، 129، 138، 139، 140، 141، 142، 143، 144، 145، 147، 148، 151، 200، 202، 203، 206، 209، 213، 214، 215، 216، 217، 220، 240، 244، 248، 263، 264، 265، 278، 279، 281، 291، 298، 334، 335، 337، 338، 370، 379.
- الجزيرة العربية : 156، 161، 254، 255، 256، 257، 258، 293، 333، 350، 355، 370، 371، 372، 379.

ح -

- حضرموت : 90، 258.
- خ -
- الخارجة (واحة) : 214، 228، 230، 231، 303، 304، 306، 308، 324.

د -

- الداخلة (واحة) : 214، 304، 303، 230، 228، 308.
- دارفور : 173، 177، 303، 306، 307.
- درب الأربعين : 176، 179، 303، 306، 308.
- دفنة (دفناني) : 251، 253، 329.
- دلتا : 17، 22، 37، 49، 56، 61، 64، 69، 72، 73، 74، 75، 87، 92، 95، 100، 107، 118، 124، 125، 128، 135، 143، 150، 180، 223، 231، 235، 242، 244، 250، 251، 252، 253، 256، 258، 269، 272، 273، 274، 275، 278، 287، 289، 291، 292، 293، 298، 299، 303، 321، 325، 326، 328، 329، 330، 336.
- دنقلة : 172، 177، 179، 178، 307، 326.
- دهشور : 355، 357.
- الدير البحري : 15، 18، 21، 28، 55، 113، 146، 156، 166، 209، 211، 213.

ر -

- رودس : 120، 220، 280، 338.

س -

- سايس : 107، 251، 290.
- سليمة (واحة) : 303، 306، 308.
- سمنة : 31، 30، 178، 179، 184، 225، 328.

249، 264، 265، 278، 279، 281، 282، 283، 289، 337، 339، 347، 351، 349، 374، 375، 376.

- كوش : 106، 156، 180، 181، 210، 226، 261، 302، 308، 373.

- كنوسوس : 45، 248، 375.

- ل -

- لبنان : 13، 33، 37، 86، 277، 213، 148، 89، 88، 279، 346.

- ليبيا : 47، 102، 193، 200، 214، 232، 251، 265، 267، 304، 328، 336.

- م -

- مجيدو : 203، 221، 234، 238، 297، 378.

- مروي : 107، 172، 173، 226، 269، 307، 308، 373.

- مسينا : 246، 347، 374.

- منف (ممقيس) : 19، 50، 63، 80، 200، 201، 241، 242، 243، 253، 270، 275، 283، 289، 328.

- ميتاني : 41، 81، 217، 219، 238، 365.

- ميسارا : 45، 282، 338.

- ميليتيس : 107، 290.

- ميناء جواسيس : 157، 205، 294، 299.

- ن -

- نقرطيس : 122، 123، 124، 243، 252، 253، 260، 329.

- نهر عطبرة : 85، 187، 210، 269.

- النوبة : 30، 99، 101، 106، 110، 122، 126، 128، 138، 156، 169، 171، 174، 175، 178، 179، 180، 181، 182، 183، 184، 185، 202، 206، 210، 212، 215، 218، 219، 221، 222، 229، 261، 263، 265، 266، 267، 275، 306، 307، 311، 319، 327، 322، 320، 349، 350، 370، 373، 374.

- النيل : 15، 23، 25، 27، 29، 33، 34، 41، 44، 47، 49، 50، 51، 53، 55، 56، 60، 61، 63، 64، 65، 66، 67، 68، 69، 70، 71، 72، 75، 88، 97، 99، 101، 107، 108، 111، 124، 127، 134، 156، 158، 172، 173، 187، 194، 200، 206، 210، 212، 224، 228، 229، 230، 231، 233، 235، 238، 250، 251، 253، 255، 264، 265، 266، 267، 268، 269، 271، 272، 273، 274، 275، 279، 281، 285، 290، 292، 293، 296، 299، 300، 303، 304، 306، 307، 308، 313، 323، 327، 328، 331، 338، 370، 342، 350.

- ه -

- هيراكليوبوليس : 39، 100، 106، 231.

- هيلوبوليس : 95، 289.

- و -

- وادي جواسيس : 30، 39، 162، 161، 203، 206، 207، 208، 216، 343.

- وادي حلفا : 124، 44، 30، 171، 179، 182، 261، 318، 322.

- وادي حمامات : 25، 26، 28، 29، 100، 107، 182، 160، 206، 207، 255، 273، 286، 287، 300، 328، 331.

- وادي طوميلات : 20، 271، 273، 297، 299، 325.

- وادي علاقي : 91، 173، 309، 332.

- وادي النظرون : 35، 228، 231، 302، 304.

- واوات : 91، 110، 156، 171، 172، 173، 177، 178، 179، 181، 307، 322، 326.

- ي -

- اليمن : 254، 256، 257، 371، 372.

- اليونان : 57، 117، 289، 347، 350، 376.

- السودان : 25، 31، 70، 89، 90، 125، 172، 173، 176، 180، 178، 181، 185، 201، 210، 215، 257، 263، 293، 303، 305، 307، 322، 350، 359، 372.

- سوريا : 37، 46، 54، 99، 110، 122، 128، 145، 150، 151، 218، 221، 226، 234، 236، 237، 238، 245، 254، 260، 264، 265، 270، 278، 292، 296، 320، 331، 358، 360.

- سيكلاد : 246، 280، 375.

- سيناء : 99، 108، 139، 158، 205، 208، 214، 233، 235، 239، 279، 285، 296، 297، 318، 319، 323، 324، 342، 363، 367، 370، 371، 378، 379.

- سيوة (واحة) : 200، 228، 301، 303.

- ص -

- الصحراء (صحاري) : 15، 16، 21، 46، 55، 56، 65، 66، 67، 70، 71، 79، 81، 82، 91، 93، 99، 107، 159، 160، 164، 165، 177، 178، 202، 203، 206، 207، 208، 210، 216، 223، 224، 229، 230، 231، 232، 254، 267، 275، 285، 286، 293، 297، 298، 299، 302، 304، 306، 307، 308، 309، 318، 319، 320، 325، 329، 330، 342، 331.

- صور : 20، 115، 139، 145، 154، 190، 242، 292، 368.

- الصومال : 52، 163، 191، 197، 259، 308، 346.

- صيدا : 20، 46، 152، 243، 240، 290، 344، 368، 369.

- ط -

- طروادة : 271، 374.

- طيبة : 14، 15، 19، 20، 21، 22، 23، 24، 27، 33، 35، 37، 39، 50، 71، 83، 84، 96، 103، 106، 107، 110، 123، 134، 163، 164، 180، 181، 204، 209، 212، 213، 227، 230، 231، 240، 241، 244، 247، 253، 261، 267، 286، 287، 289، 304، 349، 365، 373، 374، 375.

- ف -

- فاروس : 290، 291، 292.

- فليستوس : 44، 247.

- الفرافرة (واحة) : 228، 229، 303، 306.

- فلسطين : 13، 19، 24، 26، 31، 36، 41، 43، 46، 53، 54، 68، 69، 74، 77، 78، 82، 87، 89، 95، 96، 98، 99، 101، 102، 108، 110، 117، 124، 202، 203، 218، 221، 233، 235، 236، 237، 238، 239، 245، 247، 251، 253، 260، 276، 262، 279، 281، 296، 297، 302، 319، 320، 323، 326، 335، 350، 360، 362، 366، 367، 376، 378، 379.

- فينيقيا : 19، 86، 90، 139، 153، 238، 240، 277، 359.

- ق -

- قبرص : 40، 41، 46، 61، 78، 90، 92، 121، 122، 125، 143، 150، 152، 218، 220، 221، 222، 223، 238، 239، 244، 246، 248، 249، 265، 278، 279، 281، 282، 290، 334، 335، 351، 376.

- قرطاج : 199، 290، 304.

- القصير : 82، 161، 166، 206، 263، 293، 340.

- قطننة : 214، 298.

- قفط : 107، 155، 160، 161، 165، 201، 206، 207، 216، 227، 264، 285، 286، 293، 300، 307، 328.

- ك -

- كاسالا : 269، 308.

- كرما : 39، 71، 106، 178، 179، 181، 226، 261، 303، 308.

- الكرنك : 32، 33.

- كريت : 13، 14، 15، 24، 25، 42، 44، 45، 46، 87، 105، 117، 138، 151، 153، 181، 208، 221، 239، 246، 247.

- أ -
- أبو الهول : 43، 215، 220، 309.
- أستارتي : 360، 361.
- أفروديت : 242، 368.
- أمون : 27، 33، 37، 90، 110، 129، 133، 134، 152، 157، 164، 165، 183، 200، 211، 212، 215، 216، 218، 242، 302، 304، 332، 352، 372، 373.
- أوزيريس : 34، 128، 279، 360.
- إيزيس : 34، 76، 373.
- ب -
- باس : 360.
- بتاح : 361.
- بعل : 220، 361.
- بعلات : 216، 360.
- ت -
- تحوت : 303.
- توت (توت) : 165، 215، 367.
- ح -
- حتحور : 82، 214، 216، 360، 367.
- حورس : 214، 216، 298، 328، 330، 369.
- حورون : 361.
- د -
- ديدون : 359، 360.
- ر -
- رشف : 361.
- س -
- ست : 34، 214، 279.
- ع -
- عشتار (عشتاروت) : 243، 360، 361، 368.
- عنات : 360.
- م -
- ملقارت : 242.
- مين : 216.

محتويات البحث

كلمة شكر

مقدمة:

10-1	
59-11	مدخل : مصادر الدراسة
11	المبحث الأول : الآثار المصرية.
11	المطلب الأول : الآثار المادية.
12	أ - محتويات المقابر.....
15	ب- رسوم على بعض الأدوات والأواني.....
17	ج- رسوم على جدران المعابد والمقابر.....
23	د- لقي أثرية.....
25	هـ - الخرائط.....
25	المطلب الثاني: النصوص الأدبية.
26	أ - النقوش على جدران المعابد والقبور.....
28	ب - النقوش على النصب التذكارية وواجهات الصخور.....
31	ج - حوليات الملوك.....
33	د - الأدب القصصي.....
39	هـ - كتابات على أوراق البردي.....
39	و- رسائل " تل العمارنة ".....
41	المبحث الثاني : المكتشفات خارج مصر.
41	المطلب الأول : المخلفات المادية.
41	أ - مكتشفات مصرية في الساحل الفينيقي وفلسطين.....
43	ب - مكتشفات مصرية في بلاد النوبة.....
44	ج - مكتشفات مصرية في جزر بحر إيجا.....
46	المطلب الثاني: مخلفات أدبية.
47	المبحث الثالث : كتابات الإغريق والرومان.
47	المطلب الأول : هوميروس.
48	المطلب الثاني : هيرودوت.
49	المطلب الثالث : ديودور الصقلي.
50	المطلب الرابع : سترابون.
51	المطلب الخامس : بلين.
52	المطلب السادس : كتاب الطواف حول البحر الإريثري.
53	المطلب السابع : بومبونيوس ميلا.
53	المبحث الرابع : الكتب المقدسة.
53	المطلب الأول : القرآن الكريم.
54	المطلب الثاني : التوراة.
55	المبحث الخامس : ملاحظات حول مصادر الدراسة.
97-60	الفصل الأول : عوامل قيام الصلات التجارية بين مصر ومحيطها الخارجي
60	المبحث الأول : موقع مصر ودوره في تسهيل الصلات التجارية.
61	المطلب الأول : أقسام مصر الجغرافية.
61	أ - وادي النيل.....
64	ب- الصحارى المصرية.....
66	المطلب الثاني : مصر بين العزلة والانفتاح.
70	المبحث الثاني: وفرة الإنتاج الزراعي و دوره التجاري.

70	المطلب الأول : خصوبة أرض مصر.....
72	المطلب الثاني : منتوجات زراعية متنوعة.....
74	المطلب الثالث : حاجة الشعوب المجاورة لمنتجات مصر الزراعية.....
75	المبحث الثالث: دور المنتجات الصناعية في المبادلات التجارية.....
75	المطلب الأول : الصناعات النباتية.....
75	أ - صناعة البردي.....
78	ب- الصناعات النسيجية.....
78	المطلب الثاني: أهم الصناعات المعدنية التي لعبت دورا تجاريا.....
81	المطلب الثالث : صناعات أخرى.....
81	أ - الأحجار الكريمة.....
83	ب - صناعة الزجاج.....
85	المبحث الرابع : حاجة مصر إلى المنتجات الأجنبية.....
85	المطلب الأول : الأخشاب.....
88	المطلب الثاني : البخور والطيوب.....
90	المطلب الثالث : المعادن.....
94	المطلب الرابع : الأحجار الكريمة.....
95	المطلب الخامس : أشياء أخرى.....
136-98	الفصل الثاني : الحركة التجارية داخل مصر.....
99	المبحث الأول : تجارة مصر في عصر ما قبل الأسرات.....
102	المبحث الثاني : الأسواق والحركة التجارية.....
102	المطلب الأول : الأسواق.....
104	المطلب الثاني: الحركة التجارية داخل الأسواق.....
105	المطلب الثالث : تحول مراكز تجارية إلى مدن.....
108	المطلب الرابع : أماكن تخزين السلع.....
111	المبحث الثالث : طبيعة المبادلات التجارية.....
111	المطلب الأول : المقايضة.....
113	المطلب الثاني : النقود.....
116	المطلب الثالث: الأوزان والمقاييس.....
119	المبحث الرابع : التنظيم التجاري.....
119	المطلب الأول : القوانين التجارية.....
123	المطلب الثاني : مراقبة الحركة التجارية.....
126	المبحث الخامس : الإحتكار التجاري.....
126	المطلب الأول : مكانة التاجر الإجتماعية.....
131	المطلب الثاني : إحتكار الملك للتجارة.....
187-137	الفصل الثالث : البعثات التجارية.....
138	المبحث الأول : البعثات التجارية في البحر المتوسط.....
138	المطلب الأول : التعريف بمدرجات الأخشاب.....
140	المطلب الثاني : البعثات التجارية خلال الدولة القديمة.....
143	المطلب الثالث : البعثات التجارية خلال الدولة الوسطى.....
145	المطلب الرابع : البعثات التجارية خلال الدولة الحديثة.....
148	المطلب الخامس : الواردات والصادرات.....
148	أ – الواردات.....
151	ب – الصادرات.....
155	المبحث الثاني : البعثات التجارية في البحر الأحمر.....
156	المطلب الأول : التعريف ببلاد "بونت".....
158	المطلب الثاني : البعثات التجارية خلال الدولة القديمة.....
160	المطلب الثالث : البعثات التجارية خلال الدولة الوسطى.....

163	المطلب الرابع : البعثات التجارية خلال الدولة الحديثة.....
166	المطلب الخامس : الواردات والصادرات.....
166	أ - الواردات.....
168	ب- الصادرات.....
171	المبحث الثالث : البعثات التجارية البرية – النهرية.....
171	المطلب الأول : أهمية بلاد النوبة
174	المطلب الثاني : البعثات التجارية خلال الدولة القديمة.....
178	المطلب الثالث : البعثات التجارية خلال الدولة الوسطى.....
180	المطلب الرابع : البعثات التجارية خلال الدولة الحديثة.....
182	المطلب الخامس: الواردات والصادرات.....
182	أ – الواردات.....
183	ب – الصادرات.....
223-188	الفصل الرابع : تنظيم البعثات التجارية
188	المبحث الأول : الطواف حول إفريقيا.....
188	المطلب الأول : "نخاو" يرسل بعثة حول إفريقيا.....
190	المطلب الثاني : خط سير البعثة.....
193	المطلب الثالث : الرأي القائل بعدم حدوث الطواف حول القارة الإفريقية.....
195	المطلب الرابع : الرأي القائل بصحة حدوث الطواف حول القارة الإفريقية.....
199	المطلب الخامس : صدق الطواف حول القارة الإفريقية.....
200	المبحث الثاني : سير البعثات التجارية.....
201	المطلب الأول : الإشراف على البعثات.....
205	المطلب الثاني : طاقم البعثات.....
209	المطلب الثالث : تحضير البعثات وإنطلاقها.....
211	المطلب الرابع : إستقبال البعثات عند الوصول وعند العودة.....
213	المبحث الثالث : دور الدين والدبلوماسية في البعثات التجارية.....
214	المطلب الأول : المعبودات.....
215	المطلب الثاني : الطقوس الدينية المرافقة للبعثات التجارية.....
217	المطلب الثالث : دور الدبلوماسية في تسهيل المعاملات التجارية.....
264-224	الفصل الخامس : دور الوسطاء في تجارة مصر الفرعونية
224	المبحث الأول : النوبيون و البونتيون.....
228	المبحث الثاني: الليبيون.....
228	المطلب الأول : أهمية الواحات الغربية للمصريين.....
230	المطلب الثاني : علاقة الليبيين التجارية بمصر.....
233	المبحث الثالث : شعوب جنوب فلسطين.....
233	المطلب الأول : شعوب جنوب فلسطين من خلال النصوص المصرية.....
234	المطلب الثاني : العلاقة التجارية بين مصر و جنوب فلسطين.....
239	المبحث الرابع : الفينيقيون.....
241	المطلب الأول : الجالية التجارية الفينيقية في مصر.....
243	المطلب الثاني : وساطة الفينيقيين في تجارة مصر.....
245	المبحث الخامس : شعوب بحر إيجا.....
246	المطلب الأول : التعريف بشعوب بحر إيجا.....
247	المطلب الثاني : الكريتيون كوسطاء.....
250	المطلب الثالث : الوسطاء الإغريق.....
253	المبحث السادس: العرب.....
254	المطلب الأول : التسمية وأهمية الموقع الجغرافي.....
257	المطلب الثاني : العرب وسطاء في تجارة مصر.....
260	المبحث السابع : المصريون كوسطاء تجاريين.....

310-265	الفصل السادس : الطرق التجارية
265	المبحث الأول : الطرق النهرية.....
265	المطلب الأول : نهر النيل.....
267	المطلب الثاني : فروع النيل.....
269	المبحث الثاني : القنوات.....
269	المطلب الأول : قناة النيل - البحر الأحمر.....
275	المطلب الثاني: قنوات الشلال الأول.....
278	المبحث الثالث : الطرق البحرية.....
278	المطلب الأول : طرق البحر المتوسط.....
278	أ - الطريق بين مصر و ساحل مدرجات الأخشاب.....
281	ب - الطريق بين مصر و بحر إيجا.....
283	المطلب الثاني: طرق البحر الأحمر.....
287	المبحث الرابع : الموانئ.....
289	المطلب الأول : موانئ نهر النيل.....
290	المطلب الثاني: موانئ البحر المتوسط.....
292	المطلب الثالث : موانئ البحر الأحمر.....
295	المبحث الخامس : الطرق البرية.....
295	المطلب الأول : الطرق الشمالية.....
298	المطلب الثاني : طرق الصحراء الشرقية.....
302	المطلب الثالث : طرق الصحراء الغربية.....
304	المطلب الرابع : الطرق الجنوبية.....
346-311	الفصل السابع : نظام حماية الطرق التجارية
311	المبحث الأول : وسائل النقل.....
311	المطلب الأول : وسيلة النقل البرية.....
312	المطلب الثاني : السفينة.....
317	المبحث الثاني : نظام حماية الطرق البرية.....
318	المطلب الأول : الحملات العسكرية.....
324	المطلب الثاني : الحصون والأسوار.....
327	المطلب الثالث : نقاط المراقبة.....
329	المطلب الرابع : حراسة القوافل التجارية.....
330	المطلب الخامس : تهيئة الطرق.....
332	المبحث الثالث: أخطار الملاحة التجارية و كيفية تفاديها.....
333	المطلب الأول : الأخطار الطبيعية.....
335	المطلب الثاني : القرصنة.....
337	المطلب الثالث: الاستفادة من الطبيعة في الرحلات التجارية البحرية.....
340	المطلب الرابع : المساحلة.....
342	المطلب الخامس : حماية البعثات التجارية البحرية.....
380-347	الفصل الثامن : دور التجارة في إيصال التأثيرات الحضارية
347	المبحث الأول : إرتباط التجارة بانتشار الحضارة.....
351	المبحث الثاني : دور التجارة في ثراء الحضارة المصرية.....
351	المطلب الأول : أثر الإزدهار التجاري في ثراء ملوك مصر.....
357	المطلب الثاني : أثر الإزدهار التجاري على العمارة، الصناعة والديانة.....
359	المبحث الثالث : تأثيرات خارجية في الحضارة المصرية.....
359	المطلب الأول : تأثيرات في المجال الديني.....
361	المطلب الثاني : تأثيرات خارجية في مجالات أخرى.....
366	المبحث الرابع : تأثيرات مصرية في مناطق الجوار الجغرافي.....
366	المطلب الأول : تأثيرات في جنوب فلسطين والساحل السوري.....

370	المطلب الثاني : تأثيرات في جنوب الجزيرة العربية وبلاد النوبة.....
374	المطلب الثالث : تأثيرات في شعوب بحر إيجا.....
377	المبحث الخامس : فضل التجارة في إنتشار الكتابة.....
385-381	خاتمة :
391-386	قائمة المصادر و المراجع
392	فهرس الخرائط
392	فهرس الجداول
395-393	فهرس الأعلام
398-396	فهرس الأماكن
398	فهرس الديانة
405-399	محتويات البحث